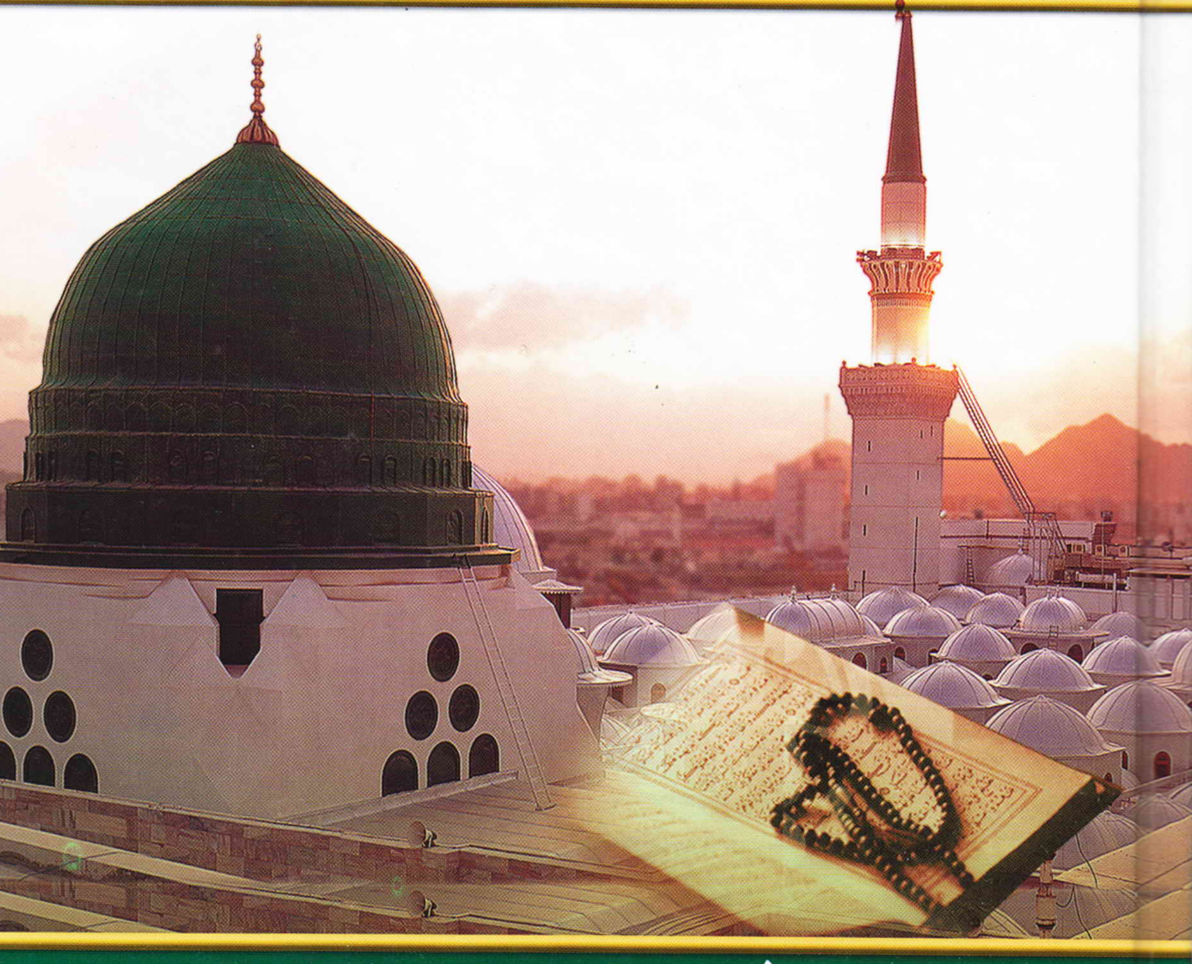
قصص الأنبياء



علي محمد علي دخيل

دار المرتضى




قصص الأنبياء
عليهم السلام



قصص الأنبياء

عليهم السلام

روائع من حياة الأنبياء عليهم السلام مليئة بالمواعظ والعبر

علي محمد علي دخيل

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى
طباعة ـ نشر ـ توزيع
لبنان ـ بيروت
ص. ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
هاتف: ٠١/٨٤٠٣٩٢
e-mail:mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
٢٠٠٢م ـ ١٤٢٢هـ



هذا الكتاب

روائع من حياة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مليئة بالمواعظ والعبر، اعتمدنا في تدوينها على كتاب الله جل جلاله، وحديث الرسول الأعظم ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام.

إنك تجد عشرات المصادر التي اشرنا اليها في أواخر الصفحات، كما اعتمدنا في تفسير الآيات على (مجمع البيان في تفسير القرآن) لأمين الاسلام الطبرسي نور الله ضريحه.

ويمكنك ان تضع هذا الكتاب في الرف الذي تضع فيه كتب الاخلاق، لما احتواه من ذكر أخلاق الانبياء عليهم السلام وسيرتهم وحياتهم، فينبغي لنا أن نأخذ منها الدروس النافعة التي تشدنا للالتزام بأوامر الله جل جلاله، والانتهاء عما نهى عنه، والاقتداء برسله صلوات الله عليهم، والله سبحانه الموفق والهادي للصواب.

المؤلف



النبي آدم عليه السلام

أحسن القصص

وصف الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بأنّه أَحسن القصص: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف/٣].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران/ ٦٢] فهو أحسن القصص لأنّه كلام الله تبارك وتعالى، وهو أحسن القصص لأنه قصّ علينا قصص أحسن الخلق وأشرفهم، وهم الأنبياء عليهم السلام، وهو أحسن القصص لأن قصصه هدّافة مليئة بالعبر والدروس، الكفيلة بتغيير واقعنا السيّء لو أخذناها للعمل والتطبيق.

وهو أحسن القصص لأنّها تتكرّر في القرآن الكريم المرّة تلو الأُخرى، ونكرّر قراءتها كلّ يوم ومع ذلك نجد لها حلاوة وعذوبة لا توجد في غيرها أبداً؛ ونسأل الله جلّ جلالُهُ أن يهدينا بها للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء/ ٩] وأن يوفّقنا لأن نستلهم منها المواعظ التي تؤدّي بنا إلى طريق الجنة إن شاء الله.

قصص القرآن الكريم وأهدافها

القرآن الكريم هو معجزة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الخالدة، والكتاب الذي تحدّى به الدنيا بأسرها: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء/٨٨].

وهو الدستور الذي أراده الله للبشريّة جمعاء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل/٨٩].

وهو مع هذا كلّه مليء بقصص مرّ عليها آلاف السنين.

إنّ الغاية من ذكرها أن يأخذها المسلمون للإعتبار، فالسّعيد من اعتبر بغيره فنجا، فهو حينما يذكر لنا ما نزل بالأمم السالفة من عذاب الدنيا، وانّ مصيرهم في الآخرة إلى النار، يريدُ منّا أن نتجنّبَ أعمالهم، فنسعد، ونتمتع بالحياة الدنيا، ثم نسعد السّعادة الأبدية في الآخرة.

وأنتَ ـ حفظك الله ـ حينما تقرأ قصّة من هذه القصص التي بين يديك حاول أن لا تخرج منها إلاّ ومعك ما تنتفع به.

وكان الله في عون العبد ما دام العبد سالكاً الطريق الذي رسمه له القرآن الكريم، والرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

عصمة الأنبياء عليهم السلام

إنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون، أي منزّهون، لا تصدر منهم معصية عمداً ولا سهواً، وهناك أدلّة كثيرة على عصمتهم:

١ ـ فلو لم يكونوا معصومين لجاز أن تصدر منهم الذنوب والخطايا، فيترتّب عليهم بذلك الحدود التي شرَّعها الله تعالى لمرتكبي الجرائم، ويكون واجب الأمة آنذاك إقامة الحدّ عليهم، وفي ذلك ما فيه من النقص لمقامهم السّامي.

٢ ـ وصدور الذنوب من قِبَلِهم وإن لم يستوجب الحدَّ الشرعيَّ، فإن ذلك يكفي في التنفير والإعراض عنهم، وعدم الاستجابة لأوامرهم ونواهيهم، وبذلك يبطل الغرض الذي من أجله بُعثوا.

٣ ـ ولو لم نقل بعصمتهم جاز عليهم الكذب، فيكونوا غير مؤتمنين على الوحي والرسالة؛ يحتجُّ النّاس يوم القيامة في عدم الأَخذ عنهم لأنّهم يُحتمل أن

يكونوا قد كذبوا في دعواهم عن الله تعالى، والحال ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩].

٤ ـ الآيات التي يشم منها معصيتهم هي مُؤّلة، فقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه/١٢١] وهذه كانت في الجنة قبل أن يبعثه الله تعالى.

يقول الإمام الرضا عليه السلام لعلي بن الجهم: يا علي اتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تتأول كتاب الله برأيك فإن الله عز وجلّ قد قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران/٧] وأمّا قوله عزّ وجلّ في آدم عليه السلام ﴿وعصى آدم ربّه فغوى﴾ فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم حجّة في أرضه، وخليفة في بلاده، ولم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم عليه السلام في الجنة لا في الأرض، وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله، فلما اهبط إلى الأرض وجعل حجّة وخليفة عُصم بقوله عزّ وجلّ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران/٣٣] [١].

المعجزة

المعجزة: هي الإتيان بشيءٍ يعجزُ عنه البشر، يجريها سبحانه وتعالى على أيدي الأنبياء والأئمة عليهم السلام، تطميناً لقلوب المؤمنين، وتمييزاً لدعوة السماء عن دعاوى الكذّابين، لأنه يستحيل عليهم أن يأتوا بمثلها.

وعن أبي بصير، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: لأيّ علةٍ أعطى الله عزّ وجلّ أنبياءه ورسُلَه وأعطاكم المعجزة؟

فقال: لتكون دليلاً على صدق من أتى بها. والمعجزة علامة لله لا يعطيها إلاّ أنبياءه ورسله وحججه، ليعرف بها صدق الصادق من كذب الكاذب»[٢].

وهي لا تكون على شكل معيّن لجميع الأنبياء، لأنَّ اختلاف العصور والمجتمعات يستوجب أن تكون المعجزة ملائمة للمجتمع الذي بعث إليه النبي.

(١) عيون أخبار الرضا(ع)، ١/ ١٩٤.

(٢) علل الشرائع، ١٢٢.

سأل ابنُ السّكيت ـ العالم اللغويّ المعروف ـ الإمام الرضا عليه السلام : لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء وبآية السحر، وبعث عيسى بآية الطب، وبعث محمّداً صلّى الله عليه وآله بالكلام والخطب؟

فقال عليه السلام : «إنّ الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السّحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقتٍ ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطبِّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت الحجّة عليهم، وإنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقتٍ كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم».

فسأله: فما الحجّة على الخلق اليوم؟

فقال عليه السلام : «العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله فيكذّبه».

قال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب[1].

خلق حوّاء

تردد الألسن أشياءَ ما أنزل الله تعالى بها من سلطانٍ، ويمكن أن تكون قد تسرّبت لبعض الكتب أيضاً من الملاحدة أو من الإسرائيليات التي دسّت في بعض كتب الحديث والتأريخ.

ومن هذه الطّامات: انّ الله سبحانه وتعالى خلق حواء من ضلع آدم الأيسر.

قال زرارة: سُئل أبو عبدالله عليه السلام عن خلق حوّاء وقيل له: إنّ أناساً عندنا يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ خلق حوّاء من ضلع آدم الأيسر الأقصر.

(١) الاحتجاج: ٢/ ٢٢٥.

قال: «سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، أيقولُ من يقولُ هذا إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه، وجعل لمتكلّمٍ من أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام، يقول: إنّ آدم كان ينكح بعضه بعضاً إذا كانت من ضلعه، ما لهؤلاء، حكم الله بيننا وبينهم، ثمّ قال: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق آدم من الطّين، وأمر الملائكة فسجدوا له، ألقى عليه السُّبات، ثمّ ابتدع له خلقاً ثمّ جعلها في موضع النقرة التي بين وركيه، وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل، فأَقبلت تتحرّك فانتبه لتحرّكها، فلما انتبه نُودِيَتْ: أن تنحّي عنه، فلمّا نظر إليها نظر إلى خَلق حسنٍ، تشبه صورته غير أنّها أُنثى، فكلمها فكلمته بلغته، فقال لها: من أنت؟

فقالت: خلق خلقني الله كما ترى.

فقال آدم عند ذلك: يا ربِّ من هذا الخلق الحسن الذي قد آنسني قربه والنظر إليه؟

فقال الله: هذه أمتي حوّاء، أفتحبُّ أن تكون معك، فتؤنسك وتحدّثُك وتأتمر لأمرك؟

قال: نعم، يا ربّ ولك بذلك الحمد والشكر ما بقيت.

فقال الله تبارك وتعالى: فاخطبها إليّ فإنّها أمتي، وقد تصلح أيضاً للشهوة، وألقى الله عليه الشهوة وقد علّمه قبل ذلك المعرفة.

فقال: يا رب فإنّي أخطبها إليك فما رضاك لذلك؟

فقال: رضائي أن تعلّمها معالم ديني.

فقال: ذلك لك يا ربّ إن شئت ذلك.

قال: قد شئت ذلك وقد زوجتكها، فضمّها إليك»[١].

---

(١) علل الشرائع: ١٨.

فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه

وصف ربنا جلّ جلاله نفسه باللطيف، والرّحيم، والغفور، والودود، والرؤوف، والكريم، والحنّان، إلى غير ذلك من الأسماء التي تدلُّ على كرمه وعطفه.

ومن كرمه وعطفه أن علّم عباده الدُّعاء، ووعدهم عليه الإجابة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة/١٨٦].

وأكثر من هذا فقد لقّن عباده الإجابة عمّا يسألهم به، قال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار/٦].

قال أمين الإسلام الطبرسي عليه الرحمة: «وإنّما قال سبحانه الكريم دون سائر أسمائه وصفاته لأنّه كأنّه لقّنه الإجابة حتى يقول: غرّني كرم الكريم»(١).

ومن هذا الباب علّم آدم عليه السلام أن يسأله بكلماتٍ، فيتوب عليه: ﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة/٣٧].

قال ابن عباس: «سألت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه»:

قال: «سأله بحقِّ محمّدٍ، وعليٍّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، إلاّ تبت عليّ. فتاب الله عليه»(٢).

وهذه الكلمات جعلها الله سبحانه وتعالى السبب الأكبر لنجاة المسلمين من أهوال الدنيا والآخرة، فهو يجيب كلّ من تقدّم إليه متوسّلاً ومستشفعاً بهؤلاء الخمسة عليهم السلام.

(١) مجمع البيان، ٩ ـ ١٠/٤٤٩.

(٢) معاني الأخبار: ١٢٥؛ وأكثر المفسرين وأهل الحديث على هذا.

بدء النسل

مرّ عليك في فصل «خلق حواء» ما تردّده الألسن من الإفتراء على نبيِّ الله عليه السلام، والمصيبة في هذا الفصل أعظم بكثير لهؤلاء السذّج ومن ورائهم المدسوس في بعض الكتب، يقولون: «إنّ آدم عليه السلام كان يزوّج بناته من أولاده، تلد حوّاء في كلّ مرّةٍ ولداً وبنتاً، فكان يزوّج بعضهم من بعض». وهذا اللون من الكلام يقشعرُّ منه البدن، وهو تطاول على نبيِّ الله صلوات الله عليه، بل هو تطاولٌ على الشرائع ونظام السّماء، فيستحيل أن يشرّع سبحانه وتعالى هذا النكاح في زمنٍ من الأزمان. فالشرائع كلها متّحدةٌ في الخطوط العامّة، في الواجبات، والمحرّمات، ألا تسمع القرآن الكريم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ **[البقرة/١٨٣]** ويذهب الكثير من العلماء إلى أن شهر رمضان هو الشهر الذي فرض الله صيامه على الأمم، ولأنه يأتي أحياناً في أشهر الصيف فأبدله رجال الضلال بأيام أخرى في مواسم البرد.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيءٍ سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيءٍ رضيه عمّن كان قبلكم»[(١)].

بل أكثر من ذلك انها شريعة واحدة منذ آدم وحتى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا القرآن الكريم يصرّح ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ **[آل عمران/١٩]** ويقول: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ **[الشورى/١٣]** ويقول عز من قائل: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ **[آل عمران/٨٥]**.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ **[البقرة/١٣٣]**.

---

(١) نهج البلاغة: ٢٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة/١٢٧ ـ ١٢٨].

فهذه دعوى كاذبة على آدم عليه السلام، وجاءت الرواية عن الصادقين عليهما السلام عن زواج أبناء آدم عليه السلام.

سُئل أبو عبدالله عليه السلام عن بدء النسل من آدم كيف كان، وعن بدء النسل من ذرية آدم، فإن أناساً عندنا يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى آدم أن يزوّج بناته ببنيه، وإنّ هذا الخلق كلّه أصله من الأخوة والأخوات؟

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، من قال هذا بأنّ الله عزّ وجلّ خلق صفوة خلقه، وأحبائه، ورسله، والمؤمنين، والمؤمنات، والمسلمين، والمسلمات، من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلالٍ، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطّهر، الطّاهر، الطيّب، فوالله لقد تبيّنت أنّ بعض البهائم تنكّرت له أخته، فلما نزى عليها ونزل كشف له عنها، فلمّا علم أنّها أخته أخرج عزموله ثم قبض عليه بأسنانه حتى قطعه فخرّ ميّتاً، وآخر تنكّرت له أمّه ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان في أنسيته وفضله وعلمه، غير أنّ جيلاً من هذا الخلق الذي ترون رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم، وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه، فصاروا إلى ما قد ترون من الضّلال والجهل بالعلم، كيف كانت الأشياء الماضية من بدء أن خلق الله ما خلق وما هو كائن أبداً».

ثمّ قال: «ويح هؤلاء أين هم عمّا لم يختلف فيه فقهاء أهل الحجاز ولا فقهاء أهل العراق: انّ الله عزّ وجلّ أمر القلم، فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفي عام، وان كتب الله كلّها فيما جرى فيه القلم في كلّها تحريم الأخوات على الأخوة مع ما حرّم، وها نحن قد نرى منها هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم: التوراة، والإنجيل، والزّبور، والفرقان، أنزلها الله عن اللوح المحفوظ على رسله صلوات الله عليهم أجمعين، منها التوراة على موسى عليه السلام، والزّبور على داود عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، والقرآن على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى النبيين عليهم السلام، وليس فيها تحليل شيء من

ذلك، حقاً أقول: ما أراد من يقول هذا وشبهه إلاّ تقوية حجج المجوس، فما لهم قاتلهم الله».

ثمّ قال عليه السلام بعد كلام: «فوهب الله له شيثاً وحده ليس معه ثانٍ، واسم شيث (هبة الله) وهو أوّلُ من أُوصى إليه من الآدميين في الأرض، ثم ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثانٍ، فلما أدركا وأراد الله عزّ وجلّ أن يبلغ بالنسل ما ترون، وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عزّ وجلّ من الأخوات على الأخوة، أنزل بعد العصر، في يوم الخميس حوراء من الجنة اسمها (نزلة) فأمر الله عزّ وجلّ آدم أن يزوّجها من شيث، فزوّجها منه، ثمّ أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة اسمها (منزلة) فأمر الله تعالى آدم أن يزوّجها من يافث، فزوّجها منه، فولد لشيث غلام، وولدت ليافث جارية، فأمر الله عزّ وجلّ آدم حين أدركا أن يزوّج بنت يافث من ابن شيث ففعل، فولد الصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من الأخوة والأخوات»[1].

في العرض القرآني المجيد

ذكر الله جلّ جلاله نبيّه آدم عليه السلام في خمس وعشرين آية من القرآن الكريم، وجاء الحديث عنه مفصّلاً في عدة سور، نذكر من ذلك:

(١)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

يشتبه الذين يجادلون ويغالطون بأنّ الخلافة منوطةٌ بالأُمة، وأنها هي التي تنتخب الخليفة وترشّحه، وكأنّهم ينظرون إلى ذلك من الزاوية التي ينظرون بها إلى ما يجري اليوم في العالم من انتخاب الرؤساء، بينما القرآن الكريم يسمّي أبا البشر والنبي الأوّل بـ «الخليفة»، فآدم عليه السلام هو خليفة الله في أرضه، يحكم فيها

(١) علل الشرائع: ٢٠.

بحكمه، كذلك يسمّي نبيّه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وقد مكّنه من إقامة معالم العدل في البلاد ـ بـ «الخليفة»: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ص/٢٦].

وانتبه إلى كلمة ﴿**جعلناك**﴾ ليتضح لك أنّ أمر الخلافة منوط بالسّماء، وان المشكلة الكبرى التي تواجه الكثير من الباحثين هو تصحيح عمل السّلف، فهو يجد طريق الحقّ بيّناً ولكنّه يجد أنّ بعض السّلف قد تنكّبه، فيرجع القهقرى، بينما الحقّ أحقّ أن يُتّبع وأولى من اتّباع السّلف، وكم من سلف صالح استنزله الشيطان فهوىٰ إلى الحضيض، بل إنّ الشيطان عبد الله سبحانه ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم الآخرة، ثم آل أمره إلى ما آل، وإنَّ قارون بنصِّ القرآن المجيد ﴿**كان من قوم موسى فبغى عليهم**﴾.

(٢)

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [**البقرة/٣٨**].

وهذا مشهد الآلام والحسرات والأحزان، فقد أُخرجوا من جنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، وأُنزلوا إلى دار العناء، والأعظم من هذا وقع المخالفة على النفس، والشعور بالبعد عن ساحة الرحمة والقرب؛ وأنت لا تستطيع أن تعرف مدى التأثر الذي حصل لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلاّ بعد أن تعلم أنه لكثرة بكائه صار في خديه مجريان للدموع، ولكن التدارك والندم والتوسّل جعله يعود إلى أسمى درجات المقربين ﴿ ۞ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ**﴾ [**آل عمران/ ٣٣**] وهذا تعليم للبشر فهو معرّض لأن يكبو وتأخذه التيارات المعاكسة لتعاليم السماء، ولكن لا عذر له أبداً في الاستمرار في المنزلق، بل المطلوب منه الخروج سريعاً والدخول في باب التوبة الذي فتحه الله لجميع عباده، وربما يكون هذا الدخول وصولاً إلى أعلى عليين، ومجاورة الأنبياء والصديقين.

جاء في سيرة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: أنه مرّ ببعض شوارع بغداد وإذا بجارية ترمي فضلات مائدة عليها ملامح الخمرة، فسألها: لمن هذه الدار؟ فقالت: لمولاي بشر. فقال عليه السلام: مولاك حرّ أم عبد؟ فغضبت الجارية غضباً شديداً وقالت: بل هو حرّ. فقال عليه السلام: صدقت، لو كان عبداً لاتقى مولاه.

دخلت الجارية للبيت والتأثر باد على وجهها، فسألها بشر عن السبب فحكت له القصة، وفهم قصد الإمام عليه السلام، بل عرف أن هذا الشخص الذي كلمها هو الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، وسألها عن الطريق الذي سلكه فأخبرته، فراح يعدو حتى أدركه، وسلّم عليه، وتاب على يديه، ثم رجع إلى منزله وأخرج رفاق السوء، وطهّر الأواني، ثم أقبل على العبادة، والانقطاع إلى الله جل جلاله، وصار في عداد القديسين، وصار إذا لمس شيئاً ارتفعت قيمته عشرة أضعاف، لحسن اعتقاد الناس فيه، وأنهم يجدون شفاءً في طعام أو لباس مسّته يدا بشر، وفي التاريخ من هذا الشيء الكثير.

(٣)

١ ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه/ ١١٥].

وقصة آدم عليه السلام مليئة بالعبر والتعاليم، يأخذ منها المسلم زاداً مبلغاً للدنيا والآخرة.

ويقول ابن عباس في تفسير الآية الكريمة: أمرناه وأوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة ولا يأكل منها فترك الأمر.

ونستفيد من هذا أن المسلم ـ وإن علت مرتبته ـ فقد يصدر منه ما لا يليق به، والمفروض به أن يتوب ويرجع سريعاً، فقد يبلغ بعد ذلك إلى أسمى المراتب، وعليه أن لا يستسلم للشيطان يتلاعب به ويقنطه من رحمة الله جلّ جلاله، فمن خطط الشيطان أن يجرّ المسلم إلى المعصية، ثم يحاول أن يبعده عن باب التوبة، ويجعله آيساً من كل خير ومغفرة، فإذا بلغ به ذلك تلاعب به حسبما يشاء.

٢ ـ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم

والركوع والسجود لا يكون إلا لله وحده، وسجود الملائكة لآدم عليه السلام كان طاعة لله جلّ جلاله، وكذلك سجود يعقوب وأولاده ﴿**فخروا له سجّداً**﴾ إن السجود كان لله تعالى شكراً له كما يفعله الصالحون عند تجدد النعم، والهاء في قوله ﴿**له**﴾ عائدة إلى الله تعالى، أي سجدوا لله تعالى على هذه النعم، وتوجّهوا في السّجود إليه كما يقال: «صلّى للقبلة، ويراد به استقبالها».

٣ ـ إن هذا عدوّ لك ولزوجك

لقد حذّره جلّ جلاله منه وأعلمه بعداوته وكيده، كما حذّرنا نحن أولاده تمام الحذر ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ **[البقرة/١٦٨]**.

٤ ـ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى

لقد حذّره جلّ جلاله من أن يعمل ما يستحقّ به الخروج من الجنّة ليُبتلي بالسعي والعمل، والكد من أجل لقمة العيش التي ألزم بها فيما بعد؛ يقول سعيد بن جُبير: «أُنزل على آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويرشح العرق عن جبينه، وذلك هو الشقاء».

وتنبّه أعزكَ اللهُ ورعاكَ أن أباك آدم عليه السلام وإن عانى جهد العمل زمناً تجاوز تسعة قرون، ولكنه قد ضمن له مستقبلاً زاهراً ﴿**ثم اجتباه مرّة أخرى**﴾ ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**﴾ ولكن الحذر ثم الحذر أن تزل وتنحرف في هذه الدنيا فتلقى الشقاء الأبدي ﴿**كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها**﴾.

٥ ـ إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى

وهما أهم متطلبات الحياة، ومن أجلهما السعي والكد، وتحمّل المآثم، علماً أنّ الإنسان مع اهتمامه الكبير بهما قد لا يبلغ حاجته منهما، فالكثير من النّاس لا يحصل على الطعام الجيّد، واللباس الذي يطمح إليه، بينما هو بعض ما أعدّ الله جلّ جلاله لأوليائه، ولم يرض لهم بالأدنى، بل قال جلّ جلاله ﴿ **عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ**

خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان/ ٢١].

٦ ـ فوسوس إليه الشيطان

الوسوسة: حديث النفس. والوسواس: الشيطان. ومعنى الآية: ألقى إلى قلبه بصوت خفيٍّ؛ ويجب أن تعلم أن آدم عليه السلام ترك الأولى، وأنّ النهي كان نهي تنزيه لا نهي تحريم، وأنه كان مندوباً إلى ترك التناول من الشجرة، فهو من قبيل أن يقال لك: «لا تترك صلاة الليل، ففي تركها خسران الثواب دون العقاب».

لقد كان معه صلوات الله عليه بعض الحقّ في ذلك، لأن الخبيث أقسم لهما بالله العظيم أنه من النّاصحين، ولم يخطر بباله أنّ أحداً يقسم بالله كاذباً ﴿**وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**﴾ ومع هذا كلّه فقد لاقى ما لاقى من المحن والرزايا، لقد بكى حتى صار في خديه مثل الأنهار لمجرى الدموع، كما كلّف بالكسب والعمل الذي مرّ عليك بعضه، وأعظم من هذا بلاءً ما رآه من قتل أحد أبنائه للآخر، وما أدري على أيّهما هو أشدّ جزعاً على المظلوم القتيل أو الظالم القاتل! فإن أشد ما يكون على المصلحين أن يروا أقرب الناس إليهم بعيداً عن طريق الحقّ والصواب.

وأنت أعزّك الله ورعاك فاحذر كلّ الحذر هذا العدو العظيم ووساوسه، لأنك متى استجبت له خسرت الجنة ونعيمها، وما أعدّ الله سبحانه فيها لعباده المتقين.

٧ ـ فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما

لقد وقع المحذور، فعند تناول أوّل لقمة منها تهافت لباسهما عنهما، فابصر كل واحد منهما سوأة (عورة) صاحبه، فاستحيا ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾ أخذا يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما، ثمّ كان الخروج من الجنّة، ثمّ الهبوط إلى الأرض، كلُّ واحدٍ منهما في جانبٍ منها، زيادةً في المحنة والبلاء.

٨ ـ فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى

الهدى: الرشاد والدلالة والبيان، والمراد بالهدى من الآية الكريمة القرآن، ودين الإسلام.

ويقول ابن عباس: «ضمن الله تعالى لمن تبع القرآن لا يضل في الدنيا، ولا

يشقى في الآخرة» وقرأ الآية[1].

والمراد: أن سلوك الطريق الذي أمر الله جلّ جلاله بسلوكه فيه نجاة من مآسي الدنيا وصعوباتها، وبه يحصل على النعيم الجسيم في الآخرة.

٩ ـ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا

ومن أعرض عن القرآن، والدلائل التي أنزلها الله سبحانه لعباده، وصدف عنها، فإن له عيشاً ضيّقاً، وهو أن يقترّ عليه الرزق عقوبةً له على إعراضه، فإن وسّع عليه فإنه يضيّق عليه المعيشة بأن يمسكه ولا ينفقه على نفسه.

والمراد: أن الذين يخالفون الشريعة، والنهج الذي أمرهم الله سبحانه بإتباعه، يُعاقبون في الدنيا بالفقر وغيره من المآسي، مضافاً لما أعدّ لهم من عذاب، فإنهم يحشرون عمياناً زيادةً لهم في النكال والعقاب.

(٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر/٢٨].

اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يعمر الأرض بالخلائق، فخلق أولاً أباهم آدم عليه السلام بالصورة التي ذكرتها الآية الكريمة، وأُسجد له الملائكة تكرمةً له وإشعاراً بأنّ البشر إذا أطاع الله جلّ جلاله تكون منزلته أرفع من الملائكة، لأنّ الملائكة لهم عقل من دون شهوة، بينما البشر يحويهما معاً، وكذلك إذا عصى تسفل منزلته عن الحيوان، لأنّ الحيوان لا يملك عقلاً، بهذا جاءت الأحاديث.

والمهم في موضوع أبينا آدم عليه السلام، فهو من حين خلقه الله سبحانه ناصبه إبليس العداوة والبغضاء، فقد أبى أن يسجد له مع الملائكة خلافاً لما أمره به سبحانه وتعالى، والمشكلة العظمى أنه من ذلك الحين جعل شغله الشاغل التخطيط

(١) مجمع البحرين: ١/ ٤٧٢.

لإغواء ذريّة هذا النبيِّ الكريم.

نعود للآيات:

المراد بالبشر: هو آدم عليه السلام، وسُمّي بشراً لأنه ظاهر الجلد، لا يواريه شعر ولا صوف **﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾** الصلصال: الطين اليابس الذي لم يطبخ. والحمأ: الطين الأسود المتغيّر. والمسنون: المصوّر **﴿فإذا سوّيته﴾** بإتمام خلقته **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** النفخ: إجراء الريح في الشيء، ولمّا أجرى الله سبحانه الرّوح في آدم على هذه الصفة كان قد نفخ الروح فيه، وإنما أضاف روح آدم إلى نفسه تكرمةً له وتشريفاً **﴿فقعوا له ساجدين﴾** أُسجدوا له **﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾** فسجدوا كلهم في حالة واحدة **﴿إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾** امتنع، فلم يسجد معهم **﴿قال يا إبليس ما لك ألاّ تكون مع الساجدين﴾** لمَ لا تكون مع السّاجدين، فتسجد كما سجدوا **﴿قال لم أكن لأسجد﴾** ما كنت لأسجد **﴿لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾** لأني أشرف أصلاً منه، ولم يعلم أن التفاضل بالدِّين والأعمال لا بالأصل **﴿قال فاخرج منها﴾** من الجنّة **﴿فإنك رجيم﴾** مشؤوم، مطرود، ملعون، **﴿وإن عليك اللعنة﴾** وهي الإبعاد من رحمة الله **﴿إلى يوم الدين﴾** إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

ثم بيّن سبحانه ما سأله إبليس عند أَياسه من الآخرة، فقال عزّ اسمه: **﴿قال ربّ فأنظرني﴾** فأمهلني وأخّرني **﴿إلى يوم يبعثون﴾** يحشرون للجزاء **﴿قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم﴾** الذي قدّر الله أجله فيه، وهو معلوم لله سبحانه وغير معلوم لإبليس، فأبهم ولم يبيّن **﴿قال ربّ بما أغويتني﴾** بما خيّبتني من رحمتك **﴿لأزيننّ لهم في الأرض﴾** لأُزينَّن الباطل لهم **﴿ولأغوينّهم أجمعين﴾** لأضلنّهم جميعاً، ثم استثنى من جملتهم فقال **﴿إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾** وهم الذين أخلصوا عبادتهم لله، وامتنعوا عن عبادة الشيطان، وانتهوا عمّا نهاهُمُ الله عنه **﴿قال﴾** الله جلّ جلاله **﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾** إنه على وجه التهديد له، كما تقول لغيرك: افعل ما شئت وطريقك عليّ، أي لا تفوتني **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** هذا إخبار منه تعالى بأن عباده الذين يطيعونه وينتهون إلى أوامره لا سلطان للشيطان عليهم، ولا قدرة له على أن يكرههم على المعصية، ويحملهم

عليها، ولكن من يتبعه فإنما يتبعه باختياره.

ثمّ استثنى من جملة العباد من يتبع إبليس على إغوائه، وينقاد له، ويقبل منه، فقال: ﴿**إلاّ من اتبعك من الغاوين**﴾ لأنه إذا قبل منه صار له عليه سلطان، بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه إليه من اتباع الهوى ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين**﴾ موعد إبليس ومن تَبِعَهُ ﴿**لها سبعة أبواب**﴾ روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق، بعضها فوق بعض - ووضع إحدى يديه على الأخرى - فقال: هكذا، وإن الله وضع الجنان على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية» ﴿**لكل باب منهم**﴾ من الغاوين ﴿**جزء مقسوم**﴾ نصيبٌ مفروضٌ.

(٥)

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص/٧١].

وهذا عرضٌ طويلٌ لجانبٍ من قصة أبينا آدم عليه السلام، بدأ من قبل خلقه، وانتهى بسجود الملائكة له، ثم انتقل إلى إبليس لدوره الكبير في القصّة، والذي برز في تلك الساعة وسيبقى إلى يوم الوقت المعلوم.

بدأت الآيات:

١ - **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين**﴾ لقد أخبرهم جلّ جلاله بالأمر من قبل حدوثه، وطلب منهم أن يتهيأوا لأمرٍ جليلٍ، يتعلّق بهذا الحدث العظيم.

٢ - ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ فإذا سوّيت خلق هذا البشر، وتمّمت أعضاءه وصوّرته، وجعلت فيه الروح، فاسجدوا له أجمعين.

٣ - ﴿**فسجد الملائكة كلهم**﴾.

امتثل الملائكة جميعهم للأمر، لأن الامتثال من أعظم العبادات، وما دخل النار أحد إلاّ بسبب عدم امتثاله لما أُمر به من العبادات، وما دخل النار أحد إلاّ بسبب عدم امتثاله لما أُمر به من اجتناب المحرّمات؛ بل أنّ السجود كان لله جلّ جلاله، وآدم عليه السلام بمنزلة الكعبة التي تعبّد الله سبحانه خلقه بالتوجّه إليها، ألا تسمع ما يقوله الزائرون لأبي عبدالله الحسين عليه السلام: «اللهمّ إنّي صليت، وركعت، وسجدت لك وحدك، لأنّ الركوع والسجود لا يكون إلا لك»[١].

ووردت عدّة أسئلة من يحيى بن أكثم ـ قاضي القضاة في عصر المأمون العباسيّ ـ إلى الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام ـ الإمام العاشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ عن مسائل كثيرة جاء في أجوبتها: «إنّ السجود من الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن لآدم، وإنما كان ذلك طاعة لله، ومحبة منهم لآدم عليه السلام»[٢].

٤ ـ ﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾.

يبدأ دور إبليس، وهو وإن كان يعبد الله جلّ جلاله قبل هذا الوقت في السماء مع صفوف الملائكة، إلاّ أنه ليس منهم، فهو من بقايا أمّة كانت في الأرض من عصور قديمة، فكفرت وبغت، فقتلتها الملائكة وأسرت منهم إبليس وأصعدته معها إلى السماء، فكان يعبد الله سبحانه معهم مدة ستة آلاف سنة، إلا أنه عند هذا الأمر الإلهي أبى وعصى ورفض السجود.

٥ ـ ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد﴾.

هذا سؤال توبيخ وتعريف للملائكة أنه لا عذر له في الامتناع عن السجود، وقوله ﴿**لما خلقت بيدي**﴾ توليت خلقه بنفسي من غير واسطة ﴿**أستكبرت أم كنت من العالين**﴾ أرفعت نفسك فوق قدرك، وتعظّمت عن امتثال أمري، أم كنت من الذين تعلو أقدارهم عن السجود فتعاليت عنه...

٦ ـ ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

---

(١) مفتاح الجنّات.

(٢) تحف العقول: ١١٥.

بهذا اعتذر، أخذ المسألة من جهة القياس، وكانت النار ـ في رأيه ـ أفضل من الطّين، فلا ينبغي له السجود، ونسي أو تناسى أن ذلك امتثال، ولا يجوز لعبدٍ أن يخالف سيّده فيما يأمره به.

إنّ المسلمين الذين رفضوا القياس كمصدر من مصادر التشريع الإسلامي يقولون: إن دين الله جلّ جلاله لا يصاب بالرأي، بل يجب أن يؤخذ عن كتاب الله وسنة رسوله، وأن أوّل من قاس إبليس، ولم يستقم له القياس.

٧ ـ **﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾**.

رجيم: طريد مبعد.

لقد طرده الله جلّ جلاله في اللحظة نفسها من الجنّة، ولم تنفعه طول عبادته لمّا خالف، لهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام محذّراً من مخالفة أوامر الله سبحانه وعصيانه: «**فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يدرى أمن سنيِّ الدنيا أم سنيِّ الآخرة، عن كبر ساعة واحدة**»[1].

ولم يكتفِ سبحانه بطرده، بل قال: **﴿وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾** فأنت مطرود، ملعون، حتى توافي القيامة فتلقى في النار فتكون مصيرك النهائي.

٨ ـ **﴿قال ربي فانظرني إلى يوم يبعثون﴾**.

وبعد أن طرد من الجنة، ومرافقة الملائكة، قال: يا ربّ إنه لا يضيع عندك عمل عامل، فأين جزائي وثوابي على عبادتي؟

قال: فما الذي تريد؟

فسأل الإمهال إلى يوم القيامة.

٩ ـ **﴿قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم﴾**.

أجابه الله جلّ جلاله على سؤاله إلا أنّه لم يوضح له كلّ الوضوح، وهل تمتد

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤٢٠ (الخطبة القاصعة).

به الحياة إلى يوم القيامة كما سأل أو يعاجل قبلها في وقتٍ يعلمه الله جلّ جلاله.

١٠ ـ ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾.

وهذا الموضوع في غاية الأهمية، ويتعلّق بكل فرد من أفراد المجتمع، وينبغي أن يتنبّه له جيداً، ويأخذ تمام الحيطة والحذر، فهو بعد أن طرد، وحصل على ما أراد من طول البقاء، أقسم بقدرة الله جلّ جلاله التي يقهر بها العباد أن يسعى بكلٍّ جهده وقواه لإضلال الخلق؛ فمن تمكّن منهم جعله كافراً، وإن تعذّر عليه ذلك جعله فاسقاً، وهو يحاول السيطرة على الجميع، ولا ييأس من شخص، بل شباكه قد نصبها للخلق أجمعين، وحتى ورد أن جبرائيل عليه السلام رآه يحاول بعض المحاولة مع موسى عليه السلام، فقال له: ويلك هذا كليم الله!

قال: أنا لا أعرف كليم الله، وأنا الذي أخرجت أباه من الجنة.

وهو مع هذا القَسَم الذي أقسمه من أن يُضلّ الخلق أجمعين، لم يُعطَ من التسلطَ على ذلك، وإنما هو بمنزلة صديق السوء، فهو يبذل غاية جهده في أن يدعوك إلى مرافقته في المسارات المحرّمة، وأنت لو امتنعت منه لم يستطع إجبارك، ولا يتمكن من أن يقودك قسراً.

١١ ـ ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

لقد استثنى في قسمه عباد الله، وأنه لا سبيل له عليهم، ولا يتمكّن من إغوائهم في صغيرة، ولا كبيرة؛ اعتصموا بالله تعالى منه فعصمهم، ولبسوا ثياب التقى، فحجبتهم عنه، وتدرَّعوا بالورع عن محارم الله جلّ جلاله فرجع عنهم خاسئاً خائباً، فهم وإن بدر منهم ما ينافي رضا الله تعالى بادروا بالتوبة والاستغفار، فيغفر لهم الغفور، التوّاب، الرحيم.

١٢ ـ ﴿قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾.

فبعد أن توعّد عدو الله أن يسعى بجهده في إغواء الناس وإضلالهم مستثنياً منهم الصالحين، أجابه الله جلّ جلاله مؤكّداً له أنه سينال هو ومن أغواهم عقاباً صارماً، وجزاءً عسيراً، وناهيك بعقاب يكون النار.

دعاء

لقد حثّ القرآن الكريم على الدعاء، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [المؤمن/٦٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان/٧٧] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف/٥٥] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل/٦٢].

وحثّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام على ذلك، قال رسول الله عليه السلام: «أفضل العبادة الدعاء»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ في الأرض الدعاء، وأفضل العبادة العفاف»(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «عليكم بالدعاء، فإنّكم لا تتقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تسألوها، فإن صاحب الصغائر صاحب الكبائر»(٣).

امتلأت كتب السير والحديث والتاريخ بأدعيتهم صلوات الله عليهم، وأفرد العلماء كتباً مستقلة جمعوا فيها ما وصل إليهم من تلك الأدعية، حتى إنَّ السيد علي بن طاووس رضوان الله عليه ـ من علماء القرن السابع ـ له أكثر من عشرين كتاباً في الأدعية فقط.

وورد عن طريق أهل البيت عليهم السلام بعض أدعية الأنبياء عليهم السلام، فمن ذلك ما ورد من أدعية آدم عليه السلام:

١ ـ من دعاء له عليه السلام:

«يا ربّاه يا ربّاه يا ربّاه، لا يردّ غضبك إلاّ حلمك، ولا ينجي من عقوبتك إلاّ التضرّع إليك، حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرّني ما حرمتني، وإن حرمتنيها لم

---

(١) إرشاد القلوب: ١/ ٢٤٧.
(٢) أصول الكافي: ٣٩٢.
(٣) أمالي الشيخ المفيد: ١٩.

ينفعني ما أعطيتني. اللّهم إني أسألك الفوز بالجنة، وأعوذ بك من النار، يا ذا العرش الشامخ المنيف، يا ذا الجلال والإكرام الباذخ العظيم، يا ذا الملك الفاخر القديم، يا إله العالمين، يا صريخ المستصرخين، ويا منزولاً به كلّ حاجة، إن كنت قد رضيت عنّي فازدد عنّي رضىً منك، وقرّبني منك زلفى، وإلاّ تكن رضيت عنّي فبحقّ محمد وآله وبفضلك عليهم لما رضيت عنّي إنّك أنت التوّاب الرحيم»[1].

٢ ـ من دعاء له عليه السلام:

«اللّهم لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي، فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، اللّهم إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين»[2].

وصيّة

في سجل تراثنا الإسلامي الزاهر وصايا كثيرة للأنبياء والأئمة عليهم السلام يوصون بها أولادهم، وقد يكون الموصى بها نبيّاً أو إماماً أيضاً، والقصد من ذلك هو تعليم الأمة وتهذيبها.

وتُعدُّ هذه الوصايا من وسائلهم صلوات الله عليهم الكثيرة في التبليغ والإرشاد، والدعوة إلى منهج الحقّ والاستقامة، وحسبها استطالة وشرفاً على الكلام أن يمرّ عليها القرون المتطاولة وهي لا تزال تتعطّر بذكرها الأندية، وينتشر أريجها بين الخلائق، فيأخذها من ختم له بالسعادة فينجو بها من العطب.

وفي طليعة هذا التراث النفيس وصيّة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام، فقد جمعت من الآداب والأخلاق بما لا مزيد عليه.

ونقرأ في هذه الصفحات وصية أبينا آدم عليه السلام لابنه شيث عليه السلام، والتي أمره أن يعمل بها هو وأولاده، فأنت من المأمورين بالعمل بها لتغنم.

---

(١) مهج الدعوات: ٣٠٤.

(٢) نفس المصدر: ٣٠٣.

روى المجلسي عليه الرحمة: أوصى آدم ابنه شيثاً عليه السلام بخمسة أشياء، وقال له: «اعمل بها وأوص بها بنيك من بعدك، أولها: لا تركنوا إلى الدنيا الفانية، فإنّي ركنت إلى الجنة الباقية فما صحت لي وأُخرجت منها، الثانية: لا تعملوا برأي نسائكم، فإنّي عملت بهوى امرأتي وأصابتني الندامة، الثالثة: إذا عزمتم على أمر فانظروا إلى عواقبه، فإنّي لو نظرت في عاقبة أمري لم يصبني ما أصابني، الرابعة: إذا نفرت قلوبكم من شيء فاجتنبوه، فإنّي حين دنوت من الشجرة لأتناول منها نفر قلبي، فلو كنت امتنعت من الأكل ما أصابني ما أصابني»[1].

الخير كلّه في أربع كلمات

ومن الكنوز الإسلامية ما ورد عن الصادقين صلوات الله عليهم في بعض ما أوحاه سبحانه وتعالى إلى أنبيائه عليهم السلام؛ فقد جمع الشيخ الحرّ العاملي رفع الله درجته من ذلك الكثير في كتابه القيّم (الجواهر السنية) والسيد الشيرازي رحمه الله في كتابه (كلمة الله) وأنتَ ـ سلّمك الله ـ تقرأ في صفحات هذا الكتاب بعضاً من ذلك؛ والمهم أن نأخذ ذلك للعبر والاستفادة في حياتنا العملية.

ومن هذه الروائع ما أوحاه الله جلّ جلاله لآدم عليه السلام:

قال الإمام الباقر عليه السلام: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى آدم عليه السلام: يا آدم إنّي أجمع لك الخير كلّه في أربع كلمات: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس. فأمّا التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأمّا التي لك: فأُجازيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأمّا التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعليَّ الإجابة، وأما التي فيما بينك وبين الناس: فترضى للناس ما ترضى لنفسك»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٨/ ٤٥٢؛ وذكر الشيخ أربعةً منها.
(٢) معاني الأخبار: ١٣٧.

اختبار وعطاء

ومن حين دخولك المدرسة بل الروضة وحتى حصولك شهادة الدكتوراه وأنت تمرُّ بالإمتحان تلو الإمتحان، والإختبار اثر الإختبار، ليتبيّن مدى تفوّقك العلميّ، وتحصيلك من الدروس الملقاة عليك، وهل استيعابك لها كاملاً فتحصل على أعلى درجة، أو لم تع منها شيئاً فتكون درجتك الصفر، وبين هذا وذاك مراحل متعدّدة للتحصيل.

والحياة بأسرها وحدة امتحانية أيضاً تكون نتيجتها كنتيجة المدرسة، فقد يحصل بعضهم على أعلى درجة، وقد يكون ـ لا سمح الله ـ في أقل درجة، وبينهما درجات كثيرة للنجاح والرسوب.

وموضوع الشيطان هو ورقة الامتحان. وأول شيء يجب أن تعلمه أنّ الشيطان بمنزلة قرين السوء، فهو لا يستطيع أن يجبرك على الضلال، بل كل ما عنده أن يحسّن لك الطريق، ولو كان له قوة على إجبارك لسقط التكليف، بهذا جاءت الرواية عن الصادقين عليهما السلام حيث قالوا: اطرد الخبيث فإنه لا يعود، ومعنى ذلك: لو حبّذ لك الشيطان شرب الخمر ـ مثلاً ـ فإن خالفته تركك إلى غير عودة، وإن استجبت له أوّل مرّة فقد وقعت في شباكه، وحينئذٍ يصعب عليك الخروج منها.

فالشيطان ليس إلاّ داعية ضلال فقط، أمّا إجبارك وإكراهك فهذا شيء غير وارد أبداً. نعم هو داعية يُحسن التصرف في الإضلال والفساد، فالفخ الذي ينصبه للغني غير الفخ الذي ينصبه للفقير، والفخ الذي ينصبه للعالم غير الفخ الذي ينصبه للجاهل، وهكذا.

وهنا يأتي لطف الله جلّ جلاله وحبه لعباده ورحمته بهم.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: إنّ آدم عليه السلام قال: يا رب سلّطت عليّ الشيطان وأجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئاً.

فقال: يا آدم جعلت لك أنّ من همّ من ذريتك بسيّئة لم تكتب له، فإن عملها

كتبت عليه سيئة، ومن همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشراً.

قال: يا رب زدني.

قال: جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثم استغفر غفرت له.

قال: يا رب زدني.

قال: جعلت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه.

قال: يا رب حسبي[1].

ومع هذا كله فينبغي للعاقل أن يتجنّب الذنوب ويتقيها، فقد ورد أنّ الله سبحانه وتعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين اطلاعة على عباده، فربما رأى عبده في معصية فيقول: وعزّتي وجلالي لا غفرت لك بعدها أبداً.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته فلا تستصغرنّ شيئاً من طاعته فربّما وافق رضاه وأنت لا تعلم، وأخفى وليّه في عباده فلا تستصغرنّ عبداً من عباد الله فربّما يكون وليّه وأنت لا تعلم[2].

الغضب

الغضب حالة جنونية تعتري الإنسان من مشاهدة شيء يبغضه، أو سماع كلام يكرهه، فيعمل حينئذ ما لا يحلّ له، ويتكلّم بما لا يجوز له أن يتكلّم به، وهو من أعظم شباك الشيطان التي نصبها لنا، فرب غضب من العبد يخسر به الدنيا والآخرة، كما لو قتل شخصاً، أو ما يشبه ذلك.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: إنّ الرجل ليغضب حتى ما يرضى أبداً ويدخل بذلك النار؛ فأيّما رجل غضب وهو قائم فليجلس فإنه سيذهب عنه رجس

(١) الكافي: ٢/ ٤٤٠.
(٢) معاني الأخبار: ١٢٥.

الشيطان، وإن كان جالساً فليقم، وأي رجل غضب على ذوي رحمه فليقم إليه وليدن منه وليمسّه، فإنّ الرحم إذا مسّت الرحم سكنت[(١)].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: إياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان[(٢)].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: من يغضب عممه الله عزّ وجلّ بعمامة من نار[(٣)].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لداود بن فرقد: إياك والغضب فإنه مفتاح كل شر، إنّ إبليس كان مع الملائكة تحسب أنّه منهم وكان في علم الله أنّه ليس منهم، فلما أمر بالسجود لآدم حمى وغضب، فأخرج الله ما كان في نفسه بالحميّة والغضب[(٤)].

يتضح من هذه الرواية أن السبب لطرد إبليس من صفوف الملائكة هو الغضب، فاحذره يا أخي أشد الحذر، وعالجه إن اعتراك لا سمح الله بما جاء في الرواية الأولى، فإنّك باللحظة التي تغيّر بها وضعك تنطفىء عندك ثورة الغضب فتسكن وتعود إلى وضعك الطبيعي.

وثمة شيء آخر: إنّ الغضبان يكون سخرية للآخرين، وقد يبقى حديث غضبه سخرية يتفكّه بها المشاهدون، فإيّاك أن تكون كذلك.

---

(١) روضة الواعظين: ٢/ ٣٨٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٧٠.
(٣) عقاب الأعمال: ٢٧١.
(٤) تفسير البرهان: ١/ ٧٨.

النبي إدريس عليه السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم/٥٦].

١ ـ معلمو البشر

إنَّ الأنبياء عليهم السلام هم معلمو البشر لأمور الدين والدنيا، فإدريس عليه السلام ـ وهو جد أعلى لنوح عليه السلام ـ واسمه (اخنوخ) وسمي إدريس لكثرة دراسته للكتب، فقد كان أوّل من خطّ بالقلم، وأوّل من حاك الثياب وارتداها، وكان الإنسان قبله يرتدي الجلود... وكان كذلك أوّل من عرف الطب، ونظر في علم النجوم، وحساب السنين والأيام[١].

ويقول ابن الأثير: وهو أوّل من نظر في علم النجوم والحساب، وحكماء اليونانيين يسمونه هرمس الحكيم، وهو عظيم عندهم[٢].

قال أبو ذر رضوان الله عليه: تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يحرّك طائر جناحيه في السماء إلاّ ذكّرنا منه علماً[٣].

وقال الكسائي: إنّ يوسف هو أوّل من أظهر علم الهندسة ولم يكن الناس يعرفون ذلك، وهو أوّل من قاس النيل بمصر، ووضع له مقياساً محكماً، وهو الذي حفر الخليج المنتهي بالفيوم، ومن العجيب أنّ الخليج لا ينقطع جريانه على

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٥٤٢.
(٢) الكامل في التّاريخ: ١/ ٥٠.
(٣) أبو ذر للفقيه؛ عن الإستيعاب: ٤/ ٦٤.

الدوام ولو انقطع ماء النيل عنه[١].

وهو عليه السلام أوّل من خزن القمح بسنبله؛ وأوّل من أظهر القراطيس؛ أي الورق البلدي[٢].

وقال أبو لهيعة في أخبار مصر إنَّ يوسف عليه السلام هو الذي بنى مدينة الفيوم ودبّرها بالوحيّ عن جبرائيل، وكانت أرضها مغايض الماء، فدبّرها حتى أخرج منها الماء، وجعل بها عشرة قناطر، وعمل عليها أبواباً من الحديد، وبنى بها من جهة الشمال إلى جهة الجنوب حائطاً طوله مائتا ذراع بذراع العمل، وأحكمه ليرد الماء إذا زاد النيل اثني عشر، وكان على خليج المنتهي عدة طواحين تدور بالماء.

قال العزيزي: وكان انتهاء العمل منها في سبعين يوماً، فتعجب الملك من ذلك، وركب هو ووزراؤه ورأوا ما صنعه يوسف فتعجبوا من ذلك.

وقالوا: هذه الطواحين كانت تعمل في ألف يوم، فسميت من ذلك اليوم الفيوم، وكانت محكمة على ثلثمائة وستين قرية، وهي على مسير يوم من مصر[٣].

ومن هذا ما ذكره أهل السير والآثار من أن جابر بن حيّان ـ تلميذ الإمام الصادق عليه السلام ألّف ثلاثة آلاف وتسعمائة رسالة[٤].

وجلّها في الكيمياء والطبيعيات والفلك وما شابه ذلك.

٢ ـ إنّه كان صدّيقاً

والأنبياء صلوات الله عليهم من سنخ خاص، لا يشبهون البشر كملت عقولهم، وتهذّبت أخلاقهم.

يقول حسان بن ثابت في الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١١٦.
(٢) نفس المصدر.
(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١١٦.
(٤) الفهرست لابن النَّديم: ٥١٤.

وأحســـن منـــك لـــم تـــر قـــطُّ عينـــي
وأحســـن منـــك لـــم تلـــد النســـاء
خلقـــت مبـــرءً مـــن كـــل عيـــب
كـــأنّـــك قـــد خلقـــت كمـــا تشـــاء

ويقول آخر:
بلـــــغ العلـــــى بكمـــــالـــــه
كشـــف الـــدجـــى بجمـــالـــه
حسنـــــت جميـــــع خصـــالـــــه
صلّـــــوا عليـــــه وآلـــــه

وما يقال في الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يقال في جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام.

ويصف جلّ جلاله عبده إدريس عليه السلام (إنه كان صدّيقاً نبيّاً) والصديق: الذي عادته الصدق.

٣ ـ ورفعناه مكاناً عليّا

كان المنتظر بالبشرية أن تقابل دعوة الأنبياء بالترحيب والاستجابة والقبول لا سيّما وهم معلمون ومرشدون لهم بالمجان، لا يريدون منهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾ ﴿**إن أجري إلاّ على الله**﴾.

ولكن الذي حصل هو العكس مما كان متوقعاً فقد جنّد الطغاة الأمم لحربهم، فقوبلوا صلوات الله عليهم بكل عنف وشدّة، فقد قتل الكثير منهم، وقد تشاء العناية الإلهية أن تنجّي بعضهم من أيدي الطغاة، فالنار التي أججت للخليل عليه السلام كانت تكفي للقضاء على أمة، ولكن الإشاءة الربانية ﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً**﴾ كذلك اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يرفع عبده إدريس إلى السماء الرابعة كما رفع عيسى عليه السلام، فهما حيان يعيشان في السماء.

يصوم الدهر

للأنبياء والأئمة عليهم السلام تعلّق عظيم بالعبادة، وضربوا فيها الرقم القياسي؛ إنّك عندما تقرأ سيرهم ترى العجب من كثرة صلاتهم وصيامهم وحجّهم، إلى عبادات أخرى كثيرة.

إنّ كثرة عبادتهم حجّة على الأمة إذا قصّروا بالفرائض البسيطة التي كتبها الله عليهم.

نعوذ فنذكر بعض ما ورد من صيام إدريس عليه السلام ونتبعه بذكر بعض ما ورد عن صوم الأنبياء والأئمة عليهم السلام:

١ ـ روى الثعلبي: وكان إدريس عليه السلام يصوم الدهر[١].

٢ ـ إنّ رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال: إن كنت تريد صوم داود عليه السلام فإنّه كان من أعبد الناس... وكان له كل يوم سجدة في آخر النهار، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإن كنت تريد صوم سليمان عليه السلام فإنّه كان يصوم من أوّل الشهر ثلاثة، ومن وسطه ثلاثة، ومن آخره ثلاثة[٢].

٣ ـ سئلت مولاة الإمام زين العابدين عليه السلام عنه فقالت:

أطنب أو أختصر؟

فقيل: بل اختصري.

فقالت: ما أتيته بطعام نهاراً، ولا فرشت له فراشاً ليلاً قط[٣].

٤ ـ قال مالك بن أنس ـ إمام المذهب ـ جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه ألاّ على إحدى ثلاث: إمّا مصلّ، وإمّا صائم، وإمّا يقرأ القرآن[٤].

---

(١) عرائس المجالس: ٥٠.
(٢) بحار الأنوار: ٩٤/ ١٠٤..
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٥٥.
(٤) تهذيب التهذيب: ٢/ ١٠٥.

من الكنوز

ومضافاً إلى القرآن الكريم وردت أحاديث سماوية نقلت عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، سماها العلماء بـ (الأحاديث القدسية).

وأنت لو درست هذه الأحاديث لوجدتها في الأخلاق، وتهذيب النفس، والدعوة إلى الخير والرشاد.

ومن هذا التراث النفيس دعاء علّمه الله جلّ جلاله لنبيّه إدريس عليه السلام؛ وذكر أهل الآثار والأدعية هذا الدعاء في أدعية شهر رمضان المبارك، وبالأحرى من أدعية السحر التي يُدعى بها في سحر كل ليلة منه، فهو ضمن الأدعية التي يدعو بها المتعبّدون في الأسحار.

وهذا مما يؤيّد إن شهر رمضان هو الشهر الذي فرض الله جلّ جلاله صيامه على من سبق من الأمم، ويدعم هذا قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى/١٣].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران/١٩]. فجميع الأنبياء عليهم السلام بُعثوا بالإسلام.

ويقول الحسن البصري: لما بعث إدريس عليه السلام إلى قومه علمه هذه الأسماء، وأوحى إليه: أن قلهن سرّاً في نفسك، ولا تبدهن للقوم فيدعوني بهنّ، قال: وبهنّ دعا فرفعه الله مكاناً عليّا، ثم علمهن الله تعالى موسى عليه السلام، ثم علمهنّ الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وبهن دعا في غزوة الأحزاب.

قال الحسن: كنت مستخفياً من الحجاج فأدعو الله عزّ وجلّ بهن فحبسه عني، ولقد دخل عليّ ست مرات فأدعو بهن فأخذ الله سبحانه أبصارهم عني، قال: فادع بهن في التماس المغفرة لجميع الذنوب ثم اسأل حاجتك من أمر آخرتك ودنياك فإنّك تعطاه إن شاء الله عزّ وجلّ، فإنهن أربعون اسماً عدد أيام التوبة، وهي:

١ ـ سبحانك لا إله إلاّ أنت يا ربّ كلّ شيء ووارثه.

٢ ـ يا إله الآلهة الرفيع جلاله.

٣ ـ يا الله المحمود في كل فعاله.

٤ ـ يا رحمن كل شيء وراحمه.

٥ ـ يا حيّ حين لا حيّ في ديمومية ملكه وبقائه.

٦ ـ يا قيّوم فلا شيء يفوت علمه ولا يؤده.

٧ ـ يا واحد الباقي في أوّل كل شيء وآخره.

٨ ـ يا دائم بلا فناء ولا زوال لملكه.

٩ ـ يا صمد من غير شبيه ولا شيء كمثله.

١٠ ـ يا بارىء فلا شيء كفوه، ولا مكان لوصفه.

١١ ـ يا كبير أنت الذي لا تهتدي القلوب لوصف عظمته.

١٢ ـ يا بارىء النفوس بلا مثال خلا من غيره.

١٣ ـ يا زاكي الطاهر من كل آفة بقدسه.

١٤ ـ يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله.

١٥ ـ يا نقيّ من كل جور لم يرضه، ولم يخالطه فعله.

١٦ ـ يا حنّان أنت الذي وسعت كل شيء رحمته.

١٧ ـ يا منّان ذا الإحسان قد عمّ الخلائق منّه.

١٨ ـ يا ديّان العباد كل يقوم خاضعاً لرهبته.

١٩ ـ يا خالق من في السماوات والأرض كل إليه معاده.

٢٠ ـ يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاده.

٢١ ـ يا تام فلا تصف الألسن كنه جلاله وملكه وعزّه.

٢٢ ـ يا مبدع البدائع لم يبغ في إنشائها عوناً من خلقه.

٢٣ ـ يا علاّم الغيوب فلا يؤده شيء من حفظه.

٢٤ ـ يا حليم ذا الأناة فلا يعدله شيء من خلقه.

٢٥ ـ يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته.

٢٦ ـ يا حميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه.

٢٧ ـ يا عزيزُ المنيع الغالب على أمره فلا شيء يعادله.

٢٨ ـ يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يُطاق انتقامه.

٢٩ ـ يا قريب المتعالي فوق كل شيء علو ارتفاعه.

٣٠ ـ يا مذلّ كل جبّار بقهر عزيز سلطانه.

٣١ ـ يا نور كل شيء وهداه أنت الذي فلق الظلمات نوره.

٣٢ ـ يا قدّوس الطاهر من كل سوء فلا شيء يعازّه من خلقه.

٣٣ ـ يا عالي الشامخ فوق كل شيء علو ارتفاعه.

٣٤ ـ يا مبدىء البدايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته.

٣٥ ـ يا جليل المتكبّر على كل شيء فالعدل أمره، والصدق وعده.

٣٦ ـ يا محمود فلا تستطيع الأوهام درك كل شأنه ومجده.

٣٧ ـ يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله.

٣٨ ـ يا عظيم الثناء الفاخر وذا العزّ والمجد والكبرياء فلا يذلّ عزّه.

٣٩ ـ يا عجيب فلا تنطق الألسنة بكل آلائه وثنائه.

٤٠ ـ يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، أسألك اللّهمّ يا رب، الصلاة على نبيّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأماناً من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عنّي أبصار الظلمة المريدين بي السوء وأن تصرف قلوبهم عن شرّ ما يضمرون إلى خير ما لا يملكه غيرك، اللّهم هذا الدعاء ومنك الإجابة، وهذا الجهد

وعليك التكلان ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم[١].

من الوحي

سأل الصحابي الكبير أبو ذر الغفاري رضوان الله عليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟

قال: مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى ابراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

قلت: يا رسول الله فما كانت صحف ابراهيم؟

قال: كانت أمثالاً كلها، وكان فيها: أيها الملك المبتلى المغرور اني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها وإن كانت من كافر؛ وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه عزّ وجلّ، وساعة يحاسب نفسه، وساعة يتفكّر فيما صنع الله عزّ وجلّ إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال، فإنّ هذه الساعة عون لتلك الساعات، واستجمام للقلوب، وتفريغ لها.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، فإنّ من حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مرّمة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو تلذذ في غير محرّم.

قلت: يا رسول الله فما كانت صحف موسى؟

قال: كانت عبرانية كلها، وفيها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، ولمن أيقن بالنار لم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها لِمَ يطمئن إليها، ولمن يؤمن بالقدر كيف ينصب، ولمن أيقن بالحساب لِمَ لا يعمل.

قلت: يا رسول الله هل في أيدينا مما أنزل الله عليك شيء مما كان في

(١) مهج الدعوات: ٣٠٦.

صحف ابراهيم وموسى؟

قال: يا أبا ذر اقرأ ﴿**قد أفلح من تزكّى. وذكر اسم ربّه فصلّى. بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى. إنّ هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى**﴾[1].

وذكر السيد ابن طاووس عليه الرحمة بعض ما جاء في صحف إدريس عليه السلام:

كأنك بالموت وقد نزل بك، فاشتدّ أنينك، وعرق جبينك، وتقلّصت شفتاك، وانكسر لسانك، ويبس ريقك، وعلا سواد عينيك بياض، وأزبد فوك، واهتز جميع بدنك، وعالجت غصص الموت وسكرته ومرارته وزعقته، ونوديت فلم تسمع، ثم خرجت نفسك، وصرت جيفة بين أهلك، إنّ فيك لعبرة لغيرك فاعتبر في معاني الموت.

إنّ الذي نزل بغيرك نازل بك لا محالة، وكل عمر وإن طال قليل، لأنّ كل ما هو آت قريب لوقت معلوم، فاعتبر بالموت يا من يموت، واعلم أيّها الإنسان أن الموت أشدّ مما قبله، والموت أهون مما بعده من شدائد وأهوال يوم القيامة[2].

الحكم القصار

كتب السير والتاريخ مليئة بحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين، بل إنّ كتباً كثيرة ألّفت خصيصاً في ذلك، كتحف العقول للحرّاني، وغرر الحكم للآمدي، وغيرهما كثير. نعود فنذكر بعض ما ورد لنبي الله إدريس عليه السلام.

١ ـ كان نقش خاتمه: الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر.

٢ ـ نقش على منطقته التي يلبسها في الأعياد: حفظ الفروض والشريعة من تمام الدين، وتمام الدين كمال المروءة.

(١) الخصال: ٥٢٥.

(٢) سعد السعود.

٣ ـ وعلى المنطقة، التي يلبسها وقت الصلاة على الميّت: السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربّه أعماله الصالحة.

٤ ـ ومن كلامه عليه السلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه.

٥ ـ وقال عليه السلام: خير الدنيا حسرة، وشرّها ندامة.

٦ ـ وقال عليه السلام: إذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النيّة، ولا تحلفوا كاذبين، ولا تهجموا على الله سبحانه باليمين، ولا تحلّفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم؛ وتجنّبوا المكاسب الدنيئة، واملأوا أفواهكم بحمد الله؛ وحياة النفوس الحكمة، ولا تحسدوا الناس على مؤتاة الحظ، فإن استمتاعهم به قليل، ومن تجاوز الكفاف لم يغنه شيء[1].

(١) الأنبياء حياتهم وقصصهم: ٧٠.

النبي نوح عليه السلام

أولو العزم

إعلم رعاك الله أنّ ربّك جلّ جلاله جعل أوّل خلقه نبيّاً حجّة على الناس ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩].

ثم تابع بإرسال الأنبياء عليهم السلام حتّى بلغوا مئة وأربعة وعشرين ألف نبيٍّ، منهم خمسة هم أولو العزم وهم أفضل الأنبياء عليهم السلام .

وهم: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والرواية التالية تكشف عن دورهم بالنسبة للأنبياء!

قال الإمام الرضا عليه السلام : إنما سمي أولو العزم أولي العزم لأنّهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع، وذلك إنّ كل نبيّ كان بعد نوح عليه السلام كان على شريعته ومنهاجه، وتابعاً لكتابه، إلى زمن ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكل نبيّ كان في أيام ابراهيم وبعده كان على شريعة ابراهيم ومنهاجه، وتابعاً لكتابه، إلى زمن موسى عليه السلام ، وكل نبيٍّ كان في زمن موسى عليه السلام وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه، وتابعاً لكتابه، إلى أيّام عيسى عليه السلام ، وكل نبيٍّ في أيّام عيسى عليه السلام وبعده كان على منهاج عيسى وشريعته، وتابعاً لكتابه، إلى زمن نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهؤلاء الخمسة هم أولو العزم وهم أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وشريعة محمد لا تنسخ إلى يوم القيامة، ولا نبيّ بعده إلى يوم القيامة، فمن ادّعى بعد نبيّنا أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه[1].

---

(١) علل الشرائع: ١٢٣.

نبي يدعو ومجتمع عنيد

كان ابتلاء نبيِّ الله نوح عليه السلام بقومه أشدّ البلاء فقد بُعث إلى قوم مكذّبين بالأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم عليه السلام، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء/١٠٥] لقد لبث عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله جلّ جلاله، وترك عبادة الأصنام تسعمائة وخمسين عاماً ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت/١٤] فهذه الفترة الطويلة من الدعوة المكثّفة لم تزدهم إلاّ بعداً عن الحق، وتمادياً في الباطل؛ وتأمّل قوله تعالى حاكياً كلام نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح/٥ ـ ٩] تعرف المجهود العظيم الذي قدّمه عليه السلام في سبيل إنقاذ قومه والمتاعب والمصاعب التي لاقاها.

دعاء الاستئصال

لقد أمهل الله جلّ جلاله قوم نوح عليه السلام مدّة طويلة لم يمهلها لأمة قط، وأغرب من هذا أنّه لم يستجب لنداء السماء منهم إلاّ جماعة قليلة لا تتجاوز المائة، ولا يزدادون واحداً؛ وكان إصرارهم على الكفر بشكل غريب، حتى إنَّ كلاً منهم كان يستنهض الآخرين ويشجعهم على الكفر والطغيان ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح/٢٣] وبعد الإعراض عن الدعوة إلى التوحيد طيلة قرون متطاولة استوجبوا من نبيّهم أن يدعو عليهم دعاء الاستئصال، ولكنّ الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، ولا يعاجلهم بالعذاب.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: لما أظهر الله نبوة نوح اشتدّت البلوى، ووثبوا إلى نوح بالضرب المبرح حتى مكث في بعض الأوقات مغشياً عليه ثلاثة أيام، يجري الدم من أذنه، ثم أفاق، وذلك بعد سنة ثلثمائة من مبعثه، وهو في خلال ذلك يدعوهم ليلاً ونهاراً فيهربون، ويدعوهم سراً فلا يجيبون، ويدعوهم

علانية فيولّون، فهمّ بعد ثلثمائة سنة بالدعاء عليهم، وجلس بعد صلاة الفجر للدعاء، فهبط إليه وفد من السماء السابعة وهم ثلاثة أملاك فسلّموا عليه ثم قالوا له: يا نبيّ الله حاجتنا أن تؤخّر الدعاء على قومك، فإنّها أوّل سطوة لله عزّ وجلّ في الأرض، قال: قد أخّرت الدعاء عليهم ثلثمائة سنة أخرى، وعاد إليهم فصنع ما كان يصنع، ويفعلون ما كانوا يفعلون، حتى إذا انقضت ثلثمائة سنة أخرى، ويئس من إيمانهم، جلس في وقت ضحى النهار للدعاء، فهبط إليه وفد من السماء السادسة فسلّموا عليه وسألوا مثل ما سأله الوفد الأوّل، فأجابهم مثل ما أجاب أولئك، حتى انقضت ثلثمائة سنة، تتمة تسعمائة سنة، صلّى ودعا، فهبط جبرائيل عليه السلام فقال: إنّ الله تبارك وتعالى قد أجاب دعوتك، وطلب منه أن يأمر قومه بأكل الثمر وغرس النوى حتى يثمر، فلما أثمر أمره الله سبحانه وتعالى أن يأمرهم أن يأكلوا من ثمره ويغرسوا نواه، ولما أثمر أمره الله جلّ جلاله بالأكل منه وغرس النوى حتى إذا أثمر أوحى الله إليه: قد أجبت دعوتك فاصنع الفلك، فكان بين إجابة الدعاء والطوفان خمسون عاماً[1].

أنذر سبحانه وتعالى قوم نوح عليه السلام إنذاراً محسوساً يدركه كل فرد منهم، فقد حبس عنهم المطر حتى هلكت مواشيهم، وتلفت زروعهم، كما أعقم أصلاب رجالهم، وأرحام نسائهم، فلا يولد لهم مولود، ووعدهم نوح عليه السلام أن يرفع عنهم سبحانه وتعالى هذا البلاء إن هم تابوا ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ **[نوح/١٠-١٢]**.

استمرّ عليهم البلاء أربعين سنة.

روى الشيخ الصدوق طاب ثراه عن أبي الصلت الهروي قال: سُئل الإمام الرضا عليه السلام: لأيّ علةٍ أغرق الله عزّ وجل الدنيا في زمن نوح عليه السلام وفيها الأطفال ومن لا ذنب له؟

فقال عليه السلام: ما كان فيهم أطفال، لأنّ الله عزّ وجلّ أعقم أصلاب قوم نوح

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٩٢؛ باختصار.

وأرحام نسائهم أربعين عاماً، فانقطع نسلهم فغرقوا ولا طفل فيهم، ما كان الله ليهلك بعذابه من لا ذنب له، وأمّا الباقون من قوم نوح فأغرقوا لتكذيبهم لنبيِّ الله نوح عليه السلام [(١)].

الواقعة

وبعد هذه المدة الطويلة، والإنذارات السماوية، كانت الواقعة العظمى التي لا تشبهها واقعة، فقد اكتسحت البشرية بأسرها عدا أهل السفينة.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه عليه السلام بصنع السفينة ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود/٣٧].

وحتّى صنع الفلك وهي كما في التفسير: طولها ألف ومئتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وارتفاعها ثلاثون ذارعاً، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للأنعام والدواب، وطبقة للهوام والوحش[(٢)] استغرق زمناً ليس بالقليل، فكانت هذه الفترة مدعاة للإيمان والرجوع ولكنهم كانوا على العكس ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود/٣٨].

وكانت العلامة في مجيء الواقعة أن يفور التنور ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود/٤٠].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن نوحاً صلى الله عليه وآله وسلم لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربّه في إهلاك قومه أن يفور التنور، ففار التنور في بيت امرأة فقالت: إنّ التنور قد فار، فقام إليه فختمه، فقام الماء، وأدخل من أراد أن يدخل، وأخرج من أراد أن يخرج، ثم جاء إلى خاتمه فنزعه، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَفَجَّرۡنَا

---

(١) علل الشرائع: ٣٤.

(٢) مجمع البيان: ٥/ ١٦٠.

ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] [١].

ولبث نوح عليه السلام في السفينة سبعة أيام ولياليها[٢] ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود/٤٢] ثم استوت على الجودي[٣] ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود/٤٤]. ونزل نوح عليه السلام ومن معه.

قال الإمام الرضا عليه السلام: لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفساً، فبنى حيث نزل قرية فسماها قرية الثمانين لأنهم كانوا ثمانين[٤].

عمره

قال الإمام الصادق عليه السلام عاش نوح عليه السلام ألفين وخمسمائة سنة، منها: ثمنمائة وخمسون سنة قبل أن يبعثه الله، وتسعمائة وخمسون سنة وهو في قومه يدعوهم، وسبعمائة سنة بعدما نزل من السفينة، ونضب الماء، ومصّر الأمصار، وأسكن ولده البلدان، ثم أن ملك الموت جاءه وهو في الشمس فقال له: السلام عليك، فردّ عليه السلام فقال له: ما جاء بك يا ملك الموت؟

فقال: جئت لأقبض روحك.

فقال له: تدعني أدخل من الشمس إلى الظل؟

فقال له: نعم.

فتنحّى نوح عليه السلام ثم قال: يا ملك الموت فإنّ ما مرّ بي من الدنيا مثل تحوّلي من الشمس إلى الظل، فامض لما أمرت به، فقبض روحه[٥].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٢/٢١٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جبل بالموصل؛ شمالي العراق.

(٤) البرهان في تفسير القرآن: ٢/٢١٩؛ ولا تزال قرية من أعمال الموصل آهلة بالسُّكان تسمى قرية الثمانين.

(٥) إكمال الدِّين: ٢/٢٠٢.

وهنا أمران يجب الانتباه لهما:

الأمر الأوّل: طيلة عمره الشريف، وقد اتفق لغيره أيضاً، فآدم عليه السلام عاش تسعمائة وثلاثين سنة[١] والخضر عليه السلام كان رفيق موسى عليه السلام في السفينة وهو لا يزال حيّاً، حتى أنّ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ترجمه في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة، واعتبره من أصحاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لامتداد عمره الشريف إلى ما بعد البعثة.

وعاش لقمان بن عاد ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة سنة[٢].

وغير هؤلاء كثير ممن امتدت أعمارهم أكثر من العمر الطبيعي، وقد ألّف أبو حاتم السجستاني كتاباً مستقلاً سمّاه (كتاب المعمرين) ذكر فيه بعض هؤلاء.

والطب الحديث يرى بإمكان الإنسان أن يعيش آلافاً من السنين.

جاء في مجلة المقتطف: العلماء الموثوق بعلمهم يقولون:

إنّ كل الأنسجة الرئيسية في جسم الحيوان تقبل البقاء إلى ما لا نهاية له، وأنّه في الإمكان أن يبقى الإنسان حيّاً ألوفاً من السنين إذا لم تعرض عليه عوارض تصرم حبل حياته، وليس قولهم هذا مجرد ظن بل نتيجة علمية مؤيّدة بالاختبار.

وقالوا أيضاً: وغاية ما ثبت الآن من التجارب المذكورة أنّ الإنسان لا يموت بسبب بلوغ عمره الثمانين أو المائة من السنين، بل لأنّ العوارض تنتاب بعض أعضائه فتتلفها، ولارتباط بعضها ببعض تموت كلّها، فإذا استطاع العلم أن يزيل هذه العوارض، أو يمنع فعلها لم يبق مانع من استمرار الحياة مئات من السنين[٣].

وجاء في مجلة النجف: إنَّ جماعة من العلماء المحدثين أمثال (الدكتور الكسيس كارل) (والدكتور جاك لوب) (والدكتور ورن لويس) وزوجته وغيرهم، قاموا بإجراء عدة تجارب في معهد (روكفلر) بنيويورك على أجزاء لأنواع مختلفة

---

(١) كنز الفوائد: ٢٤٥.

(٢) الغيبة للشيخ الطوسي: ٨٦.

(٣) الإمام المنتظر ١٩ عن مجلّة المقتطف ص ٢٤٠؛ الجزء الثالث من السنة ٥٩.

من النبات والحيوان والإنسان، وكان من بين تلكم التجارب ما أجريت على قطع من أعصاب الإنسان وعضلاته وقلبه وجلده وكليتيه.. فرؤي أنّ هذه الأجزاء تبقى حيّة نامية ما دام الغذاء اللازم موفوراً لها، وما دامت لم يعرض لها عارض خارجي، وإن خلاياها تنمو وتتكاثر وفق ما يقدّم لها من غذاء.

وإليك تجارب (الدكتور كارل) التي شرع فيها بكانون الثاني سنة ١٩١٢.

١ ـ إنّ هذه الأجزاء الخلوية تبقى حيّة ما لم يعرض لها عارض يميتها، إمّا من قلة الغذاء أو من دخول بعض المكروبات.

٢ ـ إنّها لا تكتفي بالبقاء حيّة بل تنمو خلاياها وتتكاثر كما لو كانت باقية في جسم الحيوان.

٣ ـ إنّه يمكن قياس نموّها وتكاثرها ومعرفة ارتباطها بالغذاء الذي يقدّم لها.

٤ ـ إنّه لا تأثر للزمن، أي أنّها لا تشيخ ولا تضعف بمرور الزمن، بل لا يبدو عليها أقل أثر للشيخوخة، بل تنمو وتتكاثر هذه السنة كما لو كانت تنمو وتتكاثر في السنة الماضية وما قبلها من السنين، وتدل الظواهر على أنّها ستبقى حيّة نامية ما دام الباحثون صابرين على مراقبتها وتقديم الغذاء لها.

ويقول الأستاذ (ديمندو برل) ـ من أساتذة جامعة (جون هبكنس) تعليقاً على نتائج الدكتور: إنّ كل الأجزاء الرئيسية من جسم الإنسان قد ثبت أن خلودها صار أمراً مثبتاً بالامتحان، أو مرجّحاً ترجيحاً تاماً لطول ما عاشته حتى الآن.

وأكّد تقرير نشرته الشركة الوطنية الجيوغرافية: إنّ الإنسان يستطيع أن يعيش ألفا وأربعمائة سنة إذا ما خدّر مثل بعض الحيوانات لينام طيلة فصل الشتاء.

ويقول التقرير الآنف الذكر: إنّ التخدير أثناء فصل الشتاء يطيل حياة الحيوان الذي يتعرّض للتخدير عشرين ضعفاً بالنسبة لحياة الحيوانات المماثلة التي تبقى ناشطة طيلة فصول السنة[1].

وجاء في مجلة الهلال: وكذلك تمكّن آخرون من إطالة عمر ذبابة الاثمار

(١) مجلّة النجف ص: ٤٠، العدد الأوّل؛ السّنة الأولى سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

تسعمائة ضعف عمرها الطبيعي بحمايتها من السم والعدوى، وتخفيض حرارة الوسط الذي تعيش فيه، وتمكن (كارل) بتجاربه من إبقاء الخلايا في قلب جنين دجاجة حيّاً مدة سبع عشرة سنة بصيانته من بعض العوامل في المحيط الذي وضع فيه، وإذا نظرنا إلى العوامل المتسلّطة على دور حياة الإنسان وجدنا أنّه إذا أخذنا شيئاً من المادة المعروفة باسم (كراتن) والمستخرجة من غدة درقية عليلة أمكننا إعادتها إلى حالتها الطبيعية بحقنها بخلاصة غدة درقية صحيحة، وكثيراً ما أنقذ الشخص المشرف على الموت بحقنه بخلاصة الكبد على أثر اشتداد إصابته بـ (الأنيميا الخبيثة) وموته بها لا يختلف في مبدئه عن الموت على أثر الشيخوخة، ويعاد المصاب بالسكر إلى حالته الطبيعية بحقنه بخلاصة (البنكرياس).

وامتدت أيدي العلماء إلى أصل الجرثومة وقد كان يظن أنّه لا يمكن العبث بها، فتمكّنوا من تغيير جنس الضفادع والطيور من الذكور والإناث والعكس، ولم يجرّب ذلك بعد في الإنسان، ولكن ما دام هذا المبدأ قد تأيّد في الحيوان فلم يمنع تأييده في الإنسان إلاّ جهلنا لأشياء لا بد أن تبدو لنا في المستقبل[١].

والأمر الثاني: إنّ عمرنا الطبيعي دائماً بين الستين سنة والسبعين، والحديث الشريف: أعمار أمتي بين الستين والسبعين، وهذا العمر لو نقصت منه دور الطفولة والساعات التي قضيتها نائماً، وساعات العمل، لوجدت الباقي ضئيلاً، فينبغي أن تدّخره لطاعة الله سبحانه وتعالى لتعيش حياة مؤبّدة في الجنان، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثل ذلك النعيم. ويحكى أن موسى بن عمران عليه السلام وجد امرأة تبكي عند قبر وتتأسف على شبابه، وأنّه لم يتمتع بالدنيا، فسألها عن عمره فقالت: سبعمائة عام.

فقال لها: يا أمة الله كيف لو رأيت نبيَّ آخر الزمان وأعمار أمته بين الستين والسبعين؟

قالت: يا نبيّ الله لو كنت من أهل ذلك الزمان لقطعت عمري في سجدة واحدة لله تعالى.

(١) منتخب الأثر ٢٣٧؛ عن مجلّة الهلال الجزء الخامس، العدد ٣٣ سنة ١٩٣٠م.

فاحرص يا أخي أشد الحرص على أن تستغل عمرك في طاعة ربّك، وتذكّر الحديث الشريف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت[1].

الخصال السيّئة

ومن رأفة الله سبحانه وتعالى بعباده أن أَنطق إبليس عليه اللعنة عن مساوىء بعض الأعمال، وحذّر بني آدم منها، كان عدو الله يلتقي بالأنبياء عليهم السلام، وكانوا يسألونه عن بعض مصائده وافخاخه التي نصبها للناس، وربّما تبرّع بالنصائح، وكل هذا مِن ألطاف الله سبحانه وتعالى بعباده، لتكون له الحجّة عليهم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ **[الأنعام/١٤٩]** يقص علينا عبدالله بن عباس رضوان الله عليه بعض ما دار بين نبيِّ الله نوح عليه السلام وبين إبليس لعنه الله:

قال إبليس: يا نوح لك عندي يد سأعلّمك خصالاً.

قال نوح عليه السلام: وما يدي عندك؟!

قال: دعوتك على قومك حتى أهلكهم الله جميعاً. وبدأ يحدّثه: فإيّاك والكبر، وإيّاك والحرص، وإيّاك والحسد، فإنّ الكبر هو الذي حملني على أن تركت السجود لآدم فأكفرني وجعلني شيطاناً رجيماً، وإيّاك والحرص، فإنّ آدم أبيح له الجنة، ونهي عن شجرة واحدة، فحمله الحرصُ على أن أكل منها، وإيّاك والحسد، فإنّ ابن آدم حسد أخاه فقتله.

فقال نوح صلوات الله عليه: متى تكون أقدر على ابن آدم؟
قال: عند الغضب[2].

فينبغي لك يا أخي أن تحذر هذه الخصال السيئة لتسعد السعادة الأبدية عند مليك مقتدر.

---

(١) الخصال: ٢٥٣.

(٢) قصص الأنبياء للجزائري: ٨٢.

في العرض القرآني المجيد

وبعد عرض سريع لحياة نبيٍّ ومجتمع، وإلمامة بالموضوع يأتي العرض القرآني الكريم بتفصيل.

فقد ذكر القرآن الكريم نوحاً عليه السلام في ثلاث وأربعين آية، وأفرد سورة من القرآن الكريم باسمه.

نذكر في هذه الصفحات قبساً من ذلك:

(١)

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف/٥٩].

وفي هذه السورة المباركة يقص علينا جل جلاله قصّة قوم نوح عليه السلام أو هلاك البشرية.

إنك لو تأملت في حياة الأمم التي أهلكها الله جل جلاله لرأيت أنّها تتحد وتشترك جميعاً في الكفر بالله سبحانه وتعالى، مستبدلين به أوثاناً لا تضرّ ولا تنفع، لذا كان الطلب الأول للرسل عليهم السلام هو عبادة الله جلّ جلاله لأنها النظام الذي يُسعد البشرية ويكفّها عن الظلم والبغي والفجور، والملاحظ في هذه القصص أنّ الملأ ـ وهم الرؤساء والمتنفذون ـ هم أساس الخلاف والعناد لأنهم المستفيدون من سلطان الكفر نعود للآيات:

﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾ ومعناه: إنّا حمّلنا نوحاً الرسالة إلى قومه، وتحميل الرسالة: تكليفه القيام بها، وهي منزلة جليلة شريفة، يستحق الرسول، بتقبّله إيّاها، وقيامه بأعبائها، التعظيم والإجلال؛ لقد لبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وكان يدعوهم ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعاؤه إلاّ فراراً، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ﴿**فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ أمرهم بعبادة الله وحده، وأن لا معبود لهم

سواه ﴿إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ لقد حذّرهم من التمادي في الضلال، وأَنذرهم أن يحلّ بهم العذاب ﴿قال الملأ من قومه﴾ هم الرؤساء ﴿إنّا لنراك في ضلال مبين﴾ إنّا لنعلمنك في ذهاب عن الحق، وذهاب عن الصواب ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكنّي رسول من ربّ العالمين﴾ الذي يملك كلّ شيء ﴿أبلّغكم رسالات ربّي﴾ أؤدّي إليكم ما حمّلني ربّي من غير تغيير ولا زيادة ولا نقصان ﴿وأعلم من الله﴾ من صفات الله وتوحيده وعدله ﴿ما لا تعلمون﴾ أعلم من قدس الله وسلطانه، وشدّة عقابه ما لا تعلمونه ﴿أوعجبتم﴾ استفهام على جهة الإنكار ﴿أن جاءكم ذكر من ربّكم﴾ نبوة ورسالة ﴿على رجل منكم﴾ على بشر مثلكم ﴿لينذركم﴾ ليخوّفكم العقاب إن لم تؤمنوا ﴿ولتتّقوا﴾ الشرك والمعاصي ﴿ولعلّكم ترحمون﴾ لكي ترحموا ﴿فكذّبوه﴾ فكذّبوا نوحاً فيما دعاهم إليه ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ فخلّصناه والذين كانوا معه في السفينة وهم المؤمنون ﴿وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا﴾ وأهلكنا الذين كذّبوا بدلائلنا ﴿إنّهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الحق، ذاهبين عنه، جاهلين به.

(٢)

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس/٧١].

يتعجب البشر من الحيوانات حين يراها تأكل وتشرب والجزّار يذبح ببعضها، وبعد ساعة يأتي عليها كلّها، علماً أنها لا تعقل، ولا تجد المهرب، والمفروض أن يكون العجب من البشر نفسه، فهو يشاهد آثار الأمم المعذّبة وهو يسلك سبيلهم، ويقتفي آثارهم، وهو إن نجا مما عذّبت به الأمم فهو لن ينجو من النار، وليس بينه وبينها إلاّ الموت.

والمـــوت يـــأتـــي بغتـــة   والقبـــر صنـــدوق العمـــل

إن القرآن الكريم كرر قصص الأنبياء عليهم السلام وما حلّ بأممهم لأجل الاعتبار والانزجار.

نعود للآيات:

﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ خبره **﴿إذ قال لقومه﴾** الذين بُعث إليهم **﴿إن كان كبر عليكم مقامي﴾** شقّ وعظم عليكم إقامتي بين أظهركم **﴿وتذكيري﴾** وعظي وتنبيهي إيّاكم **﴿بآيات الله﴾** بحججه وبيناته على صحة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وبطلان ما تدينون به **﴿فعلى الله توكّلت﴾** إلى الله فوضت أمري، وبه وثقت أن يكفيني أمركم **﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾** اعزموا على أمركم، وادعوا شركاءكم؛ فبيّن عليه السلام أنّه لا يرتدع عن دعائهم، وعيب آلهتهم، مستعيناً بالله عليهم، واثقاً به سبحانه يعصمه منهم **﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة﴾** غممت ـ الشيء: سترته والمراد: ليكن أمركم ظاهراً مكشوفاً، ولا يكونن مغطى مبهماً مستوراً **﴿ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾** انهضوا إليّ فاقتلوني إن وجدتم إليه سبيلاً، ولا تؤخروني ولا تمهلوني.

وهذا من معجزاته عليه السلام، لأنّه كان وحيداً مع نفر يسير، وقد أخبر بأنّهم لا يقدرون على قتله، لأنّ الله تعالى ناصره وحافظه منهم **﴿فإن تولّيتم﴾** ولم تقبلوه، ولم تنظروا فيه **﴿فما سألتكم من أجر﴾** لا أطلب منكم أجراً على ما أؤدّيه إليكم من الله فيثقل ذلك عليكم **﴿إن أجري إلاّ على الله﴾** في تبليغ الرسالة **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾** أمرني الله بأن أكون من المستسلمين لأمر الله بطاعته، ثقة بأنها خير ما يكتسبه العباد **﴿فكذّبوه﴾** نسبوه إلى الكذب فيما ذكره من أنه نبيّ الله، وأن الله سبحانه بعثه إليهم ليدعوهم إلى طاعته **﴿فنجّيناه ومن معه في الفلك﴾** في السفينة **﴿وجعلناهم خلائف﴾** جعلنا الذين نجوا مع نوح خلفاء لمن هلك بالغرق **﴿وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا﴾** أهلكنا باقي أهل الأرض اجمع لتكذيبهم لنوح عليه السلام **﴿فانظر﴾** أيّها السامع **﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾** المخوّفين بالله وعذابه، والمصير الذي انتهوا إليه.

فينبغي لنا أن نأخذ العبر والدروس من القصّة، كي لا ينزل بنا ما نزل بهم، والسعيد من اتعظ بغيره.

(٣)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود/٢٥].

١ ـ تمهيد

اعلم رعاك الله أن هذه السورة المباركة أعظم السور هولاً ورعباً، فقد روى الخاص والعام أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله أسرع إليك الشيب.

فقال: شيبتني هود وأخواتها.

والمراد بهود هي قصص الأمم المعذَّبة، فإن من عذب قوم هود عليه السلام أو قوم نوح عليه السلام على كفرهم ومعاصيهم، قادر أن يعذّب من جاء بعدهم على كفرهم ومعاصيهم.

٢ ـ إني لكم نذير مبين

وهذه مهمة الأنبياء عليهم السلام الأولى والأخيرة والنذير: المخوّف ويقول تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ **[الفتح/٨]** ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ **[الرعد/٧]**.

والمبين: الظاهر البيّن. والمراد: إن المعاجز التي تشاهدونها تكفيكم دليلاً على صدقي ونبوّتي.

وكان المفروض بالأمم السالفة، وبالمجتمع العربي تقبل رسالات السماء، والترحيب بمرشدين لا يبغون على أداء الرسالة أجراً ﴿**لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً**﴾ ولكن الذي حصل هو العكس من ذلك، فقد قابلت الأمم بما فيهم العرب الرسل بأشد مما تتمكن من الأذى والتكذيب والقتل.

٣ ـ أن لا تعبدوا إلاّ الله

ما أسهل ما طلبوا منهم، وما أشد عنادهم وامتناعهم، لقد استبدلوا عبادة العظيم الجبار بعبادة حجر لا يضر ولا ينفع.

إنّها مهزلة البشرية العظمى أن يصنع الإنسان بيده صنماً من حجر أو حديد أو من شيء آخر ويدعي أنّ هذا الصنم هو الخالق الرازق.

يحكى أنّ أحدهم جاء لصنمه متعبّداً متوسّلاً، فشاهد الثعلب قد علاه بالبول على رأسه، فتأمل في نفسه وقال: لو كان هذا ربّاً لأنف من ذلك، ولم يغلبه حيوان ضعيف، فأخذ يكسره يقول:

أربّ يبول الثعلبان برأسه
ألا ذلّ من بالت عليه الثعالب

٤ ـ إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم

حقّاً إنّه في أقصى ما يكون في العظم، وإنّه لفوق ما يتصوّر الإنسان، وإنّه لما يقصر عنه الوصف، ولا يحيط به الفكر، ونحن نقتصر بذكر آية وحديث لأمير المؤمنين عليه السلام، ونحيل القارىء الكريم على الكتب التي تعرّضت للموضوع.

قال تعالى:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ/ ٢١ ـ ٢٨].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: أعلمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعاً من زجرته[١].

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١١٤.

٥ ـ فقال الملأ الذين كفروا

وأصول الكفر وقواعده في الأمم هم الملأ، والمراد بهم العظماء وأهل النفوذ، وحتى كفّار قريش والعرب كانوا سراة القوم، وزعماء البلاد.

إنّ سبب عنادهم وإصرارهم على الكفر هو اعتقادهم أنّ رسالات السماء تحد من نفوذهم وتقلّص من سلطانهم واستغلالهم للطبقة الضعيفة فجنّدوا كل طاقاتهم لحربها، وخفّ خلفهم ضعاف النفوس، والطبقة المستفيدة.

٦ ـ فأتنا بما تعدنا

إنّ الأمم المعذّبة هي التي طلبت العذاب، وحتى في الإسلام، لقد تقدم أبو جهل يوم بدر داعياً فقال: اللهم ربنا، ديننا القديم، ودين محمد الحديث، فأي الدينين أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم. وهذا هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ **[الأنفال/١٩]**.

وما ذكره أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ **[المعارج/١]** أنّ الحرث بن النعمان لما بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فعلي مولاه، ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّك رسول الله، فقبلنا منك، وأن نصلّي خمساً، ونزكّي أموالنا، فقبلنا منك، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك، وأن نحج فقبلناه منك، ثم لم ترض حتّى فضلت ابن عمك علينا، فهذا شيء منك أم من الله تعالى؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والذي لا إله إلاّ هو ما هو إلاّ من الله.

فولّى الحرث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقّاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم.

فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج

من دبره فقتله، فنزلت الآية[1].

٧ ـ واصنع الفلك

كان هذا الإنذار الأخير لهم، وكان الجدير بهم أن ينيبوا ويرجعوا إلى الإستقامة، ولا يتمادوا في الإعوجاج، ولكن الذي حصل هو العكس من ذلك ﴿**وكلّما مرّ عليه ملأ قومه سخروا منه**﴾ فكلما مرّ عليه جماعة من الشخصيات والوجوه والرؤساء وهو يعمل السفينة هزئوا من فعله، ويقولون على سبيل السخرية: صرت نجاراً بعد أن كنت نبيّاً.

٨ ـ إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم

وقد حصل هذا تماماً، بل إنَّها كقاعدة عامة، ولئن اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يؤاخذ بعض الظالمين في الدنيا فيسخر منهم المؤمنون فإنهم سوف يسخرون منهم في الآخرة.

فقد ورد أن الملائكة تفتح في جهنم باباً للخروج فيسرع أهلها فإذا وصلوها أوصدت دونهم، فتضحك من ذلك الملائكة والمؤمنون الذين يريهم الله جلّ جلاله ذلك المنظر.

٩ ـ وفار التنور

أو سميه بساعة الصفر، وموعد الهلاك والدمار العام، وإغراق الكرة الأرضية بأسرها عدا أصحاب السفينة.

وفي عصرنا هذا وجد الخبراء الروس ألواحاً من السفينة هي الآن موجودة في المتحف، وهي حجّة جديدة بكتابتها تلزم البشرية بالإسلام والولاء للعترة الطاهرة، فإن عليها أسماءهم.

---

(١) المصباح المنير: ٤/ ٣٦٥.

إنّ الأنبياء عليهم السلام علموا بعظيم منزلة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام عند الله جلّ جلاله فكانوا يتوسّلون بهم عند الشدائد والمهمات وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة/٣٧].

١٠ ـ وما آمن معه إلاّ قليل

وقال تعالى في ابراهيم عليه السلام: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت/٢٦] والرواية عن الصادقين عليهما السلام: لو آمن به غير لوط لذكره الله سبحانه.

وهذا هو الحاصل في كل زمان ومكان، إن المؤمنين قلة، فأهل السفينة كانوا ثمانين إنساناً. وهذا يفيد أن الواجب على المؤمن أن لا يستوحش من قلّة المؤمنين، وكثرة أعدائهم، فإنّها سنة الحياة.

١١ ـ وهي تسري بهم في موج كالجبال

لقد أوحى الله جلّ جلاله إلى السماء: أمطري، وإلى الأرض: إنفجري بالماء، فما هي إلاّ ساعة حتى كان المشهد الرهيب، والدمار الشامل، وهلاك الظالمين.

١٢ ـ وقيل يا أرض ابلعي ماءك

إن هذه الآية حكت قصة نوح عليه السلام مع قومه من البداية حتى النهاية، ولخصت التسعمائة وخمسين عاماً التي قضاها بينهم، إنّ هذه الآية التي أبهرت ابن المقفّع لما عزم هو وأصحابه ـ وكانوا بلغاء زمانهم ـ على نقض القرآن الكريم، ومكثوا سنة كاملة متفرغين لذلك، ولما اجتمعوا قال ابن المقفع: يا قوم إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بعداً**

للقوم الظالمين﴾ لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيانبمثلها[1].

إنّ قريشاً بل وجميع العرب كانوا عاجزين أتم العجز عن معارضة القرآن الكريم، ولكنّ عنادهم وعداوتهم جعلتهم يبذلون أنفسهم وأموالهم في محاربة الإسلام وكتابه.

١٣ ـ إنه ليس من أهلك

انظر إلى المعاصي كيف تبعد الإنسان عن حظيرة القدس، كما إنَّ الطَّاعات تقربه، فهذا ابن النبي ينفيه تعالى عنه، وتجد سلمان الفارسي رضوان الله عليه كيف قربته الطاعة حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سلمان منا أهل البيت. نعود للآية الكريمة ﴿**إنه ليس من أهلك**﴾ إنّه ليس على دينك، فكأنّ كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله.

روى علي بن مهزيار عن الحسن بن علي الوشا عن الرضا عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إن الله تعالى قال لنوح: ﴿**إنه ليس من أهلك**﴾ لأنه كان مخالفاً له، وجعل من اتبعه من أهله.

ويؤيد هذا التأويل إن الله سبحانه قال في التعليل: ﴿**إنه عمل غير صالح**﴾ فبين أنه خرج من أحكام أهله لكفره وسوء عمله.

١٤ ـ إنّ العاقبة للمتقين

والمعنى: النهاية المحمودة للمتقين.

وهذه من الألفاظ المكررة في القرآن الكريم، فليعمل المجرمون ما شاءوا، وليسعَ المستعمرون بكل جهدهم، والصهيونية العالمية ومن حالفهم، وأملنا بالله تعالى عظيم أن يحلّ بأمريكا التي قتلتنا ما حلّ بألمانيا والعهد قريب، وما حلّ بقوم نوح عليه السلام: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

---

(١) الإحتجاج: ٢/١٤٣.

ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم/٤ ـ ٥].

(٤)

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء/٧٦].

وقصة نوح عليه السلام أغرب القصص وأعجبها وأدعاها للتأمل والحذر من الشيطان الرجيم، فنبيّ مرسل من الله تعالى، مزوّد بالمعاجز، يحذّر الأمة من عبادة الأصنام، ويدعوهم إلى طاعة الرحمان، يمكث بين ظهرانيهم ألفاً إلاّ خمسين عاماً فلا يزدهم ذلك إلاّ إعراضاً وبعداً، ولم يستجب له منهم إلاّ نفر قليل لم يبلغوا المائة وأخيراً ابتهل إلى الله جل جلاله يدعو عليهم ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح/٢٦].

﴿فاستجبنا له﴾ أجبنا دعاءه **﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾** من الغم الذي كان يعانيه طول تلك المدة **﴿ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتنا﴾** منعناه منهم، فلم يصلوا إليه بسوء.

٢ ـ فأغرقناهم أجمعين

هذا ما حصل لهم في الدنيا، فقد هلكوا جميعاً، ذكراناً وإناثاً، ولم يبق لهم أثر، علماً أن ما أعدّ الله لهم من عذاب الآخرة أعظم بكثير مما حصل لهم في الدنيا، وإنّه لقياس مع الفارق، وكمن يقيس جرعة من الماء بالبحر المحيط.

وليس هذا في قوم نوح عليه السلام فقط بل هو عام، فالإنسان مهما عانى من آلام وجروح وقروح، أو حرق أو غرق، وكل ما تفرضه من نكبات الحياة ومآسيها، فإنها مهما طالت فإن الموت يقطعها، ولكن المشكلة العظمى هي ما بعد الموت، وما يلقاه الكافرون والفاسقون من العذاب والهوان مبدوءاً من ساعة الاحتضار إلى ما لا نهاية له أبداً؛ ولو قدّر لبشر أن يعلم قطرات البحار ثم يحوّل كل قطرة إلى سنة فتنتهي ولا ينتهي عذاب المخلّدين في النار، وكذلك بالنسبة

لأهل النعيم، فهم فيه مخلّدون، وهذا هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة/٣٨] والمعنى: إنَّ فوائد الدنيا ومقاصدها في فوائد الآخرة ومقاصدها قليل، لانقطاع هذه ودوام تلك.

نستعين بالله على أداء ما كلفنا به، وتجنّب ما نهانا عنه فإنّه أرحم الراحمين.

(٥)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾ [المؤمنون/٢٤].

وأعظم ما عاناه المصلحون هو معارضة الملأ ـ الرؤساء والزعماء ـ فقد كانوا حجر العثرة أمام المصلحين، ودعاة التوحيد، وحتّى الرسالة الإسلامية فقد وقف زعماء قريش وقادتها في وجهها بأعنف ما يكون، وأنت لا تستطيع أن تقدّر الناس الذين هيمنوا عليهم من الاتباع والمستضعفين وحالوا بينهم وبين الإيمان.

قال ربّ انصرني بما كذّبون

والأنبياء لا يدعون على قومهم إلاّ بعد الأياس من الإصلاح، وبعد أن يؤذن لهم بالدعاء من الله جل جلاله ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود/٣٦].

وأنت إذا علمت أنّه صلوات الله عليه ابتهل بالدعاء على قومه بعد ثلثمائة سنة من بعثته أدركت مدى حلم الله جلّ جلاله على الجاهلين، ومقدار الجهود التي بذلها سلام الله عليه في سبيل الإصلاح، وما عاناه من القوم.

﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾.

والتسعمائة عام كانت كافية جدّاً في الإمهال، أمّا الآن فقد جاء أمر السماء، ومع ذلك فلم يؤاخذهم في الحال، بل أمره جلّ جلاله بصنع سفينة يركبها هو

والمؤمنون، وأيضاً: الزمن الذي يستوعب صنع السفينة يكون كإنذار أخير للقوم لو كانوا يعلمون.

ولكن الذي حدث هو العكس من ذلك، لقد انشدّوا عندها إلى أصنامهم، وزادهم ذلك كفراً وعتوّا، وصار موضوع السفينة أداة للسخرية والاستهزاء ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود/٣٨].

٣ ـ ﴿الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين﴾

وهنا أمور تستلفت النظر، وتدعو للتأمّل.

١ ـ الأمر الأوّل: كانت الدنيا بأجمعها في رحاب الكافرين، وأهل الإيمان قلّة لا يتجاوزون المائة، ومع شدّة عداوة الكافرين للمؤمنين ولنبيّهم فقد سلّمهم الله جلّ جلاله من كيدهم.

والأمر الثاني: وبعد الواقعة العظمى، وغرق البشرية، بل الدنيا بأسرها عدا أصحاب السفينة، وكان المنتظر ممّن يأتي من بعدهم من الأجيال أنْ يأخذ من هذا الحدث العظيم العبرة، فيستقيم، ولكن الذي حدث بالعكس تماماً، فالأمم التي جاءت بعدهم سارت على نهجهم في الكفر والإلحاد، والبعد عن خط السماء، حتى نزل بهم سخط الله وعذابه وحلّ بهم ما حلّ بسلفهم من الفناء والدمار، والقرآن الكريم يقص علينا خبرهم، كأمة هود وصالح ولوط وموسى عليهم السلام، وغيرهم، والكيفية التي أبيدوا بها.

الأمر الثالث: ـ وهو الغاية في العجب ـ إن الكافرين مع ما لهم من قوّة وشوكة خسروا أنفسهم وأهلهم وأموالهم، بل الدنيا بأجمعها، كما خسروا الجنة وذلك الخسران العظيم، وإنَّ المؤمنين ـ على ضعفهم ـ سلموا في الدنيا، وتنعّموا فيها ثم ماتوا بآجالهم مع ما أعدّ الله جلّ جلاله لهم من نعيم، وإنَّ هذه لمن الآيات التي أشارت إليه القصة **﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾**.

الأمر الرابع: يجب أن يعتبر المؤمنون بهذه القصّة، ويأخذوا منها الدروس النافعة، وأن لا يرهبوا عدّوا ولا ظالماً فيسيروا بنهجه، بل عليهم أن يعتزّوا بدينهم

ومبدئهم، موقنين أنّ الدنيا والآخرة بيد الله وهو على كل شيء قدير.

(٦)

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء/١٠٨].

وهذا عرض جديد لامّة عاتية، أمهلوا حتى ظنوا أنهم أهملوا، ثم جاءهم أمر الله جلّ جلاله فخسروا خسراناً مبيناً، ذهبت منهم دنياهم بهلاكهم جميعاً قبل الآجال التي كتبت لهم، لقد اكتسحهم العذاب، والبلاء شملهم، وذهبت منهم آخرتهم بخلودهم في الجحيم.

١ ـ فاتقوا الله وأطيعون

دعاهم نبيُّ الله إلى تقوى الله جلّ جلاله وطاعته.

في هذا العرض تكرر الأمر بالتقوى ثلاث مرات، اهتماماً بها، ولأنّ الآخذ بها يأمن العقاب، ويحرز السلامة والنجاة، ويفوز فوزاً عظيماً، وأنت إذا تأملت أنّ كلمة التقوى وردت في القرآن الكريم: ٢٣٠ مرة أدركت أهميتها.

٢ ـ فافتح بيني وبينهم فتحاً

لقد أمهلهم جلّ جلاله زمناً طويلاً لم يعاجلهم بالعقاب، وقد مرّ عليك أن نبيّ الله نوح عليه السلام بعد أن لبث فيهم ثلاثمائة سنة يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى وهم معرضون، جلس للدعاء عليهم، فنزل عليه وفد من الملائكة يطلبون منه تأجيل الأمر لعلهم يهتدون.

استجاب عليه السلام لهم، وأعرض عما كان بصدده حتّى مضت ثلثمائة سنة أخرى، وهم لم يزدادوا إلاّ إعراضاً وكفراً، جلس للدعاء عليهم مرّة ثانية أيضاً ونزل عليه وفد آخر من الملائكة وكرروا الطلب نفسه، فاستجاب لهم أيضاً،

وأمهلهم ثلثمائة سنة أخرى وبعد مضي تسعمائة سنة ـ وهو زمن طويل جداً ـ جلس للدعاء عليهم.

وفي هذه المرة استجاب الله سبحانه وتعالى له، ولكنّه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمره بغرس نخلة، حتى تثمر ويأكل من ثمرها، ففعل، ولما أثمرت أمره سبحانه أن يغرس نواةً من الثمر الذي أكله وينتظره حتى يثمر، وبعد أن أثمر أمره ثالثة بغرس نواة من الثمر الجديد منتظراً ثمرها.

ويتجلى اللطف الإلهي بأروع صوره في قصة قوم نوح عليه السلام، وعدم معاجلتهم العقاب، فقد أمره عند نضوج الثمر للغرس الثالث بصنع السفينة، لأنّ ذلك ربّما يستدعي الإيمان، لا سيما وقد أخبروا جميعاً بما ينتظرهم من الطوفان. نعود للآيات.

٣ ـ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون

لقد خسر خسراناً عظيماً من تخلّى عنك يا رب، وفاز فوزاً عظيماً من اتبع نهجك، منقاداً لأمرك، عاملا بالهدى الذي جاء من عندك، مقتدياً بأوليائك، والدعاة إلى طاعتك، وليس أدل على ذلك ما حصل لمؤمني قوم نوح عليه السلام، لقد نجوا من بين أهل الأرض كلّهم، وبقوا متمتعين بمواهب الله جلّ جلاله ونعمه، وأعظم من هذا ما أعدّ لهم من نعيم لا يفنى، وملك لا يزول، في دار المجد والخلود، بجوار أنبياء الله وأحبائه، ولو لم يكن لهم من نعيم إلاّ هذا الجوار السامي، والخلود الأبدي لكفى.

٤ ـ ثم أغرقنا بعد الباقين

والقضية عكسية تماماً لما مرّ من قبل، فأولئك نجوا وتنعّموا بالدنيا وما فيها من نعيم، وهؤلاء غرقوا مع أهلهم وأموالهم.

نعم، إنّ الشيطان يصوّر للعصاة والمتجاوزين خط الشريعة أنّهم في عنترية وبطولة، وأنهم قد تطاولوا حتى على رسالات السماء، ورسل الله، فهم يعيشون

في هذه البطولات الخيالية حتى يأتي يومهم الذي فيه يوعدون.

٥ ـ إن في ذلك لآية

إنّ ما حصل لأمة نوح عليه السلام من الهلاك والدمار دليل على قدرة الله جلّ جلاله يستدعي من الأجيال الإيمان بالله سبحانه، والحذر من بطشه وأخذه؛ والسعيد من اتعظ بغيره قبل أن يُتعظ به.

(٧)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ **[العنكبوت/١٤]**.

في هذه السورة المباركة عرض جديد عن قوم نوح عليه السلام تميز بالتّالي:

١ ـ ذكرت الآية الكريمة المدّة التي لبثها نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الهدى، أما مجموع مدة عمره ٢٥٠٠ عام، وهذا يدعم ما ذهب إليه الشيعة، وكثير من علماء السنة أنّ الإمام المهدي عليه السلام ولد في سنة ٢٥٤هـ، وأنه حتى الآن موجود، وهو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً ـ الحديث ـ.

٢ ـ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.

وهذه النهاية التي انتهوا إليها، وهي نهاية جميع الكافرين، إنّهم لم يجنوا من عملهم إلاّ خسران الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هلكوا قبل آجالهم المحدّدة لهم، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب عظيم.

وليعلم البغاة، ورؤساء الضلال أنّهم على وشك اللّحاق بأسلافهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ أعجل الشر عقوبة البغي[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: من سلّ سيف البغي قتل به[2].

٣ ـ فأنجيناه وأصحاب السفينة

وكذلك اقتضت إشاءته جلّ جلاله أن ينجّي أولياءه، ويستخلفهم في الأرض، مع ما أعدّ لهم في الدار الآخرة من نعيم.

وأنت حينما تنظر تاريخ الأمم، وتستعرض الأحداث تجد أنّ من المستحيل نجاة أهل الإيمان فضلاً عن أن تقوم لهم قائمة لأنّ الدولة للطغاة، والناس تبع لهم، ولكنّه جلّ جلاله اقتضت حكمته نصر المؤمنين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ﴾ **[غافر/٥١]**.

ولو تركت البحث عن تأريخ الأمم ونظرت في أمر نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم، والمستضعفين الذين كانوا معه، وأنّه صلى الله عليه وآله وسلم لبث ثلاث سنين في شعب عمه أبي طالب رضوان الله عليه محتمياً به من قريش وأذاهم، وأمّا حال المسلمين فيكفيك ما نزل بياسر وسميّة رضوان الله عليهما، وغيرهما كثير، ولكن ما هي إلاّ سنوات قليلة وإذا به صلوات الله وسلامه عليه يدخل مكة فاتحاً، وتأخذ سعد بن عبادة حامل راية الأنصار عزّة الظفر، ونشوة الانتصار فيرتجز:

اليـــوم يـــوم الملحمـــة
اليـــوم تسبـــى الحـــرمـــه

ويستاء صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك، فيرسل علياً عليه السلام، ويأخذ الراية منه، وينشد:

اليـــوم يـــوم المـــرحمـــه
اليـــوم عـــزّ الحـــرمـــه

---

(١) عقاب الأعمال: ٢٧٥.

(٢) نهج البلاغة: ٣/ ٢١٧.

ثم أعطى الراية لولده قيس بن سعد بن عبادة بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

٤ ـ وجعلناها آية للعالمين

فالسفينة ومن فيها من المؤمنين آية وحجّة على صدق المرسلين، وأنّهم رسل لرب العالمين، وأنّ على الناس جميعاً طاعتهم، وامتثال أوامرهم، والأخذ بتعاليمهم.

وأنت أعزّك الله وسدّدك تعيش في عصر العلم، صعد لك إخوان للقمر وهم الآن يرومون الصعود لما هو أعلى منه، وفي عصر طغت فيه المادة، وصارت القطب الذي يدور حوله الناس، ومع هذا كلّه فمعالم التوحيد التي نصبها الله جلّ جلاله قائمة، تلزم الخلق كلهم الإيمان بالله ورسله، ومن أعظم هذه المعالم القرآن المجيد، الذي يتحدّى العالم بأسره منذ ألف وأربعمائة سنة على أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا عن ذلك.

ومضافاً لهذا وغيره أخرج لك جلّ جلاله ألواحاً من سفينة نوح عليه السلام ، لفّها علماء الاتحاد السوفياتي في متاحفهم بعدما ترجموا ما عليها من كتابة تشدّك كل الشد بمحمد وأهل بيته الأكرمين.

(٨)

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات/٧٥].

جاء في السورة المباركة عرض للنار وما يعانيه فيها المعذّبون من صنوف العذاب، وختمت الآيات بأن هؤلاء المكذبين أُنذروا وخوفوا ولكنهم تمادوا في غيّهم، ولما نزل بهم العذاب نجينا المؤمنين من بينهم.

ثم انتقلت الآيات إلى نوح عليه السلام : **﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾** فهو عليه السلام لم يدع على قومه بالعذاب إلا بعد تسعمائة سنة ـ وهو زمن طويل

للغاية ـ ومع أن الله جلّ جلاله وعده الإجابة إلاّ أنّه أمره أن يغرس نواة حتى تثمر ويأكل من ثمرها، ولما أثمرت أمره أن يغرس نواة منه وينتظر ثمرها، وهكذا ثلاث مرات، ثم أمره بصنع السفينة، استغرق هذا كله خمسين عاماً، كل ذلك لأجل أن يؤمنوا، ولكنهم أصرّوا على الكفر فحلّ بهم النكال والعذاب، ونجّى الله نبيّه وأهله وجميع المؤمنين ﴿**ونجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ الذي شمل الكرة الأرضيّة عدا أهل السفينة.

ثم انتقلت الآيات إلى مواهب الله جلّ جلاله لعبده نوح عليه السلام، فمضافاً إلى نجاته وأهله وصحبه ﴿**وجعلنا ذريّته هم الباقين**﴾ بعد الغرق، فالبشرية كلهم بعد نوح عليه السلام من ولده، وأضافت الآيات ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ أبقينا عليه ذكراً جميلاً، وأثنينا عليه ثناءً كثيراً، وحتّى من جاء بعده من المؤمنين بعشرات القرون يذكره بالجميل ﴿**سلام على نوح في العالمين**﴾ جعلنا التسليم عليه إلى يوم القيامة ﴿**إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾ مثل ما فعلنا بنوح نجزي كل من أحسن وأدّى الطاعات، واجتنب المعاصي، فنحن نكافيهم على ذلك إحساناً في الدنيا، وأماناً من العذاب والهوان في الآخرة.

(٩)

﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ **[القمر/٩]**.

في هذه السورة المباركة سبع آيات لا تتجاوز السبعة سطور تحدّثت عن أعظم حدث شهدته الكرة الأرضية في تأريخها الطويل، بأجمل بيان، وأسمى عبارة، ملؤها عبرة، وأنت حين تقرأ الآيات تأخذك القشعريرة والخوف من المصير الأسود الذي انتهى إليه أمر الناس جميعاً عدا قلة من المؤمنين.

نعود للآيات:

﴿**كذّبت قبلهم**﴾ قبل كفّار مكّة ﴿**قوم نوح فكذّبوا عبدنا**﴾ نوحاً كما كذّبك يا محمد هؤلاء الكفّار، وجحدوا نبوّتك ﴿**وقالوا مجنون وازدجر**﴾ زجر بالشتم والتهديد ﴿**فدعا ربّه أنّي مغلوب فانتصر**﴾ قال: يا رب غلبني هؤلاء الكفّار، فانتقم

لي منهم بالهلاك والدمار، نصرة لدينك ونبيّك.

ثم بيّن سبحانه إجابته لدعاء نوح عليه السلام فقال ﴿**ففتحنا أبواب السماء**﴾ أجرينا الماء من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعاً له، وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه سواه ﴿**بماء منهمر**﴾ منصب انصباباً شديداً لا ينقطع ﴿**وفجّرنا الأرض عيوناً**﴾ شققنا الأرض بالماء عيوناً حتّى جرى الماء على وجه الأرض ﴿**فالتقى الماء**﴾ فالتقى الماءان: ماء السماء وماء الأرض ﴿**على أمر قد قدر**﴾ على أمر قد قدّره الله تعالى وهو هلاكهم ﴿**وحملناه على ذات ألواح**﴾ وحملنا نوحاً على سفينة، ذات ألواح مركّبة بعضها إلى بعض ﴿**ودسر**﴾ هي المسامير التي شدّت بها السفينة ﴿**تجري**﴾ السفينة في الماء ﴿**بأعيننا**﴾ بحفظنا وحراستنا، وبمرأى منا ﴿**ولقد تركناها**﴾ تركنا هذه الفعلة التي فعلناها ﴿**آية**﴾ تركنا السفينة ونجاة من فيها، وإهلاك الباقين دلالة باهرة على وحدانية الله تعالى، وعبرة لمن اتعظ بها.

يقول أمين الإسلام: وكانت السفينة باقية حتّى رآها أوائل هذه الأمة عن قتادة ﴿**فهل من مدّكر**﴾ متذكّر يعلم أنّ ذلك حقّ فيعتبر به ويخاف ﴿**فكيف كان عذابي ونذر**﴾ هذا استفهام عن تلك الحالة ومعناه: التعظيم لذلك العذاب، أي كيف رأيتم انتقامي منهم، وإنذاري إيّاهم.

(١٠)

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ [**التحريم/١٠**].

قد يتهاون بعضهم في أداء الواجبات، وقد يقفز إلى المحرّمات، متّكلاً على شفاعة الأولياء، وهذا غاية الجهل والقرآن الكريم يصرّح ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [**الأنبياء/٢٨**] والمراد: إن هؤلاء الشفعاء من الأنبياء والأوصياء والصالحين لا يتقدّمون للشفاعة لأحد وهو غير مرضٍ عند الله سبحانه، لأن هناك قانوناً وضعه الخالق للبشرية لا يسمح لأحد مهما عظم أن يتخطّاه ويتجاوزه أبداً.

والقرآن الكريم جمع بين دفتيه ما تحتاجه البشرية من تشريع ومواعظ وأمثال وقصص تشير إلى بعض المفارقات والعجائب لأخذ العبر منها.

فهو يتحدّث عن امرأتين كانتا زوجتين لنبيين عظيمين ولكن لكفرهما برسالة السماء فقد شملهما عذاب الدنيا والآخرة ولم ينفعهما قربهما منهما أبداً.

كما يتحدّث عن امرأة أخرى كان زوجها أبغى رجل على وجه الأرض، وأبعدهم عن تعاليم السماء، ولكن إيمانها بالله ورسله جعلها في مصاف الأولياء المقرّبين.

قال تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين**﴾ أي نبيين من أنبيائنا ﴿**فخانتهما**﴾ كانت خيانتهما أنهما كانتا كافرتين، ولا تتجاوز ذلك لأنه لا يليق بمقام النبوة، والله سبحانه ينزّه أنبياءه وأولياءه أن يبتلوا به ﴿**فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً**﴾ لم يغن نوح ولوط مع نبوتهما عن امرأتيهما شيئاً، ولم يدفعا عنهما عذاب الدنيا ولا عذاب الآخرة ﴿**وقيل**﴾ ويقال لهما يوم القيامة ﴿**ادخلا النار مع الداخلين**﴾ أسوة بمن يدخل النار من العصاة. أمّا المرأة المؤمنة التي تحدّثت عنها الآية الكريمة فهي آسية بنت مزاحم، امرأة فرعون، إنّها آمنت بنبيِّ الله موسى عليه السلام حينما رأت المعجزات من العصا والظهور على السحرة، وعلم فرعون بإيمانها فنهاها فأبت، فأمر بطرحها بالشمس، وأن تشد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وأن تُلقى عليها صخرة عظيمة.

لم تعبأ بهذا كله واتجهت إلى الله سبحانه قائلة ﴿**قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة**﴾ استجاب الله دعاءها وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، فشاهدت وهي في العذاب ما أعدّ الله سبحانه لها في الجنان، ثم أمر سبحانه الملائكة أن تضلل لها من حرارة الشمس ﴿**ونجّني من فرعون وعمله**﴾ تريد من دينه ﴿**ونجّني من القوم الظالمين**﴾ من الأمّة التي التفّت بفرعون وتابعته.

ويقول مقاتل بن سليمان ـ وهو ممن لم يكن يسير بخط أهل البيت عليهم السلام فيتهم ـ يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في

المعصية، وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم[1].

(١١)

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة/١١].

ذكر الله سبحانه قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة من القرآن الكريم، كما أنزل سورة مستقلة باسمه الكريم اهتماماً بهذا الحدث العظيم فالبشرية لم تعذّب بأسرها إلاّ في هذه المرة.

إنّ المجتمع اليوم أولى وأحق بالإيمان بالله ورسوله من قبل، فالمؤمن من القرون الأولى ودليله على الإيمان ما يشاهده من معاجز الأنبياء عليهم السلام، والعصور التي تلت عصر الأنبياء عليهم السلام فدليل المؤمن العقل ويكفي حجّة، واليوم يأتي دور العلم بجانب العقل، وها هو يؤكّد كل ما ذكره القرآن والرسول، فليس من نظرية قرآنية في الكون إلاّ وشهد العلم بصحّتها، كذلك ما جاء فيه من قضايا طبيّة وغيرها، فتجدها موافقة للاكتشافات العلمية الحديثة حسبك ما أُلف فيها من كتب كثيرة تربو عن الحصر.

وهذا وغيره مما يلزم البشرية برسالة السماء، والعمل بشريعة الإسلام فإن الحجّة لزمتهم.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩].

وقاتل الله الشيطان، كيف يخدع الإنسان ويلويه عن طريق الحق ويورده المهالك ونهج الضلال.

نعود للآية الكريمة ﴿**إنّا لما طغى الماء**﴾ جاوز الحد المعروف حتى غرقت الأرض بمن عليها إلاّ من شاء الله نجاته ﴿**حملناكم في الجارية**﴾ حملنا آباءكم في السفينة ﴿**لنجعلها لكم تذكرة**﴾ لنجعل تلك الفعلة التي فعلناها من إغراق قوم نوح، ونجاة من حملناه عبرة لكم وموعظة، تتذكرون بها نعم الله تعالى وتشكرونه

(١) مجمع البيان، ٩ ـ ١٠/ ٦٤.

عليها، وتتفكّرون فيها فتعرفون كمال قدرته وحكمته.

(١٢)

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ **[نوح/١]**.

وما وقع للبشرية في عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الأوّل والأخير من نوعه، لذا استوجب تكرار الحديث عنه ليعتبر من جاء بعدهم من الأجيال، ويتيقّنوا أن القادر الجبار الذي أهلك البشرية بأسرها ما عدا أصحاب السفينة قادر أن يدمّر أي مجتمع أو فئة أو شخص مهما عظمت قوّته.

وما البراكين والزلازل والآفات السماوية الأخرى إلاّ صورة مصغّرة ليعتبر بها البشر ويسلكوا طريق الاستقامة والسداد.

بقي سؤال: نحن نرى بعض الطغاة، ومن تجاوز ظلمه الحد بمنجاة من عذاب السماء.

والجواب: إن الحكمة التي اقتضت أن يبقى فرعون أربعمائة سنة، يقتل العباد، ويخرّب البلاد، وحتى تجاوز في ذلك فادّعى الإلهية هي تكفي جواباً لذلك، كما يجب أن يتأمّل العاقل كيف أن الله سبحانه أهلكه وجنده، وأبقى جسده حتى الآن عبرة للبشرية، فعندها يطمئن أنّ هذا القادر العظيم لا يفوته أحد وهو كما قال سبحانه في سورة المعارج **﴿وما نحن بمسبوقين﴾** والمعنى: أن هؤلاء الكفار لا يفوتونه.

نحن لا ندرك أَبعاد المصلحة في ذلك، فقد يكون امتحاناً واختباراً لبعض الناس، أو لمصالح أخرى لا نحيط بأبعادها.

نعود للسورة المباركة:

﴿إنّا أرسلنا﴾ بعثنا **﴿نوحاً﴾** رسولاً **﴿ان أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾** أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا **﴿قال يا قوم﴾** أضافهم إلى نفسه، فكأنه قال: أنتم عشيرتي، يسوؤني ما يسوؤكم **﴿إنّي لكم نذَير مبين﴾** مخوّف مبيّن

وجوه الأدلة في الوعيد، وبيان الدين والتوحيد ﴿**أن اعبدوا الله واتقوه**﴾ اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتقوا معاصيه ﴿**وأطيعون**﴾ فيما آمركم به، لأنّ طاعتي مقرونة بطاعة الله، وطاعة الله واجبة عليكم لمكان نعمه التي لا توازيها نعمة منعم ﴿**يغفر لكم من ذنوبكم**﴾ فإنّكم إن فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم ﴿**ويؤخّركم إلى أجل مسمّى**﴾ وفي هذا دلالة على ثبوت أجلين، كأنّه شرط في الوعد بالأجل المسمّى عبادة الله والتقوى، فلما لم يقع ذلك منهم اقتطعوا بعذاب الأستئصال، قبل الأجل الأقصى بالأجل الأدنى. ثم قال ﴿**إن أجل الله**﴾ يعني الأقصى ﴿**إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون**﴾ صحة ذلك وتؤمنون به ﴿**قال**﴾ نوح ﴿**رب إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً**﴾ إلى عبادتك، وخلع الأنداد من دونك، وإلى الإقرار بنبوّتي ﴿**فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً**﴾ لم يزدادوا بدعائي إيّاهم إلاّ فراراً من قبوله، ونفاراً منه، وإدباراً عنه ﴿**وإنّي كلما دعوتهم**﴾ إلى إخلاص عبادتك ﴿**لتغفر لهم**﴾ سيئاتهم ﴿**جعلوا أصابعهم في آذانهم**﴾ لئلا يسمعوا كلامي ودعائي ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ غطّوا بها وجوههم لئلا يروني ﴿**وأصرّوا**﴾ داموا على كفرهم ﴿**واستكبروا استكباراً**﴾ إستكبروا وأَنفوا عن قبول الحق، وبلغ من إصرارهم أنّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح فيقول له: إحذر هذا لا يغوينك، فإنّ أبي قد ذهب بي إليه فحذّرني مثل ما حذّرتك ﴿**ثم إنّي دعوتهم جهاراً**﴾ بأعلى صوتي ﴿**ثم إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً**﴾ دعوتهم في العلانية وفي السر، ومعناه: إنّي سلكت معهم في الدعوة كل مذهب، وتلطّفت لهم في ذلك غاية التلطّف فلم يجيبوا ﴿**فقلت استغفروا ربّكم**﴾ اطلبوا منه المغفرة على كفركم ومعاصيكم ﴿**إنّه كان غفّاراً**﴾ لكل من طلب منه المغفرة ﴿**يُرسل السماء عليكم مدراراً**﴾ كثيرة الدرور بالغيث؛ وكانوا قد قحطوا وانقطع عنهم المطر، وهلكت أموالهم ومزارعهم، فلذلك رغّبهم في ردّ ذلك بالاستغفار مع الإيمان والرجوع إلى الله تعالى ﴿**ويمددكم بأموال وبنين**﴾ يكثّر أموالكم وأولادكم ﴿**ويجعل لكم جنّات**﴾ بساتين ﴿**ويجعل لكم أنهاراً**﴾ تسقون بها جنّاتكم.

ثم قال نوح عليه السلام على وجه التبكيت ﴿**مالكم**﴾ معاشر الكفّار ﴿**لا ترجون لله وقاراً**﴾ لا تعظّمون الله حقّ عظمته، فتوحّدوه وتطيعوه ﴿**وقد خلقكم أطواراً**﴾ خلقكم طوراً نطفة، ثم طورا علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم كسا العظام لحما،

ثم أنشأه خلقاً آخر، نبت له الشعر، وكمل له الصوت؛ ثم طلب منهم أن يتفكّروا في العوالم العلوية وما أودع فيها الخلاق العظيم من عجائب الصنعة ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً**﴾ واحدة فوق الأخرى كالقباب ﴿**وجعل القمر فيهن نوراً**﴾ جعل القمر نوراً في السماوات والأرض ﴿**وجعل الشمس سراجاً**﴾ مصباحاً يضيء لأهل الأرض، فهي سراج العالم، كما أنّ المصباح سراج الإنسان ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾ أنشأ جميع الخلق باغتذاء ما تنبته الأرض وينمو فيها ﴿**ثم يعيدكم فيها**﴾ في الأرض أمواتاً ﴿**ويخرجكم إخراجاً**﴾ منها عند البعث ﴿**والله جعل لكم الأرض بساطاً**﴾ مبسوطة ليمكنكم المشي عليها، والاستقرار فيها؛ ثم بين أنّه إنّما جعلها كذلك ﴿**لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً**﴾ طرقاً واسعة.

وإنّما عدّد سبحانه هذه الضروب من النعم امتناناً على خلقه، وتنبيهاً لهم على استحقاقه للعبادة خالصة من كل شرك، ودلالة على أنّه عالم بمصالحهم، ومدبّر لهم على ما تقتضيه الحكمة، فيجب أن لا يقابلوا هذه النعم الجليلة بالكفر والجحود. ثم عاد سبحانه إلى ذكر نوح عليه السلام بقوله: ﴿**قال نوح**﴾ على سبيل الدعاء ﴿**ربّ إنّهم عصوني**﴾ في ما أمرتهم به، ونهيتهم عنه ﴿**واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً**﴾ اتّبعوا أغنياء قومهم اغتراراً بما آتاهم الله من المال والولد ﴿**ومكروا مكراً كبّارا**﴾ مكر يمكر مكراً: دبّر الشرّ لغيره في خفية، واحتال لإيقاع الأذى به؛ والمراد: إنَّ مكرهم كان عظيماً، فقد استعملوا كل قواهم في صدّ نوح عليه السلام، وتعطيل شريعة السماء ﴿**وقالوا لا تذرنّ آلهتكم**﴾ لا تتركوا عبادة أصنامكم؛ ثم خصّوا أصناماً لهم معروفة ﴿**ولا تذرنّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا**﴾ وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها ثم عبدتها العرب فيما بعد ﴿**وقد أضلّوا كثيراً**﴾ أي ضلّ بعبادتها وبسببها كثير من الناس ﴿**ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالا**﴾ هلاكاً ﴿**مما خطيئاتهم**﴾ من أجل ما ارتكبوه من الخطايا والكبائر ﴿**اغرقوا**﴾ على وجه العقوبة ﴿**فادخلوا ناراً**﴾ بعد ذلك ليعاقبوا فيها ﴿**فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً**﴾ لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله ﴿**وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً**﴾ نازل دار، والمعنى: لا تدع منهم أحداً إلاّ أهلكته ﴿**إنّك أن تذرهم يضلّوا عبادك**﴾ إن تتركهم ولم تهلكهم يضلّوا عبادك عن الدين بالإغواء، والدعاء إلى خلافه ﴿**ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً**﴾ ولا يلدوا إلاّ من

يكون عند بلوغه كافراً. ثم دعا لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات فقال **﴿ربّ اغفر لي ولوالدي﴾** واسم أبيه لمك بن متوشلخ، واسم أمّه سمحاء بنت أنوش، وكانا مؤمنين **﴿ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾** دخل داري **﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾** عامة **﴿ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً﴾** هلاكاً ودماراً.

وصايا الصديقين

إنّ العمر الذي تجاوز آلاف الأعوام، وجلّه في النبوة والدعوة إلى الله جلّ جلاله قد تمخض عن وصية مهمة أوصى بها أعزّ أحبائه، والقدوة من أبنائه.

وأنت أعزّك الله وسلمك لو دأبت على هذه الوصية الخفيفة على اللسان، والثقيلة في الميزان لملأت صحفاً كثيرة بالحسنات، تكون زاداً لك في يوم فقرك وفاقتك.

روى الثعلبي في عرائس المجالس: أن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ساماً وهو بكره فقال: يا بني أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين فأما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله والكبر فإنّه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر وأما اللذان أوصيك بهما فإني رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى قول لا إله إلا الله، وسبحان الله، فإن قول لا إله إلا الله لو جمعت السماوات السبع والأرضون السبع لخرقتها حتى تبلغ إلى ربها، ولو جعلت لا إله إلا الله في كفة ميزان لرجحت بالسماوات السبع والأرضين السبع وما فيها؛ وأوصيك بسبحان الله فإنها صلاة الخلق وبها يُرزقون.

النبي هود عليه السلام

إنّ السورة الحادية عشرة من القرآن الكريم هي سورة هود عليه السلام، فقد اشتملت على قصته مع قومه، علماً أنّ القرآن الكريم ذكر هوداً عليه السلام في سور أخرى، وذكر عاداً قوم هود في أربع وعشرين آية.

وعاد أمة عاتية، لم تزدهم مواهب الله جلّ جلاله التي أنعم بها عليهم من طول الأعمار، وصحة الأجسام، وكثرة الخيرات، وتوافر النعم، إلاّ بعداً عن نهج الحق، واتباعاً للشيطان، وتمادياً في الهوى، وتركاضاً في الضلال.

ولم يعاجلهم جلّ جلاله بالعذاب، بل تابع عليهم الحجج، وأراهم طرفاً من البلاء لينيبوا ويعودوا إلى طريق الحق، فقد قطع عنهم جلّ جلاله المطر، حتى هلكت ماشيتهم، وتلفت زروعهم وأشجارهم، ونبيّهم يصرخ فيهم ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود/٥٢].

وبعد تماديهم في الغي، وإصرارهم على الضلال، استوجبوا من الله جلّ جلاله العذاب، فخسروا الدنيا وبهجتها، والآخرة ونعيمها، شأن جميع المكذّبين.

يتجلّى اللطف الإلهي بهذه الأمّة العاتية أن الله سبحانه أرسل إليهم نبياً من أشرافهم ليكون ذلك أدعى لهدايتهم واستجابتهم للحق.

كان عليه السلام ينذرهم ما حلّ بقوم نوح عليه السلام ـ علماً أن بين الأمتين زمناً قليلاً ـ كما أنه عليه السلام يذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم ومواهبه والتي لم يمنحها غيرهم.

ومع كل هذا لم تجد السبل نفعاً، لأن الملأ ـ الرؤساء وأولياء الأمور ـ يصرّون على العناد، والجمهور تبع لهؤلاء، فكانت الكارثة العظمى بالهلاك الشامل للبشريّة عدا قلّةٍ من المؤمنين.

في العرض القرآني المجيد

(١)

١ ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود/٥٠].

فهو أخوهم في النسب لا في الدين.

٢ ـ ﴿اعبدوا الله﴾:

وهذا هو الطلب الأوّل والأخير للأنبياء عليهم السلام من أممهم، وما أسهله من طلب، وما أشد عتوهم وتمرّدهم على الإستجابة.

٣ ـ (استغفروا ربّكم):

الاستغفار باب النجاة، به تُنال كرامة الدنيا والآخرة، وبه تُغفر الذنوب، وبه ينزل الغيث، وبه العزّة والحياة الكريمة غدا **(في مقعد صدق عند مليك مقتدر)**.

٤ ـ (فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون):

فاحتالوا واجتهدوا أنتم وآلهتكم في انزال مكروه بي ثم لا تمهلوني.

قال الزجاج: وهذا من أعظم آيات الأنبياء، أن يكون الرسول وحده، وأمّته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني، فلا يستطيع واحد منهم ضرّه، وكذلك قال نوح لقومه: فأَجمعوا أمركم وشركاءكم الآية، وقال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم: فإن كان لكم كيد فكيدون، ومثل هذا القول لا يصدر إلاّ عمن هو واثق بنصر الله، وبأنه يحفظه عنهم، ويعصمه منهم.

٥ ـ (إني توكلت على الله):

إنّ هذا التحدّي منه عليه السلام لأُمّة كبيرة جبّارة ناتج عن الإعتماد على الله جل جلاله، وتفويض الأمر إليه، وحقّ لمن صدق توكّله أن يتحدّى الدنيا بأسرها.

إن أعمال بعضهم من مصانعة الظالمين، والانقياد لهم، ناشئةٌ من عدم التوكّل على الكافي العظيم.

ويقول أمين الإسلام الطبرسي في تفسيرها: فوّضت أمري إلى الله سبحانه متمسّكاً بطاعته، تاركاً لمعصيته، وهذا هو حقيقة التوكّل على الله.

٦ ـ (ولا تضرّونه شيئاً):

لا يلحقه ضرر بتولّيكم وإعراضكم، كذلك لا تنفعه طاعتكم وهذا الذي قاله نبيُّ الله هود عليه السلام لقومه، هو عينه ما يقال لنا اليوم، وأن الله سبحانه غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه **﴿إن تكفروا فإنّ الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وأن تشكروا يرضه لكم﴾ [الزمر/٧]**. ولكنّه وهو الرؤوف الرحيم أراد بطاعتهم أن ينالوا خير الدنيا والآخرة، وبانتهائهم عن معاصيه أنْ يجنّبوا أنفسهم مهالك الدنيا والآخرة.

٧ ـ (نجّينا هوداً والذين آمنوا معه)

والغريب في الدنيا أنَّ الأمم المتأخرة تجد آثار العذاب الذي حلّ بالعصاة من قبلهم، ويشاهدون آثار الدمار والفناء، وأنه لم ينج منهم إلاّ المطيعون، ومع ذلك نرى إصرارهم على البغي والضلال.

ويقول المفسّرون: إن المؤمنين من قوم هود عليه السلام، والذين تحدّثت الآية الكريمة عن نجاتهم كانوا أربعة آلاف، وهلك الباقون بالعذاب.

٨ ـ (وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة):

ولو كانت المشكلة بعذاب الدنيا لهانت، ولكنّ المشكلة العظمى هي عذاب الآخرة، ونار سجّرها جبّارها لغضبه، فالحذر كل الحذر من التعرّض لغضبه ومخالفة أوامره.

نعود للآية الكريمة:

﴿**وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة**﴾ وأُتبع عاد بعد إهلاكهم في الدنيا بالإبعاد عن الرحمة، فإن الله تعالى أبعدهم من رحمته، وتعبّد المؤمنين بالدعاء عليهم باللعن ﴿**ويوم القيامة**﴾ أي وفي يوم القيامة يبعدون من رحمة الله كما أبعدوا في الدنيا منها، ويلعنون بأن يدخلوا النار، فإن اللعنة الدعاء بالإبعاد.

(٢)

١ ـ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء/١٢٤].

في هذه السورة عرض لقصة عاد مع نبيّهم هود عليه السلام بدأ سلام الله عليه الحوار معهم ﴿**ألا تتقون**﴾ ثم كرّر الأمر بالتقوى عدّة مرّات اهتماماً بها، ولأنها مفتاح كل خير، وبداية للهداية والرشاد وإنَّك لو بحثت عن جميع الذين نجوا وعبروا الصراط إلى الجنة لوجدتهم المتقين، كما إنَّ جميع الذين زلّت أقدامهم عليه وهوَوا إلى الجحيم هم غير المتقين، فالتقوى أساس كل خير، وباب يفضي بِمن دخله إلى جنّات الخلود.

والتقوى: هي مراقبة الله جلّ جلاله عند كل عمل، فإن كان طاعة أتى به، وإن كان عصياناً تركه.

٢ ـ ﴿الذي أمدّكم بأنعام وبنين * وجنّات وعيون﴾:

ومن سيرة البشر أنَّهم يشكرون المنعمين عليهم، ويكافئون المحسنين إليهم،

ويحاولون دائماً أداء حقوقهم، ومكافأتهم على إحسانهم، بينما تراهم في إعراض عن المنعم العظيم، والمحسن الكريم.

إنّ كل فرد منا ليعجز عن أداء شكر بعض ما أنعم الله به عليه، وأي نعمة يستطيع شكرها؟ نعمة العافية، والتي لا يساويها شيء، أو نعمة الأمان، أم نعمة الغنى؟ إلى نعم كثيرة لا يمكن حصرها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم/٣٤].

والشكر الذي يجب أن نؤدّيه لهذا المنعم العظيم هو الإستقامة، وسلوك النهج الذي أُمرنا بسلوكه، علماً أن فائدة ذلك عائدة علينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت/٦].

وجاء في التوراة: يا موسى قل لبني إسرائيل: لا تبطرنّكم النعمة فيعاجلكم السلب، ولا تغافلوا عن الذكر والشكر فتسلبوا النعم، ويحل بكم الذل، وألحّوا بالدعاء تشملكم الإجابة، ويهنئكم النعمة بالعافية(١).

لقد ذكّرهم نبيّهم بتتابع نعم الله جلّ جلاله عليهم، وأنّ الواجب عليهم مراعاتها، وأداء شكرها، حذراً من نفورها؛ فقد كانت مساكن عاد في الأحقاف وكانت أخصب بلاد العرب وأكثرها ريفاً وأنهاراً وجناناً(٢).

٣ ـ ﴿إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾

ولما كانت نعم الله سبحانه وتعالى متتابعة عليهم، وهم في غاية الإعراض فالمتوقّع أن تكون النتيجة الحتمية ما ذكره عليه السلام من حلول عذاب عظيم هو عذاب الآخرة، يضاف إليه عذاب الدنيا الذي أنذروا به، وحذّروا منه.

---

(١) إرشاد القلوب: ١/ ٩٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢٠/ ٥٦٤.

٤ ـ ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ :

فالله سبحانه لا يعاجل العبد قبل قيام الحجّة عليه، وإرسال الرسل، لقد ذكرت الآية الكريمة أنّ الله سبحانه تابع على عاد وثمود بالرسل، للأجيال التي عذبها منهم، ولمن تقدمهم من الآباء.

٥ ـ ﴿ألا تعبدوا إلاّ الله﴾:

ما أسهل ما طلبوا منهم، وما أشد عنادهم وتكذيبهم.

لقد تركوا عبادة خالق قادر عزيز جبار، وعبدوا من دونه حجراً لا يسمع ولا يبصر، ولا يملك لهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضرّاً.

٦ ـ ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض﴾:

وكأنّ أعظم دوافع الكفر هو الكبرياء والاستعلاء، ومن الغريب أن تجد الكبرياء يمنعهم من الإيمان بالمبدع الخلاّق، والأخذ بتعاليم رسله، وهم في الوقت نفسه لا يجدون غضاضة من التذلل والإستجداء أمام أحجار لا تضر ولا تنفع.

ثم انتقل بهم الشيطان إلى مرحلة أخرى هي الغرور، والاعتداد بالنفس، بل وحتّى تصوّروا أن بإمكانهم أن يدفعوا عنهم بطش السماء، ألا تسمعهم وهم يقولون لنبيّهم لما هدّدهم بعذاب الله **﴿وقالوا من أشدّ منّا قوّة﴾**.

لقد نسوا أو تناسوا قوّة الخلاّق العظيم، الذي منحهم هذه القوّة **﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة﴾**.

وهم بعد هذا وذاك **﴿وكانوا بآياتنا يجحدون﴾** كانوا منكرين لمعالم التوحيد، ودلائل النبوة.

٧ ـ ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾:

عاصفاً شديداً ﴿في أيام نحسات﴾ نكدات مشؤومات.

فبعد سنين متطاولة من الإنذار والوعيد استوجبوا العذاب، لقد أرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة/٧ ـ ٨].

٨ ـ ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾:

إن هذا الذي أصابهم من الهلاك، وذهاب النفوس والأهل والأموال، إنّما هو عذاب الدنيا، وهذا شأن الله جلّ جلاله مع جميع الكافرين، فهم يودّعون الحياة بأسوأ ما يكون.

٩ ـ ﴿ولعذاب الآخرة أخزىٰ﴾:

ومع أن الذي أصابهم ليس بالقليل ولكنّه لا شيء بالنسبة لما أُعِدَّ لهم من العذاب، ولو لم يكن في ذلك العذاب إلا الدوام والاستمرار لكفى بذلك خزياً، فكيف إذا انضمت اليه السلاسل والأغلال، وشرر يتصاعد منه كأنّه الجمال.

(٣)

١ ـ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] [فصلت/١٣].

وهذه الآيات في غاية الشدّة والهول والفزع، خوّف بها جلّ جلاله مشركي مكة، مذكّراً إيّاهم بما فعله بمجاوريهم من العذاب والنكال، وآثارها التي لا تزال

(١) الصاعقة: كل عذاب مهين.

باقية يشاهدونها في أسفارهم.

إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قرأ هذه السورة على جبار قريش وطاغيتها (الوليد بن المغيرة) وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا﴾ أخذه الرعب والفزع، فدخل بيته، وأوصد عليه الباب، ولم يخرج إلى ثلاثة أيام حتى جاءه ابن أخيه أبو جهل فصرفه عن الدنو إلى طريق الحق والرشاد.

(٤)

١ ـ ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف/٢١].

سماه أخاهم على طريقة العرب في الكلام، فهم يقولون: جاء أخو تميم، يريدون أنه تميمي.

فالله جلّ جلاله جعل رسله وأنبياءه من الأمم التي بعثوا إليها، لأن ذلك ادعى لإيمانهم واستجابتهم.

والأحقاف: رمال مستطيلة بناحية شجر، وكانت عاد بين جبال مشرفة على البحر بالشجر من بلاد في اليمن.

٢ ـ ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾

والله جلّ جلاله تابع في إرسال رسله للناس من قبل هود ومن بعده عليه السلام، ويكفي أن تعلم أن الله سبحانه خلق آدم عليه السلام، وجعله نبياً قبل أن يخلق بشراً، إتماماً للحجة **﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩].**

٣ ـ ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾:

وهذا مطلب الرسل الأوّل والأخير، ما أيسره من أمر، وما أعظم نفعه في الدنيا والآخرة، وما أكثر المعرضين عنه قديماً وحديثاً.

٤ ـ ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾.

لقد خوّفهم صلوات الله عليه بما لا مزيد عليه، ولبث فيهم عمراً ليس بالقليل، يحذّرهم من غضب الجبّار، فما زادهم ذلك إلاّ عناداً وتمادياً في الباطل.

٥ ـ ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾

والمعنى إنما جئت لتصرفنا عن أصنامنا.

أُنظر وتأمّل كيف شدّهم الشيطان إلى أصنامهم كما فعل بسلفهم قوم نوح عليه السلام، ألا تسمعهم يقولون ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح/٢٣].

وهكذا كان تعلّق العرب بها حتى جعلوها فوق الكعبة المعظّمة، لقد بلغ بهم التعلّق والجرأة على الله تعالى أَن طلبوا من هود عليه السلام إنزال العذاب عليهم **﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**.

٦ ـ ﴿قال إنّما العلم عند الله﴾

ومهمّة الأنبياء عليهم السلام الإنذار، أمّا موضوع العذاب، ومتى ينزل بالمكذّبين فهو مما اختصّ بعلمه الله جلّ جلاله، وهم لا يعلمون ذلك إلاّ إذا أعلمهم الله سبحانه، ألا تسمعه صلوات الله عليه يقول: **﴿إنّما العلم عند الله﴾** بالوقت الذي يوافيكم فيه العذاب **﴿وأبلّغكم ما أرسلت به﴾** من دعائكم إلى الاستقامة والسداد.

٧ ـ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾:

والجهل هو السبب الأوّل والأخير للضلال، وهو الذي أردى الأمم والشعوب ونكبهم في الدنيا قبل الآخرة، وعامل الجهل هو اليوم الشاخص العظيم الذي يهوي بالناس إلى النار.

٨ ـ ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾:

العارض: سحاب يعرض في ناحية من السماء ثم يطبّق السماء.

لقد استبشروا كثيراً بذلك لأنهم كانوا يعانون الجفاف، فقالوا وهم في نشوة الفرح: **﴿هذا عارض ممطرنا﴾**.

٩ ـ ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾:

أجابهم عليه السلام: ليس الأمر كما توهّمتم، بل هو العذاب الذي طلبتم تعجيله، فقد وافاكم.

ثم أخذ يصفه لهم ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ يقضي عليكم.

١٠ ـ ﴿تدمّر كل شيء بأمر ربّها﴾:

إنّ الريح التي أهلكتهم لم يسبق للبشرية أن واجهت مثلها أبداً ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة/٧].

وقالوا في وصفها: إنها لتمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض حتى ترى الظعينة كأنّها جرادة.

وكان هود عليه السلام قد جمع المؤمنين في حظيرة جالسين فيها مسرورين فرحين، لم يصبهم منها أدنى أذى.

١١ ـ ﴿فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم﴾:

لقد هلكوا جميعاً، وبقيت آثار ديارهم شاخصة لأجل أن يعتبر بذلك من جاء من بعدهم، فلا يتجاوزوا تعاليم السماء.

١٢ ـ ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾:

وهذا تهديد لجميع الأمم والشعوب، ولكل فرد من المجتمع.

والمراد: إن الدمار والعذاب الذي أصاب قوم هود عليه السلام يصيبهم أيضاً إذا خالفوا وتنكّبوا طريق الرشاد.

ألا تسمع ما جاء في قصة قوم لوط عليه السلام ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود/٨٣].

والمعنى: وما تلك الحجارة من الظالمين من أمّتك يا محمد ببعيد.

١٣ ـ ﴿ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم﴾:

الآية الكريمة تشير إلى أنّ الله جلّ جلاله أعطاهم من الإمكانيات الهائلة، والقدرات العظيمة أكثر مما أعطى العرب، أو الأمم المعاصرة للرسالة؛ لقد وهبهم

بسطة في الأجسام، وطولاً في الأعمار، وزيادة في الأموال، ومع تلك النعم أصرّوا على الكفر حتّى نزل بهم العذاب.

١٤ ـ **﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾**.

الآية الكريمة تشير إلى أنَّ الله جلّ جلاله وهب لهم من العقول والحواس ما يستدلّون بها على الحق وصدق النبيِّ المرسل، والمراد: إنَّ الحجّة لزمتهم **﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾** لأنهم لم ينتفعوا بذلك كلّه لانصرافهم عن النظر والتدبّر، وإمعانهم في الكفر والضلال.

١٥ ـ **﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾**.

الجحود: هو الإنكار مع العلم، والمراد: إن جحودهم وكفرهم غطّى على عقولهم، فلم يدعهم يتبيّنوا الطريق مع وضوحه.

١٦ ـ **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾**

حاق بهم: حلّ بهم، والمراد: نزل بهم ما كانوا يسخرون به من التهديد والوعيد الذي طالما سمعوه من نبيّهم.

(٥)

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات/٤١].

إنّ هذه السورة ذكرت الأمم المعذبة، والعذاب الذي عذّبوا به، فهي بعد أن انتهت من حديث فرعون وقومه، وغرقهم تحدّثت عن عاد **﴿وفي عاد﴾** أيضاً آية فيها دلالة وعظة وعبرة **﴿إذ أرسلنا عليهم﴾** أطلقنا عليهم **﴿الريح العقيم﴾** وهي التي عقمت عن أن تأتي بخير: من تنشئة سحاب، أو تلقيح شجر، أو تذرية طعام، أو نفع حيوان؛ فهي كالمرأة الممنوعة الولادة، إنّها ريح الهلاك. ثم وصفها فقال: **﴿ما تذر من شيء أتت عليه﴾** لم تترك هذه الريح شيئاً تمرّ عليه **﴿إلاّ جعلته كالرميم﴾** كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس وديس.

(٦)

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر/١٨].

ومن إعجاز القرآن الكريم أنك تجد أكثر القصص تكرّر مراراً، وفي كل مرّة تجد للقصة حلاوة ولذّة لا تجد بعضها لأعظم القصاصين.

وأيضاً تجد في كل مرّة يستعرض فيها القرآن الموضوع جوانب جديدة كأنّك لم تقرأها من قبل.

إنّ قصة قوم لوط عليه السلام تكرّرت في عشر سور وهي وإن كانت في حادثة معيّنة وعذاب أمّة إلا أنّك تجد في كل عرض آفاقاً وألواناً من العبر والمعارف والإبداع.

وثمة أمر آخر في التكرار هو التأكيد على العظة، وأخذ العبرة، وإقامة الحجّة.

في هذه السورة عرض لما حلّ ببعض الأمم يختم بقوله: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر**﴾ متعظ معتبر، ثم يبدأ بقصّة عاد ﴿**كذّبت عاد**﴾ بالرسول الذي بعثناه إليهم، وهو هود عليه السلام، فاستوجبوا الهلاك والدمار ﴿**فكيف كان عذابي**﴾ لهم ﴿**ونذر**﴾ وإنذاري إيّاهم ثم بيّن كيفية إهلاكهم ﴿**إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا**﴾ شديدة الهبوب ﴿**في يوم نحس**﴾ في يوم شؤم ﴿**مستمر**﴾ دائم الشؤم، استمر عليهم بنحوسته سبع ليال وثمانية أيام حتى قضى عليهم ﴿**تنزع الناس**﴾ تقتلع هذه الريح الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم فيصيرون ﴿**كأنّهم أعجاز نخل منقعر**﴾ أسافل نخل منقلع، لأن رؤوسهم سقطت عن أبدانهم ﴿**فكيف كان عذابي ونذر**﴾ وهو تعظيم العذاب النازل بهم، وتخويف للكفار من أن يحلّ بهم.

(٧)

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة/٦].

افتتح الله سبحانه هذه السورة بذكر أهوال القيامة وعذابها وحال الأمم المكذبة بها[1] ثم بدأ بذكر ثمود ـ قوم صالح عليه السلام ـ وما نزل بهم من العذاب والهوان لتكذيبهم بها، ثم أخبر سبحانه عن عاد وهم قوم هود عليه السلام ، فقال: ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**﴾ باردة، شديدة العصوف، متجاوزة للحد المعروف ﴿**عاتية**﴾ عتت على خزّانها في شدة الهبوب.

قال قبيصة بن ذؤيب: ما يخرج من الريح شيء إلاّ عليها خزّان يعلمون قدرها وعددها وكيلها، حتى كانت التي أرسلت على عاد فاندفق منها فهم لا يعلمون قدر غضب الله، فلذلك سميت عاتية ﴿**سخّرها عليهم**﴾ سلّطها الله، وأرسلها عليهم ﴿**سبع ليال وثمانية أيام**﴾ وهي التي تسميها العرب أيام العجوز، لأنها في عجز الشتاء ﴿**حسوما**﴾ متتابعة ليست لها فترة، تتابع عليهم العذاب حتى استأصلهم ﴿**فترى القوم فيها**﴾ في تلك الأيام والليالي ﴿**صرعى**﴾ مصروعين ﴿**كأنّهم أعجاز نخل خاوية**﴾ أصول نخل بالية نخرة ﴿**فهل ترى لهم من باقية**﴾ من بقية.

ما خلق الله مؤمناً إلاّ وله عدوّ يؤذيه

هذه سنّة الحياة، أو هي المرتبة العليا التي أعدّها الله جلّ جلاله لأوليائه وعباده الصادقين، لترتفع عنده منازلهم، وتسمو مراتبهم، وليتعلّم الناس منهم الصبر على نوائب الدهر، ومكاره الحياة.

والحديث عن نبي الله هود عليه السلام :

---

(١) والقيامة جزءٌ من نظام السماء الذي أمر الله سبحانه عباده بالإيمان به، والاستعداد لملاقاته؛ والتزود له بالأعمال النافعة؛ وترك الأعمال التي يؤاخذون بها فيها.

يتحدّث القمي عن عاد: وكان لهم زرع ونخيل كثير، ولهم أعمار طويلة، وأجسام طويلة، فعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد، فأبوا ولم يؤمنوا بهود عليه السلام، وآذوه، فكفّت السماء عنهم سبع سنين حتى قحطوا، وكان هود عليه السلام مزارعاً، وكان يسقي الزرع، فجاء قوم إلى بابه يريدونه، فخرجت إليهم امرأة شمطاء(١) عوراء، فقالت: من أنتم؟

فقالوا: نحن من بلاد كذا وكذا، أجدبت بلادنا فجئنا إلى هود عليه السلام نسأله أن يدعو الله حتى تمطر وتخصب بلادنا.

فقالت: لو استجيب لهود عليه السلام لدعا لنفسه، فقد احترق زرعه لقلّة الماء.

قالوا: فأين هو؟

قالت: في موضع كذا وكذا، فجاؤوا إليه فقالوا: يا نبي الله قد أجدبت بلادنا ولم تمطر، فاسأل الله أن يُخصب بلادنا وتمطر فتهيّأ للصلاة، وصلى ودعا لهم، فقال لهم: ارجعوا فقد أمطرتم وأخصبت بلادكم.

فقالوا: يا نبي الله إنا رأينا عجباً.

قال: وما رأيتم؟

قالوا: رأينا في منزلك امرأة شمطاء عوراء، قالت لنا: من أنتم، وما تريدون؟

قلنا: جئنا إلى هود عليه السلام ليدعو الله فتمطر، فقالت: لو كان هود داعياً لدعا لنفسه، فإنّ زرعه قد احترق.

فقال هود: تلك أهلي، وأنا أدعو الله لها بطول البقاء.

فقالوا: وكيف ذلك؟

قال: لأنه ما خلق الله مؤمناً إلاّ وله عدوّ يؤذيه، وهي عدوّتي، لئن يكون عدوّي ممن أملكه خير من أن يكون عدوّي ممن يملكني(٢).

---

(١) الشَّمط = بياض الرأس خالطة سواد.

(٢) تفسير القمّي: ١/٣٥٨.

النبي صالح عليه السلام

عبادة الأصنام

ومن عجائب الدنيا أن يعمل الإنسان صنماً من حجارة أو حديد أو نحاس أو أيّ شيء آخر ثم يتوجّه لذلك الصنم بالعبادة والدعاء والتوسّل، يصلّي له، ويذبح له، ويتقرّب إليه بكل ما يتقرّب مخلوق لخالقه، والأعجب أنّ في الأمة الشعراء والعلماء وغيرهم.

إنّ العقل لا يكاد يصدّق هذا اللون من العقلية وهذا الإنحطاط الذي منيت به البشرية، ولعلّ الاستغراب من ذلك يزول إذا علمت بأنّه يوجد الآن ملايين من الهنود يقدّسون البقر، يمسحون وجوههم بأبوالها ويتبركون بأقذارها، في عصر العلم والحضارة، والصعود إلى القمر.

وليس من تعليل لهذا الإنحطاط البشري قديماً في عبادة الأصنام، وجديداً ـ كما نشاهده ـ في عبادة البقر إلاّ القوى الشيطانية، ألا تسمعه يقول للجليل جلّ جلاله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص/٨٣].

ويحكي سبحانه وتعالى قوله: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ **[الأعراف/١٧]**.

ويقول سبحانه وتعالى: **﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين﴾ [الأعراف/١٧]**.

وأعجب من هذا وذاك شرب الخمر، فالأديان والشرائع كلّها مجمعة على

تحريمه، والطب قديماً وحديثاً يعدّد الأمراض الكثيرة المتولّدة من شربه، وأنّه يؤدّي بشاربه دائماً إلى مرض القلب، والانهيار العصبي، وتشمع الكبد وما إلى ذلك؛ أضف إلى ذلك سوء الطعم، وذهاب المال والعقل، ومع ذلك فالبشر عاكفين على شرابه بما فيهم المسلمون؛ وكلمة الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: شارب الخمر كعابد الوثن[1]، لأن كلاً منهما ضيّع أعظم مواهب الله تعالى عنده وهو العقل، وأخذ يتخبّط في الجهل والإنحطاط.

إنّ أعظم مشكلة واجهت الأنبياء عليهم السلام هي مشكلة عبادة الأصنام، ألا تسمع ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **[ابراهيم/ ٣٥ - ٣٦]**.

ويقول إلياس عليه السلام لقومه موبّخاً: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ﴾ **[الصافات/ ١٢٥]**.

وعانى نبي الله صالح عليه السلام من عبادة قومه للأصنام أعظم العناء وأطوله، فقد لبث فيهم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى أكثر من مائة عام وهم لا يزدادون إلاّ بعداً عن الحق.

ورغم أنّ جل الأمم التي عذّبت كان سبب عذابهم هو عبادتهم للأصنام، فقد استمرّ العرب وغيرهم من الأمم على عبادتها، حتى جاء الإسلام وللعرب ثلاثمائة وستون صنماً على ظهر الكعبة المعظّمة، مضافاً إلى أصنامهم التي في غيرها؛ ويوم فتح مكة المكرّمة أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام بتكسيرها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **[الأنعام/ ١١٥]**.

المعجز الأكبر

ومن لطف الله تعالى بالبشر أن أرسل إليهم الأنبياء عليهم السلام، وأيّدهم بالمعاجز، ليتبين الصادق من الكاذب، وإقامة للحجة على الخلق ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ

(١) مجمع البيان: ٣/ ٢٣٩.

ٱلْبَـٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩].

ومن غرائب الدنيا أن تسأل الأمة نبيّها معجزاً ويأتيها به النبي ومع ذلك لا تؤمن؛ حتّى وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، فقد سألته قريش أن يأمر القمر في ليلة البدر أن ينشق إلى قسمين، يذهب نصفه يميناً ونصفه شمالاً، فأشار إليه عليه السلام فانشق، ثم طلبوا منه أن يشير إليه فيلتئم، ففعل، ومع ذلك لم يزدادوا إلاّ عتوّاً.

وطلب قوم صالح عليه السلام من نبيّهم معجزاً خارقاً، هو أن يخرج لهم من الجبل ناقة حمراء شقراء وبراء عشراء، بين جنبيها ميل.

قال الإمام الباقر عليه السلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأل جبرائيل عليه السلام كيف كان مهلك قوم صالح؟

فقال: يا محمد إنّ صالحاً بُعث إلى قومه وهو ابن ست عشرة سنة، فلبث فيهم حتى بلغ عشرين ومائة سنة لا يجيبونه إلى خير، وكان لهم سبعون صنماً يعبدونها من دون الله عزّ وجلّ، فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم بعثت إليكم وأنا ابن ست عشرة سنة، وقد بلغت عشرين ومائة سنة، وأنا أعرض عليكم أمرين: إن شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم فيما سألتموني الساعة، وإن شئتم سألت آلهتكم فإن أجابتني بالذي أسألها خرجت عنكم، فقد سئمتكم وسئمتموني.

قالوا: قد أنصفت يا صالح، فاستعدّوا ليوم يخرجون فيه، فخرجوا بأصنامهم إلى ظهرهم[1]، ثم قرّبوا طعامهم وشرابهم، فأكلوا وشربوا، فلما فرغوا دعوه فقالوا: يا صالح سل، فقال لكبيرهم: ما اسم هذا؟

قالوا: فلان.

فقال له صالح: يا فلان أجب، فلم يجبه.

فقال صالح: ما له لا يجيب؟

قالوا: ادع غيره. فدعاها كلها بأسمائها فلم تجبه.

فقالوا: تنح عنّا ودعنا وآلهتنا ساعة؛ ثم نحّوا بسطهم وفرشهم، ونحّوا

(١) المراد بالظهر: الفضاء الذي خارج المدينة.

ثيابهم وتمرّغوا على التراب، وطرحوا التراب على رؤوسهم وقالوا لأصنامهم: لئن لم تجبن صالحاً اليوم لتفضحن. ثم دعوه فقالوا: يا صالح ادعها، فدعاها فلم تجبه.

فقال لهم: يا قوم قد ذهب صدر النهار ولا أرى آلهتكم تجيبُني فاسألوني حتى أدعو إلهي فيجيبكم الساعة.

فانتدب له منهم سبعون رجلاً من كبرائهم، والمنظور إليهم منهم فقالوا: يا صالح نحن نسألك فإن أجابك ربّك اتبعناك وأجبناك، ويبايعك جميع أهل قريتنا.

فقال لهم صالح عليه السلام: سلوني ما شئتم.

فقالوا: تقدّم بنا إلى هذا الجبل ـ وكان الجبل قريباً منهم ـ فانطلق معهم صالح، فلما انتهوا إلى الجبل قالوا: يا صالح ادع لنا ربّك يخرج لنا من هذا الجبل الساعة ناقة حمراء شقراء وبراء عشراء، بين جنبيها ميل.

فقال لهم صالح: لقد سألتموني شيئاً عظيماً عليّ، ويهون على ربّي جلّ وعزّ، فسأل الله تعالى ذلك فانصدع الجبل صدعاً كادت تطير منه عقولهم لما سمعوا ذلك، ثم اضطرب ذلك الجبل اضطراباً كالمرأة إذا أخذها المخاض، ثم لم يفجأهم إلاّ ورأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع، فلما استتمت رقبتها حتى اجترّت، ثم خرج سائر جسدها ثم استوت قائمة على الأرض، فلما رأوا ذلك قالوا: يا صالح ما أسرع ما أجابك ربّك، ادع لنا ربك يخرج لنا فصيلها.

فسأل الله عزّ وجلّ ذلك فرمت به فدب حولها فقال لهم: يا قوم أبقي شيء؟

قالوا: لا، انطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأينا ويؤمنون بك.

فرجعوا فلم يبلغ السبعون إليهم حتى ارتدّ منهم أربعة وستون رجلاً وقالوا: سحر وكذب، فانتهوا إلى الجميع فقال الستة حقّ، وقال الجميع: كذب وسحر، فانصرفوا على ذلك ثم ارتاب من الستة واحد فكان فيمن عقرها[1].

(١) الكافي: ٨/١٨٦.

هلاك الظالمين

يتابع الله سبحانه وتعالى بإرسال الأنبياء عليهم السلام والآيات، ويقيم الحجج انقاذاً لعباده، ودعوة لهم إلى سبيل النجاة، ويتئنّاهم فلا يعجّل عليهم بالمكروه، ودائماً يبتليهم ببعض البلاء كي يرجعوا إلى الحق، ليكون البلاء الجزئي رادعاً لهم.

وعند استكمال المدة، وعدم الرجوع إلى طريق الحق ومنهج العدل، تحقُّ عليهم كلمة العذاب، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويصرم حبل حياتهم، مضافاً لما أعدّ لهم من الخزي الطويل، والهوان الدائم في الآخرة.

التدمير

إِحذر يا أخي حفظك الله وسددك المعاصي، فإنّك لا تدري متى تؤخذ بها، وتصيبك معرّتها، وقد قصّ القرآن الكريم قصص الأمم التي أخذهم سبحانه وتعالى بمعاصيهم لتعتبر بذلك، فالسعيد من اتَّعظ بغيره، والشقي من اتُّعظ به.

وأنت لو سلمت من الأخذ بمعصيتك فإنّك لا تسلم من بعض تبعاتها.

يقول الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمر: إياك والذنوب وحذّرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم؟ إنّ أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان وما ذاك إلاّ بذنوبه، وإنّه ليصيبه السقم وما ذاك إلاّ بذنوبه، وإنّه ليحبس عنه الرزق وما هو إلاّ بذنوبه، وإنّه ليشدّد عليه عند الموت وما هو إلاّ بذنوبه[1].

ولو قدّر أنّك سلمت من ذلك أيضاً فلا تسلم من نار سجّرها جبّارها لغضبه، فالحذر الحذر، وإيّاك أن تتعرّض لسخط ربّك جلّ جلاله، وليكن نصب عينيك ما حلّ بالأمم السالفة من العذاب، وفي طليعتهم قوم صالح عليه السلام ويحدثنا الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام عما حلّ بهم من العذاب:

---

(١) علل الشَّرائع: ١/ ٢٩٧.

ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه: أن يا صالح قل لهم: إنّ الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم، ولكم شرب يوم، وكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت الماء ذلك اليوم فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلاّ شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله ثم أنهم عتوا على الله، ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم، ثم قالوا من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحبّ، فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا، لا يعرف له أب، يقال له: قدار، شقي من الأشقياء، مشؤوم عليهم، فجعلوا له جعلاً، فلما توجّهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترد، وتركها حتى شربت الماء وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم تعمل شيئاً، فضربها ضربة أخرى فقتلها، وخرّت إلى الأرض على جنبها، وهرب فصيلها حتّى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء؛ وهرب فلم يبق أحد منهم إلاّ شركه في ضربته، واقتسموا لحمها فيما بينهم، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ أكل منها، فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم، أعصيتم ربكم؟! فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام: إنّ قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثتها إليهم حجّة عليهم، ولم يكن عليهم فيها ضرر، وكان لهم منها أعظم المنفعة، فقل لهم: إني مرسل عليكم عذابي إلى ثلاثة أيام، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح عليه السلام فقال لهم: يا قوم إنّي رسول ربّكم إليكم وهو يقول لكم: إن أنتم تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم، وتبت عليكم.

فلما قال لهم ذلك كانوا أعتا ما كانوا وأخبث، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

قال: يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة، واليوم الثاني ووجوهكم محمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة، فلما كان أول يوم أصبحوا ووجوههم مصفرّة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح.

فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح، ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً.

فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرّة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح، ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا، فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودّة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال صالح، فلما كان نصف الليل أتاهم جبرائيل عليه السلام فصرخ بهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم، وفلقت قلوبهم، وصدعت أكبادهم، وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنّطوا وتكفّنوا، وعلموا أنّ العذاب نازل بهم، فماتوا أجمعون في طرفة عين، صغيرهم وكبيرهم، فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية، ولا شيء إلاّ أهلكه الله، فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى أجمعين، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين، وكانت هذه قصّتهم[1].

الرضا

واعلم رعاك الله أنّ الرضا بالعمل ـ سواء كان حسناً أو سيئاً ـ إسهام في أصل العمل، يحصل الراضي به على أجرٍ إنْ كان العمل مرضيّاً، ويصيبه إثم إن كان العمل سيّئاً؛ فكأنّ الرضا بالعمل جزء من العمل ومتمّم له، لأنّه لو قدّر للرّاضي أن يساهم بالعمل لساهم، ألا تسمع كلمة الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضوان الله عليه يخاطب شهداء كربلاء صلوات الله عليهم: والذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

فقال له عطيّة: يا جابر كيف ولم نهبط وادياً، ولم نعل جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأوتمت أولادهم، وأرملت أزواجهم؟!

فقال: يا عطيّة سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أحبّ قوماً حشر

(١) الكافي: ٨/ ١٨٩.

معهم، ومن أحبّ عمل قوم أشرك في عملهم، والذي بعث محمداً بالحق نبيّاً إنّ نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام وأصحابه[1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في شأن قوم صالح عليه السلام: وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، فقال سبحانه ﴿**فعقروها فأصبحوا نادمين**﴾ فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة.

أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه[2].

في العرض القرآني المجيد

وبعد أن مرّ عليك عرض واف عن نبيٍّ يدعو وشعب عنيد، ثم نهاية متوقعة للطُغاة، نعود للعرض القرآني المجيد.

(١)

١ - ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ **[الأعراف/٧٣]**.

وتكاد تكون ثمود أعظم الأمم الباغية، المتجاوزة لخط الإستقامة والسداد، فلم تنفع معهم الإنذارات ولا المعاجز، وكذلك الناقة، علماً بأنهم اقترحوها، ووعدوا نبيّهم بالإيمان عند ذلك، فجاءت وفقاً لما طلبوا، مع ما فيها لهم من منافع عظيمة، ولكن بغيهم دعاهم إلى عقرها، وأوعدهم نبيّهم بالعذاب، وكلما جاءت مقدّماته ازدادوا بغياً وبعداً وتمرّداً، حتى جاءتهم الطامّة العظمى، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ٧٥.

(٢) نهج البلاغة: ٣١٩.

نعود للآيات:

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾.

انظر اللُّطف الإلهي، فصالح عليه السلام هو من ثمود، كما إنَّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من قريش، وهكذا جل الأنبياء عليهم السلام كانوا من الأمم التي بعثوا إليها، بل من ساداتهم وعظمائهم، لأنّ ذلك أدعى للإيمان، وتأمّل ما دعاهم إليه ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ اتركوا هذه الأصنام التي أنتم عليها عاكفين، فإنها لا تنفع ولا تضر.

٢ ـ ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربّكم﴾

وجميع الأنبياء زوّدوا بالمعاجز والآيات، لتقوم بذلك الحجّة على الخلق، ولا عذر لهم بعدها في البقاء على الضلال؛ ومضافاً للمعاجز التي جاءهم بها صالح عليه السلام خلال المائة عام التي لبثها بين ظهرانيهم، فقد طلبوا منه أن يخرج لهم من الصخرة ناقة عشراء جوفاء وبراء مخترجة، فعندها سوف يؤمنون عن بكرة أبيهم.

وفعلاً دعا الله جلّ جلاله فأخرجها لهم بالصفة التي طلبوها، فكانوا على كثرتهم تكفيهم حليباً ـ من باب الإعجاز أيضاً ـ وقال لهم نبيّهم **﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾** اتركوها ترعى في الأرض، والمراد: إنّكم غير مسؤولين عن طعامها. ثم حذّرهم من التعرّض لها **﴿ولا تمسّوها بسوء﴾** بعقر أو نحر **﴿فيأخذكم﴾** ينالكم **﴿عذاب أليم﴾** مؤلم.

٣ ـ ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾:

وهذا أغرب ما في الأمر، فقد كان الزمن الذي بينهم وبين عاد قريباً، كذلك كانت مدينتهم ليست بالبعيدة عن ديار عاد، فهم بمرأى منها ومسمع، يشاهدون آثار العذاب الذي نزل بهم والمراد بخلفاء: أورثكم الأرض، ومكنكم فيها من بعد عاد **﴿وبوأكم في الأرض﴾** مكّنكم فيها، وجعل لكم فيها مساكن وبيوتاً تأوون إليها **﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾** السهل ـ من الأرض ـ خلاف الحزن، وهي أرض منبسطة لا تبلغ الهضبة. والمراد: تبنون بيوتكم وقصوركم في السهول للسكن فيها صيفاً **﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾** تسكنونها شتاءً، لأنّها أدفأ لكم.

٤ ـ (فاذكروا آلاء الله)

ومن الغريب أن البشر فيما بينهم يشكرون الإحسان، ويؤدّون الجميل، ويعترفون لمن أسدى لهم معروفاً، أمّا بالنسبة لله جلّ جلاله فلا يوجد من هذا شيء، لذا ترى نبيّهم عليه السلام يذكّرهم بنعم الله عليهم، وما وهبهم من قوّة الأجسام، وطول الأعمار، والتمكّن في الأرض، يتصرّفون فيها حسب رغباتهم؛ ثم حذّرهم وأنذرهم من التّمادي في الضلال ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ ولا تضطربوا بالفساد في الأرض، ولا تبالغوا فيه.

٥ ـ (قال الملأ الذين استكبروا):

وهي المشكلة العظمى التي واجهها الرسل، وأنت تجد القرآن الكريم يشير دائماً إلى ذلك، فيسميهم مرّة بالمستكبرين، ومرّة الملأ والمراد به الأشراف والرؤساء.

وقد يكون السبب في بعد هؤلاء المتكبرين عن طريق الهدى والصلاح هو حبّهم للرّئاسة وتصوّرهم أنّ النبوّة تحجب ذلك عنهم، ولكن ما عذر الاتباع والجمهور في متابعتهم، وترك ساحة النبوّة، ومعالم التوحيد والهداية.

يقول أمين الإسلام في قوله تعالى: ﴿**قال الملأ الذين استكبروا**﴾ تعظّموا ورفعوا أنفسهم فوق مقدارها بجحود الحق، للإنفة من إتّباع الرسول الداعي إليه ﴿**من قومه**﴾ من قوم صالح ﴿**للذين استضعفوا**﴾ للذين استضعفوهم من المؤمنين (**لمن آمن منهم**) ذكره لئلاّ يظن بالمستضعفين أنهم كانوا غير مؤمنين، لأنّه قد يكون المستضعف مستضعفاً في دينه ولا يكون مؤمناً، فأزال الله سبحانه هذه الشبهة ﴿**أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه**﴾ ألا تعلمون أنَّ الله سبحانه أرسل صالحاً ﴿**قالوا إنّا بما أُرسل به مؤمنون**﴾ مصدّقون ﴿**قال الذين استكبروا**﴾ لهم حين سمعوا منهم الإيمان، والإعتراف بنبوّة صالح ﴿**إنّا بالذي آمنتم به**﴾ صدّقتم به ﴿**كافرون**﴾ جاحدون.

٦ ـ (فعقروا الناقة):

إنّ كتب الحديث والسير تذكر أنّ دعيًا اسمه قدار بن سالف هو الذي عقرها،

بينما الآية الكريمة تلزمهم جميعاً بذلك، والسر في ذلك إنَّ الأمر كان عن تراض منهم وتشاور، تدل على ذلك أمور كثيرة، منها: أكلهم جميعاً من لحمها، وعدم توبتهم ورجوعهم بعد أن رأوا مؤشّرات العذاب، وتأمل الآية ﴿**وعتوا عن أمر ربّهم**﴾ تجاوزوا الحد في الفساد والمعصية، وأكثر من هذا فقد بلغ بهم الاستكبار إلى أقصى ما يتصوّر ﴿**وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا**﴾ من العذاب على قتل الناقة، فقد قتلناها.

٧ ـ (فأخذتهم الرجفة):

وهي الصيحة:

وهذا التحذير لكل ضال، بعيد عن خط السماء، ولو قدّر أنه في مأمن من الرجفة وغيرها من العذاب الذي أصاب الأمم الكافرة، فهل يتمكّن أن يُبعد عنه الموت إذا وافاه لحظة واحدة؟ فحينئذ يقع في فخّ أعظم بكثير من الرجفة وغيرها، وهي جهنم ﴿**فأصبحوا في دارهم**﴾ في بلدهم ﴿**جاثمين**﴾ صرعى ميّتين ساقطين لا حراك لهم ﴿**فتولّى عنهم**﴾ أعرض عنهم ﴿**وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم**﴾ أدّيت النصح في تبليغ الرسالة ﴿**ولكن لا تحبّون الناصحين**﴾ ولكنكم لا تحبّون من ينصح لكم، لأنّ من أحبّ إنساناً قبل منه.

(٢)

١ ـ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود/٦١].

هذه السورة المباركة قصّت أحوال الأمم المكذبة بأنبيائها، وهي بعد أن انتهت من قصة عاد قوم هود عليه السلام، وما نزل بهم من النكال والهوان، تحدّثت عن ثمود قوم صالح عليه السلام، والابتداء الذي ابتدأت به في قصة عاد من الأمر بعبادة الله تعالى وحده، كذلك جاء هنا أيضاً، بل هو مطلب الأنبياء جميعاً.

٢ ـ ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾:

لم تكن الناقة هي المعجزة الأولى لصالح عليه السلام، بل سبقتها معاجز، كما

سبقتها مائة عام يدعوهم فيها إلى الله تعالى، بل إنَّ الناقة هي المعجزة الأخيرة وهم الذين طلبوها، فأخرجها لهم جلّ جلاله من جوف صخرة يشاهدونها، على تلك الصفة التي أرادوها، ولكنّهم ورغم انتفاعهم بها، وما أنذروا بالعقاب عند التعرّض لها، فقد تآمروا على قتلها.

٣ ـ (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام):

في هذه القصة تتجلّى رأفة الرب الرحيم، كما يتجلّى إصرار القوم على الكفر والبغي بشكل عجيب لا مثيل له أبداً، فبعد الجريمة أخبرهم نبيّهم بأنهم إذا لم يتوبوا ويرجعوا عن غيّهم فإن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام، وفعلاً جاء التدمير الشامل، في الموعد المحدد فهلكوا عن بكرة أبيهم.

٤ ـ (نجينا صالحاً والذين آمنوا معه):

فالملاحظ أنّ النجاة في الدنيا دائماً للمؤمنين، وأن الأمم الكافرة عُذّبت في الدنيا بأنواع العذاب، وتحقق وعيد الأنبياء عليهم السلام فيهم، ولا شكّ بأنّ ما أخبروا به صلوات الله عليهم مما يلحق هؤلاء من النكال والعذاب حاصل لهم في الآخرة، وما أخبروا به من نعيم المؤمنين في القيامة محقّق لهم، والآية صريحة في نجاة المؤمنين من قوم صالح عليه السلام من العذاب الذي شمل البلاد كلّها، وما أعدّ الله جل جلاله لهم من نعيم في الآخرة أهم وأعظم.

بقي أمر مهم ينبغي مراعاته والانتباه له، وهو أن الغاية من ذكر أمم مضى عليها آلاف السنين هو أخذ العبرة منهم، والإتعاظ بما جرى عليهم، وسلوك سبيل السلامة والنجاة.

(٣)

١ ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر/ ٨٠].

وهم ثمود، قوم صالح عليه السلام، والحجر: اسم بلدهم، وهذه السورة المباركة تحمل اسم (الحجر) إشعاراً لما أصابهم من نكال وعقاب، وموعظة لمن

يأتي بعدهم من الأمم، لا سيّما وآثارهم شاخصة، بمرأى ومشهد من العرب.

إن هذه السورة المباركة تتحدّث عما كانوا فيه من نعيم، ثم إلى ما انتهوا إليه من عذاب.

إن الآية صريحة بأنّهم كذبوا أنبياء أرسلهم الله جلّ جلاله إليهم قبل صالح عليه السلام، مما يظهر أن لهم قدماً راسخة في الكفر والضلال.

٢ ـ ﴿وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾:

المراد بالآيات هي الحجج والمعاجز التي جاء بها أنبياؤهم، وإِنَّ الناقة كانت خاتمة ذلك، وهم عن جميعها معرضون مكذّبون.

٣ ـ ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾:

فهم لقوتهم، وطول أعمارهم، كانوا يتخذون من الجبال بيوتاً، وفي الوقت نفسه كانوا آمنين من سقوطها، ويظهر أن ذلك مصدر بلائهم وشقوتهم، فهم كما يظهر من كتب التفسير والسير كانوا يتمتعون بأجسام قويّة، وقوّة فوق التي نتمتع بها، فكان ذلك مدعاة إلى تجبّرهم وتكبّرهم.

إن النعم العظيمة إذا لم تقابل بالشكر كانت سبباً لخسران الدنيا والآخرة، فمن ذلك ما حدث لفرعون في سلطانه، وقارون في أمواله، وغيرهم كثير.

٤ ـ ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾:

هي صيحة جبرائيل عليه السلام، صاح بهم وقت دخولهم في الصباح فأصبحوا جاثمين، صرعى ميتين ساقطين لا حراك لهم.

٥ ـ ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾:

ما يجمعونه من مال وغيره، لقد هلكوا في ساعة واحدة، وليت الأمر انتهى بهم بالهلاك فقط، وأنّهم خسروا الدنيا وحدها؛ بل انّ ما ينتظرهم من عذاب دائم، وخلود في الجحيم، أعظم بكثير مما نزل بهم.

(٤)

٤ ـ ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء/٥٩].

أي بيّنة واضحة، ودلالة ظاهرة **﴿فظلموا بها﴾** فكفروا بتلك الآية **﴿وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً﴾** لا نرسل الآيات التي نظهرها على يد الأنبياء إلاّ عظة للناس، وزجراً، وتخويفاً لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

(٥)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء/١٤١].

وسورة الشعراء استعرضت قصصاً لأمم وشعوب أصابهم العذاب في الدنيا، والخلود في الجحيم في الآخرة، ومن هؤلاء قوم صالح عليه السلام، نعود للآيات:

١ ـ **﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون﴾**: وأنت أعزّك الله تجد جميع الأنبياء صلوات الله عليهم بدأوا الحديث مع من بعثوا إليهم بالأمر بتقوى الله، والحذر من عقابه وبطشه.

إنّ ما حلّ بهذه الأمم من الهلاك والعقاب سببه هو عدم مراعاتهم ما أُمروا به من تقوى الله تعالى، وكذلك نحن على جانب عظيم من خطر الدنيا وعذاب الآخرة ما لم نلتزم بالتقوى، والمشكلة هي أَنَّ الشيطان يصوّر لنا أنَّ التقوى أعسر من نقل جبل من موضعه، أو هي أشد وأصعب من نزح البحر، بينما هي أيسر ما يكون **﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها﴾** أي دون طاقتها وإنَّها لتنفع المتقين في الدنيا قبل الآخرة.

٢ ـ **﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾**:

انظر رعاك الله فقد أعاد لفظ التقوى لأهميتها، ولأنّها المصدر لكل خير، وفي عدم مراعاتها توقّع العذاب الدنيوي والأُخروي.

والتقوى التي أمرهم صالح عليه السلام بها، وأمرنا نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بها هي لمصلحتنا، فالله جلّ جلاله غني عن العالمين؛ وعلى سبيل المثال: نهاك عن الخمر لتحتفظ بصحتك وأموالك، ونهاك عن الزنا حماية لجسمك من الزهري والسفلس، وهكذا بقية الأوامر والنواهي.

٣ ـ ﴿وما أسألكم عليه من أجر أن أجري إلاّ على ربّ العالمين﴾:

والأنبياء عليهم السلام كلّهم لم يطلبوا من أممهم أجراً أو مالاً على تبليغ الرسالة، بل كانوا يطلبون من الله جلّ جلاله الأجر والثواب.

روى أهل التفسير والسير أن زعماء الأنصار أرادوا أن يجعلوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض أموالهم، فنزل قوله تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾**.

٤ ـ ﴿أتتركون فيما هاهنا آمنين﴾:

أتظنون أنّكم تُتركون فيما أعطاكم الله من الخير في هذه الدنيا آمنين من الموت والعذاب؟ وهذا إخبار بأنّ ما هم فيه من النعم لا تدوم لهم وانّها ستزول. ثم ذكّرهم بالنعم التي أغدقها الله عليهم: **﴿في جنّات﴾** بساتين **﴿وعيون﴾** جارية **﴿وزروع ونخل طلعها هضيم﴾** والطلع: ما يطلع من النخل ثم يصير بسراً وتمراً، والهضيم: هو الرطب **﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾** حاذقين بنحتها.

٥ ـ ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾:

وأيضاً جاء بكلمة التقوى للمرّة الثالثة، وأضاف إليها **﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾** وهم رؤساؤهم، وكانوا تسعة، وهم الذين عقروا الناقة، ثم وصفهم بالفساد، والبعد عن الصلاح **﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾**.

والواقع إنَّ هذه هي المشكلة العظمى للأمم قديماً وحديثاً، ومن هذا المثل المعروف (الناس على دين ملوكهم).

إنّ هؤلاء الرؤساء يتمتعون ببهلوانية وذكاء بحيث يمكنهم السيطرة على الجماهير، أضف إلى ما يبذلونه لهم من مال، ويخوفونهم من عقاب، علماً بأنّ

ذلك عذر غير مقبول من الشعوب، فالحق أحقّ أن يُتّبع، وإنَّ الحجّة قامت على الشعوب بمن آمن منهم، ففي كل قوم ضُلاّل يتواجد مؤمنون، ويكفي ما سيمر عليك من حديث مؤمن آل فرعون.

٦ ـ ﴿قالوا إنّما أنت من المسحّرين﴾:

قد أصبت بسحر ففسد عقلك فصرت لا تدري ما تقول.

وأنت تلاحظ أكثرية الأمم حين لا يجدون ما يرمون به الرسالة والرسول، لا يتورّعون من أن يصفوا الرسول بالساحر، وما جاء به من معاجز سحراً، ألا تسمع قوم فرعون يقولون لموسى عليه السلام ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ **[الزخرف/٤٩]**.

وحتى قريش فعندما أعيتهم السبل في معارضة القرآن الكريم وصفوه بالسحر ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ **[المدثر/٢٤]**.

٧ ـ ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾:

ومن الغريب أنّ الأمم الكافرة تطلب من أنبيائها أن يأتوهم بآية، وربّما يقترحون عليهم آية معيّنة ـ كما هو الحال في ثمود ـ وعندما يأتي بها النبيّ على أحسن ما يكون يكذبونه، فيصيبهم العذاب.

٨ ـ ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾:

فهم الذين اقترحوا عليه ذلك، فقد قالوا: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة منفردة ـ ناقة مخترجة[1] جوفاء وبراء، فإن فعلت صدّقناك، وآمنا بك.

فسأل الله سبحانه ذلك، فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه، ثم اضطربت كالمرأة يأخذها الطلق، ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء، كما طلبوا.

---

(١) المخترجة = ما شاكل. البخت من الإبل.

٩ ـ ﴿ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾:

والقاعدة التي قررها الخالق العظيم: انَّ الأمة حينما تقترح على نبيّها آية، ويأتي بها، ثم لا تؤمن به، أن يصيبهم العذاب، لأنّ ذلك ينبيء عن تمرّد وعناد لا صلاح يرجى لهم بعده أبداً، لذا تجده عَلَيْهِ السَّلَامُ حذّرهم من التعرّض لها بعقر أو نحر وأخبرهم بما يصيبهم من الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة عند قتلها.

١٠ ـ ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾:

وإذا أراد باحث أن يصوّر ما طبع عليه البشر من الكفر والعناد، فعليه أن ينظر إلى ثمود، فإنّ ذلك يكفيه دلالة.

لقد طلبوا من نبيّهم أن يأتيهم بالناقة فجاءهم بها على أحسن ما يكون، ثم هي بعد ذلك تكفيهم بأسرهم حليباً، فهي في كل حالاتها معجزة وآية يرونها في كل يوم، وأكثر من هذا، فقد جاء عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن أوّل عين نبعت في الأرض هي العين التي فجّرها الله لصالح فقال: **﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾** فهم يتمتعون يوماً بالحليب، ويوماً بالماء.

فالناقة كما هي دلالة وآية، كذلك هي مورد نفع لهم عظيم، ولكن العتوّ والتجبّر والإعراض أدّى بهم إلى عقرها، ويتجلّى الكفر والطغيان بأنّهم جميعاً أكلوا من لحمها بعدما عقروها، وأكثر من هذا ـ وهذا في نهاية الغرابة والعجب ـ أنّهم رأوا إمارات العذاب في أيام ثلاثة ـ كما وعدهم نبيّهم ـ ومع ذلك لم يزدادوا إلاّ تمادياً في الكفر والضلال، فكانت نهايتهم التعيسة.

(٦)

١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [النمل/٤٥].

ومن لطف الله جل جلاله بعباده أن أرسل إلى ثمود نبياً منهم، لأن ذلك أدعى لإيمانهم، واستجابتهم للحق، لا سيّما وأنّه من بيت عريق في المجد والسؤدد.

٢ ـ ﴿أن اعبدوا الله﴾:

وهذا قريب من الدعوة الأحمدية (**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**) وكما ثقلت هذه الدعوة على الملإ القرشي كذلك ثقلت دعوة صالح على ثمود.

إنَّ الشيطان صوّر لهؤلاء وهؤلاء أنَّ هذا أعسر عليهم من نزح البحر، أو نقل الجبال الرواسي.

٣ ـ ﴿لم تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة﴾:

بالعذاب قبل الرحمة؛ وسمّى العذاب سيئة لما فيه من الآلام، ولأنّه جزاء على السيئة، والسيئة: هي الخصلة التي تسوء صاحبها.

وتجد آلاف السنين التي مرّت ما بين صالح ومحمد عليهما السلام لم تتغيّر نفسية الكافرين أبداً، لقد قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **[الأنفال/٣٢]**.

٤ ـ ﴿لولا تستغفرون الله لعلّكم ترحمون﴾:

والاستغفار جعله الله جل جلاله باب رحمة للعباد، تُمحى به الذنوب، وينزل به الغيث، وتُدرّ به الأرزاق، وتتكاثر به الأولاد، وتزداد ببركته الأثمار والأنهار.

﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ **[نوح/١٢]**.

وينبغي أن يكون الاستغفار عن نيّة صادقة، وتصميم على عدم العودة للذنوب.

٥ ـ ﴿قالوا اطّيّرنا بك﴾:

أي تشاءمنا بك وبمن على دينك؛ وذلك انّهم قلّ المطر عندهم وجاعوا، فقالوا: أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك.

والله جلّ جلاله لطيف بعباده، رحيم بهم، فمن لطفه أن يشدد على عباده ليرجعوا إلى طريق الطاعة والاستقامة؛ وهذا الذي أصابهم شبيه بما حصل لقريش،

فقد قحطوا وحبس عنهم المطر وعانوا من ذلك سبع سنين.

فقد دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: اجعلها عليهم كسني يوسف، أي جدب، وقلة ثمرات، فاستجاب الله جلّ جلاله دعاء نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكلوا القد ـ جلد السخلة الماعزة[1] ومع هذه الشدة التي عانوها استمروا على عنادهم وتجبرهم وكفرهم حتى نزل بهم البلاء، وخسروا الدنيا والآخرة الا ذلك الخسران المبين.

ويكفي ما حدث بثمود وقريش عبرة للاجيال وموعظة لمن جاء بعدهم من الامم والشعوب.

ولكن المشكلة هي الشيطان، وهو ينسي الانسان ما يجب عليه ان يتذكره ولا يغيب عن باله.

٦ ـ ﴿طائركم عند الله﴾:

﴿قال﴾ لهم صالح **﴿طائركم عند الله﴾** الشؤم أتاكم من الله بكفركم **﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾** تعذّبون بسوء أعمالكم.

٧ ـ ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾:

ومشكلة البشرية هي زعماؤهم، فهم للاحتفاظ بمناصبهم، وحقدهم على المرسلين، يبتعدون عن خط الإيمان، ويجيِّشون الضعفاء الذين يتابعونهم خوفاً وطمعاً.

وهؤلاء المساكين لا يلتفتون إلى النكتة، ففرعون يريد الاحتفاظ بسلطانه، بل بألوهيته، وقدار يريد أن يتمتع بزعامته، وأبو سفيان يريد استعلاء بني أمية، أما هم فأي مصلحة يجنونها في الدنيا والآخرة. وتمر الأعوام والتعاون بين الأتباع والمتبوعين حتى توافيهم الطامة العظمى فيخسرون الدنيا والآخرة.

(١) مجمع البحرين.

٨ ـ ﴿لنبيتنه وأهله﴾ :

لقد تآمروا على قتل نبيّهم وأهله، ودبّروا ما يعتذرون به عند ذويه.

وأنت حين ترجع للتاريخ تجد معالم الضلال، وطرق الكفر متقاربة بين الأمم، فقد خططت قريش تخطيط ثمود، لقد دبّروا في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن جمعوا أربعين رجلاً، اختاروا من كل قبيلة رجلاً شجاعاً، وعلى أن يهجموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقتلوه، ويضيع دمه بين قبائل قريش، فلا يستطيع الهاشميون أن يطالبوا به، لا سيما ومعهم عمه أبو لهب.

لقد أخبره جبرائيل عليه السلام بمكرهم، وأمره بالخروج إلى المدينة، وأن ينام علي عليه السلام في فراشه موهماً لقريش بأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو النائم.

٩ ـ ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً﴾ :

لقد خططوا تخطيطاً دقيقاً في القضاء على صالح عليه السلام وذويه، كما خططوا لما سيحدث بعد هذا من أحداث، وحسبوا للمستقبل كل حساب، ولكن الذي فاتهم أنهم لم يحسبوا لأمر الله جل جلاله، وأنه ينتصر لأوليائه.

١٠ ـ ﴿إنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ :

لم يقتصر الدمار على رؤوس الضلال والمخطّطين، بل شمل الأمة بأسرها لاستجابتها لهم، وتعاونها معهم، ولا أدل على ذلك من أكلهم جميعاً من لحم الناقة بعد قتلها.

لقد باءوا جميعاً بالخسران الدنيوي، ومن وراءه العذاب الأبدي، لقد خسروا خسراناً عظيماً.

١١ ـ ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ :

ويظهر أن أكثر بقاع الأرض مرّت بعمار وخراب وتغيّرات مهمة جداً، من بحر يكون يبساً، ثم يستحيل مدنا، ومدن تعود أنهاراً وبحاراً، ولعل المكان الواحد يتعرّض لعدة تغيرات خلال آلاف الأعوام التي مرّت عليه.

وتتجلى الإشاءة الإلهية في أن لا يكون لهذه التغيّرات من أثر يذكر على

الأماكن التي تعرّضت لغضب السماء، ونزلت بها نقمة الجبار العظيم.

فمعالم الحجر ـ مدينة ثمود ـ لا تزال حتى الآن قائمة، وأكثر من هذا الموضع الذي غرق فيه فرعون وجيوشه البالغ عددهم مليوناً وستمائة ألف يمتاز من بين البحر بالهيجان والغليان.

١٢ ـ ﴿إنّ في ذلك لآية﴾:

إنّ معالم الدمار، وآثار الخراب، شاهد صدق على ما نزل بالأمم من العذاب، كذلك هي آية عظمى لمن جاء من بعدهم من الأجيال، وعظة بالغة أنفع من عظة اللسان، لا سيّما وهي قريبة من ديارهم، يشاهدونها في أسفارهم ولولا مساعي الشيطان في إحباط كل محاولة للإصلاح، وكل طريق يؤدّي للنجاة، لكان بعض هذه الآثار يكفي الأمم بأسرها سيراً على طريق الاستقامة والرشاد.

١٣ ـ ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾:

لقد سعد وفاز يا رب من أطاعك، وخاب وخسر من عصاك، وأنت سبحانك جعلت النجاة في الدنيا والآخرة للمهتدين، والعذاب والنكال في الدنيا والآخرة للعاصين.

لقد خرج نبيُّ الله صالح بالمؤمنين وهم أربعة آلاف فأسكنهم في حضرموت، فتمتّعوا بحياة الدنيا، وما أعدّ الله سبحانه لهم من نعيم الآخرة أعظم بكثير.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف/١١١].

(٧)

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت/١٧].

إنّ الألطاف الإلهية التي منحها الله جلّ جلاله لثمود لم يمنحها لغيرهم، لقد أمهلهم مائة عام لم يعاجلهم فيها بمكروه، ثم بعدها طلبوا الناقة، فأخرجها لهم بالصورة التي طلبوها، وزادهم بالانتفاع بلبنها، فكانت تكفيهم جميعاً ـ بالإعجاز ـ

ومع ذلك كله فقد قتلوها، وأخبرهم نبيهم أنهم سيصحبون صفر الألوان، وفي اليوم الثاني يحمّرون، وفي اليوم الثالث والأخير سود الألوان.

وكان الأمر كما أخبرهم؛ وبعد أن جاءت علائم الدمار والهلاك كانوا أشد تعنتاً وإصراراً على الكفر، فكان بعضهم يوصي البعض بالثبات على الضلال، وعدم القبول من صالح.

٢ ـ ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾:

ذي الهون، وهو الذي يهينهم ويخزيهم، صاح بهم جبرائيل صيحة فهلكوا بأجمعهم ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ إن الذي أصابهم كان نتيجة لأعمالهم السيئة.

٣ ـ ﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾:

كان المنتظر بالأمم التي جاءت بعدهم أن تؤمن جميعها، لأنّهم شاهدوا ما حلّ بالكافرين من الدمار، وأن الله سبحانه نجّى المؤمنين، فلم يصبهم من ذلك أدنى أذى أو مكروه، ولكن كما قال عزّ من قائل: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ**﴾ [سبأ/٢٠].

إنّ الآية الكريمة لخصت سبب النجاة: الإيمان، وتقوى الله، ولعمري إِنَّهما سبب نجاة كل من نجا من سالف الدهر وحتى الساعة، كما إِنَّ عدم رعايتهما سبب عذاب الجميع.

(٨)

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات/٤٣].

وثمود نموذج فريد في الشذوذ، والبعد عن الله سبحانه والتمادي في الباطل؛ فقد لبث فيهم نبيُّ الله صالح عليه السلام دهراً طويلاً يدعوهم فلم يستجيبوا لنداء السماء، ثم بعدها طلبوا منه شروطاً تعجيزية عاهدوه على الإيمان به إن أتى بها، وهي أن يخرج لهم من صخرة ناقة عشراء تشرب ماءهم بأجمعه وتعوضهم عنه حليباً يكفيهم بأجمعهم، وجاءت المعجزة كما طلبوا، وظلّوا فترة طويلة يتمتّعون

كلهم بألبانها إعجازاً من الله تعالى، وإقامة للحجّة عليهم ولكنّهم بغوا وتآمروا على قتل الناقة؛ وأنت إذا علمت بأنّه لم يبق أحد منهم إلاّ وقد أخذ من لحمها وأكله أدركت إصرارهم وعنادهم.

لهذا استحقّوا العذاب، وفي هذه الآيات عرض سريع لكيفية العذاب النازل بهم قال تعالى: ﴿**وفي ثمود**﴾ أيضاً آية ﴿**إذ قيل لهم تمتعوا**﴾ وذلك أنهم لما عقروا الناقة قال لهم صالح ﴿**تمتعوا حتى حين**﴾ ثلاثة أيام فقط ﴿**فعتوا عن أمر ربهم**﴾ فخرجوا عن أمر ربهم ترفعاً واستكباراً ﴿**فأخذتهم الصاعقة**﴾ العذاب المهلك ﴿**وهم ينظرون**﴾ إليه جهاراً لا يقدرون على دفعه ﴿**فما استطاعوا من قيام**﴾ من نهوض، والمعنى: أنهم لم ينهضوا من تلك الصرعة ﴿**وما كانوا منتصرين**﴾ ممتنعين من العذاب.

(٩)

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [**القمر/٢٣**].

أعجب ما في الدنيا الأمم المكذّبة بأنبيائها، فجل الأنبياء عليهم السلام كانوا من الأمم التي بعثوا إليها بل من أشرافهم وساداتهم، وكان مركزهم قبل النبوّة بينهم في غاية الجلالة لما يتمتعوا به من صفات جميلة وخلق رفيع، فهم لم يجرّبوا عليهم كذباً، ولم يشاهدوا لهم سقطة، بل كل ما رأوه منهم صدقاً وعدلاً، ونبلاً وشرفاً.

لكن بعد البعثة تنقلب المقاييس، وتتغيّر نظرة الجماهير إليهم، فيتباعدون عنهم، ويتسالمون على الإعراض عنهم، ولم يلتفتوا إلى معجزة، ولم يرجعوا إلى عقل.

وأغرب من هذه كله أن ترجع هذه الأمم إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع، ولا يحسّ ولا يسمع.

وأكثر من هذا انهم سمعوا بما حلّ بمن قبلهم من الأمم المكذبة بأنبيائها، العاكفة على أصنامها، ومع ذلك يبقى العناد والتكذيب بأعنف ما يكون.

يستعرض القرآن الكريم في سورة (القمر) بعض الأمم المكذبة فيقول ﴿**كذبت ثمود بالنذر**﴾ بالإنذار الذي جاءهم به صالح. ومن الغريب أن يكون سبب تكذيبهم لرسولهم أوهى من خيط العنكبوت ﴿**فقالوا ابشرا منا واحداً نتبعه**﴾ أي نتبع آدمياً مثلنا وهو واحد ﴿**إنا إذا لفي ضلال**﴾ فنحن إن فعلنا ذلك في خطأ وذهاب عن الحق ﴿**وسعر**﴾ في عناء وشدّة عذاب ﴿**أألقي الذكر عليه من بيننا**﴾ هذا استفهام إنكار وجحود، أي كيف ألقي الوحي عليه وخصّ بالنبوة وهو واحد منا ﴿**بل هو كذّاب**﴾ فيما يقول ﴿**أشر**﴾ أي بطر متكبّر، يريد أن يتعظّم علينا بالنبوّة ﴿**سيعلمون غداً من الكذّاب الأشر**﴾ وهذا وعيد لهم، أي يعلمون يوم القيامة إذا نزل بهم العذاب أهو الكذّاب أم هم في تكذيبه ﴿**إنا مرسلو الناقة فتنة لهم**﴾ نحن باعثو الناقة بإنشائها على ما طلبوها معجزة لصالح، وقطعاً لعذرهم، وامتحاناً واختباراً لهم ومعنى قوله ﴿**فتنة لهم**﴾ إشارة إلى تعنّتهم وطلبهم من صالح عليه السلام أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء تضع فصيلاً، ثم ترد ماءهم فتشربه، ثم تعود عليهم بمثله لبناً، فقال سبحانه: إنا باعثوها كما سألوها ﴿**فارتقبهم**﴾ انتظر ما يصنعون ﴿**واصطبر**﴾ على ما يصيبك من الأذى حتى يأتي أمر الله فيهم ﴿**ونبّئهم**﴾ أخبرهم ﴿**إن الماء قسمة بينهم**﴾ يوم للناقة، ويوم لهم ﴿**كل شرب محتضر**﴾ كل نصيب من الماء يحضره أهله، لا يحضر آخر معه، ففي يوم الناقة تحضره الناقة، وفي يومهم يحضرونه هم، فاليوم الذي تشربه الناقة تعطيهم عوضه لبناً يكفيهم كلهم؛ ومع هذه المعجزة التي شاهدوها، والمنفعة التي شملتهم ﴿**فنادوا صاحبهم**﴾ دبّروا، وتآمروا على قتلها، وعهدوا بذلك إلى واحد من أشرارهم، وهو قدار بن سالف ﴿**فتعاطى فعقر**﴾ كمن لها في أصل صخرة فرماها بسهم فأصاب ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف ﴿**فكيف كان عذابي ونذر**﴾ فانظر كيف أهلكتهم، وكيف كان عذابي لهم، وإنذاري إيّاهم ﴿**إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة**﴾ هي صيحة جبرائيل عليه السلام فيهم ﴿**فكانوا كهشيم المحتظر**﴾ فصاروا كالهشيم وهو حطام الشجر المتقطع بالكسر والرض.

وبالإسناد عن عثمان بن صهيب، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب عليه السلام: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة قال: صدقت،

فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا أعلم يا رسول الله قال: الذي يضربك على هذه ـ وأشار إلى يافوخه.

وعن عمار بن ياسر قال: كنت وعلي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة العسرة نائمين في صور من النخل، ودقعاء من التراب، فوالله ما أهبنا إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرّكنا برجله، وقد تربنا من تلك الدقعاء فقال: ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: احيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك بالسيف يا علي على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى تبل منها هذه ـ وأخذ بلحيته ـ[1].

(١٠)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة/٤].

الحاقة اسم من أسماء يوم القيامة، لأنها ذات الحواق من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، لأنّ جميع أحكام القيامة واجبة الوقوع، صادقة الوجود، والله سبحانه افتتح سورة من القرآن الكريم بذكرها، وكرّرها في السطر نفسه ثلاث مرات تعظيماً لشأنها، واهتماماً بأمرها ولأجل الاستعداد لما يلزم لها من العمل الصالح المنجي من شدائدها وأهوالها.

وبعد التنبيه على المشهد المهول بيّن سبحانه أنّ سبب عذاب الأمم هو تكذيبهم بها، فقال تعالى **﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾** والقارعة أيضاً من أسماء القيامة، ثم تحدّث عن ثمود وهم قوم صالح عليه السلام، وما نزل بهم من العذاب **﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾** أهلكوا بالصيحة الطاغية، وهي التي جاوزت المقدار حتى أهلكتهم.

---

(١) مجمع البيان، ٣ ـ ٢٩٦/٤.

(١١)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ﴾ [الشمس/١١].

في هذه السورة عرض سريع لأمّة مكذّبة عاتية، وما أصابها من عذاب، إنّك تتصوّر وأنت تقرأ هذه الآيات أنك تشاهد مصارعهم، وأن رهبة المشاهدة تأخذ بك ـ ولو قليلاً ـ للاستقامة والسلوك في الطريق الذي أمرت بسلوكه حذراً من أن يحلّ بك ما نزل بالقوم.

إنّ هذا العرض السريع لهو جانب من بلاغة القرآن الكريم، والتي لا يدانيها بلغاء العالم أجمع.

نعود للآية الكريمة:

(**فقال لهم رسول الله**) صالح (**ناقة الله**) أحذروا ناقة الله فلا تعقروها.

يقول تعالى ﴿**كذبت ثمود بطغواها**﴾ يعني إِنَّ الطغيان حملهم على التكذيب ﴿**إذ انبعث أشقاها**﴾ ومعنى انبعث: انتخب، وهو أشقى الأولين واسمه قدار بن سالف.

النبي ابراهيم عليه السلام

خصال الشرف

وابراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أيضاً أبو الأنبياء عليهم السلام، فالأنبياء الذين جاؤوا من بعده من ذريته وعلى شريعته، وهو خليل الرحمن جلّ جلاله، وسيمر عليك في هذه الصفحات اليسير من سيرته الغرّاء، وتقرأ في هذا الفصل بعض خصاله وسجاياه الحميدة، التي امتاز بها عن غيره، فقد سئل عليه السلام: بم اتخذك الله خليلاً؟

قال: بثلاث: ما خيّرت بين شيئين إلاّ اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بما تُكفّل لي به، ولا تغدّيت ولا تعشّيت إلاّ مع ضيف[١].

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: اتخذ الله عزّ وجلّ ابراهيم خليلاً لأنّه لم يرد أحداً، ولم يسأل أحداً غير الله عزّ وجلّ[٢].

وأنت أعزّك الله حاول أن تتخلّق ببعض هذه الأخلاق لتصل بها إلى شاطىء السلامة، فالحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: من كانت فيه خلّة من خلال الخير غفر الله له ما سواها[٣].

حنيفاً مسلماً

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

(١) المستطرف: ١/ ١٦٥.
(٢) علل الشّرائع: ٣٤.
(٣) ربيع الأبرار: ١/ ٨٠٤.

ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران/٦٧].

بُعث خليل الرحمن عليه السلام والبشرية بأسرها تعبد غير الله تعالى.

قال عليه السلام: لقد كانت الدنيا وما كان فيها إلاّ واحداً يعبد الله، ولو كان غيره لأضافه إليه حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل/١٢٠] فصبر بذلك ما شاء الله ثم إنَّ الله تبارك وتعالى آنسه بإسماعيل وإسحاق فصاروا ثلاثة[1].

فهو عليه السلام داعية الله في أرضه، ومشيّد دينه، وباني بيته العتيق، وقد سنّ للبشرية نظماً لا تنسخ؛ أكّدها الأنبياء الذين جاءوا من بعده، والشرائع التي أعقبت شريعته، وقد اقترن اسمه عليه السلام بالحنيفية حتى أنّ القرآن الكريم وصفه بها: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران/٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة/١٣٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام/١٦١].

وعن علي بن ابراهيم: ثم أنزل عليه الحنيفية، وهي الطهارة، وهي عشرة أشياء، خمسة في الرأس، وخمسة في البدن، فأمّا التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطمّ الشعر، والسواك، والخلال[2].

وأمّا التي في البدن: فحلق الشعر من البدن، والختان، وقلم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء؛ وهي الحنيفية الطاهرة التي جاء بها ابراهيم، فلم تنسخ ولن تنسخ إلى يوم القيامة[3].

---

(١) قصص الأنبياء: ١١٤.

(٢) الخلال ـ بالكسر: ما يتخلل به الأسنان أي ينظفها.

(٣) تفسير القمّي: ١/٨٦.

برداً وسلاماً

فلو أن أهل الدنيا جميعاً اجتمعوا على قتلك والله سبحانه وتعالى يريد لك الحياة لما تمكّنوا أن يصلوا إليك بمكروه أبداً؛ وأنت ـ سلّمك الله ـ تسمع دائماً عن نجاة بعض الناس من أيدي الظالمين رغم ترصّدهم وسعيهم في هلاكهم، وربما أمسكوهم وأفلتوا منهم.

وإن نسيت فلا تنس اجتماع قريش على باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريدون قتله، ومبيت علي أمير المؤمنين عليه السلام على فراشه فادياً له بنفسه، وخروجه صلى الله عليه وآله وسلم من بينهم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ **[التوبة/٤٠]**.

وحدث لابراهيم خليل الرحمن أعظم من كيد قريش، فقد أراد طاغية زمانه (نمرود) أن ينكّل به أعظم تنكيل، فأمر أهل مملكته بتهيئة حطب لم يُجمع لأحد قبله ولا بعده، فحبسوه في بيت وجمعوا له حطباً حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعنّ حطباً إلى ابراهيم[(١)].

ولما أججت فيه النار سقطت طيور السماء التي كانت تمر بالقرب منه لعظم تلك النار.

وحصلت للطاغية وزبانيته مشكلة، وهي كيف يرمى ابراهيم عليه السلام في النار، ومن يستطيع الدنو منها؟ ولكن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، فقد علَّمهم إبليس صنعة المنجنيق وما كانوا يعرفونه من قبل، ثم أصعدوه إليه.

وهنا تتجلى عظمة الخليل عليه السلام، فقد جاء جبرائيل إلى ابراهيم وهو يوثّق ويقمّط ليلقى في النار، قال: يا ابراهيم ألك حاجة؟

قال: أمّا إليك فلا[(٢)].

ثم قذفوه إليها.

---

(١) تاريخ الطبري: ١/١٦٩.

(٢) تاريخ الطبري: ١/١٧٠.

فهل تدري ما حدث؟ ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء/٦٩].

صارت تلك النار العظيمة التي لم يحدث لها مثيل في الدنيا لابراهيم عليه السلام روضة غنّاء، وجبرائيل عليه السلام جالس معه يحدثه، وفي رواية السيد البحراني رحمه الله: فاضطربت أسنان ابراهيم عليه السلام من البرد[١].

وحتّى الطاغية نفسه أخذه العجب، فقد نظر إلى مجلسه، فقال: «من اتخذ إلهاً فليتخذ مثل إله ابراهيم»[٢].

الداعي الأكبر

وأنت ـ أعزّك الله ـ لا تستطيع أن تحيط بأبعاد شخصية خليل الله ونبيّه ابراهيم عليه السلام ، فهو في القمّة من كل فضيلة، والدوحة الباسقة لمعالي الأمور.

إن آلاف السنين التي بيننا وبينه حجبت عنا الكثير من معالمه النيِّرة، وسننه الحميدة، ومع ذلك فقد وصل إلينا من ذلك ما إن أخذنا به سعدنا وسُعد بنا.

نعود فنذكر بعض ما جاء في سيرته ودعوته إلى الله جلّ جلاله:

١ ـ واستجاب لابراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به على خوف من نمرود وجنوده[٣].

٢ ـ يتحدث الشيخ القمي عن حياته في الشام: فكان يمرُّ به الناس، فيدعوهم إلى الإسلام، وقد كان شاع خبره في الدنيا أنّ الملك ألقاه في النار فلم يحترق.. وكان ابراهيم كل من يمرُّ به يضيّفه[٤].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ٦٣.
(٢) البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ٦٣.
(٣) تاريخ الطّبري: ١/ ١٧١.
(٤) تفسير القمّي: ١/ ٣٦٢.

عطف وحنان

أجمع المسلمون على حديث المعراج، وأنّ الله سبحانه وتعالى أسرى بنبيّه الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء/ ١].

ومن ثم عرج به إلى السماء ليريه سبحانه وتعالى ملكوت السماوات وما فيها من إبداع الصنعة، ولما يريد أن يوحيه إليه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم/ ١٠].

وفي القرآن الكريم في حديثه عن ابراهيم عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام/ ٧٥].

قال الشيخ الطبرسي عليه الرحمة: «أي القدرة التي تقوى بها دلالته على توحيد الله تعالى؛ وقيل: يعني بالملكوت آيات السماوات والأرض»[١].

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كشط الله له عن الأرضين حتى رآهن وما تحتهن، وعن السماوات حتى رآهن وما فيهن من الملائكة وحملة العرش»[٢].

وروى أبو بصير عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: لما رأى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات، ثم رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا، فأوحى الله تعالى إليه: يا ابراهيم إنّ دعوتك مستجابة فلا تدع على عبادي، فإنّي لو شئت أن أميتهم بدعائك ما خلقتهم، إنّي خلقت خلقي على ثلاثة أصناف: صنف يعبدني لا يشرك بي شيئاً فأثيبه، وصنف يعبد غيري فليس يفوتني، وصنف يعبد غيري فأخرج من صلبه من يعبدني[٣].

(١) مجمع البيان: ٤/ ٣٢٢.
(٢) مجمع البيان: ٥/ ٣٢٢.
(٣) مجمع البيان: ٤/ ٣٢٢.

وهذه الرواية تريك مظهراً من مظاهر العطف الإلهي على العباد، وأنّه لا يعاجلهم بالنقمة، وستقرأ في قصّة موسى عليه السلام إمهاله جلّ جلاله لفرعون مع عتوّه وتجبّره أربعمائة سنة.

وأنت يا أخي قد تعوّدت في حياتك مكافأة الجميل جميلاً، ورد الإحسان إحساناً، وليس في الوجود أكثر إحساناً إليك من ربّك، علماً أنّه لا يريد منك مكافأة على إحسانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **[العنكبوت/٦]** وإنما يريد منك الإستقامة ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ **[هود/١١٢]** الّتي يعود عليك نفعها دنيا وآخرة.

وعلى سبيل المثال: يريد منك تجنب الخمرة لتسلم لك صحتك، ويبقى لك مالك وعقلك، ثم يثيبك على ذلك جنّة الخلد وملكاً لا يبلى، ويريد منك الامتناع عن أكل أموال الناس لتكون محترماً بينهم، يبيعونك بضائعهم ويشارونك ويقرضونك، فتكسب من ذلك أكثر مما تكسبه من أكلها حراماً، أضف إلى ذلك جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

وهكذا في بقية التكاليف الشرعية، فكلّها جاءت لمصلحتك وفائدتك، فتنبّه لحالك، ولا يغرنّك الشيطان فتكون من الهالكين.

وأعتزلكم وما تعبدون

للدعوة إلى الله تعالى مراحل متعدّدة، فالمرحلة الأولى هي مرحلة اليد، أي الجهاد وحمل السلاح في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ورد عادية الكافرين، وهي أفضل المراحل.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من خرج في سبيل الله مجاهداً فله بكل خطوة سبعمائة ألف حسنة، ويمحى عنه سبعمائة ألف سيئة، ويرفع له سبعمائة ألف درجة، وكان في ضمان الله بأيّ حتف مات كان شهيداً، وإن رجع رجع مغفوراً له، مستجاباً دعاؤه»[1].

---

(١) وسائل الشّيعة: ١١/١٢.

وتلي مرحلة اليد مرحلة اللسان، وهي التي طالما استعملها المصلحون في توعية الناس وإرشادهم وتوجيههم.

وبعد هاتين المرحلتين، أي عند عدم التمكن من الإتيان بهما تكون مرحلة القلب، أي تألم المسلم من أعمال الظالمين.

وإلى هذا التقسيم يشير أمير المؤمنين عليه السلام: «أيّها المؤمنون إنّه من رأى عدواناً يُعمل به، ومنكراً يُدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق، ونوّر في قلبه اليقين»[1].

وهناك مرحلة الاعتزال والبعد عن الظالمين، وهي تنبىء عن المقاطعة لهم، والسخط على أعمالهم، وهي مما دعا إليها الإسلام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهّرة»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾** قال: «أما أنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم، ولا يجلسون مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم، وأنسوا بهم»[3].

يسجّل القرآن الكريم هذه المرحلة لابراهيم عليه السلام **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم/٤٨]**.

فقد ترك العراق ونمروده، وجاء إلى الشام يدعو إلى الله تعالى، وأفاض عليه سبحانه وتعالى هناك النعم **﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم/٤٩ ـ ٥٠]**.

---

(١) روضة الواعظين: ٢/ ٣٦٥.

(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ٤١٣.

(٣) البرهان في تفسير القرآن: ١/ ٤٩٤.

واعلم ـ رعاك الله ـ أنّ هذه المرحلة تجب أحياناً على المسلم خصوصاً إذا علم أنه لا يستطيع أن يعيش كمسلم في بلده، وأنّه لا بدّ له من مداهنة الظالمين، ألا تسمع القرآن الكريم يذم الذين يمشون بركاب الطغاة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ **[النساء/٩٧]**.

لقد هاجر جمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بدء الدعوة الإسلامية إلى الحبشة هرباً بدينهم، كما هاجروا بعدها إلى المدينة، وهذا هو الطريق الوحيد للإحتفاظ بالدين، والخلاص من الظالمين.

الامتثال

وليس من باب الصدفة أن يختار الله سبحانه وتعالى أنبياءه من خلقه، ويرسلهم معلّمين للبشر، وهداة للمجتمع. إنّ اختيارهم نتيجة لعلمه جلّ جلاله بحقيقة عبوديتهم، وطاعتهم له جلّ جلاله، ثم يفيض عليهم ألطافه، ويزيدهم هدى ونوراً.

وسيدنا ابراهيم عليه السلام وهو سيد النبيين عليهم السلام بعد نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ترى في قصّته مع ابنه إسماعيل عليه السلام الامتثال لأمره سبحانه وتعالى، والاستجابة له جلّ جلاله بأروع معانيها، فقد أمره الله جلّ جلاله ببناء بيته الحرام **﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾**.

ثم أمره سبحانه وتعالى بحجّ البيت، وكان هديه الذي أمره سبحانه وتعالى بذبحه هو ولده إسماعيل عليه السلام، علماً أنّ ابراهيم عليه السلام أبطأ عليه الولد، فولد له إسماعيل وقد جاوز المائة من عمره، ونشأ إسماعيل عليه السلام وهو يتلو أبيه فضلاً وكمالاً، وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، كل هذا ليس بالمهم ما دام الله جلّ جلاله أمر بأن يضحّي به، فقال عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ **[الصافات/١٠٢]** علماً أنَّ رؤيا الأنبياء عليهم السلام نوع من الوحي والأمر الإلهيّ، ولولا ذلك لما جاز له القيام بهذا العمل نتيجة لرؤيا رآها.

وكان جواب إسماعيل عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات/١٠٢].

ثم طلب إسماعيل من أبيه عليه السلام أن يضجعه على وجهه حتى لا يراه فتأخذه الرقّة، وأن يرفع ثيابه حتى لا يصيبها الدم فتنظر إليها أمه فتحزن، وأن يحدّ الشفرة لأن ذلك أسرع في الذبح.

ويجيبه ابراهيم عليه السلام: نعم المعين أنت يا بني على طاعة الله؛ وفعلاً صنع ذلك وأمرَّ الشفرة على رقبته ولكنّها انقلبت في يده، ثم حاول ثانية وانقلبت أيضاً، واستغرب ذلك حتى قيل إنّ الله سبحانه وتعالى أنطقها فقالت: الخليل يأمرني، والجليل ينهاني، وبعد لحظة ومثلها هبط جبرائيل عليه السلام ومعه كبش أمره أن يذبحه بدلاً من ابنه ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات/١٠٧].

وأنت سلّمك الله تقرأ القصّة في القرآن الكريم وفي كتب التاريخ والسير وغيرها ولكنّك لو تأملتها تماماً لوجدت هذا الامتثال من الخليل عليه السلام وعدم مراجعة ربّه في إعفائه من ذلك، وكذلك التسليم من الذبيح عليهما الصلاة والسلام وهذا مما لا يطيقه البشر، إنّ هذه الذوات القدسية جديرة بمقام النبوة العظيم.

طاعة الوالدين

قرأت في ما سبق امتثال إسماعيل عليه السلام أمر أبيه عليه السلام، وانقياده له في تقديم نفسه القدسيّة للذبح، وأنت سلّمك الله لم يكلّفك والدك مثل هذا الأمر ولا بعضه، فماذا عليك لو أطعته وامتثلت أوامره؟

لقد شدّد الإسلام على طاعة الوالدين، وجعل عصيانهما من الكبائر التي أوجب الله سبحانه وتعالى عليها النار.

نذكر بعض ما جاء في طاعتهما:

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «برّ الوالدين من حسن معرفة العبد بالله، إذ

لا عبادة أسرع بلوغاً لصاحبها إلى رضا الله من برّ الوالدين المؤمنين لوجه الله»[١].

٢ ـ وعن جابر، قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل، فقال: إنّي شاب نشيط، وأحبّ الجهاد، ولي والدة تكره ذلك، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ارجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثني بالحق لأنسها بك ليلة خير من جهاد في سبيل الله سنة»[٢].

٣ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «النظر إلى وجه الوالدين عبادة»[٣].

ومضافاً لما تحصله من الأجر والثواب بطاعتك لأبويك، تحصل على شيء آخر، وهو أن ابنك يطيعك ويرعاك ويقابلك بالمثل.

١ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «راع أباك يرعاك ابنك»[٤].

٢ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «برّوا آباءكم يبرّكم أبناؤكم، وغضّوا عن النساء يُغضّ عن نسائكم»[٥].

ولك أيضاً عطاء ثانٍ من ربك الكريم، وهو أن يطيل عمرك.

١ ـ قال عليه السلام: «وقّر أباك يطل عمرك، وقّر أمك ترى لبنيك بنينا»[٦].

٢ ـ وقال رسول الله عليه السلام: «من برّ والديه زاد الله في عمره»[٧].

ونذكر بعض ما جاء في عقوقهما:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إيّاكم وعقوق الوالدين، فإنّ ريح الجنة، توجد من مسيرة ألف عام ولا يجدها عاق..»[٨].

وأيضاً في العقوق عقوبة دنيوية:

(١) أصول الكافي: ٣٩٠.
(٢) حقوق الوالدين: ٦.
(٣) حقوق الوالدين: ٦.
(٤) نثر اللئالئ: ٢٨.
(٥) مشكاة الأنوار: ١٦٢.
(٦) حقوق الوالدين: ٧.
(٧) حقوق الوالدين: ٦.
(٨) أصول الكافي: ٣٩٠.

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقطع ود أبيك فيطفأ نورك»(١).

في العرض القرآني المجيد

القرآن الكريم ذكر ابراهيم عليه السلام في تسع وستين آية، وتحدّث عنه بتفصيل في عدة سور، وفي جميعها يذكره بإكبار وإجلال، وفي هذه الصفحات قبس منير من ذلك:

(١)

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة/١٢٤].

الإمامة هي نقطة الخلاف بين المسلمين، فالمسلمون السنّة يرون أنّ الأمّة هي التي ترشح الإمام وتنتخبُه كما يُعمل اليوم في انتخاب رئاسة الجمهورية مثلاً، أمّا الشيعة فتعتقد أنّها منصب إلهي، وامتداد للنبوة، وكما أنّ النبوة من قبل الله تعالى كذلك الإمامة، وهي أيضاً ترى عصمة الإمام عن كل إثم ومعصية والآية الكريمة، تساعد على ما ذهب إليه الشيعة؛ تأمّل السياق والتفسير **﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربّه﴾** أمره ربّه وكلّفه **﴿بكلمات﴾** قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّه ما ابتلاه الله به في نومه، من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب، فأتمّها ابراهيم وعزم عليها، وسلّم لأمر الله، فلما عزم قال الله ثواباً لما صدّق وعمل بهن: إنّي جاعلك للناس إماماً **﴿فأتمهن﴾** وفى بهنّ، وعمل بهنّ على التمام، والضمير في أتمهنّ عائد إلى الله تعالى، والكلمات: هي الإمامة، وأتمهنّ الله بأن أوجب بها الإمامة بطاعته، واضطلاعه بما ابتلاه **﴿قال إنّي جاعلك للناس إماماً﴾** يُقتدى بك في أفعالك وأقوالك **﴿قال ومن ذرّيتي﴾** أي واجعل من ذريتي من يوشّح بالإمامة، وينال هذه الكرامة **﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾** قال مجاهد: العهد: الإمامة، والمعنى: لا

(١) النّوادر: ١٠.

يكون الظالم إماماً للناس.

قال أمين الإسلام الطبرسي: «واستدل أصحابنا بهذه الآية على أنّ الإمام لا يكون إلاّ معصوماً عن القبائح، لأنّ الله سبحانه نفى أن ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم، ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالماً إمّا لنفسه وإمّا لغيره»[١].

(٢)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة/٢٥٨].

ونمرود[٢] وهو أحد من ملك الدنيا شرقاً وغرباً، ودانت له العباد بالطاعة، فكان شكره للمنعم أن نازعه الربوبيّة، فكان أوّل من سنّ ذلك، ويجب أن تعلم أنّ هذا الطاغية قد أخذه الله جلّ جلاله بأضعف خلقه بعد أن جعله يعاني ذلاّ وهواناً، فقد دخلت بعوضة في أنفه تعسّر على الأطباء إخراجها، فكانت تؤلمه كثيراً وكان الدواء الوحيد أن يُضرب بالنعال على رأسه ليسكن الألم قليلاً، مكث دهراً على هذا حتّى ارتحل إلى النار.

وأنت قد تستغرب أن يدّعي عبد ضعيف الربوبية، وكيف يجيبه الناس إلى ذلك، ولكنّك حينما تقرأ بعض الشيء عن هؤلاء الطغاة تجد أنّهم كانوا يتمتعون ببهلوانية وهيمنة على النفوس؛ استمع إلى فرعون كيف يتكلّم مع شعبه فتارة يطلب من وزيره أن يبني له صرحاً ليطّلع إلى إله موسى، وأخرى مبالغته في ذم موسى عليه السلام ﴿**ولا يكاد يبين**﴾ إلى غير ذلك.

وكان لنمرود شكل آخر من المغالطة فقد سأل ابراهيم عليه السلام: من ربّك الذي تدعو إليه؟ فأجابه ﴿**إذ قال ابراهيم ربّي الذي يحيي ويميت**﴾ ذكر عليه السلام هذين الأمرين لأنّهما خارجان عن قوّة البشر، ولكن الطاغية أجابه: ﴿**قال أنا أحيي وأميت**﴾ قال: أنا أحيي بالتخلية من الحبس من وجب عليه القتل، وأميت بالقتل

(١) مجمع البيان: ١ ـ ٢/ ٣٧٧.

(٢) وفي بعض المصادر: نمروذ.

من شئت ممن هو حيّ.

لاحظ كيف لفّ ودار، فقد اعتمد في المعارضة على العبارة فحسب دون المعنى، عادلاً عن وجه الحجّة بفعل الحياة للميّت، أو الموت للحي على سبيل الاختراع، الذي ينفرد به تعالى، ولا يقدر عليه سواه.

فأجابه عليه السلام:

٢ ـ ﴿قال ابراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾.

أراد عليه السلام أن يفهم ذلك المجتمع الغبي بخداع نمرود، وأنّه عبد عاجز، ولو كان قادراً ـ كما يقول ـ على الأحياء والإماتة لتمكّن أن يأتي بالشمس من المغرب، ولم يعسر عليه ذلك.

٣ ـ (فبهت الذي كفر)

لقد فشل الطاغية في هذا الحوار فشلاً ذريعاً لم يخف على الناس، وتحيّر بما بان من ظهور الحجّة، وكان المفروض أن يستيقظ المغفّلون الذين هيمن عليهم زمناً طويلاً، ويسلكوا طريق النجاة، ولكن المشكلة هي مرض النفوس الذي هو أعظم أثراً، وأشد خطراً من الطواغيت، ألا تسمعه جلّ جلاله يقول عن قوم فرعون **﴿إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [النمل/١٢].**

(٣)

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ **[الأنعام/٧٦].**

وابراهيم عليه السلام قمة عليا في الفضائل والمكارم، وهو جدير بمواهب الله جلّ جلاله، وهو بعد علم الموحّدين ومرشدهم الأوّل، وباني صرح العدالة، ومؤسس مجد البشرية.

فهو حين يكون مع عبدة الأجرام السماوية تراه يزعزعهم عن معبوداتهم ـ شاءوا أم أبوا ـ بما يقيم لهم من أدلّة التوحيد، وأنّ الأفول ـ الغيبوبة ـ دليل على

الحدث، والمحدَثُ لا يكون إلهاً.

وإن هو اجتمع مع الطاغية نمرود يحاوره حتى يبهت ويتحيّر ولا يطيق جواباً لما يورد عليه من حجج التوحيد وبراهينه.

(٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ابراهيم/٣٥ - ٣٦].

وأنت حين تقرأ الآيات التي تعرضت لإبراهيم عليه السلام تجده في علوّ لا يدانيه أحد، وفي قمة مجد يقصر دونها الأنبياء فضلاً عن غيرهم، فهو جدير بما أولاه الله جلّ جلاله من الإجلال والتعظيم، وجعله أبا لمن جاء بعده من الأنبياء عليهم السلام، وأنهم تبعٌ له على شريعته ومنهاجه ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج/٧٨].

يستعرض القرآن الكريم بعض سيرته الكريمة في هذه السورة التي أنزلت باسمه المبارك، ونحن ندعك مع الآيات وتفسيرها إلا أنَّ الملفت للنظر أنك تجده في بضع آيات يؤكّد سلام الله عليه على الصلاة في موضعين، اهتماماً بها، ولأنّها أساس الدين. ومن أهمِّ ما جاء به النبيّون صلوات الله عليهم.

نعود للآيات:

﴿**وإذ قال ابراهيم**﴾ واذكر يا محمد إذ قال ابراهيم ﴿**ربّ اجعل هذا البلد آمناً**﴾ يعني مكة وما حولها من الحرم؛ واستجاب الله جل جلاله دعاءه، فقد كان الإنسان يرى قاتل أبيه فيها فلا يتعرّض له، ويدنو الوحش فيها من الناس فيأمن منهم ﴿**واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام**﴾ والطف لي ولبنيّ لطفاً نتجنّب به عن عبادة الأصنام ﴿**ربّ إنّهن أظللن كثيراً من الناس**﴾ معناه: ضلّ بسببهن وعبادتهن كثير من الناس ﴿**فمن تبعني فإنّه منّي**﴾ يريد: فمن تبعني من ذرّيتي الذين أسكنتهم هذا البلد على ديني، في عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، فإنّه من جملتي، وحاله

كحالي ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ ساتر على العباد معاصيهم، رحيم بهم في جميع أحوالهم، منعم عليهم ﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي﴾ أسكنت بعض أولادي، والمراد به ابنه إسماعيل عليه السلام ﴿بواد غير ذي زرع﴾ يريد وادي مكة، وهو الأبطح، لم يكن بها يومئذٍ ماء ولا زرع ولا ضرع ﴿عند بيتك المحرّم﴾ إنّما أضاف البيت إلى الله عزّ وجلّ لأنّه مالكه، لا يملكه أحد سواه، وما عداه من البيوت قد ملكه غيره من العباد، وإنّما سمّاه المحرّم لأنّه لا يستطيع أحد الوصول إليه إلاّ بالإحرام ﴿ربّنا ليقيموا الصلاة﴾ إنّما أسكنتهم هذا الوادي ليداوموا على الصلاة، ويقيموا بشرائطها ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ هذا سؤال من ابراهيم عليه السلام أن يجعل الله قلوب الخلق تحنّ إلى ذلك الموضع، ليكون في ذلك أنس لذريته بمن يرد عليهم من الوفود، وليدر أرزاقهم على مرور الأوقات، ولولا لطفه سبحانه بإمالة قلوب الناس إليه، إمّا للدِّين كالحج والعمرة، وإمّا للتجارة، لما صحّ أن يعيش ساكنوه ﴿وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾ لكي يشكروا لك ويعبدوك ﴿ربّنا إنّك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ هذا اعتراف من ابراهيم عليه السلام لله سبحانه بأنّه يعلم ما يبطن الخلق وما يظهرونه، وأنّه لا يخفى عليه شيء مما في الأرض والسماء ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ هذا اعتراف منه بنعم الله سبحانه، وحمد له على إحسانه بأنّه وهب له على كبر سنّه ولدين.

قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة ﴿إنّ ربّي لسميع الدعاء﴾ قابله ومجيبه، ويؤيده قوله: سمع الله لمن حمده ﴿ربّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذرّيتي﴾ واجعل من ذرّيتي من يقيم الصلاة، ويتمسّك بالدين.

﴿ربّنا وتقبل دعاء﴾ وأجب دعائي، فإنّ الدعاء إنّما هو الإجابة، وقبول الطاعة الإثابة ﴿ربّنا اغفر لي ولوالديّ﴾ وبهذا يستدل أن أبويه كانا مسلمين، ولو كانا كافرين لم يدع لهما بالمغفرة، والمراد بقوله تعالى: فلما تبيّن أنّه عدو لله تبرّأ منه، إنّما هو جده لأمّه ﴿وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ واغفر للمؤمنين أيضاً يوم يقوم الخلق للحساب.

(٥)

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل/ ١٢٠ ـ ١٢١].

نجد أنَّ كل آية تذكر ابراهيم عليه السلام تصفه بأعظم ما يكون من الإكبار، إشعاراً للأمة بسمو مقامه، ورغبة بالاقتداء به، لا سيّما وأنّه علم الموحّدين، وحامل راية التوحيد، ومنار المجد والهدى.

نعود للآيات:

﴿**إنّ ابراهيم كان أمّة**﴾ قدوة ومعلّماً للخير يقال: فلان في نفسه أمة أو قبيلة، أي قائم مقام قبيلة أو جماعة ﴿**قانتاً لله**﴾ مطيعاً له، دائماً على عبادته ﴿**حنيفاً**﴾ مستقيماً على الطاعة وطريق الحق وهو الإسلام ﴿**ولم يك من المشركين**﴾ بل كان موحّداً ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ لأنعم الله، معترفاً بها ﴿**اجتباه**﴾ اختاره الله واصطفاه ﴿**وهداه إلى طريق مستقيم**﴾ دلّه إلى الدين المستقيم وهو الإسلام والتوحيد ﴿**وآتيناه**﴾ أعطيناه ﴿**في الدنيا حسنة**﴾ نعمة سابغة في نفسه وفي أولاده ﴿**وإنّه في الآخرة لمن الصالحين**﴾ ولم يقل: لفي أعلى منازل الصالحين مع اقتضاء حاله ذلك ترغيباً في الصلاح، فإنّه عزّ اسمه بيّن أنه عليه السلام من جملة الصالحين مع علو رتبته، وشرف منزلته، تشريفاً لهم، وتنويهاً بذكر من هو منهم، وناهيك بهذا الترغيب في الصلاح، وبهذا المدح لإبراهيم عليه السلام أن يشرّف جملة هو منها حتى يصير الاستدعاء إليها بأنّه فيها ﴿**ثم أوحينا إليك**﴾ يا محمد ﴿**أن اتبع ملة ابراهيم**﴾ أمرناك باتباع ملّة ابراهيم ﴿**حنيفاً**﴾ مستقيم الطريقة في الدعاء إلى توحيد الله، وخلع الأنداد له، وفي العمل بسنّته ﴿**وما كان**﴾ ابراهيم ﴿**من المشركين**﴾ بل هو علم الموحدين وسيّدهم.

(٦)

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم/٤١].

في هذه السورة المباركة عرض لجانب مهم من قصّة ابراهيم الخليل عليه السلام، تتجلّى فيه العبر والمواعظ.

نعود للآية الكريمة:

٢ ـ ﴿واذكر في الكتاب ابراهيم﴾

يا رب ما أجلّ عطاؤك! وما أعظم مواهبك! أنت الذي تضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وأنت الذي تعطي الدنيا قبل الآخرة، ألا خاب وخسر من اتّجه إلى سواك، وطلب الخير من غيرك، ألا يستدلّون بإنعامك على كرمك، وبعطائك على لطفك ورحمتك؛ فهذا عبدك ابراهيم عليه السلام، لو لم يكن من عطائك له إلاّ ذكرك له في قرآن يتلوه ملايين المسلمين بكرةً وعشيّاً، وقد ذكرته في تسع وستين آية بأعظم ما يكون من الإكبار والتعظيم لكفاه ذلك عطاءً، ولعمري ما خفي عليهم مما أعددته له صلوات الله وسلامه عليه من نعيم لا يوصف، وجنّة يتبوّأ منها حيث يشاء، فنعم أجر العاملين.

نعود لتفسير الآية:

﴿واذكر﴾ يا محمد **﴿في الكتاب﴾** في القرآن **﴿ابراهيم إنّه كان صدّيقاً﴾** كثير التصديق في أمور الدين **﴿نبيّاً﴾** عليّاً، رفيع الشأن برسالة الله تعالى.

٣ ـ ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾:

وقبل كل شيء يجب أن تعلم أنّه كان جده، لأن الله جلّ جلاله سماه آزر وإجماع المؤرخين وأهل النسب على أن ابراهيم بن تارخ، والعرب تسمي الجد أباً والقرآن نزل بلغتهم.

وهناك أمر آخر: إنّ آباء الأنبياء عليهم السلام كلّهم مؤمنون موحّدون، لأن ذلك أَدعى إلى أن تحتضن الأمة دعوتهم، والحديث النبوي: ثم أخرجنا إلى أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، وألا يصيبنا نجس الشرك ولا سفاح الكفر(١).

وفي زيارة الإمام الحسين عليه السلام: أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها(٢).

والشيء المهم في الموضوع إن آزر كان مقرّباً للغاية عند نمرود، وكان منجّمه الخاص، ولا يصدر إلاّ عن رأيه، ومع تعصّبه الشديد لآلهته تجد الخليل عليه السلام يكرّر له النصح بأجمل أسلوب وأفضل بيان، يحرّك عواطفه بكلمة ﴿**يا أبتي**﴾ ويكررها مؤملاً أن ينظم إليه، علماً أنه يجابه واجهة عنيفة من واجهات الدولة، ولكن «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق»(٣).

والمصلحون سواء كانوا أنبياء، أو أوصياء، أو علماء، قد عانوا المصاعب، وتحمّلوا المشاق، لأنّ نفوس المجتمع طبعت على البعد عن طريق الهدى والصلاح، ويشبّه علماء الأخلاق الأخلاق الرفيعة بالنسبة للفرد كصعود السلّم، فيها بعض المشاق، وأنّ الأخلاق الرذيلة كالنزول، فهي لا تشق على أحد.

ومن أعظم ما عاناه الأنبياء عليهم السلام هو وجود الأصنام؛ والواقع أن موضوع عبادتها لمن عجائب الدنيا وغرائبها، وإلاّ فكيف يتصوّر أن يصنع الإنسان تمثالاً من خشب أو حديد أو أي شيء آخر، ثم يدّعيه إلهاً، يعبده ويتوسّل به، ويطلب

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/٧.
(٢) مفاتيح الجنان: ٤٢٩.
(٣) نهج البلاغة: ٣/٦٢٦.

منه حوائجه، وليس في الأمة من ينكر ذلك وفيها مثقّفون ونابهون.

تأمّل كلام الخليل عليه السلام، فهو أحسن وأروع ما يقال عن الأصنام ﴿**يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع**﴾ دعاء من يدعوه، ﴿**ولا يبصر**﴾ من يتقرّب إليه ويعبده ﴿**ولا يغني عنك شيئاً**﴾ من أمور الدنيا، فهو لا يمكنه نفعك، أو مضرّتك.

٤ ـ ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سويّاً﴾:

وهذه دعوى الأنبياء جميعهم، فبأتباعهم هدى في الدنيا، وهدى في الآخرة، ونجاة في الدنيا، ونجاة في الآخرة، وسلامة في الدنيا، وسلامة في الآخرة، وأمن في الدنيا، وأمن في الآخرة، وعزّة في الدنيا، وعزّة في الآخرة، وكرامة في الدنيا وكرامة في الآخرة، وسعادة في الدنيا، وسعادة في الآخرة، وفوز في الدنيا، وفوز في الآخرة؛ والشقي كل الشقي من حرم هذا العطاء.

٥ ـ ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾:

العبادة: هي الطاعة والخضوع والامتثال. عبّر سلام الله عليه عن عبادة الأصنام بأنّها عبادة للشيطان، لأنّها وقعت بترغيبه ووساوسه ومحاولاته، وليست عبادة الأصنام وحدها هي عبادة الشيطان، بل إنَّ كل توجّه واتباع وخضوع وطاعة لغير الله جلّ جلاله تُعدُّ عبادة، فالمتوجّه للمادة وهو يحصل عليها من طرق ملتوية فهو يعبدها، أو بالأحرى فهو يعبد الشيطان، والذي يعبد الجاه، ويحاول الحصول عليه بالتعاون مع الظالمين فهو يعبد الشيطان، وهكذا، فكل اتجاه مخالف لأوامر الله جلّ جلاله فهو عبادة وطاعة للشيطان.

٦ ـ ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم﴾:

وأغرب من عبادة الأصنام والأوثان تعلّق أهلها بها، وشغفهم بحبّها، لقد ربطهم الشيطان بها ربطاً محكماً، ولا أدلّ على ذلك من كلام قوم نوح عليه السلام ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ **[نوح/٢٣]**.

ويصف جلّ جلاله تعلق قوم موسى عليه السلام بالعجل ﴿**وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ **[البقرة/٩٣]**.

٧ ـ ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّا﴾

ومع الإعراض والتهديد يقابله عليه السلام بكل لطف وحنان، ولا يقطع الأمل من رجوعه إليه، وكأنّه صلوات الله عليه يعلّم الأجيال الدأب على الإرشاد والتعليم، واستعمال أحسن الأساليب في ذلك، فمن أمر بمعروف فليكن بمعروف، ألا تسمع القرآن الكريم يصف سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران/ ١٥٩].

٨ ـ ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾:

الإعتزال: الإبتعاد والإعراض، والهجر أحياناً بهذا يتعيّن طريق الإصلاح، فبعد إبداء النصح، وتكرار الوعظ، وإصرار الشخص على الضلال يجب تركه ومقاطعته كمحاولة جديدة للإصلاح، وسلك الخليل هذا الطريق مع أقرب الناس إليه بعد أن استعمل كل وسائل الإصلاح معه. إنّ بعض الأشخاص طبعوا بطابع سيء فلا يجدي معهم كل تهذيب وإرشاد ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة/ ١٠].

٩ ـ ﴿ولما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾:

لقد ذمّ الله جلّ جلاله الذين يعيشون في ظلّ الحكام الجائرين، يؤثرون ذلك على الهجرة في سبيل الله.

إن الله جلّ جلاله أجزل للمهاجرين بدينهم العطاء في الدنيا والآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل/ ٤١].

إنّ الكثير من الذين تعيّن عليهم الهجرة من بلادهم لقسوة الحاكمين، وبعدهم عن مسار الحق، ثم تسامحوا في الهجرة فقد قتلوا بأيدي الطغاة.

والآية الكريمة تذكر مواهب الله جلّ جلاله لخليله عليه السلام بعد مهاجرته وتركه ديار الظالمين ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ فارقهم وهاجرهم إلى الأرض المقدّسة ﴿وهبنا له إسحاق﴾ ولداً ﴿ويعقوب﴾ ولد الولد ﴿وكلا جعلنا

نبيّاً﴾ آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد كرام على الله، وكلاّ من هذين جعلناه نبيّاً يُقتدى به في الدين **﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾** نعمتنا، سوى الأولاد والنبوّة، من نعم الدين والدنيا **﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾** ثناءً حسناً في الناس، عليّاً، مرتفعاً، سائراً في المجتمعات، فكل أهل الأديان يتولّون ابراهيم وذرّيته، ويثنون عليهم.

(٧)

١ ـ ﴿ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ **[الأنبياء/٥١]**.

والحديث الشريف «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجّسانه»(١).

والمعنى: لو أن شخصاً عاش وحده بعيداً عن الناس، فهو حينما ينشأ يدرك بعقله السليم أنَّ له خالقاً مدبّراً، والمراد بالرشد: هي الحجج التي توصله إلى الرشد من معرفة الله وتوحيده.

٢ ـ (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون):

وأعظم ما عاناه المرسلون من أممهم هو عبادتهم للأصنام، ومن الغريب أن تتسالم الأمم قديمها وحديثها على ذلك، وحتى الموحّدون منهم فما أسرع ما ينحرفون عن معالم التوحيد.

لقد ترك موسى عليه السلام قومه شهراً ليأتيهم بالتوراة وقد خلّف فيهم أخاه هارون عليه السلام وفي ساعة ومثلها تنقلب الأكثرية الساحقة منهم فيعبدون عجلاً له خوار.

كانت المحاولة الأولى للخليل عليه السلام في إصلاح الأمة وتهذيبها أن يزحزحهم عن عبادة الأصنام. ومعنى الآية: ما هذه الصور التي أنتم مقيمون على عبادتها.

---

(١) مجمع البحرين: ٣/٤٣٨.

روى الأصبغ بن نباتة: أنّ علياً عليه السلام مرّ بقوم يلعبون الشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، لقد عصيتم الله ورسوله[١].

٣ ـ ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾:

إنَّ عبادة الآباء أهم دعائم الضلال قديماً وحديثاً، فالإنسان حينما يفتح عينيه ويرى أهله على طريقة يصعب عليه بعدها الإنتقال.

إنَّ الجواب الذي تلقاه الخليل عليه السلام على تأنيب قومه على عبادة الأصنام ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾.

(١) مجمع البيان: ٧ ـ ٨/ ٩٤.

٤ ـ ﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم﴾:

فهو صلوات الله عليه وقد أيس من إصلاحهم واستجابتهم للحق، فأخذ يفكّر في إتلاف الأصنام وتحطيمها لأنها معالم للكفر والضلال، ولكي يستيقنوا إذا رأوها محطّمة أنّها لو كانت أرباباً كما يزعمون لحمت نفسها ـ على الأقل ـ ممن كادها وحطّمها.

ومن هذا وغيره يُعلم أهمية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وأنّهما واجبان على كل مسلم ومسلمة، كل فرد حسب قدرته وطاقته.

٥ ـ ﴿إنّكم أنتم الظالمون﴾:

في هذه المحاولة انكشف لهم أنّهم على خطأ في عبادتهم حجراً لا يستطيع أن يحمي نفسه فضلاً عن الآخرين.

كان المنتظر منهم بعد هذا الاعتراف أن يعودوا لنهج الحق، ولكن الذي حدث هو العكس تماماً، لقد أجمعوا على الكفر والضلال وقالوا ﴿**حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾.

٦ ـ ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم﴾:

من هذا الحدث العظيم يتبيّن أنّ أهل الدنيا كلّهم لو أجمعوا على قتلك أو الإساءة إليك، والله جلّ جلاله يريد حفظك فيستحيل عليهم أن يمسّوك بسوء، والدليل على ذلك ما حدث للخليل عليه السلام، فالنار التي أجّجت له يستحيل أن يحصل مثلها، فالطيور التي في الجو كانت إذا قاربتها احترقت من لهبها، ولكن الإرادة الإلهية ﴿**قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً**﴾ وليس الخليل وحده الذي نجا من كيد عظيم دبّرته أمّة وحكومة، فقد نجّى الله عبده عيسى بن مريم عليه السلام من مثل هذا الكيد العظيم، كما نجّى عبده محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وقد وقف ببابه أربعون مسلّحاً بأيديهم سيوفهم يريدون الفتك به.

٧ ـ (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة):

إنّ عطاء الله جلّ جلاله لأوليائه والمتّبعين لأوامره لا يحيط به أحد، فهو يعطيهم في الدنيا المستحيل ليُستدلّ بذلك على عظيم منحه لهم في الآخرة.

لقد وهب الله جلّ جلاله للخليل إسماعيل عليه السلام وهو في عمر يستحيل فيه الإنجاب، ووهب له إسحاق عليه السلام وعمره آنذاك مائة واثنتا عشرة سنة، وزوجته سارة قد ناهزت المائة، وأكثر من هذا فقد وهب جلّ جلاله لإسحاق يعقوب، وأعظم من هذا كله فقد جعلهم جميعاً أنبياء مرسلين يقتدى بهم، فهذا أعظم عطاء وأجلّه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء/٧٣].

وأنت لا تستطيع الإحاطة بأَبعاد ما وهب الله جلّ جلاله لعبده ابراهيم عليه السلام من عطاء في الدنيا فضلاً عن الآخرة، فهو أب لمن جاء بعده من المرسلين، بل كانوا جميعاً على نهجه، إنَّه جد أعلى لأكبر أمم الأرض.

واعلم أنّه ليس بين الله جل جلاله وأحد قرابة، بل هو ربّ للجميع، ورحمته سبقت غضبه، وعطاؤه حتّى لمن جحده وعبد غيره؛ فضلاً عمن تولاّه وعبده، وأنت ـ أعزّك الله ـ إذا وفّقت وسعدت بطاعته وامتثال أمره، فابشر بخير الدنيا والآخرة.

(٨)

١ ـ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء/٦٩].

في هذه السورة عرض تفصيلي لابراهيم عليه السلام مع قومه يدعوهم إلى الله جلّ جلاله، يقيم لهم الأدلّة على بطلان ما هم فيه من عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع.

إنّه يقول لقومه محتجاً عليهم: ﴿**هل يسمعونكم**﴾ هل يسمعون دعاءكم ﴿**إذ تدعون**﴾ وهل يستجيبون دعاءكم إذا دعوتموهم ﴿**أو ينفعونكم**﴾ إذا عبدتموهم

﴿أو يضرّون﴾ إن تركتم عبادتهم.

٢ ـ ﴿قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾:

والمشكلة التي واجهتها الأجيال، وعاناها الأبناء هي عبادة الآباء، فالولد دائماً يسير على نهج أبيه وعقيدته لا يفكّر في صحّتها، ولا يبحث عن أدلّتها؛ فالمثقّف الهندي اليوم لا شكّ أنه يتقزز من تقديس البقر أو عبادتها، ويؤلمه ذلك، ولكنها عبادة الآباء، وتركها خروج عن تقاليد المجتمع.

لقد حثّ الله جل جلاله عباده على البحث عن الدين، واستعمال العقل، كما طلب منهم التفكّر وإمعان النظر، فلا يقبل الله جلّ جلاله عقيدة إلاّ عن إقامة دليل وحجّة.

نعود للآية الكريمة:

٣ ـ ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون﴾

في هذا الموقف تظهر عظمة الخليل عليه السلام، فهو وحده أمام دولة عظمى طبّق نفوذها شرق الأرض وغربها، وشعب أجمع عن بكرة أبيه على الضلال، فهو ما رهب هؤلاء ولا هؤلاء، بل تحدَّاهم جميعاً، وبالغ في نقدهم حتّى تجاوز ذلك إلى آبائهم، علماً أن من الصعب على الإنسان أن يسمع أحداً ينال من أبيه.

إنه يعلم الأجيال أن يصرّحوا بالحق، ولا يخافوا ظالماً.

قوله: ﴿**أفرأيتم ما كنتم تعبدون**﴾ الذي كنتم تعبدونه من الأصنام ﴿**أنتم**﴾ الآن ﴿**وآباؤكم الأقدمون**﴾ المتقدّمون، والمعنى: الذين كان آباؤكم يعبدونهم ﴿**فإنّهم عدو لي**﴾ يعني الأصنام؛ جعل الأصنام كالعدو في الضرر من جهة عبادتها ﴿**إلاّ ربّ العالمين**﴾ استثناه من جميع المعبودين. ثم وصف ربّ العالمين فقال ﴿**الذي خلقني**﴾ أخرجني من العدم إلى الوجود ﴿**فهو يهدين**﴾ يرشدني إلى ما فيه نجاتي ﴿**والذي هو يطعمني ويسقين**﴾ يرزقني ما أتغذّى به ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ يفعل بي ما يصح بدني ﴿**والذي يميتني ثم يحيين**﴾ يميتني بعد أن كنت حيّاً، ويحييني يوم القيامة بعد أن أكون ميّتاً ﴿**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾ يوم الجزاء؛ وإنّما قال ذلك على سبيل الانقطاع منه إلى الله تعالى، لا على

سبيل أنّ له خطيئة يحتاج إلى أن تغفر له يوم القيامة، لأنّ عندنا لا يجوز أن يقع من الأنبياء شيء من القبائح ﴿**ربّ هب لي حكماً**﴾ الحكم: بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة ﴿**وألحقني بالصالحين**﴾ بمن قبلي من النبيين في الدرجة والمنزلة ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ أي ثناءً حسناً في آخر الأمم، وذكراً جميلاً، وقبولاً عاماً من الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، فأجاب الله سبحانه دعاه، وأهل الأديان يثنون عليه، ويقرّون بنبوته ﴿**واجعلني من ورثة جنّة النعيم**﴾ من الذين يرثون الفردوس ﴿**واغفر لأبي إنّه كان من الضالين**﴾ من الذاهبين في التيه.

٤ ـ ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾:

ثم ابتهل إلى الله جلّ جلاله بالدعاء والتوسّل والانقطاع إليه، طالباً منه خير الدنيا والآخرة، فقال: ﴿**ولا تخزني يوم يبعثون**﴾.

لعلّ ما يحصل لبعض المتجاوزين في الدنيا على الدولة من عقاب وسجن وغيره أقل ألماً عليهم مما يلحقهم من خزي أمام المجتمع، فكيف بهم إذا كان المشاهدون جميع الخلائق، وكل أهل الموقف يعلمون ذنوب العاصي بعلامات يُعرف بها.

يقول أمين الإسلام في تفسير الآية: لا تفضحني، ولا تعيّرني بذنب يوم تحشر الخلائق؛ وهذا الدعاء كان منه عليه السلام على وجه الانقطاع إلى الله تعالى لما بينّا أن القبيح لا يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام.

٥ ـ ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾:

وكل انصباب فكر المرء واهتمامه هو تنمية أمواله، ورعاية بنيه، والاهتمام بمأكلهم ومشربهم ودراستهم، دون الاهتمام بتربيتهم وتهذيبهم.

وإن ما اهتم به، وبذل كل مجهوده من أجله لا ينفعه في ذلك اليوم مثقال ذرة، بل بالعكس يجده أمامه حيث يكره، فهو يسأل عن ماله ممَّ اكتسبه، وفيم أنفقه، كما يُسأل عن أولاده وتقصيره في توجيههم وتهذيبهم، وأنه كان ينبغي له أن يحاسبهم على الصلاة كما يحاسبهم على دراستهم؛ ومعنى الآية: لا ينفع المال والبنون أحداً إذ لا يتهيأ لذي المال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به، ولا يتحمّل

من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه، فقد ورد أن الأب يقول لابنه: احمل عني، فيجيبه حسبي ما عليّ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ **[لقمان/٣٣]**.

٦ ـ ﴿إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾

إنّ الذي ينفعه في ذلك اليوم كما ينفعه في الأيام التي سبقته من أيام القبر والبرزخ هو عمله الصالح فقط، والذي عبّرت عنه الآية الكريمة **﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾** من الشرك؛ وإنّما خص القلب بالسلامة لأنّه إذا سلم القلب سلمت سائر الجوارح من الفساد، من حيث إنَّ الفساد بالجارحة لا يكون إلاّ عن قصد بالقلب الفاسد.

(٩)

١ ـ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ **[العنكبوت/١٦]**.

في هذه السورة عرض لقصة ابراهيم عليه السلام مع قومه، بدأه معهم بالطلب بعبادة الله وطاعته، واجتناب معاصيه **﴿ذلكم خير لكم﴾** فهذا الذي أطلبه منكم هو خير لكم في الدنيا لأنّي أنهاكم عن شرب الخمر ـ مثلاً ـ فيكسبكم الامتثال بذلك صحّة، وأنهاكم عن السرقة فتربحوا بذلك أمناً وشرفاً، بل إنَّ جميع ما أطلبه منكم يفيدكم في الدنيا عزّاً ومجداً، وهو خير لكم في الآخرة لأنّه يكسبكم جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

٢ ـ ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾:

وأبشع شيء في الحياة انسلاخ الإنسان من عقله ـ وهو أثمن ما لديه ـ وذلك بعبادته حجراً لا يضر ولا ينفع.

إنَّ المشكلة العظمى التي واجهت المرسلين عليهم السلام هي عبادة الأصنام لقد توسّلوا بكل السبل إلى الناس في أن يتخلّوا عنها، ويعبدوا إلهاً قادراً حيّاً قيّوماً

خالقاً رازقاً فلم يستجيبوا، لقد أجمعوا على حبّها والتعلّق بها، ألا تسمعهم يقولون: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء/٦٨].

٣ ـ ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾:

لقد حرّك فيهم عليه السلام الوتر الحسّاس، فالإنسان طبع على الإهتمام برزقه، والطلب له، والسعي لحصوله، وإن هذه الأصنام عاجزة عن نفع نفسها فضلاً عن غيرها، ومن كان في هذه الصورة لا تجوز عبادته.

٤ ـ ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾:

أمرهم عليه السلام أن يتوجّهوا إلى الله تعالى بالعبادة، ويطلبوا منه الرزق، فعنده خزائن السماوات والأرض، وهو قريب من قول نوح عليه السلام ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح/١٢].

٥ ـ ﴿إليه ترجعون﴾:

إنّ نهايتكم سواء كنتم مؤمنين أم كافرين إليه، لا مفرّ لكم عن ذلك، فابتغوا إليه الوسيلة، ولا تقطعوا علاقتكم به، لأنكم لا تخرجون عن قبضته، بل إنَّ نواصيكم بيده، ومردّكم إليه، وإلى حكمه تصيرون.

(١)

١ ـ ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات/٨٣].

وبعد أن انتهت الآيات التي حكت قصة نوح عليه السلام انتقلت إلى ابراهيم عليه السلام، ومعنى الآية: إنّ ابراهيم عليه السلام كان على منهاج نوح عليه السلام وسنّته، كما إنَّ الأنبياء الذين جاءوا من بعد ابراهيم عليه السلام كانوا على نهجه في الحنيفية والإسلام؛ والواقع إنَّ الأنبياء صلوات الله عليهم بعثوا جميعاً بالإسلام، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران/١٩] فالألف واللام

التي في الدين تفيد الحصر، والمعنى: لا دين عند الله سبحانه غير دين الإسلام.

ويدعم هذا ما ورد على لسان الأنبياء عليهم السلام.

قال تعالى حاكياً عن ابراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة/١٣٢]

وقول يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف/١٠١].

وحكى سبحانه قول ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة/١٢٨].

وقول سليمان عليه السلام ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل/٤٢].

وقول الحواريين لعيسى عليه السلام ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/٥٢]. وغير هذا كثير في القرآن الكريم.

٢ ـ ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾:

من الشرك والشكّ؛ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: هو القلب إذا سلم من حب الدنيا، ويؤيّده قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وموضوع سلامة القلب أهم ما يفتقر إليه البشر اليوم، فهو أعظم دافع لمعالي الأمور، وحاجز مهم عن المعاصي، ومانع عن التعرّض للآخرين بسوء؛ إذ إنَّ بسلامة القلب يسود الإخاء بين المجتمع، وتنعدم دوافع الشر والاعتداء.

٣ ـ ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾:

وهنا تتبين عظمة الخليل عليه السلام، الشعب والحكومة قد تطابقوا جميعاً على عبادة الأصنام، وحتّى أقرب الناس له عليه السلام، فلم يرعه ذلك، بل بادرهم جميعاً بالإنكار عليهم، وتهجين ما كانوا يعبدون؛ لم يعبأ بكثرتهم ولم يخش صولتهم،

ثم تابع الحديث معهم ﴿أأفكاً آلهة دون الله تريدون﴾ والإفك: هو أشنع الكذب وأفظعه.

٤ ـ ﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون﴾

فلما رآهم لم يستجيبوا لنداء الحق، سلك معهم طريقاً آخر، فقد جاء إلى أصنامهم وخاطبها ليريهم أن من لا يفهم الكلام ولا يقدر على الجواب لا يستحق العبادة، ثم أقبل عليها بالضرب ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾.

٥ ـ ﴿فاقبلوا إليه يزفّون﴾:

لقد علموا ما فعله بأصنامهم فأسرعوا إليه، وبدأوا معه التحقيق ﴿أأنت فعلت هذا يا ابراهيم﴾ ويجيبهم ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ من حجر وغيره، إنّه لمظهر من مظاهر الإسفاف، وانحطاط العقل البشري والنزول إلى المستوى الحيواني.

٦ ـ ﴿قالوا ابنوا له بنياناً﴾:

لقد عجزوا عن الجواب فلجأوا إلى منطق القوة، لقد بنوا له حائطاً من حجارة، ارتفاعه ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، ومَلَؤوه ناراً ثم ألقوه فيها ﴿فألقوه في الجحيم﴾.

٧ ـ ﴿فأرادوا به كيداً﴾:

حيلةً وتدبيراً في إهلاكه وإحراقه بالنار، بل إنَّ في تاريخ البشرية لم يحدث لهذا التدبير من نظير؛ لقد اجتمعت عليه الحكومة والشعب، وخططوا تخطيطاً دقيقاً لإهلاكه عليه السلام، بل المفروض أن لا يبقى له أيّ أثر، وكانت نجاته عليه السلام مدعاة لهم إلى الإيمان به صلوات الله عليه.

ومضافاً إلى نجاته صلوات الله وسلامه عليه من نارهم فقد أهلك الله أعداءه، فالقطب المدبر لأهل الكفر (نمرود) أرسل الله جلّ جلاله عليه بعوضة فأهلكته كما أهلك الآخرين بدليل قوله تعالى ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾.

٨ ـ ﴿وقال إني ذاهب إلى ربّي سيهدين﴾:

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة الخليل عليه السلام أرسى فيها قواعد التوحيد، وأشاد فيها صروح الإيمان، ودعائم الرشاد.

والمراد من الآية الكريمة: إنّي تارك ديار الكفر، ومنتقل إلى الأرض المقدَّسة التي أمرني الله جلّ جلاله بالذهاب إليها.

٩ ـ ﴿ربّ هب لي من الصالحين﴾:

وأنت إذا تأملت الدعاء انكشف لك جانب من عظمة الخليل عليه السلام، وأنت أعزّك الله يجب أن تتعلم وتأخذ من هذا الدعاء درساً، فهو يشتهي الولد ولكنّه طلب أن يكون الولد صالحاً، لأنّه لو لم يكن صالحاً كان عدم وجوده أفضل من وجوده.

استجاب الله دعاءه ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ الحليم: الذي لا يعجل في الأمر قبل وقته مع القدرة عليه.

والمراد: إنه مضافاً إلى إيمانه وصلاحه اتصافه بصفات الكمال، ومزايا الشرف، تمهيداً للمقام الرفيع الذي أعدّه الله جلّ جلاله له.

١٠ ـ ﴿فلما بلغ معه السعي﴾:

وهذا من أعظم الإبتلاء، ولا يقوى عليه أحد إلاّ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ونحن في الوقت الذي نقرأ الآية لا نحيط بأبعاد الموضوع بينما هو أمر في غاية الصعوبة، ويستحيل أن يقدر عليه من هو دون هذه الرتبة.

تأمّل حال ابراهيم عليه السلام، فهو شيخ كبير، ولم ير الولد إلاّ بعد اياس وشيخوخة، ثم جاء الولد كأحسن ما يكون من الولدان هدياً وإيماناً وجمالاً، فهب أنّه أُمر بذلك ويصبر على هذا الامتحان العسير ولكن ما حال الولد إذا قاده للذبح؟ أو بالأحرى ما حال أمه وهي ترى وحيدها وأملها وقد بلغ ثلاث عشرة سنة مذبوحاً مخضّباً بدمائه.

تأمّل هذا وغيره لتدرك عظمة الخليل عليه السلام، أو بالأحرى أن تتعلم منه

ـ ولو قليلاً ـ درساً في امتثال أوامر مولاك العظيم جلّ جلاله، علماً أنّه لم يكلّفك بذبح ولدك، بل كلّفك قليلاً يسيراً فبخلت بذلك مع حاجتك إليه.

١١ ـ ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾:

وربّما وأنت تقرأ الآية الكريمة فيزول ما مرّ بك من العجب، هب أنّ ابراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أبو المرسلين وعظيمهم ـ امتثل أمراً إلهياً عسيراً، فطالما وطّن الرسل أنفسهم على المشاق، وتحمّلوا العناء الكثير، ولكن الأمر الأعجب هو استجابة غلام في مقتبل العمر لهذا الامتحان العسير.

لقد كان بإمكانه التفلّت من ذلك بعدة طرق، وربّما كان بعضها مسموحاً، وهو أن يطلب من أبيه مراجعة المولى جلّ جلاله في إعفائه من ذلك، لكنّه صلوات الله عليه لم يقبل إلاّ بالأفضل وإن كان صعباً وشاقاً، وهذا وغيره مما يؤيّد أنّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من سنخ خاص، مُلِئوا إيماناً وتقى وفضيلة.

لقد طلب إسماعيل من أبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يمتثل ما أُمر به، ووعده بالصبر ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾.

١٢ ـ ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾:

أخذه عَلَيْهِ السَّلَامُ للذبح، وجاءت ساعة الصفر، وإسماعيل يقول لأبيه: يا أبتِ اقلبني على وجهي حتّى لا ترى وجهي فترقّ عليّ، يا أبت حد الشفرة، يا أبت أوثقني كتافاً.

وابراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول له: نعم العون أنت يا ولدي على طاعة الله، ومعنى قوله ﴿**فلما أسلما**﴾ أي استسلما وامتثلا ما أُمرا به ﴿**وتلّه للجبين**﴾ وضع جبينه على الأرض كي لا يرى وجهه كما طلب منه ذلك خشية أن تأخذه رقّة الآباء، لقد وضع السكين على رقبته ولكنّها لم تعمل، بل انقلبت في يده، وصار جانب الذبح الأعلى، والغليظ الذي لا يذبح على رقبته.

واستغرب عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك فأعادها ولكنها انقلبت ثانية.

١٣ ـ ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا﴾ :

لقد اكتفى جلّ جلاله من عبديه بالامتثال والتصميم، دون التنفيذ، لقد نزل جبرائيل عليه السلام في اللحظة الأخيرة، وبلّغه بأن الله جلّ جلاله قد أعفاهما من ذلك مع أنّه ادّخر لهما الثواب العظيم، الذي أشارت إليه الآية الكريمة **﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾** أي كما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه نجزي من سلك طريقهما في الإحسان بالاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

١٤ ـ ﴿إنّ هذا لهو البلاء المبين﴾ :

لقد ثمّن الله جلّ جلاله موقف عبديه، وشكر لهما امتثالهما واستجابتهما لهذا الأمر الشاق، والاختبار الشديد.

لقد أجزل لهما العطاء في الدنيا مضافاً لما أعدّ لهما في الآخرة من المقامات المحمودة، والمنازل الرفيعة.

١٥ ـ ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ :

وحينما نزل جبرائيل عليه السلام بالأمر الإلهي بإيقاف الذبح كان معه كبش أمره أن يذبحه فداء عن ابنه، والفداء: جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه، وإنما سماه عظيماً لأنّه كان مقبولاً، ولأنّه كان فداء عبد عظيم.

١٦ ـ ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ :

لم تنته مواهب الله جلّ جلاله لعبده ابراهيم عليه السلام عند هذا الحد، بل إنَّ الله سبحانه وتعالى أفاض عليه النعم، وغمره بالكرامات، فمن ذلك **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾** ومعناه: أبقينا عليه ذكراً جميلاً، وأثنينا عليه في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويكفي من التثمين أنّ القرآن ذكر ابراهيم عليه السلام بغاية الإكبار والإجلال في تسع وستين آية كما ذكر إسماعيل عليه السلام في اثنتي عشرة آية بمنتهى التبجيل والإعظام.

١٧ ـ ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾:

والله جلّ جلاله من صفاته العدل، فلا فرق عنده بين عربيّ ولا عجمي إلاّ بالتقوى، فهو يستحيل أن يجزل العطاء لعبد ويحرم آخرين.

لقد أكّد سبحانه في هذه الآية بأنّه كما جزى ابراهيم عليه السلام وعوّضه عن مواقفه النبيلة، وشكر له مساعيه الكريمة، كذلك هو يجزي جميع المحسنين والعاملين بطاعته، الممتثلين لأوامره، وتكفي الجنة عطاءً ونعيماً، ومقرّاً دائماً للمحسنين.

١٨ ـ ﴿وبشرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين﴾:

وإبراهيم عليه السلام وإن رزق ولداً كريماً نبيّاً إلاّ أنّه بقي في نفسه شيء، أو بالأحرى في نفس زوجته الأولى، وابنة عمه سارة، وهي أوّل من آمن به، وتحمّلت من أجل ذلك المشاق، فقد هاجرت معه تاركة وطنها وذويها.

لقد شكر الله جلّ جلاله مواقفها المحمودة، ووهب لها ولداً نبيّاً بعد أن تخطّت سن الإنجاب بخمسين عاماً لتسرَّ بذلك، وليكون كذلك إعجازاً للخلاّق العليم.

(١١)

﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى/١٩].

والمراد بها الكتب المنزلة عليهما من السماء، وفيها تعاليم الله جلّ جلاله لعباده؛ إنّ القرون السالفة أضاعت هذه الآثار السماوية، كما إنَّها تعرّضت لجبّارين أمعنوا في إتلافها، ومحرّفين زوّروا بعض الحقائق التي فيها، وبقي منها بقية جاء الحديث عنها عن الصادقين عليهما السلام.

عن أبي ذرّ رضوان الله عليه قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟

قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى

إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى ابراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

قلت: يا رسول الله ما كانت صحف ابراهيم؟

قال: كانت أمثالاً كلها، وكان فيها: أيّها الملك المغرور إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردّ عنّي دعوة المظلوم، فإنّي لا أردّها وإن كانت من كافر؛ وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه عزّ وجلّ، وساعة يحاسب نفسه، وساعة يتفكّر فيما صنع الله عزّ وجلّ إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال، فإن هذه الساعة عون لتلك الساعات، واستجمام للقلوب، وتوزيع لها، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه، فإن من حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو تلذّذ في غير محرّم[١].

دعاء

وهو الطلب والتوسّل بالله جلّ جلاله لقضاء الحوائج والمهمات، وهو مما أُمرنا به، فأنت يستحب لك أن تتوجّه وتسأل الله سبحانه وتعالى في الأمور الصغيرة والكبيرة، فهو الذي لا يزيده إلحاح الملحين إلاّ كرماً وجوداً. إنّ الله جلّ جلاله يحب من عباده أن يسألوه، ويكره منهم أن يسأل بعضهم بعضاً.

يجب عليك أن تقتدي بنبيِّ الله ابراهيم عليه السلام، ففي أحرج ساعة تمر عليه وذلك حينما ألقي في النار، ويسأله جبرائيل عليه السلام: هل من حاجة؟

ويجيبه عليه السلام: أمّا إليك فلا، ولكنّه توجه إلى قاضي الحاجات بهذا الدعاء، فكانت النار عليه برداً وسلاماً.

بسم الله الرحمن الرحيم، اللّهم إنّي أسألك يا الله يا الله يا الله يا الله،

(١) الخصال: ٥٢٥.

أنت المرهوب يرهبُ منك جميع خلقك يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، أنت الرفيع عرشك من فوق سبع سماواتك، وأنت المُظل على كل شيء، لا يُظل شيء عليك، يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله أنت أعظم من كل شيء فلا يصل أحد عظمتك، يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، يا نور النور، قد استضاء بنورك أهل سماواتك وأرضك، يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، لا إله إلاّ أنت تعاليت أن يكون لك شريك، وتكبّرت أن يكون لك ضدّ، يا نور النور، يا نور كلِّ نور، لا خامد لنورك، يا مليك كلِّ مليك، تبقى ويفنَى غيرك، يا نور النور، يا من ملأ أركان السماوات والأرض بعظمته، يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، يا هو، يا هو، يا من ليس كهو، يا من لا هو إلاّ هو، أغثني أغثني، الساعة الساعة، يا من أمره كلمح البصر أو هو أقرب يا أهيا أثر أهيا أذوني أصباؤث ال شداي[١] يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، يا ربّاه يا ربّاه يا ربّاه يا ربّاه، يا غاية رغبتنا ومنتهاه.

فلما دعا ابراهيم عليه السلام عجّت الأملاك من صوته، وإذا النداء من العلي الأعلى: يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم، فخمدت أسرع من طرفة عين[٢].

(١) كلمات أعجميَّة ربما كانت من لغة البابليين الذين كان نازلاً فيهم إبراهيم عليه السلام.

(٢) مهج الدَّعوات: ٣٠٧؛ ووصف الدُّعاء بأنَّه من الأسرار العظيمة والقدر الكبير عند الله.

النبي إسماعيل عليه السلام

الأم الزاكية

فضّل الله جلّ جلاله الأنبياء والأوصياء عليهم السلام بفضائل كثيرة، منها:

طهارة الآباء، وعفاف الأمهات، بل أن آباءهم وأمهاتهم كانوا مثلاً أعلى في النبل والفضيلة، وقد مرّ عليك بعض ذلك، وفي هذه الصفحات قصّة وقعت لهاجر أم إسماعيل عليه السلام، يتجلّى لك أنّها كانت على جانب عظيم من الإيمان، والتصديق بنبيّ الله ابراهيم عليه السلام، والامتثال لأوامر الله جلّ جلاله.

ذكر المفسّرون وأهل السير والتاريخ أن ابراهيم عليه السلام لما جاء بها وبولدها إلى مكة المكرمة، وهي يومئذ أرض جرداء لا ماء فيها ولا نبات، وكانت خالية من البشر، بل وحتّى من الطير وغيره. حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعها ثم رجع، فاتبعته، فقالت: إلى أي شيء تكلنا، إلى طعام، إلى شراب تكلنا؟! فجعل لا يرد عليها شيئاً، فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيّعنا، فرجعت ومضى، حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي وقال: **﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم﴾**[1].

(١) تاريخ الطَّبري: ١/ ١٧٩.

في العرض القرآني المجيد

(١)

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات/١٠٠].

وهذه قصّة مليئة بالعبر والمواعظ، جديرة بأن يدرسها المسلم ويتأمّل ما جاء فيها من كنوز المعارف.

تبدأ القصة بسيرة ابراهيم عليه السلام مع قومه، وتكسيره لأصنامهم، ونجاته من نار عظيمة قذفوه فيها.

ثم تتحدّث الآيات عن رحلة له ﴿**إني ذاهب إلى ربي**﴾ والمعنى: إلى حيث أمرني ربِّي، يريد أرض الشام.

امتدّ بنبيِّ الله العمر إلى حدود المائة عام ولم يُرزق الولد، وسمعت زوجته (سارة) دعوته ﴿**ربّ هب لي من الصالحين**﴾ أي ولداً صالحاً، فأهدته جاريتها (هاجر) مؤمّلة أن يستجيب الله جلّ جلاله دعاءه، وفعلاً تحقق الأمل ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾ والحليم: الذي لا يعاجل بالعقوبة.

وفسّر الشيخ الطريحي الحلم: بالعقل والتؤدة، وضبط النفس عن هيجان الغضب[1].

وبعد أن جاء الولد (إسماعيل) تغيّر موقف سارة تماماً، وصارت تطلب من ابراهيم عليه السلام أن يبعد(هاجر) وابنها عنها.

والله سبحانه وتعالى يشكر لسارة إيمانها بالله ورسوله، وما عانته في هجرتها من مشاق، كما أنّ هناك مصالح خفيّة، كبناء الكعبة المعظّمة، وإنشاء جيل من المؤمنين عندها، لهذا وغيره أمره سبحانه وتعالى أن يخرج بهاجر وابنها، وأرسل

---

(١) مجمع البحرين: ٦/ ٤٩.

إليه جبرائيل عليه السلام يدلّه على المكان الذي يسكنهم فيه.

خرج عليه السلام بهم، ويمر على رياض زاهية، وانهار جارية، ويسأل جبرائيل: هل وصلنا؟ ويجيبه بالنفي، وبعد أن تجاوز ذلك وصل إلى أرض صحراء، لا نبت فيها ولا شجر، بل ولا ماء ولا بشر، فقال جبرائيل: هذا هو المكان.

ترك عليه السلام وحيده العزيز وزوجته هناك واتجه راجعاً، وسألته الحرّة: إلى من تكلنا؟

قال: إلى الله.

فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل.

وبعد وقت قصير نفذ الماء، وبلغ العطش بالطفل مبلغاً عظيماً، فكانت تنظر في البيداء يمنةً ويسرةً لعلّها تجد ماءً، وتراءى لها السراب جهة الصفا ماءً فقصدته ولكن لم تر شيئاً، ثم تراءى لها من جهة المروة فقصدته ولكن لم تجد شيئاً، وهكذا بقيت تسعى بين الصفا والمروة، وحانت منها التفاتة إلى وليدها الذي تركته بين الحياة والموت، وإذا بعين ماء قد نبعت عنده، فهو يشرب ويلعب.

كانت هي البداية والانطلاقة لخير عميم، لقد شاهدت جرهم(١) الطيور غادية ورائحة، خلافاً للعادة، فعلموا أن سرّاً هناك، فبحثوا وإذا بالماء والمرأة والطفل، فسألوها عن شأنها، فقالت: أنا زوجة خليل الرحمن، وهذا ابنه، واستأذنوها في السكن بجوارها، قالت: حتى أسأل نبيَّ الله ـ وكان عليه السلام يزورهم بين الآونة والأخرى ـ فسألته فأذن بذلك، فسكنوا وأهدوا لإسماعيل عليه السلام من بعض مواشيهم، فصار عنده قطيع من الأغنام.

وبعد أن نشأ الطفل أمر الله جلّ جلاله نبيّه ابراهيم عليه السلام ببناء الكعبة المعظّمة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **[البقرة/١٢٧]**.

---

(١) قبيلة كبيرة كانت تقطن قرب الحرم.

هذا ما أجمع عليه أهل السير والتاريخ.

وتمضي الآيات إلى ذكر أمر عظيم لا يقوى عليه والد ولا ولد ولكنّها النبوة وصبرها ﴿**فلما بلغ معه السعي**﴾ بلغ إلى أن يتصرّف ويمشي معه، ويعينه على أموره، وكان ابن ثلاث عشرة سنة ﴿**قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى**﴾ قال له: إني أبصرت في المنام رؤيا تأويلها الأمر بذبحك، فانظر أيّ شيء ترى من الرأي؟

ومن الآية الكريمة يتبيّن أن الله جلّ جلاله أوحى إليه في حال اليقظة أن يمتثل ما يراه في المنام ويعمل به ويجيب إسماعيل عليه السلام أباه ﴿**قال يا أبت افعل ما تؤمر**﴾ نفّذ ما أُمرت به ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ ستصادفني بمشيئة الله وحسن توفيقه ممن يصبر على الشدائد في جنب الله ويسلّم لأمره ﴿**فلما أسلما**﴾ استسلما لأمر الله سبحانه وتعالى، ورضيا به وأطاعاه ﴿**وتلّه للجبين**﴾ وضع جبينه على الأرض لئلا يرى وجهه فتلحقه رقّة الآباء ﴿**وناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا**﴾ فعلت ما أُمرت به في الرؤيا ﴿**إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾ كما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه نجزي بالإحسان من سلك طريقهما في الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى ﴿**إنّ هذا لهو البلاء المبين**﴾ إنّ هذا لهو الامتحان الظاهر، والاختبار الشديد ﴿**وفديناه بذبح عظيم**﴾ الفداء: جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه؛ فبعد أن وضع عليه السلام السكين على رقبة ابنه نزل جبرائيل عليه السلام ومعه كبش، وأمره بذبحه بدلاً من إسماعيل ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ أبقينا له ذكراً جميلاً، فمن ذلك أن جميع أهل الأديان يتولّونه صلوات الله وسلامه عليه، ويجلّونه غاية الإجلال.

زمزم

أو سقاية الحاج، أو سميها (كرامة الصابرين) إنّها بضع ساعات عاناها الوليد الصغير وأمّه من العطش أعقبها خلود مدى الحياة.

إن اسم زمزم مقرون بإسماعيل وهاجر عليهما السلام، بل هي موهبة الله جلّ جلاله لهما.

إن الصبر على الطاعة وامتثال أوامر الله جلّ جلاله يعقبه ثناء في الدنيا، ونعيم في الآخرة.

أعلام الهداة

تحدثت كتب السير والآثار عن محاولة شيطانية مع آل ابراهيم عليهم السلام، وذلك عند امتثالهم أمر الله جلّ جلاله بالذبح.

قالوا: لما رأى ابراهيم في المنام أن يذبح ابنه.

قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم وإلاّ لم أفتن أحداً منهم أبداً، فمثل لهم الشيطان رجلاً فأتى أم الغلام فقال لها: أتدرين أين ذهب ابراهيم بابنك؟

قالت: ذهب به ليحتطب من هذا الشعب.

فقال: لا والله ما ذهب به إلاّ ليذبحه.

قالت: كلا، هو أرحم به منّي، وأشد حبّاً له من ذلك.

فقال لها: إنّه يزعم أن الله أمره بذلك فقالت له: إنَّ كان أمره بذلك، فقد أحسن في امتثال طاعة ربه وفي استسلامه لأمر الله تعالى، فخرج الشيطان من عندها هارباً حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه، فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟

قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب.

قال: لا والله، ما يريد إلاّ ذبحك.

قال: ولِمَ؟ قال: يزعم أن الله أمره بذلك.

قال له: فليفعل ما أمره الله به، فسمعاً وطاعة لأمر الله تعالى.

فلما امتنع منه الغلام أقبل على ابراهيم، فقال له: أين تريد أيّها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي.

فقال: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك يأمرك بذبح ابنك هذا؛ فعرفه ابراهيم فقال: إليك عني يا ملعون، فوالله لأمضين لأمر ربّي، فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من ابراهيم وأهله شيئاً مما أراد، وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده[1].

وأنت أعزّك الله وسلمك من الشيطان تأمّل جيداً عدوّك الأكبر، - كيف يحاول أن يمكر بأطهر بيت على وجه الأرض يومئذٍ، لم يردعه عنهم علمه بقربهم من المولى جلّ شأنه، ومنزلتهم السامية لديه، فقد جاءهم بكل طاقاته ومقدوراته، وهو أقدر على أن يأتيك ويخدعك ويحيدك عن الصراط المستقيم، فتحصّن منه بحصن منيع ألا وهو الاعتصام بالله جلّ جلاله فإنّه سبيل النجاة، من المهاوي والهلكات، ثم تأمّل وانظر إلى آل ابراهيم عليهم السلام لما امتثلوا أوامر الله جلّ جلاله حصلوا على المنازل الرفيعة في الدنيا وهي النبوة - وأكرم بها منزلة - وحتى أعفاهم عما طلب منهم من فداء، مع ما أعدّ لهم في الآخرة من نعيم لا يحيط بكنهه الفكر، وهو أيضاً يحميك في الدنيا وينجيك في الآخرة عندما تمتثل أمره، وتتبع تعاليمه.

الذبيح

والمسلم ينظر إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً نظرة إكبار وإجلال، من دون تفريق بينهم، بهذا أدّبنا القرآن الكريم ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة/٢٨٥].

وفي الوقت نفسه لا يجحد فضيلة لنبيٍّ، ولا ينسبها لغيره، فدينه يأبى عليه أن يقول ابراهيم كليم الله، وموسى كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى؛

(١) عرائس المجالس: ٩٤.

هذه سيرة المسلم، ولكن بعضهم ينظر للأنبياء نظرة فيها بعض الازدراء، وحتّى توراتهم فيها ما فيها مما يتنافى وقدسية الأنبياء عليهم السلام، كالذي جاء عن لوط عليه السلام، جلّ أنبياء الله ورسله عن ذلك.

ومن هذا التزوير والتلبيس أن نسبوا فضيلة الذبح لإسحاق عليه السلام، بغياً منهم وعناداً، في حين أن الذبح كان بمكّة، ولم ير إسحاق عليه السلام مكة، بل كان هذا الحدث قبل ولادته عليه السلام.

ومعنا كتاب الله جلّ جلاله، فهو بعد أن ذكر قصة الذبح بتمامها، قال: **﴿وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين﴾**.

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق أم إسماعيل؟

فقال: يا أصمعي أين ذهب عنك عقلك، ومتى كان إسحاق بمكّة، وإنّما كان بمكّة إسماعيل، وهو بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة لا شكّ فيه[1].

(١)

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم/٥٤].

قال الإمام الصادق عليه السلام: وليس هو إسماعيل بن ابراهيم على نبيّنا وعليهما السلام بل هو إسماعيل بن حزقيل[2].

١ ـ صفات الكمال

بعث الله أنبياءه ورسله بمعالي الأخلاق، ومحاسن الصفات، فقد روى الخاص والعام قول نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[3].

لقد علّموا الناس على الأخلاق الرفيعة، والسجايا الفاضلة بألسنتهم

(١) مجمع البيان: ٧ ـ ٣٢٣/٨.

(٢) أمالي الشّيخ المفيد: ٤٠.

(٣) الأخلاق للسَّيِّد عبدالله شُبَّر: ١٢.

وأعمالهم. إنّ التعليم بالأعمال أوقع في النفس، وأبلغ أثراً من الأقوال.

تأمل قصّة وقعت لنبي الله إسماعيل عليه السلام: تبيّن لك ما كان عليه الرسل من خلق عظيم.

٢ ـ (صادق الوعد):

لقد حدث لنبي الله إسماعيل عليه السلام أمر غريب، فقد ذكر المفسّرون وأهل السير أنّه وعد وعداً فانتظر صاحبه سنة[١].

ولقد شكر الله له هذا الموقف في كتابه الكريم.

وأكّدت أحاديث الصادقين صلوات الله وسلامه عليهم على الالتزام بالوعد، والوفاء بالعهد، فمن ذلك:

قال أبو مالك: قلت لعليٍّ بن الحسين عليهما السلام: أخبرني بجميع شرائع الدين؟

قال: قول الحق، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له[٣].

وأزيدك علماً إنَّ إخلاف الوعد في مفهوم الإسلام من امارات النفاق.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان[٤].

٣ ـ (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة):

وبجميع أفعال الخير، وإنما خصّ الصلاة والزكاة اهتماماً بأمرهما لأنهما أهم معالم الدين، وأجل الوظائف الدينية، وإنَّ بقية التكاليف الإسلامية تبع لهما،

---

(١) تفسير القمّي: ٢/ ٥٠.

(٢) روضة الواعظين: ٢/ ٣٧٧.

(٣) النوادر: ٥.

(٤) المستطرف: ٢٠٦.

فالحديث المتسالم عليه في الصلاة «إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردّ ما سواها».

وعلى المسلم أن يهتم بأدائها اهتماماً عظيماً، ويقتدي بنبيِّ الله، فيأمر أهله وأولاده وجميع عائلته بالصلاة، بل بجميع الواجبات والفرائض، وينهاهم عن جميع المحرّمات، لأنه مسؤول عن ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم/٦].

٤ ـ البلاء

في الحديث الشريف: «الأنبياء أشدّ الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل» ومعنى الأمثل: إن المؤمنين والمتقين، ومن سمت مراتبهم هم أكثر الناس بلاءً في الدنيا، وفي الحديث أيضاً: «إن الله يتحف عبده المؤمن بالبلاء كما يتحف أحدكم أهله بالهدية».

وذلك من أجل أن ترتفع درجته، وتسمو مرتبته، فالجنّة درجات بعضها أسمى وأفضل من بعض، وفي بعض الروايات أنها على عدد آيات القرآن الكريم، وأن الأعلى يمكنه النزول، أما الأدنى فيمتنع عليه الصعود وأن مصائب الدنيا ومحنها وبلائها هي سلّم الصعود، ومدارج الكرامة والرفعة.

إن الكثير من أنبياء الله ورسله لاقوا حتفهم على أيدي الطغاة والجبّارين، وحتى ورد أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في كل يوم سبعين نبياً[١].

وذكر المفسرون أن نبي الله إسماعيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة وجهه، وفروة رأسه، فخيّره الله فيما شاء من عذابهم فاستعفاه، ورضي بثوابه، وفوّض أمرهم إلى الله تعالى في عفوه وعقابه[٢].

---

(١) الروضة من الكافي: ١٠١.
(٢) مجمع البيان ٦/٤٢٩.

٤ ـ أسوة بالحسين عليه السلام

إنَّ البشرية منذ يومها الأول في بعد عن مسار الحقِّ، تتسقّط في الخطايا، وتتعثّر في الضلال، لقد رصدهم عدوّهم الشيطان؛ ألا تسمعه يقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص/٨٣].

إنّ من مظاهر طغيان البشر، وبعدهم عن خط السماء، هو قتلهم للأنبياء عليهم السلام، وليس زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام وحدهما ضحايا الكفر والطغيان، بل إنّ جمعاً كبيراً منهم قتلوا.

ويتفنن الطغاة في قتل رسل الله جلّ جلاله، فأصحاب الرس رسّوا نبيّهم في البئر، وبنو إسرائيل نشروا بالمنشار الشجرة التي اختبأ فيها زكريا عليه السلام، وقوم إسماعيل عليه السلام كشطوا وجهه، وفروة رأسه.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: فبعث الله إليه ملكاً فقال له: ربّ العالمين يقرئك السلام ويقول: قد رأيت ما صنع بك قومك فسلني ما شئت.

فقال: يا رب العالمين لي بالحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام أسوة[1].

---

(١) أمالي الشيخ المفيد ٤٠؛ ولك أن تقول: ومن أين علم إسماعيل عليه السلام بالحسين عليه السلام وما يجري عليه وهو قبله بعدة قرون؟

فنقول: إنَّ الأنبياء عليهم السلام كانوا جميعاً على علمٍ بمحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وآل محمد عليهم السلام. وكانوا يتوسلون إلى الله جلَّ جلاله بهم عند الملمّات لعلمهم بعظيم منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى؛ وأزيدك علماً أنَّه ورد في بعض الآثار بكاء البعض منهم على الحسين عليه السلام فقد بكاه زكريا عليه السلام، وطلب من الله جل جلاله أن يرزقه ولدا ويفتنه بحبه ثم يفجعه به، وفي أول لقاء لموسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام تذاكرا ما يجري على الحسين عليه السلام فبكيا طويلا.

وإلى هذا يشير شاعر أهل البيت الموهوب الشيخ صالح الكوّاز رضوان الله عليه في إحدى روائعه:

كفى بيومك حزناً أنّه بكيت ... له النبوّة حزناً قبل أن يقعا

بكاك آدم حزناً يوم توبته ... وكنت نوراً بساق العرش قد سطعا

ونوحُ أبكيته شجواً وقلَّ بأن ... يبكي بدمعٍ حكى طوفانه دفعا =

(٢)

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ [الأنبياء/٨٥].

١ ـ ﴿كلّ من الصابرين﴾ :

وأوّل صفة وصف الله جلّ جلاله هؤلاء الرسل هي صفة الصبر فقد كانوا صلوات الله عليهم يتحلّون بها، ولولاها لما بلغوا هذه المرتبة العظيمة من رضوان الله تعالى، وتبليغ الرسالة، فبالصبر تُنال المراتب الرفيعة، ويبلغ العبد فوق ما يحلم به من نعيم وسعادة ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر/١٠].

وليس الصبر سلّم يُرتقى به إلى الجنات فحسب، بل هو سلّم يبلغ به العبد السعادة الدنيوية أيضاً، فأنت لو لم تصبر سني الدراسة، ومشاق التعليم كنت جاهلاً أمّياً، والمريض لو لم يصبر على مرّ العلاج لم يبرأ، والفلاّح إذا لم يصبر على حرارة الشمس، ويعاني جهد العمل لم يأكل، ومعنى الآية: انّ هؤلاء الأنبياء عليهم السلام صبروا على البلاء، والعمل بطاعة الله تعالى.

= ونــار فقْــدِك فــي قلــب الخليــل بهــا
نيــران نمــورد عنــد الله قــد دفعــا
كلمــت قلــب كليــم الله فــانبجســت
عينــاه دمعــاً دمــاً كــالغيــث منهمعــا
ولــو رآك بــأرض الطــفّ منفــرداً
عيســى لمــا اختــار أن ينجــو ويــرتفعــا
ولا أحــبّ حيــاةً بعــد فقــدكــم
ولا أراد بغيــر الطّــفّ مضطجعــا
الأبيات عن = تحت راية الحق: ٥١١.

٢ ـ (وأدخلناهم في رحمتنا):

وأدخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الأنبياء في نعمتنا، والمراد: غمرناهم بالرحمة.

وهذه بعض المكافأة التي كانت لهؤلاء تثميناً لصبرهم وإيمانهم وجهودهم الخيّرة في سبيل الإصلاح، والدعوة إلى الخير.

وأنت رعاك الله وسددك تقدّم نحو الله جلّ جلاله بأداء ما افترضه عليك، واجتناب ما نهاك عنه، فسيدخلك حتماً في رحمته، ويغمرك بعطائه في الدنيا والآخرة.

٣ ـ (إنهم من الصالحين):

وصفهم أولاً بالصبر ثم بالصلاح، وهو ضد الفساد.

والمراد: إنّما أدخلناهم في رحمتنا لأنّهم كانوا ممن صلحت أعمالهم.

وأهم شيء يُطالب به العبد ـ وهو جواز النجاة في القيامة ـ هو صلاح الأعمال.

فالأعمال مدوّنة ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق/١٨]، ويتلقّاها العبد في كتاب لا يغادر صغيرة وإلا كبيرة إلاّ أحصاها، فينبغي للمسلم أن يحرص كل الحرص على أن يُصلح أعماله ليسرّ بها غداً ويسعد.

النبي لوط عليه السلام

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء/٧٤].

تمهيد

إنَّ نبي الله لوط عليه السلام هو ابن خالة ابراهيم عليه السلام ، وأخو زوجته سارة، وهو أوّل من آمن بابراهيم عليه السلام وهاجر معه ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت/٢٦].

وابراهيم عليه السلام هو الذي أرسله إلى المدن التي أُهلكت بالعذاب، يدعوهم إلى طاعة الله تعالى، وفعلاً استجابوا لنداء السماء، ولكنّ الشيطان جاءهم من هذا الطريق الملتوي، فكانت النهاية المحزنة، وخسران الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

البخل

جاء الإسلام داعياً الى مكارم الأخلاق، وترك مساوئها؛ يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يثمّن الأخلاق الكريمة حتى وإن كانت من غير مسلم، فقد روي أن أسارى جيء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بضرب أعناقهم، ثم أمره بإفراد واحد منهم وأن لا يقتله.

فقال الرجل: لم أفردتني من أصحابي والجناية واحدة؟!

فقال: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليّ أنّك سخيّ قومك وأن لا أقتلك.

فقال الرجل: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعدي بن حاتم: إنّ الله دفع عن أبيك العذاب الشديد لسخاء نفسه[2].

وكما انَّ السخاء من أكرم الصفات وأعلاها مرتبة، فإنّ البخل من أسوأ الصفات وأرذلها؛ فهو يدعو إلى قطيعة الرحم، والشحّ على العيال، بل وعلى النفس، وحبس الحقوق المفروضة من قبل الله سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك من المهالك.

قال أبو بصير للإمام الباقر عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعوّذ من البخل؟

فقال: نعم، يا أبا محمد في كل صباح ومساء، ونحن نتعوّذ بالله من البخل، إنّ الله يقول: ﴿**ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ وسأخبرك عن عاقبة البخل: إنّ قوم لوط كانوا أهل قرية أشحاء على الطعام، فأعقبهم البخل داءً لا دواء لهم في فروجهم.

فقلت: وما أعقبهم؟

قال: إنّ قرية قوم لوط كانت على طريق السيّارة إلى الشام ومصر، فكانت السيّارة تنزل بهم فيضيّفونهم، فلما كثر ذلك عليهم ضاقوا بذلك ذرعاً بخلاً ولؤماً، ودعاهم البخل إلى أن كانوا إذا نزل بهم الضيف أتوهم في أدبارهم من غير شهوة بهم إلى ذلك، وإنّما كانوا يفعلون ذلك بالضيف حتى ينكل النازل عنهم؛ فشاع أمرهم في القرية، وحذرهم النازلة، فأورثهم البخل داءً لا يستطيعون رفعه من غير شهوة لهم إلى ذلك، حتى صاروا يطلبونه من الرجال في البلاد، ويعطونهم عليه الجعل.

(١) الإختصاص: ٢٤٧.
(٢) الإختصاص: ٢٤٦.

ثم قال عليه السلام: فأي داء أدوى من البخل، ولا أضرّ عاقبة، ولا أفحش عند الله عزّ وجلّ.

قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فهل كان أهل قرية لوط كلهم هكذا؟

فقال: نعم إلاّ أهل بيت من المسلمين، ثم قال: أما تسمع لقوله تعالى: ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾.

ثم قال عليه السلام: إنّ لوطاً لبث في قومه ثلاثين سنة يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ويحذّرهم عذابه؛ وكانوا لا يتنظفون من الغائط، ولا يتطهّرون من الجنابة.

وقال: وكان لوط ابن خالة ابراهيم، وكانت امرأة ابراهيم سارة أخت لوط[1].

الاستقامة

القرآن الكريم يُشيد بمن سلك طريق الاستقامة عبر الحياة، وواكبه حتّى الممات، دون أن يأخذ يميناً ولا شمالاً ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود/١١٢] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت/٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت/٣٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف/١٣] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى/١٥].

واعلم رعاك الله أنّه ليس المقصود من هذه الآيات الأنبياء عليهم السلام، فهم معصومون من كل ذنب، منزّهون عن كل خطأ، بل انّه جلّ جلاله يريد الاستقامة من جميع الناس.

وقد يسقط المسلم في المنزلق لنفس أمّارة تدعوه، وشيطان مريد يترصّده، ولكن المطلوب منه أن يخرج سريعاً، ويغسل ما علق به من أوساخ بماء التوبة،

(١) تفسير البرهان: ٤/ ٢٣٣.

ليعود في صفوف أهل الاستقامة، وقد يسبقهم، لأنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له ـ الحديث ـ وربك سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ **[الشورى/٢٥]**.

والحديث عن قوم لوط واستقامتهم أولا، ثم كبوتهم ثانياً بلا عودة إلى توبة واستغفار.

روى ثقة الإسلام الكليني طاب ثراه عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم، وتبقى النساء خلفهم، فلم يزل إبليس يعتادهم، فكانوا إذا رجعوا خرّب إبليس ما يعملون، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرّب متاعنا، فرصدوه، فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقالوا له: أنت الذي تخرّب متاعنا مرة بعد مرة؟ فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيّتوه عند رجل، فلما كان الليل صاح، فقال له: ما لك؟ فقال: كان أبي ينوّمني على بطنه، فقال له: تعال فنم على بطني، فلم يزل يدلك الرجل حتى علّمه أنّه يفعل بنفسه.. ثم انسلّ ففرّ منهم، وأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويعجّبهم منه وهم لا يعرفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بالرجال بعضهم ببعض، ثم جعلوا يرصدون مارّة الطريق فيفعلون بهم، حتى تنكّب مدينتهم الناس، ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان[1].

الإصرار

سيمرّ عليك في قصة يونس عليه السلام أنّ العذاب لما أحاط بهم ندموا وتابوا فتاب الله عليهم، وكشف عنهم العذاب، بينما نجد قوم صالح وقد أعلمهم نبيّهم بأن العذاب واقع بهم بعد ثلاث، وآية ذلك أن يصبحوا ووجوههم مصفرة، وفي اليوم الثاني وجوههم محمرة، وفي اليوم الثالث وجوههم مسودّة، فزادهم ذلك

(١) الكافي: ٥/ ٥٤٥.

إصراراً، حتّى أخذهم العذاب.

وقوم لوط عليه السلام كانوا على هذا الغرار أيضاً، فهم بعد ما هجموا على بيت لوط، فأشار إليهم جبرائيل بيده فرجعوا عمياناً يلتمسون الجدار بأيديهم، يعاهدون الله لئن أصبحنا لا نستبقي أحداً من آل لوط[1].

بينما كان المفروض أن يكون ذلك ردعاً وندماً وتوبة وتوسّلاً بنبيّهم في أن يسأل الله سبحانه وتعالى في كشف ما بهم.

وأنت يا أخي حفظك الله وحرسك ينبغي أن تلتفت إلى نفسك وتحاسبها، وتتوب من كل ذنب عملته لا رجوع بعدها الى ذنب، فالموت يأتي بغتةً، فاسبقه بالتوبة.

هلاك قوم لوط

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل عليهم السلام، فمرّوا بابراهيم عليه السلام وهم معتمّون فسلّموا عليه فلم يعرفهم، ورأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء أحد إلاّ أنا بنفسي، وكان صاحب أضياف، فشوى لهم عجلاً سميناً حتى أنضجه، ثم قرّبه إليهم، فلما وضعه بين أيديهم رأى أيديهم لا تصل إليه، نكرهم وأوجس منهم خيفة، فلما رأى ذلك جبرائيل عليه السلام حَسَر العمامة عن وجهه وعن رأسه فعرفه ابراهيم عليه السلام، فقال: أنت هو؟

فقال: نعم.

ومرّت سارة فبشّرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فقالت ما قال الله عزّ وجلّ، فأجابوها بما في الكتاب العزيز.

فقال ابراهيم عليه السلام لهم: في ماذا جئتم؟

قالوا له: في إهلاك قوم لوط.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٤٠/ ٢٣.

فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين تهلكونهم؟

فقال جبرائيل: لا.

قال: فإن كانوا خمسين؟

قال: لا.

قال: فإن كانوا ثلاثين.

قال: لا.

قال: فإن كانوا عشرين؟

قال: لا.

قال: فإن كانوا عشرة؟

قال: لا.

قال: فإن كانوا خمسة؟

قال: لا.

قال: فإن كانوا واحداً؟

قال: لا.

قال: إن فيها لوطاً.

قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين.

ثم مضوا وأتوا لوطاً وهو في زراعة له قرب المدينة، فسلّموا عليه وهم معتمون، فلما رآهم رأى هيئة حسنة، عليهم عمائم بيض، وثياب بيض، فقال لهم: المنزل.

فقالوا: نعم.

فتقدّمهم ومشوا خلفه، فندم على عرضه عليهم المنزل وقال: أي شيء صنعت آتي بهم قومي وأنا أعرفهم، فالتفت إليهم، فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله.

وقد قال جبرائيل عليه السلام: لا نعجّل عليهم حتّى يشهد ثلاث شهادات، فقال

جبرائيل عليه السلام: هذه واحدة، ثم مشى ساعة ثم التفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله.

فقال جبرائيل عليه السلام: هذه اثنتان، ثم مضى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله.

فقال جبرائيل عليه السلام: هذه ثالثة، ثم دخل ودخلوا معه فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة، فصعدت فوق السطح وصفّقت فلم يسمعوا، فدخّنت، فلما رأوا الدخان اقبلوا يهرعون إلى الباب، فنزلت إليهم، فقالت: عنده قوم ما رأيت قط أحسن منهم هيئة، فجاؤوا إلى الباب ليدخلوها، فلما رآهم لوط قام إليهم فقال: يا قوم اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، فدعاهم إلى الحلال.

فقالوا: ﴿**قد علمت ما لنا في بناتك من حقَّ وإنك لتعلم ما نريد**﴾.

فقال: ﴿**لو أن لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد**﴾.

فقال جبرائيل عليه السلام: لو يعلم أي قوّة له، فكاثروه حتى دخلوا البيت، فصاح بهم جبرائيل: يا لوط دعهم يدخلون، فلما دخلوا أهوى جبرائيل باصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قوله ﴿**فطمسنا أعينهم**﴾ ثم نادى جبرائيل فقال: ﴿**إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل**﴾.

وقال له جبرائيل: إنّا بعثنا في إهلاكهم.

فقال: يا جبرائيل عجّل عليهم.

فقال: ﴿**إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾.

فأمره فتحمّل ومن معه إلاّ امرأته، ثم اقتلعها جبرائيل بجناحيه من سبع أرضين ثم رفعها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها وأمطر عليها وعلى من حول المدينة حجارة من سجيل[1].

ومن حديث لجبرائيل عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله في إهلاك قوم لوط قال:

---

(١) الكافي: ٨/ ١٢٣٠.

نوديت من تلقاء العرش لما طلع الفجر: يا جبرائيل حقّ القول من الله بحتم عذاب قوم لوط، فاهبط إلى قرية قوم لوط وما حوت فاقلعها من تحت سبع أرضين ثم اعرج بها إلى السماء فأوقفها حتى يأتيك أمر الجبّار في قلبها، ودع منها آية بيّنة من منزل لوط عبرة للسيَّارة، فهبطت على أهل القرية الظالمين، فضربت بجناحي الأيمن على ما حوى عليه شرقيّها، وضربت بجناحي الأيسر على ما حوى عليه غربيّها، فاقتلعتها يا محمد من تحت سبع أرضين، إلاّ منزل لوط آية للسيارة، ثم عرجت بها في خوافي جناحي حتى أوقفتها حيث تسمع أهل السماء وقاء ديوكها، ونباح كلابها، فلما طلعت الشمس نوديت من تلقاء العرش: يا جبرائيل اقلب القرية على القوم، فقلبتها عليهم حتى صار أسفلها أعلاها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجِّيل مسوّمة عند ربّك، وما هي يا محمد من الظالمين من أمتك ببعيد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أرأيتك حين قلبتها في أي موضع من الأرضين وقعت القرية وأهلها؟

فقال: يا محمد وقعت فيما بين بحر الشام إلى مصر فصارت تلولاً في البحر[1].

ومن حديث لجبرائيل عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فإني بعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن، في كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهم فقلبتهن[2].

عقوبة اللواط

حارب الإسلام هذه الجريمة بشدة حتى قال الإمام الصادق عليه السلام: حرمة الدبر أعظم من حرمة الفرج؛ وأنّ الله تعالى أهلك أمّة بحرمة الدبر ولم يهلك أحداً

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٤/ ٢٣٤.

(٢) مجمع البيان: ٥/ ٤٤٦.

بحرمة الفرج.

وجعل عقوبة الفاعل والمفعول به إحدى أمور خمسة:

القتل، الرجم، الرمي من شاهق، أن يوضعا تحت بناء ويهدم عليهما، الحرق، والظاهر أنّ الحرق لم يرد في الشريعة الإسلامية إلاّ في هذه الجريمة والقرآن الكريم يستعرض قصّة قوم لوط في إحدى عشرة سورة بتفصيل، كما يتعرّض لها في مواضع أخرى استهجاناً لها، وتقبيحاً لفعلها.

نذكر بعض ما ورد عن الصادقين صلوات الله عليهم في ذلك:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من جامع غلاماً جاء جنباً يوم القيامة، لا ينقّيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً.

ثم قال عليه السلام: إنّ الذكر يركب الذكر فيهتزُّ العرش لذلك، وإنّ الرجل ليؤتى في حقبه فيحبسه الله على جسر جهنم حتى يفرغ الله من حساب الخلائق، ثم يؤمر به إلى جهنم فيعذّب بطبقاتها طبقة طبقة إلى أسفلها ولا يخرج منها[١].

٢ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: هو ذنب لم يعص الله به إلاّ أمة من الأمم، فصنع بها ما ذكره في كتابه من رجمهم بالحجارة[٢].

٣ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: اللواط ما دون الدبر، والدبر هو الكفر[٣].

٤ ـ ومن حديث الملك مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وأمّا التل الأسود الذي رأيت عليه قوماً مخبّلين، تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وأعينهم وآذانهم، فأولئك يعملون عمل قوم لوط، الفاعل والمفعول به، فهم يعذّبون حتى يصيروا إلى النار[٤].

---

(١) فروع الكافي: ٢/ ٧٠.
(٢) جواهر الكلام: ٦/ ٥١٣.
(٣) عقاب الأعمال: ٢٦٦.
(٤) تاريخ الشام: ٦/ ١٧.

٥ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام : ما من عبد يخرج من الدنيا يستحلُّ عمل قوم لوط إلاّ رماه الله بحجر من تلك الأحجار ليكون فيه منيّته ولكن الخلق لا يرونه(١).

مزيد من الحذر

شاء الله جلّ جلاله أن يختبر الإنسان ويبتليه بالمصائب والمحن ليتضاعف أجره، ويكثر ثوابه، ويكون مؤهّلاً لسكنى جنانه، ومرافقة أوليائه.

ومن أعظم البلايا والمصائب عليه هو الشيطان، فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق ـ الحديث ـ ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف/٢٧].

وقد علمنا أنّه يأتي الإنسان من جميع الجوانب، أو بالأحرى يأتي كل فرد بما يلائمه، ويستدعي كل شخص بما يستسيغه، فيأتي الشاب من جهة الجنس، والشيخ من جهة الحرص، والغني يبخّله، والفقير يجزّعه، وهكذا بقية الناس، فينبغي للإنسان أن يكون حذراً، وأن يتفقّد نفسه دائماً خشية أن ينزلق ببعض مزالق هذا العدو اللدود.

في العرض القرآني المجيد

اتضح لك مما مرّ تخبط أمّة في الضلال، وعدم استجابتهم لتعاليم السماء، وما حلّ بساحتهم من بلاء، علماً أنّ ما أعدّ الله جل جلاله لهم أعظم منه بكثير، ويأتي الآن العرض القرآني المجيد، فالقرآن ذكر لوطاً عليه السلام في سبع وعشرين آية، وفصّل الحديث عن أمته في إحدى عشرة سورة، ذكرنا ذلك باختصار.

(١) قصص الأنبياء: ١٥٨.

(١)

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف/ ٨٠].

والمشكلة هي أنّ الشيطان يجيد طرق الغواية والضلال، ويعرف من أين تؤكل الكتف، فيأتي كلاّ بما يروق له، ويأنس به: فإن كان العبد حبّه وولعه بالمال جاءه عن طريقه، وشجّعه على الربا وغيره من المحرّمات، وإن كان يرغب بالجنس حبّذ له الزّنى، والشذوذ الجنسي؛ والأعظم من هذا أنّه يتدرّج مع الشخص، فقد يأتيه في أمر صغير لكنّه يؤدّي به أخيراً إلى أعظم الكبائر، كما حصل ذلك لقوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لقد حبّذ لهم الخبيث البخل الذي أدّى بهم إلى ما أدّى من ذهاب دنياهم وآخرتهم، لهذا فينبغي للإنسان أن يتفقّد نفسه دائماً لأنّ الأمور الصغيرة نواة للأمور الكبيرة.

نعود للآية الكريمة:

﴿**ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة**﴾ السيّئة العظيمة القبح، وهي إتيان الرجال في أدبارهم ﴿**ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط. ثم بيّن تلك الفاحشة ﴿**إنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**﴾ تأتون الرجال في أدبارهم اشتهاءً منكم، وتتركون اتيان النساء اللاتي أباحها الله لكم ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾ متجاوزون الحدّ في الظلم والفساد، ومستوفون جميع المعائب ﴿**وما كان جواب قومه**﴾ لم يجيبوه عمّا قال ﴿**إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم**﴾ قابلوا النصح والوعظ بالسفاهة، فقالوا أخرجوا لوطاً ومن آمن به من بلدتكم ﴿**إنّهم أناس يتطهّرون**﴾ يتنزّهون عن أفعالكم وطرائقكم ﴿**فأنجيناه**﴾ فخلّصنا لوطاً من الهلاك ﴿**وأهله**﴾ المختصين به ﴿**إلاّ امرأته كانت من الغابرين**﴾ من الباقين في عذاب الله ﴿**وامطرنا عليهم مطراً**﴾ أرسلنا عليهم الحجارة كالمطر، كما قال في آية أخرى: وأَمطرنا عليهم حجارة من سجّيل ﴿**فانظر كيف كان عاقبة المجرمين**﴾ تفكّر وانظر بعين العقل كيف كان مآل المقترفين للسيئات، والمنقطعين إليها، وعاقبة

فعلهم من الاستئصال في الدنيا، ثم الخلود في النار.

(٢)

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [هود/٦٩].

إنّ الحدث العظيم الذي سوف يقع عند شروق الشمس، والذي لم يسبق له نظير، من المفروض أن يُخبر به نبيّ العصر، وزعيم الأرض، والحجّة فيها والإمام، وطبيعي أن يكون وقعه عليه شديداً للغاية، لأن البشر ـ مهما بعدوا وخالفوا ـ هم بمنزلة الأولاد للأنبياء، ويصعب على الوالد أن يرى ولده صريعاً على ضلال، وما ينتظره من عذاب أشد وأعظم، لهذا وغيره جاءته البشارة بأمر لم يتوقّعه ولا زوجته التي تخطت سني الشباب والإنجاب وجاوزتها منذ خمسين عاماً.

نعود للآيات:

١ ـ **﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم﴾**.

يعني الملائكة **﴿بالبشرى﴾**:

بالبشارة بإسحاق ونبوّته، وأنّه يولد له يعقوب **﴿قالوا سلاماً﴾** هذه حكاية ما قالته الملائكة لابراهيم عليه السلام، ومعناه: أصبت سلاماً، إذ أعطاك الله سلاماً، أي سلامة **﴿فقال سلام﴾** ابراهيم مجيباً لهم **﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾** لم يتوقّف حتى جاءهم ـ على عادته في إكرام الأضياف، وتقديم الطعام لهم ـ بعجل مشوي، لأنّه توهّم أنّهم أضياف، لكونهم على صورة البشر **﴿فلما رأى﴾** ابراهيم **﴿أيديهم﴾** يعني أيدي الملائكة **﴿لا تصل إليه﴾** إلى العجل **﴿نكرهم﴾** أي أنكرهم **﴿وأوجس منهم خيفة﴾** لمّا رآهم شباناً أقوياء، وكان ينزل طرفاً من البلدة، وكانوا يمتنعون عن تناول طعامه، لم يأمن أن يكون ذلك لبلاء، وذلك أنّ أهل ذلك الزمان إذا أكل بعضهم طعام بعض أمنه صاحب الطعام على نفسه وماله، ولهذا يقال: تحرّم فلان بطعامنا، أي أثبت الحرمة بيننا بأكل الطعام **﴿قالوا﴾** له **﴿لا تخف﴾** يا ابراهيم **﴿إنّا أرسلنا إلى قوم لوط﴾** بالعذاب والإهلاك **﴿وامرأته﴾** سارة **﴿قائمة﴾** من وراء

الستر، تسمع كلام الرسل وكلام ابراهيم ﴿**فضحكت**﴾ تعجّباً وسروراً من البشارة بإسحاق، لأنها في عمر بعيد جداً عن الإنجاب ﴿**فبشرناها بإسحاق**﴾ بابن يسمى إسحاق نبيّاً ﴿**ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ الوراء هو ولد الولد، والمراد: يولد لإسحاق ولد يسمى يعقوب وهو نبيّ أيضاً ﴿**قالت**﴾ سارة ﴿**أألد وأنا عجوز**﴾ هذا شيء عجيب، أن ألد وقد شخت، وزوجي شيخ أيضاً، ولم تشك في قدرة الله تعالى، وإنّما قالت ذلك لكونه خارجاً عن العادة ﴿**وهذا بعلي شيخاً**﴾ هذا الذي يكلِّمكم بعلي وهو شيخ ﴿**إنّ هذا لشيء عجيب**﴾ الأمر الذي بشّرت به ﴿**قالوا**﴾ قالت لها الملائكة لما رأوا تعجّبها ﴿**أتعجبن من أمر الله**﴾ أتعجبين من أن يفعل الله تعالى ذلك بك ولزوجك ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت**﴾ ليس هذا موضع تعجّب، لأنّ التعجّب إنّما يكون من الأمر الذي لا يُعرف سببه، ونعمة الله تعالى، وكثرة خيراته النامية الباقية عليكم ﴿**إنّه حميد**﴾ يحمد عباده على طاعته ﴿**مجيد**﴾ كريم، وهو المبتدىء بالعطيّة قبل الإستحقاق.

٢ ـ ﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع يجادلنا في قوم لوط﴾:

والوالد وإن كان عالماً بشذوذ ولده لكنّه يصعب عليه تسليمه للعذاب والنكال، فكيف إذا كان الوالد نبيَّ الرحمة، وسيِّد أهل الأرض، والذين يشملهم العذاب من أولاده أكثر من واحد، بل هم أربعة ملايين، فهو صلوات الله عليه رغم البشارة العظيمة بالولد وولد الولد، وانَّ كلاً منهما سيزوّد برسالة السماء، مع هذا العطاء الجسيم الذي لم يكن يحلم به ويتوقّعه لم ينس الكارثة التي سوف تحدث، علماً منه بأنّ أولاده مستحقّون لذلك، ولكن دوافع الأبوّة لم تدعه يسكت، لقد انبرى مجادلاً ومحامياً ومدافعاً، فقال للرسل عليهم السلام: إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فما زال ينقص ويقولون: لا، حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا.

وأسفاه، فهذه الأمة الكبيرة التي بلغت الملايين لا يوجد فيها فرد على معالم التوحيد، وسبيل النجاة، إنّهم أهل لأن يؤخذوا بالعذاب ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [**النحل/١١٨**].

وهنا ظنّ صلوات الله عليه أنّه قد وجد ضالته في دفع العذاب، لا سيّما وأنّ

الرسل قد ذكروا أنّ وجود مؤمن واحد يكفي لدفع العذاب عن الأمّة، لذا قال صلوات الله عليه ﴿**إنّ فيها لوطاً**﴾. ولكنّهم أجابوه ﴿**نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله**﴾ ثم طلبوا منه أن يكفّ عن المجادلة، لأنّ العذاب نازل لا محالة بهم لقد قالوا له: ﴿**يا ابراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربّك وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾ وإنك على وجاهتك ومنزلتك العظيمة عند الله جلّ جلاله لا تستطيع ردّه ودفعه عنهم.

٣ ـ ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾:

ترك الرسل ابراهيم عليه السلام في آلامه وأحزانه على أمّة عظيمة، بينها وبين النهاية المؤلمة بضع ساعات، وأقبلوا إلى ساحة العذاب والنكال، واستقبلهم نبيُّ الله لوط عليه السلام في مدخل البلد وهو يُصلح زرعاً له، ولكنّه صلوات الله عليه ﴿**سيء بهم**﴾ ساءه مجيئهم، لأنّه خاف عليهم من قومه ﴿**وضاق بهم ذرعاً**﴾ ضاق بمجيئهم ذرعه، أي قلبه لما رأى لهم من جمال الصورة، وحسن الشارة، وقد دعوه للضيافة ﴿**وقال هذا يوم عصيب**﴾ هائل شديد، كثير الشر، التفّ الشرّ فيه بالشر، وذلك أنّه لم يعلم أنّهم رسل الله، وخاف عليهم من قومه أن يفضحوهم.

لقد أقبل بهم إلى منزله، فلما رأتهم امرأته صعدت فوق السطح فصفّقت فلم يسمعوا، فدخّنت، فلما رأوا الدخان اقبلوا يهرعون.

٤ ـ ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾

لقد بلغوا في الاستهتار والفساد مبلغاً لا يحيط به الوصف أبداً، وإِنَّ التاريخ لم يعرف أمة تسالموا على الفساد، مستعلنين به مثل هذه الأمة.

إنّ هذا المشهد الأخير لهم يكشف عما بلغوه من الإنحطاط والرذيلة، والبعد عن القيم.

لقد أقبلوا مسرعين لطلب الفاحشة ﴿**ومن قبل**﴾ ومن قبل اتيان الملائكة ﴿**كانوا يعملون السيئات**﴾ يعملون الفواحش مع الذكور.

٥ ـ ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم﴾:

وأنت لا تستطيع أن تتصور أبعاد الموقف الذي عاناه نبي الله لوط عليه السلام في هذه الساعة المحرجة، بل هي أحرج ساعة مرّت في حياته الكريمة، فهو ينظر العتاة وقد تسالموا على الجريمة، ولا يد له بمطاولتهم، ولا يتمكّن من الدفاع عمن نزل به، واحتمى بجنابه.

لقد أخذ في وعظهم، ودعاهم إلى الرجوع إلى الاستقامة، وأن يتزوّجوا ببناته، والمراد بذلك النساء من أمته، لأنهن كالبنات له، فإنّ كل نبي أبو أمّته، وأزواجه أمهاتهم، كما ذكّرهم بعقاب الله جل جلاله ﴿**فاتقوا الله**﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿**ولا تخزون في ضيفي**﴾ تلزموني عاراً، لأنّ الضيف إذا نزل به مكروه لحق عاره للمضيّف ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾ أليس في جملتكم رجل قد أصاب الرشد، فيعمل بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم؟ ﴿**قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق**﴾ ما لنا في بناتك من حاجة ﴿**وانك لتعلم ما نريد**﴾ تعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء.

وبعد هذا الوعظ والتذكير الذي لم يزدهم إلاّ تمادياً في الضلال، تأسّف عليه السلام: إذ لم يكن له من القدرة على دفعهم عن ضيوفه ﴿**قال لو أنّ لي بكم قوة**﴾ منعة وقوّة، وجماعة أتقوّى بها عليكم ﴿**أو آوي إلى ركن شديد**﴾ أو أنضم إلى عشيرة منيعة تنصرني، وشيعة تمنعني لدفعكم، ولكن لا يمكنني أن أفعل ذلك.

قال الإمام الصادق عليه السلام: قال جبرائيل: لو يعلم أيّ قوّة له.

٦ ـ ﴿قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك﴾:

لقد ضاقت الدنيا برحبها على نبي الله، واستعمل كل ما يمكن أن يستعمله معهم من مواعظ ونصائح، وبعد هذه المعاناة والهجوم على البيت للقبض على الضيوف، وإذا بجبرائيل عليه السلام يصيح: يا لوط دعهم يدخلوا، فلما دخلوا، أهوى جبرائيل باصبعه نحوهم فذهبت أعينهم، وهو قوله: ﴿**فطمسنا أعينهم**﴾ وجاءت البشارة المسرّة ﴿**قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك**﴾ أرسلنا لهلاكهم فلا تغتم

﴿**لن يصلوا إليك**﴾ لا ينالونك بسوء أبداً ﴿**فأسر بأهلك**﴾ سر بأهلك ﴿**بقطع من الليل**﴾ في ظلمة الليل ﴿**ولا يلتفت منكم أحد**﴾ لا ينظر أحد منكم وراءه، ويقول أمين الإسلام: كأنّهم تعبّدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة، ولقائل أن يقول: حذراً عليهم من أن يفزعوا ويرتاعوا من تصوّر مشهد العذاب ﴿**إلاّ امرأتك**﴾ إلاّ امرأتك لا تسر بها ﴿**إنّه مصيبها ما أصابهم**﴾ سيشملها العذاب، وتهلك معهم ﴿**إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾ لما أخبر الملائكة لوطاً بأنّهم سيهلكون قومه، قال لهم: أهلكوهم الساعة، لضيق صدره بهم، وشدّة غيظه عليهم، وتألمه من قبيح أعمالهم.

فقالوا: إنّ موعد إهلاكهم الصبح، وإنما قالوا: أليس الصبح بقريب، تسلية له.

والملاحظ أنّ ابراهيم عليه السلام كان موقفه بالنسبة لقوم لوط موقف المدافع والمحامي، بينما ترى لوطاً عليه السلام يقف موقف المدّعي العام، فهو يطالب بالإسراع بإنزال العذاب.

ويمكن أن يقال: إنّ الخليل عليه السلام لم يعايش المأساة، وإنَّ العمر الذي صرفه لوط عليه السلام في التبليغ والإرشاد من دون جدوى يجعله يستعجل لهم العذاب، لا سيّما المشهد الأخير منهم، فقد كان يستوجب منه أن يكون أكثر نقمة وغيظاً عليهم.

٧ ـ ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾:

وجاءت ساعة الصفر، وخسران الدنيا والآخرة، والخزي الدائم، والنكال العظيم، وما كان يحذّرهم منه نبيّهم عليه السلام .

ومعنى الآية الكريمة: قلبنا القرية أسفلها أعلاها. إن الله تعالى أمر جبرائيل فأدخل جناحه تحت الأرض فرفعها ثم رمى بها، فجعل عاليها سالفها ﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل**﴾ طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء ﴿**منضود**﴾ نضد بعضه على بعض حتى صار حجراً ﴿**مسوّمة**﴾ هي من صفة الحجارة، جعل فيها

علامات تدل على أنّها معدّة للعذاب ﴿**عند ربك**﴾ في خزائن ربك التي لا يملكها غيره.

وأنت رعاك الله فاحذر بطش ربّك، أو أن توافيك المنيّة وأنت بعيد عن خط الإستقامة، متعرّض لغضب الله جلّ جلاله، فبادر إلى الدخول من باب الرحمة الذي فتحه الله لعباده، أعني به باب التوبة نادماً مستغفراً، متوسّلاً بمحمد وأهل بيته عليهم السلام أن يغفر لك ويقبلك، فإنّه جلّ جلاله يحبّ التوّابين والمستغفرين.

٨ ـ (وما هي من الظالمين ببعيد)

يقول المفسرون في هذه الآية الكريمة: وما تلك الحجارة من الظالمين من أمتك يا محمد ببعيد.

ونكتفي بالمقام برواية واحدة ذكرها أهل الآثار:

رفع إلى عمر أنّ عبداً قتل مولاه، فأمر بقتله، فدعاه علي عليه السلام فقال له: قتلت مولاك؟

قال: نعم.

قال: ولِمَ؟

قال: غلبني على نفسي، وأتاني في ذاتي.

فقال عليه السلام لأولياء المقتول: أدفنتم صاحبكم؟

قالوا: نعم.

قال: ومتى دفنتموه؟

قالوا: الساعة.

فقال عليه السلام لعمر: أحبس الغلام، ولا تحدث فيه حدثاً حتّى تمرّ عليك ثلاثة أيام، ثم قال لأولياء المقتول: إذا مضت ثلاثة أيام أحضرونا، فلما مضت ثلاثة أيام حضروا، فأخذ علي بيد عمر وخرجوا حتى وقفوا على قبر الرجل، فقال علي عليه السلام لأوليائه: هذا قبر صاحبكم؟

قالوا: نعم.

قال: احفروا حتى انتهوا إلى اللحد، فقال: أخرجوا ميّتكم، فنظروا إلى

أكفانه في اللحد فلم يجدوه، فأخبروه بذلك، فقال عليه السلام: الله أكبر، ما كذبت ولا كذّبت، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من يعمل من أمتي عمل قوم لوط، ثم يموت على ذلك، فهو يؤجّل إلى أن يوضع في لحده، فإذا وضع فيه لم يمكث أكثر من ثلاث حتّى تقذفه الأرض إلى جملة قوم لوط المهلكين، فيحشر معهم[1].

(٣)

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر/٦١].

وقد مرّ سابقاً نزول الملائكة المبعوثين إلى قوم لوط عليه السلام بابراهيم عليه السلام، إعلاماً له بما سوف يقع من حدث عظيم لم يسبق له نظير، لكونه نبي العصر، وقيّم الأرض، وذكرنا أن النبأ سيثقل عليه كثيراً فخفف بالبشارة بمولود يولد له بينما هو وزوجته قد تخطيا دور الإنجاب، بعشرات السنين، وأكثر من هذا انَّ الوليد سيكون نبيّاً، وأن يولد للولد نبيٌّ أيضاً.

وبعد البشارة والإعلام بالنازلة توجّه الملائكة للمهمة الموكلة إليهم.

﴿**فلما جاء آل لوط المرسلون. قال إنّكم قوم منكرون**﴾ وإنّما قال لهم لوط ذلك لأنهم جاءوه على صفة عالية من الهيئة والجمال، لم ير مثلهم قط، فأنكر شأنهم وهيأتهم ﴿**قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون**﴾ بالعذاب الذي كانوا يشكّون فيه إذا خوّفتهم به ﴿**وأتيناك بالحق**﴾ بالعذاب المستيقن به ﴿**وإنّا لصادقون**﴾ فيما أخبرناك به ﴿**فأسر بأهلك بقطع من الليل**﴾ سر بأهلك بعد ما يمضي أكثر الليل ويبقى قطعة منه ﴿**واتّبع أدبارهم**﴾ اقتف أثرهم، وكن وراءهم، لتكون عيناً عليهم، فلا يتخلّف أحد منهم ﴿**ولا يلتفت منكم أحد**﴾ لا ينظر أحد منكم وراءه لئلا يروا العذاب فيفزعوا، ولا يحتمل قلبهم ذلك ﴿**وامضوا حيث تؤمرون**﴾ اذهبوا إلى الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه وهو الشام ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾ أعلمنا لوطاً وأخبرناه، وأوحينا إليه ما نُنزل بهم من العذاب ﴿**إنّ دابر هؤلاء مقطوع**﴾ إنّ آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح ﴿**مصبحين**﴾ إنّهم مستأصلون بالعذاب وقت

---

(١) لئالىء الأخبار: ٥٨٩.

الصباح، على وجهٍ لا يبقى منهم أثر ولا نسل ولا عقب ﴿**وجاء أهل المدينة يستبشرون**﴾ يبشّر بعضهم بعضاً بنزول من هم في صورة الأضياف بلوط، وإنّما فرحوا طمعاً أن ينالوا الفجور منهم ﴿**قال**﴾ لوط لهم ﴿**إنّ هؤلاء ضيفي فلا تفضحون**﴾ فيهم، والمراد: لا تلزموني فيهم عاراً بقصدكم إيّاهم بالسوء ﴿**واتقوا الله**﴾ باجتناب معاصيه ﴿**ولا تخزون**﴾ في ضيفي ﴿**قالوا أو لم ننهك عن العالمين**﴾ أولم ننهك أن تجير أحداً، أو تضيّف أحداً ﴿**قال**﴾ لوط لهم وأشار إلى بناته ﴿**هؤلاء بناتي**﴾ فتزوجوهن إن كان لكم رغبة في التزويج ﴿**إن كنتم فاعلين**﴾ كناية عن النكاح ﴿**لعمرك**﴾ وحياتك يا محمد ﴿**إنّهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾ إنّهم لفي غمرتهم يتحيّرون ويتردّدون، فلا يبصرون طريق الرشد.

ثم أخبر سبحانه عن كيفية عذابهم، فقال: ﴿**فأخذتهم الصيحة مشرقين**﴾ أخذهم الصوت الهائل في حال شروق الشمس ﴿**فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾ قلبنا المدن، فجعلنا أسفلها أعلاها؛ إن الله جلّ جلاله أمر جبرائيل عليه السلام فأدخل جناحه تحت الأرض فرفعها إلى السماء ثم قلبها، ومع ذلك فقد أمطروا بحجارة من سجيل: وهو طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء، وأيضاً خسف بهم الأرض فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسّمين**﴾ إنّ في ما سبق ذكره من إهلاك قوم لوط لدلالات للمتفكّرين المعتبرين ﴿**وإنّها لبسبيل مقيم**﴾ إن مدائن قوم لوط لبطريق مسلوك، يسلكها الناس في أسفارهم، بين المدينة والشام فينظرون إلى آثارها، وما نزل بأهلها من العذاب.

(٤)

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ **[الأنبياء/٧٤]**.

كان لوط عليه السلام أوّل من استجاب لابراهيم عليه السلام، كما كان صاحبه في هجرته، فقد خرج وهو يقول ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **[العنكبوت/٢٦]**.

وتثميناً من الله جلّ جلاله لإيمان عبده لوط وهجرته، فقد وهب له النبوّة،

وكفى بها عطاءً وشرفاً للدنيا والآخرة.

١ ـ ﴿ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾:

من الغريب أن تجتمع أمة كبيرة تبلغ أربعة ملايين على الكفر والضلال، وأغرب من هذا أن يكون نبيّهم بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الله، وهم مع تضايقهم الشديد منه لكنّهم لم تبدر منهم إليه أي بادرة، علماً أنّه كان صلوات الله وسلامه عليه غريباً فيهم، ليس له من بينهم أهل ولا عشيرة، وهذا وغيره مما يدعو كل مسلم إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق[1].

استمرّ نبيُّ الله لوط في أداء رسالته، واستمرّوا معرضين، ثم كانت الخاتمة بنجاته وأهله وهلاكهم جميعاً.

والخبائث: هي التي أشارت إليها الآية ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ **[العنكبوت/٢٩]**.

٢ ـ ﴿إنّهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾:

إنّ فسقهم وفجورهم دعاهم إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء، والتي لم تسبقهم إليها أمّة من الأمم، والنبيّ يحذّرهم وينذرهم بالعذاب والاستئصال، ولكنّهم يمضون قدماً على العناد والإصرار على البغي والرذيلة، والبعد عن طريق الحقّ والاستقامة.

٣ ـ ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾:

أي نعمتنا ومنّتنا **﴿إنّه من الصالحين﴾** لكونه من الصالحين الذين أصلحوا أفعالهم، فعملوا بما هو حسن منها وتركوا القبيح.

ويحقّ لنا أن نعتبر من هذا وغيره بأنّ الله جلّ جلاله ينجّي المؤمنين في الدنيا

---

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٢٢٦.

من المصائب كلها مع ما أعدّ لهم من الكرامات في الآخرة، وهو يؤاخذ الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا، وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة أعظم من أن يأتي عليه الوصف.

(٥)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ **[الشعراء/١٦١]**.

والأنبياء عليهم السلام يفتتحون رسالتهم بأمر الأمة بالتوحيد «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا» ثم يأمرونهم بالتقوى، وأنت تجد في هذه السورة المباركة كل نبي يكرر في حواره مع الأمة الأمر بالتقوى لأنها الباب التي تفضي لمن دخلها إلى الجنة، وتنجيهم من النار هذا من جهة، ومن جهة ثانية إنَّ الالتزام بها يجنّب الإنسان مكاره ومخاطر كثيرة في الدنيا، ويحفظ له كرامته.

١ ـ ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾:

وهذا هو أيضاً شعار جميع الأنبياء صلوات الله عليهم، فهم لا يطلبون شيئاً على تبليغ الرسالة، بل إنَّ مطلبهم الأوّل والأخير استجابة الناس لطريق الهداية والنجاة.

لقد كانوا صلوات الله وسلامه عليهم يعملون بمختلف المهن، ويعيشون في زهد وقناعة، وينفقون ما زاد عن حاجتهم على الفقراء، بل ربما قدموا طعامهم للآخرين وباتوا جياعاً، فهم مع هذا الخلق الرفيع، والبشرية في إعراض عن تعاليمهم، لم يستجب لدعوتهم إلا القليل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ **[سبأ/١٣]**.

ومن هذا يظهر أن دواعي الشر كبيرة عند الإنسان كما وصفها الشاعر:

إبليـــس والـــدنيـــا ونفســـي والهـــوى
كيـــف النجـــاة وكلّهـــم أعـــدائـــي

لذا بسط الله سبحانه عليهم رحمته بتتابع الرسل، وفتح لهم باب التوبة،

وجعل لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وأكثر.

٢ ـ ﴿أتأتون الذكران من العالمين﴾:

وهذه الجريمة لم تعهد في البشرية، وإنما بدأها الشيطان مع قوم لوط عليه السلام، إنها خلاف سنن الطبيعة، وابتعاد عن الطريق السوي، تترك في مرتكبيها مجموعة لا يستهان بها من الأمراض والعلل.

وجاء الإسلام فشدّد في النكير عليها، حتى جعل للحاكم أن ينزل بهما إحدى العقوبات الخمس التي ذكرناها آنفاً.

وأعظم من هذا ما رواه ميمون اللّبان، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقرىء عليه آيات من سورة هود، فلما بلغ **﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود، مسوّمة عند ربّك وما هي من الظالمين ببعيد﴾**.

فقال عليه السلام: من مات مصرّاً على اللواط لم يمت حتّى يرميه الله بحجر من تلك الأحجار تكون فيه منيّته ولا يراه أحد[١].

٣ ـ ﴿فنجيناه وأهله أجمعين﴾:

وهاهنا تتجلّى العناية الإلهية، فنبيُّ الله لوط عليه السلام لم يكن له في المدينة عشيرة تحميه وتدافع عنه، بل كان غريباً فيهم، ومع اجماعهم على الضلال، وتوعّدهم له، وتحدّيه لهم، مع كل هذا فقد سلّمه الله جلّ جلاله من كيدهم، كما نجّاه وأهله عند نزول العذاب بهم، مع ما أعدّ له من الكرامة والمنازل الرفيعة في الدار الآخرة، وخسر القوم الدنيا بالهلاك، ولم يستوفوا أعمارهم، وما ينتظرهم من عذاب الخلود أعظم من هذا بكثير.

٤ ـ ﴿ثم دمّرنا الآخرين﴾:

لقد نزل بهم ما كانوا يوعدون به من العذاب والهوان، لقد نزل جبرائيل عليه السلام فاقتلع مدائنهم ورفعها إلى السماء، ثم ألقاها إلى الأرض، وجعل

(١) فروع الكافي: ٢/ ٧٢.

عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم جلّ جلاله حجارة من سجيل منضود.

٥ ـ ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾:

لقد تجمّعوا على باب نبيِّ الله يهدّدون ويتوعّدون، وكادوا أن يهجموا على البيت، إلاّ أنَّ جبرائيل عليه السلام أشار إليهم فعموا، وهو قوله تعالى: ﴿**فطمسنا أعينهم**﴾ وكان المفروض أن يكون العمى رادعاً لهم، وندماً على تفريطهم، لكن الذي حدث هو العكس، فقد أخذوا يرعدون ويتوعّدون.

وطلب جبرائيل عليه السلام من لوط عليه السلام أن يخرج بأهله، فخرج، وقبيل الفجر اقتلع جبرائيل مدائنهم الأربعة والأربعة، ملايين التي فيها ورفعها إلى السماء ثم قلبها، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ **[هود/٨٣]**.

(٦)

١ ـ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ [النمل/٥٤].

في هذه السورة المباركة إستعراض لأُمم مسّها العذاب، ونالها جزاء ما كسبت من الآثام والمعاصي؛ فبعد عرض مفصّل عن قوم صالح عليه السلام جاء حديث قوم لوط عليه السلام، والمراد بالفاحشة الخصلة القبيحة الشنيعة الظاهرة القبح، وهي إتيان الذكران في أدبارهم ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ تعلمون أنّها فاحشة.

والبشريّة لم تعرف هذه الخصلة القبيحة قبل قوم لوط، وإنّما بدأها الشيطان بهم، وكم له من مبتكرات سيّئة، وخصال سوء لقّنها لأقوام آخرين.

والمشكلة أنّ الخبيث يجيد الخدعة، ويعرف الطرق التي يأتي بها كل فريق علماً ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ **[النساء/٧٦]** ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ﴾ [ابراهيم/٢٢] ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ **[النحل/١٠٠]**.

٢ ـ ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾

اللاتي خلقهن الله لكم **﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾** تفعلون أفعال الجهال.

قال ابن عباس: تجهلون القيامة وعاقبة العصيان.

وليت ابن عباس رضوان الله عليه علم بما وصل إليه العلم الحديث من الأمراض التي تتولّد عند الطرفين.

ذكر الدكتور صادق عبد الرضا علي في كتابه القيّم (القرآن والطب الحديث) بعض هذه الأمراض:

١ ـ سلس الغائط، وعدم السيطرة على عملية التغوّط بصورة طبيعية.

٢ ـ التهاب المستقيم والقولون الحاد المزمن.

٣ ـ الإصابة بمرض السيلان.

٤ ـ الإصابة بمرض السفلس.

٥ ـ الإصابة بمرض الإيدز.

٦ ـ الإصابة بالأمراض الفطرية.

٧ ـ الإصابة بالتشققات الشرجية والبواسير.

٨ ـ الإصابة بالحمى الراسخة.

٩ ـ الإصابة بالدويبات الشعرية.

١٠ ـ الإصابة بالقرحة الرخوة.

١١ ـ الإصابة بالورم الحبيبي الليمفاوي المغبني الزهري.

١٢ ـ الإصابة بالمرضى الحبيبي الأربي.

١٣ ـ الإصابة بالبرود الجنسي والعنّة.

١٤ ـ الإصابة بالديدان المعوية المختلفة.

١٥ ـ الإصابة بطفيلي الجيارديا.

١٦ ـ الإصابة بالتهاب الكبد الحاد والمزمن.

١٧ ـ الإصابة بالأمراض الجلدية المختلفة.

١٨ ـ الإصابة بالأمراض العضوية الأخرى... كالتهاب المعدة الحاد والمزمن، أو الإصابة بمرض السل أو الربو القصبي، كما أن الإصابة بأمراض السكر وضغط الدم والسرطان مرتفعة في تلك الشريحة الشاذة[1].

فهم والعياذ بالله باؤوا بالخسران المبين دنيا وآخرة، وهكذا جميع المتجاوزين لخط الشريعة، والنهج الذي أُمروا بالسير عليه.

٣ ـ ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾:

هكذا كان ردّهم على الرسول الناصح، والأب الشفيق، لقد أجمعوا على الضلال، وإتيان الفاحشة.

(٧)

١ ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت/٢٨].

في هذه السورة عرض تفصيلي لقصّة قوم لوط عليه السلام: تتدرَّج الآيات من زجر لوط عليه السلام لهم حتّى التدمير العظيم، والغريب بالأمر أنه لم يستجب له عليه السلام أحد منهم، إجماعاً منهم على الرذيلة.

لقد جاءهم الشيطان بجريمة نكراء لم يسبقوا إليها أبداً، ولم تعرفها البشرية من قبل ذلك.

٢ ـ ﴿ائنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾:

صار هذا شغلهم الشاغل، فكانوا يطلبون ذلك، ويدفعون عليه الأموال،

---

(١) القرآن والطِّب الحديث: ٣١٧.

وأكثر من هذا فكانوا يفعلون ذلك بمن يجتاز بقراهم من المسافرين حتى تحامتهم الناس، ولم يعد يمر بهم أحد.

٣ ـ ﴿أئتنا بعذاب الله﴾:

وأمر البشر غريب جداً، فهم لو خوفوا بالدولة أو بأية سلطة لخافوا ولتراجعوا عن إصرارهم، بينما تراهم خوّفوا بعذاب الله وبطشه، وهم يرون آيات النبوّة، ومع ذلك تراهم يستعجلون العذاب، ويقولون لنبيهم متحدّياً ﴿**أئتنا بعذاب الله**﴾.

(٨)

١ ـ ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات/١٣٣].

والقرآن الكريم ذكر قصة قوم لوط عليه السلام في إحدى عشرة سورة بتفصيل، مضافاً إلى ذكرهم باختصار في غيرها، جاء ذلك إنكاراً لفعلتهم القبيحة، وتهجيناً لعملهم المذموم، وتحذيراً للمسلمين من أن يفعلوا فعلهم، ويسلكوا طريقهم.

ولوط عليه السلام ابن خالة ابراهيم عليه السلام، وأوّل المؤمنين به، بل هو الوحيد الذي آمن به حينما كان في ديار الظالمين، وهاجر معه ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ **[العنكبوت/٢٦].**

٢ ـ ﴿إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلاّ عجوزاً في الغابرين﴾:

وهذا مما تتجلّى به عظمة القرآن الكريم، فالآية الكريمة على وجازتها أشارت إلى هلاك أمّة كبيرة من النّاس، وانَّ الله جلّ جلاله نجّاه وأهله منها كما نجّاه قبل ذلك من أذاهم. واستثنت الآية الكريمة زوجته، فقد شملها العذاب الدنيوي، ويشملها كذلك العذاب الأخروي، وهذا مما يدعو كل مسلم أن يخلص العمل لله جلّ جلاله، ويتقرّب إليه بأداء ما كلفه به، ولا يتكل على شفاعة الشافعين، فإنهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ **[الأنبياء/٢٨].**

إنّ الزوجة أقرب الناس إلى الزوج، وأكثرهم تعلقاً به، ومع ذلك تجد أن

زوجة لوط عليه السلام وزوجة نوح عليه السلام لفهما العذاب الدنيوي مع ما أعد الله جلّ جلاله لهما من العذاب الأخروي ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم/١٠] وأكثر من هذا، أن أبا لهب وهو عم النبي والوصي عليهما السلام، وهو ابن عبد المطلب رضوان الله عليه، والذي كانت تسميه قريش ابراهيم الثاني، وأخو أبي طالب حامي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وأخو حمزة أسد الله وأسد رسوله، كل ذلك لم ينفعه، بل زاده الله جلّ جلاله هواناً بقرآن يتلى في ذمّه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد/١].

فاحرص أيها المسلم رعاك الله وسددك أن توافي المحشر وشفيعك عملك الصالح، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: لا شفيع أنجح من التوبة[1].

٣ ـ ﴿ثم دمّرنا الآخرين﴾:

فبعد أن تجمهروا على باب لوط عليه السلام يطلبون منه أن يسلّمهم ضيوفه، وهو يتوسّل إليهم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود/٧٨] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود/٧٢] وهم يتهدّدون ويوعدون ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر/٧٠].

ثم اقتحوا عليه الدار، فأشار إليهم جبرائيل عليه السلام بيده فعموا جميعاً ثم طلب من لوط عليه السلام أن يخرج بأهله ثم رفع مدائنهم الأربع، وصعد بها إلى السماء ثم ألقاها على الأرض، فجعل عاليها سافلها.

٤ ـ ﴿وأنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون﴾:

ومن تمام الحجّة أنَّ القرآن الكريم لم يعظ النَّاس بما صنع بأمم في شرق الأرض وغربها، بحيث لا سبيل للوصول إليهم، والتعرف على خبرهم، بل وعّظهم وذكّرهم بأحوال أمم قريبة منهم، يمرّون عليها في أسفارهم، ويشاهدون معالم الدمار النازل بهم، وهي حتّى الآن قائمة بادية للعيان، تقع بين الحجاز والشام.

---

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار رقم ٣٧١.

(٩)

١ ـ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [الذاريات/٢٤].

إنّ التهديد بذكر ما حلّ بالأمم، أعظم وقعاً في النفوس، وأكثر تأثيراً وأدعى إلى الركون إلى طريق الحقِّ والنجاة، فهذه السورة التي ورد فيها ذكر النار والقيامة، والتوبيخ للمجتمع لبعدهم عن نهج السماء، جاء ذكر ما حلّ بقوم لوط عليه السلام ليعتبروا بذلك، لا سيّما وإِنَّ مدائنهم بمرأى منهم ومسمع.

نعود للآيات:

﴿**هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين**﴾ عند الله، وذلك أنّهم كانوا ملائكة كراماً ﴿**إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً**﴾ وذلك حين دخلوا على ابراهيم فقالوا له على وجه التحيّة: سلاماً ﴿**قال سلام قوم منكرون**﴾ قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم، وظنّهم من الإنس ﴿**فراغ إلى أهله**﴾ ذهب إليهم خفية، مخافة أن يمنعوه من تكلّف مأكول وغيره ﴿**فجاء بعجل سمين**﴾ قد شواه لهم ﴿**فقرّبه إليهم**﴾ ليأكلوا، فلم يأكلوا، فلما رآهم لا يأكلون عرض عليهم ﴿**قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة**﴾ فبعد امتناعهم عن الأكل خاف منهم، وظن أنّهم يريدون به سوءً ﴿**قالوا**﴾ الملائكة ﴿**لا تخف**﴾ يا ابراهيم ﴿**وبشّروه بغلام عليم**﴾ عالماً إذا كبر وبلغ، والغلام المبشّر به هو إسحاق عليه السلام ﴿**فأقبلت امرأته في صرّة**﴾.

فلما سمعت البشارة امرأته سارة أقبلت في ضجّة، وأخذت تصيح وتولول ﴿**فصكّت وجهها**﴾ جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجّباً ﴿**وقالت عجوز عقيم**﴾ أنا عجوز عاقر فكيف ألد؟ ﴿**قالوا كذلك قال ربّك**﴾ إنّك ستلدين غلاماً فلا تشكّي فيه ﴿**إنّه هو الحكيم العليم**﴾ بخفايا الأمور ﴿**قال**﴾ ابراهيم عليه السلام لهم ﴿**فما خطبكم أيّها المرسلون**﴾ فما شأنكم، ولأيّ أمر جئتم، وكأنّه قال: قد جئتم لأمر عظيم فما هو؟ ﴿**قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين**﴾ عاصين لله، كافرين لنعمه، استحقّوا العذاب والهلاك ﴿**لنرسل عليهم حجارة من طين**﴾ قد طُبخ حتّى صار بمنزلة الأرحاء ﴿**مسوّمة عند ربّك**﴾ معلّمة، جعل فيها علامات تدل على أنّها مُعدّة

للعذاب ﴿**للمسرفين**﴾ للمتجاوزين الحد في العصيان ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين**﴾ إنّ الله تعالى أمر لوطاً عليه السلام بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين لئلا يصيبهم العذاب ﴿**فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾ هم لوط وابنتاه ﴿**وتركنا فيها**﴾ وأبقينا في مدينة قوم لوط ﴿**آية**﴾ علامة ﴿**للذين يخافون العذاب الأليم**﴾ تدلّهم على أنّ الله أهلكهم، فيخافون مثل عذابهم، والمراد: إنّا أبقينا فيها عبرة وعظة.

(١٠)

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر/٣٣].

قاتل الله الشيطان وسبله، فهو يتفنن في إغراء الناس وضلالهم، والطرق التي يخدعهم بها والأساليب التي يضلّهم بها، كل يأتيه بما يشاكله ويرغب به، وهكذا، فقد جاء إلى قوم لوط من أخبث السبل وأرذلها، ومما فيه محق البشرية وإبادتها، ولو لم يكن في الإسلام والقرآن إلاّ هذا التشدد في هذه الجريمة لكفاهما فخراً، فمنذ ألف وأربعمائة سنة يأمر الإسلام بقتل الفاعل والمفعول به بالسيف، أو يحرقان بالنار، أو يرميان من علو شاهق، أو يرمى عليهما جدار فيموتان تحته، وجاء عصر العلم فبيّن المضار الصحيّة التي تحدث من هذه الجريمة، وما تعانيه أميركا وأوروبا من انتشار هذا الوباء الذي لا علاج له مع ما وصلوا إليه من علم.

يفتتح القرآن القصة ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر**﴾ سهلناه للحفظ والقراءة، بحسن البيان، وظهور البرهان، والحجّة التي تلزم البشرية باتباعه ﴿**فهل من مدّكر**﴾ متعظ معتبر؛ ثم يبدأ بسرد القصة ﴿**كذّبت قوم لوط بالنذر**﴾ جمع نذير، والمراد بهم الأنبياء عليهم السلام ﴿**إنا أرسلنا عليهم حاصباً**﴾ ريحاً حصبتهم أي رمتهم بالحجارة والحصباء ﴿**إلاّ آل لوط نجّيناهم بسحر**﴾ سلّمناهم وخلّصناهم من ذل العذاب ﴿**نعمة من عندنا**﴾ أنعمنا عليهم بالنجاة ﴿**كذلك نجزي من شكر**﴾ المراد بالشكر هنا الإيمان، والآية الكريمة تشير إلى قاعدة كلّية أن الله سبحانه إذا أراد عذاب أمة كافرة نجّى المؤمنين من بينهم ﴿**ولقد أنذرهم**﴾ خوّفهم لوط، وحذّرهم ﴿**بطشتنا**﴾ عذابنا ﴿**فتماروا بالنذر**﴾ شكّوا ولم يصدّقوه ﴿**ولقد راودوه عن ضيفه**﴾ ذكر

مشهدهم الأخير في الجريمة عندما أسرعوا إليه يطلبون منه أن يسلّم لهم أضيافه ﴿فطمسنا أعينهم﴾ محوناها، وفي التفسير: أزلنا تخطيط وجوههم حتى صارت ممسوحة لا يرى أثر عين، وذلك أن جبرائيل عليه السلام صفق أعينهم بجناحه صفقة فاذهبها[1] ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ أي فقلنا لقوم لوط لما أرسلنا عليهم العذاب: ذوقوا عذابي ﴿ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقرّ﴾ أتاهم العذاب صباحاً فهلكوا جميعاً ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ وجه التكرار أن الأوّل عند الطمس، والثاني عندما قلب جبرائيل عليه السلام مدائنهم.

(١١)

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة/٩].

وسورة الحاقة ضمّت عرضاً للأمم المعذبة، وكيفية هذا العذاب، وإن كنّا نستغرب من بقاء قريش على الكفر بعد هذا التهديد والوعيد، وما حلّ بالأمم، لا سيما وآثار هذه الأمم مشاهدة لهم كما قال تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات/١٣٨].

وينتفي الاستغراب والتعجّب ونحن اليوم في عصر العلم ـ علماً أنّ العلم يدعو إلى الإيمان ـ أن نشاهد أكثرية البشر معرضة عن منهج السماء، تاركة لما أُمرت به، في الوقت الذي لزمتهم فيه الحجّة جميعاً بالقرآن الكريم.

نعود للآيات:

فبعد ذكر ما حلّ بثمود وعاد من النكال والعذاب جاء ذكر ما حلّ بقوم لوط عليه السلام فقال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ والمؤتفكات: المنقلبات بأهلها، وهي قرى قوم لوط ﴿بالخاطئة﴾ بأعمالهم الخاطئة ﴿فعصوا رسول ربهم﴾ في ما أمرهم به ﴿فأخذهم﴾ الله جل جلاله بالعقوبة ﴿أخذة رابية﴾ زائدة في الشدّة.

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ٣٢١.

النبي يعقوب عليه السلام

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء/٧٢].

هذه دراسة ـ باختصار ـ عن حياة نبيِّ الله يعقوب عليه السلام تقرأ فيها اليسير من حياته.

فهو عليه السلام إسرائيل الله ـ أي عبدالله ـ ابن نبيِّ الله إسحاق عليه السلام، ابن نبيِّ الله ابراهيم عليه السلام، وهو أبو نبيِّ الله يوسف عليه السلام، من صلبه أخرج الله سبحانه وتعالى عدداً كبيراً من الأنبياء عليهم السلام.

وهو بعد المبتلى.

وهذه الصفحات على وجازتها، يمكننا أن نستلهم منها دروساً نافعة في حياتنا العملية، وبالله التوفيق.

الشكوى

نحن مأمورون بإظهار النعم التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى علينا ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى/١١] كما إنَّا مأمورون بإخفاء البلاء والمكروه الذي يصيبنا وكتمانه عن الناس، وعدم الشكوى منه إلاّ إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام لولده الصادق عليه السلام: «يا بني من كتم بلاءً ابتلى به من الناس، وشكا إلى الله عزّ وجلّ كان حقّاً على الله أن يعافيه من ذلك»[1].

(١) بحار الأنوار: ٨٢/٢٩٦.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «كتمان المصيبة من كنوز البر»[1].

ومضافاً إلى الأجر الذي نحصله في الكتمان، فإنّ في الشكوى مَضَارَّ دنيوية كثيرة، منها: إن الذي تشكو إليه لا يرتاح لحديثك، وهو لا يخلو من محب أو مبغض، فالمحب يتألم لذلك ويدخله حزن، وكان الأجدر بك أن لا تفعل ذلك مع محبّك، والمبغض يشمت ويفرح، وأنت لا تريد له ذلك؛ وأكثر من هذا: فبالشكوى يسقط مقام الإنسان في المجتمع، وتهبط معنوياته، فأنت مثلاً لو أكثرت الشكوى من الفقر فلا تجد من يقرضك أو يشاركك أو يتعامل معك، ولعلَّ النهي الوارد في الأخبار عن ترك الشكوى لهذا اللحاظ، فالله سبحانه وتعالى يريد العزة لعباده ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[المنافقون/٨]**.

وجاءت الرواية في سيرة يعقوب عن جابر، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام ما الصبر الجميل؟

قال: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى أحد من الناس، إنّ ابراهيم بعث يعقوب إلى راهب من الرهبان، عابد من العباد في حاجة، فلما رآه الراهب حسبه ابراهيم، فوثب إليه فاعتنقه، ثم قال: مرحباً بخليل الرحمن.

فقال له يعقوب: إنّي لست بخليل الرحمن، ولكنّي يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم.

قال له الراهب: فما الذي بلغ ما بك ما أرى من الكبر؟

قال: الهم والحزن والسقم.

قال: فما جاز عتبة الباب حتى أوحى الله إليه، يا يعقوب شكوتني إلى العباد؟!

فخرّ ساجداً عند عتبة الباب يقول: ربّ لا أعود، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك فلا تعد إلى مثلها، فما شكا شيئاً مما أصابه من نوائب الدنيا، إلاّ أنه

(١) مشكاة الأنوار: ٢٧٨.

قال يوماً: ﴿إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾[١].

الصدقة

حثّ الإسلام كثيراً على الصدقة، وأنها تدفع البلاء عن المتصدّق، وتقيه العوارض والسوء، وتطيل عمره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «باكروا بالصدقة، فمن باكر بها لم يتخطّاه البلاء»[٢].

وعن معاذ بن مسلم، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فذكروا الوجع، فقال: داووا مرضاكم بالصدقة، وما على أحدكم أن يتصدّق بقوت يومه، إنّ ملك الموت يُرفع إليه الصك بقبض روح العبد فيتصدّق، فيقال له: «ردّ عليه الصك»[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ البلاء لا يتخطّى الصدقة»[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصدقة ترد القضاء الذي قد أبرم إبراماً»[٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصدقة تسدّ سبعين باباً من الشر»[٦].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إن الصدقة لتدفع سبعين علّة من بلايا الدنيا مع ميتة السوء، إنّ صاحبها لا يموت ميتة سوء أبداً»[٧].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصدقة تدفع الداء والدبيلة[٨] والغرق والحرق

---

(١) تفسير البرهان: ٢/ ٢٦٢.

(٢) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٦١؛ والمعنى لا يصله البلاء؛ لأنَّ الصَّدقة تدفع البلاء وقد أبرم إبراماً.

(٣) ثواب الأعمال: ١٣٩.

(٤) أمالي الشيخ المفيد ٤١.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٢٦٦.

(٦) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٣٢.

(٧) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٣٥.

(٨) داء يكون في الجوف ويسبِّب الهلاك.

والهدم والجنون. . . ». فعدّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبعين باباً من الشر[1].

وعن الثمالي قال: صلّيت مع علي بن الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة، فلما فرغ من صلاته وسبحته ونهض إلى منزله وأنا معه فدعا مولاة له تسمّى سكينة، فقال لها: لا يعبر على بابي سائل إلاّ أطعمتموه، فإنّ اليوم يوم الجمعة.

قلت: ليس كل من سأل مُستحقاً.

فقال: يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا مستحقّاً فلا نطعمه ونردّه فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم أطعموهم؛ إنّ يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدّق منه ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً مستحقّاً، له عند الله منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترّ على باب يعقوب عشيّة جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه[2] وقد جهلوا حقّه، ولم يصدّقوا قوله، فلما يئس أن يطعموه، وغشيه الليل، استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله عزّ وجلّ، وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضلة من طعامهم، قال: فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلّة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك، يا يعقوب إنّ أحب أنبيائي إليّ، وأكرمهم عليّ، من رحم مساكين عبادي وقرّبهم إليه وأطعمهم، وكان لهم مأوى وملجأ، يا يعقوب أما رحمت ذميال عبدي المجتهد في عبادتي، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس لما اعترّ ببابك عند أوان إفطاره، وهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إليّ، وبات طاوياً حامداً لي، وأصبح لي صائماً، وأنت يا يعقوب وولدك شباع، وأصبحت عندكم فضلة من طعامكم، أو ما علمت

---

(١) النَّوادر: ٤٩١.

(٢) المراد بذلك آل يعقوب عليه السلام وحاشا النبي المعظم أن يسمع سائلاً ولا يقدِّم له طعامه فضلاً عن غيره.

يا يعقوب أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي، وذلك حسن النظر منّي لأوليائي، واستدراج منّي لأعدائي، أما وعزّتي لأنزل عليك بلواي، ولأجعلنَّك وولدك عرضاً لمصابي، ولآذينّك يا يعقوب، فاستعدّوا لبلواي، وارضوا بقضائي، واصبروا للمصائب.

قال ثابت: فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا؟

فقال: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً، وبات ذميال طاوياً جائعاً[1].

فصبر جميل

ومعناه: لا جزع فيه ولا شكوى؛ وهذا اللون من الصبر لا يحيط الواصفون بأجره وثوابه ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ ومضافاً إلى ذلك يحتفظ المصاب بالبقية الباقية من صحّته وكرامته، فبالجزع تنهار الصحة، وبالشكوى تذهب الكرامة، وتنقص الرتبة، ويشمت العدو.

وابيضت عيناه من الحزن

يصوّر القرآن الكريم مدى حزن يعقوب عليه السلام على ولده ﴿ **وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ **[يوسف/٨٤]**.

فهو عليه السلام مع كظمه لحزنه ذهب بصره، واحدودب ظهره، ونحن نرى أنّ حزن يعقوب عليه السلام قد بلغ أقصاه، بل تجاوز الحد، فقد شاهدنا من أصيب بولده، بل بجميع أولاده ولا يكون منه بعض هذا الحزن، فكيف بنبيٍّ الله؟!

نعم، ليست المشكلة ـ في ما أحسب ـ هو فقد يوسف عليه السلام وإن عظم، بل إنَّ المصيبة العظمى كانت في بقيّة أولاده، فقد كان يأمل فيهم الوراثة لمقام

---

(١) علل الشرائع: ٦٢.

النبوّة العظيم، لقد ولدهم ثلاثة أنبياء عظام، ومع ذلك يصدر منهم هذا العمل القبيح، فكيف بسائر الناس؟

ألا تسمعه يقول لهم ردّاً على كذبهم في ادعائهم أنّ الذئب أكله ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف/١٨].

إنّ أشدّ الأمور على الصالحين هو ردّة المجتمع وانتكاسته الدينية، فهم لا يبالون بجميع المصاعب التي تعترضهم إذا سلم لمجتمعهم دينهم وعقيدتهم.

لقد وصف المؤرخون نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم بالحلم والخلق الرفيع، حتى أنّ الجليل جلّ جلاله مدحه بذلك ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/٤]. ولكنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يغضب لربّه عزّ وجلّ ولا يغضب لنفسه[١].

فمصيبة يعقوب عليه السلام كانت في بقيّة أولاده أشد من مصيبته بيوسف عليه السلام. ففي أوّل لقاء ليوسف عليه السلام مع إخوته إذ عرفهم وهم له منكرون، فسألهم عن شأنهم فقالوا: نحن أولاد يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم.

قال: ولدكم إذاً ثلاثة أنبياء، وما أنتم بحلماء، ولا فيكم وقار ولا خشوع، فلعلّكم جواسيس لبعض الملوك جئتم إلى بلادي؟

فقالوا: أيّها الملك لسنا بجواسيس، ولا أصحاب حرب، ولو تعلم بأبينا إذاً لكرمنا عليك، فإنّه نبيُ الله وابن أنبيائه، وإنّه لمحزون.

قال لهم يوسف: فما حزنه وهو نبيّ الله وابن أنبيائه، والجنّة مأواه، وهو ينظر إليكم في مثل عددكم وقوّتكم، فلعل حزنه إنّما من قبل سفهكم وجهلكم[٢]...

احرص يا أخي على أن لا تحزن نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم بأعمالك السيئة، فقد ورد أن أعمال أمّته تعرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم في كل اثنين وخميس، فهو يفرح إذا رأى أعمالاً حسنة، ويحزن إن رآها سيئة.

---

(١) كحل البصر في سيرة سيّد البشر ٩٣.

(٢) قصص الأنبياء: ٢٠٠.

إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله

إليه جل جلاله أشكو ما بي من هم وحزن وحاجة، فهو القادر على أن يبدّل همومي فرجاً، وأحزاني أفراحاً، وفقري غنًى، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

فمن المؤسف أن يتوجّه الإنسان بالشكوى إلى إنسان مثله ضعيف ويترك من بيده الأمر والحكم.

ولا تيأسوا من روح الله

لا تقنطوا من الفرج، فكم من نازلة قد فرّجها وشدّة خانقة أزالها؛ لقد ألّف جمع من العلماء كتباً في الفرج بعد الشدّة، ذكروا فيها نكبات وشدائد عظيمة وقعت لقوم ثم فرّج الله عنهم، وأسبغ عليهم نعمه.

ظنّ أخوة يوسف عليه السلام أنّ الأمر قد انتهى، فيوسف قد طرح في غيابت الجب، في أرض قفر لا تمرُّ عليها قوافل المجتازين، وأخوه أخذه الملك بتهمة السرقة فهو بحكم المنتهي، وقد أيسوا عن الإفراج عنه ولو بأخذ أحدهم، لأن ضميرهم لا يزال يؤنّبهم في موضوع يوسف عليه السلام بعدما شاهدوا الذي أصاب أباهم عليه السلام من مضض المصيبة، ولم يدر في خلدهم أن الأمر يبلغ منه هذا المبلغ حتى قالوا له: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف/٨٥].

وفي الوقت نفسه كان نبيُّ الله يعقوب عليه السلام كلّه أمل ورجاء في ردّ ولديه عليه، لهذا تراه يأمرهم ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف/٨٧].

واستجابة لأمر أبيهم عليه السلام قصدوا مصر **﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة[1] فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ**

(١) مزجاة: رديئة.

الله يجزي المتصدقين﴾.

وبعد العتاب معهم قال: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف/٩٠].

وأنت لا تيأس من روح الله

فينبغي أن نستفيد من هذه القصّة الكريمة انّ الإنسان مهما ساءت ظروفه وأوضاعه، وأصابه ضيق وضنك وشدّة أن لا ييأس من روح الله تعالى ومن الفرج، فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يفرّج عنه، لا سيما عند الانقطاع إليه، والتوسّل به.

فلرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنّها لا تفرج

وعلى سبيل المثال نذكر هذه القصة: نقل أحد المشاهدين ممن كان يسكن جبل حائل[1]: أنَّ شخصاً حكم عليه بالقتل، وكانت عادتهم أن يوقفوا المحكوم عليه أمام المسجد في يوم الجمعة، وبعد الانتهاء من صلاة الجمعة، يخرج الأمير من المسجد فتضرب عنق المحكوم عليه.

وخرج الأمير في ذلك اليوم من المسجد والسيّاف قد شهر سيفه ينتظر وصول الأمير إلى الشارع، ولكن حدث شيء غير متوقّع وهو أنَّ ابن عم الأمير ـ وكان يمشي إلى جنبه ـ أخرج خنجراً وطعن به الأمير، وخرّ في الحال ميّتاً، وانهزم الناس بمن فيهم المحكوم عليه بالقتل إلى غير رجعة.

ولعلّ هناك قصص أغرب من هذه وأعجب، فإنّ الله سبحانه وتعالى يأتي بالفرج من حيث يحتسب الإنسان ومن حيث لا يحتسب، فينبغي للعبد أن يتوكّل

(١) هو جبل أجار وسلمى.

في أموره على الله تعالى، ويتوسّل به وحده في حلِّ مشكلاته كبيرها وصغيرها، ويستيقن بأنّ الله تعالى على كل شيء قدير.

واعلم أنّ الفرج يأتي غالباً عند منتهى الشدة.

جاء في سيرة الإمام الصادق عليه السلام: أنَّ امرأة شكت له حبس ولدها، فأمرها عليه السلام بالصبر، وجاءت بعد فترة شاكية أيضاً فأمرها عليه السلام بالصبر، ثم جاءته في الثالثة: فأمرها بالصبر، فقالت: لم يبق للصبر مجال.

فقال: اذهبي فسوف تجدينه في البيت.

واستغرب بعض الأصحاب كلامه عليه السلام وسأله عن السر.

فقال: إذا بلغت الحال بالعبد إلى هذا الحد؛ فالله سبحانه وتعالى يأذن بالفرج.

وفعلاً رجعت المرأة فوجدت ابنها في البيت. وهناك شيء آخر فنحن مأمورون من قبل الله تعالى به، ألا وهو الدعاء، لا سيما عند الشدّة ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ **[النمل/٦٢]**.

وعن هشام بن سالم، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: تعرفون طول البلاء من قصره؟

قلنا: لا.

قال: إذا ألهمتم أو أُلهم أحد بالدعاء فليعلم أنّ البلاء قصير[١].

مكارم الأخلاق

إنَّ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم علّموا الناس ـ في ما علّموهم ـ مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، علّموهم بأعمالهم قبل أن يعلموهم بأقوالهم.

إنّك لا تبحث عن فضيلة إلاّ وتجدهم السبّاقين إليها، والضاربين فيها الرقم الأعلى.

---

(١) فلاح السائل: ٣٥.

وموضوع الضيافة، وإطعام الطعام مما حثّ عليه الإسلام، وأمر به القرآن الكريم ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ **[الدهر/٨]** والكل يعلم ما كان عليه نبي الله ابراهيم عليه السلام من الضيافة، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه لا يأكل طعاماً إلاّ مع ضيف، وهذا حفيده يعقوب عليه السلام كان ينادي مناديه كل غداة من منزله على فرسخ: ألا من أراد الغداء فليأت إلى يعقوب، وإذا أمسى نادى: من أراد العشاء فليأت إلى يعقوب[١].

وأنت تكاد تقطع من إرساله لأولاده للمرة الثانية إلى مصر لجلب الطعام قبل أن يريحوا أبدانهم ودوابهم أنّه صلوات الله عليه كان يوزّع ما يصله من طعام على المحتاجين تخفيفاً للأزمة الخانقة التي عاناها الناس في تلك السنين المجدبة.

الانقطاع إلى الله تعالى والاعتماد عليه

وأنت يا أخي لو عرفت فقيراً يدور في البلد مستجدياً، ويمرّ بك أيضاً فيمن يمرّ به من خلق الله، فأنت لا توليه اهتمامك، وقد لا تعطيه، أو تعطيه اليسير، لأنك تعتبره مستكفياً من غيرك، أمّا لو علمت بفقير يكتم فقره، ولا يعلم به أحد غيرك، فيمكن أن لا تدّخر دونه شيئاً مما عندك.

والله سبحانه وتعالى يريد منا الانقطاع إليه، والتوجّه البه بحوائجنا، وأن لا يكون لنا مطمع عند غيره.

واعلم أنّ الانقطاع إلى الله تعالى، والاستغناء عن الناس، يكسبنا أيضاً عزّاً واحتراماً، والحكمة: «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره» خير دليل على قولنا هذا.

وهناك مرتبة أعلى من هذه أن يكون خوفنا منه تعالى فقط، وأملنا به وحده، ورجاؤنا منحصر به جلّ شأنه، ولا رجاء لنا في غيره، إذا حصل لنا هذا نكون قد أهّلنا أنفسنا لاستجابة الدعاء، ولقضاء كل حاجة منه جلّ جلاله.

---

(١) الجواهر السنيَّة: ٢٦.

ومن عجيب قصّة يوسف عليه السلام أن أباه عليه السلام لم يعلم به طيلة المدة رغم قرب المسافة، وحتّى بعد أن أصبح أميراً، لقد عاتبه أبوه بعد اجتماعهما فقال: يا بني ما أعقّك، عندك هذه المقدرة العظيمة، ولم تكتب إليّ عن حالك على بعد ثماني مراحل؟!

قال: إنّما نهاني عن ذلك جبرائيل عليه السلام .

قال: لِمَ لم تسأله عن سبب ذلك؟

قال: أنت أبسط إليه مني فاسأله.

ولما نزل جبرائيل سأله يعقوب عليه السلام عن السبب فقال جبرائيل: إنّ الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿**إنّي أخاف أن يأكله الذئب**﴾ فهلا خفته وأمّلت فيه[1].

الدعاء

والدعاء أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ في الأرض، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام [2].

وهو الذي يدفع البلاء النازل وما لم ينزل، كما يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام [3].

وهو الذي يرد القضاء بعدما أبرم إبراماً، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام [4].

لهذا وغيره أكثر الأئمة عليهم السلام من الأدعية، ففي تراثنا الإسلامي العدد الوافر من الأدعية، وهي بالمستوى الرفيع من البلاغة والبيان الرائع، مضافاً لما حوته من آداب الداعي، واللهجة التي يجب أن يخاطب بها العبد مولاه، وحسبنا بالصَّحيفة

---

(١) عرائس المجالس: ١٤٠ (بتصرُّف).
(٢) أصول الكافي: ٣٩٢.
(٣) أصول الكافي: ٣٩٣.
(٤) المصدر نفسه.

السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام فهي من نفائس الدنيا، فقد ضمّت من المعارف والأخلاق والآداب والتعاليم ما لا يوجد إلاّ في حديث سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، وعترته الطاهرين.

نذكر في هذا الفصل بعض ما ورد عن الصادقين عليهما السلام من أدعية نبيِّ الله يعقوب عليه السلام عند المحنة:

١ ـ من دعاء له عليه السلام: يا حسن الصحبة، يا كريم المعونة، يا خيراً كله، إئتني بروح وفرج من عندك؛ فهبط عليه جبرائيل، فقال ليعقوب: ألا أعلّمك بدعوات يردّ الله بها عليك بصرك وابنيك؟

فقال: بلى.

فقال قل: يا من لا يعلم أحد كيف هو وحيث هو وقدرته إلاّ هو، يا من سدّ الهواء بالسماء، وكبس الأرض على الماء، واختار لنفسه أحسن الأسماء، إئتني بروح منك، وفرج من عندك.

فما انفجر عمود الصبح حتى أتي بالقميص، فطرح على وجهه فردّ الله عليه بصره، وردّ عليه ولده[1].

٢ ـ هبط جبرائيل على يعقوب فقال: يا يعقوب ألا أعلمك دعاءً يرد الله عليك به بصرك، ويرد عليك ابنيك؟

قال: بلى.

قال: قل: ما قاله أبوك آدم فتاب الله عليه، وما قاله نوح فاستوت به سفينته على الجودي ونجا من الغرق، وما قاله أبوك ابراهيم خليل الرحمن حين ألقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً.

فقال: ما ذاك يا جبرائيل؟

فقال: قل: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن تأتيني بيوسف وابن يامين جميعاً، وترد عليّ عيني.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٢/٢٦٧.

فما استتم يعقوب عليه السلام هذا الدعاء حتى جاء البشير فألقى قميص يوسف عليه فارتد بصيراً، فقال لهم: ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون[1].

٣ ـ ومن دعاء له عليه السلام لمّا ردّ الله جلّ جلاله عليه يوسف عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم، يا من خلق الخلق بغير مثال، ويا من بسط الأرض بغير أعوان، ويا من دبّر الأمر بغير وزير، ويا من يرزق الخلق بغير مشير، ويا من يخرّب الدنيا بغير استيمار[2].

٤ ـ ومن دعاء له عليه السلام علمه به الملك:

يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه غيره، يا كثير الخير، يا قديم الإحسان، يا دائم المعروف، يا معروفاً بالمعروف، يا من هو بالخير موصوف، اكفنا شرّ ما يعمل الظالمون[3].

وبعد الكبوة

إنَّ الإنسان ـ وإن علت رتبته ـ معرّض لأن يكبو ويبتعد عن مسار الحق والاستقامة، ويذهب بعيداً عن طريق الهدى والصلاح، ولكن المفروض به أن يعود سريعاً ويدخل باب التوبة الذي فتحه الله جلّ جلاله لعباده.

وهؤلاء أولاد يعقوب عليه السلام وقد حصل منهم ما حصل، ولكنّهم رجعوا إلى الله جلّ جلاله تائبين مستغفرين.

ورواية الثعلبي:

إنّ الله تعالى لما جمع ليعقوب عليه السلام شمله خلا ولْدُه نجيّاً، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم، ما فعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف؟ قالوا: بلى، قالوا: فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربّكم، فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ، فأتوه

(١) أمالي الصدوق: ٢٠٨.

(٢) مهج الدّعوات: ٣٠٨.

(٣) مصباح الكفعمي: ١/٥٤٨.

وجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعد، فقالوا: يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط، والأنبياء أرحم البرية.

فقال: ما بكم يا بنيَّ؟

فقالوا: ألست تعلم ما كان منّا إليك وإلى أخينا يوسف؟

قال: بلى قد علمت.

قالوا: أفلستما قد عفوتما عنا؟

قالا: بلى.

قالوا: فإنّ عفوكما لا يغني عنّا شيئاً إذا كان الله تعالى لم يعف عنّا.

قال: فما تريدون يا بنيّ؟

قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من عند الله سله هل عفا الله عنا، فإن أجابك بأنه عفا عنا جميعاً قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلاّ فلا قرّت لنا عين في الدنيا أبداً.

فقام الشيخ واستقبل القبلة، وقام يوسف خلفه، وقاموا كلهم خلفهما أذلّة خاشعين، فدعا يعقوب وأمّن يوسف عليه السلام، فلم يجب فيهما قريباً من عشرين سنة، ثم نزل جبرائيل عليه السلام على يعقوب فقال: إنّ الله تعالى بعثني إليك أبشّرك بأنّه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنّه قد عفا عمّا صنعوا[1].

الوصيّة

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

هذا درس مهم يعلّمنا به القرآن الكريم، أعني به تربية الأولاد وتعاهدهم بالوصايا والتعاليم النافعة، وأخذهم بالالتزام بالآداب الإسلامية، فالوالد كما هو مسؤول عن تهيئة الطعام واللباس لأولاده فكذلك هو مسؤول عن توجيههم الوجهة

(١) عرائس المجالس: ١٤١.

الصحيحة، وتعليمهم الأمور الدينية، ودعوتهم إلى سلوك طريق الاستقامة.

انظر وصايا الأئمة عليهم السلام لأولادهم تعرف أهمية ذلك، يمكن أن يكون الولد إماماً ـ كما حصل للإمام الحسن عليه السلام ـ فهو أرفع من أن يكبو أو يتجنّب طريق السلامة، لكنّهم صلوات الله عليهم يعلّمونا مسؤولية الآباء في توجيه أبنائهم، ووجوب ذلك عليهم.

وهذا يعقوب عليه السلام وهو في ساعة الموت وهي شديدة مذهلة لا تسمح لمن يعانيها أن يفكّر في غيرها، لكن نبيَّ الله لا تفوته الفرصة في أن يوصي بنيه بالتوحيد، وأن يكونوا عند حسن ظنه بهم.

لقد صدقوا مع أبيهم، فماتوا جميعاً رحمهم الله على التوحيد، وحتى ذنبهم بالنسبة مع أخيهم يوسف عليه السلام فقد كان منهم في حال الصغر، ونزلت توبتهم في حياة أبيهم عليه السلام.

وقد كرّمهم الله سبحانه وتعالى فأخرج من أصلابهم الأنبياء، وإنَّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام هو حفيد أحدهم.

قصة النبي يوسف عليه السلام

قصة يوسف عليه السلام أكبر قصة في القرآن الكريم، وأجمعها للعبر، وهي مدعاة لشبابنا أن يتزيّنوا بالعفاف، ويكرموا أنفسهم من أن يدنّسوها بالرذيلة، ويأخذوا من الصدّيق عليه السلام درساً عملياً؛ فقد وصل بالتزامه إلى أعلى درجة في الدنيا ـ الحكم ـ وإلى أرفع منازل الجنان في الآخرة.

وليس هذا هو الجانب الوحيد فيها، فنحن نتعلّم منها دروساً أخرى، فقد كان المفروض بيوسف عليه السلام أن يلاقي حتفه قتلاً ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف/٩]. أو يقضي نحبه بالبئر كما توقع إخوته ذلك، ولكن الله جلّ جلاله إذا أراد شيئاً كان ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة/١١٧] فقد نجّاه سبحانه وتعالى من القتل، وأخرجه من البئر، وأجلسه على أريكة الحكم ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف/٥٦].

فيجب علينا الوثوق بهذا العظيم، وتوجيه حوائجنا إليه، فهو يكفينا أمر الدنيا والآخرة.

تأمّل يا أخي فصل أدعيته في هذه القصّة وقول جبرائيل عليه السلام ليوسف: أفتحب أن تخرج؟ وهو في الجبّ.

فقال: ذاك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

فكلّما ازددت يا أخي تعلّقاً بإله إبراهيم عليه السلام، وعملاً بشريعته، وامتثالاً لأوامره كنت أقرب إلى أن يستجيب لك إذا دعوته، ويعطيك إذا سألته ﴿ وَإِذَا

سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة/١٨٦].

١ ـ الشيطان

في قصة يوسف عليه السلام تتجلّى قوّة الشيطان بشكلٍ واضحٍ، وانَّ الشخص مهما عظم شأناً وبيتاً وتربية فإنّ الشيطان يحاول أن ينفذ إليه، ويحرّك عنده نقطة الضعف.

إنّ أخوة يوسف عليه السلام كانوا بمكان عظيم من الرفعة والجلالة، فقد ولدهم ثلاثة أنبياء عظام، وعاشوا في بيت النبوّة والإيمان، ولم يكن لهم أدنى مبرر لتنفيذ جريمتهم النكراء، والجدير بالذكر أنّ أباهم عليه السلام مع ما هو فيه من عظمة النبوة وتقاها فإنّه يستحيل أن يفضّل بعض أولاده على الآخرين في مأكل أو ملبس، إلاّ انّه كان يحب يوسف عليه السلام لعلمه بأنّه أقرب منهم للمولى جلَّ شأنه، ويشم منه أريج النبوة ونفحاتها.

هذا مع الإشارة إلى أن يعقوب عليه السلام كان فقيراً، وهذا ما يزيد في عظم الجريمة لأنّه فلو كان من أهل الثراء والأموال، ومع ما يشاهدون من ميله ليوسف عليه السلام يمكن أن يترجّح عندهم أن ينحله بعض ذلك، ويفوّت عليهم إرثاً متوقّعاً، بل كل ما في الأمر ﴿**يخل لكم وجه أبيكم**﴾ تخلص لكم محبته.

والغريب في الأمر أن يتواطأ العشرة كلهم على المعصية والإساءة العظيمة إلى نبيِّ العصر.

وأنت أعزّك الله ورعاك إحذر هذا العدو العظيم كل الحذر، وراقب نفسك دائماً خشية أن يجد فيك مجالاً للنفوذ، واعلم ﴿**إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء/٧٦].

٢ ـ الحسد

وتعريفه تمنّي زوال النعمة عن أخيك، وقد يتطوّر بك الأمر فتسعى لهذا الزوال.

وهو من أخبث الصفات وأرذلها، وفي الحديث: إنه أول ذنب عصي به الله سبحانه وتعالى، فإبليس حسد آدم عليه السلام على ما آتاه الله من النبوة فكاده، وقابيل حسد أخاه هابيل على مواهب الله جل جلاله فقتله؛ وكانت في يوسف عليه السلام مؤهلات كثيرة للحسد، فجماله وحده كان كافياً لإغراء إخوته به وحسدهم له، ومكانته عند أبيه عليه السلام، ألا تسمعهم يقولون: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف/٩].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب[١].

لقد شدّد الإسلام على هذه الخصلة الرذيلة، وحذّر منها، وأمر المسلمين بتركها، فأنت حينما ترى نعمة وموهبة من مواهب الله جلّ جلاله من مال أو جمال أو جاه أو علم أو ملك أو أي شيء آخر عند أحد من الناس فادع الله سبحانه وتعالى له بالعافية وتمام النعمة، وأن يهب لك مثلها، وهذا يسمى (الغبطة).

فأنت تخرج إلى السوق وأنت بحاجة ماسّة إلى الدرهم، فتشاهد من يملك الملايين، فتدعو الله له بالخير، وتطلب من الله أن يرزقك، فأنت حينئذٍ تتخلّص من الحسد، ويشملك حديث الإمام الصادق عليه السلام: ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب إلاّ وكّل الله به ملكاً يقول له: ولك مثل ما دعوت لأخيك[٢].

بل ينبغي لك أن تعمل شيئاً آخر: فأنت حينما تشاهد الغني تتذكّر المتاعب التي يسببها له المال في الدنيا والآخرة، فمتاعب الدنيا: الكد، والنصب، والتفكير، والتعرّض للعدوان من السلطان وغيره، فكم من غنيٍّ قتل من أجل ماله، وكم من ثريّ حبس لأجل ماله، وتتذكر ما تحمّله من المتاعب في جمعه، وأعظم من هذا كله المتاعب التي تنتظره في الآخرة، فهو على الحافة، وقريب من النار فيما إذا أخلّ بما فرض الله تعالى عليه من حقوق وفرائض وواجبات.

إذا تذكّرت هذا تكون قد عالجت الحسد علاجاً جذرياً، وحاسبت نفسك

---

(١) نهج البلاغة: ١١٨.

(٢) مشكاة الأنوار: ٣٣٠.

حساباً منطقياً، فإن انقادت لك نفسك وإلاّ فذكّرها بالحديث الشريف: قال الإمام الصادق عليه السلام: الحاسد يضر بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم عليه السلام الاجتباء والهدى[1].

وقوله عليه السلام: الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب[2].

ولعلّ الحسد في قصة يوسف عليه السلام هو بيت القصيد، فعليك أن تعتبر بذلك.

واعلم رعاك الله مغزى الحديث الشريف «اطرد الخبيث فإنّه لا يعود» ومعناه: إنَّ الشيطان يحاول غوايتك في لعب القمار ـ مثلاً ـ ولو بدرهم واحد، فمتى استجبت له في أوّل مرة فقد وقعت في فخّه، وصرت من زبائنه، ويصعب الخروج بعد ذلك من الفخ، أمّا إذا نهرته من أوّل مرّة ولم تستجب لندائه وإغوائه، فقد ذهب عنك إلى غير رجعة.

وموضوعنا (الحسد) فأنت إذا شاهدت صاحب نعمة وتذكّرت نعم الله عليك، ونهيه لك أن تحسد أحداً من عباده، ودعوت الله بالزيادة لذلك العبد، ثم دعوت لنفسك، فقد برأت من هذا الداء القبيح، ولن يعد إليك الخبيث.

لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين

إنّ في قصصهم عبراً وآيات ودروساً قيّمة في المواعظ والأخلاق، وحكمة عالية ترفع المتأمّل لها إلى ذروة التقى والإيمان.

فأوّل هذه الآيات ما ذكره الزجاج: إنّ علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف عليه السلام، فنزلت الآيات بأعظم ما كانوا يتوقعونه.

لقد كان في حديث يوسف وإِخوته عبر للسائلين عنهم وأعاجيب، فمنها:

---

(١) مصباح الشَّريعة: ٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ١١٨.

أنهم نالوه بالأذى، ودبّروا في قتله، واجتمعوا على إلقائه في البئر، حسداً منهم مع أنهم أولاد الأنبياء، فصفح عنهم عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا مكّنه الله منهم، وأحسن إليهم، ولم يعيّرهم بما كان منهم، وهذا خارج عن العادة، وفيه عبرة لمن اعتبر فيها في منافع الدين.

ومنها: الفرج بعد الشدّة، والمنحة بعد المحنة.

ومنها: الدلالة على صحّة نبوّة نبيّنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لأنه لم يقرأ كتاباً، فعلم أنّه لم يأته ذلك إلاّ من جهة الوحي، فهو بصيرة للذين سألوه أن يخبرهم بذلك، ومعجزة دالة على صدقه(١).

بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً

أي زيّنت لكم أنفسكم أمراً عملتموه.

وهذا أعظم ما في القصّة، وأخطر شيء يواجهه الإنسان، ويميل به عن طريق الإستقامة، ولعمري ما سفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الأعراض، إلاّ من تسويل النفس، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف/٥٣] أي إنّها تميل نحو الرذيلة، ويقول علماء الأخلاق: إنّ صفات الكمال والتخلّق بالأخلاق العالية بالنسبة لنفس الإنسان كصعود الدرج، فهو يشق عليها، وإنّ الرذائل والمعاصي بالنسبة لها كالنزول، فهو يسهل عليها وتهواه؛ فالحذر الحذر أن تسوّل لك نفسك أمراً فيه معصية العظيم الجبار فتخسر جنّة عرضها السّماوات والأرض أعدّت للمتقين.

إنّ الله جلّ جلاله جعل لك عقلاً تسيطر به على نفسك وتقودها إلى الصراط المستقيم.

٣ ـ العفاف

كُنَّا قد أشرنا إلى أَنَّ قصة يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ فيها الكثير من العبر

(١) مجمع البيان: ٥/٣٦٣.

والتعاليم التي يجب على الأمّة الإسلامية أخذها؛ فهو في عنفوان شبابه، وهبه الله جمالاً لم يهبه لأحد من خلقه، حتى قيل: إنّ الجمال قسم نصفين، نصف ليوسف عليه السلام، ونصف لسائر الخلق؛ وهو يعيش في بيت الملك، وأجمع أهل التاريخ على أنّ زليخا زوجة الملك كانت تتمتع بجمال رائع، وزوجها كان عنيناً (١) فقد شغفت بيوسف عليه السلام شغفاً عظيماً وهو يتحصّن بالعفاف.

قال ابن عباس: مكث يوسف في منزل الملك وزليخا ثلاث سنين ثم أحبّته فراودته، فبلغنا والله أعلم: أنّها مكثت سبع سنين على قدميها وهو مطرق إلى الأرض لا يرفع طرفه إليها مخافة من ربّه، فقالت يوماً: ارفع طرفك وانظر إليّ.

قال: أخشى العمى على بصري.

قالت: ما أحسن عينيك.

قال: هما أوّل ساقط على خدّي في قبري.

قالت: ما أحسن طيب ريحك.

قال: لو شممت رائحتي بعد ثلاث من موتي لهربت منّي.

قالت: لِمَ لا تقترب؟

قال: أرجو بذلك القرب من ربّي.

قالت: فراشي الحرير قم واقض حاجتي.

قال: أخشى أن يذهب من الجنّة نصيبي.

قالت: أسلمك إلى المعذبين.

قال: يكفيني ربّي (٢).

يصوّر لنا القرآن الكريم مشهد المراودة وغلق الأبواب ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف/٢٣]. وكان جواب الصدّيق عليه السلام:

---

(١) العنين = الذي لا يقدر على إتيان النِّساء.

(٢) قصص الأنبياء: ٢٠٣.

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف/٢٣].

فهو عفاف ووعظ وتذكير بنعم الله سبحانه وتعالى، وإنَّ عاقبة الظالمين البوار والهلاك في الدنيا والآخرة.

والمصيبة العظمى التي لاقاها الصديق عليه السلام هي المجلس الذي عملته زليخا للنسوة بعدما سمعت بمكرهن وعيبهن لعملها ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [يوسف/٣٠] ولمّا حضرن عندها أمرته أن يخرج عليهن ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ۞ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف/٣٢].

والرواية: فما أمسى يوسف في ذلك اليوم حتّى بعثت إليه كل امرأة رأته تدعوه إلى نفسها[1] وهنا ضاق ذرعاً بهن، ورأى السجن أفضل بكثير من الإنزلاق في الرذيلة، وإنَّ عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة، فتوجّه إلى الله تعالى داعياً: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يوسف/٣٤].

٤ ـ ولقد همّت به وهمّ بها

صوّر القرآن الكريم لنا جانباً من جوانب المراودة والتي لم يشهدها سوى الله جلّ جلاله.

﴿**ولقد همّت به**﴾ فهو واضح، بل إنّها هامت به حباً وعشقاً ﴿**وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾ فالرواية عن الإمام الرضا عليه السلام قال: فإنها همّت بالمعصية، وهمّ عليه السلام بقتلها إن أجبرته، لعظم ما تداخله، فصرف عنه قتلها والفاحشة، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ [يوسف/٢٤] يعني القتل

(١) قصص الأنبياء: ١٨٦.

والزّنى[1].

والبرهان الذي رآه هو تقوية من المولى سبحانه وتعالى لعباده الصالحين في الظروف الحرجة ليمضوا على طريق الاستقامة بعد أن استفرغوا المجهود، وبلغوا الغاية في الجهاد.

ويختلف هذا العون منه جلّ جلاله، فربّما كان بجنود من الملائكة تقاتل في ساحة القتال كما حصل في يوم بدر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال/ ٩]. أو هو عون تكييفي تصنعه يد القدرة كما حصل في يوم بدر أيضاً ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال/ ٤٤].

والبرهان الذي شاهده الصديق: فقد تراءى له يعقوب عليه السلام عاضاً على إصبعه ـ على رواية ـ أو ملك من الملائكة، ولعلّ الأصوب لا هذا ولا ذاك، بل هو عون تكييفي، ومسكة من الخالق الوهّاب جلّ جلاله ليخرجه من هذا الامتحان العسير مرفوع الرأس بعد بذله المجهود في طاعة ربّه العظيم.

٥ ـ عون الصالحين

ظهر لك من الفصل السابق أنّ الله سبحانه وتعالى يساعد عبده عندما يستفرغ العبد طاقته أو بعضها في طاعة الله تعالى؛ فلم تقاتل الملائكة مع المسلمين في يوم أحد لأنّهم كانوا على خلاف موقفهم في يوم بدر، ونحاول استعراض الموقفين لتعرف التباين بينهما.

ففي بدر، كان المسلمون على قلّتهم وضعفهم في أعلى مراحل التفاني والجهاد، والدفاع عن الإسلام، ألا تسمع خطيبهم المقداد بن الأسود الكندي رضوان الله عليه يقول للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لمّا استشار أصحابه في الحرب: يا رسول الله أمض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكم

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٩٤.

مقاتلون؛ والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه[2].

بينما في يوم أحد وقبل بدء الحرب تراجع ثلث المسلمين وانسحبوا إلى داخل المدينة خلافاً لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران/١٦٧].

والآية الكريمة تصرّح بأن مصيبتهم كانت من قبل أنفسهم ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ [آل عمران/١٥٣].

كان أوّل عون للصديق يوسف عليه السلام هو العون المعنوي الذي أشار إليه القرآن فزاده قوّة ومعنوية فانهزم هارباً من مشهد الشّرّ مبتعداً عن القتل، وتعلّقت به زليخا تعلّقاً شديداً، واستغنى عن قتلها بالهرب بعد أن قدّت قميصه من دبر، واستمرّت تعدو خلفه، وحيث وصل ساحة الدار وإذا بالعزيز يشاهد هذا المشهد، وتكلّمه قبل أن يسأل ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً**﴾.

وحدثت المشكلة الثانية للصدّيق فأصبح متّهماً أمام العزيز، ويجيب عليه السلام ﴿**هي راودتني عن نفسي**﴾ وكل هذه دعاوى يسمعها العزيز، ويأتي العون الإلهي مرة أخرى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧] أتدري من هو القائل؟

إنّه طفل في المهد، ابن أخت زليخا، ولكنّه العون الإلهي.

نظر العزيز إلى قميص يوسف ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وتوجّه العزيز إلى يوسف عليه السلام راجياً منه كتمان الأمر ﴿**يوسف أعرض عن هذا**﴾.

---

(١) برك الغماد: بلد في اليمن.

(٢) الكامل في التأريخ: ٢/ ١٢٠.

ثم عاد إلى زوجته مؤنّباً ﴿**واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين**﴾ **[آيات من سورة يوسف]**.

٦ ـ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه

والبشر يحمل من الصلافة واللامبالاة شيئاً عظيماً، فامرأة العزيز وقد شاهدت الكرامات ليوسف عليه السلام من شهادة الرضيع وغيرها، ومع ذلك بقيت تلاحقه، فهي تقول للنسوة ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ **[يوسف/٣٢]**.

ملأت كلمة زليخا مسامع يوسف عليه السلام، وابتهل إلى الله جلّ جلاله في ساعة تضايق بها من زليخا ومن بقية النسوة اللاتي دعونه لزيارتهن ويقول في دعائه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ **[يوسف/٣٣]**.

وحصلت الاستجابة منه تعالى فسجن يوسف عليه السلام سبع سنين.

لقد كان في السجن ليوسف عليه السلام مصالح كثيرة منها: إنّه تخلّص من النسوة ومكرهن، وخرج منه إلى سرير الملك، وطبيعي لم يكن أحد يعلم بهذه المصالح إلاّ الله سبحانه وتعالى؛ وفي مرّة يضيق صدره بالسجن وأهله ويسأل عن سبب ابتلائه به، ويأتيه جبرائيل عن الله تعالى يقول: أنت طلبت ذلك، ولو سألت الله سبحانه وتعالى أن ينجيك من زليخا ومن السجن لفعل.

وهذا تعليم منه تعالى للمسلم، فلو ضقت يا أخي بالفقر ذرعاً لا تسأل الله تعالى المال وإن صحبه مرض مثلاً، وكذلك لو ضقت بمرض معيّن فلا تسأل الله جلّ جلاله أن يعافيك منه وإن ابتليت بغيره، فهو يستطيع أن يعافيك من مرضك ولا يبليك بمرض غيره.

٧ ـ نبئنا بتأويله

مكث يوسف الصدّيق في السجن سبع سنين وكلّه نشاط وعمل في سبيل الله ونصرة دينه، علماً أنّه يعيش في مجتمع وثني يعبد الأصنام، لكنّه يستغلُّ كل مناسبة

وظرف يمر عليه للهداية والإرشاد.

إنّ شخصين من خدم الملك أُودعا السجن، وشاهد كل منهما رؤيا قصّاها على الصدّيق، وطلبا منه التّعبير، ولكنّه عدل عن ذلك إلى الموعظة ﴿**يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار**﴾ أأصنام من حجر وخشب لا تضرّ ولا تنفع خير لمن عبدها أم الله الواحد القهّار؟ الذي بيده الخير والشر، والنفع والضر.

ثم توجّه بالخطاب إلى جميع أهل السجن مرشداً ومعلّماً ﴿**ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾ إنّ هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وسميتموها بأسماء ـ يعني بذلك أصنامهم التي سمّوها بالآلهة ـ هي أسماء فارغة لا حقيقة لها ﴿**إن الحكم إلاّ لله**﴾ ما الحكم والأمر إلاّ لله، فلا تجوز العبادة والخضوع والتذلل إلاّ لله ﴿**أمر أن لا نعبدوا إلاّ إياه**﴾ أمركم أن لا تعبدوا غيره ﴿**ذلك**﴾ الذي بيّنت لكم من توحيد الله وعبادته، وترك عبادة غيره ﴿**الدّين القيّم**﴾ الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿**ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾ ما للمطيعين من الثواب، وللعاصين من العقاب.

بعد هذا النصح والوعظ شرع في تعبير الرؤيا، فجاءت طبقاً لتعبيره.

٨ ـ اذكرني عند ربك

إنّ قصة يوسف عليه السلام تتحدّث عن حياته الكريمة من دور الطفولة حتى الوفاة، وما تخلل ذلك من مصاعب وبلاء ورخاء.

وفصل السجن وحده يحوي عدة دروس منها: إنّ سجينين قصّا عليه رؤيا ففسّرها لهما، وكان أحدهما ساقي الملك فقال له يوسف عليه السلام: إنّك تخرج وتعود إلى عملك، ولكنه طلب منه أن يتوسّط له عند الملك في إخراجه ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ **[يوسف/٤٢]**.

وليس في هذا الطلب محذور أو حرام، فالمظلوم له أن يستعمل كل السبل المشروعة للخلاص من مظلوميته، ولكن ينبغي للمرء أن يتوجّه في أموره كلّها لله

تعالى، ويطلب منه تعالى كلّ شيء، ولا يستعين بمخلوق سواه، ألا ترى ابراهيم عليه السلام وقد ألقي في النار ويأتي إليه جبرائيل عليه السلام قائلاً: يا ابراهيم هل من حاجة؟

ويجيبه عليه السلام: أمّا إليك فلا.

أتدري ما حدث له: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء/٦٩].

أو تدري ما حدث ليوسف عليه السلام؟ ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف/٤٢].

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ يوسف أتاه جبرائيل فقال له: يا يوسف إنّ رب العالمين يقرءوك السلام ويقول لك: من جعلك في أحسن خلقة؟

فصاح ووضع خده على الأرض ثم قال: أنت يا رب.

ثم قال له: ويقول لك: من حبّبك إلى أبيك دون إخوتك؟

قال: فصاح ووضع خده على الأرض وقال: أنت يا رب.

قال: ويقول لك: من أخرجك من الجبِّ بعد أن طرحت فيها وأيقنت بالهلكة؟

قال: فصاح ووضع خده على الأرض، ثم قال: أنت يا رب.

قال: فإنّ ربّك قد جعل لك عقوبة في استغاثتك بغيره، فلبث في السجن بضع سنين[(١)].

نسي الرجل ما كلّفه به يوسف عليه السلام من الوساطة عند الملك، فلم يتذكّرها مدة سبع سنين، ويوسف عليه السلام يعيشها بين جدران السجن.

إنّ الله سبحانه وتعالى يريد منا أن لا نتوكّل إلاّ عليه، ولا نطلب حوائجنا إلاّ منه، ولا نعتمد في أمورنا إلاّ عليه؛ ألا تسمع الإمام عليّاً الهادي عليه السلام يقول لأحد أصحابه وقد طلب منه الوساطة عند السلطان لقضاء حاجته، فأجابه بعد أن

(١) تفسير القمّي: ١/ ٣٧٤.

انقضت بلا وساطة: إنّ الله تعالى علم منا أن لا نلجأ في المهمّات إلاّ إليه، ولا نتوكّل في الملمّات إلاّ عليه، وعوّدنا إذا سألناه الإجابة، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا[١].

٩ ـ ولا نضيع أجر المحسنين

عالم الآخرة يختلف عن عالم الدنيا، فمن هذه الاختلافات ـ وما أكثرها ـ فقد يضيع عمل المحسن في الدنيا، وقد ينسب لغيره، أمّا في الآخرة فإنّ الله سبحانه لا يضيع عمل محسن أبداً، بل إنَّ المحسن يجد عمله أمامه تاماً وافراً غير منقوص ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره**﴾ وهذا ما يشجّع الإنسان على عمل الخير، ويدعوه للمزيد. من الاعمال الصالحة.

١٠ ـ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض

وهذا من أعجب العجب، فإخوته العشرة خرجوا به ليقتلوه، ثم بدا لهم أن يلقوه في بئر عميقة بعيدة عن طريق المارّة، فدلّوه حتى إذا بلغ نصفها ألقوه بأمل أن يموت، فهيأ الله جلّ جلاله له الخروج والسكن في بيت الملك، ثم حباه الله جلّ جلاله بالنبوّة ـ وناهيك بها شرفاً ـ ثم أعطاه الله سبحانه الملك.

وينبغي للمسلم أن ينقاد لهذا العظيم، الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، ولا يستبدل به أحداً، ولا يطلب عزّاً ومنعة من عند غيره.

تعلّم رعاك الله من الصديق عليه السلام الانقطاع إلى الله تعالى، والاستعانة به دون سواه، فهو في غيابت الجب يكابد أعظم محنة مرّت عليه وينزل عليه جبرائيل عليه السلام ويسأله أتحب أن تخرج من هذا الجب؟

قال: ذلك إلى إله ابراهيم وإسحاق ويعقوب[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ١٢/١٢٩ الطبعة القديمة.

(٢) مجمع البيان: ٥/٣٧٣.

لقد أخرجه إله ابراهيم وإسحاق ويعقوب من الجب، وصيّره ملكاً على قطر عظيم، مضافاً إلى ما حباه من عظيم المنزلة، والمكانة الرفيعة في الدنيا والآخرة.

١٠ ـ يا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة

يقول أمين الإسلام: خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي جمال وهيئة وكمال؛ وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ العين حقّ، والعين تُنزل الحالق؛ والحالق: المكان المرتفع من الجبل وغيره، فجعل عليه السلام العين كأنّها تحط ذروة الجبل من قوّة أخذها، وشدّة بطشها، وورد في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بأن يقول: أعيذكما بكلمات الله التامّة، من كلِّ شيطان وهامة، ومن كلِّ عين لامّة[١].

١١ ـ وعليه فليتوكل المتوكلون

يفوّضون أمورهم إليه، ويثقون بتدبيره؛ وهذا لا يعني ترك السعي والعمل، بل كما قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للأعرابي الذي سيّب ناقته متوكّلاً على الله، قال: اعقل وتوكّل، والمعنى: أن يقوم بالدور المطلوب منه، فالزارع يزرع، والعامل يعمل ويتوكّل على الله سبحانه أن ينجز عمله على أتم الوجوه، ويبارك في جهوده، ويدفع عنه وعن عمله المخاطر والأدواء.

١٢ ـ أدعيته

الدعاء: هو الطلب من العبد، يتقدّم به إلى مولاه في دفع مكروه يجده، أو طلب خير يرجوه؛ وقد حثّ سبحانه وتعالى عباده على الدعاء حتى ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر/٦٠] هي فيمن ترك الدعاء.

(١) مجمع البيان: ٥/٤٢٨.

وجاء الحث من قبل الصادقين على الدعاء، والتوسّل بالله سبحانه وتعالى لكل صغيرة وكبيرة، حتى يحسن بالعبد أن يدعو الله تعالى لأبسط الأمور وأهونها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: عليكم بالدعاء فإنّكم لا تتقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تسألوها، فإن صاحب الصغائر هو صاحب الكبائر[١].

وكثير من الأدعية علّمها الله سبحانه وتعالى أنبياءه عليهم السلام، وأمرهم أن يدعوه بها.

نذكر بعض أدعية يوسف عليه السلام، وبعض ما أوحاه جلّ جلاله إليه.

١ ـ قال أبو بصير: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: ما كان دعاء يوسف في الجب، فإنّا قد اختلفنا فيه؟

فقال: إنّ يوسف لما صار في الجب وأَيس من الحياة قال: اللهم إن كانت الخطايا والذنوب قد أخلقت وجهي عندك، فلن ترفع لي إليك صوتاً، ولن تستجيب لي دعوة، فإنّي أسألك بحق الشيخ يعقوب فارحم ضعفه، واجمع بيني وبينه، فقد علمت رقّته عليّ، وشوقي إليه.

قال: ثم بكى أبو عبدالله الصادق عليه السلام ثم قال:

وأنا أقول: اللهم إن كانت الخطايا والذنوب قد أخلقت وجهي فلن ترفع لي إليك صوتاً، فإنّي أسألك بك فليس كمثلك شيء، وأتوجّه إليك بمحمد نبيّك نبي الرحمة يا الله يا الله يا الله يا الله.

ثم قال أبو عبدالله عليه السلام: قولوا هذا وأكثروا منه فإنّي كثيراً ما أقوله عند الكرب العظام[٢].

٢ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: لما طرح أخوة يوسف يوسف في الجب نزل عليه جبرائيل عليه السلام فقال: يا غلام من طرحك في هذا الجب؟

قال: إخوتي، لمنزلتي من أبي حسدوني، ولذلك في الجب طرحوني.

---

(١) أمالي الشَّيخ المفيد: ١٩.
(٢) أمالي الشَّيخ الصَّدوق: ٣٣٠.

قال: أتحب أن تخرج؟

قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

قال: «فإن الله يقول لك قل: اللّهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلاّ أنت، بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تصلّي على محمد وآل محمد، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، برحمتك يا أرحم الراحمين»[١].

٣ ـ ومن دعاء له عليه السلام في الجب: «يا صريخ المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرّج كرب المكروبين، قد ترى مكاني، وتعرف حالي، ولا يخفى عليك شيء من أمري»[٢].

٤ ـ دعاء علّمه جبرائيل عليه السلام في الجب «يا كاشف كل كربة، ويا مجيب كل دعوة، ويا جابر كل كسير، ويا حاضر كل بلوى، ويا مونس كل وحيد، ويا صاحب كل غريب، ويا شاهد كل نجوى، أسألك بحق لا إله إلاّ أنت أن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وأن تجعل في قلبي حبّك حتى لا يكون لي همّ وشغل سواك، برحمتك يا أرحم الراحمين»[٣].

٥ ـ ومن دعاء له عليه السلام في السجن: اللّهم إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فإني أتوجه إليك بوجه آبائي الصالحين ابراهيم وإسحاق ويعقوب[٤].

٦ ـ دعاء علّمه جبرائيل عليه السلام في السجن: أسألك بمنّك العظيم، وإحسانك القديم، ولطفك العميم، يا رحمان ويا رحيم.

فقالها فرأى الملك الرؤيا فكان فرجه فيها[٥].

(١) مهج الدّعوات: ٣٠٧.
(٢) مهج الدعوات: ٣٠٧.
(٣) البرهان في تفسير القرآن: ٢/ ٢٤٤.
(٤) البرهان في تفسير القرآن: ٢/ ٢٤٤.
(٥) البرهان في تفسير القرآن: ٢/ ٤٦٩.

٧ ـ وكان من دعائه عليه السلام في السجن: «يا كبير كل كبير، يا من لا شريك له ولا وزير، يا خالق الشمس والقمر المنير، يا عصمة المضطرّ الضرير، يا قاصم كل جبار عنيد، يا مغني البائس الفقير، يا جابر العظم الكسير، يا مطلق المكبّل الأسير، أسألك بحق محمد وآل محمد أن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب».

فلما أصبح دعا به الملك[1].

٨ ـ ومن دعاء له عليه السلام في أوقات بلواه: يا راحم المساكين، ويا رازق المتكلّمين، ويا ربّ العالمين، ويا مالك يوم الدين، ويا غياث المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، ويا أحكم الحاكمين، ويا أسرع الحاسبين، ويا خير المسؤولين، ويا ذا الجلال والإكرام، يا كبير كلِّ كبير، يا من لا شريك له ولا وزير، يا من هو على كلِّ شيء قدير، يا من هو عليم خبير، يا من هو بكلِّ شيء بصير، يا خالق الشمس والقمر المنير، يا جابر العظم الكسير، يا مغني البائس الفقير، يا مطلق المكبّل الأسير، يا مدبّر الأمر ثمّ إليه المصير، يا من لا يجار عليه وهو يجير، يا من يحيي الموتى وهو عليه يسير، يا عصمة الخائف المستجير، يا مغني الفقير الضرير، يا حافظ الطفل الصغير، يا راحم الشيخ الكبير، يا من لا يخفى عليه خافية في السماوات والأرض، يا غافر الذنوب، يا علاّم الغيوب، يا ساتر العيوب، أسألك أن تصلّي على محمد وآل محمد وأن تغفر لي ولوالديّ وتجاوز عنّا فيما تعلم فإنّك الأعزّ الأكرم[2].

١٣ ـ من أدب النبوة

كانت السنوات السبع التي مرّت على المصريين في عهد نبيٍّ الله يوسف عليه السلام صعبة للغاية، وهي حتّى الآن مضرب المثل للسنين المجدبة، ولكنّه صلوات الله عليه عالجها بحكمة النبوّة، وخفف عن الناس آلامهم بعد أن

(١) المصدر نفسه، ٢/ ٢٧٢.
(٢) مهج الدَّعوات: ٣٠٨.

مهّد لذلك وادّخر لهم ما يكفيهم فيها، ومع ذلك فقد التزم بأمور وألزم الملك بأخرى تشديداً في الأمر، وحياطة لبلوغ الهدف، ورعاية للطبقة الضعيفة من الناس، لقد التزم صلوات الله وسلامه عليه بأن لا يشبع من طعام ما دامت الأزمة قائمة، والناس في شدّة.

روى الشيخ الأقدم ورام رحمه الله: قيل ليوسف عليه السلام: لِمَ تجوع وفي يدك خزائن الأرض؟

قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع[1].

وأكثر من هذا، فقد ألزم الملك بذلك أيضاً، فقد أمر طبّاخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار مرّة واحدة في اليوم والليلة، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجياع[2].

١٤ ـ توفّني مسلماً

ثبتني على الإيمان إلى وقت الممات، وأمتني على دين الإسلام.

وهذا تعليم من الصديق عليه السلام أن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يحيينا مسلمين، وأن يميتنا مسلمين، فما أسرع أن يُنزع عن المسلم إسلامه فيموت والعياذ بالله على غير الإسلام، لا سيّما في هذا العصر الذي تكثر فيه المغريات، وتتعالى فيه أصوات دعاة الكفر والضلال.

١٥ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف/١١١].

كان في بدء السورة **﴿لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين﴾** وختامها **﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾** والمعنى في قصص يوسف وأخوته فكرة وبصيرة من الجهل وموعظة، وهو ما أصابه عليه السلام من ملك مصر، والجمع بينه وبين

(١) تنبيه الخاطر: ١٠٣.

(٢) عرائس المجالس: ١٢٩.

إخوته . . . ﴿**لأولي الألباب**﴾ لذوي العقول.

فينبغي أن نأخذ منها الدروس النافعة، وأن تشدّنا للإنقياد لأوامر الله جل جلاله، والأخذ بما أمر به، والإنتهاء عما نهى عنه، والاقتداء بأوليائه، والله سبحانه الموفق والهادي للصواب.

النبي أيوب عليه السلام

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر/١ ـ ٣].

الصبر

الصبر: هو توطين النفس على تحمل المشاق من دون جزع. يقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء.

فصبر الطاعة لما فيها من تكاليف ومتاعب للمكلّف، يجب عليه أن يصبر على تحملها ليفوز برضا الرب جلّ جلاله؛ وعلى سبيل المثال: الحج، وفيه تحمّل وعثاء السفر، وتحمّل حرّ الحجاز، والجهد في تأدية المناسك مع الزخم البشري الهائل، وغير ذلك مما يحتاج إلى الصبر والمثابرة.

والصبر عن المعصية: فالنفس أمّارة بالسوء، وتميل للإنزلاق، وتهوى الرذيلة، وتألف المعصية، والصبر هو الزمام لها، يوقفها عند حدّها، ويمنعها عن التمادي في غيّها.

وصبر على البلاء: فالدنيا دار بلاء واختبار، فيها فقدان الأحبّة، وذهاب المال والصحّة، وغير ذلك من عوارض الحياة، فعليه أن يتحمّل ذلك بعزم وإيمان.

وأعلم أنّ بالصبر تنال الدرجات الرفيعة، والمقامات السامية، وحسبنا الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/١٠].

وصبر الأنبياء عليهم السلام هو من النوع الثالث «الصبر على البلاء» فهم لا يحتاجون إلى صبر على الطاعة، فهم على غرار ما يقول أمير المؤمنين عليه السلام : ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك؛ وحتّى انّهم كلّفوا أنفسهم العبادة التي لم يفرضها الله عزّ وجلّ عليهم، فقد تطوّعوا بكثرة الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات.

ونحن إذا أخذنا سيرة الأئمة عليهم السلام ـ وهم يشبهون الأنبياء في السيرة ـ وحديث عبادتهم، فقد استفاضت الأخبار بأن الإمام أمير المؤمنين، والإمام الحسين، والإمام علي بن الحسين عليهم السلام ، كان كل منهم يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة[1]، علمنا أن عبادة الأئمة والأنبياء عليهم السلام وفق نموذج خاص لا يشبه ما نحن عليه.

وموضوع المعصية، فهم معصومون من كل قبيح، منزّهون عن كل رذيلة، بهذا جاءت الآثار وحكم به العقل، فتحقّق صبرهم عليهم الصلاة والسلام على بلاء الدنيا ومحنها؛ ولو تصفّحت حياة الأنبياء عليهم السلام جميعاً لوجدتها محفوفة بالمكاره والمتاعب والأذى، فقد تصدّى لهم جبابرة كل عصر ليحولوا بينهم وبين تبليغ رسالاتهم، وجنّدوا كل طاقاتهم في ذلك، حتى ان أسماءهم صلوات الله عليهم اقترنت بأسماء الجبابرة الذين عاصروهم، فأنت إذا ذكرت ابراهيم عليه السلام ذكرت الطاغية نمرود، وإذا ذكرت موسى عليه السلام ذكرت فرعون، وإذا ذكرت محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت أبا جهل، وهكذا كانوا جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم، علماً أنّ ذلك لم يزدهم إلاّ ثباتاً وعزماً ومضيّاً على تبليغ الرسالة.

وقد تكون بلواهم من جهات أخرى كما ابتلى يوسف عليه السلام بكيد إخوته، وبعدها بزليخا والسجن، وقد تكون بشكل آخر كما ابتلي أيوب عليه السلام ، فقد ابتلاه الله تعالى بفقد الأولاد والمال، ثم بالمرض العضال، رفعاً للدرجات، وتعليماً لكل فرد من الأمة على التأسّي في البلاء الذي يصيبه بالأنبياء عليهم السلام ؛ وفي

(١) الغدير: ٥/ ٢٥؛ العقد الفريد: ٤/ ٣٨٤؛ بحار الأنوار: ١٠/ ١٤٥ (الطبعة القديمة)؛ الخصال: ٥١٧؛ مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٥١.

الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أعظم الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل[١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه[٢].

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: مثل المؤمن كمثل كفّتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلاّ ابتلاهم[٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: في كتاب علي عليه السلام: إنّ أشد الناس بلاءً النبيّون، ثم الوصيّون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنّما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه، وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك أنّ الله عزّ وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبةً لكافر، ومن سخف دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن المتّقي من المطر إلى قرار الأرض[٥].

نتحدث في هذا الفصل عن نبي الله أيوب عليه السلام وبلائه.

تبدأ قصّته بشكره الكثير للمنعم جلّ جلاله، فقد اتّصف بكثرة الشكر، وكان سبحانه وتعالى يشكر له ذلك.

قال الإمام الصادق عليه السلام لأبي بصير وقد سأله عن بلية أيوب عليه السلام لأيّ علّة كانت، قال: لنعمة أنعم الله عليه بها في الدنيا، وأدّى شكرها، وكان في ذلك لا يحجب إبليس من دون العرش، فلمّا صعد ورأى شكر أيوب نعمة ربّه حسده إبليس وقال: يا رب إنّ أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمة إلاّ بما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدّى إليك شكر نعمة أبداً، فسلّطني على دنياه حتّى تعلم

(١) تفسير البرهان: ٤/ ٣٥.
(٢) أمالي الشيخ المفيد: ٦٣.
(٣) إرشاد القلوب: ١٠/ ١٩٩.
(٤) مشكاة الأنوار: ٢٩٨.
(٥) علل الشّرائع: ٤٤.

أنّه لا يؤدِّي إليك شكر نعمة أبداً.

فقيل له: قد سلطتك على ماله وولده، فانحدر إبليس فلم يبق له مالاً ولا ولداً، فازداد أيوب لله شكراً وحمداً.

قال: سلّطني على زرعه قال: قد فعلت، فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق، فازداد أيوب شكراً وحمداً.

فقال: يا رب سلطني على غنمه، فسلّطه على غنمه فأهلكها، فازداد أيوب شكراً وحمداً.

قال: يا رب سلّطني على بدنه، فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه، فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه، فبقي على ذلك عمراً طويلاً يحمد الله ويشكره[1].

ورواية الثعلبي: وأيوب على ما به لا يفتر عن ذكر الله تعالى، والثناء عليه، والصبر على ما ابتلاه الله، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض فزعاً من صبر أيوب، فلما اجتمعوا عليه قالوا له: ما حاجتك؟

قال لهم: أعياني هذا العبد، سألت ربّي أن يسلّطني على ماله وولده، فلم أدع له مالاً ولا ولداً، فلم يزده ذلك إلاّ صبراً وثناءً على الله، ثم سلّطت على جسده فتركته قرحة ملقىً على كناسة لا يقربه إلاّ امرأته، وقد افتضحت من ربّي فاستعنت بكم لتعينوني عليه.

فقالوا: أين مكرك، أين علمك الذي أهلكت به من مضى؟!

قال: بطل ذلك كله في أيوب، فأشيروا عليّ[2].

المرأة الصالحة

عندما نذكر نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يتبادر الذهن إلى زوجته الصالحة (رحمة

---

(١) تفسير البرهان: ٤/ ٥١.

(٢) عرائس المجالس: ١٦١.

بنت نبيِّ الله يوسف) رضوان الله عليها، وموقفها من زوجها المبتلى.

فقد ذكر أهل السير والتأريخ أنّ أهل البلد بتحريضٍ من الشيطان أخرجوا أيوب عليه السلام من بلدهم، ولم يكن معه أنيس سوى زوجته، فقد كانت تمرّضه وتقوم بما يلزمه من طعام وشراب، وكانت المشكلة أن ليس معها مال للنفقة، فكانت تباشر الخدمة في بيوت أهل البلد ليعطوها ما تتقوّت به وزوجها.

وهذا اللون من البلاء لو تأمّلته لوجدته أشد الأشياء، فهي ابنة نبيٍّ، وزوجة نبيٍّ، تزاول هذا اللون من العمل برحابة صدر، لترجع بأرغفة يسيرة إلى زوجها، فيعيشان بها.

وطبيعي أنّها كانت رضوان الله عليها دونه في الإيمان، فالأنبياء عليهم السلام هم أفضل الناس إيماناً ومعرفة وهدى، لذا كانت تطلب منه أن يدعو بالفرج، ويجيبها: ويلك أرأيت ما تبكي عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحّة، من أنعم به علينا؟

قالت: الله.

قال: فكم متّعنا به؟

قالت: ثمانين سنة.

قال: ويلك، والله ما عدلت ولا انصفت ربّك ألا صبرت في هذا البلاء الذي ابتلانا به ربّنا ثمانين سنة كما كنّا في الرخاء[1].

الدعاء

والدعاء هو من خصائص الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فهم الذين علّموا البشرية على هذا النهج، وتركوا لهم من هذه التراث النفيس الشيء الكثير؛ وأنت حين تقرأ كتب السير والحديث والدعاء تطالعك أدعيتهم الكثيرة.

نذكر من أدعية نبيِّ الله أيوب عليه السلام:

(١) عرائس المجالس: ١٦١.

اللّهم إنّي أعوذ بك اليوم فأعذني، وأستجير بك اليوم من جهد البلاء فأجرني، وأستغيث بك اليوم فأغثني، وأستصرخك اليوم على عدوّك وعدوّي فأصرخني، وأستنصرك اليوم فانصرني، وأستعين بك اليوم على أمري فأعنّي، وأتوكّل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني، وآمن بك فآمنّي، وأسألك فأعطني، وأسترزقك فارزقني، وأستغفرك فاغفر لي، وأدعوك فاذكرني، وأسترحمك فارحمني[(١)].

عاقبة الصبر

إنّ امرأته الصالحة أصبحت تمتهن الخدمة في بيوت الناس، لكن الشيطان لم يكتف من آل أيوب بهذه النكبات كلّها، لا سيّما ونبيَّ الله لم يزدد إلاّ شكراً لله تعالى، ووجد عدو الله ثغرة جديدة فدخلها.

فعن ابن عباس رضوان الله عليه قال: إنّ إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته إلى مداواة أيوب.

فقال: أداويه على أنّه إذا برأ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاءً سواه.

فقالت: نعم، فأشارت إلى أيوب بذلك فحلف ليضربنّها[(٢)].

وحسب مجرى الحادثة إنّها لما رأت غضبه ذهبت عنه، وضاق بنبيٍّ الله الأمر، فأعظم شيء يؤلم الأنبياء عليهم السلام هو السلوك المعوج لمن يُفترض أن يكون سلوكه مستقيماً، استعظم أيوب عليه السلام إشارة زوجته عليه بأن يقبل عرض الطبيب، فكان المطلوب منها أن تستنَّ بأبيها ابراهيم الخليل عليه السلام حيث يقول: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ **[الشعراء/٨٠]**.

لهذا وغيره ضاقت به الحال فتوجّه إلى كشّاف الكرب جلّ جلاله: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ **[ص/٤١]**.

---

(١) مهج الدّعوات: ٣٠٩.

(٢) قصص الأنبياء: ٢٢٨.

وفي الحال هبط جبرائيل عليه السلام قائلاً: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص/٤٢] فنبعت له في الحال عينان[١] اغتسل بواحدة فزال ما بجسمه من أذى، وشرب من الأخرى فارتوى؛ وأمره جبرائيل أن يضرب زوجته بعذق نخل تكون عيدانه مائة كي لا يحنث في يمينه، ويغفر لها هذه الهفوة لأن عطفها عليه أنساها تبعة كلامها.

لم تستطع المرأة الصالحة أن تطيل الغيبة على زوجها، فعادت فرأت شخصاً على أحسن وأجمل ما يكون، فسألته: يا عبدالله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟

فقال لها: وهل تعرفينه إذا رأيتيه؟

فقالت: نعم، وكيف لا أعرفه، فتبسم وقال: ها أنا هو، فعرفته لما ضحك فاعتنقته.

قال ابن عباس: والذي نفسي بيده ما فارقته من عناقه حتى مرّ بهما كل ما كان لهما من المال والولد[٢].

وتتابعت نعم الله عليهما ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص/٤٣].

ويقول ابن عباس: ردّ الله على المرأة شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكراً، وكان له سبعة بنين وسبع بنات أحياهم الله له بأعيانهم[٣].

هكذا كانت عاقبة الصبر سعادةً في الدنيا ونعيماً في الآخرة، يضاف إلى ذلك الذكر الحسن في كتاب الله العزيز، يتلوه المسلمون آناء الليل وأطراف النهار، ليأخذوا منه الدروس والعبر.

---

(١) في العراق وبالتّحديد في محافظة الحلّة عينان في مكانٍ واحد يقصدهما النّاس للإستشفاء بمائهما ويزعمون أنهما اللّتان نبعتا لأيّوب عليه السلام؛ فاغتسل وشرب.

(٢) عرائس المجالس: ١٦٠.

(٣) قصص الأنبياء: ٢٣١.

في العرض القرآني المجيد

القرآن الكريم ذكر أيوب عليه السلام في أربع سور، نذكر من ذلك:

(١)

١ - ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ **[الأنبياء/٨٣]**.

وينبغي للإنسان عندما يُصاب بنكبة أن يتوجّه إلى الله تعالى في تفريجها، ويفزع إليه في كشفها، فهو القائل: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ **[النمل/٦٢]**.

إِنَّ نبيَّ الله أيوب عليه السلام وإن كانت مصيبته عظيمة جداً، وهي حتّى اليوم مضرب المثل في العظم؛ لقد أصيب نبيّ الله بنكبات، وبلايا لا يطيقها إلاّ الخلّص من الأولياء، ولكنّه صلوات الله عليه لم يسأل جلّ جلاله كشف ما به تأدّباً، واحتساباً للأجر والثواب، كانت زوجته الحرّة (رحمة بنت نبيّ الله يوسف عليه السلام) تطلب منه أن يدعو الله جلّ جلاله أن يكشف ما به من ضرّ فيقول لها:

مكثنا في النعمة ثمانين عاماً، فلنمكث في البلاء مثلها.

ولكن حدث أمر لم يكن بالحسبان تضايق منه صلوات الله وسلامه عليه وتوجّه إلى الله داعياً.

٢ - ﴿فاستجبنا له﴾:

إنّ الذي فتح باب الدعاء وأمر به لم يبخل بالإجابة، ولكن أحياناً تقتضي الحكمة الإلهية بعدم الإجابة أو تأخيرها لمصالح لا نعرفها، كمن يسأل الله سبحانه سيارة ويعلم الله أن حتفه فيها، أو يسأل الله سبحانه مالا ويعلم الله أن هلاكه فيه، فلا يستجيب له، وثمة شيء آخر نحن ندعو من دون توجّه، خلافاً لما أمرنا به:

يحكى عن أحد سلاطين الإسلام أنه زار إحدى العتبات المقدسة فوجد أعمى

يتوسّل بالله تعالى في إرجاع بصره، فسأله منذ كم تدعو؟ فأخبره بالمدّة.

فقال له: أنا الملك...، أطوف مرّة حول المرقد الشريف فإن وجدتك لا تزال أعمى قتلتك.

توجّه الرجل توجّهاً كاملاً للدعاء، خوفاً على نفسه من القتل، فما هي إلاّ لحظات حتى عاد إليه بصره بأحسن ما يكون.

نعود للآية:

﴿فاستجبنا له﴾: أجبنا دعاءه ونداءه **﴿فكشفنا ما به من ضرّ﴾** أزلنا ما به من الأوجاع والأمراض.

٣ ـ ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾:

وعندما تقتضي الإشاءة، وتحصل الاستجابة يكون العطاء أضعاف المسألة، كمن يدعو ويسأل الله جلّ جلاله داراً فيرزقه داراً وبستاناً، أو يسأله زوجة فيرزقه زوجة وأولاداً؛ وربّك يعطي ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ **[هود/١٠٨]**.

لقد استجاب الله جلّ جلاله لعبده أيوب عليه السلام، فكشف ما به من ضرّ، وأيضاً أحيى له أهله الذين هلكوا في النكبة، ورزقه آخرين، وكذلك ردّ عليه أمواله التي ذهبت، وأعطاه مثلها معها.

(٢)

١ ـ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص/٤١].

ومنزلة العبودية منزلة رفيعة جداً لا ينالها إلاّ ذو حظ عظيم، تأمّل التشهّد في الصلاة (أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله) قدّم العبودية على الرسالة تعظيماً لأمرها، وحثّاً لكل فرد من أفراد الأمّة أن يسعى بجهده للحصول عليها؛ وهي وإن كانت أنفس ما في الكون إلاّ أن تحصيلها هيّنٌ، ويتأتى لكل أحد.

٢ ـ ﴿إذ نادى ربّه﴾:

وهكذا ينبغي للمسلم حينما تسوء حاله، وتتكالب عليه الدنيا وأهلها، أن يلجأ إلى الكريم الرؤوف، الحنّان المنّان، كاشف الكرب، ومفرّج الغم، غياث المستغيثين، وينبغي له أن لا يستعين بأحد سواه.

تعلّم رعاك الله من أيوب عليه السلام وقد اشتدّ به الحال **﴿إذ نادى ربه﴾** دعا ربّه رافعاً صوته قائلاً يا رب **﴿مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾** بمكروه ومشقّة.

٣ ـ ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾:

لقد وصل به الحال إلى وضعٍ لا يوصف، وأجهده البلاء، وعجز عنه الأطباء، وخاف أهل البلد منه العدوى فأخرجوه من بينهم، ولكنّه في اللحظة التي دعا فيها ربّه نبعت له عينان، اغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى، وإذا هو أصح الناس جسماً، وأحسنهم وجهاً، وحتى ان زوجته التي فارقته قبل قليل لتحضر له طعاماً لم تعرفه لمّا عادت إليه.

٤ ـ ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾:

إنَّ عطاء الله جلّ جلاله لا تحيط به العقول، ولا تبلغ كنهه الأفكار؛ فهذا أيوب عليه السلام فقد أولاده كلّهم في نكبته، كما فقد جميع مواشيه وزراعته وأمواله، وبعد فترة الامتحان التي خرج منها مرفوع الرأس ردّ الله جل جلاله أهله الذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم، وكذلك ردّ الله سبحانه عليه أمواله ومواشيه بأعيانها، وأعطاه مثلها معها.

٥ ـ ﴿رحمة منا وذكرى لأولي الألباب﴾:

المراد من الآية الكريمة أنّ الله سبحانه فعل ذلك به رحمةً به، ولأجل أن يأخذ ذوو العقول من ذلك دروساً وعبراً، فيصبروا على المصائب والنكبات، ويلجأوا إلى الله سبحانه عند الشدائد والملمّات، ويفزعوا إليه في المهمّات.

٦ ـ ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾:

والدنيا كلّها تنكّرت لنبي الله أيوب عليه السلام، ولم يبق له منها إلاّ زوجته، فهي التي تطبّبه وتسهر على رعايته، وتأتيه بطعامه بعد جهد مضنٍ.

وحدث أمر مفاجىء استوجب غضبه عليها، وحلف إن عوفي ليضربنّها مائة جلدة.

فهي رضوان الله عليها لما دهمها من عظيم حال زوجها نسيت أن هذا القول ينافي الدين، وأن من هو دون أيوب عليه السلام لا يتفوّه به.

وبعد أن عوفي أمره الله جلّ جلاله أن يضربها بضغث ـ وهو ملء الكف من الشماريخ وما أشبه ذلك ـ دفعة واحدة كي لا يحنث في يمينه.

٧ ـ ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أواب﴾:

فالدنيا دار امتحان وبلاء، يختبر الله جلّ جلاله عباده فيها بالنوائب والمكاره ليتبيّن صبرهم، فيثيبهم على ذلك، ويجزل لهم العطاء، ومعنى (أوّاب) رجّاع إلى الله، منقطع إليه.

النبي شعيب عليه السلام

تمهيد

هذه صفحات قليلة من حياة نبيِّ الله شعيب عليه السلام، كما هي لمحة مختصرة من سيرة مجتمعه، والأمة التي بُعث إليها، وبيان كفرهم وتركاضهم في الضلال، وعدم استجابتهم لداعي الحق حتى نزل بهم البلاء، وحلّ بهم الدمار، وما أُعدّ لهم أعظم من ذلك بكثير.

واعلم أنّ الكثير من المفسرين وأهل السير يذهبون إلى أنّه صلوات الله وسلامه عليه بعثه الله إلى أمتين: أهل مدين، وأصحاب الأيكة[1]، وبعضهم الآخر يرى أنّ أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجر الملتف.

البكاء من خشية الله تعالى

هذا نهج أولياء الله وأحبائه، وسيرة السلف الصالح، ويكفيك من ذلك ما ورد في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول ضرار بن ضمرة الكناني لمعاوية بن أبي سفيان لما طلب منه أن يصف أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم[2]، ويبكي بكاء

(١) عرائس المجالس: ١٦٥.
(٢) السَّليم: الملسوع.

الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا...[1].

بل هو المطلوب من المسلم، فقد جاء عن الصادقين عليهم السلام:

١ ـ فمن وصية له صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها عني... والرابعة: كثرة البكاء من خشية الله، يُبنى لك بكل دمعة ألف بيت في الجنة[2].

٢ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام لنوف البكالي: يا نوف إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافةً من الله عزّ وجلّ قرّت عيناك غداً بين يدي الله تعالى، يا نوف إنّه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلاّ أطفأت بحاراً من النيران.

يا نوف ليس من رجل أعظم منزلة عند الله عزّ وجلّ من رجل بكى من خشية الله، وأحبّ في الله، وأبغض في الله[3].

٣ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: ما من شيء إلاّ وله كيل ووزن إلاّ الدموع، فإنّ القطرة منها تطفىء بحاراً من النار، فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قتر ولا ذلّة، فإذا فاضت حرّمه الله على النار، ولو أنّ باكياً بكى في أمّة لرحموا[4].

وأنت أيّها القارئ ربّما لم تُحط بأبعاد موضوع البكاء من خشية الله تماماً، ولكن لو تأمّلته جيداً اتضح لك وجه الصواب، فإنّ من كانت هذه حاله فهو في حصانة من أن يتلاعب به الشيطان أو يكيده، أو يدفع به إلى مهاوي الضلال.

نعود فنذكر بعض ما جاء في سيرة نبيّ الله شعيب عليه السلام:

إنّ كل من ترجم له ذكر كثرة بكائه حتى ذهب بصره، ونحن نكتفي بهذه الرواية:

---

(١) صفة الصّفوة: ١/ ١٢٢.

(٢) روضة الكافي: ٧٩.

(٣) فلاح السائل: ٢٤٢.

(٤) أصول الكافي: ٥٢٣.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله عزّ وجلّ حتّى عمي، فردّ الله عزّ وجلّ بصره، ثم بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك.

فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عقد حبّك على قلبي، فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هذا هكذا، فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران.

قال الصدوق رضي الله عنه: يعني بذلك: لا أزال أبكي أو أراك قد قبلتني حبيباً [1].

خطيب الأنبياء

إنَّ الله جلّ جلاله وهب لرسله جميع الطاقات، وحلاّهم بجميع الكرامات، ووهب لهم معالي الأخلاق، ومحاسن الصفات، كل ذلك لأجل أن ينتشلوا عباده من طريق الضلال، ويأخذوا بأيديهم إلى شاطىء السلامة والنجاة.

إنّ جل من كتب عن شعيب عليه السلام وصفه بأنّه خطيب الأنبياء[2].

إشارة إلى حسن بيانه، وبديع كلامه، وأسلوبه الجميل في مراجعة قومه ووعظهم، ولكن مع الأسف الشديد إنَّ ذلك لم يجد فيهم نفعاً، ولم يزدهم إلاّ بعداً.

قست القلوب فلم تمل لهداية
تبّاً لهاتيك القلوب القاسيه

(١) علل الشّرائع: ٣١.
(٢) بحار الأنوار: ١٢/٣٨٦.

بخس المكيال

إعلم رعاك الله وسددك أنّ من أهم الأمور التي تُسأل عنها بين يدي الله هي حقوق الآخرين، فالحذر ثم الحذر أن تتجاوز ذلك وتعتدي على حقوق غيرك، وتبخس الناس حقوقهم.

وأزيدك علماً أنّ إحدى سور القرآن الكريم تسمى (سورة المطففين) وهي في التحذير من نقص المكيال والميزان، وحتّى ورد أنّ الله سبحانه لا يغفر لهؤلاء وإن تابوا إذا لم يرضوا الذين سرقوهم.

وكل من كتب عن قوم شعيب عليه السلام ذكر بخسهم المكيال، والقرآن الكريم ذكر ذلك أيضاً ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود/٨٤].

وأنا لا أدري أكفرهم أدّى بهم إلى نقص المكيال والميزان، أو أنّ الشيطان تدرّج بهم ونقلهم من نقص المكيال إلى الكفر؟ لأنّه يتدرّج مع الإنسان بالصغائر حتى يوقعه في الكبائر.

داهنوا أهل المعاصي

وهذا أمر في غاية الأهمية، وقد حذّر منه الإسلام أشدّ الحذر، ويكفي من ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة[1].

وهذا عين الحكمة، وأحسن السبل لاستصلاح أهل الضلال، بل إنَّ هذا السلوك مع العصاة يجعل بقيّة الناس تستقيم وتترك مجالات الشيطان حذراً من مقت المجتمع لهم.

---

(١) وسائل الشيعة: ١١/٤١٣.

ومن المؤسف أنّنا تركنا هذا الأمر كما تركنا غيره من تعاليم الإسلام، فبعضنا يداهن الفاسقين لا سيّما إذا كانوا من وجوه الناس أو الحاكمين.

إنّ الحديث الآتي يكشف خطورة الأمر، وأنّه تعرّض لغضب الله جلّ جلاله:

قال الإمام الباقر عليه السلام : أوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام : إنّي معذّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم.

فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟!

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي[١].

رسل الحق

من يتصفّح سيرة نبيِّ الله شعيب عليه السلام يجد أسماءً لبعض رسله ومبعوثيه إلى الأمم يدعوهم إلى الإسلام، وأنّ هؤلاء المبشّرين لقوا حتفهم على أيدي الطغاة والجبارين[٢].

وهذا نهج الأنبياء صلوات الله عليهم، بل هو نهج جميع المصلحين، والدعاة إلى الله جلّ جلاله.

العذاب

وجميع الأمم الكافرة أخذها الله جلّ جلاله في الدنيا بأشد العذاب، مضافاً لما أعدّ لهم من جحيم لا يوصف، وعذاب دائم لا يفتر ولا يخفف عنهم وهم فيه مبلسون.

إنّ الله جلّ جلاله يقص علينا عذاب الأمم لنحذر أن ينزل بنا ما نزل بهم، وما البراكين التي تحل بالمجتمع، وسيوف الظالمين التي تقطر دماً إلاّ بعض مظاهر العذاب، والحديث: كيف ما تكونوا يولّى عليكم.

---

(١) وسائل الشيعة: ١١/٤١٦.

(٢) أنظر قصص الأنبياء للجزائري: ٢٥٦.

نعود فنذكر ما نزل بأمّة شعيب عليه السلام من العذاب:

فعن أمين الإسلام: أرسل الله عليهم وقدة[1] وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء، وأنضجهم الحرّ، فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيّبة، فوجدوا برد الريح وطيبها وظل السحابة فتنادوا: عليكم بها، فخرجوا إلى البريّة، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً، وهو عذاب يوم الظلّة، عن ابن عباس وغيره من المفسرين[2].

في العرض القرآني المجيد

والقرآن الكريم ذكر شعيباً عليه السلام في إحدى عشرة آية، كما ذكر قومه (مدين) في مواضع كثيرة من كتابه العزيز.

نذكر في هذه الصفحات من ذلك:

(١)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف/ ٨٥].

الأمم العاتية أشبه بالمرضى، فمريض يعاني مرضاً واحداً، وآخر يعاني مرضين، وثالث يعاني عدّة أمراض، وكذلك هؤلاء فبعضهم اكتفى بالكفر ـ وناهيك به جريمة ـ وبعضهم ضمّ إليه خصالاً أخرى، وكأنّ الشيطان لم يكتف منهم بذلك فزادهم خبثاً وبعداً؛ ومن هؤلاء مدين، فتراهم وقد أحدقت بهم القبائح والجرائم، فمن عبادة أصنام، إلى بخس في المكيال والميزان، إلى أذى المؤمنين.

يذكر المؤرّخون أنّه كانت لفرعون خصلة جيّدة وهي تمشيط ذقنه، ولم

---

(١) الوقدة = النار.

(٢) مجمع البيان: ٤/ ٤٥٠.

يعجب بها الشيطان، فأراد أن يسلخه عن كل فضيلة، فحبّذ له أن يزيّن ذقنه ـ لا سيما وهو ربٌ ـ ببعض الأحجار الكريمة، ففعل ذلك فتعذّر عليه عندئذٍ التمشيط.

فالشيطان لا تنتهي مطامعه بالعباد، ومحاولاته أن يسلبهم من كل خير، وأن يقذف بهم في كل شرّ.

نعود للآيات:

﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً**﴾ وهو شعيب بن ميكيل بن يشحب بن مدين بن ابراهيم، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله**﴾ وحده ﴿**ما لكم من إله غيره**﴾ فتعبدوه ﴿**فأوفوا الكيل والميزان**﴾ أتمّوا ما تكيلونه على الناس بالمكيال، وما تزنونه عليهم بالميزان، والمراد: أدّوا حقوق الناس على التَّمام في المعاملات ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ لا تنقصوهم حقوقهم ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾ لا تعملوا في الأرض بالمعاصي، واستحلال المحارم بعد أن أصلحها الله سبحانه ببعثة الأنبياء، وتعريف الخلق مصالحهم ﴿**ذلكم**﴾ الذي أمرتكم به ﴿**خير لكم**﴾ أعود عليكم ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ مصدّقين بالله ﴿**ولا تقعدوا بكل صراط توعدون**﴾ كانوا يقعدون على طريق من قصد شعيباً للإيمان به فيخوفونه بالقتل ﴿**وتصدّون عن سبيل الله من آمن به**﴾ تمنعون عن دين الله من أراد أن يؤمن به من الناس ﴿**وتبغونها عوجاً**﴾ تريدون الإعوجاج، والعدول عن القصد ﴿**واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم**﴾ كثّر عددكم ﴿**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ فكّروا في عواقب أمر عاد وثمود، وقوم لوط، وإنزال العقاب بهم، واستئصال شأفتهم، وما حلّ بهم من البوار ﴿**وإن كان طائفة**﴾ جماعة ﴿**منكم آمنوا بالذي أُرسلت به**﴾ صدّقوني في رسالتي، وقبلوا قولي ﴿**وطائفة لم يؤمنوا**﴾ لم يصدّقوني ﴿**فاصبروا حتى يحكم الله بيننا**﴾ خاطب الطائفتين ومعناه: لا يغرنّكم تفرّق الناس عنّي، فإن جميل العاقبة لي، وسيجزي الله كل واحد من الفريقين بما يستحق على عمله في الدنيا أو الآخرة ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ لأنه لا يجوز عليه الجور، ولا المحاباة في الحكم؛ وهذا وعيد لهم.

ثم أخبر سبحانه عما دار بينه وبين قومه ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه**﴾ رفعوا أنفسهم فوق مقدارها ﴿**لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من**

قريتنا﴾ نخرجنّك وأتباعك من المؤمنين بك من بلدتنا التي هي وطنك ومستقرّك **﴿أو لتعودنّ في ملّتنا﴾** تدخل في ديننا **﴿قال أولو كنّا كارهين﴾** انكم لا تقدرون على ردّنا إلى دينكم على كره منّا **﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم بعد إذ نجّانا الله منها﴾** بأن نحلَّ ما تحلّونه، ونحرّم ما تحرّمونه، وننسبه إلى الله تعالى، بعد إذ نجّانا الله تعالى منها بأن أقام الدليل والحجّة على بطلانها، وأوضح الحقّ لنا **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربّنا﴾** إلاّ أن يشاء الله أن يمكّنكم من إكراهنا فنعود إلى إظهارها مكرهين **﴿وسع ربّنا كلَّ شيء علماً﴾** أحاط علمه بكلِّ شيء **﴿على الله توكّلنا﴾** من الانتصار منكم، ومن كل شيء **﴿ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾** أحكم بيننا وبينهم **﴿وأنت خير الفاتحين﴾** خير الحاكمين والفاصلين.

ثم حكى الله سبحانه ما قالت الجماعة الكافرة الجاحدة بآيات الله **﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾** قال الرؤساء منهم لعامة الشعب **﴿لئن اتبعتم شعيباً﴾** في دينه، وتركتم دينكم **﴿إنّكم إذاً لخاسرون﴾** الخسران: ذهاب رأس المال، فكأنّهم قالوا: إن اتبعتموه كنتم بمنزلة من ذهب رأس ماله **﴿فأخذتهم الرجفة﴾** بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا **﴿فأصبحوا في دارهم﴾** في منازلهم **﴿جاثمين﴾** ميّتين، ملقين على وجوههم **﴿الذين كذّبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾** كأنّهم لم يقيموا بها قط، لأن المهلك يصير كأن لم يكن **﴿الذين كذّبوا شعيباً﴾** عاد اللفظ تأكيداً وتغليظاً **﴿كانوا هم الخاسرين﴾** دون من آمن به **﴿فتولّى عنهم﴾** شعيب؛ والمراد: أعرض عنهم لمّا رأى إقبال العذاب عليهم إعراض الآيس منهم **﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي﴾** في ما أمرني فلم تؤمنوا **﴿ونصحت لكم﴾** فلم تقبلوا. والمراد: إنّ ما نزل بكم من البلاء وإن كان عظيماً فقد استوجبتم ذلك بجنايتكم على أنفسكم **﴿فكيف آسى﴾** فكيف أحزن **﴿على قوم كافرين﴾** حلّ العذاب بهم مع استحقاقهم له.

(٢)

١ ـ **﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ [هود/٨٣].**

ومدين اسم القبيلة التي بُعث إليها شعيب عليه السلام، وقد يكون اسم المدينة، أو اسمهما معاً، وضبط موقعها بعضهم فقال: قرية من أرض معان من أطراف الشام.

بعث الله شعيباً بما بعث به الأنبياء من قبل **﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾**[1].

٢ ـ ﴿لا تنقصوا المكيال والميزان﴾:

والشيطان حينما يخرج الإنسان من حظيرة الإيمان بالله تعالى يحاول أن يكثر عليه الموبقات، ويركسه في مهوى عميق لا يستطيع الخروج منه.

إنّك حين تستعرض قصص الأمم المعذّبة تجدهم جمعوا مع الشرك بالله تعالى صنوف الموبقات والعظائم. إنّ الخبيث حبّذ لكل أمة ما يناسبها من طرق الضلال، ووسائل الإجرام، فكان نصيب أهل مدين نقص المكيال والميزان.

وقد تتصور أنّ ذلك هيّن وهو عند الله عظيم، وأنّه يؤدّي إلى الشحناء والعداوة، فأنت تحقد كل الحقد على من أعطاك دون حقّك، أو أخذ منك أكثر من حقّه، ولو لم يكن في نقص المكيال والميزان إلاّ ذلك لكفى به جريمة، فالحقد والعداوة يكمن خلفهما سفك الدماء، ونهب الأموال، وهتك الأعراض.

٣ ـ ﴿إني أراكم بخير﴾:

إنّكم تعيشون في خصب ورخص، فلا تتعرّضوا لغضب الله تعالى وسخطه، فيبدل الخصب بالجدب، والرخص بالغلاء، ومن وراء ذلك عذاب غليظ.

إنّ الله جلّ وتعالى يبتلي عباده عند تركهم خط الاستقامة، وإصرارهم على المعاصي ببلايا الدنيا وعقوباتها، لأنّها مهما عظمت فهي دون عذاب الآخرة، ولكي يرجعوا وينيبوا إلى الطاعة.

---

(١) لأنَّ عبادة الله جلَّ جلاله النِّظام الذي يسعد به الخلق في الدنيا: تحفظ به النفوس والأموال، وتصان به الأعراض؛ وتُرعى به الحقوق؛ كما انَّها السبب الأوَّل والأخير للحصول على المنازل الرَّفيعة في الآخرة.

٤ ـ ﴿بقية الله خير لكم﴾:

يتصوّر الملتوون في المعاملات، والذين ينهجون طريق الإختلاس والسرقة والربا والغش، أنّهم لا يمكنهم أن يعيشوا بغير ذلك، بينما الإستقامة في العمل أنفع لهم في الدنيا فضلاً عن الآخرة، لأنّ الإنسان يبتعد بطبعه عمن سرق منه، أو غشّه.

إنّ الإستقامة في المعاملة تغني الإنسان في الدنيا بكثرة المتعاملين معه، وتحفظه في الآخرة من أليم العقاب.

ويقول أمين الإسلام الطبرسي في شرح الآية الكريمة **﴿بقية الله خير لكم﴾** البقية: بمعنى الباقي، أي ما أبقى الله تعالى لكم من الحلال بعد إتمام الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف **﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾** وما أنا بحافظ نعم الله تعالى عليكم أن يزيلها عنكم، وإنما يحفظها الله عليكم فاطلبوا بقاء نعمه بطاعته.

٥ ـ ﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾:

لقد حذّرهم نبيُّ الله أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المكذبة لأنبيائها **﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾** من الغرق **﴿أو قوم هود﴾** بالريح العقيم **﴿أو قوم صالح﴾** بالرجفة **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾** إن دارهم قريبة من داركم، فيجب أن تتعظوا بهم.

وأنت أعزّك الله جلّ جلاله اتعظ بهؤلاء الأمم، واتعظ أيضاً بمن تعرفهم ممن تنكبّ الطريق فهوى، فكم من سارق قتل وكم من زانٍ وخمّار مات في ريعان شبابه بعد أن عانى الأمراض الكثيرة.

تجنّب المعاصي والموبقات، حذراً من أن يصيبك ما أصابهم من العذاب فتخسر الدنيا والآخرة، ولو نجوت من عذاب الدنيا فلن تنجو من عذاب الآخرة، ولا يحجبك عنه إلاّ الموت، وأنت لا تعلم متى يوافيك.

٦ ـ ﴿استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه﴾:

ولعمري لو استجابوا لهذا الطلب لسلمت لهم دنياهم وأخراهم ولسعدوا

فيهما جميعاً، ولكن الشيطان فوّت عليهم فرصة العمر، وسعادة الأبد، حتى هلكوا ظالمين، وخُلّدوا في الجحيم.

٧ ـ ﴿إنّ ربّي رحيم ودود﴾:

وهذه من صفات الخالق العظيم، فهو رحيم بعباده، يقبل توبتهم، ويعفو عن معاصيهم، مُريد لمنافعهم، منعم عليهم؛ ولا أدل على ذلك من امهاله العصاة وهو الغالب القاهر، والمدرك الغلّاب، والعظيم الجبّار.

٨ ـ ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾:

أي إنّكم نسيتم الله جلّ جلاله ونسيتم تعاليمه وأوامره ونواهيه.

وهذه هي المشكلة العظمى التي نعانيها اليوم، إنّ عدم الاكتراث بأوامر الله جلّ جلاله، وترك العمل بها، يوجبان مقت الله سبحانه وعذابه، وحلول النقمة في الدنيا، والخلود في النار.

٩ ـ ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه﴾:

النجاة من الهلاك الدنيوي، والفوز في نعيم الجنان الذي حصل للأمم السالفة حصل لمن آمن بشعيب عليه السلام والهلاك والدمار الدنيوي الذي حصل للأمم الكافرة، والخلود في الجحيم في الآخرة، حصل لقوم شعيب عليه السلام **﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾** صاح بهم جبرائيل صيحة فماتوا **﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾** باركين على ركبهم ميتين.

وذكر ابن اياس كيفية العذاب: وأرسل الله على قوم شعيب ريحاً كادت تنسفهم نسفاً، فبادروا مسرعين إلى منازلهم من شدة الريح، وآمن بشعيب في ذلك اليوم خلق كثير، رجال ونساء، فأرسل الملك يهدّد من آمن، فقال شعيب: لا تخافوا، فأمر الملك (أبو حاد) أعوانه أن يترصّدوا لشعيب ومن آمن به ويقتلونهم، فعند ذلك قال شعيب: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالفتح وأنت خير الفاتحين، وإذا بريح قد هاجت عليهم فيها حرّ وكرب لا طاقة لهم بها، فرمى القوم أنفسهم في الآبار والسراديب، ودام عليهم مدة وهم لا يزدادون إلاّ عتّوا ونفوراً، وشعيب

يحذّرهم فيقولون: هذا من فعل آلهتكم فاصبروا، فأرسل الله عليهم الذباب الأزرق يلدغهم كلدغ العقارب، وربّما قتل أولادهم وشغلهم بأنفسهم عن أذى شعيب ومن آمن به وهم لا يؤمنون، فهبت عليهم ريح السموم فكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان ليجدوا لهم فرجاً من الكرب، وشعيب يناديهم: إلى أين تهربون فليس لكم إلاّ التوبة، فيقولون: يا شعيب نحن نكفر بك وبربّك، فزدنا لما نحن فيه؛ وإذا بسحابة سوداء قد ظلّتهم، فنصوا لهم ظلّة واستظلّوا جميعاً، فأظلمت الأرض عليهم حتّى لم يبصر بعضهم بعضاً، واشتدّ عليهم الحر، فأوحى الله إلى شعيب: أن أخرج أنت وقومك واعتزلهم، وانظر كيف يحل عذابي بهم، ثم رمت السحابة بوهجها وحرّها، وضربت القوم بعضهم في بعض، وأضرمت فأحرقت جلودهم وأكبادهم وجميع ما كان على وجه الأرض، والمؤمنون ينظرون إليهم، ولم يصل شيء من العذاب إلى المؤمنين، فذلك قوله تعالى: ﴿**ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه**﴾[1].

(٣)

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ **[الحجر/٧٨]**.

يذهب بعض المفسرين إلى أن شعيباً عليه السلام بُعث أوّلاً إلى مدين، وبعد هلاكهم بعث عليه السلام إلى أصحاب الأيكة.

ومن العجيب تعنّت البشر وطغيانهم، فأهل الأيكة كانوا على علم بما حدث لمجاوريهم (أهل مدين) من العذاب، وانَّ نبيّ مدين نفسه بُعث إليهم، فكان اللازم أن يتعقّلوا، ويلتزموا بنهج الحق والصلاح، ويتركوا التخبّط في الضلال، لكنّ الذي حدث هو العكس من ذلك حتّى وافاهم العذاب.

نعود للآيات:

﴿**وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين**﴾ وهم أهل الشجر الذين أرسل إليهم

---

(١) بدائع الزّهور: ١٢٥.

شعيب عليه السلام، لقد أرسل إلى مدين فأهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلّة، احترقوا بنارها.

لقد عاقبهم الله سبحانه بالحرِّ سبعة أيام، ثم أنشأ سبحانه سحابة فاستظلّوا بها، يلتمسون الروح فيها، فلمّا اجتمعوا تحتها أرسل منها صاعقة فأحرقتهم جميعاً **﴿فانتقمنا منهم﴾** جزيناهم على تكذيبهم **﴿وإنهما لبإمام مبين﴾** السورة المباركة تحدثت أوّلاً عن قوم لوط عليه السلام، وما نزل بهم من عذاب، ثم تناولت أصحاب الأيكة: والمراد بالآية: ان مدائن قوم لوط وشعيب عليهما السلام بطريق يؤم ويتبع، ويهتدى به، وسمّي الطريق إماماً لأن الإنسان يؤمّه.

(٤)

١ ـ ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء/١٧٦].

وهم قوم شعيب عليه السلام، ويحتمل أنّ الله سبحانه بعث إليهم أنبياء قبل شعيب فكذّبوهم، أو أنّهم بتكذيبهم لنبيّهم فقد كذّبوا جميع الأنبياء عليهم السلام، لأنّهم جميعاً رسل الله والقوّامون على دينه، وكلّهم دعاة إلى الهدى، وقادة إلى الرشاد، وأدلّاء على الخير والصلاح؛ فمن صدّق واحداً منهم فقد صدَّقهم جميعاً **﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة/١٣٦]**.

٢ ـ ﴿أوفوا الكيل﴾:

إنَّ الشيطان وإن نزع منهم أعظم فضيلة ألا وهي الإيمان بالله ورسله، إلاّ انه لم يتركهم وشأنهم، بل حبّذ إليهم خصالاً أخرى سيئة، لقد حبّذ إليهم التجاوز على الآخرين، وبخسهم حقوقهم، فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان، وهذه الجريمة شدّد عليها الإسلام، وأنزل سورة فيها **﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين/١ ـ ٣]**.

لهذا وغيره ينبغي للمسلم أن يبتعد كل البعد عن أموال الناس وحقوقهم، ولا

يتجاوز على صغيرها وكبيرها، ويرجع حقوق من له حقوق عنده، فإن لم يتمكّن من ذلك فيسترضيه.

٣ ـ ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾:

العثي: أشدُّ الفساد. والمراد: لا تسعوا في الأرض بالفساد، وهذه خصلة أخرى كانت عندهم أيضاً، وكأنّ الشيطان لم يكتف منهم بالكفر وبخس حقوق الناس لذا جعلهم أهل شغب وفساد.

٤ ـ ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلّة الأولين﴾:

ومعنى الجبلّة الأولين: الخلق الأولين والإنسان يكفيه أن ينظر إلى نفسه، وما متّع به من حواس تشهد أنّ لها خالقاً قادراً بصيراً حيّاً قيّوماً، أوجده بعد أن كان معدوماً، وهو الذي أوجد من سبقه من الخلائق.

إنّ هذا وحده يكفيه استقامة، وسلوكاً صحيحاً وسيراً على هدى الأبرار.

٥ ـ ﴿فاسقط علينا كسفاً من السماء﴾:

وكان ينبغي للأمم أن تستجيب لنداء السماء ومن دون حاجة لأن يأتيهم الأنبياء بآيات ومعاجز لما شاهدوه من حسن سيرتهم واستقامتهم، ولأنّهم لم يأمروهم إلاّ بمعالي الأخلاق، وصفات الكمال، فكيف وقد انضم إلى ذلك آيات ومعاجز هي شاهد صدق على دعواهم، وأنّهم رسل ربّ العالمين، ولكنّ هذا وغيره لم يؤثّر على تلك المجتمعات، وقابلوهم بأعنف ما تمكّنوا عليه، بل تحدّوهم **﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾** أي قطعاً من السماء، أو كما قالت قريش: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **[الأنفال/٣٢]**.

٦ ـ ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلّة﴾:

والله جلّ جلاله يمهل الظالمين ولا يهملهم، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ليكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم، كما إنَّ عذابهم الدنيوي دليل للأجيال على ما أعدّه

جلّ جلاله للكافرين والعصاة من أليم العذاب، وشديد النكال، إنّ الأيام التي نزل بها عذابهم كانت من أعظم أيام الدنيا عذاباً وأشدّها على الكافرين.

٧ ـ ﴿إن في ذلك لآية﴾:

إنّ ما نزل بهم من العذاب عبرة وموعظة لمن جاء بعدهم من الأمم، تدعوهم للإستقامة والاستجابة للرسل، وانّها انذار لهم من أن يحلّ بهم مثل ذلك إن هم بغوا وجاوزوا تعاليم السماء.

(٤)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت/٣٦].

في هذه السورة المباركة عرض لأمّة شعيب عليه السلام المعذّبة.

١ ـ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾:

فهو عليه السلام ابن عمّهم، ومن أشرافهم وساداتهم، وذلك أدعى لإيمانهم، لا سيّما وما يشاهدون من حسن بيانه، وجميل كلامه، فكان يسمّى خطيب الأنبياء.

٢ ـ ﴿يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر﴾:

تعساً لهم وبعداً لهم، لقد سألهم يسيراً، وبما يعود عليهم نفعه دنيا وآخرة.

طلب منهم عليه السلام أن يتوجّهوا إلى الله تعالى بالعبادة، ويتركوا عبادة أصنام لا تملك لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضرّاً، كما طلب منهم **﴿وارجو اليوم الآخر﴾** أمّلوا ثواب الآخرة، واخشوا عقابها، وذلك بفعل الطاعات، وتجنب السيئات **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** لا تسعوا في الأرض بالفساد.

٣ ـ ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾:

لم تنفع بهم المواعظ، ولم تردعهم المعاجز، لم يزدهم ذلك إلاّ بعداً وإعراضاً، وتكذيباً، فكان عاقبتهم **﴿فأخذتهم الرجفة﴾** بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً **﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** باركين على ركبهم ميّتين.

النبي الخضر عليه السلام

(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ **[الكهف/ ٦٠]**.

إنّ سبب اللقاء أنّ موسى عليه السلام سئل من أعلم الناس؟ فقال: أنا، ورواية الطبري: أنّ موسى عليه السلام قام في بني إسرائيل خطيباً، فقيل له: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فقال: بل عبد لي عند مجمع البحرين[١].

وهو صلوات الله عليه لم يبتعد عن الصواب، فالنبي يجب أن يكون أعلم الأمة، لا سيّما وهو أحد أولي العزم الذين تشمل رسالاتهم شرق الأرض وغربها، والأمر الآخر: إنّ الناس حينما يسمعون منه ذلك يكون تعلّقهم به أكثر، والتفافهم حوله أشد، وهذا ما يطلبه الرسل؛ ولكن الله جلّ جلاله يريد لأوليائه ورسله أن يتزيّنوا بالتواضع، لا سيّما وهم لم يحيطوا علماً بكل ما خلق جلّ جلاله، فلهذا وغيره أخبره بأنّ في الأرض من هو أعلم منه، وهنا يظهر نبل الرسول الكريم، فهو بمجرد أن علم بذلك سأل الله سبحانه أن يدلّه عليه ليتعلم منه.

فقال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل[٢] فحيث تفقده فهو هناك[٣].

---

(١) تاريخ الطَّبري: ١/ ٢٥٧.

(٢) المكتل: الكيس أو الزَّنبيل الكبير.

(٣) تاريخ الطَّبري: ١/ ٢٥٧.

إنَّ ذلك وحده يكفي طلاب العلوم، بل والعلماء في الحرص على طلب العلم، والرحلة من أجله، وعدم الاستنكاف من التعلّم، اقتداءً بنبيِّ الله موسى عليه السلام، لا سيّما والعلم في العالم ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ [**الإسراء/٨٥**]. وأُمرنا أن نطلب العلم من المهد إلى اللحد.

توجّه موسى عليه السلام مع تلميذه وخليفته يوشع بن نون عليه السلام إلى ملتقى البحرين: بحر فارس، وبحر الروم للأخذ من العالم عليه السلام.

نعود للآيات:

﴿**لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين**﴾ لا أزال أمضي وأمشي، ولا أسلك طريقاً آخر حتى أبلغ ملتقى البحرين ﴿**أو امضي حقباً**﴾ دهراً ﴿**فلما بلغا مجمع بينهما**﴾ فلما بلغ الموضع الذي يجتمع فيه رأس البحرين ﴿**نسيا حوتهما**﴾ ضلّ الحوت عنهما حين اتخذ سبيله في البحر سربا، فسمّي ضلاله عنهما نسياناً ﴿**فاتخذ سبيله في البحر سرباً**﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً يذهب فيه.

إن موسى وفتاه تزوّدا حوتاً مملوحاً، ثم انطلقا يمشيان على شاطىء البحر، حتى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر فأويا إليها، وعندها عين ماء تسمّى عين الحياة، فجلس يوشع بن نون وتوضّأ من تلك العين، فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء فعاش ووثب في الماء، وجعل يضرب بذنبه الماء، فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلاّ صار ماءً جامداً، وذلك معنى قوله: فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴿**فلما جاوزا**﴾ ذلك المكان ﴿**قال**﴾ موسى ﴿**لفتاه آتنا غداءنا**﴾ إنهما انطلقا بقية يومهما وليلتهما، فلما كان من الغد قال موسى ليوشع أعطنا ما نتغدّى به ﴿**لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً**﴾ تعباً وشدّة ﴿**قال**﴾ له يوشع عند ذلك ﴿**أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت**﴾ إنّ يوشع تذكّر قصة الحوت لما دعا موسى بالطعام ليأكل، فقال له: أرأيت حين رجعنا إلى الصخرة، ونزلنا هناك فإنّي تركت الحوت وفقدته ﴿**وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾ وذلك أنّه لو ذكر لموسى عليه السلام قصّة الحوت عند الصخرة لما جاوزها موسى، ولما ناله النصب الذي أشقاه ﴿**واتّخذ سبيله في البحر عجبا**﴾ سبيلاً عجباً، وهو أنّ الماء إنجاب عنه، وبقي كالكوّة لم يلتئم ﴿**قال ذلك ما كنّا نبغ**﴾ قال موسى: ذلك ما كنّا نطلب

من العلامة ﴿فارتدّا على آثارهما﴾ رجعا وعادا في الطريق الذي جاءا منه، يقصّان آثارهما ﴿قصصا﴾ القصص: تتبع الأمر، وهو رجوع الرجل من حيث جاء.

﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾:

وبعد جهد ليس بالقليل كان اللقاء، لقد وجد موسى ويوشع عليهما السلام عبداً من عباد الله قائماً على الصخرة يصلّي، وهو الخضر عليه السلام، واسمه بليا بن ملكان، وإنما سمي خضراً لأنه إذا صلّى في مكان أخضر ما حوله، سلّما عليه، فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل.

فقال له موسى: وما أدراك من أنا، ومن أخبرك أنّي نبيّ؟

قال: من دلّك عليّ.

قوله تعالى: **﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾** يعني النبوّة **﴿وعلّمناه من لدنّا علماً﴾** قال الإمام الصادق عليه السلام: كان عنده علم لم يكتب لموسى عليه السلام في الألواح، وكان موسى يظن أنّ جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته، وأنّ جميع العلم قد كتب له في الألواح[1].

٣ ـ ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾.

يتجلّى التواضع في أعظم صوره بنبيٍّ الله موسى بن عمران عليه السلام في لقائه مع العالم عليه السلام، وطلب التعلّم منه، ويقول أمين الإسلام الطبرسي: ومتى قيل: كيف يكون نبيٌّ أعلم من موسى في وقته؟

قلنا: يجوز أن يكون الخضر خصّ بعلم ما لا يتعلّق بالأداء، فاستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط، وإن كان موسى أعلم منه في العلوم التي يؤدّيها من قبل الله تعالى[2].

ومعنى الآية: تعلّمني علماً ذا رشد، والرشد: العلوم الدينية التي ترشد إلى الحق.

---

(١) مجمع البيان: ٦/٣٦٨.

(٢) مجمع البيان: ٦/٣٦٨.

ولاحظ أن موسى عليه السلام عظّمه بهذا القول غاية التعظيم، حيث أضاف العلم إليه، ورضي باتباعه، وخاطبه بمثل هذا الخطاب.

ولكن العالم يجيبه ﴿**إنّك لن تستطيع معي صبراً**﴾ يثقل عليك الصبر ولا يخف عليك؛ والسبب في ذلك: أنّ موسى عليه السلام كان يأخذ الأمور على ظواهرها، والخضر كان يحكم بما أعلمه الله من بواطنها، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك ﴿**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً**﴾ كيف تصبر على ما ظاهره عندك منكراً وأنت لم تعرف باطنه، ولم تعلم حقيقته؟ والخبر: العلم.

﴿**قال**﴾ موسى ﴿**ستجدني إن شاء الله صابراً**﴾ أصبر على ما أرى منك ﴿**ولا أعصي لك أمراً**﴾ تأمرني به، ولا أخالفك فيه.

وقال الزجاج: وفيما فعله موسى عليه السلام ـ وهو من جملة الأنبياء ـ من طلب العلم، والرحلة فيه، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، ويجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه[1].

وأخيراً وافق العالم بعد أن وضع شرطاً للتعلّم:

٤ ـ ﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾:

هذا هو الشرط الذي وضعه العالم عليه السلام والمعنى: لا تسألني عن شيء أفعله مما تكره ولا تعلم باطنه حتّى أكون أنا الذي أفسّره لك، فالسّياق يدل على أن العالم عليه السلام كان موكّلاً بمهمات يؤدّيها بأمر الله جلّ جلاله، لا يهتدي أحد إلى أسرارها، وانّ لله سبحانه وتعالى تدبيراً لبعض خلقه، ومنافع يسوقها لمن شاء من عباده سخّر العالم لتنفيذها.

٥ ـ بداية التعليم:

ذكر أهل السير والمؤرخون أنهما صلوات الله عليهما شاهداً عصفوراً نقر في الماء، فقال الخضر لموسى: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلاّ مقدار ما نقر

---

(١) مجمع البيان: ٦/٣٦٨.

العصفور من البحر[1].

٦ ـ ﴿حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾:

وانخرم الشرط في بداية الطريق، وعند أوّل مرحلة للتعليم، فقد كانا سلام الله عليهما على شاطىء البحر، وأرادا العبور إلى أرضٍ أخرى، فأتيا معبراً، فعرف صاحب السفينة العالم عليه السلام فحملهما، فلما ركبا في السفينة شقّها العالم حتى دخلها الماء، ولم يسع موسى عليه السلام السكوت، فقال معرّضاً ﴿**أخرقتها لتغرق أهلها**﴾ وتتبيّن عظمة الكليم عليه السلام فإنه لم يقل لنغرق، بل إنَّه أشفق على من فيها أكثر من إشفاقه على نفسه، وتابع كلامه وهو في نهاية الغضب: ﴿**لقد جئت شيئاً امراً**﴾ منكراً عظيماً.

ويجيبه العالم عليه السلام: ﴿**ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً**﴾ ألم أقل حين رغبت في اتباعي إنَّ نفسك لا تطاوعك على الصبر معي؟

فتذكّر موسى عليه السلام شرطه فاعتذر ﴿**لا تؤاخذني بما نسيت**﴾ بما غفلت من التسليم لك، وترك الإنكار عليك ﴿**ولا ترهقني من أمري عسراً**﴾ لا تكلّفني مشقّة، وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر، ولا تضيّق عليّ الأمر في صحبتي إيّاك.

٧ ـ الحدث العظيم:

الذي اهتز له نبيُّ الله موسى عليه السلام وأنكره على العالم أشدّ الإنكار، وقامت قيامته، وذلك إنَّهما خرجا من البحر وانطلقا يمشيان في البر، فلقيا غلاماً يلعب مع الصبيان ـ وكان أحسنهم وجهاً ـ فذبحه العالم عليه السلام بسكين، فقال موسى عليه السلام ﴿**أقتلت نفساً زكيّة**﴾ طاهرة من الذنوب ﴿**بغير نفس**﴾ بغير قتل نفس، والمراد: إنَّ الغلام لم يقتل أحداً حتى يجب عليه القود ﴿**لقد جئت شيئاً نكراً**﴾ أي قطعاً منكراً لا يُعرف في الشرع.

قال ذلك لأن قلبه صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله. ويجيبه العالم بكل

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ١٢٤.

هدوء: ﴿**ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً**﴾ أعاد هذا القول لتأكيد الأمر عليه، والتحقيق لما قاله أوّلاً، مع النهي عن العود بمثل سؤاله.

٧ ـ ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾:

عاد موسى عليه السلام معتذراً، وملتزماً أن لا يسأله عن شيء ﴿**قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني**﴾ فلا تتركني أصحبك ﴿**قد بلغت من لدنّي عذراً**﴾ أعذرت فيما بيني وبينك، وقد أخبرتني أنّي لا أستطيع معك صبراً.

وروي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية فقال: استحيى نبي الله موسى عليه السلام، ولو صبر لرأى ألفاً من العجائب[1].

﴿**فانطلقا حتى أتيا أهل قرية**﴾ على ساحل البحر، يقال لها (ناصرة) وبها سمّيت النصارى نصارى ﴿**استطعما أهلها**﴾ سألاهما الطعام ﴿**فأبوا أن يضيّفوهما**﴾ لم يضيفهما أحد من أهل القرية.

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: كانوا أهل قرية لئام.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: لم يضيفوهما ولا يضيفون بعدهما أحداً إلى أن تقوم الساعة[2] ﴿**فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض**﴾ أشرف أن ينهدم ﴿**فأقامه**﴾ فسوّاه ﴿**قال لو شئت لتخذت عليه أجراً**﴾ لما بخلوا عليهما الطعام، وأقام الخضر الجدار المشرف على الإنهدام، عجب موسى عليه السلام من ذلك فقال: لو شئت لعملت هذا الجدار بأجر تأخذه منهم حتى كنا نسد به جوعنا ﴿**قال هذا فراق بيني وبينك**﴾ هذا وقت فراق اتصالنا ﴿**سأنبّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً**﴾ سأخبرك بتفسير الأشياء التي لم تستطع على الإمساك عن السؤال عنها صبراً.

٨ ـ الرحمان الرحيم:

---

(١) مجمع البيان: ٦/ ٣٧٤.
(٢) مجمع البيان: ٦/ ٣٧٤.

يحكى أنّ شخصاً رأى عقرباً يعدو مسرعاً فتبعه حتى انتهى إلى شجرة ورجل نائم تحتها قد طوّقته حيّة عظيمة، ضربها العقرب فماتت لحالها وعاد مسرعاً.

تعجب الرجل من ذلك كثيراً، وأيقظ النائم وأوقفه على لطف الله جلّ جلاله بعباده، ورعايته لهم في نومهم ويقظتهم.

والذي يظهر من هذه القصة أن الله جلّ جلاله سخّر عبده الخضر عليه السلام لمصالح بعض العباد ورعايتهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

أخذ عليه السلام يخبر موسى عليه السلام عن تفسير ما حصل: ﴿**أمّا السفينة فكانت لمساكين**﴾ أمّا السبب في خرقي السفينة فهو أنّها كانت لفقراء لا شيء لهم يكفيهم ﴿**يعملون في البحر**﴾ يتعيّشون بها ﴿**فأردت أن أعيبها**﴾ أحدث فيها عيباً ﴿**وكان وراءهم**﴾[1] وكان قدّامهم ﴿**ملك يأخذ كل سفينة**﴾ صحيحة غير معيبة ﴿**غصباً**﴾ إنّما خرقتها لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها، ورقّعها أهلها بقطعة خشب فانتفعوا بها ﴿**وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين**﴾ وأما الغلام الذي قتلته فإنّما قتلته لأنه كان كافراً ﴿**فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً**﴾ فخفنا أن يحمل أبويه على الطغيان والكفر، بأن يباشر ما لا يمكنهما منعه منه، فيحملهما على الذبِّ عنه والتعصّب، فيؤدّي ذلك إلى أمور تكون مجاوزة للحد في العصيان والكفر ﴿**فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكاة**﴾ ولداً خيراً منه ديناً وطهارةً وصلاحاً ﴿**وأقرب رحماً**﴾ وأرحم بهما ﴿**وأما الجدار فكان**﴾ فإنّما أقمته لأنّه كان ﴿**لغلامين يتيمين في المدينة**﴾ في القرية المذكورة ﴿**وكان تحته كنز لهما**﴾ الكنز: هو كل مال مذخور من ذهب أو فضة وغير ذلك ﴿**وكان أبوهما صالحاً**﴾ بيّن سبحانه أنه حفظ الغلامين لصلاح أبيهما، وعن أبي عبدالله عليه السلام: أنه كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء.

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده، وأهل دويرته ودويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على

---

(١) كلمة ـ وراء ـ تطلق على من توارى عنك ولم تشاهده؛ سواء كان أمامك أم خلفك.

الله[1] ﴿**فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما**﴾ ينتهيا إلى الوقت الذي يعرفان فيه نفع أنفسهما، وحفظ مالهما، وهو أن يكبرا ويعقلا ﴿**ويستخرجا كنزهما رحمة من ربّك**﴾ نعمة من ربّك، والمعنى: انَّ كل ما فعلته رحمة من الله تعالى، والمراد: رحمة الله بهؤلاء المساكين وأبوي الغلام، واليتيمين ﴿**وما فعلته عن أمري**﴾ وما فعلت ذلك من قبل نفسي، وإنّما فعلته بأمر الله تعالى ﴿**ذلك**﴾ الذي قلته لك ﴿**تأويل ما لم تسطع عليه صبراً**﴾ ثقل عليك مشاهدته ورؤيته واستنكرته.

٩ ـ مكارم الأخلاق

ووانبياء الله جلّ جلاله من سنخ خاص، قد تحلّوا بالفضائل، واشتملوا على جميع المكارم، وبلغوا القمة في كل مجد وشرف.

إنّ القصة التي رواها أهل السير للخضر عليه السلام تنبىء عما كان عليه هذا العبد الصالح من نبل وخلق.

روى أبو أمامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ذات يوم لأصحابه: ألا أحدثكم عن الخضر؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: بينما هو يمشي في سوق من أسواق بني إسرائيل، أبصره مكاتب، فقال: تصدّق علي بارك الله فيك.

قال الخضر: آمنت بالله، ما يقضي الله يكون، ما عندي من شيء أعطيكه.

قال المسكين: بوجه الله، لمّا تصدقت عليَّ، إنّي رأيت الخير في وجهك، ورجوت الخير عندك.

قال الخضر: آمنت بالله، إنك سألتني بأمر عظيم، ما عندي من شيء أعطيكه، إلا أن تأخذني فتبيعني.

---

(١) مجمع البيان: ٦/ ٣٧٧.

قال المسكين: وهل يستقيم هذا؟

قال: الحق أقول لك، إنك سألتني بأمر عظيم، سألتني بوجه ربي عزّ وجل، أما إني لا أخيّبك مسألتي بوجه ربّي، فبعني.

فقدمه إلى السوق فباعه بأربع مائة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء.

فقال الخضر عليه السلام: إنما ابتعتني التماس خدمتي، فمرني بعمل.

قال: إني أكره أن أشقَّ عليك، إنك شيخ كبير.

قال: ليس تشقّ علي.

قال: فقم فانقل هذه الحجارة.

قال: وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم، فقام فنقل الحجارة في ساعته.

فقال له: أحسنت وأجملت، وأطقت ما لم يطقه أحد.

قال: ثم عرض للرجل سفر، فقال: إني أحسبك أميناً، فاخلفني في أهلي خلافةً حسنة، وإني أكره أن أشقّ عليك.

قال: ليس تشق علي.

قال: فاضرب من اللبن شيئاً ـ أو قال لَبّن ـ حتى أرجع إليك.

قال: فخرج الرجل لسفره ورجع وقد شُيد بناؤه.

فقال له الرجل: أسألك بوجه الله، ما حسبك وما أمرك؟

قال: إنك سألتني بأمر عظيم، بوجه الله عزّ وجلّ، ووجه الله عزّ وجلّ أوقعني في العبودية، وسأخبرك من أنا، أنا الخضر الذي سمعت به، سألني مسكين صدقة ولم يكن عندي شيء أعطيه، فسألني بوجه الله عزّ وجلّ، فأمكنته من رقبتي فباعني؛ فأُخبرك: إنه من سئل بوجه الله عزّ وجلّ، فردّ سائله وهو قادر على ذلك، وقف يوم القيامة، ليس لوجهه جلد ولا لحم ولا دم، إلاّ عظم يتقعقع.

قال الرجل: شققت عليك ولم أعرفك.

قال: لا بأس، أبقيت وأحسنت.

قال: بأبي أنت وأمي، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله عزّ وجلّ، أم أخيّرك فأخلّي سبيلك.

فقال: أحبّ إليّ أن تخلّي فأعبد الله، فخلّى سبيله.

قال الخضر: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية، وأنجاني منها[١].

١٠ ـ آثار الصديقين:

وما أكثرها في بلادنا الإسلامية، فمن مزار قائم، ومسجد لا يزال يتعبّد به، ووثيقة سماوية توارثها الخلف عن السلف.

إنّ هذه الآثار التي أبقاها الله جلّ جلاله عبر القرون المتطاولة ليزداد المؤمن برؤية معالمها إيماناً، ويكسب من ذلك أجراً.

ومن آثار نبيّ الله إدريس عليه السلام مسجد السهلة[٢] وهو منزله ومحل مصلاه وعمله، وهو أحد المساجد المعظّمة التي تقصد للصلاة من أطراف بعيدة، طلباً لما له من الفضل، لأنّه مصلّى الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ وذكر أهل الأدعية والمزارات لكل مقام منه صلاة ودعاء، فمن حديث للإمام الصادق عليه السلام: وما صلى فيه أحد فدعا الله بنيّة صادقة إلاّ صرفه الله بقضاء حاجته، وما أحد استجاره إلاّ أجاره الله مما يخاف منه[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: بالكوفة مسجد يقال له مسجد السهلة، لو أنّ

(١) أعلام الدِّين: ٣٥١.

(٢) يبعد عن مسجد الكوفة حوالي كيلو متر واحد؛ وعن النَّجف الأشرف حوالي ٨ كيلو مترات؛ وفيه مقام إبراهيم عليه السلام؛ ومقام الخضر عليه السلام؛ ومقام الإمام علي بن الحسين عليهما السلام ومقام الإمام الصَّادق عليه السلام ومقام الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ومقام الصالحين.

(٣) مفاتيح الجنان: ٤٠٤.

عمي زيداً أتاه فصلّى فيه، واستجار الله لأجار له الله عشرين سنة؛ فيه مناخ الراكب.

قيل: ومن الراكب.

قال: الخضر عليه السلام، وبيت إدريس النبي عليه السلام، وما أتاه مكروب قط فصلّى فيه ما بين العشائين، فدعا الله عزّ وجلّ إلاّ فرّج الله كربته[1].

١١ ـ وصايا الصديقين:

وصّى بها صادق صادقاً، ونبيٌّ نبيّاً أو إماماً أو عبداً صالحاً، لهذا يجب أن تعطى مكانتها من الكلام الرفيع، وتؤخذ للعمل والتطبيق، فهي لعمر الحق إكسير السعادة، ومنهج الهدى والسداد.

نذكر وصية الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام في فضل العلم وآدابه:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ موسى عليه السلام لقي الخضر عليه السلام فقال: أوصني.

فقال الخضر: يا طالب العلم إنّ القائل أقل ملالة من المستمع، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم، واعلم أنّ قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعرف الدنيا وانبذها وراءك وإنَّها ليست لك بدار، ولا لك فيها محل قرار، وأنّها جعلت بلغة للعباد ليتزودوا منها للمعاد.

يا موسى وطّن نفسك على الصبر تلق الحلم، واشعر قلبك التقوى تنل العلم، ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم.

يا موسى تفرّغ للعلم إن كنت تريده، فإنّما العلم لمن تفرّغ له، ولا تكونن مكثاراً بالنطق تكن مهذاراً؛ إنّ كثرة المنطق تشين العلماء، وتبدي مساوىء السخفاء، ولكن عليك بذي اقتصاد، فإنّ ذلك من التوفيق والسداد؛ وأعرض عن

---

(١) تهذيب الأحكام ٣/ ٢٥٢.

الجهال، واحلم عن السفهاء، فإنّ ذلك فضل الحلماء، وزين العلماء؛ إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه سلماً، وجانبه حزماً، فإنّ ما بقي من جهله عليك، وشتمه إياك أكثر.

يا ابن عمران لا تفتحنّ باباً لا تدري ما غلقه، ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه.

يا ابن عمران، من لا ينتهي مع الدنيا بهمته، ولا تنقضي فيها رغبته؛ كيف يكون عابداً، من يحقر حاله، ويتهم الله بما قضى له؛ كيف يكون زاهداً، يا موسى تعلم ما لا تعلم لتعمل به، ولا تعلمه لتحدّث به، فيكون عليك بوره، ويكون على غيرك نوره[1].

١٢ ـ أدعيته:

إن الله جلّ جلاله علّم عباده اللهجة التي يدعونه بها، ويقومون بين يديه بترديدها، فالقرآن الكريم اشتمل على آيات كثيرة في الدعاء، نذكر منها على سبيل المثال ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران/٨] ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة/٢٠١] ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران/٥٣].

ثم جاء دور الأنبياء والأوصياء عليهم السلام فامتلأت الدنيا بأدعيتهم؛ وأنت إذا علمت أنّ النقيب السيد علي بن طاووس ـ من علماء القرن السابع ـ له ما يناهز الثلاثين كتاباً في الأدعية أدركت ما نملكه من هذه الثروة التي بها تنال كرامة الدنيا والآخرة.

في هذه الصفحات بعض ما ورد من أدعية الخضر عليه السلام:

عن محمد بن الحنفية عليه الرحمة قال: بينا أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب عليه السلام يطوف بالبيت إذا رجل متعلّق بالأستار وهو يقول: (يا من لا يشغله

---

(١) تهذيب الأحكام، ٣/ ٢٥٢.

سمع عن سمع، يا من لا يغلّطه السائلون، يا من لا يبرمه إلحاح الملحّين، أذقني برد عفوك، وحلاوة معرفتك).

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا دعاؤك؟

قال له الرجل: وقد سمعته؟

قال: نعم.

قال: فادع به في دبر كل صلاة، فوالله ما يدعو به أحد من المؤمنين في أدبار الصلاة إلاّ غفر الله له ذنوبه ولو كانت عدد نجوم السماء وقطرها، وحصباء الأرض وترابها.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ علم ذلك عندي والله واسع كريم.

فقال له الرجل ـ وهو الخضر عليه السلام ـ صدقت والله يا أمير المؤمنين، وفوق كل ذي علم عليم[١].

٢ ـ روي أنّ الخضر والياس يجتمعان في كل موسم فيفترقان عن هذا الدعاء وهو: بسم الله ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ما شاء الله، كل نعمة من الله ما شاء الله، الخير كله بيد الله عزّ وجلّ، ما شاء الله، لا يصرف السوء إلاّ الله.

قال فمن قالها حين يصبح ثلاث مرات أمن من الحرق والسرق والغرق[٢].

٣ ـ ومن دعاء له عليه السلام:

يا شامخاً في علوّه، يا قريباً في دنوّه، يا مدانياً في بعده، يا رؤوفاً في رحمته، يا مخرج النبات، يا دائم الثبات، يا محيي الأموات، يا ظهر اللاجين، يا جار المستجيرين، يا أسمع السامعين، يا أبصر الناظرين، يا صريخ المستصرخين، يا عماد من لا عماد له، يا سند من لا سند له، يا ذخر من لا ذخر له، يا حرز من لا حرز له، يا كنز الضعفاء، يا عظيم الرجاء، يا منقذ الغرقى، يا منجي الهلكى، يا محيي الموتى، يا أمان الخائفين، يا إله العالمين، يا صانع كل مصنوع، يا جابر

---

(١) منية المريد: ٤٣.

(٢) أمالي الشيخ المفيد: ٩٢.

كل كسير، يا صاحب كل غريب، يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد، يا شاهداً غير غائب، يا غالباً غير مغلوب، يا حيّ حين لا حيّ، يا محيي الموتى، يا حي لا إله إلاّ أنت.

من قاله قولاً، أو سمعه سمعاً أمن الوسوسة أربعين سنة[1].

١٣ ـ يقلّبها كيف يشاء:

والدنيا لها خالق قادر حكيم يقلّبها كيف يشاء، وأنت ترى نفسك وما يحدث لها من تطوّر وتغيير، فمضافاً للأدوار التي تمر بها وجميع المخلوقين ما يحدث لك من يسر بعد عسر، وغنى بعد فقر، وفرج بعد شدة، وعافية بعد مرض، إلى تغيّرات كثيرة لا تحصى، وكذلك بالنسبة للعوالم الكبيرة فهي أيضاً معرّضة لذلك، وربما يكون التبديل والتغيير طبيعياً كبحر انقطعت روافده فجفّ، ومدينة نضب ماؤها فنزح أهلها، وقد يكون عن سخط وغضب كالذي حدث للأمم المعذّبة.

نعود فنذكر بعض مشاهدات الخضر عليه السلام:

السائح الأكبر

ولله جلّ جلاله تدبير في خلقه لا نحيط بأبعاده، ولا نُدرك تفصيله، وهو من أجلك، وللحفاظ على سعادتك الدنيوية والأخروية، فمن ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى ملائكة تزجر الناس عن المعاصي، وهو المراد بقوله تعالى ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ **[الصافات/٢]**.

ومصداق ذلك أنّك ربّما هممت بسلوك غير الطريق الذي رسم لك وأمرت بسلوكه، ولكن ما أسرع أن تتخلّى عن ذلك، وتلزم سمت الإستقامة والرشاد، وما ذلك إلاّ بدوافع القوى الخفيّة التي هيأها الله جلّ جلاله للحيلولة بينك وبين الشيطان وأعوانه، وأيضاً لله عباد في الأرض لا تراهم أنت، يقومون بمهام في الإصلاح، وإقامة معالم الخير والرشاد، وفي طليعة هؤلاء الخضر عليه السلام.

---

(١) مهج الدعوات: ٣١١.

إنّ الفترة القليلة من صحبته لموسى عليه السلام ظهر للناس جانب مما أُمر به عليه السلام، وأسند إليه من عمل.

ويظهر من هذه الصحبة وغيرها أنّ له عليه السلام مجالات واسعة جداً قد تستغرق العالم بأسره.

إنّ الرواية الآتية تشير إلى ما يحدث في الأرض من تقلّبات كبيرة، وتغيّرات واسعة، فقد تكون بعض بقاع الدنيا اليوم زاهرة بالعمران والسكان، وتكون في غد خاوية على عروشها، قد لفّ أهلها الفناء، علماً أنّ ذلك لممّا يزهّد في الدنيا، ويحد من السعي الحثيث في طلبها، والتكالب عليها.

نعود للرواية التي ذكرها الأبشيهي:

سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات؟

فقال: أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان. ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها، ولم أر أحداً أسأله، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت: أين المدينة التي ههنا؟

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنّه كان ههنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها فإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غوّاصون يستخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغواصين: منذ كم هذا البحر هنا؟

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا، إلاّ أنّ هذا البحر من عهد الطوفان.

فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه، وإذا مكانه غيضة

وصيّادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار، فقلت لبعضهم: أين البحر الذي كان ههنا؟

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنّه كان ههنا بحر.

فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك المكان فإذا هو بالمدينة على الحالة الأولى، والحصون، والقصور، والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التي كانت ههنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلاّ أنّ هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان.

فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها فإذا عاليها سافلها، وهي تدخّن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله، ثم أتيت راعياً فسألته: أين المدينة؟

قال: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلاّ أنّ هذا المكان هكذا منذ كان.

فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي، فسبحان مبيد العباد، ومفني البلاد، ووراث الأرض من عليها، وباعث من خلق منها بعد ردّه إليها[1].

١٤ ـ ويحضر أيضاً:

في كثير من بقاع الأرض مقامات للخضر عليه السلام تشير إلى صلاته فيها، وحتّى أنّ في جنوب العراق مدينة تحمل اسمه الشريف ومقامه فيها.

وهو أيضاً ربما حضر مؤبّناً؛ روى الحاكم بسنده عن أنس بن مالك قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدق به أصحابه، فبكوا حوله، واجتمعوا، فدخل رجل أصهب اللحية، جسيم، صبيح، فتخطّا رقابهم، فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنّ في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا، وإليه فارغبوا، ونظرة إليكم في البلاء

(١) المستطرف: ٥١٥.

فانظروا، فإنما المصاب من لم يجبر. وانصرف، فقال بعضهم لبعض تعرفون الرجل؟

فقال علي عليه السلام: نعم هذا أخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخضر عليه السلام[1].

كما حضر لتأبين أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ورد في كتب المزارات مجيئه إلى الكوفة.

فعن أُسيد بن صفوان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما كان اليوم الذي قبض فيه أمير المؤمنين عليه السلام ارتجّ الموضع بالبكاء، ودُهش الناس كيوم قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء رجل باكٍ وهو مسرع مسترجع وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة، حتى وقف على البيت الذي فيه أمير المؤمنين وقال: رحمك الله يا أبا الحسن، كنت أوّل القوم اسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم عناءً، وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وآمنهم على أصحابه، وأفضلهم مناقب، وأكرمهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأشبههم به هدياً وخُلقاً وسمتاً وفعلاً، وأشرفهم منزلةً، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعن المسلمين خيراً، قويت حين ضعف أصحابه، وبرزت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ همّ أصحابه، وكنت خليفته حقّاً، لم تنازع ولم تضرع برغم المنافقين وغيظ الكافرين وكره الحاسدين، وضغن الفاسقين، فقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتوا، ومضيت بنور الله إذ وقفوا، فاتبعوك فهدوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم قنوتاً، وأقلّهم كلاماً، وأصوبهم نطقاً، وأكبرهم رأياً، وأشجعهم قلباً، وأشدّهم يقيناً، وأحسنهم عملاً، وأعرفهم بالأمور. كنت والله يعسوباً للدين أولاً وآخراً، الأول حين تفرّق الناس، والآخر حين فشلوا، كنت للمؤمنين أباً رحيماً، إذ صاروا عليك عيالاً، فحملت أثقال ما عنه ضعفوا، وحفظت ما أضاعوا، ورعيت ما أهملوا، وشمّرت إذ اجتمعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ أسرعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا؛ كنت

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/٥٨.

للكافرين عذاباً صبّاً، ونهباً، وللمؤمنين عمداً وحصناً؛ فطرت والله بنعمائها، وفزت بحبائها، وأحرزت سوابقها، وذهبت بفضائلها، لم تفلل حجّتك، ولم يزغ قلبك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، ولم تخن؛ كنت كالجبل لا تحركه العواصف، وكنت كما قال عليه السلام آمن الناس في صحبتك وذات يدك، وكنت كما قال عليه السلام: ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، كبيراً في الأرض، جليلاً عند المؤمنين، لم يكن لأحدٍ فيك مهمز، ولا لقائل فيك مغمز، ولا لأحد فيك مطمع، ولا لأحدٍ عندك هوادة؛ الضعيف الذليل عندك قويٌّ عزيز حتى تأخذ له بحقّه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء؛ شأنك الحق والصدق والرفق، وقولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم فيما فعلت، وقد نهج بك السبيل، وسهل بك العسير، وأُطفئت بك النيران، واعتدل بك الدين، وقوي بك الإسلام والمؤمنون، وسبقت سبقاً بعيداً، وأتعبت من بعدك تعباً شديداً، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيّتك في السماء، وهدّت مصيبتك الأنام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلّمنا لله أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بمثلك أبداً؛ كنت للمؤمنين كهفاً وحصناً وقُنّة راسياً، وعلى الكافرين غلظة وغيظاً، فألحقك الله بنبيّه، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك.

وسكت القوم حتى انقضى كلامه، وبكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عليه السلام، ثم طلبوه فلم يصادفوه.

قال السيد: الرجل المذكور هو الخضر عليه السلام كما فهمه الأصحاب، ويظهر من اكمال الدين[1].

(١) عمدة الزائر: ١٠٢.

موسى عليه السلام

في حفظ الله

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص/٧].

نحن نفزع في مشاكلنا وحاجاتنا إلى الناس، وننسى أنَّ لنا ربّاً بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وفي قصّة موسى عليه السلام تتجلّى هذه الإشاءة والقدرة للجميع، ففرعون الطاغية أخبره منجّموه أنّ هلاكه على يد وليد من بني إسرائيل قد حان وقت ولادته، فأمر بذبح كل ولد يولد لهم، هذا وموسى عليه السلام بعد لم يولد، وإلى هذا أشار بنو إسرائيل في شكواهم إلى موسى عليه السلام فيما أصابهم: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف/١٢٩] إشارةً إلى قتل أولادهم من قبل الطاغية وذلك قبل ولادته عليه السلام.

وشاء المهيمن جلّ جلاله أن يولد موسى عليه السلام في الوقت الذي عيّنه المنجّمون لفرعون، وأكثر من هذا أن يكون بيت فرعون هو المأوى والسكن له، وأن يعيش في أحضان زوجته وبرعايته، كل هذا ليستيقن الخلق أنّ الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، فيتوجّهوا إليه بحاجاتهم، ويتوسلوا إليه بمهماتهم، ويقطعوا طمعهم عن غيره.

في العرض القرآني المجيد

إنّ اسم نبيِّ الله موسى بن عمران عليه السلام ورد في القرآن الكريم في ١٣٦

موضعاً، وفي هذا العرض قبس من ذلك؛ ثم انّك ستجد بعض الآيات في بني إسرائيل، وأخرى في فرعون وقومه، ولما كان كل ذلك مرتبطاً بالنبوّة أثبتناه في هذا الفصل.

(١)

١ ـ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة/٤٩].

لم يكن الإسرائيليون يحلمون يوماً بالنجاة من فرعون وعذابه، ولو قدّر أنّ شعباً آخر كان يعاني بعض ما كان يعانيه الإسرائيليون من فرعون، ثم تخلّصوا منه بهذا الإعجاز العظيم، لكانوا أعبد خلق الله تعالى وأتقاهم، ولكن هؤلاء طبعوا على الخلاف، وتأصّلت فيهم الوثنيّة، ولعل الأربعمائة سنة التي قضوها في عبودية فرعون كان لها الأثر النفسي فيهم الذي، لم يتغيّر بالرسالة والرسول.

٢ ـ ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾.

إنّ مشهد هلاك الطاغية وجيشه الجرار الذي شاهده بنو إسرائيل يكفي البشرية كلها إيماناً وحسن اعتقاد واستقامة، ولكنّهم وبعد لحظات يمرّون بقوم يعكفون على أصنام لهم فيعجبهم ذلك، فيقولون لنبيّهم **﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾**.

ويجيبهم عليه السلام وملء قلبه الأسى ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ **[الأعراف/١٣٨]** والواقع إنَّ الجهل هو داؤهم الأعظم، وداء كل متنكب عن طريق الاستقامة، ألا تسمع قول يوسف الصديق عليه السلام لإخوته ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ **[يوسف/٨٩]**.

فالجهل وحده هو الذي يؤدّي بالإنسان إلى المعصية، ثم يورده النار.

٣ ـ ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾.

وموضوع عبادة العجل، وبالكيفية التي حدثت لبني إسرائيل لم تحدث لأمة

من الأمم التي تقدمتهم أو تأخّرت عنهم.

صحيح انَّ أمماً كثيرة كانت ولا تزال تعبد أوثاناً ونيراناً، بل وحتى بقراً ـ كما هي الحال في كثير من بلاد الهند ـ ولكن الصورة التي حدثت لبني إسرائيل لا مثيل ولا شبيه لها في العالم كله.

فهم شاهدوا معاجز نبيِّهم، والآيات التسع التي ظهرت على يديه، وخاتمتها ما حلّ بآل فرعون وهم ينظرون، ثم يتركهم فترة قصيرة ليوافيهم بالتوراة، ويترك أخاه هارون عليه السلام بينهم نبيّاً ومرشداً، فيتنكّبوا الطريق، ويهووا إلى هذا المستوى من الإنحطاط.

حقاً إنّ ذلك من عجائب الدنيا، لهذا وغيره جاء التشديد في قبول توبتهم.

قال قتادة: جعل الله توبة عبدة العجل القتل، لأنهم ارتدّوا وكفروا، والكفر مبيح الدم، فلمّا أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره، وقالوا: نصبر لأمر الله، فجلسوا في الأفنية محتسبين، وأطلّ عليهم القوم بالسيوف والخناجر، فكان الرجل يرى أخاه وابنه وأباه وقريبه وجاره فلم يمكنه إلاّ امضاء أمر الله تعالى، فقالوا: يا موسى كيف نصنع؟

فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء حتى لا يبصر بعضهم بعضاً، وقيل لهم: من حلّ حبوته، أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلما كثر فيهم القتل، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً دعا موسى وهارون ربّهما، وجزعا وتضرَّعا، وقالا: يا رب هلكت بنو إسرائيل، البقية الباقية، فكشف الله السحابة عنهم، وأمرهم أن يرفعوا السلاح، ويكفّوا عن القتل[1].

٤ ـ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التواب الرحيم﴾.

إن الذنب كبير للغاية حيث اتخذوا العجل وعبدوه إلهاً، ونبيّهم بين أظهرهم

(١) عرائس المجالس: ٢١١.

يصرخ فيهم ﴿يا قوم إنّما فتنتم به﴾ ولا يلتفتون إليه.

إن بعض الآيات التي شاهدوها طيلة فترة الرسالة تكفي أهل الدنيا بأسرهم إيماناً واعتقاداً وكان ختامها المعجز الأكبر ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ **[البقرة/ ٥٠]**.

ولكن السليقة المعوّجة، والشذوذ الذي جبلوا عليه، والطبيعة التي طبعوا عليها، والنهج الفرعوني المتأصّل في نفوسهم طيلة أربعمائة سنة دعاهم إلى ذلك.

لهذا وغيره جاء التشديد في التوبة وهو القتل ليكون كفارة لذنوبهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **[النحل/١١٨]**.

نعود للآية الكريمة:

﴿و﴾ اذكروا **﴿إذ قال موسى لقومه﴾** الذين عبدوا العجل عند رجوعه إليهم **﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم﴾** أضررتم بأنفسكم، ووضعتم العبادة غير موضعها؛ وظلمهم إيّاها فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه، مما يستحق به العقاب، وكذلك كل من فعل فعلاً يستحق به العقاب فهو ظالم لنفسه **﴿باتخاذكم العجل﴾** بعبادتكم العجل **﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾** ارجعوا إلى خالقكم ومنشئكم بالطاعة والتوحيد، وجعل توبتهم الندم والعزم، مع قتل النفس جميعاً **﴿فاقتلوا أنفسكم﴾** ليقتل بعضكم بعضاً، يقتل البريء المجرم.

روي أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يقوموا صفين، فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم، وجاء هارون عليه السلام باثني عشر ألفاً ممن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار المرهفة، فكانوا يقتلونهم، ولما قتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقين، وجعل قتل الماضين شهادة لهم، وإنّما امتحنهم الله تعالى بهذه المحنة العظيمة لكفرهم بعد الدلالات والآيات العظام **﴿فتاب عليكم﴾** بعدما فعلتم ما أمرتم به **﴿إنه هو التوّاب﴾** قابل التوبة من عباده **﴿الرحيم﴾** بهم.

٥ ـ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾.

والمثل المعروف: حدّث عن بني إسرائيل ولا حرج، يُراد به كثرة تنكّبهم عن خط الاستقامة، وإسراعهم في البغي، وبعدهم عن مسار الهدى والصلاح، رغم الجهود المكثّفة لاستصلاحهم وهدايتهم، فهم أكثر الأمم أنبياء، كما إنَّ المعاجز والآيات التي شاهدوها أكثر مما شاهدها غيرهم.

والموضوع الذي أشارت إليه الآية الكريمة: هو أن نبيّ الله موسى عليه السلام اختار منهم سبعين شخصاً أخذهم معه للميقات، عندما وعده جلّ جلاله أن يعطيه التوراة، ليشهدوا له عند بني إسرائيل، لأنهم لم يثقوا بخبره أن الله سبحانه يكلّمه ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ **[الأعراف/١٥٥]** فلما حضروا الميقات، وسمعوا كلام الله قالوا: ﴿**يا موسى لن نؤمن لك**﴾ لن نصدّقك في قولك إنّك نبيّ مبعوث ﴿**حتى نرى الله جهرةً**﴾ علانيةً، فيخبرنا بأنّك نبيّ مبعوث.

ومما هو جدير بالذكر أن طلبهم الرؤية جاء بعد عبادتهم العجل ﴿**فأخذتكم الصاعقة**﴾ الموت ﴿**وأنتم تنظرون**﴾ إلى الناس.

وعن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام، فقال له المأمون: يابن رسول الله أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟

قال: بلى، فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أن قال له: فما معنى قول الله عزّ وجلّ ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني**﴾ الآية، كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أنّ الله تعالى ذكره لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟

فقال الرضا عليه السلام: إنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أنَّ الله تعالى لا يُرى بالأبصار، ولكنّه لما كلّمه الله عزّ وجلّ وقرّبه نجيّاً، رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عزّ وجلّ كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه، فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد

موسى عليه السلام إلى الطور، وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلّمه ويسمعهم كلامه، فكلّمه الله تعالى ذكره، وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأنّ الله عزّ وجلّ أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثاً منها حتّى سمعوه من جميع الوجوه.

فقالوا: لن نؤمن لك بأنّ هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرةً، فلما قالوا هذا القول العظيم، واستكبروا وعتوا، بعث الله عزّ وجلّ عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا.

فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنّك ذهبت بهم فقتلتهم؛ لأنّك لم تكن صادقاً فيما ادّعيت من مناجاة الله إيّاك، فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنّك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابك وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حق معرفته.

فقال موسى عليه السلام: يا قوم إنّ الله لا يُرى بالأبصار، ولا كيفية له، وإنّما يُعرف بآياته، ويُعلم بأعلامه.

فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله.

فقال موسى: يا رب إنّك قد سمعت مقالة بني إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحهم.

فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا موسى اسألني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى عليه السلام ﴿**ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني. فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين**﴾ منهم بأنّك لا تُرى.

فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن[1].

وهذه الآية الكريمة تفنّد مزاعم الذين يدّعون بأن من حق الأمة أن تجتمع

(١) التوحيد: ١٢٢.

وتنتخب لها إماماً ـ كما حصل في عصر سالف ـ، بل إن تعيين الإمام من قبل الله سبحانه وتعالى كما هو في شأن النبوة، لأن البشر مهما أوتي من العلم والفهم قد لا يحالفه التوفيق والاختيار، كما حدث ذلك لنبي الله موسى بن عمران عليه السلام، فقد وقع اختياره على الأدنى منهم وهو يحسبهم الأفضل.

٦ ـ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجّداً. . .﴾.

وكلّما مرَّ الزمن على بني إسرائيل ازدادوا عتوّاً وعناداً وبُعداً عن طريق الحق، رغم المعاجز التي يشاهدونها، والمنح الإلهية التي يُحبون بها؛ لقد أمروا بدخول بيت المقدس ووعدوا بنعيم الدنيا والآخرة ﴿**نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين**﴾ فمع هذا العطاء والوعد من الله ورسوله فقد أعرضوا أشدّ الإعراض ﴿**فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم**﴾.

في هذا المشهد تتجلّى حقيقة هذه الجماعة وما طبعوا عليه من الخلاف والبعد عن طريق الحق، وسوء السيرة، والاستهانة بأوامر السماء، والبغي، والاستعلاء، أتدري ماذا قالوا؟ لقد قالوا: حطا سمقانا، ومعناه: حنطة حمراء فيها شعيرة، وكان قصدهم في ذلك الاستهزاء، ومخالفة الأمر.

وعجل الله سبحانه عليهم في الانتقام ﴿**فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾ وهو الطاعون، فقد مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً من كبرائهم وشيوخهم.

٧ ـ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربّك يُخرج لنا مما تنبت الأرض﴾.

الدنيا مليئة بالعجائب والغرائب، وأشدّها غرابة ما يتعلّق ببني إسرائيل، فهم في كل شيء قد خالفوا الاستقامة والسداد، بل وحتّى الذوق السليم، ومن هذه الغرائب ـ وما أكثرها ـ أن الله سبحانه وتعالى تفضّل عليهم بالمن؛ وهو نوع من الحلوى يسقط من السماء على أشجارهم فيجتنونه، والسلوى وهي المرعة: طائر أبيض حسن اللون، طويل الرجلين بقدر السماني يقع في المطر من السماء.

ولكن سوء السليقة جعلتهم يقولون لنبيّهم: لن نصبر على طعام واحد، ويتجلى سوء اختيارهم حيث طلبوا ﴿**يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها**﴾.

ويجيبهم عليه السلام: ﴿**قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾ أتتركون ما اختار الله لكم، وتؤثرون ما هو أدنى وأردى؟ ﴿**اهبطوا مصراً**﴾ الديار المصرية التي خرجوا منها ﴿**فإن لكم**﴾ فيها ﴿**ما سألتم**﴾ من نبات الأرض ﴿**وضربت عليهم الذلّة**﴾ لزموا الذلة إلزاماً ﴿**والمسكنة**﴾ زي الفقر، فترى الثَّري منهم يتباءس، ولا يوجد يهودي غني النفس.

٨ ـ ﴿**ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلكم تتّقون**﴾.

وهذا مورد من الموارد الكثيرة التي خالفوا فيها الله ورسوله، وجانبوا تعاليم السماء حتى أُكرهوا على قبول ما أُمروا به.

قال أبو زيد: هذا حين رجع موسى من الطور فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئتكم بالألواح وفيها التوراة، والحلال والحرام فاعملوا بها.

قالوا: ومن يقبل قولك؟

فأرسل الله عزّ وجلّ الملائكة حتى نتقوا الجبل فوق رؤوسهم.

فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلاّ أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة، وسجدوا لله تعالى ملاحظين إلى الجبل، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شقَّي وجوههم.

قوله ﴿**خذوا ما آتيناكم**﴾ يعني التوراة ﴿**بقوّة**﴾ بجدّ ويقين لا شكّ ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ يعني احفظوا ما في التوراة من الحلال والحرام ولا تنسوه ﴿**لعلّكم تتقون**﴾ كي تتقوني إذا فعلتم ذلك، وتخافوا عقابي، وتنتهوا إلى طاعتي، وتنزعوا عما أنتم عليه من المعصية.

(٢)

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة/١٢].

ويظهر أنَّ موضوع النقباء والميثاق أول ما استعمل مع بني إسرائيل كمحاولة جديدة لربطهم بخط السماء. والميثاق: هو العهد المؤكّد باليمين بإخلاص العبادة لله تعالى، والإيمان برسله، وما يأتون به من الشرائع.

والنقباء: وهم اثنا عشر، من كل سبط منهم نقيب وهو ضامنٌ بأن يفوا بالعهد والميثاق الذي أُخذ عليهم.

وهذان الأمران لو تأمّلهما متأمّل وجدهما من أحسن الروابط وأوثقها في الانضباط والإلتزام بنهج الحق والصواب، فبعد هذا التقنين جاء عطاء السماء **﴿إني معكم﴾** بالنصر والحفظ، أنصركم على أعدائكم الذين أمرتكم بقتالهم.

وجاءت الشروط التي يجب مراعاتها ليستوجبوا العطاء.

﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ يا معشر بني إسرائيل **﴿وآتيتم الزكاة﴾** أعطيتموها **﴿وآمنتم برسلي﴾** صدّقتم بما اتيتكم به رسلي من شرائع ديني **﴿وعزرتموهم﴾** عظمتموهم ووقرتموهم وأطعتموهم **﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾** أنفقتم في سبيل الله وأعمال البر **﴿لأكفرنّ عنكم سيئاتكم﴾** لأغطينّ على ما مضى من اجرامكم بعفوي **﴿ولأدخلنكم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾** تتخللها أنهار جارية **﴿فمن كفر بعد ذلك منكم﴾** بعد بعث النقباء، وأخذ الميثاق **﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾** أخطأ قصد الطريق الواضح، وزال عن منهاج الحق.

ثم عطف سبحانه على ما تقدّم فقال **﴿فيما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم﴾** واللعن: هو الطرد من الرحمة، والبُعد عن الفيوضات الإلهية.

فهذا نبيّنا العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع ما أعطاه الله سبحانه من القابلية على

التحمّل، والصبر على النكبات، كان بحاجة إلى تسلية لما يعانيه من اليهود ومشاكستهم وكيدهم وعداوتهم وبعدهم عن الإيمان.

والمراد من الآية الكرية: لا تعجبنّ يا محمد من هؤلاء اليهود، الذين همّوا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك، وينكثوا العهد الذي بينك وبينهم، ويغدروا بك، فإنّ ذلك دأبهم، وعادة أسلافهم الذين أخذت ميثاقهم على طاعتي في زمن موسى عليه السلام، وبعثت منهم اثني عشر نقيباً، فنقضوا ميثاقي وعهدي، فلعنتهم بنقض ذلك العهد والميثاق.

قوله: ﴿**وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾ يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق ولا تلين، ومعناه: سلبناهم التوفيق واللطف الذي تنشرح به صدورهم حتّى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿**يحرّفون الكلم عن مواضعه**﴾ يفسّرونه على غير ما أنزل، ويغيّرون صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**ونسوا حظّاً مما ذكّروا به**﴾ وتركوا نصيباً ممّا وعظوا به، ومما أمروا به في كتابهم من اتّباع النبي، فصار كالمنسّي عندهم، ولو آمنوا به واتبعوه لكان ذلك لهم حظّاً ﴿**ولا تزال تطلع على خائنة منهم**﴾ يعني على كذب وزور، ونقض عهد، ومظاهرة للمشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وغير ذلك مما كان يظهر من اليهود من أنواع الخيانات ﴿**إلاّ قليلاً منهم**﴾ لم يخونوا ﴿**فاعف عنهم واصفح**﴾ ما داموا على عهدك ولم يخونوك ﴿**إنّ الله يحب المحسنين**﴾.

٢ ـ ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [**المائدة/ ٢٠**].

ذكر سبحانه في هذه الآيات محاولة نبيّه موسى عليه السلام في نشر رسالة السماء وتعميمها على بعض القرى المجاورة، لا سيّما وهو من أولي العزم، والمراد: إن رسالته تلزم البشرية جمعاء، فقد بدأ حديثه مع جنوده وهو يعبئهم للحرب بذكر نعم المولى عليهم، لأنّ ذكرها في مثل هذا الموقف يشحذ العزيمة، ويدعو للإستجابة لأمر السماء.

نعود للآية الكريمة:

﴿**وإذ قال موسى لقومه**﴾ واذكر يا محمد إذ قال موسى لهم ﴿**يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ وأياديه لديكم، وآلاءه فيكم ﴿**إذ جعل فيكم أنبياء**﴾ يخبرونكم

بأنباء الغيب، وتُنصرون بهم على الأعداء، ويبيّنون لكم الشرائع ﴿**وجعلكم ملوكاً**﴾ بأن سخّر لكم غيركم يخدمونكم ﴿**وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين**﴾ أعطاكم ما لم يؤتِ أحداً من عالمي زمانكم.

ثم كلّفهم سبحانه دخول الأرض المقدّسة بعد ذكر النعم فقال: ﴿**يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة**﴾ وهي بيت المقدس والمقدسة: المطهّرة، طهرت من الشرك، وجعلت مكاناً وقراراً للأنبياء والمؤمنين ﴿**التي كتب الله لكم**﴾ كتب في اللوح المحفوظ أنّها لكم ﴿**ولا ترتدّوا على أدباركم**﴾ ترجعوا عن الأرض التي أمرتم بدخولها ﴿**فتنقلبوا خاسرين**﴾ الثواب في الآخرة؛ وإنّما قال ذلك لأنّهم كانوا أمروا بدخولها كما أمروا بالصلاة وغيرها، عن قتادة والسدّي.

ثم ذكر سبحانه جوابهم لنبيّهم ﴿**قالوا**﴾ يعني بني إسرائيل ﴿**يا موسى إنّ فيها**﴾ في الأرض المقدّسة ﴿**قوماً**﴾ جماعةً ﴿**جبّارين**﴾ شديدي البطش والبأس والخلق ﴿**وإنّا لن ندخلها**﴾ يعني لقتالهم ﴿**حتّى يخرجوا منها**﴾ يعني الجبّارين ﴿**فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون**﴾ إليها ﴿**قال رجلان**﴾ هما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا ﴿**من الذين يخافون**﴾ الله جلّ جلاله ﴿**أنعم الله عليهما**﴾ بالتوفيق للطاعة ﴿**ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون**﴾ ادخلوا على الجبّارين باب مدينتهم فإنكم ستنتصرون عليهم ﴿**وعلى الله فتوكّلوا**﴾ في نصرة الله على الجبارين ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ بالله، وما آتاكم رسوله من عنده.

أتدري ما كان جوابهم؟ ﴿**قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون**﴾.

إنّ الآيات التي شاهدوها من نبيّهم كانت مدعاة لهم إلى تمام الطاعة، وإن ما رأوه من معاجز ودلائل لو رآها شعب غيرهم ثم أمرهم نبيّهم أن يخوضوا البحر لخاضوه، أو يدخلوا نار نمرود لدخلوها، ولكنّهم شعب طبع على الخلاف والشقاق، إنّهم تهيّبوا من دخول المدينة مع انّ أهلها ليسوا بأعظم من آل فرعون، وقد أخذهم الله جلّ جلاله في ساعة أو بعضها ﴿**فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**﴾ **[البقرة/٥٥]** لهذا وغيره كان العقاب على تخلّفهم صارماً للغاية، ولم يعاقب به سبحانه أمّة قبلهم، مضافاً لما أعدّ لهم في يوم القيامة من العذاب، مما لا

يحيط به القلم، ولا يحدّه الفكر، وأنّه لأعظم مما يُتصوّر بكثير. وأعظم من تخلفهم هو ردّهم السيء على نبيّهم ﴿فاذهب﴾ يا موسى ﴿أنت وربّك فقاتلا﴾ الجبّارين ﴿إنّا ههنا قاعدون﴾ إلى أن تظفر بهم، وترجع إلينا، فحينئذٍ ندخل.

﴿قال﴾ موسى إذ غضب على قومه ﴿ربِّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي﴾ أي لا أملك إلاّ تصريف نفسي في طاعتك ﴿وأخي﴾ وأخي كذلك لا يملك إلاّ نفسه ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ فافصل بيننا وبينهم بحكم.

قال ابن عباس: إنّه سأله تعالى أن يحكم ويقضي بما يدل على بعدهم عن الحق والصواب فيما ارتكبوه من العصيان، ولذلك ألقوا في التيه[1].

﴿قال﴾ الله سبحانه لموسى عليه السلام ﴿فإنها محرّمة عليهم﴾ إنّ الأرض المقدّسة حرّمت عليهم ﴿أربعين سنة، يتيهون في الأرض﴾ يعني يتحيّرون في المسافة التي بينهم وبينها، لا يستهدون إلى الخروج منها، وكان مقدارها ستة فراسخ، كانوا يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا ﴿فلا تأسَ على القوم الفاسقين﴾ خطاب لموسى عليه السلام أمره الله تعالى أن لا يحزن على إهلاكهم لفسقهم.

(٤)

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف/١٠٣].

في هذه السورة المباركة أطول عرض وأجمعه لقصة موسى عليه السلام؛ استعرضت السورة آل فرعون من البداية حتى النهاية، كذلك مسيرة بني إسرائيل في العهد الفرعوني وفي ظل حكم الله جلّ جلاله.

١ ـ ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾:

إنَّ الغرض من هذه القصّة وبقية قصص القرآن الكريم أن يتأمّل المسلم ما آل إليه أمر المفسدين، وكيف انتهت مسيرتهم في الدنيا، وما أعدّ لهم في الآخرة من العذاب والنكال، ليأخذ من هذا وذاك دروساً تنفعه وينجو بها من الأهوال والعقاب.

---

(١) مجمع البيان: ٣/ ٣١٣.

٢ ـ ﴿وألقي السحرة ساجدين﴾:

جمعهم فرعون، ووعدهم أن يغدق عليهم الأرزاق، ويسني لهم العطاء، فبذلوا أقصى مجهودهم ﴿**وجاؤوا بسحر عظيم**﴾ وحتى أنّ النبيَّ العظيم ﴿**أوجس في نفسه خيفة**﴾ إنّه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم، فيتوهّموا أنّهم فعلوا مثل فعله، ويظنوا المساواة، فيشكّوا ولا يتبعونه.

وبعد أن ألقى عليه السلام عصاه وتلقّفت جميع ما في الوادي من الحيّات، ثم رجعت إلى حالتها الطبيعية ﴿**وألقي السحرة ساجدين. قالوا آمنا بربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون**﴾. وتعجّب فرعون والملأ من سرعة إيمانهم، فسألوهم عن ذلك. فقالوا: نحن أهل الفن والعلم، وإن ما جاء به موسى خارج عن مقدور الخلق كلّهم، ويستحيل أن يصدر من بشر مهما عظمت حيلته، وما هو إلاّ أمر السماء، وقد لزمتنا الحجّة، فآمنا به.

٣ ـ ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾:

كان هذا المشهد الإيماني من رجال الفن يكفي قوم فرعون أن يؤمنوا ويرجعوا إلى الحق، ويتباعدوا ولو قليلاً ـ عن فرعون، ولكنّهم قد تأصل فيهم الخبث، وعرّق فيهم الفسق، وكما وصفهم القرآن الكريم ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ**﴾ **[النمل/١٢]**.

فمن فسقهم أنهم قالوا لفرعون يدفعونه لقتلهم والتنكيل بهم: أتتركهم أحياء ليظهروا خلافك، ويدعو الناس إلى مخالفتك، ليغلبوك؟

٤ ـ ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾:

والحياة مليئة بالمصاعب، محفوفة بالمتاعب، منغَّصة بالظالمين، وينبغي للمؤمن أن يستعين بالله جلّ جلاله على قطعها بسلام، وأن يسأل الله سبحانه أن يسلّم له دينه قبل دنياه، لأنّه لو نجا من شرورهم مع تضييع الدين كانت المصيبة عليه أعظم ما يكون، وما فقد شيئاً من سلم له دينه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ما خير بخير بعده النار، وما شربشر بعده الجنة، وكل نعيم دون الجنة فهو فحقور، وكل بلاء دون النار عافية . نهج

البلاغة: الحكم القصار: ٣٨.

لقد كان الوقع الفرعوني شديداً على بني إسرائيل ﴿**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا**﴾.

ولكنه عليه السلام أحالهم إلى ركن وثيق ﴿**استعينوا بالله**﴾.

٥ ـ ﴿والعاقبة للمتقين﴾:

العاقبة: آخر كل شيء وخاتمته، وهي كما قال جلّ جلاله والعاقبة للمتقين. والمراد: انَّ النتيجة الحسنة هي للمتقين وحدهم في الدُّنيا، أمّا بالآخرة فلا اشكال في ذلك، بل هي محصورة بهم، لا يشاركهم فيها غيرهم، وأمّا في الدنيا فيكفيهم من ذلك الذكر الحسن، وإكبار الجميع لهم، وقد يجمع الله جلّ جلاله لهم الدنيا مع الآخرة.

٦ ـ ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلّهم يذكّرون﴾:

ومن لطف الله سبحانه وتعالى بعباده أنه لا يعاجلهم عند معاصيهم، وقد يريهم ألواناً من العذاب من أجل أن ينيبوا ويرجعوا إلى الإستقامة.

وهو جلّ جلاله لم يمهل أمَّة كما أمهل فرعون وقومه، ولم يرسل كوارث النقمة، وأفواج البلاء على أمّة كما أرسلنا عليهم، من أجل أن يرتدعوا ويستقيموا، ولكنّهم لم يستفيدوا من تلك المحن، ولم ينيبوا عند البلاء.

٧ ـ ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾:

لقد كان عنادهم بشكل غريب جداً، إنّ مواكب البلاء التي حلَّت بهم كان بعضها يكفيهم للاستقامة، ولكنّهم في أقصى جانب من العناد والبُعد عن الله ورسوله، فهم وبعد انصباب البلاء تراهم في قمة العناد.

٨ ـ ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم﴾:

كانت الآيات التسع التي شاهدوها من موسى عليهم تكفي العالم بأسره أن يتديّن ويخضع لقانون السماء، ولكنّهم ـ ومع الأسف ـ ظلّوا على بعدهم عن نهج الحق، وإمعانهم في الضلال وهم في كل مرة ينزل بهم البلاء والمكروه يكون مفزعهم نبيَّ الله موسى عليه السلام، فهم يتوسّلون به، ويعطونه عهداً وميثاقاً

بالاستقامة، ثم ينقضون عهدهم، ويعودون أشد مما كانوا ﴿**ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾.

٩ ـ ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم﴾:

والرجز: وهو العذاب، وقد ثقل على فرعون وقومه، فتعهدوا لموسى عليه السلام بأن يؤمنوا إذا كشفه عنهم، وفعلاً استجاب الله جلّ جلاله دعاء نبيّه، وكشفه عنهم، ولكنّهم نكثوا عهدهم، وساروا قدماً في الضلال ﴿**فلما كشفنا عنهم الرجز**﴾ رفعنا عنهم العذاب ﴿**إلى أجل هم بالغوه**﴾ يعني الأجل الذي عرّفهم الله فيه ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ ينقضون العهد؛ فعندها استوجبوا عذاب الاستئصال ﴿**فانتقمنا منهم**﴾ فجزيناهم على سوء صنعهم بالعذاب؛ ثمّ فسّر ذلك العذاب ﴿**فأغرقناهم في اليم**﴾ في البحر ﴿**بأنهم كذبوا بآياتنا**﴾ فعلنا ذلك بهم جزاء تكذيبهم بآياتنا وحججنا وبراهيننا الدالة على صدق موسى وصحّة نبوّته، وجحودهم لها ﴿**وكانوا عنها غافلين**﴾ معناه: أنّه أنزل عليهم العذاب، وكانوا غافلين عن نزول ذلك بهم.

١٠ ـ ﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً﴾:

وهذا الحدث العظيم الذي وقع لبني إسرائيل، ونجاتهم من أعظم طاغية عرفته الكرة الأرضيّة، وهلاكه وجيشه بمنظر منهم، وفي ساعة أو دونها كان المفروض أن يجعلهم أكثر الشعوب إيماناً وتقوى، ولكنّهم كانوا على شكلٍ آخر، ولعلّ الأربعمائة سنة التي مرّت عليهم من حكم فرعون قد طبعتهم على الوثنيّة وخصال السوء، لذا تجدهم وقد عبروا البحر وأرجلهم بعد لم تجف، شاهدوا قوماً يعبدون الأصنام، فأعجبهم ذلك، واقترحوا على نبيّهم أن ينصب لهم أصناماً للعبادة، ويجيبهم عليه السلام والألم يحزّ في نفسه ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾.

١١ ـ ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾:

واقتضت الحال أن يختار نبي الله موسى بن عمران عليه السلام سبعين رجلاً

أخذهم للميقات ليشهدوا له بكلام الله تعالى وبالتوراة، ولكن الذي حصل أنهم قالوا ﴿**لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً**﴾.

١٢ ـ ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً﴾:

وهذه جريمة عظمى لا مثيل لها في التاريخ، ولم يسبق لأمّة موحّدة في ليلة وضحاها أن تنسلخ تماماً عن التوحيد ونبيّهم بين أظهرهم يحذّرهم ﴿**يا قوم إنما فتنتم به وانَّ ربّكم الله**﴾ وجوابهم ﴿**لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾.

١٣ ـ ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربّهم وذلّة﴾:

كما إنَّ الجريمة كانت عظيمة، كذلك كان العقاب عظيماً، لقد باؤوا بغضب الله تعالى، وإنّما ذكر الغضب مع الوعيد بالنار لأنّه أبلغ في الزجر عن القبيح، والمراد بالذلة: صغر النفس والمهانة.

ولعظم ما أتوا به من قبيح ذنب؛ جاء التشديد عليهم في قبول توبتهم ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [البقرة/٥٤].

١٤ ـ ﴿الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمّي﴾:

وفي الوقت الذي تتلاحق الأوراق في ذم الإسرائيليين ينبغي أن لا نبخسهم حقّهم، فالقرآن الكريم يشيد برجال منهم، وكذلك كتب السيرة تتحدّث عن الكثير من علمائهم الذين آمنوا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

نعود للآية الكريمة:

﴿**الذين يتّبعون الرسول النبيّ**﴾ يؤمنون به، ويعتقدون بنبوّته، يعني نبيّنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لا يكتب ولا يقرأ ﴿**الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ يجدون نعته وصفته ونبوّته موجوداً في الكتابين، لأنه مكتوب في التوراة، في السفر الخامس: إنّي سأقيم لهم نبيّاً من إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه، فيقول لهم كل ما أوصيه به؛ وفي الإنجيل بشارة بالفارقليط في مواضع، منها: نعطيكم فارقليط آخر، يكون معكم آخر الدهر كله، وفيه أيضاً قول المسيح للحواريين: أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط، روح الحق الذي لا يتكلّم من قبل

نفسه، إنّه نذير لكم بجميع الحق، ويخبركم بالأمور المزمعة. فيمدحني ويشهد لي.

وفيه أيضاً: إنّه إذا جاء فنّد أهل العالم[1] ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**﴾ المعروف: الحق، والمنكر: الباطل، لأنّ الحقّ معروف الصحة في العقول، والباطل منكر الصحة في العقول ﴿**ويُحل لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث**﴾ يبيح لهم المستلذّات الحسنة، ويحرّم عليهم القبائح وما تعافه النفس ﴿**ويضع عنهم إصرهم**﴾ ثقلهم؛ شبّه ما كان على بني إسرائيل من التكليف الشديد بالثقل ﴿**والأغلال التي كانت عليهم**﴾ ويضع عنهم العهود التي كانت في ذمّتهم؛ وجعل تلك العهود بمنزلة الأغلال التي تكون في الأعناق للزومها، كما يقال: هذا طوق في عنقك ﴿**فالذين آمنوا به**﴾ بهذا النبيّ وصدّقوه في نبوّته ﴿**وعزّروه**﴾ عظّموه ووقّروه، ومنعوا عنه أعداءه ﴿**ونصروه**﴾ عليهم ﴿**واتبعوا النور**﴾ وهو القرآن الكريم، الذي هو نور في القلوب، كما أن الضياء نور في العيون، ويهتدي به الخلق في أمور الدين كما يهتدون بالنور في أمور الدنيا ﴿**الذي أنزل معه**﴾ أي أنزل عليه ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾ الظافرون بالمراد، الناجون من العقاب، الفائزون بالثواب.

١٥ - ﴿ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾:

وفي الوقت الذي يتعاظم فيه كفر الإسرائيليين، وقتلهم للأنبياء، لزم جماعة منهم منهج السماء، فكانوا جديرين بالتكريم ﴿**ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق**﴾ جماعة يدعون إلى الحق، ويرشدون إليه ﴿**وبه يعدلون**﴾ وبالحق يحكمون، ويعدلون في حكمهم.

إنّهم قوم من بني إسرائيل، تمسّكوا بالحق وبشريعة موسى عليه السلام في وقت ضلالة القوم، وقتلهم أنبياءهم، وكان ذلك قبل نسخ شريعتهم بشريعة عيسى عليه السلام.

١٦ - ﴿وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه﴾:

(١) مجمع البيان ٤/ ٣١٣.

لقد أغدق جلّ جلاله على بني إسرائيل بنعمه ومواهبه، وأعطاهم أكثر مما أعطى غيرهم، إقامة للحجّة، ولكي يستقيموا ـ ولو قليلاً ـ وهذه الآية تذكر بعض هذه النعم العظام، وما قابلوها من نكران واستخفاف.

ومعنى (استسقاه) طلبوا منه السقيا **﴿أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست﴾** الإنبجاس: خروج الماء الجاري بقلّة، والإنفجار: خروجه بكثرة، وكان يبتدىء الماء من الحجر بقلّة، ثم يتسع إلى الكثرة، علماً أنّ ذلك في بيداء يعزّ فيها الماء.

١٧ ـ **﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم﴾**.

وبعض الأمم والشعوب يتهاون جماعة منهم في أداء الواجب، لا سيّما إذا كان شديداً كالحرب وغيرها، أما الذي حدث لبني إسرائيل لم يُسبق له مثيل، لقد امتنعوا عن دخول المدينة عن بكرة أبيهم، وليس هذا هو المهم، ولكن الإستخفاف الذي حصل منهم، والتهوين لأوامر الله جلّ جلاله كان غريباً للغاية، لقد رفضوا دخول القرية التي أمروا بدخولها، رغم المحفّز الذي ذكره الله جلّ جلاله **﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾** أين شئتم **﴿وقولوا حطّة﴾** معناه: حطّ عنا ذنوبنا، وهو أمر بالاستغفار **﴿وادخلوا الباب﴾** وهو الباب الذي أمروا بدخوله **﴿سجّداً﴾** ادخلوا خاضعين متواضعين **﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾** نصفح ونعف عن ذنوبكم **﴿سنزيد المحسنين﴾** سنزيدهم على ما يستحقونه من الثواب تفضّلاً **﴿فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾** لقد عصوا، وفعلوا ما لم يكن لهم أن يفعلوه، وغيّروا ما أمروا به، إنهم قالوا: حطّا سمقانا، ومعناه: حنطة حمراء فيها شعيرة؛ وكان قصدهم في ذلك الاستهزاء، ومخالفة الأمر.

١٨ ـ **﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء﴾**:

لهذا وغيره كان العقاب شديداً للغاية، وما أعدّ الله جلّ جلاله لهم في الآخرة أعظم بكثير، أتدري ما حصل لهم بعد هذا الاستهتار والتميّع واللامبالاة؟ لقد أهلكوا بالطاعون، فمات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً، وهو العذاب الذي ذكرته الآية الكريمة.

١٩ ـ **﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة وظنّوا أنّه واقع بهم﴾**:

وهذا أمر لا مثيل له أيضاً، ولم يحصل لأمّة من أمم العالم، إنّ الإنسان عندما يتصوّر المعاجز التي شاهدها هؤلاء، والخلافات التي أحدثوها، يأخذه العجب من تصرّفاتهم وحماقتهم.

إنّ الموضوع الذي تحدّثت عنه الآية الكريمة حدث لما جاءهم موسى عليه السلام بالتوراة، فقد أعرضوا عن قبولها، ولا يعلم أحد بالجهود التي بذلها نبيُّ الله في اقناعهم، ولكنّها ذهبت كلّها سدى؛ وهنا حدث أمر سماوي لم يك بالحسبان، فقد قلع الله جلّ جلاله جبلاً من أساسه، وأوقفه بقدرته على رؤوسهم، فقال لهم موسى عليه السلام: إذا تلكّأتم في القبول يسقط عليكم الجبل ويهلككم، فعند ذلك قبلوها.

نعود للآية الكريمة:

﴿**وإذ نتقنا الجبل فوقهم**﴾ واذكر يا محمد إذ قلعنا الجبل من أصله فرفعناه فوق بني إسرائيل، وكان عسكر موسى عليه السلام فرسخاً في فرسخ، فرفع الله الجبل فوقهم جميعهم ﴿**كأنّه ظلّة**﴾ غمامة ﴿**وظنّوا أنّه واقع بهم**﴾ علموا وأيقنوا ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوّة**﴾ خذوا ما ألزمناكم من أحكام كتابنا وفرائضه فاقبلوه بجدّ واجتهاد منكم في كل أوان، من غير تقصير ولا توان ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ من العهود والمواثيق التي ألزمناكم بالعمل بها ﴿**لعلّكم تتقون**﴾ لكي تتقوا ربّكم، وتخافوا عقابه.

(٤)

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس/٧٥].

في الوقت الذي تتكرر فيه قصص القرآن الكريم يتكرّر الإعجاز أيضاً، ويتجلّى في كل آية، وأيضاً ترى الجديد في كل قصّة رغم تكرارها، وهذا يكفي دلة على أنّه كلام العزيز القدير.

نعود للآية الكريمة:

المفهوم القرآني يدل على أنَّ المشكلة ليست منحصرة في فرعون فقط، بل هي أيضاً مشكلة شعب مجرم بعيد عن خط السماء.

وليس من الغريب أن يتباعد فرعون عن نهج الحق حفاظاً على إلهيّته وملكه وسلطانه، لكن الغريب أمر هؤلاء الأوباش، فما الموجب لهم إلى هذا البعد حتّى جاءتهم الطامّة العظمى، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

١ ـ ﴿إنّ هذا لسحرٌ مبين﴾:

بهذا قابلوا رسالة السماء، وبهذه اللهجة كلّموا موسى وهارون عليهما السلام حينما شاهدوا العصا ـ وكفى بها معجزاً ـ واليد البيضاء، وتلاحقت الآيات والمعاجز؛ وهم عنها معرضون.

ولا أدري ما كان عذرهم بعد إيمان جمهور السحرة بالرسالة، وتوطين أنفسهم على القتل في سبيلها.

كان اللازم عليهم أن يتأثّروا بذلك، ويبادروا للإيمان، ويتركوا اللّجاج في الباطل، ولكنّهم كما قال جلّ جلاله في وصفهم ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٣].

٢ ـ ﴿إنّ الله لا يُصلح عملَ المفسدين﴾:

ومهما أبدع المجرمون، وتأنّقوا في أعمالهم، وخدعوا بها الضعفاء، فإنّ مصيرها إلى التلاشي والخراب.

إنّ الشيوعية كادت أن تسيطر على معظم العالم، ولكنّها ما أسرع ما انهارت وتلاشت، رغم ما بذلوه من إصلاحات وسباب للقادة الأوائل لأنّهم ـ كما يدّعون ـ كانوا أسس الفساد، وهذه لهجة يستعملها الطغاة دائماً لإضلال البسطاء، ولاستمرار المسيرة، ولكن **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً﴾ [الإسراء/٨١].**

٣ ـ ﴿ويحقّ الله الحقّ﴾:

فليعمل المجرمون ما شاءوا، وليجدّوا في تتبع المؤمنين وقتلهم، فإنّ الله جلّ جلاله وعد ـ ووعده الحق ـ بأن يحقّ الحق: يظهره وينصر أهله، وهذا التاريخ

شاهد صدق بما حلّ بفرعون وجيشه، وما أصاب الملأ من قريش، ولئن تأخّر عنا النصر فالسبب نحن، وذلك لبعدنا عن القوي العزيز.

٤ ـ ﴿فما آمن لموسى إلاّ ذريّة من قومه﴾:

فموكب الإيمان كان مجموعة صغيرة من الشباب، قد انتصر الله بهم من مسرف عال في الأرض، ونأمل من شبابنا اليوم الرجوع إلى الله، والالتزام بنهجه، فحينئذٍ سينتصر الله جلّ جلاله لهم، ويهلك الطواغيت.

٥ ـ ﴿فعليه توكّلوا﴾:

وأسندوا أموركم إليه، واعتمدوا على نصره، وحسن تدبيره. والآية الكريمة وإن كانت في معرض النصر العسكري ولكنّها كقاعدة عامة، فالواجب على المسلم أن يستعين بأموره الخاصة والعامة، الكلّية منها والجزئيّة بالله العظيم، يجب عليه أن يعمل ما هو مفروض عليه، ويكل الأمر لله جلّ جلاله.

ومثال ذلك: فالزارع عليه أن يبذل جهده في تهيئة الأرض وزرعها وسقيها، والدأب على رعايتها، ويتّكل على الله سبحانه في حماية زرعه من الآفات، وأن يجعل فيه النماء، وهكذا بقية أصحاب الحرف والمصالح.

٦ ـ ﴿ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين﴾:

ومعناه: لا تمكّن الظالمين من ظلمنا بما يحملنا على الانصراف عن ديننا. وما يجدر بالمؤمنين اليوم أن يلهجوا بهذه الآية، ويتوجّهوا إلى الله لينجيهم من بغي الظالمين وشرّهم.

٧ ـ ﴿وأقيموا الصلاة﴾:

ونحن في الواقع لا ندرك أبعاد الصلاة، ولا الفوائد التي نجنيها منها، وانَّ التأكيد الذي جاء في الشريعة على الصلاة يكشف أن فيها أسراراً عظيمة، وهي أعظم عون للمصلّي لتحقيق أهدافه الدنيوية فضلاً عن الأخروية.

ونقل عن أحد المكتشفين العظام في عصرنا هذا أنه حينما توصد أمامه الأبواب يشرع بالصلاة والتضرّع إلى الله جل جلاله بالبكاء ثم ينام بعد ذلك،

فيستيقظ وقد فتحت أمامه الأبواب.

ويتحدّث الطبيب العالمي البروفيسور الكسيس كاريل عن شفاء بعض الأمراض المستعصية والجروح الصعبة فقال: بيد أنّ الشرط الذي لا مفرّ منه لحدوث الظاهرة ـ يريد الشفاء ـ هو الصلاة، إلاّ أنّه لا توجد ضرورة تدعو المريض نفسه للصلاة، أو أن يكون على درجة من الإيمان الديني، وإنّما يكفي أن يصلي أحد الموجودين حوله(1).

٨ ـ ﴿وبشّر المؤمنين﴾:

إنّ الإنسان حينما يبشّر بمولود جديد يفرح، وكذلك إذا بُشِّر بمغنم دنيوي فيسرّ كثيراً بذلك، وأنبياء الله جلّ جلاله بشّروه بالبشارة العظمى التي لا مثلها شيء، ألا وهي الجنة.

إنّ ساعة من ساعاتها تعدل الدنيا وما فيها من نعيم، فاحرص كل الحرص أن تكون من أهلها، علماً أنّ ذلك لا يكلّفك إلاّ جهداً بسيطاً، تستفيد منه في الدنيا قبل الآخرة.

٩ ـ ﴿فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾:

قال عليه السلام نزل القرآن بايات اعني واسمعي يا جارة. مجمع البحرين: ٣ / ٢٥٢. فالخطاب وإن كان موجّهاً لنبيين عظيمين إلاّ أن المقصود بذلك الأمّة، وأزيدك أنه ليس المقصود بني إسرائيل فقط بل جميع الآدميين من الأولين والآخرين، وان الآيات التي طلب فيها جلّ جلاله من عباده الاستقامة كثيرة في القرآن الكريم، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ **[هود/١١٢]** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ **[فصلت/٣٠]** ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾ **[التكوير/٢٨]**.

ومعنى الاستقامة: الثبات على النهج الإلهي وعدم الانحراف عنه يمنةً

(1) الأنسان ذلك المجهول: ١٢.

ويسرةً، وعدم متابعة ومشايعة ومقاربة المفسدين والكافرين، والطغاة وأهل الأحزاب.

١٠ ـ ﴿وأنا من المسلمين﴾:

وبعد أن غرق فرعون وقومه وتيقّنوا الهلاك، صرخ **﴿آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾** وجاء الجواب: **﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾** فالندم والتوبة في هذه الحال، وبعد معاينة العذاب لا تنفع، لذا يجب على الإنسان أن يحرص كل الحرص أن يسوّي أموره مع الله سبحانه وتعالى، ويستغفره وينيب إليه وهو في تمام الصحة لينجو مع الناجين، ويفوز مع الفائزين، ويدخل جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

١١ ـ ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾:

هذه الآية في مؤاخذة بني إسرائيل وبيان بغيهم وكفرهم، وأنّهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه، تلقّوا ذلك عن توراتهم وأنبيائهم عليهم السلام، بل إنَّ بعضهم رحل إلى المدينة قبيل البعثة ينتظر ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم، فلما بُعث كانوا أشدّ الناس كفراً به.

إنّ عوامل انتشار الإسلام في الأوس والخزرج هو ما سمعوه من اليهود قبل البعثة من البشارة به صلى الله عليه وآله وسلم، فآمنوا به وكفر اليهود.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم يخالفه إلى غيره[١].

١٢ ـ ﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾:

ومشاهد القيامة كما هي مؤلمة وشديدة على الكافرين لما يصحبها من مآس ومحن، كذلك هي لا تخلو عن آلام نفسية تزيدهم بلاءً وحسرةً، فمن ذلك أنَّ قادة الضلال يتقدّمون مسيرة قومهم إلى النار، كما إنَّ دعاة الحق يتقدّمون أممهم إلى الجنّة، فيزيد ذلك في حزن الكافرين، لا سيّما وقد كان بإمكانهم أن يلتحقوا بركب

---

(١) بشارة المصطفين: ١٣٢.

الحقّ والصدق.

يقول أمين الإسلام في تفسير الآية الكريمة: يعني أنَّ فرعون يمشي بين يدي قومه يوم القيامة على قدميه حتى يهجم بهم على النار، كما كان يقدمهم في الدنيا يدعوهم إلى طريق النار.

١٣ ـ ﴿إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾:

فهذه القصص حجّة تلزم الكل الإيمان بالله تعالى، والعمل بشرائعه، وأخذ العبر والدروس منها، وهذا هو المراد من ذكرها في القرآن الكريم.

نعود للآية الكريمة **﴿إن في ذلك لآية﴾** إنّ فيما قصصناه عليك من إهلاك من ذكرناهم على وجه العقوبة لهم على كفرهم لعبرة وتبصرة وعلامة عظيمة **﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾** لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة؛ وخصّ الخائف بذلك لأنّه هو الذي ينتفع بالتدبّر والتفكّر فيه.

١٤ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء/١٠١].

إنّ كل واحدة من هذه الآيات تكفي دلالة على صدق المبعوث بالرسالة، وتلزم الأمّة كلّها حجّة، ولا عذر لأحد منهم بعدها بالصدود.

إنّ فرعون كان على يقين تام من صدق موسى عليه السلام، وانّه مبعوث من إله العالمين، ولكن الذي حال بينه وبين الإيمان هو الملك، والملك عقيم، ولكن الغريب هو تخلّف الأمّة كلّها مع مشاهدتهم لهذه الآيات، وكان المفروض بهم أن يؤمنوا جميعاً من المشهد العظيم الذي آمن به السحرة ولكنهم كما قال تعالى **﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾**.

والآيات التسع التي ذكرتها الآية الكريمة هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، والعصا، والطمسة، والحجر؛ والطمسة: هي دعاء موسى وتأمين هارون.

وتفصيل الموضوع: لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوباً، وأبى هو وقومه إلاّ الإقامة على الكفر، قال هامان لفرعون: إنَّ الناس قد آمنوا بموسى، فانظر من دخل في دينه فاحبسه، فحبس كل من آمن به من بني إسرائيل، فتابع الله عليهم

بالآيات، وأخذهم بالسنين، ونقص من الثمرات، ثم بعث عليهم الطوفان فخرّب دورهم ومساكنهم، وامتلأت بيوت القبط ماءً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنّا فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربّه فكشف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا، فأنزل عليهم في السنة الثانية الجراد، فجرّدت زروعهم وأشجارهم، حتّى كانت تجرّد شعورهم ولحاهم، فعجّوا وضجّوا، وجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً وقال: يا موسى ادع لنا ربّك يكشف عنّا الجراد حتّى أخلّي عن بني إسرائيل، فدعا موسى ربّه فكشف عنهم الجراد، ولم يدع هامان فرعون أن يخلّي عن بني إسرائيل. فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القمّل، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، وهو أشرُّ ما يكون وأخبثه، فأتى على زروعهم كلّها واجتثّها من أصلها، فصرخوا وصاحوا، فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربّك لئن كشفت عنّا القمّل لأكفنّ عن بني إسرائيل، فدعا موسى حتّى ذهب القمّل فنكثوا، فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة الضفادع، فكانت تكون في طعامهم وشرابهم، وامتلأت منها بيوتهم وأبنيتهم، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا: هذه المرّة نتوب ولا نعود، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربّه فكشف عنهم الضفادع، ثم نقضوا العهد، وعادوا لكفرهم، فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم، فسال ماء النيل عليهم دماً، فمكثوا سبعة أيّام لا يأكلون ولا يشربون إلاّ الدم، ثم أخبر سبحانه عنهم أيضاً فقال ﴿**ولمّا وقع عليهم الرجز**﴾ وهو الطاعون، مات من القبط سبعون ألف إنسان، ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ**﴾ [**الأعراف/ ١٣٤ - ١٣٦**].

(٥)

١ - ﴿ **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾ [**مريم/ ٥١**].

الإخلاص: هو القربة، والمراد بذلك إيقاع الطاعة خالصة لله وحده.

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يكن اختيارهم من قبل الله جلّ جلاله للنبوّة اعتباطاً، أو من باب الصدفة، بل كانوا في نهاية الفضل والكمال، وانهم بصفاتهم العالية استوجبوا أن يكرّموا بالنبوة، تشهد بذلك أخلاقهم وسلوكهم الذي أشار إليه القرآن الكريم، وكتب التاريخ والسير، فمن هذا ما تسالم عليه أهل الآثار والسير من تسمية قريش لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة بالصادق الأمين.

إنّ الآية الكريمة تشير إلى جانب مهم من حياة موسى عليه السلام، ألا وهو الإخلاص، فقد أخلص العبادة لله جلّ جلاله، بل بلغ الغاية في الإخلاص.

٢ ـ ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيّاً﴾.

مساكين هؤلاء المتكبّرون، فهم بعملهم يستوجبون غضب الله جلّ جلاله ومقت الناس لهم، فلا تجد لأحد منهم صديقاً ولا حبيباً، مضافاً لما أعدّ الله سبحانه لهم من عذاب وهوان، وإنّ التواضع والتذلل ليبلغان بالعبد أقصى مراتب الكمال والشرف، فهذا نبيُّ الله موسى بن عمران عليه السلام وقد كلّمه الله تكليماً لما بلغ الغاية من التذلل لله جلّ جلاله قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله إلى موسى: أن يا موسى أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟

قال: يا رب ولِمَ ذاك؟

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى إنّي قلّبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذل لي نفساً منك، يا موسى إنّك إذا صليت وضعت خدّك على التراب[1].

٣ ـ ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً﴾.

والله جلّ جلاله أكرم أنبياءه صلوات الله عليهم بمختلف الكرامات، تثميناً لإخلاصهم، مع ما أعدّ لهم في القيامة من المقامات السامية والدرجات الرفيعة ما لا يعلمه إلاّ هو.

---

(١) أصول الكافي: ٣٦٩.

فمن هذه الكرامات ـ وما أكثرها ـ أنه جلّ جلاله اتخذ إبراهيم عليه السلام خليلاً، وموسىٰ عليه السلام كليماً، ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم حبيباً.

والمِلك حينما يرتضي وزيره يقرّب حينئذٍ أولاده وذويه، ويجعلهم في المراتب الرفيعة، ويجزل لهم العطاء تكريماً لوزيره.

لقد استجاب الله جلّ جلاله لعبده موسىٰ عليه السلام حيث سأله ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ❁ هَـٰرُونَ أَخِى ❁ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه/ ٣١].

وهذا هو الغاية في الإكرام والإنعام، كذلك تمّت نعمته على عبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن اتخذ أخاه علياً وصيّاً ووزيراً، حتى روى المؤالف والمخالف قوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي.

(٦)

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه/ ٩:].

١ ـ تمهيـد:

القرآن الكريم يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام مستوحياً من التكرار الأهداف التي جاءت فيها القصة في نفوس المسلمين، وأخذ العبر والدروس منها.

لقد أشار القرآن الكريم إلى قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون أكثر من مرة ليعتبر العرب بما نزل به وبجيشه الجرار، وأنهم أُبيدوا في ساعة واحدة، كذلك ليعتبر طغاة العالم وقادة الضلال بما حدث لسلفهم فيحذوروا أن ينزل بهم ما نزل به ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [ابراهيم/ ٤٢].

والشيء الغريب في هذه القصص، والذي لا يستطيعه جميع كتّاب العالم ورجال العلم والأدب، أنّه في كل مرة يتناول فيها القرآن الكريم قصّة موسىٰ مع فرعون مثلاً يأتي بجديد لا يوجد في غيرها، فالقصص في الوقت الذي تكون

فيه مكررة هي في الوقت نفسه جديدة وبكر في أسلوبها ومعانيها.

٢ ـ ﴿**إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا**﴾:

فهو صلوات الله وسلامه عليه بعد الإقامة في مدين عند نبيِّ الله شعيب عليه السلام، سار بأهله وبقطيع صغير من الأغنام، حصيلة السنوات العشر التي كان يعمل فيها لشعيب عليه السلام.

قال ابن عباس: وكان موسىٰ رجلاً غيوراً لا يصحب الرفقة لئلا ترى امرأته، فلمّا قضى الأجل، وفارق مدين، وكانت أهله على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت، فأضلّ الطريق في ليلة مظلمة، وتفرّقت ماشيته، ولم ينقدح زنده، وامرأته في الطلق، فرأى ناراً من بعيد كانت عند الله نوراً، وعند موسىٰ ناراً ﴿**فقال**﴾ عند ذلك ﴿**لأهله**﴾ وهي بنت شعيب ﴿**امكثوا**﴾ الزموا مكانكم ﴿**إنّي آنست ناراً**﴾ أبصرت ناراً ﴿**لعلّي آتيكم منها بقبس**﴾ بشعلة اقتبسها من معظم النار تصطلون بها ﴿**أو أجد على النار هدىٰ**﴾ هادياً يدلّني على الطريق.

٣ ـ ﴿**فلما أتاها**﴾:

كان ذلك بداية الفيض والمنح الإلهية في خلاص شعب من أكبر طاغية عرفته الكرة الأرضية، وهلاك قوم فاسقين بمعيّة هرمهم وزعيمهم الأكبر.

توجّه موسى نحو النار فإذا هي في شجرة عنَّاب، فوقف متعجباً من حسن ضوء تلك النار، وشدّة خضرة تلك الشجرة، فسمع النداء من الشجرة وهو قوله ﴿**نودي يا موسىٰ إنّي أنا ربّك**﴾ لقد سمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، لم تكن الخضرة تطفىء النار، ولا النار تحرق الخضرة ﴿**فاخلع نعليك**﴾ انزعهما؛ والسبب الذي أمر بخلع النعلين أنّ الحفاء من علامة التواضع ﴿**وأنا اخترتك**﴾ اصطفيتك بالرسالة ﴿**فاستمع لما يوحىٰ**﴾ إليك من كلامي.

٤ ـ ﴿**إنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا**﴾:

كان أوّل الوحي والتعاليم السماوية التوحيد، لأنه عماد الشرائع، وأصل الأديان، والباب الذي يفضي إلى كل خير ورشاد ﴿**فاعبدني**﴾ خالصاً، ولا تشرك في عبادتي أحداً؛ أمره سبحانه أن يفتتح دعوته المباركة لأمة خيّم عليها الجهل،

وتتابع عليها الطغاة، بالدعوة إلى التوحيد.

٥ ـ ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾:

وبعد التوحيد بدأ بالصلاة، لأنها أهم الواجبات الدينية:

إن قُبلت تقبل بها الأعمال وإن تُرد ردَّ كل ما عمل

ولا عذر لأحد ـ مهما كانت ظروفه ـ في تركها، والتسامح بها، وهي العلامة الفارقة بين أهل الإيمان والكفر؛ ومعنى قوله ﴿**لذكري**﴾ تذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم، لأنّ الصلاة لا تكون إلاّ بذكر الله.

٦ ـ ﴿**إنّ الساعة آتية**﴾:

الساعة: هي القيامة، وموعد اجتماع الخلائق كلّهم للحساب، ومنها المنطلق إلى الجنة أو النار، وتقدّم ذكرها لأن بمراعاتها يستقيم الإنسان وينجو، ومعنى الآية: يعني أنّ القيامة مقبلةٌ لا محالة ﴿**أكاد أخفيها**﴾ أريد أن أخفيها عن عبادي؛ وفائدة الإخفاء التهويل، والتخويف، فإن لم يعلم الناس متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها في كل وقت ﴿**لتجزىٰ كل نفس بما تسعىٰ**﴾ بما تعمل من خير أو شرّ، وليُنتصف من الظالم للمظلوم ﴿**فلا يصدّنّك عنها من لا يؤمن بها**﴾ لا يمنعك عن الإيمان بالساعة من لا يؤمن بها ﴿**واتبع هواه**﴾ الهوى: ميل النفس إلى الشيء، ومعناه: ومن بنى الأمر على هوى النفس دون الحق، وذلك أنّ الدلالة قامت على قيام الساعة ﴿**فتردىٰ**﴾ فتهلك كما هلك، أي إن صددت عن الساعة بترك التأهب لها هلكت؛ والخطاب وإن كان لموسىٰ عليه السلام إلاّ أنه في الحقيقة لسائر المكلفين.

٧ ـ ﴿**وما تلك بيمينك يا موسىٰ**﴾:

والأنبياء صلوات الله عليهم كلّهم مزوّدون بالمعاجز، إقامة للحجّة على الناس وأيضاً ليتميّز الصادق من الكذب، ولولاها لكثر مدّعي هذا المنصب العظيم.

والمعجزة: أن يأتي النبي بشيء يعجز عن الإتيان به جميع الخلق، فكانت أول معاجز الكليم عليه السلام العصا، وهي التي كانت سبباً لإيمان جمهور السحرة.

ففي هذا المشهد جاء سؤال القادر العزيز ﴿**وما تلك بيمينك يا موسىٰ**﴾ فسأله عما في يده من العصا تنبيهاً له عليها، ليقع المعجز بها بعد التثبّت فيها، والتأمّل لها ﴿**قال**﴾ موسىٰ: ﴿**هي عصاي أتوكؤ عليها**﴾ أعتمد عليها إذا مشيت ﴿**وأهش بها على غنمي**﴾ وأخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي ﴿**ولي فيها مآرب أخرى**﴾ حاجات أخرى ﴿**قال**﴾ الله سبحانه: ﴿**القِها يا موسى فألقاها فإذا هي حيّة تسعىٰ**﴾ تمشي بسرعة، وعيناها تتوقدان ناراً، فلما عاين ذلك ولّى مدبراً ولم يعقب، ثم ذكر ربّه فوقف استحياءً منه، ثم نودي ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف ﴿**قال خذها**﴾ بيمينك ﴿**ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولىٰ**﴾ سنعيدها إلى الحالة الأولى عصا ﴿**واضمم يدك إلى جناحك**﴾ واجمع يدك إلى تحت عضدك ﴿**تخرج بيضاء**﴾ لها نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشدُّ ضوءاً ﴿**من غير سوء**﴾ من غير برص، ففعل، فخرجت يده كما قال الله، ثم ردّها فعادت إلى لونها الذي كانت عليه ﴿**آية أخرى**﴾ فنزيدك بها آية أخرى ﴿**لنريك من آياتنا الكبرىٰ**﴾ لنريك من دلائلنا الكبرى سوى هاتين الدلالتين.

٨ ـ ﴿اذهب إلى فرعون إنّه طغىٰ﴾:

إن فرعون كان في منتهى الضعة والحقارة، عمل في عدة مهن لم يحصل على ما يسد حاجته، وأخيراً اهتدى إلى أن يقف بالمقبرة، ويأخذ من ذوي الجنازة مبلغاً يسيراً كأتاوة صغيرة، ثم خدمته الظروف حتى وصل إلى العرش، فكان شكره للمنعم العظيم أن نازعه الربوبيّة.

٩ ـ ﴿قال ربي اشرح لي صدري﴾:

كان التكليف كبيراً، ولا بد أن يكون العون الإلهي عظيماً، لقد سأل الكليم من الكريم أن يوسّع له صدره حتى لا يضجر ولا يغتم ﴿**ويسّر لي أمري**﴾ سهّل عليّ أداء ما كلّفتني من الرسالة ﴿**واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**﴾ واطلق عن لساني العقدة التي فيه حتى يفقهوا كلامي[1].

---

(١) كان سبب العقدة الَّتي في لسانه جمرةً طرحها في فيه؛ وذلك لمَّا أراد فرعون قتله لأنه أخذ لحيته ونتفها وهو طفل فقالت امرأة فرعون آسية لزوجها: لا تفعل فإنَّه طفلٌ لا =

استجاب الله تعالى دعاءه فانحلت العقدة عن لسانه ﴿**واجعل لي وزيراً**﴾ يؤازرني على المضي إلى فرعون، ويعاضدني عليه ﴿**من أهلي**﴾ لأنه إذا كان الوزير من أهله كان أولى ببذل النصح له؛ ثم بيّن الوزير وفسّره ﴿**هارون أخي**﴾ وكان أخاه لأبيه وأمه، وكان بمصر ﴿**أشدد به أزري**﴾ قوِّ به ظهري وأعنّي به ﴿**واشركه في أمري**﴾ إجمع بيني وبينه في النبوة ﴿**كي نسبّحك كثيراً**﴾ ننزّهك عما لا يليق بك ﴿**ونذكرك كثيراً**﴾ نحمدك ونثني عليك بما أوتينا من نعمك، ومننت به علينا من تحميلنا رسالتك.

١٠ ـ ﴿**إنّك كنت بنا بصيراً**﴾:

عالماً بأحوالنا وأمورنا؛ وهو جلّ جلاله بصير بعباده كلّهم، يرعاهم جميعاً برعايته، ويكلؤهم ويحوطهم بحياطته، ويدفع عنهم المكروه بقدرته، ويفرّج عنهم الشدائد برحمته، ويصرف عنهم السوء بلطفه. وأنت لو فكّرت في نفسك، وتذكرت المكاره التي مرت بك، وكاد بعضها أن يقضي عليك، وصرفها عنك كشّاف الكرب العظيم.

١١ ـ ﴿**أن اقذفيه في التابوت**﴾:

وينبغي للبشر أن يأخذ درساً من حياة الكليم عليه السلام، ففرعون من قبل ولادته كات يترصّده، ويقتل كل طفل ولد من أجل أن يظفر به، بل كان يعلم بالحوامل من النساء ومواعيد ولادة كل واحدة منهن بموجب الشبكة التجسسية التي وضعها.

لقد كان بالإمكان أن يخفي سبحانه وتعالى حمل أمّه كما كان بالإمكان أن ينشأ في مكان آخر، كما عاش إبراهيم عليه السلام في سرب، ولكن الله جلّ جلاله يريد أن يظهر لعباده مبلغ قدرته، وأنّه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، لهذا وغيره عاش عليه السلام في بيت الطاغية، وتحت رعايته.

= يعقل وعلامة جهله أنّه لا يميِّز بين الدرَّة والجمرة فأمر فرعون فأحضر له درَّة وجمرة بين يديه فأراد موسى أن يأخذ الدرَّة فصرف جبرائيل يده إلى الجمرة؛ فأخذها ووضعها في فيه؛ فاحترق لسانه.

تبدأ الصفحة الأولى من سجلّ حياته ﴿**أن اقذفيه في التابوت**﴾ واجعليه فيه ﴿**فاقذفيه في اليم**﴾ يريد النيل ﴿**فليلقه اليم بالساحل**﴾ وهو شط البحر ﴿**يأخذه عدوّ لي وعدوّ له**﴾ يعني فرعون، كان عدواً لله ولأنبيائه، وعدواً لموسىٰ خاصة لعلمه أنّ ملكه ينقرض على يديه ﴿**وألقيت عليك محبّة مني**﴾ جعلتك بحيث يحبّك كل من يراك، حتّى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبّتك امرأته آسية بنت مزاحم فتبنّتك وربّتك في حجرها، وحببتك إلى عبادي، فلا يلقاك أحد مؤمن أو كافر إلا أحبّك ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ لتربّى وتغذّى بحياطتي وكلاءتي وحفظي ﴿**إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله**﴾ وذلك ان أم موسىٰ اتخذت تابوتاً، وجعلت فيه قطناً، ووضعته فيه، وألقته في النيل، وكان يشرع من النيل نهر في حديقة فرعون، فبينما هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ التابوت يجيء، فأمر بإخراجه، فلما فتحوا رأسه إذا بصبيّ من أحسن الناس وجهاً، فأحبّه فرعون بحيث لا يتمالك، وجعل موسىٰ يبكي ويطلب اللبن، فأمر فرعون حتى أتته النساء اللاتي كنّ حول قصره، فلم يأخذ موسىٰ لبن واحدة منهن، وكانت أخت موسىٰ واقفة هناك، قد أمرتها أمها أن تتبع التابوت، فقالت لهم: إنّي آتي بامرأة ترضعه، وذلك قوله: ﴿**هل أدلّكم على من يكفله**﴾ أدلّكم على امرأة تربيه وترضعه وهي ناصحة له، فقالوا: نعم، فجاءت بالأمّ فقبل ثدييها.

١٢ ـ ﴿**فرجعناك إلى أمّك**﴾:

فلا البحر أغرقه، ولا فرعون قتله، مع أنه كان يصرّ دائماً على قتله، لكن زوجته آسية بنت مزاحم كانت تحول بينه وبين ذلك.

وأيضاً: فقد كان بالإمكان أن يعيش في بيت فرعون، ويحضنه بعض من في القصر من النساء، ولكنّ الله جلّ جلاله يريد أن يري العباد قدرته حتى يتوجّهوا إليه في حوائجهم، ويتوسّلوا به في تمشية أمورهم، فقد أرجعه سالماً إلى أمّه لتتولّى رضاعته وتربيته بعد أن جعل لها الطاغية راتباً على ذلك.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعائه في يوم عرفه «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؛ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا

تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً»[1].

١٣ ـ ﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغمّ﴾:

نكان من تمام نعمته على عبده موسىٰ عليه السلام أن قتل شخصاً من أتباع الطاغية، ومع ما بذله من الاهتمام في إلقاء القبض عليه، ولكن الذي نجّاه طيلة هذه السنين منه نجّاه هذه المرة أيضاً، فقد خرج خائفاً يترقّب على غير بصيرة بطريق يسلكه للنجاة، حتى وصل مأمناً من الأرض، ثم عاش بعدها معزّزاً مكرّماً في بيت نبي الله شعيب عليه السلام.

يا رب موسىٰ وهارون ومنجيهما من كيد فرعون والفاسقين، نجّنا يا رب من أيدي العتاة الظالمين، وانظر إلى شعبنا المظلوم نظرة تكفيهم فيها ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم إنك على كل شيء قدير.

١٤ ـ ﴿وفتنّاك فتوناً﴾:

وخلّصناك من المحن تخليصاً، فقد كانت محاولات كثيرة من الطاغية في قتله، فمن حين وقع بصره عليه عزم على قتله، ويوم جرّ لحيته عزم على قتله، ويوم قتل أحد أتباعه عزم على قتله، وغيرها كثير.

وقد كان بالإمكان أن يجنّب الله جلّ جلاله عبده هذه البلايا والمحن وغيرها، وأن يجعل حياته كلها في أمنٍ ورخاء، لكنه اقتضت حكمته أن يبتلي عباده لا سيما أهل الإيمان بالبلاء والنكبات، وأن يعانوا صنوف الأذى والعذاب من الظالمين، لترتفع منازلهم في الدار الآخرة، وتسمو مراتبهم عند خالقهم، وأن يتأهّلوا لمجاورة النبيين والصدِّيقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

﴿ولا تنيا في ذكري﴾ لا تفترا عن الاعتماد عليّ، أو تقصّرا في الاستعانة بي.

١٥ ـ ﴿فقولا له قولاً ليّناً﴾:

ورغم ما كان فيه عدو الله من غلظة وشدّة وعتوٍ وكبرياء، فقد أمر الله نبييه الكريمين موسىٰ وهارون عليهما السلام أن يلينا له الكلام، وأن يرفقا به في الدعاء

---

(١) مفاتيح الجنان: ٢٧٢.

والقول، ولا يغلظا له في ذلك.

وروى بعض أعلام التفسير: أن موسى عليه السلام أتاه فقال له: تسلم وتؤمن بربّ العالمين على أن لك شبابك فلا تهرم، وتكون ملكاً لا ينزع الملك منك حتى تموت، ولا تنزع منك لذة الطعام والشراب والجماع حتى تموت، فإذا متّ دخلت الجنّة، فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً، فلمّا قدم هامان أخبره بالذي دعاه إليه، وأنه يريد أن يقبل منه.

فقال هامان: قد كنت أرى لك عقلاً، وأنّ لك رأياً، بينا أنت ربّ وتريد أن تكون مربوباً، وبينما أنت تعبدْ وتريد أن تعبده!! فقلبه عن رأيه[1].

ولا تستبعد هذا العرض، فالله جلّ جلاله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فقد ورد أنَّ إبليس جاء إلى بعض الأنبياء عليهم السلام وطلب منه أن يتوسط له عند المولى في أن يقبله ويغفر له، وسأل النبي الكريم الرحيم في ذلك وحصل القبول بشرط بسيط: وهو أنْ يسجد عند قبر آدم عليه السلام، فأخبره بذلك فأبىٰ وولّى مغضباً وهو يقول: لم أسجد له حياً فكيف أسجد له ميّتاً.

وأنت أعزّك الله مهما كنت بعيداً أو عاصياً فلا تقنط من رحمة الله، وبادر إليه بالتوبة فستجده رؤوفاً عطوفاً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ **[الشورى/ ٢٥]**.

١٦ ـ ﴿إنني معكما أسمع وأرىٰ﴾:

يقول جلّ جلاله ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ **[يونس/ ٨٣]** وأنه بلغ الذروة في الطغيان والفساد لذا قالا سلام الله عليهما **﴿إننا نخاف أن يفرط علينا﴾** نخشى أن يتقدَّم فينا بعذاب، ويعجّل علينا **﴿أو أن يطغىٰ﴾** يجاوز الحد في الإساءة بنا.

وجاء الجواب القويّ المتعالِ **﴿لا تخافا إنني معكما﴾** إنّي ناصركما وحافظكما **﴿أسمع وأرىٰ﴾** أسمع ما يسألكما به فألهمكما جوابه، وأرى ما

---

(١) مجمع البيان: ٧ ـ ١١/٨.

يقصدكما به فأدفعه عنكما، وفعلاً فقد سلما صلوات الله عليهما من بطشه مع عزمه الشديد على قتلهما.

وهذا درس لكل فرد من الأمّة أن يبذل جهده في الإصلاح، والدعوة إلى الخير، وأن يؤدّي ما فرضه الله عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندما يصوّر له الشيطان أن ذلك يسبب له أذى فيتذكر كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق»[1].

١٧ ـ ﴿والسلام على من اتبع الهدىٰ﴾:

السلام: هو الأمان والنجاة، والهدى: دين الله الذي أمر به عباده أن يتديّنوا به، فالمتَّبع لتعاليم الله يسلم وينجو من العذاب، وأيضاً يسلم وينجو من كثير من مآسي الحياة ومكارهها.

وعلى سبيل المثال تجنُّب الخمر يحفظ للإنسان صحته ويقيه العشرات من الأمراض، وعدم الكذب يحفظ له ماء وجهه، ويسهّل له أموره، ويكسبه محبّة المجتمع، وهكذا بقية تعاليم الإسلام، فكلّها تكسبه في الدنيا خيراً ومجداً.

١٨ ـ ﴿إن العذاب على من كذّب وتولّى﴾:

وكما إنَّ النجاة لمتبعي الرشاد، كذلك العذاب للمكذبين برسالات الأنبياء عليهم السلام، والمعرضين عن تعاليمهم التاركين لأوامرهم؛ وأنت سلمك الله فقد أنعم الله جلّ جلاله عليك بالإيمان بالله وبرسله، فاشكره على هذه النعمة العظمى التي لا يساويها شيء، وفي الوقت نفسه احذر الشيطان كل الحذر، أن يخدعك ويزلّك عن خط الشريعة، أو يجعلك متسامحاً بالوظائف الدينية، أو تتسرّع مجترئاً على الله تعالىٰ ومبارزاً له بالمعاصي.

١٩ ـ ﴿ربنا الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدى﴾:

كان هذا ـ جواب ـ موسى عليه السلام للطاغية لمّا سأله: **﴿فمن ربّكما يا**

---

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٢٢٦.

موسىٰ﴾ فأجابه ﴿**ربنا الذي أعطىٰ كل شيء خلقه**﴾ أعطى كل شيء خلقته، أي صورته التي قدّرها له، وهداه إلى مطعمه، ومشربه، وتدبير أموره.

وإنّ ما ذكره الكليم عليه السلام يكفي دلالة على التوحيد، فسبحان الذي هدى الرضيع إلى محالب أمه، والنملة إلى أن تخزن قوتها لفصل الشتاء بعد أن تقسم كل حبة إلى نصفين كي لا تنبت وتخضر فلا تنتفع بها، عدا الكزبرة فتقسمها أربعاً لأنها تعلم أنها عندما تقسمها نصفين تنبت خلافاً لبقية الحبوب.

٢٠ ـ ﴿في كتاب لا يضلّ ربّي ولا ينسىٰ﴾:

اعترض الطاغية على موسى عليه السلام لمّا أمره بطاعة الله جل جلاله بالأمم التي سلفت، والتي كانت تعكف على الأصنام، فأجابه ﴿**علمها عند ربّي**﴾ لا يذهب عليه شيء من أحوالهم ﴿**في كتاب**﴾ هو اللوح المحفوظ، والمراد: إنَّ أعمالهم مكتوبة مثبتة عليهم ﴿**لا يضلّ ربّي**﴾ لا يذهب عليه شيء ﴿**ولا ينسىٰ**﴾ ما كان من أمرهم، بل يجازيهم بأعمالهم؛ واعلم رعاك الله، فكما إنَّ أعمال الأمم الماضية مثبتة ومسجّلة عليهم، كذلك أعمالك، صغيرها وكبيرها، وما أحسنت فيها وما أسأت، فاحذر كلَّ الحذر أن تتجاوز تعاليم الشريعة الغرّاء ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [**الكهف/ ٤٩**].

٢١ ـ معالم التوحيد:

انتهى جواب موسىٰ عليه السلام للطاغية، ولكنّه صلوات الله عليه أخذ يستعرض أدلّة التوحيد، والتي في كل واحد منها دلالة على الواحد الأحد ﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً**﴾ فرشاً ومهاداً ﴿**وسلك لكم فيها سبلاً**﴾ سهّل لكم فيها طرقاً ﴿**وأنزل من السماء ماء**﴾ يعني المطر.

وتمّ الإخبار عن موسىٰ، ثم أخبر الله سبحانه عن نفسه فقال موصولاً بما قبله من الكلام ﴿**فأخرجنا به**﴾ بذلك الماء ﴿**أزواجاً**﴾ أصنافاً ﴿**من نباتٍ شتّىٰ**﴾ مختلفة الألوان والطعوم والمنافع ﴿**كلوا**﴾ مما أخرجنا لكم بالمطر من النبات والثمار

﴿**وارعوا أنعامكم**﴾ وأسيموا مواشيكم فيما أنبتناه بالمطر ﴿**إنّ في ذلك**﴾ فيما ذكر ﴿**لآياتٍ**﴾ دلالات ﴿**لأولي النهى**﴾ لذوي العقول الذين ينتهون عمّا حرّم الله عليهم.

٢٢ ـ ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسىٰ﴾:

وبعد أن يعجز الطغاة عن مجابهة الحق، وتدمغهم أدلّة التوحيد، يلجأون من أجل الهيمنة على الجماهير إلى الخداع فينسبوا المصلحين إلى السحر، وقد قال فرعون لموسىٰ عليه السلام ﴿**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك**﴾.

وتمر المئات من السنين والتاريخ يعيد نفسه، لقد اجتمعت قريش على شيخها الضال الوليد بن المغيرة المخزومي، فقالوا يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد، أسحر، أم كهانة أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في الحجر.

فقال: يا محمد أنشدني شعرك.

فقال: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اتلُ.

فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما سمع الرحمٰن استهزأ منه وقال: يدعو إلى رجل باليمامة يسمى الرحمٰن.

فقال: لا، ولكنّي أدعو إلى الله، وهو الرحمٰن الرحيم، ثم افتتح حم السجدة، فلما بلغ إلى قوله ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ ولمّا سمعه اقشعرّ جلده، وقامت كل شعرة في بدنه، وقام ومشىٰ إلى بيته، ولم يرجع إلى قريش. فقالوا: صبا أبو عبد شمس إلى دين محمد، فاغتمّت قريش، وغدا عليه أبو جهل فقال: فضحتنا يا عم.

قال: يا بن أخي ما ذاك، وإنّي على دين قومي، ولكن سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

قال: أفشعرٍ هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب؟

قال: لا، إنّ الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً.

قال: فكهانة هو؟

قال: لا.

قال فما هو؟

قال: دعني أفكّر فيه.

فلما كان من الغد قالوا يا أبا عبد شمس ما تقول؟

قال: قولوا: هو سحر، فإنّه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله تعالىٰ فيه ﴿**ذرني ومن خلقت وحيداً**﴾ إلى قوله ﴿**عليها تسعة عشر**﴾[1].

واليوم استبدل الملحدون بكلمة السحر الطبيعة، فهم حينما يلزمهم الحق والإقرار بالتوحيد والرسالة، وبعدها الفرائض، ولأجل أن يتهرّبوا من ذلك كلّه فينسبوا معالم التوحيد إلى الطبيعة.

٢٣ ـ ﴿**فلنأتينك بسحرٍ مثله**﴾:

هدّد الطاغية موسىٰ عليه السلام بأن يأتي بمثل ما أتى به، والذي شجّعه على هذا التحدي هو انتشار السحر يومئذٍ في مصر، وبلوغهم فيه إلى أقصى المراتب، وحتّى قيل: إنّ السحرة الذين جمعهم فرعون لموسى عليه السلام كانوا أربعين ألفاً، واتّفقوا على المكان والزمان، وخرج للمشاهدة كل من يمكنه الخروج من الطرفين، وجاء السحرة بأعظم ما يمكنهم من السحر ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ **[الأعراف/ ١١٦]**.

٢٤ ـ ﴿**والق ما في يمينك**﴾:

---

(١) سفينة البحار: ٢/ ٦٩٠.

الدنيا امتلأت حيّات تسعىٰ ﴿**فأوجس في نفسه خيفة موسىٰ**﴾ خاف أن يتفرّق الناس قبل أن يتبيّن لهم الحق؛ وجاء الأمر السماوي: ﴿**والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا**﴾ فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة أكلت جميع الحيّات، ثم عادت عصا بيده الكريمة.

٢٥ ـ ﴿**فألقي السحرة سجّداً**﴾:

لقد تيقّن السحرة بأنّ العصا آية سماوية، وإنَّ صاحبها مرسل من إله السماء، وأنّه يستحيل أن يكون ما شاهدوه سحراً، فهم أعلم الدنيا بالسحر، ولا يخفى عليهم شيء منه، فقرّروا بأجمعهم منذ اللحظة الأولى الإيمان ﴿**فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا بربِّ هارون وموسىٰ**﴾.

٢٦ ـ ﴿**فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم**﴾:

وصعب الأمر على فرعون غاية الصعوبة، وأظلمت الدنيا بعينه، فقد ظنّ أنه يكسب بعض الموقف، لا سيما وقد رأى الأرض كلّها حيّات تسعىٰ، وموسىٰ لا يملك إلاّ عصا واحدة، فتكون حيّة واحدة، ولم يكن يدور في خلده أن يعلن السحرة بأجمعهم الإيمان برسالة السماء، لقد هاله الأمر تماماً وأخذ يهذي ﴿**إنّه لكبيركم الذي علّمكم السحر**﴾ في حين لم تكن بينهم وبين موسىٰ أيّة رابطة ومعرفة، وإنّه جمعهم من أطراف المملكة وقد اشترطوا عليه المكافأة ﴿ **فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ**﴾ [الشعراء/ ٤١ و٤٢].

وأخيراً استعمل أقصىٰ ما يتمكّن من البطش ﴿**فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾ أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾.

٢٧ ـ ﴿**إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا**﴾:

ورغم هذه الشدّة المتناهية لم يرتاعوا، بل كان تصميمهم على الإيمان بشكل غريب لم يعهد في جماعة من قبلهم كانوا على ضلالٍ ثم انتقلوا بأجمعهم إلى الإيمان، والموت منهم بمشهد ومسمع.

لقد أجابوا الطاغية بلسانٍ واحد ﴿إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ فبالإيمان بالله ورسله تغفر الذنوب، ألا تسمع قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ٤٨].

٢٨ ـ ﴿فإنّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيىٰ﴾:

وأشد شيء خلقه الله جلّ جلاله جهنم، ومضافاً لما فيها من عذاب ونكال وسلاسل، إنَّ كل من فيها لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيىٰ حياة فيها راحة، بل هم في دوامة من العذاب.

٢٩ ـ ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾:

والإيمان وإن كان يشكّل القمة في التعاليم الإلهية، وإنّ من وفق له فقد أحرز القسم الأكبر من الخير والسعادة، ولكنّه يتوقّف كل التوقف على عمل الصالحات، ومثال ذلك: سيارة ضخمة أهديت لك ولكنّك لا تنتفع بها من دون الوقود، ويفسّر ابن عباس عمل الصالحات بأداء الفرائض، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام «لا عبادة كأداء الفرائض»[1].

٣٠ ـ ﴿ولقد أوحينا إلى موسىٰ أن أسري بعبادي﴾:

والآيات التي شاهدها الطاغية وأعوانه تكفي الدنيا بأسرها حجّة، وتلزمهم جميعاً بالإيمان بالله ورسله، ولكنّهم كانوا في أقصى ما يمكن من البعد عن مسار الحق، والله جلّ جلاله يمهل الظالمين ولكنّه لا يهملهم ويتركهم، بل لهم موعد لا يتأخرون عنه ولا يتقدّمون، يذيقهم الهوان والنكال في الدنيا مع ما أعدّ لهم من عذاب أليم.

٣١ ـ ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾:

سار موسىٰ عليه السلام ببني إسرائيل ليلاً، وفي الصباح وصلوا إلى شاطىء البحر، وأدركهم الطلب، فقد أقبل فرعون بجيوشه الجرارة، وضاقت على بني إسرائيل الدنيا بما رحبت، إذ لا ملجأ ولا مهرب لهم، فالبحر أمامهم، والعدو

(١) نهج البلاغة: كلمة رقم ١١٤.

خلفهم، وأنت إذا تأمّلت دعاءه عليه السلام في ذلك الوقت لمست الأجواء التي كان يعيشها.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال لي جبرائيل عليه السلام: ألا أعلمك الكلمات التي قالهنَّ موسىٰ عليه السلام حين انفلق له البحر؟

قلت: بلى.

قال: (اللّهمّ لك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وبك المستغاث، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم)[1].

وتقدّم يوشع بن نون عليه السلام. وقال لموسى عليه السلام بماذا أمرت يا نبيّ الله؟

قال: أن أضرب بعصاي البحر.

قال: فافعل ما أمرت به.

فضربه فصار نصفين، كل نصف كالجبل العظيم حتى ظهرت أرض البحر يابسة.

دخل موسىٰ عليه السلام البحر وخلفه بنو إسرائيل، وعندما تكاملوا في البحر وافى الطاغية بجيوشه، فرأى البحر وقد جفَّ ماؤه، وصار كشارع معبّد، ومع ذلك فقد تهيّب من دخوله لا سيّما وقد نصحه منجِّمه بأن لا يدخل، ولكن جبرائيل عليه السلام وافى الموقف راكباً على فرس، فشمّ حصان الطاغية ريحها فأسرع يعدو خلفها.

دخل فرعون البحر، ومن خلفه أصحابه، لم يتخلّف منهم أحد، وعندما تكاملوا فيه كان بنو إسرائيل قد خرجوا بأجمعهم سالمين **﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾** والمعنى: جاءهم من البحر ما جاءهم، ولحقهم من الأمر ما لحقهم، وفيه تعظيم للأمر.

كانت النهاية المخزية المؤلمة، وما ينتظرهم من العذاب أعظم بكثير.

---

(١) الدَّعوات للرَّاوندي: ٥٥.

٣٢ ـ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم﴾:

ولا يستطيع أحد أن يحيط بأبعاد النعمة التي أنعمها الله جلّ جلاله على بني إسرائيل بهلاك فرعون وجنوده ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ **[القصص: ٤]**.

ولقد أتمّ الله عليهم النعمة بهلاك الطاغية وأتباعه وجيوشه أيضاً، كما إنّهم شاهدوا هلاكهم ليكون ذلك أدعى لمسرتهم، وأكثر من هذا فقد استخلفهم مكانهم ﴿ **وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا**﴾ **[المائدة/ ٢٠]**.

٣٣ ـ ﴿فاخرج لهم عجلاً جسداً﴾:

إن الإنسان ليأخذه العجب مما حدث؛ فعندما استقرّت بهم الدار ذهب نبيُّ الله للميقات ليأتيهم بالتوراة ـ وكان قد وعدهم بذلك ـ وخلّف عليهم أخاه هارون عليه السلام ﴿ ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ **[الأعراف/ ١٤٢]**.

أتدري ما الذي حصل في هذه الغيبة الصغرى؟

لقد أخرج لهم السامري ـ أحد زعمائهم ـ عجلاً وقال لهم **﴿هذا إلهكم وإله موسىٰ﴾** وهذا بحد ذاته لا يدعو للعجب، فربما يكون هذا الشخص مدسوساً، أو منافقاً، ولكن العجب كل العجب أن الأمّة بأسرها ـ تقريباً ـ توافقه على ذلك، وتعبد العجل، وهارون عليه السلام يصرخ فيهم ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ **[طه/ ٩٠]** ولكنهم في شغل شاغل عن هارون، وفي بُعد شاسع عن الله، أتدري بماذا يجيبون هذا الناصح الشفيق ﴿ **قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ**﴾ **[طه/ ٩١]**.

هكذا يكون الانقلاب والانتقال في ساعة من التوحيد إلى الكفر، ومن الإيمان إلى الضلال.

(٨)

١ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [المؤمنون/ ٤٥].

والله جلّ جلاله جعل هارون عليه السلام شريكاً لموسى عليه السلام في تبليغ الرسالة، ليكون ذلك أدعى لإيمان الناس، وزوّدهما بالآيات والمعاجز ما يكفي أهل الدنيا بأسرها حجّة ورشاداً، ولو لم يكن لهما من ذلك إلاّ العصا التي آمن بها السحرة كلّهم، ولم يتخلّف منهم أحد لكفت ذلك، علماً أنّ ما جاءا به من الآيات التسع وغيرها كثير، وقوله ﴿**وسلطان مبين**﴾ برهان ظاهر بيّن.

٢ ـ ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾:

ومن أهم أسباب كفر الأمم وعتوّها هو الاستكبار والاستعلاء، بل للكبرياء دوره الفعّال في تأخر الكثير من مجتمعاتنا عن مسيرة الإيمان والتقى، لهذا وغيره شدّد الإسلام على هذا الداء العضال.

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: الكبرياء رداء الله، فمن نازعه شيئاً من ذلك أكبّه الله في النار[1].

٢ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: إن المستكبرين يجعلون في صور الذر[2]. يطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب[3].

٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أكثر أهل جهنم المتكبرون[4].

٣ ـ ﴿فكذّبوهما فكانوا من المهلكين﴾:

وليس القبط وربّهم فرعون كانوا الهلكى لتكذيبهم رسالة السماء، بل جميع

---

(١) مصباح المتهجّد: ٣٦١.
(٢) الذر: صغار النّمل.
(٣) مشكاة الأنوار: ٧.
(٤) عقاب الأعمال: ٢٢٢.

الأمم المكذِّبة كأمّة نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام، فقد لفّهم جميعاً العذاب والدمار، وحتى مكذبي نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عتاة قريش وذؤبان العرب، فقد كان مصيرهم القتل يوم بدر وما بعدها من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مع ما أعدَّ الله جلّ جلاله للجميع من عذاب الآخرة.

(٨)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ **[الفرقان/ ٣٥]**.

ومضافاً لما تناولته الآيات عن حال نبيين كريمين، وما اختصّ كل واحد منهما، فموسىٰ عليه السلام أعطي الكتاب، وهارون عليه السلام الوزارة، عادت مستعرضة حال الأمم المعذّبة؛ إن الآيات تناولت ـ باختصار ـ أمماً لفّها العذاب، كما ركّزت على مشاهد الغضب والنقمة، فجاء العرض في غاية الرعب والتهويل، يستدعي الجميع إلى أخذ العبرة والاتعاظ.

نعود لإكمال الآيات:

الآية الكريمة ذكرت بعثة موسى وهارون عليهما السلام مزوّدين بالتوراة والمعاجز **﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا﴾** فرعون وقومه **﴿فدمّرناهم تدميراً﴾** فبعد إقامة الحجّة عليهم، ومشاهدة سيلٍ من المعاجز والعبر، وإصرارهم مع ذلك كلّه على الكفر، أهلكناهم بأمر فيه أعجوبة **﴿وقوم نوح لمّا كذبوا الرسل أغرقناهم﴾** ثم تذكر الآية ما حلّ بالبشرية من الطوفان، وإغراق جميع من على الكرة الأرضية عدا الذين نجوا في السفينة **﴿وجعلناهم للناس آية﴾** عبرة وعظة **﴿وأعتدنا﴾** وهيأنا **﴿للظالمين عذاباً أليماً﴾** سوى ما حلّ بهم في الدنيا **﴿وعاد وثمود﴾** أهلكناهم أيضاً لكفرهم وبغيهم **﴿وأصحاب الرس﴾** الرس: بئر، وكان أهلها مكذّبين بالرسل، وبلغ من بغيهم أنّهم ألقوا نبيّهم في البئر، فغضب الله عليهم وأهلكهم **﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾** وأهلكنا أمماً كثيرة مكذّبة كانوا في الفترة التي بين عاد وأصحاب الرس **﴿وكلاً ضربنا له الأمثال﴾** إنّ كل الأمم التي أخذناها بالعذاب حذرناهم، وأرسلنا لهم الرسل، وأقمنا لهم معالم الحق والنجاة **﴿وكلاً تبّرنا تتبيراً﴾** التتبير: التكسير

والتفتيت والمراد: انَّ هؤلاء جميعاً أهلكناهم لتكذيبهم ﴿**ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء**﴾ الآية تذكّر المكذبين بمشهد دمار شاهد جلّهم آثاره، وهي قرى قوم لوط عليه السلام ، والمراد بالمطر: الحجارة التي قذفوا بها من السماء بعد أن قلبت مدائنهم ﴿**أفلم يكونوا يرونها**﴾ في أسفارهم فيخافوا ويعتبروا ﴿**بل كانوا لا يرجون نشوراً**﴾ بل رأوا مشاهد النقمة والعذاب، ولكن عدم خوفهم المعاد، والدار الآخرة جعلهم يمضون قدماً في الكفر والفساد.

(٩)

١ ـ ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء/ ١٠].

في هذه السورة المباركة عرض تفصيلي لقصّة موسىٰ عليه السلام ؛ تبدأ القصة بتكليف السماء له بالرسالة.

فبعد أن تجاوزوا في ظلمهم واستعلائهم وبغيهم على العباد، والله جلّ جلاله يمهل الطغاة ولكنه لا يهملهم؛ لقد جاوزوا الحد فينبغي أن يلقّنوا درساً قاسياً تأخذ منه الأجيال عبرة وعظة، ولكنه اللطيف بعباده، الرحيم بهم، لا يأخذهم على حين غرة، بل يرسل لهم الرسل، ويقيم لهم الحجج، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حيّ عن بيّنة.

لقد أرسل إليهم رسوله موسىٰ بن عمران عليه السلام ، مزوّداً بالمعاجز، يعينه على أداء المهمة أخوه هارون عليه السلام .

٢ ـ ﴿**ألم نربّك فينا وليداً**﴾:

أقبل الرسولان لأعظم طاغية عرفته الكرة الأرضية، بل تجاوز بغيه السماء بادعاء الألوهية، وبلّغاه بالرسالة، وبالأمر الإلهي بإطلاق بني إسرائيل من الإستعباد، وأن يخلّي عنهم.

ويأتي الجواب مكراً ودهاءً وتهويناً بالرسولين، وبما تصوره ـ أو بالأحرى كي يتصور الآخرون ـ إحسانه على الرسول فقال ﴿**ألم نربّك فينا وليداً**﴾ صبياً

صغيراً، فربيناك ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ أقمت سنين كثيرة عندنا، وهي ثماني عشرة سنة، أو أكثر من ذلك ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ وهي قتل القبطي ﴿وأنت من الكافرين﴾ لنعمتنا وحق تربيتنا.

٣ ـ ﴿قال فعلتها وأنا من الضالين﴾:

ورغم أن القتل كان دفاعاً عن مظلوم، ورداً لاعتداء ظالم عنيد، ومع هذا فقد وقع خطأ، لأن القصد كان تخليص الإسرائيلي، فهلك القبطي بضربة لم تكن تستهدف موته ﴿ففررت منكم لمّا خفتكم﴾ ذهبت من بينكم إلى مدين لمّا خفتكم أن تقتلوني.

٤ ـ ﴿فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين﴾:

وبعد حادث القتل، وأمور أخرى، تأزّم الموقف، فجاء إلى موسى عليه السلام من أخبره بتفتيش القوم عنه، ونصحه بالهرب، فخرج على غير هدى وعلم بالطريق، فأدى به المسير إلى مدين حيث يقيم نبيُّ الله شعيب عليه السلام، بعيداً عن سلطان فرعون؛ آواه شعيب وزوّجه من إحدى بناته، فمكث عنده عشر سنين معزّزاً مكرّماً، ثم عاد بعدها لأهله، وفي الطريق وافته الرسالة، وجاءه أمر الله جلّ جلاله أن يأتي فرعون وقومه، بل البشرية جمعاء، داعياً لهم إلى الصراط المستقيم، وترك عبادة غير الله جلّ جلاله.

٥ ـ ﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ﴾:

وبعد أن أعلن نبيُّ الله المهمة التي جاء من أجلها، والرسالة التي يحملها، أخذ يدفع ويبطل منّته التي ادّعاها عليه، وأياديه في تربيته، ومعنى الآية: إنك لو لم تستعبد بني إسرائيل، وتقتل أبناءهم لم أصل إليك، ولنشأت بين ظهراني أهلي، فكأنك تمنّ عليّ بما أسأت به إلى أهلي وعشيرتي.

٦ ـ ﴿قال فرعون وما ربّ العالمين﴾:

انغلق الكلام بينهما عما مرّ من أحداث، ودخل الطاغية في صلب الموضوع مستفهماً وبصوت كأنه لم يبلغه شيء عن وجود إله خالق قادر، وهو الذي أشارت إليه الآية ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ **[القصص: ٣٨]**.

لقد أجاب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن السؤال بأعظم جواب **﴿قال ربّ السموات والأرض وما بينهما﴾** وهنا تتبيّن مواهب النبوّة، حيث ذكر في الجواب السماوات، فلا فرعون ولا غيره ممن ادّعى الإلهية يستطيع أن يقول إنّه خالق السماوات والأرض.

وطال الحوار بينهما، واستعمل الطاغية كل ما يمكنه من التمويه والسيطرة على النفوس، وجاء موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدليل الأعظم تصديقاً لدعواه **﴿فألقىٰ عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾** من أعظم الحيات، وكذلك **﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** أخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانيّاً كالشمس في إشراقها للناظرين إليها.

ومع هاتين الآيتين العظيمتين لم يتحقق الغرض، فلم يؤمن القوم، وليس العجب في عدم إيمان فرعون واستجابته، فالملك والسلطان قديماً وحديثاً يُجحد لهما كل دين ومُثل، ولكن العجب هو إعراض القوم وقد شاهدوا الإعجاز، ولزمتهم الحجّة.

انتهى المشهد بإعراض القوم جميعاً عن الرسالة، وادعوا أنّ الآيتين من السحر، وانَّ عليهم أن يجمعوا السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا سيما وهم في بلد السحر، وانَّ أكابر علمائه حواليهم، لقد حددوا موعداً للقاءٍ.

٧ ـ **﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾**:

كان المشهد عظيماً للغاية، وتتصاعد الروايات في عدد السحرة حتى بلغت أربعين ألفاً، وغير مستبعد ذلك، لرواج سوق السحر آنذاك، كما انَّ مصر مدرستهم الرئيسية، ولأن هذا الجمع قامت به دولة، فيكثروا للرهبة والرغبة.

لقد حضر المشاهدة كل من يتمكن من الحضور، وجاء السحرة بأعظم مما يتصوّر ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ **[الأعراف/ ١١٦]**.

لقد ملؤا الساحة بحيّات تسعىٰ ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ **[طه: ٦٧]**.

إنّه خاف أن يتفرّق الناس قبل أن تتضح لهم معالم الحق.

٨ ـ ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾:

وظن الجمع الفرعوني أنّهم أحرزوا النصر، ومسكوا قصب السبق، لأنهم قد بلغوا الغاية القصوى في جودة العرض، وأتوا بما يعجز عنه ملوك الأرض وشعوبها؛ وفي زهوة النصر، وغمرة الفرح الّتي استمرت بضع دقائق جاءت المفاجأة العظمىٰ ﴿**فألقىٰ موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون**﴾ التهمت العصا في فترة وجيزة جميع ما في الميدان من حيّات، والأعجوبة الأخرى أنها عادت سريعاً بيد نبيّ الله عصا طبيعية لا تختلف عن غيرها.

ويصوّر الثعلبي المشهد: إنّه ألقى عصاه من يده ﴿**فإذا هي ثعبان مبين**﴾ كأعظم ما يكون من الثعابين أسود مدلهم يدب على أربع قوائم قصار غلاظ شداد، وهو أعظم وأطول من بختي عظيم، وله ذنب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله، لا يضرب بذنبه على شيء إلاّ حطمه وقضمه، ويكسر بقوائمه الصخور الصِم الصلاب، ويطحن كل شيء ويصدم الحيطان والبيوت، نفَسَه نار، وله عينان تلتهبان ناراً، ومنخراه ينفخان سموماً، وعلى معرفته شعر كأمثال الرماح، وصارت الشعبتان له ما سعته اثنتا عشر ذراعاً، وفيه أنياب وأضراس لها فحيح وكشيش وصريف وصرير، فاستعرض ما ألقت السحرة من حبالهم وعصيهم وهي تخيل في أعين الناس وعين فرعون أنها تسعىٰ، فجعلت تلقفها وتبلعها واحداً واحداً، حتى لم يرَ في الوادي لا قليلاً ولا كثيراً مما ألقوا، وانهزم قوم فرعون، هاربين منقلبين، فتزاحموا وتضاغطوا ووطىء بعضهم بعضاً حتى مات منهم يومئذٍ في ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً، وانهزم فرعون فيمن انهزم متخوفاً مرعوباً ذاهباً عقله، وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمائة مرّة، فصار يحصل له ذلك أربعين مرة في كل يوم وليلة[١].

٩ ـ ﴿فألقي السحرة ساجدين﴾:

وكل شيء كان يدور في ذهن الطاغية إلاّ استجابة السحرة بأجمعهم لموسى عليه السلام، معلنين إسلامهم في تلك اللحظة، لا يخشونه، وملء مسامعهم

---

(١) عرائس المجالس: ١٨٩.

صنعه ببني إسرائيل ﴿**يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم**﴾ لقد تيقّنوا أن هذا من أمر السماء، ولو كان من صنع البشر لم يخف عليهم، لا سيّما وهم أهل الصنعة؛ لقد هزّتهم أريحية الإيمان فلم يبالوا بالخوف، وهان عندهم كل شيء من أجل الحق، والأعجوبة التي لم يحدث لها مثيل أن يؤمن مثل هذا العدد الكبير بأجمعهم في ساعة واحدة، ولم يتخلّف منهم أحد، و ﴿**قالوا آمنا بربّ العالمين. ربّ موسىٰ وهارون**﴾.

١٠ ـ ﴿**لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾:

كان إيمان السحرة أشق على فرعون بكثير من غلبة موسى عليه السلام وانتصاره في ذلك الحفل العظيم، ولكنّه لم يفقد أعصابه، واستعمل أقصى ما لديه من دهاء وحنكة، وساعده على ذلك أنَّ المجتمع الذي هو فيه أشباه رجال، وعقول ربّات الحجال.

ومن الغريب ـ بل هو في منتهى الغرابة ـ أن يشهد الناس هذا المعجز الأعظم، ثم يتلوه إيمان السحرة بأجمعهم ـ وهم يومئذٍ يمثّلون الطبقة العليا من العلماء والمفكرين ـ ومع هذا كلّه لم يتزحزحوا ـ ولو قليلاً ـ عن الكفر، ولم يستجيبوا لنداء الحق، وهم وإن تغلغلت في نفوسهم خلال القرون الفرعونية عبادة غير الله تعالى، لكنّهم لا عذر لهم بعد هذا المشهد العظيم عن التخلّف عن الحق، لقد نبّه القرآن الكريم على ما كانوا فيه من بعد عن ساحة الإيمان فقال ﴿**إنّهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ [القصص: ٣٢].

ترك فرعون موسى وبني إسرائيل وراح يعالج المشكلة الآنية، بأقصى ما يمكنه من دهاء وفطنة، فقد توجّه إلى السحرة قائلاً ﴿**آمنتم له قبل أن آذن لكم**﴾ أسمح لكم بتصديقه ﴿**إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾ أستاذكم وعالمكم ﴿**فلسوف تعلمون**﴾ فيما بعد ما أفعله بكم، عقوبة لكم على تصديقكم إياه؛ ثم بيّن العقوبة ﴿**لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾ قطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى ﴿**ولأصلبنّكم أجمعين**﴾ وبعد أن أقطع أيديكم وأرجلكم أصلّبكم على جذوع النخل، بحيث لا ينجو منكم أحد.

١١ ـ ﴿**قالوا لا ضير إنّا إلى ربّنا منقلبون**﴾:

وعندما يتغلغل الإيمان في النفوس، وترتفع دوافع العقيدة، فيهون عندها الموت، وهذا هو الذي يدفع بالمؤمنين إلى الاستبسال في ميادين الحرب والشهادة، وأعداؤهم يعرضون عليهم الأمان فلا يعبأون لندائهم.

فالإيمان هو الذي جعل السحرة لا يبالون بتهديد فرعون و **﴿قالوا لا ضير﴾** ومعناه: لا ضرر علينا فيما تفعله بنا **﴿إنّا إلى ربّنا منقلبون﴾** إلى ثواب ربّنا راجعون، فيجازينا على إيماننا وصبرنا بالنعيم الدائم الذي لا ينقضي، ولا يضرّنا قطعك وصلبك، فإنه ألم ساعة وينقضي.

قال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل واحد منهم ولا قطعه[1].

١٢ ـ ﴿فأخرجناهم من جنّات وعيون﴾:

أشار جلّ جلاله في هذه الآية إلى ما حصل لهم في الدنيا فضلاً عمّا أُعدّ لهم في الآخرة؛ وهنا أمر يجب الانتباه إليه، فهم إنّما بغوا واعتدوا لأجل التمتع في الدنيا، ففاتتهم، وخسروها أعظم خسران، ولم يتمتعوا بحياتهم وأعمارهم، ولم يستوفوا المدة المقررة لهم لو كانوا قد تركوا البغي، لقد ماتوا شرّ ميتة، مضافاً لما خسروه من أموال وأولاد.

وإلى هذا يجب أن يتنبّه الذين يطلبون الدنيا، ويسعون إليها بذهاب الآخرة، كقادة الضلال، ورؤساء الفجور، يجب أن يتيقّنوا بأنّ الله جلّ جلاله سوف يحرمهم منها، ومن التمتع بها، فضلاً عما يلحقهم من الهوان والنكال في الآخرة.

١٣ ـ ﴿قال أصحاب موسىٰ إنّا لمدركون﴾:

والواقع أنّ الأمر في غاية الخطورة، أو بالأحرى لقد كانوا قاب قوسين أو أدنى من الموت، لقد انتهوا إلى ساحل البحر، وفي الوقت نفسه شاهدوا طلائع جيش فرعون، وطبيعي أنّ فرعون لو قدر أن يلتحم معهم في معركة كان يكسبها لكثافة عدده وعدّته، وكان يبيدهم عن بكرة أبيهم، ثم يرجع بعدها إلى عوائلهم، يقتل من يقتل، ويستخدم من يستخدم، فلا يعلم إلاّ الله ما حلّ بهم من الخوف،

---

(١) مجمع البيان: ٧/ ٣٢٩.

علماً بأن فزعهم سوف يكون عوناً كبيراً لعدوّهم في سحقهم وإبادتهم.

١٤ ـ **﴿قال كلاّ إنّ معي ربّي﴾**:

وفي الوقت الذي يضطرب فيه أصحاب موسى عليه السلام خوفاً ورعباً مما دهاهم، كان عليه السلام في غاية الاطمئنان بالنجاة، وأنّ الله جلّ جلاله سيجعل لهم مخرجاً من حيث لا يحتسبون، وأن يلحق بعدوّهم نكالاً يبقى عبرةً للأجيال، لذا تراه يرد عليهم **﴿كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين﴾**.

١٥ ـ **﴿فأوحينا إلى موسىٰ أن اضرب بعصاك البحر﴾**:

موسى عليه السلام وبنو إسرائيل على شاطىء البحر بالكيفية التي مرّت، وأعلام الطغاة قد طلعت عليهم، وأقبل العبد الصالح يوشع بن نون عليه السلام على موسىٰ عليه السلام يسأله: بماذا أُمرت يا نبيّ الله؟

ويجيبه: أن أضرب البحر بعصاي.

قال: افعل، فتقدم عليه السلام وفعل ما أُمر به **﴿فانفلق﴾** فانشقّ البحر، وظهرت أرض البحر، وصار الماء عن يمين الأرض ويسارها كالجبل العظيم، وذلك قوله **﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾** فكانت كل قطعة من البحر كالجبل العظيم **﴿وأزلفنا ثم الآخرين﴾** جمعناهم في البحر.

١٦ ـ **﴿وأنجينا موسىٰ ومن معه أجمعين﴾**:

لم يكن يدور في ذهن بني إسرائيل هذا الذي حصل لهم من انفلاق البحر، والنجاة من فرعون، وهم رغم إيمانهم بنبيّهم وما شاهدوه من معاجزه لم تتغيّر أخلاقهم، فهم لم يدخلوا البحر كما أُمروا رغم ما هم فيه من خطر وخوف، وأنت يكاد يأخذك العجب مما حصل، لقد قالوا لنبيّهم: نحن لا نسلك في طريق واحد، فاجعل لكل سبط منّا طريقاً، فضرب عليه السلام البحر فصار فيه اثنا عشر طريقاً، لكل سبط منهم طريق، فاحتجّوا بأن الأرض لا تزال رخوة، فهبّت ريح فجففتها في الحال، ولكنهم مع ذلك أبوا أن يمشوا إلاّ بصورة اقترحوها، وهي: أن يحدث لهم نوافذ في الطرق بحيث يرى كل سبط الآخرين، وحصل هذا أيضاً، فأشار عليه السلام بعصاه فكان ما أرادوا، فساروا حتى عبروا البحر **﴿وأنجينا موسىٰ ومن معه**

أجمعين﴾.

١٧ ـ **﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾**:

لم يكن يحلم بنو إسرائيل ببعض ما حصل لأعدائهم، إنّهم ربما كانوا يدعون على الطاغية بالهلاك، أو يصرفه الله جلّ جلاله عنهم، أمّا أنّه يغرق وجيشه الجرّار في ساعة أو بعضها وهم يشاهدون ذلك، فهذا مما لم يحلموا به أبداً، ولكن لله تدبيراً لا تحيط به العقول، وحساباً مع الطغاة وأعوانهم فوق ما يتصوّر المتصورون؛ لقد شاهد الإسرائيليون بأعينهم الطاغية وجيشه البالغ مليوناً وستمائة ألف تتقاذفهم أمواج البحر، ولكن الرعب الذي ملأ صدورهم منه جعلهم في شكّ من هلاكه، فأخرجه الله جلّ جلاله لهم حتى شاهدوه، وهو قوله تعالى **﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾**.

١٨ ـ **﴿إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾**:

ومن أغرب ما في الحياة هو العناد والكفر والفسوق الذي طبعت عليه البشرية منذ عصرها الأول وحتى اليوم، رغم دواعي الإيمان، ومعالم النجاة التي نصبها جلّ جلاله لهم، يكفي من ذلك أنّه أرسل إليهم مائة وأربعة وعشرين ألفاً من الأنبياء عليهم السلام، كما أنزل عليهم كتباً للهداية.

إنّ ما حلّ بفرعون وجيوشه يكفي البشرية جمعاء استقامة وسيراً على نهج الحق والسداد، ولكن الذي حصل هو العكس، وإذا ببني إسرائيل بعد ساعة من النجاة يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم فيقولون لنبيّهم **﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾**.

ويجيبهم سلام الله عليه والألم يحزّ في قلبه **﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٣٨]**.

وأيضاً يذهب ليأتيهم بالتوراة، وكان قد وعدهم بها عند هلاك الطغاة، وخلّف فيهم أخاه هارون نبيّاً ومعلماً للخير والرشاد، ولكنّهم أعرضوا وعبدوا عجلاً **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً﴾ [الأعراف/ ١٤٨]**. وهكذا من جاء من بعدهم من الأجيال في بعد شاسع عن تعاليم الإسلام.

ومن الغريب جداً ونحن في عصر العلم والنور وأمّة كبيرة من أمم الأرض تقدّس البقر، وبعضهم يعبده، وغيرهم من فرق الضلال أكثر وأكثر.

إنّ ما حدث لفرعون وقومه من الهلاك عبرة وموعظة للبشرية جمعاء، وحجّة تلزمهم طريق الاستقامة والسداد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل/ ١٢].

وتزداد الحجّة على البشرية أن الطاغية حتى هذه الساعة يرقد في بعض متاحف القاهرة، تصديقاً لقوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس/ ٩٢].

(١٠)

١ ـ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل/ ٧].

في هذه السورة المباركة عرض جديد لقصّة موسىٰ عليه السلام، يبدأ من مسيره بأهله حتى نهاية الظالمين.

لقد خرج عليه السلام بزوجته في ليالٍ باردة، وسلك غير الطريق الذي يريده، وأكثر من هذا: فهو عندما أراد أن يوقد ناراً لأهله التي أخذها الطلق لم ينقدح زناده، وبينما هو في هذه الحيرة إذ شاهد عن بعد ناراً، فقصدها لأجل أن يسأل أهلها الطريق، أو يأتي بشعلة منها للإستدفاء.

وجاء في الحديث ما معناه: كن لما لا ترجوه أقرب مما ترجوه، إنّ موسى عليه السلام ذهب ليقتبس لأهله ناراً، فوافته النبوّة.

والمراد: إنَّ لطف الله جلّ جلاله لا يحد، فربما سعى الإنسان للحصول على أمر ضئيل فيرزقه الله سبحانه ما هو أعظم منه بكثير.

نعود للآيات:

﴿**إذ قال موسىٰ لأهله**﴾ أي امرأته وهي بنت شعيب عليه السلام ﴿**إنّي آنست ناراً**﴾ أبصرت ورأيت ناراً ﴿**سآتيكم منها بخبر**﴾ معناه: فالزموا مكانكم لعلّي آتيكم

بخبر الطريق ﴿أو آتيكم بشهاب قبس﴾ بشعلة نار ﴿لعلكم تصطلون﴾ لكي تستدفئوا بها، لأنّهم كانوا قد أصابهم البرد.

٢ ـ ﴿فلما جاءها نودِيَ أن بورك من في النار﴾:

﴿فلما جاءها﴾ جاء موسىٰ إلى النار، يعني التي ظنّ أنّها نار وهي نور ﴿نوديَ أن بورك من في النار ومن حولها﴾ لما رأى موسى النار وقف قريباً منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء، شديدة الخضرة، لا تزداد النار إلاّ اشتعالاً، ولا تزداد الشجرة إلاّ خضرةً وحسناً، فلم تكن النار بحرارتها تحرق الشجرة، ولا الشجرة برطوبتها تطفيء النار، فعجب منها، وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها فمالت إليه، فخافها فتأخر عنها، ثم لم يزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن نودي بنداء الوحي ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ بورك مَنْ في النار: وهم الملائكة، ومن حولها: يعني موسىٰ؛ وذلك أنّ النور الذي رأى موسىٰ كان فيه ملائكة، لهم زجل بالتقديس والتسبيح، فكأنّه قال: بارك الله على من في النار وعليك يا موسىٰ، وهذه تحية من الله سبحانه ﴿وسبحان الله ربّ العالمين﴾ تنزيهاً له عما لا يليق بصفاته تعالى عن أن يكون جسماً يحتاج إلى جهة، أو عرضاً يحتاج إلى محل.

٣ ـ ﴿يا موسىٰ إنّه أنا الله العزيز الحكيم﴾:

أدرك عليه السلام أنه محاط بعوالم أخرى، من ملائكة، ومظاهر القدرة والجلالة، وإِنَّ ذلك لأمر عظيم، بدأ ﴿يا موسىٰ إنّه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي إِنَّ الذي يكلمك هو الله العزيز: القادر الذي لا يغالب، ولا يمتنع عليه شيء؛ الحكيم: في أفعاله، المحكم لتدابيره.

ثم أراه الله آية يعلم بها صحّة النداء ﴿والق عصاك﴾ فألقاها فصارت حيّة ﴿فلمّا رآها تهتزّ كأنها جان﴾ تتحرّك كما يتحرك الجان: الحيّة التي ليست بعظيمة ﴿ولّىٰ مدبراً﴾ رجع إلى ورائه ﴿ولم يعقب﴾ ولم يرجع. فقال الله سبحانه ﴿يا موسىٰ لا تخف إنّي لا يخاف لديّ المرسلون﴾ وهذا تسكين من الله سبحانه لموسىٰ، ونهي له عن الخوف، والمعنى: إنك مرسل، والمرسل لا يخاف، لأنّه لا يفعل قبيحاً، ولا يخلّ بواجب فيخاف عقابي على ذلك.

٤ ـ ﴿إلى فرعون وقومه إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾:

خارجين عن طاعة الله إلى أقبح وجوه الكفر.

وليست المشكلة هي فرعون وحده، وإنّما هي مشكلة شعب فاسق بعيد عن خط الاستقامة والرشاد، وأنت تراهم ربما كانوا أشدّ على الرسول والرسالة من فرعون، ألا تسمعهم يقولون ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف/ ١٢٧]. فهم يحرّضونه ويدفعونه لتتبع موسى عليه السلام وجماعة الإيمان.

والظاهر أن المشكلة تعاد بالنسبة لبقية الطغاة، وأن جميع من حولهم من زعانف يزيدونهم شدّة وتتبعاً للصالحين.

٥ ـ ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾:

وهي المعجزات التي جاء بها نبيُّ الله موسىٰ عليه السلام، ومعنى ﴿مبصرة﴾ واضحة بيّنة، خارجة عن قدرة البشر.

فالله جلّ جلاله جعل آيات أنبيائه ومعاجزهم حجّة بيّنة قاطعة، تلزم الأمّة بأسرها التصديق والاعتراف بأنها من قادر عزيز، لا سبيل لأحد أن يأتي بمثلها.

٦ ـ ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾:

عرفوها وعلموها يقيناً بقلوبهم، وإنّما جحدوها بألسنتهم ﴿ظلماً﴾ لأنفسهم ﴿وعلوّاً﴾ للعلو والرفعة، وتكبّراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام.

وهذا دأب الطغاة في كل عصر ومصر، فقريش كانوا جميعاً على تمام اليقين بصدق الدعوة الأحمدية، ولكن الذي حال بينهم وبين الإيمان العناد؛ لقد رأى زعماؤهم أنّ في النبوّة رفعة للهاشميين، فشقّ ذلك عليهم كثيراً؛ فجمعوا الغوغاء حولهم ضد الرسالة.

كذلك اليهود، فقد كانوا أكثر علماً من قريش بصدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد تلقّوا ذلك أباً عن جد، وإنّما حال بينهم وبين الإيمان الحسد، لقد كرهوا أن يبعث الله رجلاً بالنبوة من ولد إسماعيل عليه السلام وهم يريدونها في ولد إسحاق عليه السلام.

٧ ـ ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ :

لقد هلكوا جميعاً في ساعة واحدة، لقد خسروا أعمارهم ـ علماً أنّ العمر أنفس ما لدى الإنسان في الدنيا ـ كما خسروا أموالهم وأهليهم، والأعظم من ذلك كلّه ما ينتظرهم من عذاب دائم، وخلود في الجحيم، يتمنّى كل منهم أن الدنيا له فيفتدي بها مما هو فيه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة/ ٣٦].

(١١)

١ ـ ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص/ ٣].

وهذا أطول عرض لقصّة نبيِّ الله موسىٰ عليه السلام، بدأ من الولادة وانتهى بعد هلاك الطغاة وتدميرهم، وبين هذا وذاك معاجز وعِبَر تدعو إلى الإيمان بالله ورسله؛ والمعجزة العظمى أنّ هذا التنزيل جاء على لسان نبيّ عربي، لا علم له بالكتابة والقراءة، عاش في مجتمع أمّي.

إن هذا التفصيل للحدث العظيم الذي مرّت عليه المئات من السنين لا يعلمه أهل الديانة اليهودية أنفسهم ولا علماؤهم، مما يجعل الجميع يتيقّن أنه كتاب الله جلّ جلاله الذي أنزله على نبيّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقصّ فيه أخبار الأولين والآخرين بأحسن بيان وإعجاز، تحدّى به فصحاء العرب وبلغائهم، بل العالم أجمع.

٢ ـ ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ :

ويظهر أنّ الرجل تدرّج في الاستعلاء حتى بلغ أقصاه في ادّعائه أنّه الإله الذي يجب أن يُعبد، والذي ساعده على ذلك أنه كان في قوم فاسقين. ومشكلة البشرية أنّ الإنسان حينما يرى مجالاً ـ ولو قليلاً ـ يبادر للاستعلاء بدلاً من الشكر، فهو حينما يكون في حالة مالية جيدة، أو في عافية، فتراه يُسرع بالاستعلاء حسب ما تمكّنه ظروفه، وأنت ربما سمعت من متنازعين يقول أحدهما للآخر: لو جاء ربّك لما خلّصك منّي ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق/ ٧].

٣ ـ ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾:

وهذا هو الغاية في الطغيان والاجرام، والغريب أنّه يقوم بهذا العمل الإجرامي لأنّ بعض الكهنة أخبروه أن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب ذهاب ملكه.

فهو إن كان ربّاً ـ كما يدّعي ـ فلا بنو إسرائيل ولا غيرهم يتمكّن من التغلب عليه، وإن كان مدعياً للربوبية ـ وهو يعلم ذلك جيداً ـ فلا ينفعه هذا الاحتياط الرهيب، وإِنَّ الله بالغ أمره.

إن عمله هذا مظهر من مظاهر التجبّر والطغيان أكثر مما هو في حفظ النظام.

٤ ـ ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾:

وهذه سنّة الحياة التي جعلها الله جلّ جلاله في الأرض، فهو ينتقم من الطغاة ويهلكهم، ويأتي بالمستضعفين فيملّكهم مشارق الأرض ومغاربها.

وقد مرّ عليك ما حصل لنوح وهود وصالح عليهم السلام، وغيرهم كثير.

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون الأولون في أقصى ما تتصوّر من الشدّة والخوف حتى التجأ الهاشمسون ـ حماية لأنفسهم ـ إلى أن يسكنوا شعب أبي طالب، وعانوا من الضيق والجوع والخوف ما لا يعلمه إلاّ الله، وكان أبو طالب يوقظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلاً ويغيّر مكانه خوفاً من أن يكون أحد المشركين قد رصده فيرميه بسهم.

ومضت أعوام قليلة وإذا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يدخل مكة فاتحاً، ويريهم من عطفه وبرّه وإحسانه أكثر مما رآه من أذاهم وإساءتهم، وأزيدك إِنَّ هذه الآية مؤوَّلةٌ أيضاً في الإمام المهدي عليه السلام، فإنّ الله يملّكه مشارق الأرض ومغاربها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية: هم آل محمد، يبعث الله مهديّهم بعد جهدهم، يعزّهم، ويذلّ عدوّهم[١].

(١) الغيبة للشَّيخ الطُّوسي: ١٢٢.

وقال أيضاً: لتعطفنّ الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها، وتلا عقب ذلك قوله تعالى ﴿**ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾.

قال ابن أبي الحديد: وأصحابنا يقولون: إنّه وعد بإمام يملك الأرض، ويستولي على الممالك[1].

٥ ـ ﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾:

كان المفروض أن يُقتل عليه السلام في اللحظة التي ولد فيها، لأنّ القابلة ملزمة بإخبار الشرطة الذين يقفون بباب البيت ينتظرون الوليد، فإن كان ذكراً قتلوه، وإن كان أُنثى تركوها؛ هذا عام في بني إسرائيل، ولكن الله جلّ جلاله ألقى في قلبها محبّة موسىٰ عليه السلام، فأمرت أمّه أن تخفيه، وقالت للشرطة: إنّ النفساء وضعت أُنثى، فامضوا لشأنكم، ثم جاء الأمر الإلهي ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه**﴾ والمعنى: ألهمناها، وقذفنا في قلبها، وليس هو بوحي نبوّة، وهو قريب من قوله تعالى ﴿**وأوحى ربّك إلى النحل**﴾ والمعنى: ألهمها ما تدبّر به أمرها على أحسن نظام.

امتثلت أمّه الأمر فأرضعته، وجعلته في صندوق وألقته في البحر.

٦ ـ ﴿فالتقطه آل فرعون﴾:

وأنت حين تقرأ قصّة موسى عليه السلام تتجلّى لك العناية الإلهية بأروع صورها، وتجد أنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الأجيال تمام قدرته، وأن لا رادّ لإشاءته، وأنّه جلّ جلاله جعل الوليد الذي يفتش عنه فرعون، وقتل الألوف من أجله، يعيش في بيته، وتحت رعايته، ليري الناس أنّه الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر.

٧ ـ ﴿وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك﴾:

لقد أخذت الأمواج الصندوق الذي فيه موسىٰ عليه السلام، وقذفت به قرب قصر

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/٣٣٦.

الطاغية، فأمر بإخراجه، فلمّا فتحوه وإذا بطفل من أحسن ما يكون من الأطفال، فأراد قتله فتعلّقت به الصدّيقة زوجته وهي تقول ﴿**قرّة عين لي ولك**﴾ ويجيبها الطاغية: قرّة عين لك، وأما لي فلا، وأكثر من هذا فقد بلغ الموظفون والشرط الموكّلون بقتل الأطفال أنّ طفلاً وجد في البحر، وهو الآن في قصر فرعون، فجاءوا لقتله، فمنعتهم من ذلك امرأته.

٨ ـ ﴿**وأصبح فؤاد أم موسىٰ فارغاً**﴾:

وأنت لا تستطيع أن تقدّر حالتها، وإن من ذبح ولدها في حجرها تبكيه ساعة وتهدأ، أما هي في حال صعب جداً، تتقاذف بها الأفكار، وتجول في ذهنها جميع الإحتمالات، ومعنى قوله تعالى ﴿**فارغاً**﴾ خالياً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى ﴿**إن كادت لتبدي به**﴾ كادت تصيح على ابنها شفقةً عليه من الغرق ﴿**لولا أن ربطنا على قلبها**﴾ بالصبر واليقين ﴿**لتكون من المؤمنين**﴾ المصدّقين بوعدنا، الواثقين بوحينا.

٩ ـ ﴿**وقالت لأخته قصّيه**﴾:

طلبت أم موسى من ابنتها أن تذهب تفتش عنه، وتتعرّف خبره، وأين وصل به المطاف ﴿**فبصرت به عن جنب**﴾ عن بعد ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ أنها أخته.

١٠ ـ ﴿**وحرّمنا عليه المراضع**﴾:

فبغّضناهنّ إليه؛ وتتجلّى العناية الإلهية أن الطفل يبكي جوعاً، ويؤتى له بعشرات النساء فلا يقبل أن يرتضع من واحدة منهن.

١١ ـ ﴿**فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم**﴾:

وهذا يدل على أن الله سبحانه ألقى بمحبّة موسى في قلب فرعون، حتى صار يطلب له من يرضعه، فلما رأت أخته حبّهم له، ورقتهم عليه قالت: هل أدلّكم على أهل بيت يقبلون هذا الولد، ويحسنون تربيته؟

وهامان كان الغاية في الشيطنة والخبث، فقد تنبّه أن هذه المرأة لها علاقة بالطفل فقال: اسألوها عنه، فإنّها تعرف عنه.

فقالت: لا، ولكنّي أرى اهتمام الملك بذلك فأردت أن أدلكم؛ وصرف الله سبحانه شرّهم عنها وعنه.

١٢ ـ **﴿فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها﴾**:

أنظر رعاك الله إلى أثر الإمتثال لأوامر الله جلّ جلاله، وكيف أن الممتثل يسعد دنياً وآخرة، وإن تصوّر في البداية أنَّ العمل الذي أُمر به شاقاً وصعباً، فهذه المرأة أمرت بإلقاء وليدها العزيز في البحر ـ وهذا أمر في غاية الشدّة والصعوبة ـ ولكنها لمّا امتثلت لأمر الله سبحانه وتعالى، فقد نجا الطفل من القتل، ورجع إليها ترضعه بأمان وبمخصصات تتقاضاها من الطاغية، وإكرامات سنية من زوجته، وأكثر من هذا فقد حصل لبني إسرائيل بعض الإنفراج باعتبارهم يرضعون محبوب الملك.

١٣ ـ **﴿ولمّا بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً﴾**:

والأنبياء عليهم السلام من سنخ خاص، فهم منذ نعومة أظفارهم يتمتعون بأخلاق رفيعة، وسيرة مثالية، وسلوك مستقيم، وإِنَّ علمهم لدني، يفيضه عليهم المولى جلّ جلاله من دون تعلّم، وهم وإن كانوا منذ بداية حياتهم علماء حكماء إلاّ أنَّ البعثة تكون غالباً في سن الأربعين، كما حصل لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكذا جاء في تفسير قوله تعالى **﴿واستوى﴾** قال: بلغ أربعين سنة.

١٤ ـ **﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾**:

وهذه حادثة مهمة في حياة الكليم عليه السلام، جاءت بها الصدفة، وكانت بداية للمجد، كذلك كانت أول طعنة يسددها لفرعون وعصابته.

نعود للآية الكريمة:

﴿ودخل المدينة﴾ يريد مصر **﴿على حين غفلة من أهلها﴾** نصف النهار **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾** يختصمان في الدين **﴿هذا من شيعته وهذا من عدوّه﴾** أحدهما من أهل الإيمان، والآخر من أهل الكفر، وكان الكافر يسخّر الإسرائيلي ليحمل حطباً إلى مطبخ فرعون.

١٥ ـ ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾.

طلب من موسى أن ينتصر له ﴿فوكزه موسىٰ﴾ دفعه في صدره بجمع كفّه ﴿فقضى عليه﴾ فقتله ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ يريد أنَّ عمل المقتول من عمل الشيطان، ثم وصف الشيطان ﴿إنه عدو﴾ لبني آدم ﴿مضلّ مبين﴾ ظاهر العداوة والضلال.

واعلم أنّ ما حصل من قتل الكافر ـ وإن كان من دون قصد لقتله ـ كان نصرة للدين، ودفاعاً عن المؤمنين.

١٦ ـ ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب﴾:

قدّر سلام الله عليه خطورة الموقف، وأنّه ربما علم الطاغية وأعوانه بالأمر فيعسر حينئذٍ الخلاص، ومعنى ﴿يترقّب﴾ ينتظر الأخبار في قتل القبطي.

١٧ ـ ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾.

جاءت صدفة أخرى زادت الموقف شدّة وارتباكاً، فبينا هو صلوات الله عليه يطوف في الأسواق، يتطلّع الأخبار، وإذا بالمسلم الذي خلّصه بالأمس وقتل الكافر من أجله يستصرخه ويستعين به على رجل آخر من القبط قد تخاصم معه أيضاً. قال ابن عباس لما فشا أمر قتل القبطي قيل لفرعون: إن بني إسرائيل قتلت منا رجلاً، قال أتعرفون قاتله ومن يشهد عليه؟ قالوا: لا، فأمرهم بطلبه، فبينما هم يطوفون إذ مرّ موسى من الغد، وأتى ذلك الإسرائيلي يطلب نصرته، ويستغيث به ﴿قال له موسىٰ إنك لغوّي مبين﴾ ظاهر الغواية حيث قاتلت بالأمس رجلاً، وتقاتل اليوم الآخر، ولم يرد الغواية في الدين. والمراد: إن من خاصم آل فرعون مع كثرتهم فإنّه غوي: أي خائب فيما يطلبه، عادل عن الصواب فيما يقصده.

١٨ ـ ﴿فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما﴾:

فموسى عليه السلام أنّب المسلم على مشاكسته وتقاتله مع القوم الكافرين، رغم ما هم فيه من الاستعلاء والشدّة، ولكنه في الوقت نفسه أخذته الرقّة عليه، وجاء ليدفع عنه القبطي، لكنّ المسلم ظنّ أن موسى عليه السلام يريد قتله لما سمع لومه وتأنيبه، لذا بادره قائلاً: ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ فحينئذٍ انكشف

الأمر الذي تبحث عنه المباحث الفرعونية، ووصل النبأ بالوقت إلى فرعون، فأصدر أمره بالقبض على موسىٰ وقتله.

١٩ ـ ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعىٰ﴾:

وبينما هو في حيرته، لا يدري ما يفعل، وما هي الخلفيات التي ستحدث، وإذا برجل يأتي مسرعاً، قد اختصر الطريق. ليعلمه بالمرسوم الصادر بقتله، وينصحه بمغادرة المدينة في الحال قبل أن يلحقه الطلب.

والغريب في الأمر أن هذا الناصح هو حزقيل، ابن عم فرعون وخليفته، وهو المعروف بمؤمن آل فرعون، والذي نزلت سورة من القرآن الكريم باسمه تثميناً لإيمانه ومواقفه الجهادية في نصرة الإسلام وأهله.

٢٠ ـ ﴿فخرج منها خائفاً يترقّب﴾:

لقد اجتمعت عليه في هذه الرحلة دواع كثيرة تفت في عضده، وتزيد في حيرته ووجله، منها الخوف، وجهل الطريق، وليس لديه دابّة يركبها، ولا غذاء يتبلّغ به، ولكنه في الوقت نفسه يملك ثقة بالله تعالى، وأنّه لا يتخلّى عن عبده، لاسيما إذا كان العبد قد بادر فدخل باب الطاعة والامتثال.

وبينا هو يمشي على غير هدى إذ عرضت عليه عدّة طرق، فلم يدر أيّتها يسلك، فتوجّه إلى الله تعالى فقال **﴿عسىٰ ربّي أن يهديني سواء السبيل﴾** فاستجاب له ربّه، ودلّه على الطريق المستقيم إلى مدين.

٢١ ـ ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون﴾:

وبعد رحلة شاقة استمرت ثمانية أيام، يأكل فيها منابت الأرض، وصل إلى بئر يزدحم عليها الرعاة يسقون مواشيهم **﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾** تحبسان غنمهما من الورود إلى الماء، فتعجب من ذلك وسألهما **﴿ما خطبكما﴾** ما شأنكما، ومالكما لا تسقيان مع الناس؟ **﴿قالتا لا نسقي﴾** عند المزاحمة مع الناس **﴿حتى يصدر الرعاء﴾** ينصرف الناس فإنّا لا نطيق السقي، فننتظر فضول الماء، فإن انصرف الناس سقينا مواشينا من فضول الحوض **﴿وأبونا شيخ كبير﴾** لا يقدر أن يتولّى السقي بنفسه من الكبر، ولذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي **﴿فسقى لهما﴾**

سقى موسى غنمهما الماء ﴿**ثم تولّى إلى الظل**﴾ جلس في ظلّ شجرة يستظلّ بها من حرارة الشمس وهو جائع ﴿**فقال ربّي إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير**﴾.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله ما سأله إلاّ خبزاً يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، لقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله، وتشذّب لحمه[1].

٢٢ ـ ﴿**فجاءته إحداهما**﴾:

استجاب الله دعاءه، فما أسرع أن عادت إليه إحداهما ﴿**تمشي على استحياء**﴾ قد غطّت وجهها بكم درعها ﴿**قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ ليكافئك على سقيك لغنمنا.

والأنبياء عليهم السلام كما ذكرنا آنفاً على أتم خصال الكمال، وفي أعلى درجات الشرف، وهم متّصفون بهذه الصفات من قبل بعثتهم؛ لقد جعلهم الله سبحانه في المرتبة العليا من كل فضيلة، لأنّ ذلك أدعى لإيمان الناس بهم، وتصديقهم بما جاءوا به من عند الله، لما يرونه من حسن سيرتهم، واستقامة طريقتهم، فمن هذا الخلق والعفاف ما ذكره المفسّرون وأهل السير والآثار عن نبيّ الله موسى عليه السلام وهو يمشي مع المرأة إلى بيت أبيها، وهو نبيُّ الله شعيب عليه السلام، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسىٰ عجزها، فجعل موسى يعرض عنها، ويغض بصره، ثم ناداها يا أمّة الله كوني خلفي وأرني السمت بقولك؟ أي قولي: الطريق يمنة، أو يسرة، وهكذا.

٢٣ ـ ﴿**قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾:

وصل موسىٰ عليه السلام إلى المنزل، وإذا هو بالعشاء مهيّأ، فقال له شعيب عليه السلام: اجلس يا شاب فتعش.

فقال موسىٰ: أعوذ بالله.

قال شعيب: ولِمَ ذاك، ألست بجائع؟!

قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل

---

(١) نهج البلاغة؛ خطبة ١٥٦.

بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملك الدنيا ذهباً.

فقال شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف، ونطعم الطعام.

فجعل موسىٰ يأكل، ثم حدّثه بأمره، وما جرى له من أحداث، وإنّهم يطلبونه ليقتلوه، وهو المراد بقوله تعالى ﴿**فلما جاءه وقصّ عليه القصص**﴾.

وبشّره شعيب عليه السلام بالأمان، وأنه قد تجاوز مصر بمراحل، وأن لا سلطان لفرعون في بلادهم ﴿**قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾.

٢٤ ـ ﴿**يا أبت استأجره**﴾:

وتوالت النعم على موسى عليه السلام، فأوّلها الأمان على نفسه، وأن لا خطر عليه من فرعون وأعوانه، ثم ايجاد عمل يعيش منه ويدخر، ثم الزواج بابنة شعيب، ومعنى ﴿**استأجره**﴾ اتّخذه أجيراً ﴿**إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين**﴾ أي خير من استعملت من قوي على العمل، وأداء الأمانة.

قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوّته؟

قالت: أما قوّته، فلأنه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا وكذا، وأما أمانته: فإنّه قال لي: امشي خلفي، فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي عجزك.

فلما ذكرت المرأة من حاله ما ذكرت، زاده ذلك رغبةً فيه ﴿**قال إنّي أريد أن أنكحك**﴾ أزوّجك ﴿**إحدىٰ ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثمان حجج**﴾ على أن تكون أجيراً لي ثمان سنين ﴿**فإن أتممت عشراً فمن عندك**﴾ ذلك تفضّل منك، وليس بواجب عليك.

فزوّجه ابنته، واستأجره للرعي، ولم يجعل ذلك مهراً، وإنما شرط ذلك عليه ﴿**وما أريد أن أشقّ عليك**﴾ في هذه الثمانية حجج، ولا أكلفك خدمة سوى رعي الغنم ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصالحين**﴾ في حسن الصحبة، والوفاء بالعهد ﴿**قال**﴾ موسىٰ ﴿**ذلك بيني وبينك**﴾ ذلك الذي وصفت وشرطت عليّ فلك، وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي ﴿**أيّما الأجلين**﴾ من الثماني والعشر ﴿**قضيت**﴾ أتممت وفرغت منه ﴿**فلا عدوان عليّ**﴾ لا ظلم عليّ بأن أكلّف أكثر من ذلك ﴿**والله**

على ما نقول وكيل﴾ شهيد فيما بيني وبينك.

٢٥ ـ **﴿فلما قضى موسىٰ الأجل وسار بأهله﴾**:

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة موسى عليه السلام، فقد أتمّ عشر سنين في منزل شعيب عليه السلام معزّزاً مكرماً، في أهنأ عيش، ثم توجّه بعد ذلك إلى الشام، تصحبه زوجته، وقطيع من الغنم هو حصيلة عمله في السنوات العشر.

لقد سار عليه السلام على غير الطريق مخافة من ملوك الشام، وامرأته في شهرها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن، في ليلة مظلمةٍ شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق، وتفرّقت ماشيته، فأصابه المطر، فبقي لا يدري إلى أين يتوجّه.

٢٦ ـ **﴿قال لأهله امكثوا إنّي آنست ناراً﴾**:

فبينما هو في منتهى الحيرة والقلق وإذا به يشاهد ناراً فقصدها، مؤمّلاً أن يرشده أهلها إلى الطريق، أو يأتي بشيء من النار كي تستدفىء زوجته التي هي في أمسّ الحاجة لذلك.

٢٧ ـ **﴿فلما أتاها نوديَ من شاطىء الوادِ الأيمن﴾**:

ذهب عليه السلام وأقصى أمانيه أن يقتبس ناراً لأهله يستدفئون بها من البرد القارس، فرجع وهو كليم الله ورسوله إلى البشرية جمعاء.

ومعنى الآية الكريمة: نودِي موسىٰ من الجانب الأيمن للوادي (**في البقعة المباركة**) وهي البقعة التي قال الله تعالى فيها لموسىٰ **﴿اخلع نعليك إنّك بالوادي المقدس طوى﴾** وإنما كانت مباركة لأنها معدن الوحي والرسالة، وكلام الله تعالى **﴿من الشجرة﴾** إنما سمع موسىٰ النداء والكلام من الشجرة، لأن الله تعالى فعل الكلام فيها، وجعل الشجرة محل الكلام، لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل، وعلم موسىٰ بالمعجز، وأن ذلك كلامه تعالى، وهذه أعلى منازل الأنبياء، وكان كلامه سبحانه **﴿أن يا موسىٰ إنّي أنا الله رب العالمين﴾** إن المكلّم لك هو الله مالك العالمين، وخالق الخلائق أجمعين، تعالى وتقدّس عن أن يحلّ في محل، أو يكون في مكان، لأنه ليس بعرض ولا جسم.

وينبغي للعاقل أن يأخذ من الرسول الكليم درساً في التواضع، وقد مرّ عليك أنّه بالتواضع حصل على أعلى المراتب.

إنَّ من أراد العزّة والكرامة والرفعة في الدنيا والآخرة فعليه أن يتواضع، ويجب عليه أن يحذر تمام الحذر من أن يحبذ له الشيطان طريق الكبرياء، فيمقت ويهلك في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: «إن الله سبحانه يجعل المتكبرين في القيامة في صورة الذرّ (صغار النمل) فتطأهم الخلائق ثم يؤمر بهم إلى النار».

ثم بيّن سبحانه تمام قصة موسىٰ ﴿**وأن ألقِ عصاك**﴾ إنّما أعاد سبحانه هذه القصة وكررها في السور تقريراً للحجّة على أهل الكتاب، واستمالة لهم إلى الحق، ومن أحبّ شيئاً أحب ذكره، والقوم كانوا يدّعون محبة موسىٰ، وكل من ادّعى محبة سيّد مال إلى ذكره بالفضل، علماً أنّ في كل موضع من مواضع التكرار فوائد وعبراً ﴿**فلما رآها تهتز**﴾ تتحرّك ﴿**كأنّها جان**﴾ حيّة بيضاء ﴿**ولّى مدبراً**﴾ موسىٰ ﴿**ولم يُعقّب**﴾ لم يرجع إلى ذلك الموضع، فنودِيَ ﴿**أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين**﴾ من ضررها ﴿**اسلك يدك في جيبك**﴾ أدخلها فيه ﴿**تخرج بيضاء من غير سوء**﴾ من غير برص ﴿**واضمم إليك جناحك من الرهب**﴾ إنّ الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره فيذهب ما أصابه من الخوف عند معاينة الحيّة ﴿**فذانك برهانان من ربّك**﴾ فاليد والعصا حجّتان من ربّك على نبوّتك ﴿**إلى فرعون وملئه**﴾ أرسلناك إلى فرعون وجماعته بهاتين الآيتين الباهرتين ﴿**إنّهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ خارجين من طاعة الله إلى أعظم المعاصي وهو الكفر ﴿**قال**﴾ موسىٰ ﴿**ربّ إنّي قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ**﴾ بتلك النفس.

٢٨ ـ ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً**﴾:

كانت المهمّة جسيمة للغاية، وفي غاية الصعوبة، لا سيما والهدف هو فرعون، جبّار الأرض وطاغوتها، وتزداد المهمة صعوبة لما بينه وبين الطغاة من فجوة اتّسعت للغاية، لهذا وغيره فقد طلب من الله سبحانه أن يُشرك معه أخاه هارون لما له من حسن البيان، فيجعله ردءاً له: معيناً على تبليغ الرسالة، وأجابه الله سبحانه على سؤاله ﴿**سنشد عضدك بأخيك**﴾ سنجعله رسولاً معك، ونؤيدك بأن نقرنه إليك في النبوّة، وننصرك به ﴿**ونجعل لكما سلطاناً**﴾ حجّةً وقوةً وبرهاناً.

٢٩ ـ ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾.

ومجرى الأحداث لا يساعد على انتصار الرسالة والرسول أبداً، ففرعون عال في الأرض، وفي قوم فاسقين، وقوم موسىٰ وعشيرته في ذلّ وخوف، بحيث يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ولكنّ الله جلّ جلاله إذا أراد شيئاً فلا رادّ لمشيئته.

لقد وعد سبحانه وتعالى الرسولين بالحماية من الطغاة، كما وعدهما بالغلبة والنصرة عليهم، وقد تحقق الأمران بأعظم ما يتصوره المتصوّرون.

نعود للآية:

﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ لا يصل فرعون وقومه إلى الإضرار بكما بسبب ما نعطيكما من الآيات، وما يجري على أيديكما من المعجزات، فيخافكما فرعون وقومه لأجلها؛ ثم أخبر سبحانه أنّ الغلبة لهما عليهم **﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** لفرعون وقومه، القاهرون لهم.

فغدا إلى فرعون، فأخبره حاجبه بأنّ على الباب فتى يزعم أنّه رسول ربّ العالمين.

فقال فرعون لصاحب السباع: خلِّ سلاسلها ـ وكان إذا غضب على رجل خلّاها فقطّعته ـ فخلّاها، فقرع موسىٰ الباب الأوّل ـ وكانت تسعة أبواب ـ فلما قرع الباب الأول انفتحت له الأبواب التسعة، فلما دخل جعلن يبصبصن تحت رجليه كأنهنّ جراء.

٣٠ ـ ﴿فلما جاءهم موسىٰ بآياتنا بيّنات قالوا ما هذا إلاّ سحر مفترى﴾.

وهذا أقصى ما يملكه الطغاة والجبابرة في مقابلة رسالة السماء، وهو أن يرموها بالسحر، ويجيِّشوا البسطاء في الوقوف إلى جنبهم في معارضتها، والعمل بكل قواهم لدحرها.

إن الطاغية كان في غاية الشيطنة، وما نسميه بالبهلوانية، أنظر كيف يستميل قومه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ **[الشعراء/ ٣٥]**.

ومما يلفت النظر أن الوليد بن المغيرة المخزومي ومن لفّ لفّه من جبابرة قريش وطواغيتها تراهم وكأنّهم قد تخرّجوا لتوّهم من المدرسة الفرعونية، فكان أقصى ما لديهم في رمي الرسالة المحمدية وكتابها بالسحر ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر/ ٢٤] لهذا قيل: الكفر أهل ملّة واحدة.

٣١ ـ ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً﴾:

والواقع أنَّ فرعون، بل الفراعنة والطواغيت، وحتى الذين يتحكمون في رقاب الناس اليوم، هم في مرتبة قصوى من الذكاء واللف والدوران، وفي منتهى الإبداع في الرد لما يرد عليهم من مشاكل، كما أنّهم يحسنون تماماً السيطرة على الجماهير، وأنت إذا تأمّلت ما واجه به فرعون الرسالة والرسول تعلم جيداً ما كان يتمتع به من عبقريةٍ ودهاء؛ فمرّة ينسبه للجنون، وأخرى للسحر، وفي هذه المرة يريد الصعود للسماء ليرى الإله بنفسه.

نعود للآية الكريمة:

﴿**فأوقد لي يا هامان على الطين**﴾ فأجّج النار على الطين واتخذ الآجر.

قال قتادة: إنّه أول من اتخذ الآجر وبنى به ﴿**فاجعل لي صرحاً**﴾ قصراً وبناء عالياً ﴿**لعلّي أطلع إلى إله موسىٰ**﴾ أصعد إليه، وأشرف عليه، وأقف على حاله.

قال أمين الإسلام: وهذا تلبيس من فرعون، وإيهام على العوام أنّ الذي يدعو إليه موسى يجري مجراه في الحاجة إلى المكان والجهة ﴿**وإنّي لأظنه من الكاذبين**﴾ في ادعائه إلهاً غيري، وأنّه رسوله.

ومن هذا الباب ما حدث عند مقتل الصحابيّ الجليل عمار بن ياسر يوم صفين؛ فقد تسالم المسلمون على صحة حديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وكان من رواة الحديث عمرو بن العاص نفسه، وكانوا يقولون لأهل الشام: إنّه يرجع إلينا ويترك علياً، وبعد مقتله قالوا: قتله الذي أخرجه[1].

ورواية ابن أعثم: فقال عمرو بن العاص لمعاوية: قد قتل عمار بن ياسر.

(١) الطَّبقات الكبرى: ٣/ ٢٥٤.

فقال معاوية: قتل عمار، فكان ماذا؟

فقال: ألا تعلم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وأنَّ آخر زادك من الدنيا اللبن؟

فقال معاوية: إنما قتله من جاء به إلى الحرب.

فقال عبد الله بن عمرو: وكذلك حمزة بن عبد المطلب يوم أُحد إنّما قتله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقتله وحشي.

فقال معاوية لعمرو: نحّ عنك ابنك هذا الموسوس، الذي لا يدري ما يقول[1].

٣٢ ـ ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾:

ورغم ما كانوا فيه من قوة يعضدها دهاء، وقابلية قصوى في السيطرة على النفوس، تقابلهم أمّة مستضعفة، لا حول لها ولا قوة، ورسالة مستقيمة لا يجوز لها أن تنحرف أو تحيد أبداً.

إنّ مجرى الحوادث ـ كما قلنا ـ يشير إلى غلبة الطغاة، ولكن الغالب القاهر الذي دمّر عاداً الأولى وثمود فما أبقىٰ، طرح فرعون وجنوده المليون والستمائة ألف في ساعة أو بعضها في البحر بشكل لم يحلم به المستضعفون.

٣٣ ـ ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾:

تفكّر واعتبر وانظر بعين قلبك كيف أخرجناهم من ديارهم، وأغرقناهم.

إنّ ما حلّ بالظالمين قديماً وحديثاً يكفينا موعظة وعبرة، فجميع الطغاة أذاقهم الله عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، ليعتبر من بقي منهم بمن مضىٰ، وليعلم طغاة العصر وجبابرته بأنَّ لهم موعداً لا يتقدّمونه ولا يستأخرون عنه.

٣٤ ـ ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسىٰ الأمر﴾:

وهذا الجانب من القرآن الكريم، أعني الإخبار عن تفاصيل حياة الرسل

---

(١) الفتوح: ٣/٢٦٨.

والأمم التي بعثوا إليها، وما حلّ بها من نكبات، ما يأخذ بالأعناق إلى التصديق بأنه كلام الله جلّ جلاله الذي أوحاه إلى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إنَّ أهل الكتابين مع ما هم فيه من عناد وبعد وتكذيب وعداوة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يستطيعوا أن يكذّبوا شيئاً مما جاء في القرآن الكريم.

كما إنَّ فصحاء العرب وبُلغاءهم مع ما بذلوه من دمائهم وأموالهم في مقاومة الإسلام لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله، علماً أنه تحداهم في ذلك.

(١٢)

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة/ ٢٤].

والخط الإسلامي هو الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وتمجيدهم ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة/ ٢٨٥].

كذلك احترام جميع المؤمنين، والاعتراف لكل ذي فضل بفضله، وأن يكرّم بما يستحقه من الإحترام والتبجيل.

والقرآن الكريم سنّ للمسلمين، ذلك فتراه يطري على امرأة فرعون بأحسن ما يمكن من الإطراء ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم/١١].

وفي الوقت الذي تجد الآيات في ذم بني إسرائيل لإعراضهم عن أنبيائهم، ومبادرتهم لتكذيبهم وقتلهم ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة/ ٨٧] وتراكضهم في الباطل، واستجابتهم لكل ناعق ضلال من سامري وغيره، تراه في هذه الآية الكريمة يثني على طائفة منهم لاستجابتهم لنداء السماء، واستقامتهم على الهدى.

نعود للآية الكريمة:

﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا**﴾ هم الأنبياء الذين كانوا فيهم، يدلّون الناس على الطريق المستقيم ﴿**لما صبروا**﴾ لما صبروا وجعلوا أئمة ﴿**وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ لا يشكّون فيها.

(١٣)

١ ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [**الصافات/ ١١٤ ـ ١١٥**].

في هذه السورة المباركة استعراض لقصة موسى وهارون عليهما السلام، جاء فيها ذكر مواهب الله جلّ جلاله عليهما وعلى قومهما.

نعود للآيات:

المنّة: النعمة، والمراد: إنّا أنعمنا عليهما بالنبوّة، وناهيك بها نعمة لا تضاهىٰ، ومرتبة عظمى لا يساويها شيء، ولم تقتصر منته عليهما بالنبوة فقط، بل أضاف إليها النجاة من فرعون، كما استجاب لهما في هلاكه وجيوشه الجرارة، وجعلهما وقومهما الوارثين لملكه وسلطانه.

٢ ـ ﴿**ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم**﴾:

لقد وصف الله جلّ جلاله فرعون بأنه كان عالياً في الأرض ومن المسرفين، كما أنّه بلغ النهاية في إيذائهم، يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسخّرهم في الأعمال الشاقة.

والخلاصة: فقد كانوا يعانون منه الشدائد، ويكابدون المحن.

٣ ـ ﴿**ونصرناهم فكانوا هم الغالبين**﴾:

فبعد تلك المعاناة والهوان والمآسي أذن الله جلّ جلاله في هلاك عدوّهم، وأبدلهم نصراً وعزاً لم يحلموا ببعضه، فقد جعلهم ملوكاً وحكّاماً، وآتاهم ما لم

يؤتِ أحداً من العالمين من النعم وكثرة الأنبياء، لأجل أن يستقيموا ويسيروا على النهج الذي أُمروا به.

٤ ـ ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾:

وهو التوراة، أنزله الله سبحانه على نبيّه موسىٰ عليه السلام.

اقترن هذا الكتاب منذ يومه الأول بظروف صعبة، لقد وعدهم عليه السلام أن يأتيهم بكتاب سماوي يعملون بأحكامه، ويهتدون بأنواره، فذهب عليه السلام للموعد ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف/ ١٤٢].

ترك موسى أخاه هارون عليه السلام فيهم نبياً وقائداً وموجّهاً، ولكنهم في تلك الفترة عبدوا العجل، ولم تنفع معهم نصائح هارون عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ [طه/ ٩٠].

رجع موسىٰ إلى قومه غضبان أسفاً وألقى الألواح التي كتب فيها التوراة فتكسّرت؛ لقد تركهم موحّدين، وعاد إليهم كافرين وليت الزمن، اكتفى بالتوراة بهذا القدر، بل إنّها تعرّضت للتلف من قبل الظالمين.

لقد أبادها (بخت نصر) حين هدّم بيت المقدس وأجلاهم عنه، كما إِنَّها تعرّضت للتلف من قبل طغاة آخرين.

فالتوراة الموجودة اليوم لا يمكن أن يقال عنها انها كتاب سماوي، ففيها من التهافت والخدش لمقام الأنبياء عليهم السلام ما يؤكد تبديلها وتحريفها، ولو لم يكن فيها إلاّ أن ابنتي لوط عليه السلام سقتا أباهما ـ بالتناوب ـ الخمر، واضطجعتا معه، فزنى بهما ـ ومعاذ الله أن يكون ذلك أبداً ـ لكفى ذلك شاهداً على تزييفها وتحريفها.

٥ ـ ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾:

والمراد به الثناء الجميل، وهذا بعض مواهب الله جلّ جلاله لأنبيائه، فهذه الأجيال عبر القرون المتطاولة تلهج بالثناء عليهما، وذكرهما بكل جميل، ويكفي أن تعلم أن القرآن الكريم ذكر موسىٰ عليه السلام بأفضل ما يمكن أن يذكر في ١٣٦

آية، كما ذكر أخاه هارون عليه السلام بنهاية الإجلال والتعظيم في ٢٠ آية.

٦ ـ ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾:

وحاشا لله جلّ جلاله أن يجزي بعض عباده المؤمنين على طاعاتهم بالذكر الجميل مع ما أعدّ لهم في الآخرة من النعيم ويهمل الآخرين ممن وافوا بالطاعة، واجتنبوا المعاصي. كلاّ، ثم كلا، وهو الذي يشكر القليل، ويعطي الكثير، انظر إلى القرآن الكريم فإنّه لم يكتف بذكر بعض الصالحين في كتابه العزيز، بل أنزل سوراً بأسمائهم، ألا تقرأ سورة الكهف وسورة لقمان، وسورة المؤمن.

إن الآية الكريمة ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ تأكيد على أن الله سبحانه لا يضيع عامل من ذكراً وأُنثى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

(١٤)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمن: ٢٣].

١ ـ وهذه السورة المباركة قصّت علينا جانباً مهماً من قصّة موسىٰ عليه السلام، أعقب ذلك قصة مؤمن آل فرعون لارتباطها بالقصّة.

إن المراد بالآيات المعاجز، والله جل جلاله أعطاها لجميع أنبيائه لأن ذلك أدعى لإيمان الخلائق بهم، ولكي يتميّز الصادق من الكاذب ﴿وسلطان مبين﴾ بحجّة ظاهرة لا تخفى على الجميع، وتلزم كل من شاهدها الإيمان بالله وبرسوله، والمراد بذلك العصا، وفلق البحر، وبقية الآيات التسع.

٢ ـ ﴿إلى فرعون وهامان وقارون﴾:

إنّ موسىٰ عليه السلام كان رسولاً للبشرية جمعاء، شأن أولي العزم كلّهم، وإنّما خصّت الآية الطواغيت الثلاثة لأنّهم كانوا سبب ضلال الأمة بأسرها، ولو قدّر لهؤلاء أن يؤمنوا بالله ورسوله لآمن الجميع من قبط وإسرائيليين.

ومن المؤسف أن يترك الإنسان عقله وفهمه ويكون تبعاً لرئيس قدّم مآربه ومصالحه أمام دينه وعقله.

وهكذا يعيد التاريخ نفسه، فكم من باغ مبتدع لأجل أن يترأس، يتبعه بسطاء وغوغاء لا يتركهم ولا يتركونه حتى يسلبهم دنياهم ودينهم.

٣ ـ **﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا﴾**:

كان الجدير بالطواغيت أن يؤمنوا بالله ورسوله بعدما شاهدوا المعاجز تترى، وآيات الله جلّ جلاله تتوالىٰ، ولكنهم لفسقهم ولضمان بقائهم بالحكم عدلوا عن الإيمان مستعملين كل ما يمكنهم من صدّ للرسالة، ورأوا أن يبادروا جانب الرسالة بالقتل تقليلاً لهم، ويستبقوا نساءهم للخدمة إذلالاً ومهانة...

٤ ـ **﴿وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال﴾**:

في ذهاب عن الحق، لا ينتفعون به. إنّ بغيهم وتخطيطهم لإطفاء الأنوار الإلهية قد أعقبهم الهلاك الدنيوي، والذكر السيء عبر السنين المتطاولة، وأعظم من هذا ما لحقهم من عذاب لا يخفّف، وجحيم لا يزول.

٥ ـ **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسىٰ وليدع ربّه﴾**:

والطغاة جميعهم في غاية البهلوانية، والتمكّن من السيطرة على الجماهير، والتلاعب بعقولهم، والهيمنة عليهم، وأنت إذا تأمّلت كلامه تجده في غاية المكر والخداع؛ اسمعه يقول لأصحابه **﴿ذروني أقتل موسىٰ﴾** دعوني أقتله، ومن السياق يظهر أنّ بعضهم حذّره من قتله خوفاً من أن يدعو عليه فيهلك، لذا تراه يقول ردّاً على هذا النصح **﴿وليدع ربّه﴾** فإنه ليس بمقدوره أن يصيبني بمكروه وسوء.

ويتجلّى خداعه في قوله **﴿إنّي أخاف أن يبدّل دينكم﴾** فهو يظهر في غاية العقيدة بصحّة دينه، وبالاهتمام بالحفاظ عليه وعلى مبادئه، وبصورة أوضح يظهر كأنّه على يقين بصحة إلهيته، وأنّه الرّب الخالق، ثم يظهر مرة أخرى وكأنّه مصلح أكبر يخشى على رعيته أن ينشأ فيهم ما يؤدّي إلى الفساد **﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾**.

٦ ـ **﴿قال موسىٰ إنّي عذت بربّي وربّكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب﴾**:

وعندما اشتدّ الأمر على نبيّ الله، وتعاظمت عليه الأمور، وبلغه تهديد الطاغية، توجّه إلى الله جلّ جلاله معتصماً به ومستجيراً ليمنعه من الظالمين ﴿**إنّي عذت بربّي وربّكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب**﴾.

فقد لخص عليه السلام الدواعي التي دعت فرعون بل جميع الطغاة، وبالأحرى جميع أهل الضلال هي الكبرياء، وعدم الإيمان بالقيامة ومواقفها، ولولا ذلك لأبصروا رشدهم واستقاموا.

إن هذه الآية تعطينا درساً عملياً يجب أن نستعمله عند الشدائد والفزع من الظالمين، وهو الاعتصام بالله تعالىٰ من كيدهم، والنجاة من شرورهم ﴿ **وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ * وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ** ﴾ [**النجم/ ٥١**].

(١٥)

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [**الزخرف/ ٤٦**].

١ ـ في هذه السورة المباركة عرض مليء بالعبر، شيّق للغاية يتحدث عن قصّة موسى عليه السلام مع فرعون.

بدأت الآيات بالبعثة مزوّدة بالوثائق التي تقطع بصحّتها، والمعبّر عنها بالآيات «المعجزات» ومعنى قوله ﴿**وملائه**﴾ يريد رؤساء القوم وأكابرهم، لأن الناس ـ وحتى اليوم ـ تبع للرؤساء، ألا تسمع أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف الناس فيقول: «همج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق»[1].

٢ ـ ﴿**فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون**﴾:

وهذا مما يدل على أنّهم كانوا في نهاية الشيطنة، والمقدرة على الهيمنة على الجماهير، إنّهم بضحكهم يريدون إحكام السيطرة على الناس، وإنّ هذه الآيات

(١) نهج البلاغة: كلمة رقم ١٤٧.

مما لا يعبأ بها، ولا يُهتم بأمرها.

٣ ـ **﴿وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها﴾**:

المراد بذلك هي الآيات التسع التي ذكرها الله جلّ جلاله: الطوفان والجراد، والضفادع...، وكل آية منها أشدّ وأعنف من الأخرى، تبلغ بهم أقصى ما يكرهون من الشدّة، ويتضايقون منها كل المضايقة.

٤ ـ **﴿وأخذناهم بالعذاب لعلّهم يرجعون﴾**:

إنّ هذا الذي أصابهم وإن كان في نهاية الشدّة إلاّ أنّه أهون من الفناء الذي ينتظرهم، وما يلزم ذلك من العذاب الأخروي.

كان المنتظر أن يتّعظوا بهذه الأحداث العظام التي شاهدوها، ولكنهم شأن من سبقهم من الأمم غلب عليهم الضلال حتى أوردهم النهاية المشؤومة.

٥ ـ **﴿وقالوا يا أيّها الساحر ادع لنا ربّك بما عهد عندك﴾**:

ومع ما هم فيه من ضيق وكرب ترى طابع التغطرس والكبرياء والاستهزاء هو الغالب عليهم، وما ذلك إلاّ لتأصّل البغي والفساد فيهم، وهم في هذه الحال أشبه بالغريق الذي ينتظره الموت ويمنعه الكبرياء من أن يمد يده إلى من ينتشله، فهو هكذا حتى يهلك **﴿بما عهد عندك﴾** من أنّه يكشف ما بنا من ضرّ عند الإيمان بك وتصديقك **﴿إننا لمهتدون﴾** نؤمن بك، ونقبل دعوتك، بعدما تزيل عنا البلاء الذي نعانيه.

٦ ـ **﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾**:

فهم في كل مرّة يصيبهم البلاء، وتضيق عليهم الدنيا بما رحبت، يتوسّلون بموسىٰ عليه السلام، ويعاهدونه على الإيمان به، والتصديق برسالته، عندما يكشف الله جل جلاله عنهم الضرّ والبلاء، ولكنهم ما أسرع ما ينكثون ويرجعون إلى بغيهم الأول وزيادة.

٧ ـ **﴿ونادى فرعون في قومه﴾**:

وهنا يظهر ما كان يتمتع به الطاغية من مكر وسيطرة على النفوس، وخداع

للجماهير، وهذا شأن جميع الطغاة، وقادة الضلال.

إنّ هذا الاجتماع الذي دعا إليه الطاغية في حال تردّي الوضع بالنسبة له، وانتصار الحق وأهله، كمحاولة منه في الهيمنة، اسمعه وهو يقول لهم ﴿**يا قوم أليس لي مُلك مصر**﴾ المراد إظهار قوّته، وأنّ هذه الأحداث الجسام لا تؤثر على قوّته العسكرية، وسيطرته على البلاد والعباد، والإشعار بضعف الخصم ﴿**وهذه الأنهار تجري من تحتي**﴾ تمر على قصري؛ وتحت تصرّفي ﴿**أفلا تبصرون**﴾ ما أنا فيه من قوة ومنعة، ثم عرّض بنبيِّ الله ﴿**أم أنا خير من هذا الذي هو مهين**﴾ ضعيف ﴿**ولا يكاد يبين**﴾ لا يفصح في كلامه؛ يريد ما أصابه في طفولته من عقدة في اللسان.

قال الحسن: كانت العقدة زالت عن لسانه حين أرسله الله كما قال مخبراً عن نفسه ﴿**واحلل عقدة من لساني**﴾ ثم قال: ﴿**قد أوتيت سؤلك يا موسىٰ**﴾ وإنما عيّره بما كان في لسانه[1].

ثم ارتفع في استهزائه وسخريته ﴿**فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب**﴾ هلاّ طرح عليه أسورة من ذهب إن كان صادقاً في نبوّته، يريد ما كان معروفاً عندهم من أنّهم يلبسون الرئيس سواراً من ذهب ﴿**أو جاء معه الملائكة مقترنين**﴾ يعينونه على مهمته.

٨ ـ ﴿**فاستخفّ قومه فأطاعوه**﴾:

استخفّ عقولهم، وحملهم على الخفة، والجهل، والمراد: تلاعب بعقولهم وهيمن عليها فأطاعوه تمام الطاعة.

٩ ـ ﴿**إنّهم كانوا قوماً فاسقين**﴾:

إن فسقهم وفجورهم هو الذي أرادهم، وكان أشدّ عليهم من فرعون، بل لولا ما كانوا فيه من التحلل والفسق لما أطاعوه، ولنجوا من شرّه، بل لنجوا من الغرق والنار، وغضب الجبار.

---

(١) مجمع البيان: ٩/٨٦.

١٠ ـ **﴿فلما ءَاسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾**:

ءَاسفونا: أغضبونا. وغضب الله سبحانه على العصاة: إرادة عقوبتهم، ورضاه عن المطيعين: إرادة ثوابهم **﴿فأغرقناهم أجمعين﴾** هكذا كانت نهايتهم، لم ينج منهم أحد، ثم تلا ذلك عذاب البرزخ **﴿النار يعرضون عليها غدوّاً وعشياً﴾** **[غافر: ٤٦]** وما أعدّ لهم في الآخرة أعظم من ذلك بكثير **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾** **[غافر/ ٤٦]**.

١١ ـ **﴿فجعلناهم سلفاً﴾**:

سلف ـ الإنسان: من تقدّمه من آبائه وقرابته. والمراد: انّهم تقدّموا إلى النار، **﴿ومثلاً للآخرين﴾** عبرة يتّعظ بهم من جاء بعدهم من الأمم والشعوب.

(١٦)

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ **[الذاريات/ ٣٨]**.

في هذه السورة المباركة عرض ما نزل بالأمم الكافرة المكذّبة بأنبيائها؛ فبعد عرض سريع لقوم لوط عليه السلام جاء قوله **﴿وفي موسىٰ﴾** أي وفي موسىٰ آية **﴿إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾** بحجّة بيّنة وهي العصا **﴿فتولّى بركنه﴾** أعرض عن الاستجابة لنداء السماء متقوّياً بجنده وقومه؛ ووصف اعتماده عليهم بالركن الذي يقوى به البناء ويقوم **﴿وقال ساحر أو مجنون﴾** هكذا قال فرعون لقومه يدفعهم عن الإيمان بموسىٰ عليه السلام فقبلوا منه مع ما في كلامه من تخليط، لأن الساحر هو المتفنن في الاحتيال والخداع، بينما المجنون الذي يتصرّف بدون وعي، فكيف يوصف شخص واحد بهاتين الصفتين المتضادتين؟! ورغم ما في كلامه من تباين وتناقض فقد هيمن على المجتمع **﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾** طرحناهم جميعاً في البحر **﴿وهو مليم﴾** أتى بما يلام عليه من الكفر والجحود والعتو.

(١٧)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ **[الصف/ ٥]**.

من تصفّح سير الأنبياء عليهم السلام وجد أنّ نبيّ الله موسى بن عمران عليه السلام كان عظيم البلاء، شديد العناء، ولعلّ ما حصل له من قومه أضعاف ما أصابه من عدوّه فرعون، والقرآن الكريم يستعرض بعض سيرتهم في آيات كثيرة مرّ عليك بعضها، وفي هذه السورة: ﴿**وإذ قال موسىٰ لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم**﴾ فأنتم مع علمكم برسالتي تؤذوني، بينما الواجب عليكم إكرامي وتبجيلي، ويقول الطبرسي: وكان قومه آذوه بأنواع من الأذى وهو قولهم ﴿**اجعل لنا إلهاً**﴾ ﴿**واذهب أنت وربك فقاتلا**﴾ وما روي في قصّة قارون أنّه دسّ إليه امرأة تزعم أنّه زنى بها، ورموه بقتل هارون، إلى أمور أخرى كثيرة.

﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ فلما مالوا عن الحق والاستقامة خلاّهم وسوء اختيارهم، ومنعهم الألطاف التي يهدي بها قلوب المؤمنين كقوله ﴿**ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه**﴾ **[التغابن: ١١]** ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ لا يفعل بهم الألطاف التي يفعلها بالمؤمنين، بل يخلّيهم واختيارهم.

(١٨)

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ **[النازعات/ ١٥ ـ ١٦]**.

في هذه السورة المباركة جاء الحديث عن بعثة موسىٰ عليه السلام، وتكليفه بالمهمة الشاقة، وهي الذهاب إلى الطاغية، وأن يكلّمه بألطف الأساليب، وتزويده بالآية الكبرى وهي العصا.

والمشهد الثاني من القصة: لقد ذهب نبيّ الله إلى الطاغية وأراه المعجزة

العظمى، ولكنه قابل كل ذلك بالعصيان والطغيان، وتجميع أكثر ما يمكن تجميعه من القوات العسكرية ليدحر نبيّ الله وجنده، ولكن الأمور جرت على العكس من ذلك، فقد انتهى عدوّ الله أبشع نهاية.

نعود للآيات:

﴿**هل أتاك**﴾ يا محمد ﴿**حديث موسىٰ إذ ناداه ربّه**﴾ حين ناداه ودعاه ﴿**بالوادِ المقدس**﴾ المطهّر ﴿**طوىٰ**﴾ اسم الوادي الذي كلّم الله فيه موسىٰ ﴿**اذهب إلى فرعون إنّه طغىٰ**﴾ علا وتكبّر، وكفر بالله، وتجاوز الحد في الاستعلاء والتمرد والفساد ﴿**فقل هل لك إلى أن تزكّى**﴾ تتطهّر من الشرك، وتشهد أن لا إله إلاّ الله؛ وهذا تلطّف في الاستدعاء، ومعناه: هل لك رغبة إلى أن تسلم وتصلح وتطهر ﴿**وأهديك إلى ربّك**﴾ أرشدك إلى طريق الحق الذي إذا سلكته وصلت إلى رضا الله وثوابه ﴿**فتخشىٰ**﴾ فتخافه، فتفارق ما نهاك عنه ﴿**فأراه الآية الكبرىٰ**﴾ يعني العصا ﴿**فكذّب**﴾ بأنّها من الله ﴿**وعصىٰ**﴾ نبيّ الله، وجحد نبوّته ﴿**ثم أدبر**﴾ فرعون بإصرار وعناد ﴿**يسعىٰ**﴾ يعمل بالفساد في الأرض ﴿**فحشر**﴾ فجمع قومه وجنوده ﴿**فنادى**﴾ فيهم ﴿**فقال أنا ربّكم الأعلىٰ**﴾ لا ربّ فوقي ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ**﴾ نكّل به نكال الآخرة والأولى، أغرقه في الدنيا، ويعذّبه في الآخرة ﴿**إنّ في ذلك**﴾ الذي فعل بفرعون حين كذّب وعصى ﴿**لعبرة**﴾ لعظة ﴿**لمن يخشىٰ**﴾ الله تعالى، ويخاف عقابه ونقمته، ودلالة يمكن أن يعتبر بها العاقل ويميّز، بها بين الحق والباطل.

مناجاة

في ثنايا الكتب التي بين أيدينا الكثير مما أوحاه الله جلّ جلاله إلى كليمه موسىٰ بن عمران عليه السلام، أو هو بعض الأسئلة التي سأل النبي موسى عليه السلام عنها سبحانه وتعالى؛ سجّلنا لك من هذا وذاك لتأخذه للاعتبار والاتعاظ، لا للحفظ والرواية، فلو عملت بحكمة واحدة كان أنفع لك من أن تحفظ ألفاً بلا عمل، بل الحفظ بلا عمل وبال على الإنسان، ويكون حجّة عليه يوم القيامة.

وهنا يأتي سؤال عن السبب الذي كلّم الله سبحانه وتعالى موسى؟

وتجيب الرواية الآتية: عن أبي جعفر عليه السلام: أوحىٰ الله عزّ وجلّ إلى موسىٰ عليه السلام: أتدري لِمَ اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟

فقال موسى: لا يارب.

فقال: يا موسى إنّي قلّبت عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد أحداً فيهم أذلّ لي منك نفساً، يا موسىٰ إنّك إذا صليت وضعت خديك على التراب[1].

كما يجب أن تعلم أن معنى أن الله سبحانه وتعالى كلّمه، فليس هو على الشكل المتعارف بيننا، فالله سبحانه وتعالى منزّه عن هذا وشبهه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام/ ١٠٣].

وإنما كان يحدث الصوت في مكان فيسمعه موسىٰ عليه السلام بلا واسطة من الملائكة، كما هي الحال مع بقية الأنبياء عليهم السلام، فقد كان ينزل جبرائيل عليه السلام بالوحي من الله تعالىٰ.

نعود فنذكر بعض هذه المناجاة.

١ ـ «وكان قد خطر في قلب موسىٰ أنّ فرعون في بأس عظيم، وجند كثير، وأنا وأخي وحيدان فريدان، فقال الله تعالى له: إنّكما جندان عظيمان من جندي، وأنا معكما أسمع وأرى، وأبصركما، وأكون معكما فلا تُستضعفان، ولا تُستقلاّن، ولو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها فعلت، ولكن ليعلم ذلك الشقي الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجنوده أنّ الفئة القليلة ـ ولا قليل معي ـ تغلب الفئة الكبيرة بإذني؛ ولا يعجبكما زينته، ولا يهولنّكما عدّته، فلو شئت أن أزيّنكما من زينة الدنيا وبهجتها ما يبهت فرعون وملأه إذا نظروا إليها، ويعلم أنّ مقدرته تعجز عمّا آتيكما فعلت؛ فلا تأسفا عما أزويه عنكما من متاع الدنيا وزينتها، فإنّ ذلك دأبي في أوليائي وأصفيائي، أذودهم عن نعيم الدنيا ولذّتها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن المراتع الرديئة، لكي تستكملوا نصيبكم من كرامتي في الآجل، واعلم أنّه لا يتزيّن أحد من عبادي بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا، وهي زينة الأبرار.

---

(١) قصص الأنبياء: ٢٤٩.

ويقال: إنّ الله تعالى كلّمه في تلك المدة مائة ألف كلمة وأربعة عشر ألف كلمة»[1].

٢ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: «فيما ناجىٰ الله عزّ وجلّ عبده موسىٰ: إنّ لي عباداً أبيحهم جنتي وأحكّمهم فيها.

قال: يا رب من هؤلاء الذين تبيحهم جنّتك وتحكّمهم فيها؟

قال: من أدخل على مؤمن سروراً»[2].

٣ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «بينما موسى بن عمران عليه السلام يناجي ربّه تعالى إذ رأى رجلاً تحت ظل عرش الله، فقال: يا رب من هذا الذي قد أظله عرشك؟!

فقال: هذا كان بارّاً بوالديه، ولم يمش بالنميمة»[3].

٤ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «لما حجّ موسىٰ عليه السلام نزل عليه جبرائيل، فقال موسىٰ: يا جبرائيل ما جزاء من حجّ هذا البيت بلا نيّة صادقة، ولا نفقة طيّبة؟

فقال: لا أدري حتى أرجع إلى ربّي.

فلما رجع قال الله تعالى: يا جبرائيل ما قال لك موسىٰ وهو أعلم بما قال؟

قال: يا رب قال لي يا جبرائيل ما لمن حجّ هذا البيت بلا نيّة صادقة، ولا نفقة طيّبة؟

فقال جل جلاله: ارجع إليه فقل له: أهب له حقّي، وأرضي عنه خلقي.

قال: يا جبرائيل فما لمن حجّ هذا البيت بنيّة صادقة، ونفقة طيبة؟

فرجع إلى الله جل جلاله فأوحى الله جل جلاله إليه: قل له: أجعله في الرفيع

---

(١) عرائس المجالس: ١٨٠.
(٢) أصول الكافي: ٤٠٤.
(٣) روضة الواعظين: ٢/٤٠٢.

الأعلى مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»[١].

٥ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: كان فيما ناجى الله موسى عليه السلام أن قال:

«يا رب أعلمني مما بلغ من عيادة المريض من الأجر؟

قال عز وجلّ: أُوكّل به ملكاً يعوده في قبره إلى محشره.

قال: يا رب فما لمن غسّل الموتى؟

قال: أغسله من ذنوبه كما ولدته أمه.

قال: يا رب فما لمن شيّع الجنازة؟

قال: أوكّل بهم ملائكة من ملائكتي معهم رايات يشيّعونهم من قبورهم إلى محشرهم.

قال: يا رب فما لمن عزّى الثكلى؟[٢].

قال: أظلّه في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي»[٣].

٦ ـ من حديث لأمير المؤمنين عليه السلام: «انّه كان أوحي إليه ـ إلى موسى عليه السلام ـ: إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً فقل: ذنب عجّلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين»[٤].

٧ ـ قال تعالى لموسىٰ عليه السلام: «أتدري أنّ عبداً من عبادي تكون له ذنوب وخطايا حتى تبلغ أعنان السماء فأغفرها له ولا أبالي؟

قال: يا رب كيف لا تبالي؟

قال: لخصلة شريفة تكون في عبدي أحبّها: لحب الفقراء المؤمنين، يتعاهدهم ويساوي نفسه بهم، ولا يتكبّر عليهم، فإذا فعل ذلك غفرت له ذنوبه ولا أبالي.

يا موسىٰ إن الفخر ردائي، والكبرياء إزاري، من نازعني في شيء منهما

(١) الجواهر السنيّة: ٥٣.

(٢) الثكل: فقد الولد.

(٣) ثواب الأعمال: ١٩٤.

(٤) دستور معالم الحكم: ٤٠.

عذّبته بناري»[١].

٨ ـ قال موسىٰ عليه السلام: «يا رب من أهلك الذين تظلّهم في ظل عرشك يوم لا ظلّ إلاّ ظلك؟

قال: يا موسى الطاهرة قلوبهم، والبريئة أيديهم، الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم، الذين يكتفون بطاعتي كما يكتفي الولد الصغير باللبن؛ الذين يأوون إلى مساجدي كما تأوي النسور إلى أوكارها، الذين يغضبون لمحارمي إذا استحلّت مثل النمر إذا أحرد»[٢].

٩ ـ أوحىٰ الله إلى موسىٰ: «لا تزنِ فأحجب عنك نور وجهي، وتغلق أبواب السماوات دون دعائك»[٣].

١٠ ـ روي: أنّ موسى مرّ برجل وهو يبكي، ثم رجع وهو يبكي فقال: إلهي عبدك يبكي من مخافتك.

فقال: يا موسى لو نزل دماغه مع دموع عينيه لم أغفر له وهو يحب الدنيا»[٤].

١١ ـ أوحى الله لموسىٰ: إنّما أقبل الصلاة لمن تواضع لعظمتي، ولم يتعظّم على خلقي، وقطع نهاره بذكري، وألزم قلبه خوفي، وكفّ نفسه عن الشهوات من أجلي[٥].

١٢ ـ أوحى الله إلى موسىٰ: «لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكبيرة هي أشدّ منها»[٦].

---

(١) الجواهر السنيّة: ٥٩.
(٢) الجواهر السنيّة: ٥٩.
(٣) الجواهر السنيّة: ٥٩؛ واعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام منزهون عن هذا وشبهه؛ ولكن الغرض من ذلك بيان قبح هذه الجريمة عند الله جلَّ جلاله.
(٤) الجواهر السنيّة: ١٦٢.
(٥) الجواهر السنيّة: ١٦٤.
(٦) الجواهر السنيّة: ١٦٤.

١٣ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ موسى كان له جليس من أصحابه ممن وعىٰ علماً كثيراً، فغاب عنه لم يخبره أحد بحاله حتى سأل عنه جبرائيل فقال له: هوذا على الباب قد مسخ قرداً، ففزع موسىٰ إلى ربّه وقام إلى مصلاّه وقال: يا رب صاحبي وجليسي.

فأوحى الله إليه: يا موسى لو دعوتني حتى تنقطع ترقوتاك ما استجبت لك، إنّي كنت حمّلته علماً فضيّعه وركن إلى غيري»[1].

١٤ ـ قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: أوحى الله إلى موسىٰ: «حبّبني إلى خلقي وحبّب خلقي إليّ.

قال: يا رب كيف أفعل؟

قال: ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبّوني، فلئن تردّ آبقاً عن بابي، أو ضالاً عن فنائي، خير لك من عبادة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها.

قال موسىٰ: ومن هذا العبد الآبق منك؟

قال: العاصي المتمرد.

قال: فمن الضال عن فنائك؟

قال: الجاهل بإمام زمانه، يعرّفه الغائب عنه بعدما عرفه، والجاهل بشريعة دينه يعرّفه شريعته وما يعبد ربّه، ويتوصل به إلى مرضاته»[2].

١٥ ـ في أخبار موسى: «أنّهم قالوا: سل لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه يرضىٰ به عنّا؟

فأوحى الله إليه: قل لهم: يرضون عنّي حتى أرضى عنهم»[3].

١٦ ـ إنّ موسى عليه السلام قال: «يا رب دلّني على أمر فيه رضاك عني أعمله.

---

(١) الجواهر السنيّة: ١٦٤.
(٢) الجواهر السنيّة: ١٦٤.
(٣) مسكن الفؤاد.

فأوحى الله إليه: إنّ رضاي في كرهك، وأنت ما تصبر على ما تكره.

قال: يا رب دلّني عليه.

قال: فإن رضاي في رضاك بقضائي»[١].

١٧ ـ أوحى الله إلى موسى: «المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار»[٢].

١٨ ـ قال موسىٰ بن عمران عليه السلام: «إلهي فما جزاء من صبر على أذى الناس وشتمهم فيك؟

قال: أعينه على أهوال يوم القيامة»[٣].

١٩ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «قال الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام يا ابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدنّ عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك، فإنّ الحاسد ساخط لنعمتي، مضاد لقسمي الذي قسّمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي»[٤].

٢٠ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: «فيما ناجىٰ الله به موسى: يا موسى أملك غضبك فيمن ملّكتك عليه، أكفف عنك غضبي»[٥].

٢١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «أوحىٰ الله إلى موسى: يا موسى اشكرني حق شكري.

فقال: يا رب كيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به عليّ.

قال: يا موسى الآن شكرتني حين قلت إنّ ذلك مني»[٦].

---

(١) مسكن الفؤاد: ٨١.
(٢) الجواهر السنيّة: ٦٦.
(٣) مشكاة الأنوار: ٢٨٥.
(٤) الجواهر السنيّة: ٣٩.
(٥) الجواهر السنيّة: ٤٢.
(٦) الجواهر السنيّة: ٣٨.

٢٢ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: «كان فيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران من زنى زني به ولو في العقب من بعده، يا موسى بن عمران عف تعفّ أهلك، يا موسى بن عمران إذا أردت أن يكثر خير أهل بيتك فإياك والزنا، يا موسى بن عمران كما تدين تدان»[١].

٢٣ ـ «عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: لما كلّم الله موسىٰ بن عمران عليه السلام قال موسى: إلهي ما جزاء من شهد أني رسولك ونبيّك وأنّك كلمتني؟

قال: يا موسى تأتيه ملائكتي فتبشّره بجنّتي.

قال: إلهي ما جزاء من قام بين يديك فصلّى؟

قال: يا موسى أباهي به ملائكتي راكعاً وساجداً وقائماً وقاعداً، ومن باهيت به ملائكتي لا أعذّبه.

قال: إلهي ما جزاء من أطعم مسكيناً ابتغاء وجهك؟

قال: يا موسى آمر منادياً ينادي يوم القيامة على رؤوس الخلائق: فلان ابن فلان من عتقاء الله من النار.

قال: إلهي فما جزاء من وصل رحمه؟

قال: يا موسى أنسي في عمره[٢] وأهوّن عليه سكرات الموت، ويناديه خزنة الجنة: هلمّ إلينا فادخل من أي أبوابها شئت.

قال موسى: إلهي فما جزاء من كفّ أذاه عن الناس، وبذل معروفه لهم؟

قال: تناجيه النار يوم القيامة: لا سبيل لي إليك.

قال موسى: إلهي فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه؟

قال: يا موسى أظلّه يوم القيامة بظل عرشي، وأجعله في كنفي.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/١٣.

(٢) أنسي في عمره: أزِيْدُ في عمره.

قال: إلهي فما جزاء من تلا حكمتك سراً وجهراً؟

قال: يا موسى يمرّ على الصراط المستقيم كالبرق الخاطف.

قال موسى: فما جزاء من صبر على أذى الناس وشتمهم.

قال: أعينه على أهوال يوم القيامة.

قال: إلهي فما جزاء من دمعت عيناه من خشيتك؟

قال: يا موسى آمن وجهه من حرّ النار، وأمن يوم الفزع الأكبر.

قال: إلهي فما جزاء من صبر عند المصيبة، وأنفذ أمرك؟

قال: يا موسى له بكل نفس يتنفّس درجة في الجنة، والدرجة خير من الدنيا وما فيها.

قال: إلهي فما جزاء من صبر على فرائضك؟

قال: يا موسى له بكل فريضة يؤدّيها درجة من الدرجات العلىٰ.

قال: إلهي فما جزاء من مشى في ظلمة الليل إلى طاعتك؟

قال: أوجب له النور الدائم يوم القيامة؛ إنّ له من الحسنات بعدد كل شيء مرّ عليه سواد الليل وضوء النهار، ونور الكواكب.

قال: إلهي فما جزاء من لم يكفّ عن معصيتك؟

قال: يا موسى أعطيه كتابه بشماله، من وراء ظهره.

قال: إلهي فما جزاء من زنى فرجه؟

قال: يا موسى يدخّن يوم القيامة بدخان أنتن من ريح الجيف، ويرفع فوق الناس.

قال: إلهي فما جزاء من أحبّ أهل طاعتك لحبّك؟

قال: يا موسى أحرّمه على ناري.

قال: إلهي فما جزاء من لم يفتر لسانه عن ذكرك والتضرع والاستكانة لك في الدنيا؟

قال: يا موسى أعينه على شدائد الآخرة.

قال: إلهي فما جزاء من قتل مؤمناً متعمّداً؟

قال: لا أنظر إليه يوم القيامة، ولا أقيله عثرته.

قال: إلهي فما جزاء من دعا نفساً كافرة إلى الإسلام؟

قال: يا موسى آذن له يوم القيامة في الشفاعة لمن يريد.

قال: إلهي فما جزاء من دعا نفساً مسلمة إلى طاعتك، ونهاها عن معصيتك؟

قال: يا موسى أحشره يوم القيامة في زمرة المتقين.

قال: إلهي فما جزاء من صلّى صلاة لوقتها، لم يشغله عن وقتها دنيا؟

قال: يا موسى أعطيه سؤله، وأبيحه جنّتي.

قال: إلهي فما جزاء من كفل اليتيم؟

قال: أظله يوم القيامة في ظل عرشي.

قال: إلهي فما جزاء من أتمّ الوضوء من خشيتك؟

قال: يا موسى أبعثه يوم القيامة له نور يتلألأ بين عينيه.

قال: إلهي فما جزاء من صام شهر رمضان يريد به الناس؟

قال: يا موسى ثوابه كثواب من لم يصمه.

قال: إلهي فما جزاء من صام في بياض النهار يلتمس بذلك رضاك؟

قال: يا موسى له جنّتي، وله الأمان من كل هول يوم القيامة، والعتق من النار»(١).

٢٤ ـ «قال موسىٰ عليه السلام: يا رب من يسكن حظيرة القدس؟

---

(١) فضائل الأشهر الثلاثة: ٩٠.

قال: الذين لم تر أعينهم الزنا، ولم يخالط أموالهم الربا، ولم يأخذوا في حكمهم الرشى»[١].

٢٥ ـ «قال الإمام الباقر عليه السلام: أوحىٰ الله تعالى إلى موسى: لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وترك ذكري يقسي القلوب»[٢].

٢٦ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: فيما ناجى به الله موسى عليه السلام على الطور: «أن يا موسى أبلغ قومك أنّه ما يتقرّب إليّ المتقرّبون بمثل البكاء من خشيتي، وما تعبّد إليّ المتعبّدون بمثل الورع عن محارمي، ولا تزيّن إليّ المتزيِّنون بمثل الزهد في الدنيا عما بهم الغناء عنه.

فقال موسى: يا أكرم الأكرمين فماذا أثبتهم على ذلك؟

فقال: يا موسى أمَّا المتقرّبون إليَّ بالبكاء من خشيتي فهم في الرفيق الأعلى، لا يشاركهم فيه أحد، وأما المتعبّدون إليّ بالورع عن محارمي فأنا أفتش الناس على أعمالهم ولا أفتشهم حياء منهم، وأما المتقرّبون إليّ بالزهد في الدنيا فإنّي أمنحهم الجنّة بحذافيرها، يتبؤوا منها حيث شاؤوا»[٣].

٢٧ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «أوحىٰ الله إلى موسى بن عمران: قل للملإ من بني إسرائيل: إياكم وقتل النفس الحرام بغير حق، فإنّ من قتل منكم نفساً في الدنيا قتلته في النار مائة ألف قتلة مثل قتلة صاحبه»[٤].

٢٨ ـ أوحى الله إلى موسى بن عمران: «قل لبني إسرائيل أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء يجدني عنده»[٥].

٢٩ ـ أوحى الله إلى موسى بن عمران: «أن يا موسى ما خلقت خلقاً أحبّ

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ٣٢٩.
(٢) بحار الأنوار: ١٣/ ٣٤٢.
(٣) النَّوادر: ١١.
(٤) بحار الأنوار: ١٣/ ٣٥٦.
(٥) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٩٠.

إليّ من عبدي المؤمن، وإنما ابتليته لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضائي، فأطاع أمري»[١].

٣٠ ـ قال الله عزّ وجلّ لموسى: «هل عملت لي عملاً قط؟

قال: إلهي صلّيت لك، وصمت وتصدّقت، وذكرتك كثيراً.

قال الله تبارك وتعالى: أما الصلاة فلك برهان، والصوم جُنّة، والصدقة ظل، والزكاة نور، وذكرك لي قصور، فأي عمل عملت لي؟

قال موسى: دلّني على العمل الذي هو لك.

قال: يا موسى هل واليت لي وليّاً قط، أو هل عاديت لي عدواً قط؟

فعلم موسى أنّ أفضل الأعمال الحب في الله، والبغض في الله»[٢].

٣١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: فيما ناجىٰ الله به موسى عليه السلام: «يا موسى، لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين، وركون من اتخذها أباً وأماً، يا موسى لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذاً لغلب عليك حب الدنيا وزهرتها، يا موسى، نافس في الخير أهله، واسبقهم إليه، فإنّ الخير كاسمه، واترك من الدنيا ما بك الغنى عنه، ولا تنظر عينيك إلى كل مفتون بها، وموكل إلى نفسه؛ واعلم أنَّ كل فتنة بدؤها حب الدنيا، ولا تغبط أحداً بكثرة المال، فإنّ مع كثرة المال كثرة الذنوب، لواجب الحقوق؛ ولا تغبطنّ أحداً برضا الناس عنه حتى تعلم أنّ الله راض عنه، ولا تغبطنّ أحداً بطاعة الناس له، فإنّ طاعة الناس له، واتباعهم إياه على غير الحق هلاك له ولمن اتبعه»[٣].

٣٢ ـ مرّ موسى برجل من أصحابه وهو ساجد، ثم انصرف من حاجته وهو ساجد، فقال موسى: لو كانت حاجته في يدي لقضيتها.

---

(١) التَّوحيد: ٤٥.

(٢) مشكاة الأنوار: ١٢٤.

(٣) الجواهر السنيَّة: ٤٠.

فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلت منه حتى يتحوّل عما أكره إلى ما أحب[١].

٣٣ ـ قال الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام: «يا موسى احفظ وصيتي لك بأربعة أشياء:

أولها: مادمت لا ترى ذنوبك تغفر فلا تشتغل بعيوب غيرك.

والثانية: ما دمت لا ترى كنوزي قد نفدت فلا تغتم بسبب رزقك.

والثالثة: ما دمت لا ترى زوال ملكي فلا ترجُ أحداً غيري.

والرابعة: ما دمت لا ترى الشيطان ميتاً فلا تأمن مكره»[٢].

٣٤ ـ مرّ موسى عليه السلام برجل وهو ساجد، رافع يده يدعو، فغاب في حاجته سبعة أيام ثم رجع إليه وهو رافع يده إلى السماء يدعو، فقال: يا ربّ هذا عبدك رافع يديه إليك يسألك حاجة، ويسألك المغفرة منذ سبعة أيام لا تستجيب له؟!

فأوحى الله إليه: يا موسى لو دعاني حتى تسقط يداه، أو تنقطع يداه، أو ينقطع لسانه، لم أستجب له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته[٣].

٣٥ ـ إنّ الله أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، الفقير من ليس له مثلي كفيل، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس له مثلي مؤنس؛ يا موسى ارض بكسرة من شعير تسد بها جوعتك، وخرقة تواري بها عورتك، واصبر على المصائب، وإذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذنب عجّلت عقوبته في الدنيا، وإذا رأيت الدنيا مدبرة عنك فقل: مرحباً بشعار الصالحين؛ يا موسى لا تعجبن بما أُوتي فرعون، وما متّع به، فإنما هو زينة الحياة

---

(١) الجواهر السنيّة: ٤٦.

(٢) التّوحيد: ٣٧٢.

(٣) الجواهر السنيّة: ٥٩.

الدنيا[١].

٣٧ ـ فيما أوحى إلى موسى: ادعني بالقلب النقي، واللسان الصادق[٢].

٣٨ ـ قال موسى عليه السلام: يا رب علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به.

قال: يا موسى قل: لا إله إلاّ الله.

قال: يا رب كل عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إله ألاّ الله.

قال: لا إله إلاّ أنت يا رب، إنّما أردت شيئاً تخصّني به.

قال: يا موسى لو كانت السماوات السبع وعامريهن عندي، والأرضين السبع في كفّة، ولا إله إلاّ الله في كفة مالت بهن لا إله إلاّ الله[٣].

٣٩ ـ إنّ موسى عليه السلام ناجىٰ الله تبارك وتعالى فقال له في مناجاته: يا موسى لا تطوّل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، وقاسي القلب منّي بعيد، وأمت قلبك بالخشية، وكن خلق الثياب، جديد القلب، تخفىٰ على أهل الأرض وتعرف في أهل السماء، حلس البيوت، مصباح الظلم، واقنت بين يدي قنوت الصابرين، وصح إليّ من كثرة الذنوب صياح الهارب من عدوّه، واستعن بي على ذلك فإنّي نعم العون، ونعم المستعان، يا موسى إنّي أنا الله فوق العباد، والعباد دوني، وكل لي داخرون، فاتّهم نفسك على نفسك، ولا تأمن ولدك على دينك إلاّ أن يكون ولدك مثلك يحب الصالحين.

يا موسى أنت عبدي وأنا إلهك، لا تستذلّ الحقير الفقير، ولا تغبط الغني بشيء يسير، وكن عند ذكري خاشعاً، وعند تلاوته برحمتي طامعاً، واسمعني لذاذة التوراة بصوت خاشع حزين؛ اطمئن عند ذكري، وذكّر بي من يطمئن إليّ، واعبدني ولا تشرك بي شيئاً. . .

يا موسى كن إذا دعوتني خائفاً مشفقاً وجلاً، وعفّر وجهك في التراب،

(١) الجواهر السنيّة: ٦١.

(٢) الجواهر السنيّة: ٦١.

(٣) الجواهر السنيّة: ٦٣.

واسجد لي بمكارم بدنك، واقنت بين يدي في القيام، وناجني حين تناجيني بخشية. . .

يا موسى إن انقطع حبلك مني لم يتصل بحبل غيري، واعبدني وقم بين يدي مقام العبد الحقير، ذم نفسك فهي أولى بالذم، ولا تتطاول بكتابي على بني إسرائيل. . .

ثم عليك بالصلاة الصلاة، فإنّها منّي بمكان عظيم، ولها عندي عهد وثيق. . .

يا موسى لا تنسني على كل حال، ولا تفرح بكثرة المال، فإنّ نسياني يقسي القلب، ومع كثرة المال كثرة الذنوب. . .

يا موسى اجعلني حرزك، وضع عندي كنزك من الصالحات، وخفني ولا تخف غيري وإليّ المصير. . .

يا موسى ضع الكبر، ودع الفخر، واذكر أنّك ساكن القبور، فليمنعك ذلك من الشهوات. . .

يا موسى عجّل التوبة، وأخّر الذنب، وتأنّ في المكث بين يدي في الصلاة، ولا ترجُ غيري، اتخذني جُنّة للشدائد، وحصناً لملمّات الأمور.

يا موسى نافس في الخير أهله، فإنّ الخير كاسمه، ودع الشرّ لكلِّ مفتون.

يا موسى إجعل لسانك من وراء قلبك تسلم، وأكثر ذكري بالليل والنهار تغنم، ولا تتّبع الخطايا فتندم، فإنّ الخطايا موعدها النار. . .

يا موسى، الموت لاقيك لا محالة فتزوّد زاد من هو على أن يتزوُّد قادر[١]. . .

٤٠ ـ قال ابن عباس: لما صار موسى إلى طور سيناء إلى الميقات قال له ربّه: ما تبتغي؟

قال: جئت أبتغي الهدى.

---

(١) المستدرك على الصَّحيحين: ١/٥٢٨.

قال: وجدته يا موسى.

قال موسى: يا رب أي عبادك أحب إليك؟

قال: الذي يذكرني ولا ينساني.

قال: فأي عبادك أقضى؟

قال: الذي يقضي بالحق ولا يتّبع الهوى.

قال: أي عبادك أعلم؟

قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، فيسمع الكلمة تهديه إلى هدى، أو تردّه عن ردى[1].

بنو إسرائيل

إمتاز بنو إسرائيل بالتعنت وعدم الانقياد للأنبياء عليهم السلام، وحتى الذي أصابهم من فرعون وجنوده كان نتيجة لبعدهم عن مسار الحق، وتركاضهم في الضلال.

قال ابن عباس: إنّ بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ووافق خيارهم أشرارهم، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فسلّط الله عليهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب، فذبحوا أبناءهم[2].

وهم بعد الرسالة أشد عناداً وبعداً عن منهج السماء، فقد تحمّل منهم نبيّ الله موسى بن عمران عليه السلام صنوف الأذى؛ فمن عجيب أمرهم أن أرجلهم بعد لم تجف من ماء البحر الذي عبروه بسلام، وهلك فيه عدوهم اللدود وجيشه، مرّوا بقوم يعبدون أصناماً لهم، فكان المنتظر منهم وهم أهل رسالة، وقد شاهدوا من ساعة أعظم معجزة إلهية في هلاك الظالمين، وأعظم نعمة غمرتهم لأجل الإيمان، أن يكونوا دعاة للدين الجديد وأن تكون هذه المعجزة من دواعي ترسيخ الإيمان

(١) تنبيه الخواطر: ٢/ ٤٤.

(٢) عرائس المجالس: ٢٠٦.

في قلوبهم.

إنّ الذي حصل هو العكس من هذا، فهم حينما شاهدوا الأصنام والعاكفين عليها قالوا لنبيّهم ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾[1].

وأسقط ما في يديه صلوات الله عليه، ولكن ما السبيل وقد بعث إليهم فاكتفىٰ بتأنيبهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٣٨] والواقع هو جهلهم الذي أوقعهم في هذا وغيره.

ويظهر أن نبيَّ الله صلوات الله عليه استطاع ومن معه من المؤمنين التغلّب على هذه الانتكاسة، وتثبيت التوحيد في نفوسهم ـ إلى حد ما ـ ثم تركهم مخلّفاً فيهم أخاه هارون عليه السلام ليأتيهم بالتوراة من عند رب العالمين، لتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

وفي غياب نبيّهم عمل لهم السامري عجلاً من حليّهم ـ الذهب ـ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف/ ١٤٨].

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه/ ٨٨].

فهل تدري ما حصل؟

أقبل الستمائة ألف كلهم على عبادته باستثناء قلّة من المؤمنين لا تتجاوز الاثني عشر ألفاً، ثبتوا مع هارون عليه السلام.

والأعجب من هذا لما عاد موسى عليه السلام ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [طه/ ٨٦] وقال للسامري: ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنّه ثم لننسفنّه في اليم نسفاً﴾.

فعمد موسى عليه السلام فبرد العجل بالمبرد من أنفه إلى طرف ذنبه، ثم أحرقه بالنار، فذرّه في اليم، فكان أحدهم ليقع في الماء وما به إليه من حاجة فيعرض

(١) عرائس المجالس: ١٦٩.

لذلك الرماد فيشربه، وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿**وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم**﴾.

إنّ هذا التحول السريع ليس له مثيل في تاريخ العالم، ولست أعلم السبب الحقيقي لتغلغل الوثنية في نفوسهم، أهو التأثر بالحكم الفرعوني الطويل؟ فتربّوا جيلاً بعد جيل على عبادة غير الله سبحانه وتعالى، فهم دائماً وأبداً يطلبون معبوداً مادياً عوضاً من فرعون وبديلاً منه، فعند أول نظرة للأصنام يتلهّفون لعبادتها، وعند مشاهدة العجل يعكفون على عبادته[1].

وأستبعد أن يكون العهد الفرعوني خلّف فيهم هذا الأثر السيء، لأنه لم يكن عهد رضا لهم حتى يتأثّروا به، فقد كان ﴿**يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم**﴾ بل هي السليقة الشاذة.

وكيف ما كان فقد استمروا على المشاكسة والعناد، وعدم الإطاعة، وحتى بعد الخلاص من هذه المحنة العظمى، وحكم الله جلّ جلاله في قتل عبدة العجل، وتنفيذ القتل بهم، بعد هذا كله نراهم طيلة الخط مخالفين لنبيّهم عليه السلام، فقد امتنعوا من دخول المدينة التي أمرهم الله عزّ وجلّ بدخولها ﴿**قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ**﴾ **[المائدة/ ٢٤]**.

فتاهوا في أربعة فراسخ أربعين سنة: حتى إذا انتهوا إلى مقدار ما أرادوا، أمر الله الأرض فدارت بهم إلى منازلهم الأولى، فيصبحون في منزلهم الذي ارتحلوا منه، فمكثوا بذلك أربعين سنة[2].

وفي تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ﴿**إذ قلنا**﴾ لأسلافكم ﴿**ادخلوا هذه القرية**﴾ وهي أريحا من بلاد الشام وذلك حين خرجوا من التيه ﴿**فكلوا منها**﴾ من

(١) يقول الأستاذ عبد الرّؤوف المصري في كتابه (معجم القرآن) ٢/ ٣٢؛ وليست عبادة العجل عند اليهود هي الأولى والأخيرة في هذه الحادثة؛ بل كان صنع العجول الذّهبيّة من قبل هذا وبعده؛ فقد صنع (يربعام) أوّل ملوك الأسباط عجلين ذهبيّين ليعبدهما الأسباط العشرة (مراجع التوراة: أمل ١٢/ ٢٨) فوضع أحدهما في دان (تل القاضي قرب طرابلس الشام) والآخر في بيت إيل (قرية بيسين قرب القدس).

(٢) سفينة البحار: ١/ ١٢٨.

القرية **﴿حيث شئتم رغداً﴾** واسعاً بلا تعب **﴿فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾** لم يسجدوا كما أُمروا، ولا قالوا ما أمروا وظلموا، ولكن دخلوها مستقبليها باستاهم وقالوا: حطا سمقانا، يعني حنطة حمراء نتقوّتها أحبّ إلينا من هذا الفعل وهذا القول.

قال الله: **﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾** يخرجون عن أمر الله وطاعته.

والرجز الذي أصابهم: أنّه مات منهم بالطاعون في بعض يوم مائة وعشرون ألفاً، وهم في علم الله أنهم لا يؤمنون ولا يتوبون(١).

هذا ومثله كثير مع نبيّهم صلوات الله عليه، وطبيعي أنّهم كانوا بعد وفاته عليه السلام أسوأ حالاً، وأردى معتقداً، فقد أخرجوا زوجته ـ صفراء بنت شعيب عليه السلام ـ كعلم ينضمون تحته وقاتلوا يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام(٢).

كان هذا وضع المعاصرين للرسالة والنبيّ موسى عليه السلام، والأجيال التي تتابعت من بعدهم كانوا أبعد عن الحق، وأقرب خطىً للباطل، ومعنا الحديث والتأريخ.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم(٣).

وأجمع المؤرخون على أنّ بني إسرائيل قتلوا نبيّ الله زكريا عليه السلام، وابنه يحيى عليه السلام، مع جلالتهما وعظيم قدرهما، ومنزلتهما السامية من بين الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١/١٠٢ ـ ١٠٣. عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام.
(٢) أُنظر قصص الأنبياء: للرّاوندي.
(٣) مجمع البيان: ٢/٤٢٣.

وأعظم من الحديث والتأريخ كتاب الله جلّ جلاله يذكر قتلهم الأنبياء عليهم السلام ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة/ ٦١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة/ ٨٧].

ويقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: ربّما قتلوا في اليوم الواحد سبعين نبياً[١].

التوراة

كتاب سماوي، أنزله الله جلّ جلاله على نبيّه موسىٰ بن عمران عليه السلام، وأكثر من هذا: أراده الله سبحانه وتعالى هادياً ومرشداً للبشرية حتى بعد موسى عليه السلام، لأنّ الأنبياء الذين جاءوا من بعده كانوا يحكمون به ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة/ ٤٤].

ولكن الذي حصل هو أنّ اليهود تعرضوا لحروب إبادية لم تبق لهم أثراً، فضلاً من أن تبقي لهم حضارة ووحياً، إنّها استهدفت التوراة قبل اليهود فأبادتها.

إن (بخت نصر) سبى جميع الكتبة والربانيين، وعموم بني إسرائيل ما عدا الصعاليك، وأحرق بيت الله وخرّبه، ونهب أُورشليم؛ وتلاشى بذلك صوت الأمّة الإسرائيلية ومقدساتها، ومكثوا على ذلك نحو سبعين سنة حتى أطلقهم (كورش) ملك فارس، وبعد إطلاقهم من السبي تجرّد (عزرا) الكاتب وحده لإظهار التوراة لبني إسرائيل[٢].

وإن (أنطوخيوس) الامبراطور لما فتح أورشليم أحرق جميع نسخ الكتب المقدسة التي حصلت له من أي مكان، وأمر بأنّ من يوجد عنده نسخة منها أو

(١) روضة الكافي: ١٠١.
(٢) رحلة مدرسيّة: ٢/١١٨.

يؤدي رسم الشريعة يقتل، وكان التحقيق (التفتيش) على هذا يجري في كل شهر، فيُقتل من وجدت عنده نسخة، أو أدّى رسوم الشريعة، وتعدم تلك النسخة، ودام هذا الحال ثلاث سنين[١].

ويقرّر التاريخ أنّ اليهود توالت عليهم هجمات أعدائهم منذ بداية عهدهم، ففي سنة ٨٨٢ قبل الميلاد حوصرت مدينة السامرة، وحرق كل ما فيها من الكتب الدينية، وهدم الهيكل، وأعدم التابوت الذي كانت فيه التوراة، وتعدد عليهم الهجوم أكثر من مرّة في كل قرن من الزمان، وكان الهدف من الإعتداء قتل اليهود لا سيما المتمسكين بدينهم، وذبح أبنائهم، وإعدام كل ما يتصل بمعتقداتهم من كتب أو رسائل أو معابد، ويديهي أنه عقب كل هجوم كان اليهود الفارون يعيدون كتابة التوراة، ولم يكن مرجعهم عند التدوين إلاّ ما علق في صدورهم، وما وعته ذاكرتهم، الأمر الذي بسببه لا بد أن تكون قد سقطت بعض الآيات أو زادت عن طريق السهو، هذا علاوة على ما تعمّده البعض من ترك بعض الآيات وإضافةً أخرى لتغيير معنى، أو تحديد اتجاه معيّن، والله أعلم بما أضافوا وبما تركوا[٢].

وأعظم من هذا كله أثراً في تحريف التوراة هو التغلغل الوثني الذي استمر في أهل التوراة ولازمهم ملازمة الظل للشمس، فقد ذكر الشيخ البلاغي أسماء الأصنام التي عبدوها في كل دور[٣] وأكثر من هذا فقد جعلوا معابدهم وأماكنهم المقدّسة بيوتاً للأصنام.

إنّك لو قرأت تأريخهم لا تجد عصراً لهم مضوا فيه على الاستقامة، ملتزمين بنهج السماء، فهم ونبيّ الله هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ بين أظهرهم، ونبيّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذهب ليأتيهم بالتوراة، ومع هذا كلّه صيّروا العجل رباً وعكفوا على عبادته وقالوا لهارون ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه/ ٩١].

وهم من بعد موسىٰ وهارون أسوأ حالاً، وأبعد استقامة، ومثل هذا المجتمع

(١) رحلة مدرسيّة: ٢/١١٩.
(٢) محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رسولاً نبيّاً: ١٨٦.
(٣) أنظر رحلة مدرسيّة: ١/١١٢.

خليق بأن يتلف كتب الله جلّ جلاله المنزّلة، قبل أن يتلفها العدو القاهر.

إنّ التوراة المتداولة اليوم كتبها العائدون من التهجير، وهي لا تواكب العقل السليم؛ وكان الجدير بهم أن يكتبوها كتعاليم دينية من دون أن ينسبوها للوحي الإلهي المجيد، أضف إلى ذلك أنَّ نوايا بعض هؤلاء الكتبة كانت غير سليمة، يطلبون بها الرفعة وحطام الدنيا، وقد أنّبهم الله جلّ جلاله على ذلك ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

نماذج من التهافت:

ولعمري إنَّها أكثر من أن تحصىٰ، وكأنّ الذين كتبوها لهم مع كانوا أشد الناس عداءً للأنبياء عليهم السلام، حتى نسبوا إليهم الطامات، إنّ هؤلاء الكتبة، بل وجميع الأحبار والرهبان ليأنفون من نسبة هذه المساوىء إلى آبائهم وأجدادهم فما بالهم ينسبونها إلى أنبياء الله وصفوته من خلقه؟!

نعود فنذكر:

١ ـ في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما ملخصه:

انّ بني إسرائيل قالوا لهارون اجعل لنا آلهة يسيرون أمامنا فقال لهم انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وأطفالكم وأتوني بها، فأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك وصيّر عجلاً مسبوكاً فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمام العجل لإجراء رسوم عبادته الوثنية وتقديم قرابين العبادة له.

٢ ـ في العدد السادس من الفصل الثامن والعشرين من سفر الأيام الأولى: سليمان ابنك وهو يبني بيتي ودياري لأني اخترته لي إبناً وأنا أكون له أباً.

٣ ـ في الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الأول: إن سليمان خالف الشريعة وتزوّج بالنساء المشركات فأملى قلبه وراء آلهة أخرى فذهب سليمان وراء عشتاروت آلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وبنى مرتفعه لكموش رجس

الموابيين، ولمولك رجس بني عمون، وعمل لسائر نسائه المشركات مثل ذلك.

أنا لا أدري أهؤلاء أنبياء ورسل الله جلّ جلاله أم انّهم ـ وحاشاهم ـ دعاة إلحاد؟ ألم يخجل هؤلاء من تدوين هذه المخازي ونسبتها إلى أقدس الخلائق وأطهرهم.

٤ ـ التوراة تقول: إنّ يعقوب أخذ جديين من المعز، وصنع منهما أطعمة، ولبس ثياب عيسو، وزوّر ملاسة يديه وعنقه بأن جعل عليها جلد جدي لكي يكون مشعراً كعيسو، وقال لأبيه إسحاق: أنا عيسو بكرك فعلت كما كلمتني، كل من صيدي فقال: هل أنت ابني عيسو؟ فقال يعقوب: أنا هو، فأكل إسحاق من الصيد، وشرب خمراً، ثم بارك يعقوب ببركة الثروة والسيادة.

٥ ـ في الفصل الثاني والثلاثين/ العدد الرابع والعشرين إلى الحادي والثلاثين ملخصه أن يعقوب صارع الله.

٦ ـ في العدد ٩ و١٠ و١١ من الفصل الرابع والعشرين وفيها: صعد موسى وهارون وناداب وأبهو وسبعون من شيوخ بني إسرائيل فرأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمدّ يده إلى شراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا.

٧ ـ في العدد الرابع عشر من الفصل السابع والعشرين من سفر العدد أنّ الله قال لموسىٰ وهارون في هذا المقام (وعصيتما قولي) وفي العدد الحادي والخمسين من الفصل الثاني والثلاثين أنّ الله قال لهما (وخنتماني).

٨ ـ في سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر وهو (وصعد لوط من صوغر، وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر وسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض، فهلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه لنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها) إلى أن تقول (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما).

٩ ـ في سفر التكوين الإصحاح التاسع وهو (وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس

كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه).

١٠ ـ وأنّ يهوذا زنى بكنته على أنها زانية، وفي الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين (ونظر يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطّت وجهها، فمال إليها على الطريق وقال هاتي أدخل عليك لأنه لم يعلم أنّها كنته).

إنّ هذا الدسّ والتحريف كان له أعظم الأثر في إبعاد مثقفي اليهود عن الدين، بل تعدّى أثره إلى غيرهم من مثقفي العالم.

لقد وجد النشء الجديد بقيّة تعاليم هي أقل من أن تنزلها السماء، أو يحكم بها النبيّون، فشردوا عن الدين، وتابعهم غيرهم، ولم ينتبهوا إلى أن هذه الفوضى وضعها الوضاعون، لا علم له بها جبرائيل ولا موسى، ولم يرها الربانيون ولا الأحبار.

لقد تنبّه القائمون على الديانة اليهودية بأنّها في مسار بعيد عن العقل السليم، لذا فهم يجتمعون منذ سنوات كثيرة يدرسون التوراة ليعيدوها في حلّة جديدة تناسب العصر، وهيهات ذلك.

١١ ـ وتحدث الدكتور موريس بوكاي في مخالفة التوراة للحقائق العلمية:

إننا نجهل مثلاً التاريخ التقريبي لظهور الإنسان على الأرض، ولكننا اكتشفنا آثار أعمال إنسانية ترجع دونما ريب إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، فلا يجوز إذن اعتبار النص التوراتي لسفر التكوين كما لو كان صحيحاً، إذ يذكر السلالات البشرية، والتواريخ التي تحدد بداية الإنسان (خلق آدم) أنها ترجع إلى سبعة وثلاثين قرناً قبل المسيح، وبإمكان العلم أن يقوم في المستقبل بتدقيقات في التّوقيت أعظم من تقديراتنا الحالية، ولكنا نستطيع أن نكون واثقين بأنّا لن نثبت أبداً أن الإنسان ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبري سنة ١٩٧٥، إنّ معطيات التوراة المتعلقة بالإنسان القديم هي إذاً خاطئة، هذه المقابلة مع العلم تبعد كل مسألة دينية بالمعنى الصحيح[١].

(١) التَّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ١٢.

وقال أيضاً:

إنّ أقدم نصوص التوراة العبرية يعود الى القرن التاسع بعد المسيح[١].

وتحدث عما فيها من تحريف فقال: وهكذا يبدو إسهام الإنسان في نص العهد القديم عظيماً[٢].

وقال ادموند جاكوب: إن من المرجَّح أنّ ما يقصّه العهد القديم عن موسى والآباء لا يتفق إلاّ قليلاً مع السرد التاريخي للأحداث، غير أن الرواة عرفوا في مرحلة النقل الشفهي كيف يفرغون من العمل فيضاً من الأناقة والخيال، ليصلوا بينها بوقائع مختلفة وفقوا معها الى إبراز ما حدث لدى بداية العالم والبشرية، كما لو كان قصّة معقولة في النهاية عند بعض الناقدين، على أن ثمة مجالاً للتفكير بأنّه بعد استقرار الشعب اليهودي في أرض كنعان، أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل المسيح استعملت الكتابة دونما دقة، لنقل العرف والمحافظة عليه، حتى بالنسبة الى الشرائع التي يخيَّل للناس أنها ذات ديمومة أطول، ومن بين هذه الشرائع التي قيل: إنّها كتبت بيد الله الوصايا العشر التي نقلت في العهد القديم بمقتضى نصين (سفر الخروج ٢٠ ـ ١ ـ ٢١) و(دونزونوم) (٥ ـ ١ ـ ٣٠) جوهرهما واحد، ولكن التلّوث والتغير فيهما باديان، ولقد كان ثمّة اهتمام بجميع محفوظات مهمة فيها: عقود، ورسالات ولوائح شخصية (قضاة وموظفون كبار في ـ المدن ولوائح سلالات) ولوائح قرابين، ولوائح الغنائم بحيث تكوّنت محفوظات يسّرت التوثيق أثناء التحرير النهائي للمؤلفات التي أفضت الى الأسفار التي بين أيدينا، ففي كل سفر ألوان أدبية مختلفة ممزوجة، وعلى الاختصاصين بحث أسباب هذا التجميع المتباين بين أنواع مختلفة من الوثائق[٣].

وقال الدكتور موريس ايضاً: إنّ العهد القديم مجموعة مؤلفات غير متساوية الطول، ومختلفة النوع، كتبت خلال أكثر من تسعة قرون في لغات عدة أخذاً

---

(١) التَّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ١٦.
(٢) التَّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ١٧.
(٣) التَّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ١٨.

بالسماع، وكثير من هذه المؤلفات صححت ثم أكملت تبعاً للأحداث أو للضرورات الخاصة، على مدى أجيال متباعدة أحياناً بعضها عن بعض[1].

وقال ايضاً: وهكذا ظهر العهد القديم كصرح لأدب الشعب اليهودي من أصوله حتى العصر المسيحي، وقد حررت الأجزاء التي يتألّف منها، وتمّت وروجعت فيما بين القرنين العاشر والأول قبل المسيح؛ هذه وجهة نظر شخصية ندلي بها هنا عن تأريخ تحريرها، بل لقد أخذت معطياتها التاريخية الأساسية من فصل (التوراة) المكتوب لدائرة المعارف العالمية من قبل (سندروز) وهو أستاذ في جامعة الدمينيكان في سولشوار، ولا بد لكي نفهم ما هو العهد القديم من أن نتذكر هذه المعلومات المثبتة تماماً في أيامنا هذه من اختصاصيين ذو خبرة رفيعة؛ فقد اختلط الوحي بكل هذه الكتابات، ولا نعرف اليوم إلاّ ما تركه لنا منه الذين عالجوا نصوصه حسب هواهم وفقاً للظروف التي وجدوا فيها، والضرورات التي واجهوها.

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية مع تلك الموجودات في مقدمات التوراة المختلفة والهادفة في أيامنا الى تبسيطها للناس، نتأكّد من أنَّ الوقائع مسوقة فيها بطريقة متغايرة جداً؛ إننا بغضِّ النظر عن الوقائع الأساسية المتعلقة بتحرير الأجزاء لا نزال نجد التباسات تضلِّل القارىء وتخفض أهمية الوقائع حتى يصل بها الأمر الى حد تشويه الحقيقة، وكثير من المقدمات أو من المداخل وضعت للتوراة تخفي الحق على هذا النمط، فقد حرّفت كتب بكاملها مرات متعددة (مثل الأسفار الخمسة) ثم اكتفى بالإشارة الى تفاصيل يمكن أن تكون قد زيدت فيما بعد[2].

وقال ايضاً: وكيف أمكن لهذه المجموعة المتباينة المضمون من رسائل مكتوبة خلال فترة سبعة قرون على الأقل، صادرة عن مصادر متغايرة جداً أن تموج كلّها فيما بعد في مألف واحد، وتصبح على تقلّب القرون، ومع بعض الفروق حسب الطوائف كلاًّ لا يتجزأ، وكتاب الوحي في اليهودية[3].

---

(١) التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ٢٠.
(٢) التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ٣٢.
(٣) التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ٣٠.

وقال: فالعهد القديم يمثل مجموعة من الأعمال الأدبية تمت خلال تسعة قرون تقريباً، إنّه يشكل فسيفساء لا انسجام فيها، تغيّرت عناصرها في مجرى القرون بأيدي الناس، قطع يؤتى بها وتضاف الى الموجود، وهكذا دواليك حتى أصبح من العسير في أيامنا تحديد هوية المصادر(١).

وأزيدك علماً أن الحذف من التوراة قد استمر حتى في العصور المتأخرة، لقد حذفوا منها نسب ابراهيم عليه السلام المتصل بآدم عليه السلام لما رأوا أنه يتصادم مع معطيات العلم الحديث.

قال الدكتور موريس بوكاي: لقد طبع قبل العصر الحديث العديد من نسخ التوراة التي قدِّمت الى القراء مع مقدمات توضيحية لتواريخ الأحداث التي تسلسلت منذ خلق العالم حتى العصر الذي طبعت فيه، فكانت الأرقام تختلف قليلاً تبعاً للعصور، فالترجمة اللاتينية لعام ١٦٢١ مثلاً تقدّم أمثال هذه التعليمات، واضعة ابراهيم قبل بقليل، وواضعة الخلق في القرن الأربعين قبل المسيح تقريباً، وتوراة والتون المتعددة اللغات، والمطبوعة في القرن الثامن عشر تقدم للقارىء زيادة عن نصوص التوراة في لغات عدة لوائح مماثلة لما هو مثبت هنا لأسلاف ابراهيم، وكل التقديرات تكاد تتفق مع كل الارقام المقدمة هنا، ولما أطلّ العصر الحديث لم يعد بمقدور الناشرين التمسك بمثل هذه التأريخات الخاضعة للهوى من دون التصادم مع الاكتشافات العلمية التي تضع الخلق في عصر سابق كثيراً، ولذلك فقد اكتفوا بحذف مثل هذه اللوائح والمقدمات، وامتنعوا عن لفت نظر القارىء الى تقادم نصوص التوراة التي اعتمد عليها قديماً في كتابة مثل هذه التأريخات، وأنه ليس في الاستطاعة اعتبارها معبرة عن الحقيقة(٢).

وقال: وفي عصر متأخر رفض البعض عندما تحقّقوا من تناقض بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة، الانقياد لمثل هذا الموقف(٣).

---

(١) التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ٢١٥.
(٢) التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ٤٣.
(٣) التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ٥١.

١٢ ـ وقال الدكتور شلبي: من الدراسات السابقة اتضح لنا أنَّ الفساد سرعان ما تطرق لبني إسرائيل بعد موسى، واتضح لنا كذلك أنّ أسفار العهد القديم كتبت متأخرة، أي من عهد الفساد والاضطراب، وأن كتابها ليسوا هم الذين أسندت لهم هذه الأسفار، وليس الوحي مصدراً لهذه الأسفار، والنتيجة الواضحة لكل هذه المقدمات أن اليهود كتبوا التوراة انعكاساً لأخلاقهم ولآمالهم، وبنوها هدفاً يحققون به مقاصدهم، ومن هنا ازدحمت الأخطاء في العهد القديم وتوالت، وقد عنى كثير من الباحثين بإبراز أخطاء العهد وإيضاح ما به من خلط وتضارب.

وبعد عرض إجمالي للتوراة وأهدافها يقول: وهكذا كتب أسفار العهد القديم باسم الله والله منها بريء، إنها في الحقيقة، صدى لانفعالات اليهود وأحاسيسهم ثم يذكر نماذج مما فيها من التهافت[١].

وقال الأستاذ عبد الرؤوف المصري: وقد أصاب التوراة التحريف، فإن التوراة العبرية تخالف التوراة اليونانية المتفق عليها قديماً من علماء اليهود، وإن أحدهما تخالف الأخرى بعدة خلافات بيّنة لا تخفى على المطلع أنهما تخالفان التوارة السامرية، وكانت اليونانية معتبرة عند سائر المسيحيين الى القرن الخامس عشر، وكانوا الى هذه المدة يعتقدون بتحريف النسخة العبرانية، ولا تزال اليونانية معتبرة عند الكنيسة اليونانية وكنائس الشرق، أما العبرانية فهي المعتبرة عند اليهود والبروتستانت مع تحريف اليهود لها لتخالف اليونانية، وكل أهل توراة من هذه الثلاث يدّعي صحة توراته، وإليك مثلاً من اختلافها: في العدد الرابع إصحاح ٢٧ من سفر التثنية اقرأ قوله ـ في النسخ الثلاثة: فإذا عبرتم الاردن الخ كما اختلفت في المدة بين آدم ونوح، ثم أشياء كثيرة أخرى لا محل لذكرها، ومختصر القول: إنّ التبديل والتحريف قد وقع في التوراة وحققه علماء الطوائف المسيحية ومؤرخوهم مثل: يوسبيس، وآدم اكلارك، وهورن، وكثير غيرهم من المؤرخين كري كري نازين زن، وايدوجسو، ويوسي بيس من العلماء المحققين؛ فقد تحقق لهم ضياع نسخة التوراة من صندوق الشهادة الذي كان موسى عليه السلام أمر بوضعها فيه وعدم

---

(١) اليهود: ٢٦٠.

طلوعها منه إلا مرّة كل سبع سنين لاسماع بني إسرائيل، كما وضّح كيفية وضعها في الصندوق بآية ٩ ـ ٣١ تثنية، وآية ٩ ـ ٨ سفر الملوك الأول، فقد ذهب بعضهم الى أن عزرا النبي كان عمل التوراة بعد انعدامها بإعانة حجي وزكريا الرسولين كما قال كليمنس، وكذلك يقول جاتز كانلك في كتابه ص١١٥ طبع سنة ١٨٤٣ : اتفق أهل العلم على أنَّ نسخة التوراة الأصلية، وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بختنصر، ولما ظهرت نقلوها بواسطة عزرا النبي، ضاعت تلك النقول ايضاً في حادثة انيثوكس.

وقد عقد في مدينة (نانث) سنة ٤٢٥م مجمع مسيحي قرر عدم صحة ثمانية كتب من العهد القديم، فأخرجها منه، لأن اليهود وضعوها، وعقدت عدة مجامع: مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤، ومجمع كارتهج سنة ٣٩٧، وكان المجتمعون ٢٧ عضواً من أخطر العلماء، منهم المحقق اكتساين، ثم تلا ذلك ثلاثة مجامع أخر: مجمع ترلو، ومجمع فلرونس، ومجمع ترنث، وصارت هذه الكتب مسلمة من المسيحيين حتى ظهر البروتستانت، فرفضوا ما قررته المجامع السالفة الذكر، حتى أن المؤرخ يوسيفوس اليهودي لم يثق بهذه التوراة ولم يأخذ عنها ما بين الخليقة الى نوح، وما بين الطوفان الى ابراهيم فموسى... أما التوراة السامرية فيرجع تأريخها الى ٣٤ قرناً على زعم أهلها، وهي مكتوبة على جلود القرابين، لكن العلماء المحدثين لا يقدّرون عمرها بأكثر من ألف سنة، واليهود لا يعترفون بها، لأنه يوجد ٢٦٥ خلافاً بين التوارتين السامرية واليهودية (للقرائين والربانيين) في حين أنه لا يوجد في السامرية الحروف الأربعة الموجودة في العبرية وهي الهمزة والهاء والعين والحاء، ويعتبر اليهود أن السامريين هم بابليون ويدعونهم (كوتيم) أي كوتيون نسبة إلى بلدة كوتة البابلية حيث جاءوا الى فلسطين بعد الأسر البابلي، والأسفار الخمسة مكوّنة من ثلاث مجموعات قانونية في تواريخ متباينة، فالمجموعة الأولى هي (قانون العهد) كتب في القرن التاسع، والمجموعة الثانية (قانون التثنية) أي الاشتراع، كتب بين القرن الثامن والسابع، والمجموعة الثالثة (قانون الأحبار) وهو القانون الإسرائيلي كتب بعد المنفى الواقع بعد ٥١٦ ق.م.

وهذه المجموعات الثلاث تؤلف الأسفار الأولى من التوراة، وقد أنجزت

حوالي سنة ٣٥٠ ق.م. (مركز المرأة عند حمورابي والموسوي).

ويقول (وستفال) في كتابه (مصادر الأسفار الخمسة) و(روس) في كتابه (التاريخ المقدس والقانون) ما ملخصه: إنّ أبحاث علماء النقد الحديث أثبتت أن هذه الشرائع لم تكتب ولم تُذع كلها معاً في وقت واحد بترتيبها، أي (ترتيب الأسفار الخمسة) إنما كانت مبعثرة في مجموعات قوانين خصوصية، إذن فالذهاب الى أن غير واحدة من هذه الشرائع (الأسفار) إنما كانت عادات قديمة ثُبتت وكتبت بعد أن صارت ذات قوة قانونية بمرور الأيام، أمر يمكن التسليم به بل إن الأستاذ الالماني (ديلتش) بدا له أن يبرهن بالاستناد الى هذا: أن كل شرائع القانون الموسوي كانت في بابل من قبل المتشرّع العبراني بقرون عدة، ثم قال بتفوق قانون حمورابي على القانون الموسوي[1].

وقال أيضاً: التحريف واقع في التوراة، وكان في الأصل توراة واحدة وقد فقدت، لهذا أحدث عزرا توراة جديدة، وقد ضاعت هذه ايضاً في وقعة (انيتوكس) وقد أخرج المجمع العلمي المسيحي المنعقد سنة ٣٢٥م في مدينة (نانث) ثمانية كتب من التوراة لعدم صحتها، والآن يوجد ثلاث نسخ من التوراة (عبرانية، يونانية سامرية) وكل منها تخالف الأخرى في كثير من النصوص، فالتوراة اليونانية كانت المتفق عليها من اليهود وعند عامة المسيحيين حتى القرن الخامس عشر لأنهم يعتقدون تحريف التوراة العبرانية من اليهود عمداً ليخالفوا به المسيحيين بتوراتهم اليونانية، وقد جنح البروتستانت الى الاتفاق مع اليهود باعتمادهم التوراة العبرانية، مخالفين بذلك بقية المسيحيين، ثم هاتان تخالفان التوراة السامرية، وكل أهل توراة يعتقدون بتحريف غيرها[2].

ومن حديث الصادقين

لقد وردت أحاديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام في بعض

(١) معجم القرآن: ١/ ١٥٢.
(٢) معجم القرآن: ٢/ ٢٦٠.

ما أوحاه الله جلّ جلاله إلى نبيّه موسى بن عمران عليه السلام، وبعض ما جاء في التوراة، نذكر من ذلك:

١ ـ قال الإمام الرضا عليه السلام: كان نقش خاتم موسى عليه السلام حرفين، اشتقهما من التوراة: اصبر تؤجر، أصدق تنج[١].

٢ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: أربع في التوراة وإلى جنبهن أربع:

من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح على ربّه ساخطاً.

ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربّه.

ومن أتى غنياً فتضعضع له ليصيب من دنياه فقد ذهب ثلثا دينه.

ومن دخل النار ممن يقرأ القرآن فإنّما كان ممن يتخذ آيات الله هزواً.

والأربع إلى جنبهن:
كما تدين تدان.
ومن ملك استأثر.
ومن لم يستشر يندم.
والفقر هو الموت الأكبر[٢].

٣ ـ سأل أبو ذر الغفاري رضوان الله عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فما كان في صحف موسى؟

قال: كانت عبراً كلّها، عجبت لمن أيقن بالموت لِمَ يفرح، ولمن أيقن بالنار لِمَ يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها لِمَ يطمئن إليها، ولمن أيقن بالقدر لِمَ ينصب، ولمن أيقن بالحساب لِمَ لا يعمل[٣].

٤ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: مكتوب في التوراة: ابن آدم كن كيف شئت، كما تدين تدان، من رضي من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من

(١) الجواهر السنيّة: ٥٢.
(٢) الجواهر السنيّة: ٥٨.
(٣) البرهان في تفسير القرآن: ٤/ ٤٥٢.

العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته، وزكت مكسبته، وخرج من حد الفجور[١].

٥ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: إن في التوراة مكتوباً: يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق، فإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك، فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك[٢].

٦ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: إنّ في التوراة مكتوباً: يا موسى إنّي خلقتك واصطفيتك وقوّيتك وأمرتك بطاعتي، ونهيتك عن معصيتي، فإن أطعتني أعنتك على طاعتي، وإن عصيتني لم أعنك على معصيتي، يا موسى ولي المنّة عليك في طاعتك لي، ولي الحجّة عليك في معصيتك لي[٣].

٧ ـ مكتوب في التوراة: يا موسى من أحبّني لم ينسني؛ ومن رجا معروفي ألحّ في مسألتي.

يا موسى إنّي لست بغافل عن خلقي، ولكن أحب أن تسمع ملائكتي ضجيج الدعاء من عبادي، وترى حفظتي تقرّب بني آدم بما أنا مقوّيهم عليه ومسببه لهم.

يا موسى قل لبني إسرائيل: لا تبطرنّكم النعمة فيعاملكم السلب، ولا تغفلوا عن الشكر فيقارعكم الذل، وألحّوا في الدعاء تشملكم الرحمة بالإجابة، وتهنيكم العافية[٤].

٨ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: مكتوب في التوراة: فيما ناجى الله به موسىٰ: يا موسى امسك غضبك فيمن ملكتك عليه أكفف عنك غضبي.

قال موسى: يا رب أيّ عبادك أعزّ عليك؟

قال: الذي إذ قدر عفا[٥].

---

(١) الجواهر السَّنيَّة: ٤٥.
(٢) الجواهر السَّنيَّة: ٤٤.
(٣) التَّوحيد: ٤٠٦.
(٤) الجواهر السَّنيَّة: ٦١.
(٥) الجواهر السَّنيَّة: ١٦٤.

٩ ـ في التوراة: يا ابن آدم ما من يوم جديد إلاّ ويأتي فيه رزقك من عندي، وما من ليلة إلا وتأتي الملائكة من عندك بعمل قبيح؛ خيري إليك نازل، وشرّك إليّ صاعد.

يا بني آدم أطيعوني بقدر حاجتكم إليّ، واعصوني بقدر صبركم على النار، واعملوا للدنيا بقدر لبثكم فيها، وتزوّدوا للآخرة بقدر مكثكم فيها.

يا بني آدم زارعوني وعاملوني واسلفوني أربحكم عندي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

يا ابن آدم أخرج حب الدنيا من قلبك فإنّه لا يجتمع حب الدنيا وحبّي بقلب واحد أبداً[١].

١٠ ـ مكتوب في التوراة: اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنّه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت؛ والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغير[٢].

١١ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: مكتوب في التوراة التي لم تغيّر: أنّ موسى سأل ربّه فقال: يا رب أقريب مني فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟

فأوحى الله عزّ وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني.

فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلاّ سترك؟

قال: الذين يذكرونني فأذكرهم، ويتحابون فيّ فأحبهم، فأولئك الذين إن أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم، فدفعت عنهم بهم[٣].

١٢ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: في التوراة مكتوب: ابن آدم تفرّغ لعبادتي املأ قلبك غنى، ولا أكلك إلى طلبك، وعليّ أن أسدّ فاقتك، واملأ قلبك خوفاً منّي، وإلاّ تفرغ لعبادتي املأ قلبك شغلاً بالدنيا، ثم لا أسدّ فاقتك، وأكلك إلى

(١) الجواهر السَّنيَّة: ٤٣.
(٢) الجواهر السَّنيَّة: ٦٦.
(٣) الجواهر السَّنيَّة: ٣٧.

طلبك[1].

١٣ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مكتوب في التوراة: إن الله قاتل القاتلين، ومفقر الزانين؛ لا تزنوا فتزني نساؤكم[2].

١٤ ـ في صحف موسى: يا عبادي إنّي لم أخلق الخلق لأستكثر بهم من قلّة، ولا لآنس بهم من وحشة، ولا لأستعين بهم على شيء عجزت عنه، ولا لجرّ منفعة، ولا لدفع مضرّة، ولو أنّ جميع خلقي من أهل السماوات والأرض اجتمعوا على طاعتي وعبادتي، لا يفترون عن ذلك ليلاً ولا نهاراً ما زاد في ملكي شيئاً، سبحاني وتعاليت عن ذلك[3].

١٥ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: في التوراة أربعة أسطر: من لا يستشير يندم، والفقر الموت الأكبر، كما تدين تدان، من ملك استأثر[4].

١٦ ـ قال الإمام الرضا عليه السلام لرأس الجالوت: يا يهودي أسألك بالعشر الآيات التي أُنزلت على موسىٰ بن عمران عليه السلام، هل تجد في التوراة مكتوباً نبأ محمد وأمته: إذا جاءت الأمة الأخيرة، اتباع راكب البعير، يستجوب الربّ جداً جداً، تسبيحاً جديداً في الكنائس الجدد، فليفزع بنو إسرائيل إليهم وإلى ملكهم لتطمئنّ قلوبهم فإنّ بأيديهم سيوفاً ينتقمون بها من الأمم الكافرة في أقطار الأرض، وهكذا هو في التوراة مكتوب؟

قال رأس الجالوت: نعم إنّا لنجده كذلك[5].

١٧ ـ وقال عليه السلام لرأس الجالوت: يا يهودي هل تعرف حيقوق النبي؟

قال: نعم، إنّي به لعارف.

قال عليه السلام: فإنّه قال وكتابكم ينطق به: جاء الله بالبيان من جبال فاران،

(١) الجواهر السَّنيَّة: ٣٧.
(٢) الجواهر السَّنيَّة: ٥٥.
(٣) الجواهر السَّنيَّة: ٦٠.
(٤) التَّوحيد: ٤٢٤.
(٥) الجواهر السَّنيَّة: ٣٠.

وامتلئت السماوات من تسبيح أحمد، يحمل خيله في البحر كما يحمل في البر، يأتينا بكتاب جديد بعد خراب بيت المقدس ـ يعني بالكتاب القرآن ـ أتعرف هذا وتؤمن به؟

قال رأس الجالوت: قد قال ذلك حيقوق عليه السلام ولا ننكر قوله[1].

١٨ ـ وفي نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيّه وصفيه في الألواح، وهي معظم التوراة، وعليها مدار كل شريعة.

وهي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله الملك الجبار، العزيز القهّار، لعبده ورسوله موسى بن عمران: أن سبحني وقدّسني، لا إله إلاّ أنا فاعبدني، ولا تشرك بي شيئاً، واشكر لي ولوالديك إليّ المصير، أحيك حياة طيّبة، ولا تقتل النفس التي حرّم الله عليك، فأضيّق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها، ولا تحلف باسمي كاذباً، فإنّي لا أطهّر ولا أزكّي من لا يعظّم اسمي، ولا تشهد بما لا يعي سمعك ولا تنظر عينك، ولا يقف عليه قلبك، فإنّي أوقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة، وأسألهم عنها، ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي، فإن الحاسد عدوّ نعمتي ساخط لقسمتي، ولا تزن، ولا تسرق، فأحجب عنك وجهي وأغلق دون دعوتك أبواب السماوات، ولا تذبح لغيري، فإنّه لا يصعد إليّ من قربان أهل الأرض إلاّ ما ذكر عليه اسمي، ولا تفجُرنّ بحليلة جارك، فإنّه أكبر مقتاً عندي، وأحبب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك[2].

١٩ ـ إنّ كعب الأحبار رأى حبراً من اليهود يبكي، فقال له: ما يبكيك؟

فقال: ذكرت بعض الأمر.

فقال كعب الأحبار: أنشدك الله لئن أخبرتك بما أبكاك لتصدقني؟

قال: نعم.

---

(١) عرائس المجالس: ٢٩٤.
(٢) التوحيد: ٤٢٨.

قال: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن موسى نظر في التوراة فقال: إنّي أجد أمّة هم خير الأمم أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالكتاب الأول والآخر، يقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال، فقال موسى: يا رب اجعلهم أمتي.

قال: هم أمّة محمد يا موسى.

قال له الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله تعالى هل تجد في كتاب الله المنزل على موسى: أن موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمة هم الحامدون، رعاة الشمس، هم المحكمون وإذا أرادوا أمراً قالوا نفعله إن شاء الله تعالى.

فقال موسى: فاجعلهم أمتي.

فقال: هم أمة محمد يا موسى.

قال له الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إنّي أجد أمّة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم ـ وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار، غير أن موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبداً مملوكاً ولا أمّة إلاّ اشتراه من تلك الصدقة، وما فضل يحفر له حفرة عميقة القعر وألقاه فيها، ثم دفنه كي لا يرجعوا فيه ـ وهم المسبّحون المستجيبون، المستجاب لهم، وهم الشافعون المشفّعون.

قال موسى: يا رب اجعلهم أمتي.

قال: هي أمة محمد يا موسى.

قال له الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل على موسى أن موسى نظر في التوراة فقال: إنّي أجد أمّة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله تعالى، وإذا هبط إلى وادٍ حمد الله تعالى، الصعيد لهم طهور، والأرض لهم مسجد،

حيثما كانوا يتطهّرون من الجنابة، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرّاً محجّلين من آثار الوضوء، فاجعلهم أمتي.

قال: هي أمّة محمد يا موسى.

قال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله هل تجد في التوراة أنّ موسى نظر فيها فقال: يا رب إنّي أجد أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، وإذا عملها كتبت له عشر إلى سبع مئة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه، وإذا عملها كتبت عليه سيئة مثلها، فاجعلهم يا رب أمتي.

قال: هم أمّة محمد يا موسى.

قال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة، فقال: يا رب إنّي أجد أمّة مرحومة أصفياء، يرثون الكتاب، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، فلا أجد أحداً منهم إلاّ مرحوماً فاجعلهم أمتي.

قال: هم أمّة محمد يا موسى.

فقال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزّل أن موسى نظر في التوراة، فقال: يا رب إنّي أجد أمّة مصاحفهم في صدورهم، يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفّون في صلاتهم صفوفاً كصفوف الملائكة، أصواتهم في مساجدهم كدويّ النحل، لا يدخل النار منهم أحد، ومنهم من يرى الحساب إلاّ مثل ما يرى الحر من وراء الشجر، فاجعلهم أمتي.

قال: هم أمّة محمد يا موسى.

قال الحبر: نعم.

قال فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله لأمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم

أجمعين، قال موسى: يا ليتني من أصحاب محمد، فأوحى الله تعالى إليه ثلاث آيات يرتضيه بهن، فقال تعالى: ﴿**يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخُذ ما آتيتك وكن من الشاكرين**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**دار الفاسقين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ قال: فرضي موسى كلَّ الرضا[1].

الآن وقد عصيت

ينبغي للإنسان أن يبادر إلى التوبة من ذنوبه، ويطلب منه جلّ جلاله العفو من قبل أن تأتي الساعة الأخيرة التي لا تنفع معها التوبة، خصوصاً ونحن لا نعلم متى يداهمنا الموت، فيلزم علينا أن نأخذ الحذر قبل ذلك خوفاً من أن ترد توبتنا إذا جاءت بعد فوات الأوان.

روى الشيخ الصدوق عليه الرحمة عن ابراهيم بن محمد الهمداني قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: لأي علّة أغرق الله عزّ وجل فرعون وقد آمن به، وأقر بتوحيده؟

قال: إنه آمن عند رؤية البأس وهو غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف، قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** ﴾ [**غافر/ ٨٥**].

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا** ﴾ [**الأنعام/ ١٥٨**]. وهكذا فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿**آمنت أنّه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**﴾ فقيل له: ﴿ **ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً** ﴾ [**يونس/ ٩٢**].

وقد كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد، وقد لبسه على بدنه، فلما أغرق ألقاه الله على نجوة من الأرض ببدنه ليكون لمن بعده علامة فيرونه مع تثقّله

(١) عرائس المجالس: ٢٠٦.

بالحديد على مرتفع من الأرض، وسبيل التثقيل أن يرسب ولا يرتفع، فكان ذلك آية وعلامة[1].

الحذر من البطش

ورد في الشريعة الإسلامية النهي الشديد عن مجالسة أهل الفجور، واعتبر الإسلام المقاطعة نوعاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنّ الجميع إذا قاطعوا الفاسق ربما رجع وأناب، كما ورد أنّ العذاب إذا نزل بأهل المعصية شمل من كان معهم وإن لم يكن منهم، كل ذلك من أجل أن يحذر الناس مجاملة المجرم ومجاراته.

فعن سليمان بن جعفر الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول لأبي ما رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟

قال: إنّه خالي.

فقال أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن ينزل بكم نقمة فتصيبكم جميعاً؟ أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى وكان أبوه من أصحاب فرعون، لما لحقت خيل فرعون موسى تخلّف عنه ليعظه، فأدركه موسى وأبوه يراغمه حتى بلغا طرف البحر فغرقا جميعاً، فسئل جبرائيل عن حاله فقال: غرق رحمه الله ولم يكن على رأي أبيه، لكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب دفاع[2].

أدعيته عليه السلام

وإنّما تعلّم الناس الدعاء من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فهو من مسنوناتهم، وأنت أعزّك الله تجد لهم صلوات الله عليهم الأدعية الكثيرة.

إنّ هذه الأدعية غذاء للروح، وطمأنينة للنفس، وسلّماً للرقي والفضيلة.

---

(١) علل الشّرائع: ٥٩.

(٢) البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ١٨٣.

نعود فنذكر من أدعية نبيِّ الله موسى بن عمران عليه السلام :

١ ـ من دعاء له عليه السلام لما وقف على فرعون:

«اللّهم بديع السماوات والأرضين، ذا الجلال والإكرام، الذي نواصي العباد بيدك، فإنّ فرعون وجميع أهل السماوات وأهل الأرض وما بينهما عبيدك، نواصيهم بيدك، وأنت تصرف القلوب حيث شئت؛ اللّهم إنّي أعوذ بخيرك من شرّه، وأسألك بخيرك من خيره، عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، كن لنا جاراً من فرعون وجنوده».

ثم دخل عليه وقد ألبسه الله جُنّة من سلطانه[(١)].

٢ ـ ومن دعاء له عليه السلام :

لا إله إلاّ الله الحليم الكريم، لا إله إلاّ الله العلي العظيم، سبحان الله ربّ السماوات السبع، وربّ الأرضين السبع، وربّ العرش العظيم، والحمد لله ربّ العالمين. اللّهم إنّي أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شرّه، وأستعينك عليه، فاكفنيه بما شئت[(٢)].

٣ ـ إنّ موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكوِّن لكل شيء والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا فرجاً ومخرجاً.

فأوحى الله تعالى إليه **﴿أن أضرب بعصاك البحر﴾** فضرب بعصاه البحر **﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾**.

٤ ـ وروى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ألا أُعلّمكم الكلمات التي تكلّم بها موسى حين جاز البحر ببني إسرائيل؟ فقلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: قولوا: اللّهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

---

(١) مهج الدَّعوات: ٣٠٩.
(٢) مهج الدَّعوات: ٣٠٩.

قال عبد الله: فما تركتهن منذ سمعتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

خصال السوء

وربّك ذو رحمة واسعة، وهو الرحمٰن الرحيم، الجواد الكريم، ومن رحمته بك أرسل إليك الأنبياء والأوصياء، ومن بعدهم العلماء لينقذوك ويهدوك ببيانهم ومواعظهم، كما فتح لك باب التوبة، وجعل حسنتك بعشر حسنات إلى سبعمائة، بل جعل نيّتك للطاعة ـ وإن لم تأت بها ـ حسنة يسجّلها لك عنده، ومضافاً لهذا وغيره أنطق عدوّك اللدود إبليس بعداوته لك، لتتنبَّه لما ينصبه لك من أفخاخ وشباك ليوقعك فيها.

روى الشيخ المجلسي رحمه الله: لقي إبليس موسى عليه السلام فقال لموسىٰ: أنت الذي اصطفاك الله برسالته، وكلّمك تكليماً، أذنبت وأنا أريد أن أتوب، فاشفع لي إلى ربّي أن يتوب عليّ.

قال موسى: نعم.

فدعا موسى ربّه، فقيل: يا موسى قد قضيت حاجتك، فلقي موسى إبليس وقال: قد أمرت أن تسجد بقبر آدم ويتاب عليك.

فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له حياً أسجد له ميتاً!! ثم قال إبليس: يا موسى إنّ لك عليّ حقاً بما شفعت لي إلى ربّك، فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيمن أهلك، اذكرني حين تغضب، فإنّي أجري منك مجرى الدم، واذكرني حين تلقىٰ الزحف[2]، فإنّي آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فاذكّره ولده وزوجته حتى يولّي، وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم، فإنّي رسولها إليك، ورسولك إليها[3].

وروي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس لعنه

(١) عرائس المجالس: ١٩٨.
(٢) المراد بالزَّحف ساحة الجهاد.
(٣) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٨١.

الله، وعليه برنس يتلوّن ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال: السلام عليك. فقال موسى: من أنت؟ قال: أنا إبليس.

قال: فلا حيّاك الله، ما جاء بك؟

قال: جئت لأسلّم عليك لمنزلتك عند الله تعالى، ومكانك منه.

قال: فما الذي رأيت عليك؟

قال: به أختطف قلوب بني آدم.

قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟

قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، ونسي ذنوبه؛ وأحذّرك ثلاثة: لا تخل بامرأة، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلاّ كنت صاحبه، أفتتنه بها، ولا تعاهد الله عهداً إلاّ وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلاّ أمضيتها، فإنه ما أخرج رجل صدقة ولم يمضها إلاّ كنت صاحبه دون أصحابي، حتى أحول بينه وبين الوفاء بها؛ ثم ولّى وهو يقول: يا ويلتاه علم موسى ما يحذّر به بني آدم[1].

وتهون المصاعب

وقد تقسو الحياة على المؤمن، أو بالأحرى يقسو عليه المجتمع، أو يشتد عليه الظالمون، ولكن الأمر يهون بما أعدّ الله جلّ جلاله له من نعيم، فلا ينبغي له أن يتأثّر أو يتألم نفسياً لما يلاقيه، وهو يرى بعض الكافرين والظالمين يعيشون في نعيم وسرور، قد تمهّدت لهم الدنيا، وطاب لهم نعيمها، وكل ذلك لا يدوم، فهو كطيف رآه نائم ثم استيقظ؛ وأيّ نعيم والمجرم يود أن الدنيا كلّها له ليفتدي بها من العذاب ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ* وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ **[المعارج: ١١ ـ ١٤]**.

إنّ الرواية الآتية تشير إلى ما ذكرناه:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ موسى قال: أي رب عبدك المؤمن مقتّر عليه في

---

(١) تنبيه الخواطر: ١/١٠٣.

الدنيا؛ ففتح له باب من الجنة فنظر إليها، قال: يا موسى هذا ما أعددته له.

قال: يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطّع اليدين والرجلين، يُسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط.

ثم قال: أي رب عبدك الكافر موسّع عليه في الدنيا، ففتح له باب إلى النار فقال: يا موسى هذا ما أعددته له.

فقال موسى: أي رب وعزّتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط(1).

الحذر ثم الحذر

وأنت أعزّك الله وسلمك لا تحيط علماً بطاقات عدوك اللدود الشيطان، وسعيه الحثيث في إضلالك وإبعادك عن خط الله جلّ جلاله، وأنت إذا علمت بطمعه بأولياء الله وأحبائه ومحاولاته من أجل أن يكبوا أدركت الخطر المحدق بك.

روى الشيخ القمي عن الإمام الصادق عليه السلام: جاء إبليس لعنه الله إلى موسى عليه السلام وهو يناجي ربّه، فقال له ملك من الملائكة: ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحالة يناجي ربه؟!

فقال: أرجو منه ما رجوت من أبيه آدم وهو في الجنة(2).

ومع ذلك ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

تسلّح بما جاء عن الصادقين صلوات الله عليهم: أُطرد الخبيث فإنه لا يعود.

والمعنى: إنّ الشيطان متى جاءك ورغّبك في معصية، فإن دفعته عنك فسوف يذهب عنك إلى غير رجعة، أما إذا استجبت له ـ ولو قليلاً ـ فحينئذٍ يصعب الخروج عليك من قبضته.

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٨٧.
(٢) تفسير القمّي: ١/ ٢٦٩.

النبي هارون عليه السلام

قمة المجد والشرف، عظيم السؤدد، إذا ذكر موسى عليه السلام ذكر معه، فهو شريكه في النبوّة، والقيمومة على الرسالة، إنَّ القرآن الكريم ذكره في عشرين آية بنهاية الإكبار والتعظيم.

ومضافاً لما مر من ذكره المجيد في حديثنا عن موسى عليه السلام نذكر أيضاً:

ـ ١ ـ

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩].

إنّ المهمة في غاية الصعوبة، والعبء ثقيل جداً لا سيما والظروف التي أحاطت بها: إنّه لم يُرسل إلى قوم ضلّال يدعوهم إلى الرشاد والهدى فحسب؛ بل هو أيضاً مرسل إلى ربّ يعبد من دون الله جلّ جلاله، وزاد الأمر تعقيداً لما سبق له عليه السلام من المكوث في بيت الطاغية، وقتله لأحد أعوانه وهربه منهم، وأيضاً لما كان بين الحيين من عداء حتى تتبع الحاكمون قوم موسى عليه السلام قتلاً وأذى بحثاً عنه عليه السلام ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

لهذا وغيره استوجب أن يسأل عليه السلام الوزير، والوزير: هو رجل الدولة الذي يختاره رئيس الحكومة للمشاركة في إدارة شؤون الدولة.

نعود للآيات:

﴿**واجعل لي وزيراً**﴾ يؤازرني على المضي إلى فرعون، ويعاضدني عليه ﴿**من أهلي**﴾ لأنّه إذا كان الوزير من أهله كان أولى ببذل النصح. ثم بيّن الوزير وفسره ﴿**هارون أخي**﴾ وكان أخاه لأبيه وأمه وكان بمصر ﴿**أشدد به أزري**﴾ قوِّ به ظهري، وأعنّي به ﴿**وأشركه في أمري**﴾ اجمع بين وبينه في النبوّة ليكون أحرص على مؤازرتي ﴿**كي نسبّحك كثيراً**﴾ أي ننزّهك عما لا يليق بك.

بيّن عليه السلام أنّه سأل ذلك ليتوصل بها إلى طاعة ربّه وعبادته، وتأدية رسالته لا للرياسة ﴿**ونذكرك كثيراً**﴾ نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك، ومننت به علينا من تحمّل رسالتك ﴿**إنّك كنت بنا بصيراً**﴾ بأمورنا، عالماً بأحوالنا.

استجاب الله جلّ جلاله دعاء نبيّه: ﴿**قال قد أوتيت سؤلك يا موسىٰ**﴾ قد أعطيت مناك وطلبتك.

ـ ٢ ـ

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [**يونس/ ٧٥**].

فهو بموجب الذكر الحكيم شريك موسى عليه السلام في تبليغ الرسالة، وأداء المهمة، والقرآن الكريم جعله شريكاً لموسى عليه السلام في تلقي الكتاب السماوي المنزّل من ربّ العالمين، كما سيمر عليك.

ـ ٣ ـ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [**الأنبياء/ ٤٨**].

كل هذا من باب اللطف الإلهي بالعباد، لأن مساعي الأثنين أكثر خيراً، وأعم نفعاً من مساعي الواحد، وانَّ الاستجابة لرسولين أكثر من استجابتهم لرسول واحد، ولك أن تقول: إنَّ الله جلّ جلاله يعلم ما طبع عليه الإسرائيليون من بغي وعناد وشراسة في الطبع، فأرسل إليهم رسولين في وقت واحد.

﴿أخلفني في قومي﴾

وذلك حين خرج عليه السلام للميقات، لأنه يجب أن يكون البشر في كل وقت تحت عين الرسالة، ومراقبة السماء، وهذه سنة الأنبياء عليهم السلام، فقد كان سليمان عليه السلام خليفة أبيه حينما يخرج لبعض مهماته، وكان آصف خليفة سليمان، وأنت لو قرأت سيرة نبيّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم لوجدته لم يخرج من المدينة لحرب أو سلم إلاّ ويستخلف عليها واحداً من الصحابة، لهذا يستحيل أنه صلى الله عليه وآله وسلم تركهم عند وفاته هملاً بلا راعٍ وبلا قيّم يقيم أحكام الله، ويرشد عباد الله.

﴿يا قوم إنّما فتنتم به﴾

وأشد دور مرّ على نبي الله هارون عليه السلام هو عند ذهاب موسى عليه السلام للميقات، فقد حصل ما لم يكن بالحسبان أبداً.

إنّ البشر معرّض لاقتراف الذنوب والآثام، ولكن ارتداد أمّة بأكملها وعكوفها على عبادة عجل، ونبيّهم يصرخ فيهم **﴿يا قوم إنّما فتنتم به﴾** فهذا ما انفرد به بنو إسرائيل من دون العالم.

إنَّ السبعمائة ألف الذين قد أعدّهم موسى عليه السلام هداة للعالم، ودعاة للخير والرشاد، قد عكفوا بأسرهم على عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري، عدا ثلة قليلة جداً ثبتت على الحق، وأزيدك علماً أن هارون عليه السلام لم تنجح مساعيه الإصلاحية مع القوم، بل إنه جوبه من قبلهم **﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾** [طه/ ٩١].

وفعلاً فقد استمروا على ذلك، وأعظم من هذا فبعد رجوع موسى عليه السلام، وحرقه للعجل **﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾** [طه/ ٩٧] هل تدري ما فعلوا؟

فكان أحدهم ليقع في الماء وما به إليه من حاجة، فيتعرّض لذلك الرماد فيشربه، وهو قول الله تعالى **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾**[١].

(١) مواهب الرحمٰن: ١/ ٣٣٦.

أنت مني بمنزلة هارون من موسى

وهذا الحديث المتسالم على صحته، والذي أخرجه الحفّاظ في كتبهم، ورواه العلماء الأجلاء في مصنفاتهم يشير إلى عظمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقرّب منزلته من صاحب النبوّة صلى الله عليه وآله وسلم ، كما هو في الوقت نفسه يكشف عن سمو منزلة نبي الله هارون عليه السلام ، ومقامه الرفيع، وأنّه التالي لأخيه عليه السلام نبوّةً ومنزلة وشرفاً.

أنــت هــارون والنبــيّ محــلاّ مـن نبـيٍّ سمـت بـه الأنبيـاء[1]

إنّ هذا الحديث رواه علماء الحديث والسير، رواه البخاري في صحيحه، ومسلم عن عدة طرق، فعن سعد بن أبي وقّاص قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلّف علياً رضي الله عنه في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله أتخلّفني في النساء والصبيان؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي[2].

وقال معاوية بن أبي سفيان لسعد فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟

فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلن أسبّه، لئن تكون لي واحدة أحبّ إليّ من حمر النعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له وقد خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله خلّفتني مع النساء والصبيان، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا لها فقال: ادعوا علياً، فأتي به أرمد، فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية: **﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾** دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي[3].

---

(١) من رائعة الشيخ صالح التّميمي رحمه الله.
(٢) صحيح مسلم (شرح النووي): ١٥/ ١٧٤؛ رواه بعدّة أسانيد، ورواه البخاري أيضاً.
(٣) صحيح مسلم (شرح النووي): ١٥/ ١٧٦.

وحتى بعد الموت

ومن الغريب جداً أمر الإسرائيليين، وما طبعوا عليه من الخلاف والعناد، ومخالفتهم لنبيّهم عليه السلام، لقد بلغوا في ذلك إلى حد لا يتصوّر، فبعد أن أخبرهم موسى عليه السلام بوفاة هارون عليه السلام وإذا بهم يتهمونه بأنّه الذي قتله، ورواية الطبري: فدفنه موسىٰ وانصرف موسى إلى بني إسرائيل، فقالوا: ما فعل هارون؟ قال: مات، قالوا: كذبت ولكنك قتلته لحبّنا إياه ـ وكان محبباً في بني إسرائيل ـ فتضرّع موسى إلى ربّه وشكا ما لقي من بني إسرائيل، فأوحى الله إليه أن انطلق إلى موضع قبره فإنّي باعثه حتى يخبرهم أنّه مات موتاً ولم تقتله؛ فانطلق بهم الى قبر هارون فنادى: يا هارون، فخرج من قبره ينفض رأسه فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا والله ولكني متّ، قال: فعد إلى مضجعك، وانصرفوا[1].

(١) تاريخ الطّبري: ١/٣٠٦.

النبي داود عليه السلام

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة/ ٢٥١].

كان بنو إسرائيل من أكثر الشعوب عناداً وتمرداً وعدم استجابة لنداء السماء، وقد عاقبهم سبحانه وتعالى بكثير من العقوبات، مثل تسليط فرعون عليهم وقتله أولادهم، واستحيائه نساءهم؛ إنّ تاريخهم حافل باضطهاد الظالمين لهم مثل نبوخت نصّر وغيره، عقوبة من الله تعالى عاقبهم بها لطغيانهم وتمردهم، وعدم إطاعتهم لأنبيائهم عليهم السلام، لكنه سبحانه وتعالى تسبق رحمته غضبه، ويدفع بالمؤمن المطيع عن العاصي ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة/ ٢٥١].

وفي بداية عهد داود عليه السلام تسلّط عليهم جالوت فقتلهم، وضجّوا إلى الله تعالى منه، فأوحى الله جلّ جلاله إلى نبيّهم بأنه قد جعل طالوت عليهم ملكاً فعليهم بطاعته، وأنه سوف يخلّصهم من جالوت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة/ ٢٤٧].

ولكن الكبرياء والعتوّ وعدم المبالاة ظاهرة عليهم مع أنهم في أسوأ حال، فأجابوا نبيّهم ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة/ ٢٤٧].

وأجابهم نبيهم: إن هذا الذي ذكرتموه ليس بمبرّر، فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وعليهم بالطاعة والتسليم.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة/ ٢٤٨].

ولم يكن لهم مفرّ من الاستجابة، فسيف جالوت يقطر من دمائهم.

عبّأ طالوت جيشه وطلب من والد داود أن يأتيه بأولاده جميعهم لأنّه علم - عن طريق الوحي - أنّ من استوت عليه درع موسى عليه السلام منهم فهو الذي يقتل جالوت، فألبسها عليهم جميعاً فكانت تقصر على بعضهم أو تزيد، فسأله: هل بقي أحد من ولدك؟

قال: نعم، خلّفت أصغرهم يرعى الغنم.

قال: عليّ به، فأرسل خلفه.

جاء داود إلى المعسكر وفي الطريق التقط أحجاراً وضعها في مخلاته، فلما حضر عند طالوت ألبسه الدرع فاستوت عليه.

سار طالوت بجيشه المتزعزع وفي طريقهم لمعسكر الطاغية صادفهم نهر، فأمرهم أن لا يشربوا منه ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة/ ٢٤٩].

ورغم الأدلة المكثفة لديهم بأنّ طالوت عيّنه جلّ جلاله لكنهم عصوا، فشربوا منه إلاّ القليل منهم.

ولما جاوز طالوت النهر منع الشاربين من الالتحاق معه، وسار بالقلة وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً - عدة أهل بدر - ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٤٩].

ثم سار باتجاه الطاغية، وعند أول لقاء رمىٰ داود حجراً من الأحجار التي التقطها الميمنة فانهزمت، ورمى بآخر الميسرة فانهزمت، وثالثاً رمىٰ به جالوت

فصكّ جبهته فوقع ميتاً[1].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال/ ١٧].

وشكر الله تعالى لدواد ذلك وهو المنعم الشكور، فوهب له النبوة والملك ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص/ ٢٦].

ووهب له سليمان عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص/ ٣٠] وأمره ببناء بيت المقدس.

في العرض القرآني المجيد

ذكر الله جلّ جلاله نبيّه داود عليه السلام في ١٦ موضعاً من كتابه الكريم، نسجّل منها:

- ١ -

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالعدل**﴾ فقد كان سلام الله عليه نبياً وحاكماً للبشر، وفي عهده حدثت هذه القصة: كان لشخص كرم قد بدت عناقيده فوقعت فيه غنم لآخر ليلاً فأكلته، فاحتكما عند داود عليه السلام.

فقال: اذهبا الى سليمان ليحكم بينكما، فذهبا إليه.

فقال سليمان عليه السلام: إن كانت الغنم أكلت الأصل والفرع فعلى صاحب الغنم أن يدفع الى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها، وإن كانت ذهبت بالفرع ولم تذهب بالأصل، فإنه يدفع ولدها الى صاحب الكرم.

(١) تفسير القمّي: ١/ ١١٠. (بتصرُّف)

١ ـ ﴿ففهمناها سليمان﴾:

إنّ داود عليه السلام كان نبيُّ العصر، والنبي أعلم الأمة كلّها، فهو لا شك كان أعلم من سليمان عليه السلام، ولكن الله جلّ جلاله يريد إظهار فضل سليمان، وكي يتأهّل وهو في باكورة عمره للزعامة الدينية والمدنية، وهذا يحدث كثيراً.

ولقد مرّ عليك قول سليمان: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

٢ ـ ﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبحنّ والطير﴾:

فسليمان عليه السلام كان أقدر على أن ياتي بالعرش من آصف، ولكنه يريد اظهار فضله.

وعطايا الله جلّ جلاله لأنبيائه عليهم السلام لا تحصى، ومواهبه لهم لا تعد، فمن هذا العطاء ما ظهر لكل واحد منهم من المعاجز والآيات، إقامة للحجّة على الخلق، وسبباً لإنقاذ البشر من الجهل؛ إن الخوارق التي ظهرت على يد كل واحد منهم صلوات الله وسلامه عليهم تدعو كافة الخلق إلى الاعتقاد الصحيح، والسلوك الحسن، وإنّ الشقيّ كل الشقي من تخلّف عن مسيرتهم مع مشاهدة الآيات والمعاجز، ولو لم يكن من ذلك شيء لكان اللازم على الناس متابعتهم لما رأوا من حسن سيرتهم، ونبل دعوتهم ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

نعود للآية الكريمة:

المراد من التسبيح هو تسيير الجبال مع داود عليه السلام حيث سار، فعبّر عن ذلك بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة التي تدعو الى تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وكذلك تسخير الطير له تسبيح، يدل على أنّ مسخرها قادر ﴿وكنا فعلين﴾ قادرين على فعل هذه الأشياء.

٣ ـ ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾:

والأنبياء صلوات الله عليهم في غاية الزهد والتعفّف عن التناول من بيت مال المسلمين، لقد كان داود عليه السلام يسف الخوص، فألان الله له الحديد حتى صار

في يده مثل الخوص؛ فكان معجزة جديدة له، وأيضاً: فالبشر مجبول على العتو، ومن طبعه الشر والاعتداء، لهذا وغيره استغل نبيُّ الله هذه الكرامة التي أجراها الله على يديه لصنع دروع يلبسها المتقاتلون فتخفف من وطأة الحرب.

ومعنى الآية: علّمناه كيف يصنع الدرع، وهو أول من صنعها وسردها وحلّقها، فجمعت الخفّة، والتحصين، وهو قوله ﴿**لتحصنكم من بأسكم**﴾ ومعناه: لتحرزكم وتمنعكم من وقع السلاح فيكم ﴿**فهل أنتم شاكرون**﴾ لنعم الله عليكم.

ـ ٢ ـ

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبأ/ ١٠].

لقد شكر الله سبحانه وتعالى موقفاً لعبده داود عليه السلام، وقتله جبّاراً مفسداً، فآتاه الله النبوّة ـ وأكرم بها شرفاً ـ كما آتاه الملك، ووهب له سليمان عليه السلام نبياً، ثم ملّكه مشارق الأرض ومغاربها، وأخضع له الجن والإنس وجميع ما على وجه الأرض من حيوان وغيره.

إنّ الله سبحانه يشكر القليل من العمل، ويعطي الكثير من الأجر، هذا شأنه مع جميع العباد، والشقي من خسر صفقته مع هذا المولى الكريم، أو اتجه إلى غيره.

وهذه الآيات في بعض مواهب الله جل جلاله لعبديه داود وسليمان عليهما السلام.

١ ـ ﴿**ولقد آتينا داود منّا فضلاً**﴾:

معناه: أعطيناه من عندنا نعمة وإحساناً، وفضلناه على غيره بما أعطيناه من النبوّة والكتاب، وفصل الخطاب، والمعجزات.

٢ ـ ﴿**يا جبال أوّبي معه والطير**﴾:

معناه: سيّرنا الجبال مع داود حيث سار، فعبّر عن ذلك بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة التي تدعو إلى تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وكذلك تسخير الطير له تسبيح، يدل على أنّ مسخّرها قادر لا يجوز عليه ما يجوز

على العباد، وقيل: إن الجبال كانت تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير تسبّح معه بالغداة والعشي، معجزة له[1].

كان هذا إكراماً له وإعجازاً، ودفعاً للعباد لعمل الصالحات لما يرونه من عطاء الله جلّ جلاله لأوليائه، فيدفعهم ذلك للدنو من ساحته، والامتثال لأوامره، والبعد عن نواهيه؛ وهذه هي الغاية من بعثه الرسل عليهم السلام.

٣ ـ ﴿وألنّا له الحديد﴾:

وداود عليه السلام رغم ما أوتي من نبوّة وملك كان يسف سعف النخيل، يعمل منها الحصر وغيرها ويقول لأصحابه من منكم يكفيني بيعها، ويعيش وأهله بما يدرّه عليه هذا العمل المتعب، والذي يتطلّب جهداً ووقتاً، فشكى إلى الله سبحانه ما يلقاه من ذلك، فألان الله جلّ جلاله له الحديد، إعجازاً له، وتيسيراً لأموره؛ صار الحديد في يده كالشمع، يعمل منه ما يشاء من دون أن يدخله النار، أو يستعمل مطرقة، كما هو متّبع.

٤ ـ ﴿أن اعمل سابغات﴾:

المراد بها الدروع، فهو أول من عملها، لم تعرفها البشرية من قبل؛ لقد أمره الله سبحانه بصنعها لأنها تحمي المقاتل، وتخفّف عنه الشر، كذلك علمه كيفية صنعها **﴿وقدّر في السّرد﴾** السرد: نسج حلق الدرع، والمراد: لا تجعل المسامير دقاقاً فتنفلق، ولا غلاظاً فتكسر الحلق.

٥ ـ ﴿واعملوا صالحاً إنّي بما تعملون بصير﴾:

أمره الله جلّ جلاله أن يعمل هو وأهله الصالحات، مؤكداً لهم علمه بأعمالهم، وأنّها مدخّرة لهم، لا يفوتهم شيء من ثوابها، وأنّهم يجزون بها في وقتٍ هم في أمس الحاجة للجزاء والإحسان.

---

(١) مجمع البيان: ٧/ ١٠٤.

- ٣ -

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

في هذه السورة المباركة استعراض طويل عن نبيِّ الله داود عليه السلام، مليء بالموعظة والاعتبار؛ بدأت الآيات:

١ - ﴿واذكر عبدنا داود﴾:

تأمّل أعزك الله أنّه قدّم العبودية على النبوّة، والعبودية لله جلّ جلاله، والإخلاص له، والامتثال لأوامره هي السبب لنيل النبوة، وذكرت لك سابقاً أنّ العبودية، وإن عظمت رتبتها وشرفت - ولكن بالإمكان لكل واحد منّا أن ينالها، ويسعد بها سعادة لا شقاء بعدها.

٢ - ﴿ذا الأيدِ﴾:

ومعناه: ذا القوة، وهذه القوة التي وهبها الله جلّ جلاله له فقد أحسن استغلالها، لقد استغلها في كسب نفع دائم، وتجارة مربحةٍ، ونعيمٍ لا ينفد، استغلّ عليه السلام قوّته لطاعة الله، لقد قتل الطاغية جالوت وعدداً من جنده، وايضاً: كان يحيي نصف ليله بالعبادة، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

هكذا يجب أن تستغل النعم للنفع الأخروي، وتستثمر في التجارة مع الله جلّ جلاله، وأنا وأنت لا نقوى على هذه العبادة، ولكن المفروض بنا أن نؤدي بعض ذلك، كذلك يجب علينا أن نستغلّ نعمة الأموال لما ننتفع به غداً **﴿إنّه أوّاب﴾** توّاب، راجع عن كل ما يكره الله سبحانه إلى ما يحب.

٣ - ﴿إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن﴾:

والله جلّ جلاله قادر على ما يشاء، أعطى أنبياءه المعاجز حجّة تلزم البشر بمتابعتهم، ودليلاً على صدقهم، فكان مما أعطى الله داود عليه السلام أن جعل الجبال تسير معه حيث سار وتردد تسبيحه وتتجاوب معه بذكر الله سبحانه وتمجيده، وكذلك تفعل الطيور فقد سخرها له، وهي ايضاً تسبّح الله وتقدسه بكيفية يسمعها

ويفهمها المجتمع.

٤ ـ ﴿وشددنا ملكه﴾:

ومضافاً إلى ما متّعه الله جلّ جلاله بمعاجز تأخذ بالألباب إلى تصديقه، كذلك فقد قوّى الله ملكه بكثرة الجنود، وحسن عدتهم، ويكفيك من ذلك دروعه التي لم تعرفها البشريّة من قبل.

٥ ـ ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾:

المراد بالحكمة النبوّة، وفصل الخطاب: علم القضاء.

٦ ـ ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب...﴾:

ثم انتقلت الآيات إلى قصة طريفة وقعت له عليه السلام، فقد كان جالساً في محرابه[1] إذ تسلّق شخصان إلى أعلى البيت، ثم نزلا عليه، وبدأا يترافعان عنده.

لقد خاف منهما لعدم دخولهما من الباب، ولمجيئهما في غير الوقت المخصص للمرافعات، ولدخولهما عليه بغير استئذان؛ وهما قد شعرا بخوفه فبدأا قائلين ﴿**لا تخف**﴾ ثم تابعا كلامهما ﴿**خصمان بغى بعضنا على بعض**﴾ ظلم أحدنا الآخر وتجاوز عليه ﴿**فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط**﴾ توخّى العدل في الفصل بيننا ولا تنحرف عنه.

٧ ـ ﴿إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة...﴾:

ثم بدأت المرافعة، قال المدّعي: إن أخي عنده هذا العدد من النعاج[2] وأنا أملك نعجة واحدة، ومع ذلك فقد طلبها مني ﴿**وعزّني في الخطاب**﴾ غلبني في الكلام، إنّه إذا تكلم كان أبين مني، وإذا بطش كان أشدّ مني.

استاء عليه السلام كثيراً أن يبلغ الطمع بالإنسان إلى هذا المستوى، فينسى كل شيء من القيم والمُثل، لذا تراه سارع في الحكم.

٨ ـ ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾:

---

(١) المحراب = مكان الصّلاة؛ سمّي كذلك لأنّ المصلّي يكون في حربٍ مع الشيطان.
(٢) النعجة = الأنثى من الظأن (الغنم).

لقد تجاوز وتعدّى عليك، ثم تابع ﴿**وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض**﴾ إنّ أكثر الشركاء يستعملون البغي والتعدّي، لا سيما إذا كان الطرف الآخر ضعيفاً، ثم استثنى من هذه القاعدة ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ فإنّهم لا يظلمون ولا يتجاوزون على شركائهم خوفاً من العقاب الأخروي ﴿**وقليل ما هم**﴾ وهؤلاء النبلاء عدد قليل في كل زمان ومكان.

٩ ـ ﴿**وظن داود أنما فتنّاه**﴾:

المراد بالفتنة الابتلاء والاختبار، والمعنى: أنّه صلوات الله عليه علم أنّه تعرّض لابتلاء واختبار الخصوم، وهي مهمة عسيرة، خصوصاً لمن أراد أن يتحرّى الحق، ويحكم بالعدل، إنها تحتاج إلى علم جمّ، وبراعة ومقدرة.

١٠ ـ ﴿**فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب**﴾:

وهنا بيت القصيد، فالإنسان مهما ارتفعت درجته، وسمت مرتبته، قد يبتعد عن طريق الاستقامة والسداد، ولكن المفروض به أن يرجع سريعاً ولا يتمادى في ذلك، ألا تسمع القرآن الكريم يصف المتّقين ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [**آل عمران: ١٣٥**].

وهذا نبيُّ الله داود عليه السلام وقد رأى أنّه قد تجاوز في رسم الحكم، وأن اللازم عليه أن يسأل المدّعي البيّنة، ويستمع لدفاع المتهم، لهذا تراه بادر بالاستغفار، والرجوع إلى الله جلّ جلاله، والصلاة له، لأنها أفضل القرب.

١١ ـ ﴿**فغفرنا له ذلك**﴾:

والرجوع إلى الله جلّ جلاله بالاستغفار والتوبة يكسب العبد المقامات الرفيعة في الدنيا، والخلود في النعيم الدائم، ومضافاً الى مغفرة الله سبحانه له ﴿**وإن له عندنا لزلفىٰ**﴾ قربة وكرامة ﴿**وحسن مآب**﴾ في الجنة.

١٢ ـ ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾:

وهذا مقام عظيم، ومنزلة سامية، ودرجة رفيعة.

وهذا يؤيد أنّ منصب الخلافة منصب سماوي، لا دخل للبشر في التعيين، كما لا علاقة لهم في اختيار الأنبياء عليهم السلام، وانَّ ذلك موكل إلى العليم القدير. ومعنى الآية الكريم: إنّا صيرناك خليفة تدير أمر العباد من قبلنا وبأمرنا **﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾** افصل أمورهم بالحق، وضع كلَّ شيء موضعه **﴿ولا تتبع الهوى﴾** ما يميل طبعك إليه، ويدعو هواك إليه، إذا كان مخالفاً للحق **﴿فيضلك عن سبيل الله﴾** إنك إذا اتبعت الهوى عدل بك عن سبيل الحق الذي هو سبيل الله.

١٣ ـ **﴿إنّ الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد﴾**:

اختتمت الآية الكلام عن نبي الله داود عليه السلام بالتهديد لمن يتجاوز الحق، ويعدل عن طريق الاستقامة، ويترك العمل بأوامر الله تعالى ونواهيه، سواء كان رئيساً أو قاضياً، وحتى من سائر الناس.

ذكرت الآية الكريمة أن الذي حدا بهم الى أن يتركوا طريق الهدى، ويسلكوا طريق الضلال هو نسيانهم الآخرة وما أعدّ الله جلّ جلاله فيها للظالمين.

ايضـــاح

وهناك أقوام ـ منذ القديم وحتى اليوم ـ قد لهجوا ـ والعياذ بالله ـ بأن ينسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام ما لا يرضون أن ينسب إلى آبائهم وأجدادهم، وحتى أنهم فسروا هذه الآية بما لا يليق بأدنى الخلق، بينما الموضوع في أمر بسيط، لهذا ترى علي بن الجهم ـ شاعر عباسي ـ سأل علي بن موسى الرضا عليه السلام ـ عن ذلك فقال عليه السلام: إنّ داود إنّما ظن أنه ما خلق الله عزّ وجلّ خلقاً هو أعلم منه، فبعث الله عز وجل إليه الملكين فتسوّرا المحراب، فقالا: **﴿خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزّني في الخطاب﴾** فعجّل داود على المدّعى عليه فقال **﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾** ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يقبل على المدّعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة

رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع الله عزّ وجل يقول ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى**﴾ إلى آخر الآية[1].

الزبور[2]

ذكرنا في قصة موسى عليه السلام أنّ الكتب السماوية اعتراها إهمال وضياع وتلف من الظالمين وغيرهم فذهبت، والموجود منها اليوم محرّف، يشهد بذلك التحريف ما فيها من تهافت لا يليق أن ينسب لعبد عادي من العباد، فضلاً من أن يكون كلام ربّ العزة؛ وسلم القرآن الكريم من ذلك بعناية من الله جلّ جلاله في حفظه، فقد قال سبحانه وتعالى ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ **[الحجر/٩]**.

نعم حفظ المسلمون نماذج قليلة من الكتب السماوية جاءت بها الرواية عن الصادقين صلوات الله عليهم.

نذكر بعض ما جاء عن زبور داود عليه السلام وبعض ما أوحاه الله تعالى إليه، نذكر ذلك للاعتبار والموعظة:

١ ـ في زبور داود: من أتاني مستحيياً من المعاصي التي عصاني بها غفرتها له وأنسيتها حافظيه.

يا داود من أتاني بحسنة واحدة أدخلته الجنة.

قال داود: يا رب وما هذه الحسنة؟

قال: من فرّج عن عبد مسلم.

قال داود: إلهي فلذلك ينبغي لمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك[3].

٢ ـ مما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود عليه السلام: إنّ أقرب الناس منّي يوم القيامة المتواضعون، كذلك وأبعد الناس مني يوم القيامة

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٩٤.
(٢) ألحقنا بهذا الفصل بعض ما تلقّى عليه السّلام من الوحي لتقارب الموضوعين.
(٣) الجواهر السَّنيَّة: ٧٦.

المتكبرون[١].

٣ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله إلى داود: إنَّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثم تاب من ذلك الذنب واستحيى منه عند ذكره غفرت له وأنسيته الحفظة، وأبدلته حسنة ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين[٢].

٤ ـ إنّ الله أوحى الى داود: يا داود تريد وأريد، ولا يكون إلاّ ما أريد، فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ولا يكون إلاّ ما أريد[٣].

٥ ـ في زبور داود: من ذا الذي انقطع إليّ فخيبته، أو من ذا الذي أناب إليّ فطردته عن باب إنابتي، ما لكم لا تقدِّسون الله وهو مصوّركم وخالقكم على ألوان شتى، ما لكم لا تحفظون طاعة الله آناء الليل والنهار، وتطردون المعاصي عن قلوبكم؟ كأنّكم لا تموتون، وكأن دنياكم باقية لا تزول ولا تنقطع، ولكم في الجنّة عندي أوسع وأخصب لو عقلتم وتفكّرتم، وستعلمون إذا أحضرتم وصرتم إليّ أنّي بما يعمل الخلق بصير، سبحان خالق النور.

وفي السورة العاشرة: أيُّها الناس لا تغفلوا عن الآخرة، ولا تغرّنكم الحياة لبهجة الدنيا ونضارتها.

بني إسرائيل لو تفكّرتم في منقلبكم ومعادكم، وذكرتم القيامة وما أعددت فيها للعاصين قلّ ضحككمْ، وكثر بكاؤكم، ولكنكم غفلتم عن الموت، ونبذتم عهدي وراء ظهوركم، واستخففتم بحقّي كأنكم لستم بمسيئين ولا محاسبين، كم تقولون ولا تفعلون، لو تفكرتم في خشونة الثرى، ووحشة ظلمته، لقلّ كلامكم، وكثر ذكركم واشتغالكم إليّ[٤].

٦ ـ يا داود لو رأيت صاحب التبعات قد جعل في عنقه طوق من نار،

(١) روضة الواعظين: ٢/ ٣٨٢.
(٢) الجواهر السَّنيَّة: ٧٦.
(٣) مسكن الفؤاد: ٨١.
(٤) سفينة البحار: ١/ ٥٤٥.

فحاسبوا أنفسكم، وانصفوا الناس، ودعوا الدنيا[1].

٧ ـ فيما أوحى الله الى داود: لو رأيت الذين يأكلون الناس بألسنتهم وقد بسطتها بسط الأديم، وضربت نواحي ألسنتهم بمقامع من نار، ثم سلّطت عليهم موبّخاً لهم يقول: يا أهل النار هذا فلان السليط فاعرفوه[2].

٨ ـ في زبور داود: يا ابن آدم تسألني فأمنعك لعلمي لما ينفعك، ثم تلح عليّ بالمسألة فأعطيك ما سألت، فتستعين به على معصيتي، فأهم بهتك سترك فتدعوني فأستر عليك، فكم من جميل أصنع معك، وكم من قبيح تصنع معي، يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبداً[3].

٩ ـ أوحى الله الى داود: يا داود إنّه ليس عبد من عبادي يطيعني إلاّ أعطيته قبل أن يسألني، واستجبت له قبل أن يدعوني[4].

١٠ ـ قال الإمام الباقر عليه السلام: إنّ الله أوحى الى داود بلّغ قومك أنّه ليس من عبد منهم آمره بطاعتي فيطيعني إلاّ كان حقاً عليّ أن أطيعه وأعينه على طاعتي، وإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن اعتصم بي عصمته، وإن استكفاني كفيته، وإن توكّل عليّ حفظته من وراء عورته، وإن كاده جميع خلقي كنت دونه[5].

١١ ـ أوحى الله الى داود: قل لعبادي لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّهم عن ذكري، وعن طريق محبتي ومناجاتي، أولئك قطّاع الطريق من عبادي، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة عبادتي ومناجاتي من قلوبهم[6].

١٢ ـ أوحى الله إلى داود: حذّر وأنذر أصحابك عن حب الشهوات، فإنّ

(١) قصص الأنبياء: ٣٩٩.
(٢) عدّة الدّاعي: ٣٩.
(٣) الجواهر السّنيّة: ٧٣.
(٤) الجواهر السّنيّة: ٧٤.
(٥) الجواهر السّنيّة: ٧٤.
(٦) بحار الأنوار: ١/ ١٥٤.

المعلّقة قلوبهم بشهوات الدنيا قلوبهم محجوبة عني[1].

١٣ ـ أوحى الله الى داود: إنّ أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشد من سبعين عقوبة[2].

١٤ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله تعالى الى داود ذكّر عبادي من آلائي ونعمائي، فإنّهم لم يروا مني إلاّ الحسن الجميل، لئلا يظنوا في الباقي إلاّ مثل الذي سلف مني إليهم، وحسن الظن يدعو إلى حسن العبادة، والمغرور يتمادى في المعصية، ويتمنى المغفرة، ولا يكون محسن الظن في خلق الله إلاّ المطيع له، يرجو ثوابه، ويخاف عقابه[3].

١٥ ـ أوحى الله تعالى الى داود: اذكرني في أيام سرّائك، حتى أستجب لك في أيام ضرّائك[4].

١٦ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله عزّ وجل الى داود عليه السلام: ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيّته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلاّ جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلاّ قطعت أسباب السماوات من بين يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أبالِ بأي واد هلك[5].

١٧ ـ أوحى الله الى داود: يا دواد إنّي وضعت خمسة في خمسة، والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها: وضعت العلم في الجوع والجهد، وهم يطلبونه في الشبع والراحة فلا يجدونه، ووضعت العزّ في طاعتي، وهم يطلبونه في خدمة السلطان فلا يجدونه، ووضعت الغنىٰ في القناعة، وهم يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه، ووضعت رضاي في سخط النفس، وهم يطلبونه في رضا النفس فلا يجدونه، ووضعت الراحة في الجنة، وهم يطلبونها في الدنيا فلا

(١) بحار الأنوار: ١/ ١٥٤.
(٢) مصباح الشريعة: ٤١.
(٣) بحار الأنوار: ٩٣.
(٤) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٧.
(٥) بحار الأنوار: ١٤/ ١٤.

يجدونها[١].

١٨ ـ في حكمة آل داود: إنّ على العاقل أن لا يكون ظاعناً إلاّ في تزوّد لمعاد، أو مرمّة لمعاش، أو طلب لذة في غير محرّم[٢].

١٩ ـ قال الله تعالى لدواد: يا داود، بشّر المذنبين وأنذر الصديقين.

قال: كيف أبشّر المذنبين، وأنذر الصديقين؟!

قال: بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة، وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس من عبد أنصبته للحساب إلاّ هلك[٣].

٢٠ ـ وفي أخبار داود عليه السلام: ما لأوليائي والهم بالدنيا، إنّ الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم؛ يا داود إنّ محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون[٤].

٢١ ـ أوحىٰ الله تعالى الى داود عليه السلام: من انقطع إليّ كفيته، ومن سألني أعطيته، ومن دعاني أجبته، وإنما أؤخّر دعوته وهي معلقة وقد استجبتها له حتى يتم قضائي، فإذا تمّ قضائي أنفذت ما سأل؛ قل للمظلوم إنّما أؤخر دعوتك وقد استجبتها لك على من ظلمك حتى يتم قضائي لك على من ظلمك، لضروب كثيرة غابت عنك وأنا أحكم الحاكمين، إمّا أن تكون قد ظلمت رجلاً فدعا عليك، فتكون هذه بهذه، لا لك ولا عليك، وإمّا أن تكون لك درجة في الجنة لا تبلغها عندي إلا بظلمه لك، لأني أختبر عبادي في أموالهم وأنفسهم؛ وربما أمرضت العبد فقلّت صلاته وخدمته، ولصوته إذا دعاني في كربته أحب إليّ من صلاة المصلين؛ ولربما صلّى العبد فأضرب بها وجهه، وأحجب عنّي صوته، أتدري من ذلك يا داود؟ ذلك الذي يكثر الالتفات إلى حرم المؤمنين بعين الفسق، وذلك الذي حدثته نفسه لو ولي أمراً لضرب فيه الأعناق ظلماً[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٤٥٣.
(٢) بحار الأنوار: ٧٣/ ٢٢٢.
(٣) الجواهر السَّنيّة: ٦٩.
(٤) مسكن الفؤاد: ٨٠.
(٥) عدّة الدَّاعي.

٢٢ ـ أوحى الله الى داود: يا داود من أحبّ حبيباً صدّق قوله، ومن رضي بحبيبٍ رضي فعله، ومن وثق بحبيب اعتمد عليه، ومن اشتاق إلى حبيب جدّ في السير إليه؛ يا داود ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وحبّي للمشتاقين، وأنا خاصة المحبين[١].

٢٣ ـ أوحى الله الى داود: يا داود إنّ العبد ليأتيني بالحسنة يوم القيامة فأحكّمه بها في الجنة.

قال داود: يا رب وما هذا العبد الذي يأتيك بالحسنة يوم القيامة فتحكمه بها في الجنة؟

قال: عبد مؤمن سعى في حاجة أخيه المسلم أحبّ قضاءها، قضيت أو لم تقض[٢].

٢٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أوحى الله الى داود: يا داود كما لا تضيق الشمس على من جلس فيها، كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها[٣].

٢٥ ـ أوحى الله الى داود: خفني كما تخاف السبع الضاري[٤].

٢٦ ـ في فاتحة الزبور: رأس الحكمة خشية الله[٥].

٢٧ ـ أوحى الله الى داود: تخلّق بأخلاقي، وإنّ من أخلاقي الصبر[٦].

٢٨ ـ في أخبار داود عليه السلام يا داود، أبلغ أهل أرضي أنّي حبيب من أحبّني، وجليس من جالسني، ومؤنس لمن آنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبّني أحد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلاّ قبلته لنفسي، وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي؛ من طلبني بالحق وجدني،

---

(١) الجواهر السَّنيَّة.
(٢) الجواهر السَّنيَّة.
(٣) الجواهر السَّنيَّة.
(٤) الجواهر السَّنيَّة: ٧٧.
(٥) الجواهر السَّنيَّة: ٧٧.
(٦) مسكن الفؤاد: ٤٧.

ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلّموا إلى مرامتي ومصاحبتي ومجالستي ومؤانستي، وأنسوا بي أؤانسكم، وأسارع إلى محبّتكم[1].

٢٩ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله عزّ وجل إلى داود عليه السلام: إنّ العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأدخله الجنة.

قال: يا رب وما تلك الحسنة.

قال: يفرّج عن مؤمنٍ كربته ولو بتمرة.

قال داود عليه السلام: حقٌّ لمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك[2].

٣٠ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام: إنَّ العباد تحابّوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وأظهروا العمل للدنيا، وأبطنوا الغشّ والدغل[3].

٣١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: في حكمة آل داود عليه السلام: على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه[4].

٣٢ ـ أوحى الله الى داود عليه السلام: اشكرني حقّ شكري. قال: إلهي شكرتك حقّ شكرك وشكري إيّاك نعمة منك.

فقال: الآن شكرتني[5].

٣٣ ـ روي أن داود عليه السلام خرج مصحراً منفرداً، فأوحى الله إليه: يا داود مالي أراك وحدانياً؟

فقال: إلهي اشتدّ الشوق مني إلى لقائك، وحال بيني وبين خلقك.

---

(١) مسكن الفؤاد: ٢٧.
(٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٤٤.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٧.
(٤) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٩.
(٥) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٠.

فأوحى الله اليه: ارجع إليهم فإنك إن تأتني بعبد آبق أثبتّك في اللوح حميداً[1].

٣٤ ـ في حكمة آل داود: حقّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: فساعة فيها يناجي ربّه، وساعة فيها يحاسب نفسه، وساعة يفضي الى إخوانه الذين يصدُقونه عن عيوب نفسه[2] وساعة يخلو بين نفسه ولذتها فيما يحل ويحمد، فإنّ هذه الساعة عون لتلك الساعات[3].

عمـــل

دعا الأنبياء والأئمة عليهم السلام الناس الى طريق الاستقامة بعملهم قبل أن يدعوهم بألسنتهم، فسيرتهم الغرّاء منهج قويم للفضيلة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام إني والله ما أحثكم على طاعة إلاّ وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلاّ وأتناهى قبلكم عنها[4].

وكما أنّهم عليهم السلام الدعاة بعملهم في الواجبات كذلك هم السبّاقون في المكارم والمستحبات.

وفي طليعة المكارم العمل باليد، وكسب القوت بها، والاستغناء عما في أيدي الناس.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: العبادة سبعون جزءاً، وأفضلها جزءاً طلب الحلال[5].

وقال علي بن حمزة: رأيت أبا الحسن الثالث ـ الإمام علي الهادي عليه السلام ـ

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٤.
(٢) يصدِّقونه عن عيوب نفسه: يعلمونه بعيوبه ليصلحها.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٤١.
(٤) نهج البلاغة: ٢٥.
(٥) معاني الأخبار: ٣٤٩.

يعمل في أرض وقد استنقعت قدماه في العرق، فقلت: جعلت فداك أين الرجال؟!

فقال عليه السلام:

يا علي قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه، فقلت له: ومن هو؟

فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين عليه السلام وآبائي كلّهم عليهم السلام كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين، والأوصياء الصالحين[1].

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه عن الأنبياء عليهم السلام، فيذكر داود عليه السلام فيقول: وإن شئت ثلّثت بداود صلى الله عليه وسلم صاحب المزامير، وقارىء أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها[2].

فينبغي لك أن تحرص على كسب قوتك وقوت عيالك بعملك استغناءً عن الناس، وتأسياً بسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

واحذر ثم احذر أن تكون عالة على الناس، تمد يدك إليهم، وتستعطي منهم، فإنها الخصلة التي تسيء إلى صاحبها دنيا وآخرة.

عبــادة

كتب التأريخ والسير والتراجم حافلة بذكر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام من العبادة، والدأب عليها وملازمتها، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿طه* مَآ إِلَّا مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه/ ٢]. إنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلّي الليل كله، ويعلّق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، فأمره الله سبحانه بأن يخفف عن نفسه، وذكر أنّه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب[3].

(١) وسائل الشّيعة: ١٢/ ٢٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٢٧.
(٣) مجمع البيان: ٧/ ٢.

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠][١].

وذكروا أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة[٢]. وكذلك الإمام الحسين عليه السلام [٣] والإمام علي بن الحسين عليه السلام أيضاً[٤]، وسألوا خادمة الإمام علي بن الحسين عليه السلام - عنه فقالت: أطنب أو أختصر؟

فقيل: بل اختصري.

فقالت: ما أتيته بطعام نهاراً، ولا فرشت له فراشاً ليلاً قط[٥].

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنّ فاطمة بنت علي بن أبي طالب عليه السلام لمّا نظرت الى ما يفعله ابن أخيها علي بن الحسين عليه السلام بنفسه من الدأب في العبادة، أتت جابر بن عبدالله الأنصاري فقالت له: يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ لنا عليكم حقوقاً، ومن حقنا عليكم: إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكّروه الله، وتدعوه الى البقيا على نفسه، وهذا عليُّ بن الحسين عليه السلام، بقية أبيه الحسين عليه السلام، فقد انخرم أنفه، وتفتت جبهته وركبتاه وراحتاه، إدآباً منه لنفسه في العبادة.

قال فأتى جابر، فوجده في محرابه، قد أضنته العبادة، فنهض عليٌّ عليه السلام، فسأله عن حاله سؤالاً حفيّاً، ثم أجلسه بجنبه، فأقبل عليه جابر بقوله: يا ابن رسول الله أما انّ الله تعالى خلق الجنّة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟

قال له علي بن الحسين عليه السلام: يا صاحب رسول الله، أما علمت أن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد له،

---

(١) المراد بالطّائفة الذين يقومون اللّيل معه: عليّ عليه السلام وأبو ذر.
(٢) الغدير: ٥/ ٢٥ عن مصادر كثيرة.
(٣) أعيان الشّيعة: ٤/ ق ١/ ١٢٤.
(٤) المناقب: ٢/ ٢٥١؛ والخصال: ٥١٧.
(٥) المناقب: ٢/ ٢٥٥.

وتعبّد بأبي وأمي حتى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله من ذنبك ما تقدّم وما تأخّر؟!

قال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

فلما نظر جابر الى علي بن الحسين وليس يغني فيه قول من يستميله من الجهد والتعب الى القصد، قال له: البقيا على نفسك فإنك من أسرة بهم يُستدفع البلاء، ويستكشف الأواء، وبهم يستمطر السماء.

فقال له: يا جابر لا أزال على منهاج أبوي، مؤتسياً بهما، صلوات الله عليهما حتى ألقاهما.

فأقبل جابر على من حضر فقال لهم: والله ما روئي في أولاد الأنبياء بمثل علي بن الحسين عليه السلام إلاّ يوسف بن يعقوب عليه السلام، والله لذريّة علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب، وإنّ منهم لمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[1].

وليست عبادتهم عليهم السلام مقتصرة على الصلاة والصيام، بل شملت جميع العبادات والطاعات، فقد ذكر المؤرخون أنّ الإمام الحسن عليه السلام حجّ خمساً وعشرين حجة ماشياً وأن النجايب لتقاد معه[2] وكذلك الإمام الحسين عليه السلام حجّ خمساً وعشرين حجة مشياً على الأقدام[3].

ولا يحق لك أن تنكر ذلك أو تتعجّب منه، أو تعتبره مشقة تكلّفوها، وزيادة عناء تحمّلوها، فأنت لا تعرف مدى معرفتهم بخالقهم جلّ جلاله، وعلمهم بعظمته وأهليته للعبادة.

وعلى سبيل المثال: فأنت تحب أبناءك حباً يتعجب منه غيرك، كما إنّ غيرك يحب أبناءه بما تتعجّب منه أنت، بل جميع الناس، وهؤلاء صلوات الله عليهم

---

(١) بحار الأنوار: ١١/١٩.
(٢) كشف الغمّة: ١٦٤؛ إسعاف الرّاغبين: ١٧٦.
(٣) مطالب السُّؤول: ٢/٢٨؛ أسد الغابة: ٢/٢٨، تاريخ ابن عساكر: ٢/٣٢٣؛ تذكرة الخواص: ١٣٤؛ العقد الفريد: ٤/٣٨٤.

أحبّوا الله سبحانه وتعالى أكثر من حب الآباء للأبناء، وهذه العبادة تعبير عن هذا الحب، وترجمة لذلك الشوق.

وأنت رعاك الله قد كلفك سبحانه وتعالى باليسير من هذه العبادة، وهي تعود عليك بالنفع في دنياك قبل آخرتك، ففي دنياك تقيك الكثير من المكاره، فالصلاة رياضة بدنية، والصيام صحة، وهكذا جميع ما أمرك به سبحانه وتعالى، وأمّا في الآخرة فتحصل بها جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، فالله في الاهتمام بها، وتأديتها على أحسن الوجوه.

نعود فنذكر في هذه الصفحات بعض ما ورد من عبادة نبي الله داود عليه السلام :

١ ـ إنّ رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام، فقال: إن كنت تريد صوم داود عليه السلام فإنه كان من أعبد الناس. . . وكان له كل يوم سجدة في آخر النهار، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإن كنت تريد صوم ابنه سليمان عليه السلام فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة، ومن وسطه ثلاثة، ومن آخره ثلاثة[١].

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «صام نوح الدهر إلاّ يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام ابراهيم ثلاثة أيام من كل شهر»[٢].

٣ ـ إنّ داود جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعة إلا وإنسان من أولاده في الصلاة، فقال تعالى: **﴿اعملوا آل داود شكرا﴾**[٣].

٤ ـ وكان شديد الاجتهاد، دائب العبادة، كثير البكاء[٤].

٥ ـ قال قتادة: إنّ داود عليه السلام كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر[٥].

(١) بحار الأنوار: ٩٤/ ١٠٤.
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٩٥.
(٣) سفينة البحار: ١/ ٤٦٨.
(٤) تاريخ الطّبري: ١/ ٣٣٨.
(٥) تاريخ الطّبري: ١/ ٣٣٨.

تحميـد

مرّ عليك في هذا الكتاب بعض أدعية الأنبياء عليهم السلام، وهذا التحميد مما كان يدعو به نبيُّ الله داود عليه السلام؛ وأنت إذا تأمّلت ثوابه أدركت أنك تتعامل مع كريم يضاعف الحسنات إلى أقصى ما تتصور.

قال السيد ابن طاووس عليه الرحمة: روي أن داود عليه السلام قال هذا التحميد فأوحى الله تعالى إليه: أتعبت الحفظة، وهو: اللهم لك الحمد دائماً مع دوامك، ولك الحمد باقياً مع بقائك، ولك الحمد خالداً مع خلودك، ولك الحمد كما ينبغي لكرم وجهك، وعزّ جلالك، يا ذا الجلال والإكرام[1].

البيت المقدس

وإذا كان آدم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة المعظمة، وابراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان رفعا تلك القواعد بعد اندثارها، وجدّدا بناء البيت بعد أن عفا أثره، فداود عليه السلام هو الذي بنى بيت المقدس، ومات قبل أن يكمل، فأتمّه سليمان عليه السلام.

ذكر القطيفي: أنّ الله عزّ وجل سلّط على بني إسرائيل الطاعون، فهلك خلق كثير في يوم واحد، فأمرهم داود أن يغتسلوا ويبرزوا إلى الصعيد بالذراري والأهلين، ويتضرّعوا إلى الله، لعل الله يرحمهم، وذلك صعيد بيت المقدس، قبل بناء المسجد، وارتفع داود فوق صخرة فيه فخرّ ساجداً يبتهل الى الله تعالى، وسجدوا معه، فلم يرفعوا رؤوسهم حتى كشف الله عنهم الطاعون؛ فلما شفّع الله داود في بني إسرائيل جمعهم بعد ثلاث وقال لهم: إن الله تعالى قد منّ عليكم ورحمكم، فجددوا له شكراً بأن تتخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم فيه مسجداً، ففعلوا، وأخذوا في بناء بيت المقدس، وكان داود ينقل الحجارة على عاتقه

(١) مهج الدَّعوات: ٣١١.

وكذلك خيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة، ولداود يومئذٍ مائة وسبع وعشرون سنة[1].

لسدانة الدين الحنيف

ومن سيرة الأنبياء عليهم السلام أن يعيّنوا خلفاءهم وسدنة الشريعة من بعدهم، وأزيدك علماً أنّهم يتخذون اليوم الذي ينصّبون فيه خلفاءهم عيداً، كل ذلك لتوكيد الحجّة على البشر، وإلزام الأمّة باتباعهم، فلم يمت نبيُّ الله آدم عليه السلام حتى نصب شيثاً عليه السلام، ولم يمت موسى عليه السلام حتى نصّب يوشع بن نون عليه السلام، ولم يمت داود عليه السلام حتى عيّن سلميان عليه السلام؛ وللمؤرخ المسعودي كتاب (إثبات الهداة) ذكر فيه أسماء الأوصياء والقوامين على الشريعة من عهد آدم عليه السلام حتى اليوم.

نذكر بعض ما جاء في وصيّة داود لسليمان عليه السلام:

أنزل الله تعالى كتاباً من السماء على داود عليه السلام مختوماً بخاتم من ذهب، فيه ثلاث عشرة مسألة، فأوحى الله تعالى إليه أن سل عنها ابنك سليمان، فإذا هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك، فدعا داود عليه السلام سبعين قسّاً، وسبعين حبراً، وأجلس سليمان بين أيديهم وقال: يا بني إن الله تعالى أنزل عليّ كتاباً من السماء فيه مسائل، وأمرني أن أسألك عنها، فإن أخرجتها فأنت الخليفة من بعدي.

فقال سليمان: ليسأل نبيُّ الله عما بدا له وما توفيقي إلا بالله جل جلاله.

فقال داود: يا بني ما أقرب الأشياء وما أبعدها، وما آنس الأشياء وما أوحشها، وما أحسن الأشياء وما أقبحها، وما أقل الأشياء وما أكثرها، وما القائمان، وما الساعيان، وما المشتركان، وما المتباغضان، وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره، وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذم آخره.

فقال سليمان عليه السلام: أمّا أقرب الأشياء: فالآخرة، وأما أبعد الأشياء: فما

(١) قصص القرآن الكريم: ١٦٢.

فاتك من الدنيا، وأما آنس الأشياء: فجسد فيه روح، وأما أوحش الأشياء: فجسد لا روح فيه، وأما أحسن الأشياء: فالإيمان بعد الكفر، وأما أقبح الأشياء: فالكفر بعد الإيمان، وأما أقل الأشياء: فاليقين، وأما أكثر الأشياء: فالشك، وأما القائمان: فالسماء والأرض، وأما الساعيان: فالشمس والقمر، وأما المشتركان: فالليل والنهار، وأما المتباغضان: فالموت والحياة، وأما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره: فالحلم عند الغضب، وأما الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذم آخره: فالحدّة عند الغضب.

ففكّوا الخاتم فإذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء.

فقال القسيسون والرهبان: لا نرضى حتى نسأله عن مسألة، فإن أخرجها فهو الخليفة من بعدك.

فقال سليمان عليه السلام: سلوني وما توفيقي إلا بالله.

فقالوا: ما الشيء الذي إذا صلح صلح كل شيء من الإنسان وإذا فسد فسد كل شيء من الإنسان.

فقال: هو القلب.

فقام داود فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله تعالى أمرني أن أستخلف عليكم سليمان.

فضجّت بنو إسرائيل وقالوا: غلام يُستخلف علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم، فبلغ ذلك داود عليه السلام فدعا رؤساء أسباط بني إسرائيل وقال لهم: إنّه قد بلغني مقالتكم فأروني عصيّكم، فأي عصا أثمرت فإن صاحبها وليّ هذا الأمر بعدي.

قالوا: قد رضينا، فجاءوا بعصيّهم.

فقال لهم داود: ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه، فكتبوا، ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه، ثم ادخلت بيتاً وأُغلق عليها الباب، وسدّ بالأقفال، وحرسه رؤوس أسباط بني إسرائيل، فلما أصبح صلّى بهم الغداة ثم أقبل

ففتح الباب، فأخرج عصيّهم كما هي، وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت، فسلّموا الأمر في ذلك لداود عليه السلام [1].

وصايا الصديقين

في كتب الحديث والتاريخ والسير وصايا كثيرة للأنبياء والأوصياء عليهم السلام يوصون بها أبناءهم.

إن هذه الوصايا تدعو إلى الأخذ بالأخلاق العالية، والسجايا الحميدة، وما أحوجنا اليوم إلى الأخذ بها، والعمل بموجبها.

وفي هذه الصفحات بعض وصايا نبيِّ الله داود عليه السلام يوصي بها ولده سليمان عليه السلام:

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ داود قال لسليمان: يا بني إيّاك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك تترك العبد حقيراً يوم القيامة؛ يا بني عليك بطول الصمت إلاّ من خير، فإن الندامة على طول الصمت مرة واحدة خير من الندامة على كثرة الكلام مرّات؛ يا بني لو أن الكلام كان من فضّة كان ينبغي للصمت أن يكون من ذهب[2].

٢ ـ لما استخلف داود ابنه سليمان عليهما السلام وعظه فقال: يا بني إيّاك والهزل، فإن نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الإخوان، وإياك والغضب فإنّ الغضب يستخف بصاحبه، وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء، فإنّ ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا براء؛ إقطع طمعك عن الناس فإنّ ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وإياك وما يُعتذر منه من القول والفعل، وعوِّد نفسك ولسانك الصدق، والزم الإحسان، فإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك فافعل، وصلِّ صلاة مودع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تماره في الدين، وإذا غضبت فالصق

(١) عرائس المجالس: ٢٩١.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٥.

نفسك بالأرض، وتحوّل من مكانك، وارج رحمة الله فإنها وسعت كل شيء[1].

اللطيف الرحيم

ومن أسمائه جلّ جلاله اللطيف، الرحيم، الرحمٰن، الغفور، أرحم الراحمين. . .

وجاءت الأحاديث وفقاً لهذه الأسماء، فكم من ذنوب غفرها، وعيوب سترها، ورحمة نشرها؛ وفي هذه الصفحات قصة وقعت في أيام داود عليه السلام تتجلّى فيها رحمته جلّ جلاله بعباده ولطفه بهم.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: كان في بني إسرائيل عابد فأعجب به داود عليه السلام، فأوحى الله إليه: لا يعجبك شيء من أمره، فإنه مُرَاءٍ[2]؛ فمات الرجل، فقال داود: ادفنوا صاحبكم ولم يحضره، فلما غُسّل قام خمسون رجلاً فشهدوا بالله ما يعلمون منه إلاّ خيراً، فلما صلّوا عليه قام خمسون آخرون فشهدوا بذلك أيضاً، فأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام: ما منعك أن تشهد فلاناً؟

فقال داود: يا رب للّذي أطلعتني عليه من أمره.

فأوحى الله تعالى: إن كان ذلك، ولكنه قد شهد قوم من الأحبار والرهبان ما يعلمون إلاّ خيراً فأجزت شهادتهم عليه، وغفرت له علمي فيه[3].

وبودّي أن أشير الى أمرين:

الأمر الأول: ورد التأكيد على أن يُكتب للميت على قطعة من القماش: بسم الله الرحمٰن الرحيم. اللهم إنّا لا نعلم منه إلاّ خيراً، يشهد بها أربعون من المؤمنين، يكتبون فيها أسماءهم، توضع مع الميت في قبره، فإنّ الله سبحانه يجيز شهادتهم، ويغفر للميت؛ وأنا أدركت الناس يعملونها عند تشييع موتاهم.

---

(١) عرائس المجالس: ٢٩١.

(٢) المرائي هو الّذي ممل الطّاعات لأجل أن يراه النّاس فيحمدوه عليها؛ والرِّياء من الكبائر؛ فقد قال رسول الله ع٤٨سماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر حبط عملك فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له: عقاب الأعمال للصدوق ٢٥٥.

(٣) الجواهر السَّنيّة: ٧٢.

الأمر الثاني: ومع هذا اللطف ينبغي تمام الحذر من الذنوب، واجتناب كل عمل مسخط لله جلّ جلاله، لا سيما وأنت لا تعلم متى يأتيك الموت، وهل توفّق للتوبة، أو بالأحرى هل تقبل توبتك.

أسألك حبّك

وهذه مرتبة عظيمة، ومنزلة سامية، يدركها المخلصون الأولياء، ويحرمها الأشقياء.

يقول أنس بن مالك: جاء رجل من أهل البادية ـ وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟

فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته قال: أين السائل عن الساعة؟

فقال: أنا يا رسول الله.

قال: فما أعددت لها؟

قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل، لا صلاة، ولا صوم، إلاّ أني أحب الله ورسوله.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: المرء مع من أحب.

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشد من فرحهم بهذا[١].

ويبتهل نبي الله داود عليه السلام الى الله داعياً: ربّي أسألك حبّك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلّغني حبك، ربّي اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكر داود وحدّث عنه قال: كان أعبد البشر[٢].

---

(١) علل الشّرائع: ١/١٣٩.

(٢) المستدرك على الصّحيحين: ٤٣٣.

عبــر

وأولياء الله جلّ جلاله وضعوا نصب أعينهم ما يعتبرون به، زجراً للنفس الأمّارة بالسوء، وقطعاً لسبل الشيطان وطرقه المكثفة التي يشغل بها الإنسان عن طريق الآخرة، ويرغبه في الدنيا.

وهذا نبيُّ الله داود عليه السلام يلتقي بنبيٍّ من أنبياء الله جلّ جلاله فيطرح عليه بعض الأسئلة التي تزيد معرفة الإنسان إيماناً بالله سبحانه وتعالى، وبعداً عن هذه الدنيا الدنيّة.

لقد ذهب داود عليه السلام لزيارة نبيٍّ اسمه حزقيل، قد سكن في بعض الجبال، فسأله داود: يا حزقيل، هل هممت بخطيئة قط؟

قال: لا.

فقال: فهل دخلك العجب مما أنت فيه من عبادة الله عزّ وجل؟

قال: لا.

قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذتها؟

قال: بلى، ربما عرض بقلبي.

قال: فماذا تصنع إذا كان ذلك؟

قال: أَدخل هذا الشعب، فاعتبر بما فيه.

فدخل داود عليه السلام الشعب فإذا سرير من حديد، عليه جمجمة بالية، وعظام فانية، وإذا لوح من حديد فيه كتابة، فقرأها عليه السلام فإذا هي: أنا أروى بن أسلم، ملكت ألف سنة، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، فإذا كان آخر عمري أن صار التراب فراشي، والحجارة وسادتي، والحيّات جيراني، فمن رآني فلا يغتر بالدنيا[1].

وأنت أعزّك الله وسلمك وإن لم تر سرير (أروى بن أسلم) ولكن الدنيا التي تعيش بها كلها عِبَر، وكلّها مواعظ، ويكفي من ذلك الموت، فلا أنت ولا أحد من

(١) أمالي الشيخ الصَّدوق: ٨٩.

أهل الدنيا ينكر أو يشك في أنه ميت، فهو لمن تأمّله أحسن عبرة وموعظة، لذا قال عليه السلام : كفى بالموت واعظاً.

زائـــر

وكلٌّ واحدٍ منا بانتظار زائر غير مطلوب، لا ندري متى يرد علينا، وبزيارته تبدأ لنا صفحة جديدة بكل ما في معنى الجديد، فالدار غير الدار، والجيران غير الجيران، والحال التي نكون فيها غير الحال التي نحن فيها اليوم، كل شيء يتبدّل تماماً.

إنّ هذا الزائر هو ملك الموت.

نعود فنذكر زيارته لداود عليه السلام .

حانت من نبيِّ الله التفاتة فوجد شخصاً غريباً في الدار، فبادر بالسؤال:

ما أدخلك هذه الدار في هذا الوقت بغير إذن؟
فقال: أنا الَّذي أدخل الدور على الملوك بغير إذن.
فقال له: إذن فأنت ملك الموت؟
قال: نعم.
قال: أفجئت داعياً أم ناعياً؟
قال: بل ناعياً.

فقال داود عليه السلام : فهلا أرسلت إليّ قبل ذلك وآذنتني لأستعدَّ للموت؟
فقال: كم أرسلت إليك فلم تتنبّه.
قال: ومن كانت رسلك التي أرسلت إليّ؟

فقال: يا داود أين أبوك إيشا، وأين أمك، وأين أخوك، وأين جارك، وأين قهارمتك، أين فلان وفلان؟
فقال: ماتوا كلهم.

فقال: أما علمت أنهم رسلي إليك، وأنّ النوبة تبلغك[1].

---

(١) عرائس المجالس: ٢٩٢.

النبي سليمان بن داود عليه السلام

تهذيب

يحكى أنّ أمَّ الشيخ مرتضى الأنصاري ـ الزعيم الديني للشيعة قبل مائة وخمسين عاماً ـ كانت تسكن في قرية وقد فقدت بصرها، فقيل لها: إنّ ابنك أصبح زعيم الطائفة.

فقالت: ليس هذا بشيء، فتعجّب الناس من كلامها فسألوها: وأيّ شيء أكبر من هذا المقام، وماذا كنت تؤمّلين أن يكون ولدك؟

قالت: كنت أريده تالياً لسيده أمير المؤمنين عليه السلام، فازدادوا تعجّباً من كلامها؟ فأخذت تذكر لهم عنايتها به، ومن ذلك قالت: إنّي طيلة مدة رضاعه لم أرضعه مرّة إلاّ وأنا على وضوء، رغم شدة البرد في قريتنا.

فللأم يا أخي الأثر الكبير في تهذيب ولدها.

فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

وحتى مقام النبوة العظيم فالأم عامل مهم في إعداده، فقد ورد أنّ الأنبياء عليهم السلام لا يتخلّل نسبهم سفاح، فهم فيما بينهم وبين آدم عليه السلام ولدهم آباء مطهّرون، وأمهات عفائف.

والحديث في هذا الباب عن أم سليمان عليه السلام فقد روى الشيخ الصدوق عليه الرحمة بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني إيّاك وكثرة النوم بالليل، فإنّ كثرة النوم

بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة[1].

عبادة

والأنبياء عليهم السلام كانوا في عبادة متواصلة، وقد مرّ عليك بعض ذلك في قصّة داود عليه السلام وغيرها.

وأنت إذا تأملت الرواية التي ذكرها الشيخ المجلسي عليه الرحمة في سيرة نبيِّ الله سليمان عليه السلام عند بنائه بيت المقدس، أدركت أهميّة العبادة، ومقدار اهتمام الأنبياء عليهم السلام بها قال: ففرّغ سليمان عشرة آلاف من قرّاء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، ولا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلاّ ويعبد الله فيها[2].

في هذه الصفحات قبس من عبادة سليمان عليه السلام.

١ ـ كان يصوم من اول الشهر ثلاثة، ومن وسطه ثلاثة، ومن اخره ثلاثة.

٢ ـ كان عليه السلام مع ما هو فيه من الملك يلبس الشعر، وإذا جّنة الليل شَدَّ يديه الى عنقه، فلا يزال قائماً حتى يصبح باكياً.

زهد

الزهد: هو عدم الرغبة في الشيء وتركه، وأصبحت الكلمة علماً وصفةً لمن ترك الدنيا وزينتها.

وهو مما ندب إليه الشرع وحثّ عليه، فمشاكل الناس معظمها ناتج من التكالب على الدنيا وحطامها.

اتّصف الأنبياء والأئمة عليهم السلام جميعاً بهذه الصفة، فأنت لو تصفّحت تواريخهم وسيرهم لوجدتهم جميعاً في أعلى مستوى الزهد، فإعراضهم صلوات الله عليهم الكلّي عن الدنيا وبهجتها يخفف عند أممهم ـ ولو لحد ضئيل ـ من السعي الشديد في طلبها.

وليس بعجب أن تقرأ في سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمه أمير

---

(١) أمالي الشَّيخ الصَّدوق: ١٩٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٨٧.

المؤمنين عليه السلام الصفحات من حديث زهدهم، لأنّ ذلك مما لزماه طيلة حياتهما الكريمة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يشد على بطنه حجر المجاعة فضلاً من أن يتفكّه بالطعام، وصام أمير المؤمنين عليه السلام وعائلته ثلاثاً لم يطعموا فيها غير الماء[1].

ولكن العجب أن تقرأ حديث الزهد في سيرة نبيِّ الله سليمان عليه السلام، وهو الذي وهب الله له ملكاً لم يهبه لأحد قبله ولا بعده ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص/٣٥].

فطلب الملك منه سبحانه وتعالى ليدعو إلى التوحيد، وليقيم في الأرض معالم العدل، ويمحي الظلم، ألا تسمع رسالته إلى بلقيس ـ ملكة اليمن ـ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل/٣١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: وكان لا يسمع بملك في ناحية الأرض إلاّ أتاه حتى يذلّه ويدخله في دينه[2].

وقال الديلمي: وكان سليمان مع ما هو من الملك يلبس الشعر، وإذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه فلا يزال قائماً حتّى يصبح باكياً؛ وكان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده، وإنّما سأل الملك ليقهر ملوك الكفر[3].

وقال وهب بن منبه: إنّ سليمان لم يطلب الدنيا لنفسه، وإنّما طلب أن يكون أمورها إليه حتى يعدل بين الناس، وينصف المظلوم من الظالم، ويجود على الفقراء والمساكين، فإنَّ الدنيا مع العبد الصالح في يده لا في قلبه، فإن كان بالعكس فلهوى النفس[4].

فمن هذا وغيره يتبيّن أن ملكه الذي شمل الدنيا بأسرها لم يخرجه عن الزهد الذي هو شعار الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) أنظر تفسير قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطَّعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ عند أكثر المفسِّرين.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٧١.
(٣) إرشاد القلوب: ١/ ١٩٣.
(٤) بدائع الزهور: ١٥٨.

يتحدّث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه عن الأنبياء عليهم السلام فيقول: أو سليمان بن داود وما أوتي من الملك إذ كان يأكل خبز الشعير، ويطعم أهله الحنطة، وإذا جَنَّة الليل لبس المسوح، وغلّ يده إلى عنقه، وبات باكياً حتى يصبح، ويكثر أن يقول: ربي إني ظلمت نفسي كثيراً وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين، لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: كان سليمان عليه السلام يطعم أضيافه اللحم بالحواري، وعياله الخشكار[2] ويأكل هو الشعير غير منخول[3].

وقال ابن الأثير: وكان يأكل من كسب يده[4].

نعود ونذكر بعض ما جاء في الزهد:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل يعظه: إرغب فيما عند الله يحبّك الله، وازهد في ما أيدي الناس يحبّك الناس؛ إنّ الزاهد في الدنيا يريح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة، والراغب فيها يتعب قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة، ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم حسنات كأمثال الجبال فيُؤمر بهم إلى النار.

قيل: يا نبي الله أمصلّون كانوا؟

قال: نعم، كانوا يصلّون ويصومون، ويأخذون وهنا من الليل، لكنّهم إذا لاح لهم شيء من أمر الدنيا وثبوا عليه[5].

٢ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: لا يجمع الله لمؤمن الورع والزهد إلاّ رجوت له الجنّة[6].

٣ ـ ومن حديث المعراج: إنّ أدنى ما أعطي الزاهدين في الآخرة أن أعطيهم

(١) دستور معالم الحكم: ٤٠.
(٢) الحواري: الّذي نخّل مرة بعد أخرى؛ والخشكار: الخبز المأخوذ من الدقيق غير المنخول.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٦٧٠.
(٤) الكامل في التّاريخ: ١/ ٧٨.
(٥) بحار الأنوار: ٧٧/ ١٨٨.
(٦) أمالي الشيخ المفيد: ٩٦.

مفاتيح الجنان كلّها، حتّى يفتحوا أيّ باب شاؤوا[١].

٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما يعبد الله بشيء مثل الزهد في الدنيا[٢].

٥ ـ وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: علّمني شيئاً يحبني عليه الله والناس.

قال: أمّا الذي يحبّك الله عليه فالزهد في الدنيا، وأمّا الذي يحبّك الناس عليه فأن تنبذ إليهم ما في يديك[٣].

٦ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام[٤].

وختاماً لهذا الفصل يجب أن نذكر شيئاً مهمّاً عن الزهد، فبعض الأحاديث تفيد أن الزهد صفة نفسية يتمتع بها الزاهد.

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال، ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله عزّ وجلّ[٥].

٢ ـ وسأل رجل الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الزهد فقال: الزهد عشرة أشياء وأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإنَّ الزهد في آية في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾[٦].

٣ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام الزهد في الدنيا قصر الأمل، وشكر كلِّ نعمة، والورع عما حرم الله عزّوجلّ[٧].

---

(١) إرشاد القلوب: ١/ ٣٣٤.
(٢) إرشاد القلوب: ١/ ٢٦٣.
(٣) ربيع الابرار: ١/ ٤٩١ .
(٤) السّرائر: باب المستطرفات.
(٥) سفينة البحار: ١/ ٥٦٨.
(٦) سفينة البحار: ١/ ٥٦٨.
(٧) سفينة البحار: ١/ ٥٦٨.

والذي يترجّح بنظري القاصر: أنَّ الإسلام حثّ على هذا المعنى كثيراً، وطلب من الجميع أن يتّصفوا بهذه الصفة، حتّى إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال في وصيّته للحسن والحسين عليهما السلام بعدما ضربه ابن ملجم لعنه الله: أوصيكما بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما[1].

وإنّ الزهد الذي مرّ عليك في أول الفصل يجب أن يكون مبعثه من هذا المنطلق، ليجمع الزاهد كلا الأمرين.

في العرض القرآني المجيد

(١)

١ ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء/٨١].

لقد سأل سليمان عليه السلام ربّه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص/٣٥].

ولا شكّ أنّ الغرض من هذا الطلب هو نشر الإسلام في الكرة الأرضية، وإقامة معالم العدل فيها، ولو لم يكن من فائدة من سؤاله عليه السلام إلاّ السيطرة على الشياطين، وتحديد فعاليتهم، بل وحتّى تسخيرهم لمنافع الخلق، لكفى ذلك فائدةً وخدمةً للأمّة.

لقد سخّر الله جلّ جلاله لعبده ونبيّه سليمان عليه السلام الإنس والجن والشياطين، وجميع ما على وجه الأرض من حيوان وغيره، بل وحتّى بعض العوالم العلوية كما في الآية. الكريمة ﴿**ولسليمان الريح**﴾ وسخّرنا لسليمان الريح ﴿**عاصفة**﴾ شديدة الهبوب.

قال ابن عباس: إذا أراد أن تعصف الريح عصفت، وإذا أراد أن ترخي أُرخيت، وذلك قوله: رخاء حيث أصاب ﴿**تجري بأمره**﴾ بأمر سليمان ﴿**إلى**

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٧٦.

الأرض التي باركنا فيها﴾ هي أرض الشام، وكانت مأواه وكانت الريح تجري في الغداة مسيرة شهر، وفي الرواح كذلك، وكان يسكن بعلبك، ويُبنى له بيت المقدس، ويحتاج إلى الخروج إليها وإلى غيرها، ويجتمع معه جنوده ثم تحمله الريح حيث أراد **﴿وكنّا بكل شيء عالمين﴾** فإنّما أعطيناه ما أعطيناه لما علمناه من المصلحة.

٢ ـ ﴿ومن الشياطين من يغوصون له﴾:

إنّ بيت المقدس لم يكن في وقته بناء يضاهيه جمالاً وإتقاناً، وإنَّ الأحجار الكريمة التي زيّنت بها الحيطان والسقوف كانت تغني عن المصابيح، فأهل المسجد يستضيئون بها ليلاً.

إنّ معظم هذه الأحجار تستخرج من البحار، كاللؤلؤ والمرجان، وغيرهما، لذا تراه عليه السلام سخّر الشياطين في استخراجها **﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾** وليس هذا شغلهم فقط، بل أناط بهم أعمالاً أخرى **﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدرو راسيات وكنّا لهم حافظين﴾** لئلا يهربوا منه، ويمتنعوا عليه.

(٢)

١ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ **[النمل/١٥]**.

والله جلّ جلاله يفيض على أنبيائه بعطائه ليتمكّنوا من نشر ما كلّفوا به من رسالة على أوسع مجال، فكلّما كانت الطاقات أكبر كان النجاح أتمّ.

وثمّة شيء آخر: ليستدلّ البشر بما يروا من علم الأنبياء ـ لا سيّما لخفايا الأمور ـ على علمه سبحانه وتعالى، وإحاطته بخلقه، فيجعلهم ذلك أقرب للإستقامة والرشاد.

٢ ـ ﴿وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾:

إنّ هذين النبيين العظيمين يحمدان الله جلّ جلاله على نعمه التي أنعمها

عليهما، يكفي من ذلك النبوة ومستلزماتها من العلم والإعجاز وهذا يتطلب من كل مسلم أن يجعل الحمد شعاراً له، ونهجاً يدوم عليه.

وقد ورد عن الصادقين صلوات الله عليهم في ثواب الحمد:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ المؤمن ليشبع من الطعام والشراب فيحمد الله، فيعطيه الله من الأجر ما يعطي الصائم؛ إنّ الله شاكر يُحب أن يحمد[١].

٢ ـ عن المفضّل قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك علّمني دعاءً جامعاً.

فقال لي: أحمد الله، فإنّه لا يبقى أحد يصلّي إلاّ دعا لك، يقول: سمع الله لمن حمده[٢].

٣ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: أيّما عبد أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه، وحمد الله عليها بلسانه، لم ينفذ كلامه حتّى يأمر الله بالزيادة، وذلك قول الله جلّ وعزّ: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنّكم**﴾[٣].

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الرجل من أمّتي يخرج إلى السوق فيبتاع القميص بنصف دينار، أو بثلث دينار، فيحمد الله إذا لبس، فما يبلغ ركبتيه حتّى يُغفَر له[٤].

واعلم رعاك الله أنّ كل واحد منّا لو تأمّل حاله لوجد مواهب الله جلّ جلاله عنده، ونعمه التي غمره بها، وأنّه قد فضّله على كثير من غيره، وبودّي أن يقرأ كل واحد منّا دعاء الجوشن الصغير، وهو من الأدعية المهمة، وهو للإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، فحينئذٍ تتجلّى عنده نعم الله ومواهبه التي لا تعد ولا تحصى، وأنا أذكر لك منه فقرتين، وأطلب منك أن تدعو به ولو مرّة واحدة.

قال عليه السلام:

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٨.

(٢) أصول الكافي: ٤٠٣.

(٣) مشكاة الأنوار: ٢٩

(٤) مشكاة الأنوار: ٢٨.

إلهي وكم من عبد أمسى وأصبح خائفاً مرعوباً مسهّداً مشفقاً وحيداً وجلاً هارباً طريداً، أو منحجزاً في مضيق أو مخبأة من المخابي، قد ضاقت عليه الأرض برحبها، ولا يجد حيلة ولا منجى ولا مأوى ولا مهرباً، وأنا في أمن وأمان، وطمأنينة وعافية من ذلك كلّه، فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يُغلب، وذي أناة لا يعجل، صلِّ على محمد وآل محمد واجعلني لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين.

وكم من عبد أمسى وأصبح مغلولاً مكبّلاً بالحديد بأيدي العتاة، لا يرحمونه، فقيداً من أهله وولده، منقطعاً عن إخوانه وبلده، يتوقّع كلّ ساعة بأيّ قتلة يُقتل، وبأيّ مثلة يُمثّل به، وأنا في عافية من ذلك كلّه، فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يُغلب، وذي أناةٍ لا يعجل(١).

٣ ـ ﴿وأوتينا من كل شيء﴾:

من كلّ شيءٍ يؤتى الأنبياء والملوك.

قال الإمام الصادق عليه السلام: أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلَّهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع.

٤ ـ ﴿قال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك﴾:

ومعنى أوزعني: ألهمني؛ والشكر من أعظم النعم وأسماها، يستوجب به العبد المزيد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم/٧] وأيضاً: بالشكر تدوم النعم.

ومن حديث الصادقين عليهما السلام:

١ ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه يرفعه قال: الطاعم الشاكر له من الأجر مثل أجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الشاكر، والغني الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع(٢).

(١) مفتاح الجنّات: ١/٢١٩.
(٢) قرب الإسناد: ٥٠.

٢ ـ قيل للإمام الصادق عليه السلام : من أكرم الخلق على الله؟
قال: من إذا أُعطيَ شكر، وإذا ابتلي صبر[١].

٣ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام : من شكر الله على ما أفيد فقد استوجب على الله المزيد، ومن أضاع الشكر فقد خاطر بالنعم، ولم يأمن التغيير والنقم[٢].

٤ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أنعم الله على عبد نعمة فشكرها بقلبه إلاّ استوجب المزيد فيها قبل أن يظهر شكرها على لسانه[٣].

فينبغي لكل فرد منا أن يطلب من الله جلّ جلاله أن يوفّقه ويلهمه شكر نعمه، وأن لا يفرّط فيها فتذهب وتولّي عنه.

٥ ـ ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾:

فهذا نبيُّ الله يطلب من الله سبحانه ويدعوه إن يوفّق لعمل صالح مكلّلاً بالقبول، مع ما له من رفيع المنزلة، وسمو الدرجة عندالمولى جلّ جلاله.

وهذا تعليم لكل مسلم أن يصبَّ اهتمامه للعمل الصالح، ويتوسّل بالله تعالى أن يتقبّل ذلك منه، ويدّخره له في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم.

٦ ـ ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾:

قال ابن عباس: يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين، والمراد: أدخلني في جملتهم، وأثبت إسمي مع أسمائهم، واحشرني في زمرتهم.

وينبغي أن يكون هذا الدعاء شعار كل مسلم ومؤمن، طالباً من الله سبحانه وتعالى أن يدخله برحمته في الصالحين، وأن يجعل اسمه في عليين، وأن يحشره في زمرة المؤمنين، فليس هناك من دعوة هي أسمى من هذه الدعوة أو تضاهيها،

(١) مشكاة الأنوار: ٣٢.
(٢) مشكاة الأنوار: ٣١.
(٣) أمالي الشيخ الطّوسي: ١٩.

وإِنَّ من استجيب له في ذلك فقد فاز فوزاً عظيماً، ونال سعادةً لا شقاء بعدها أبداً.

(٣)

١ ـ ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ/١٢].

استجاب الله جلّ جلاله لسليمان عليه السلام حيث قال ﴿**ربي هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ فملّكه مشارق الأرض ومغاربها، فكان يحتاج للوقوف على أطراف مملكته، والإطلاع على أعمال رعيته وتوجيههم، فهيّأ الله جلّ جلاله الريح، فجعلها مركبة فضائية له، تحمله وجنوده ومعدّاته، تقطع به في كل يوم مسيرة شهرين، فهو يمضي لمدائن يحتاج الوصول إليها شهراً، ويرجع في نفس اليوم.

٢ ـ ﴿**وأسلنا له عين القطر**﴾:

والله سبحانه وتعالى حينما يعطي عبداً من عباده عطاء يهيىء له ما يلزم لتدبيره وحفظه، وتمام الاستفادة منه؛ لقد أعطى سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأعطاه الريح تحمله حيث يشاء كي لا يغيب عنه شيء من أطراف مملكته الواسعة، وأيضاً فهو لكثرة جنوده يحتاج إلى قدورٍ كبارٍ، يعدّ لهم فيها الطعام، فأسال الله سبحانه له عين القطر، وهي النحاس، فقد وفّره له مذاباً كمادة أوليّة للصناعات التي تلزمه.

٣ ـ ﴿**ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربّه**﴾:

والجن كانوا طوع أمره، ورهن إشارته، وفي ذلك تضييق الخناق عليهم، وكف أذاهم، وتسخيرهم لأعمال يعسر على غيرهم الإتيان بها، وأعظم من هذا أو ذاك إِنَّ تسلّطه عليهم يساعد على إيمانهم واستقامتهم.

٤ ـ ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب**﴾:

هي مساجدهم التي كانوا يعبدون الله جلّ جلاله فيها، سمّيت بذلك لأن المصلّي ما دام في صلاته فهو في حرب مع الشيطان.

فكان من جملة ما عملوه لسليمان عليه السلام بيت المقدس ﴿وتماثيل﴾ صوراً من نحاس وزجاج ورخام ﴿وجفان كالجواب﴾ صحاف كالحياض التي يخزن فيها الماء؛

لما كان عنده جيش جرار، فكان يحتاج لطعامهم وشرابهم أوانياً كبيرة جداً فكانت هذه الجفان، يجمع على كل جفنة ألف رجل يأكلون بين يديه ﴿وقدور راسيات﴾ ثابتات لا يزلن عن أمكنتهن لعظمهن.

٥ ـ ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾:

والشكر مما حثّ عليه جلّ جلاله العباد، وأمرهم به، لأنّه مظهر من مظاهر العبادة والطاعة، وهو موجب لمزيد النعم.

وأزيدك إنَّ الله سبحانه وتعالى أدّب عباده بأن يشكر بعضهم البعض ـ ألا تسمعه يقول: ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ [لقمان/١٤] وانَّ من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، وأيضاً: الشكر يزيد في تبادل المحبّة والمودّة بين الناس، وبذلك تنعدم المشاكل بينهم، ويسود السلام، وهذا من أهم ما جاء به المرسلون.

ومعنى الآية الكريمة: قلنا لهم: يا آل داود اعملوا بطاعة الله شكراً له على ما آتاكم من النعم.

٦ ـ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾:

وهذا شأن البشرية منذ القدم، خيرك إلينا نازل، وشرّنا إليك صاعد، تغمرنا نعمك، فنأكل رزقك، واتجاهنا إلى غيرك، مع حاجتنا إليك، فلا يزداد المعرض عنك إلاّ إحساناً وكرماً منك.

٧ ـ ﴿فلما قضينا عليه الموت. . .﴾:

والإنسان مهما بلغ من قوّة ومنعة فهو مخلوق ضعيف، بل في غاية الضعف، يصفه الإمام علي عليه السلام: تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة[١].

وحياة سليمان عليه السلام مليئة بالعجائب والعبر، بل وحتى وفاته[٢].

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) أنظر فصل (لا راحة فيها) من هذا الكتاب.

وتتجلّى الحكمة الإلهية في موته عليه السلام وهناك درسٌ فيها هو عدم العلم بالغيب، والذي أشارت إليه الآية الكريمة **﴿فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾**.

وأيضاً كان بيت المقدس لم يكمل بعد، وعمدة الأعمال كانت تُدار من قبل الجن، ولو علموا بموته لهربوا من العمل، ولما وجد البديل.

وليتيقّن الجميع أنّ الأجل إذا جاء الإنسان لم يمهله ولا لحظة واحدة، فهذا نبيّ الله جاءه الموت وهو متكىء على عصاه، لم ينتظره ملك الموت حتى ينام على فراشه، لهذا ينبغي الاستعداد له، وتهيئة ما يلزم من العمل الصالح.

(٤)

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ [ص/٣٠].

في هذه السورة المباركة استعراض مفصّل عن نبيّ الله سلميان عليه السلام مملوء بالعبر، والدروس النافعة للأجيال.

تبدأ الآيات:

١ ـ ﴿نعم العبد إنّه أوّاب﴾:

مدحه جلّ جلاله بالعبودية، وهي مرتبة عظيمة، وناهيك بها شرفاً حتى الأنبياء شرّفوا بها، وتذكّر التشهّد في الصلاة وتقديم العبودية على الرسالة، فمع عظم هذه المرتبة وجلالتها فإنها ممكن حصولها بيسير من الأعمال، وبالالتزام بالشريعة السمحاء، وضبط النفس.

والمراد بقوله تعالى: **﴿أوّاب﴾** رجّاع عن كل ما يكره الله إلى ما يحب، منقطع إليه.

٢ ـ ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾:

العشي: آخر النهار. والصافنات: الخيل الواقفة على ثلاث قوائم،

والواضعة طرف السنبك الرابع على الأرض، والجياد: السريعة المشي، الواسعة الخطو.

والمراد: أنّه استعرض هذه الأفراس عصراً، وانشغل بها بعض الوقت.

٣ ـ ﴿فقال إنّي أحببت حب الخير عن ذكر ربّي﴾:

المراد بالخير: الخيل. والمعنى: أنّه انشغل باستعراضها ومراقبتها وفاتته عبادة وأوراد مستحبّة، كان يقوم بها وقت العصر، فأسف لذلك أشدّ الأسف.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يحزن ويأسف على ما يفوته من طاعة الله جلّ جلاله لأنّها التي تنفعه، وأن لا يأسف على شيء فاته من أمر الدنيا، ألا تسمع أمير المؤمنين عليه السلام وهو يوصي الحسن والحسين عليهما السلام بعدما ضربه ابن ملجم لعنه الله: ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما[1].

وقوله تعالى: **﴿حتى توارت بالحجاب﴾** حتى غربت الشمس، وفات وقت ذلك العمل.

٤ ـ ﴿ردّودها عليّ﴾:

أمر من كان بحضرته من الناس أن يرجعوا هذه الأفراس **﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾** أخذ يضرب سوقها وأعناقها.

والمراد: أنّه ذبحها، وتصدّق بلحمها لأنها كانت السبب فيما فاته، ولأنّها أعزّ ما له، والله سبحانه يقول **﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾** **[البقرة/١٧٧]**.

والمعنى: تعطيه وأنت صحيح تأمل العيش، ولا تتماهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا.

وذكر أهل السير أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان يتصدّق بالسكّر واللوز فسُئل عن ذلك فقرأ **﴿لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا مما تحبّون﴾** وكان يحبه[2].

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) أعيان الشيعة: ٤/ ٤٦٤.

وما فعله نبيُّ الله سليمان عليه السلام من التصدّق بلحوم الخيل، والتي هي أعزّ ماله، هو الطريق الصحيح لمن اشتغل بعمل ففاتته طاعة، فعليه أن يتقرّب إلى الله تعالى بذلك العمل الذي أشغله، مثال ذلك: كنت تريد الذهاب للحج مرةً ثانيةً أو ثالثةً، ثم انشغلت ببناء، فتوقفه لوجه الله تعالى، وكنت تريد صوم شهر رجب مثلاً، ثم حصل لك سفر عاقك عن ذلك، فتتصدّق بما كسبت من مال في سفرك.

واعلم أنّك لو ملكت الدنيا شرقاً وغرباً كما ملكها سليمان عليه السلام لم تأخذ منها سوى الكفن، وما زاد فهو للوارثين، وطالما جعلوك مسبّة لتنازعهم فيما خلّفته لهم، بينما كل مال أنفقته في مرضاة الله جلّ جلاله، وكل عمل خيري قمت به لوجهه الكريم، تجده أمامك في وقت أحوج ما تكون إليه.

٥ ـ ﴿ولقد فتنا سليمان﴾:

الفتنة: الإبتلاء، والله سبحانه ادّخر ذلك للأنبياء والأولياء لترتفع درجاتهم عنده، وتسمو منازلهم لديه، وليتعلّم الناس منهم الصبر والثبات **﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾** وهو جسد ابن له، خاف عليه من الجن لما بلغه من قولهم: لئن عاش له ولد لنلقينّ منه ما لقينا من أبيه، فأسكنه في العوالم العلوية حفاظاً عليه، ولكنّه لم ينفعه حذره، فقد سقط الطفل ميّتاً على كرسيّه، تنبيهاً على أنّ الحذر لا يدفع القدر، وأنّ المفروض بالإنسان أن يستودع الله جلّ جلاله على ما أهمّه، فهو الحافظ لما استودع، ولو أنَّ أهل السماوات وأهل الأرض أرادوا بعبد سوءً والله سبحانه وتعالى يريدِ حفظه لما تمكّنوا من أن يصلوا إليه بسوء، ويشهد لذلك ما حصل من تجمع اليهود على قتل عيسى عليه السلام، واتفاق قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله، وتجمّعهم على بابه ليلة خروجه إلى المدينة، وغيرها كثير.

٦ ـ ﴿ثم أناب﴾:

ثم أناب إلى الله، أي رجع إليه بالتوبة.

وهذا أيضاً درس عظيم يجب أن يتعلّمه المسلم من سليمان عليه السلام، فربّما أخلّ الإنسان بواجب أو مستحبّ، أو سلك طريقاً لم يؤمر بسلوكه، فإنّ الواجب يحتّم عليه بالرجوع سريعاً إلى الله جلّ جلاله بالتوبة والاستغفار، والاستعانة به

على ما أهمّه من أمر دينه ودنياه، والحذر ثم الحذر أن يتباطأ أو ينسيه الشيطان الإنابة، أو يعظّم له الخطيئة، ويصوّر له أنّ الطريق إلى الله سبحانه أصبح أمامه مسدوداً؛ ألا تسمع لقمان الحكيم وهو يقول لابنه خفِ الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذّبك، وأرجُ الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك[1].

٧ ـ ﴿قال ربِّ اغفر لي﴾:

فهو بعد الذي حدث له توجّه إلى الله جلّ جلاله، وبدأ بالمهم وهو طلب المغفرة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا شفيع أنجح من التوبة[2].

واعلم رعاك الله لم يكن استغفار عليه السلام عن ذنب ولكن من باب الإنقطاع إلى الله جلّ جلاله، وهو نظير ما حكاه سبحانه عن إبراهيم عليه السلام ﴿ **وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ** ﴾ **[الشعراء/٨٢]**.

وحاشا أن يخلّ أنبياء الله عليهم السلام بطاعة، أو يقترفوا ذنباً، فهم معصومون منزّهون عن فعل القبيح.

٨ ـ ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾:

وأنا وأنت وجميع البشر نسأل من الله جلّ جلاله المال والعقار لنتمتّع ونسعد به، أما نبيّ الله فهدفه من ذلك أن يقيم معالم الحق، وينشر كلمة التوحيد، ويقضي على رؤوس الشرك، ألا تراه وقد بلغه خبر بلقيس وشعبها **﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس﴾** كيف أسرع، وعمل بكل جهده لإنقاذهم من الضلال، وفعلاً تمّ له ذلك على أحسن ما يكون.

٩ ـ ﴿فسخّرنا له الريح تجري بأمره﴾:

إستجاب الله جلّ جلاله دعاء عبده سليمان عليه السلام، وأعطاه ما لم يعطِ أحداً قبله ولا بعده، لقد ملّكه مشارق الأرض ومغاربها، وسخّر له الجن يعملون بين

(١) تحف العقول: ٢٧٧.
(٢) نهج البلاغة: حكمة ٣٧١.

يديه، كما سخّر له بعض العوالم الأخرى ليتمكّن من السيطرة على هذا الملك العظيم الواسع؛ فقد كانت الريح تنقله وجنده ومعدّاته إلى ما يحتاج إلى قطعه في شهر، وترجعه من يومه ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ/١٢]. إنّها توفر له في يوم واحد مسيرة شهرين، ويقول المفسّرون: كان يغدو من إيليا، ويقيل بقزوين، ويبيت ببابل[١].

١٠ ـ ﴿والشياطين كل بنّاء وغوّاص﴾:

وأيضاً: فقد سخّر الله جلّ جلاله له الشياطين **﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾** كما سخّر بعضهم بالبناء، وآخرين في الغوص، فهم في الوقت الذي يعملون له ما يعجز البشر عن عمله، يكون قد شدّهم وشغلهم عن التعرّض لعباد الله.

١١ ـ ﴿هذا عطاؤنا﴾:

فهذا الملك الواسع، وهذه المقدرات العظيمة، هي بعض عطايانا له، ونعمنا عليه **﴿فامنن أو أمسك﴾** فاعط من شئت من ذلك، وامنع من شئت **﴿بغير حساب﴾** لا تحاسب على ذلك في مواقف القيامة.

١٢ ـ ﴿وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾:

وأعظم من هذا الذي مرّ من ملك سليمان عليه السلام، واتساع سلطانه، هو إنّ له المقام المحمود عند الله جلّ جلاله، والمنزلة الرفيعة.

لقد ذهب ملكه وسلطانه بوفاته، وأمّا الذي بقي له عمله الصالح الذي قدّمه أمامه.

البديل

ومن يعامل الله جلّ جلاله يربح، ومن يعمل بطاعته يغنم، ألا تراه جعل الحسنة بعشر حسنات ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام/١٦٠] ولكنّه

(١) مجمع البيان: ٨/ ٣٦٢.

استقلّها لهم فضاعفها **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة/١٦١]**.

وأكثر من هذا إنَّ المتعاملين مع الله جلّ جلاله، والمسارعين إلى مرضاته يعطيهم الدُّنيا قبل الآخرة.

وهذا نبيُّ الله سليمان عليه السلام عقر الخيل ـ وهي أحب ماله إليها ـ ووزّع لحمها على الفقراء طلباً لمرضاة الله جلّ جلاله، فأبدله الله سبحانه بالريح **﴿فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾**.

قال الحسن: فلما عقر الخيل لأجل الله أبدله الله تعالى مكانها خيراً منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره رخاءً كيف يشاء، غدوّها شهر، ورواحها شهر، وكان يغدو من إيليا فيقيل في اصطخر، ثم يروح منها فيبيت في بابل[1].

فأنت لو أعطيت بعض مالك للفقراء والمحتاجين طلباً لمرضاة الله تعالى، فسوف يجزل لك العطاء في الدنيا، مع ما ينتظرك من نعيم الآخرة.

سبحان الله

ملك سليمان عليه السلام الدنيا من شرقها إلى غربها، وانقادت له الجن والإنس، والطير والوحش، وسخّر سبحانه وتعالى له الريح تجري بأمره، والرواية: إنَّ سليمان كان معسكره مائة فرسخ في مائة فرسخ، وقد نسجت الجن له بساطاً من ذهب فيقعد عليه، وحوّله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظلّلهم الطير بأجنحتها، وكان يأمر الريح العاصف يسيّره، والرخاء يحمله، فيحكى أنّه مرّ بحرّاث فقال: لقد أوتي ابن داود ملكاً عظيماً، فألقاه الريح في أذنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال: إنّما مشيت إليك لئلا تتمنّى ما لا تقدر عليه، ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى، خير مما

(١) بحار الأنوار: ١٤٨/٩٠.

أوتي آل داود، لأنّ ثواب التسبيحة يبقى وملك سليمان يفنى[١].

ويعضد هذا ما ورد في ثواب التسبيح:

١ ـ قال إبراهيم عليه السلام لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المعراج: يا محمد اقرأ أمّتك مني السلام، وأخبرهم أنّ الجنة ماؤها عذب، وتربتها طيّبة، قيعانها بيض، غرسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، فمرّ أمّتك فليكثروا من غرسها[٢].

٢ ـ وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برجل يغرس غرساً في حائط فوقف له فقال: ألا أدلّك على غرس أثبت صلاحاً، وأسرع إيناعاً، وأطيب ثمراً وأبقى.

قال: بلى فدلّني يا رسول الله.

فقال: إذا أصبحت وأمسيت فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنّ لك إن قلته بكل تسبيحة عشر شجرات في الجنّة من أنوع الفاكهة، وهنّ من الباقيات الصالحات.

فقال الرجل: فإنّي أشهدك يا رسول الله أنّ حائطي هذا صدقة مقبوضة على فقراء المسلمين أهل الصدقة، فأنزل الله عزّ وجلّ آيات من القرآن **﴿فأمّا من أعطى واتّقى. وصدّق بالحسنى. فسنيسّره لليسرى﴾**[٣].

٣ ـ وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: من قال: سبحان الله من غير تعجّب خلق الله منها طائراً له لسانان وجناحان، يسبّح الله عنه في المسبّحين حتى تقوم الساعة، ومثل ذلك الحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر[٤].

٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال: سبحان الله وبحمده، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، ومن زاد زاده الله

---

(١) روضة الواعظين: ١/٥٨.
(٢) روضة الواعظين: ١/٥٨.
(٣) أصول الكافي: ٤٠٤.
(٤) ثواب الأعمال: ١٢.

ومن استغفر غفر الله له[١].

٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة[٢].

الرؤوف الرحيم

والله جلّ جلاله كما هو رؤوف بالإنسان كذلك هو بالنسبة للحيوان، ومن مظاهر ذلك المطر الذي لولاه لهلك القسم الأكبر من الحيوان، بل لعل هذا الخير الذي ينزله من السماء هو من أجل الحيوان، وحتى جاء في الحديث: لولا شيوخ ركّع، وأطفال رضّع، وبهائم رتع، لصبّ العذاب عليكم صبّاً.

نعود فنذكر حادثة طريفة وقعت في عهد نبيِّ الله سليمان عليه السلام.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: إنّ الناس أصابهم قحط شديد على عهد سليمان بن داود عليه السلام، فشكوا ذلك إليه، وطلبوا إليه أن يستسقي لهم، فقال لهم: إذا صلّيت الغداة مضيت، فلما صلّى الغداة مضى ومضوا، فلما أن كان في بعض الطريق إذا هو بنملة رافعة يدها إلى السماء، واضعة قدميها إلى الأرض وهي تقول: اللّهم إنّا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب بني آدم.

فقال سليمان عليه السلام: إرجعوا فقد سقيتم بغيركم. قال: فسقوا في ذلك العام ما لم يسقوا مثله قط[٣].

لا تدخلوا أجوافكم إلاّ طيّباً

وأنت ربما رأيت كلمة لنبيٍّ أو إمام أو صدّيق، وتأمّلتها جيّداً، وأخذت بما فيها جنّبتك متاعب كثيرة، وأغنتك غناءً ليس بعده فقر.

---

(١) معاني الأخبار: ٣٩٠.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٢٥٤.

(٣) روضة الكافي: ٨/ ١٩٨.

ومن هذا ما جاء في الحكم: ربّ كلمة أحيت ميّت؛ ومن هذا التراث ـ وما أكثره ـ وصية نبيِّ الله سليمان عليه السلام لبني إسرائيل: «يا بني إسرائيل لا تدخلوا أجوافكم إلاّ طيّباً، ولا تخرجوا من أجوافكم إلاّ طيّباً»[١].

إنّك لو فتشت أضابير أهل النار لوجدت معظمها ناشىء من التسامح في هذين الأمرين؛ إنّنا نتسامح في أداء حقوق الناس، ولا نتحرّج من أموالهم، كذلك نطلق لألسنتنا العنان، فنتكلّم بما نشاء من كذب، وفحش، وغيبة، وبهتان... وأخيراً تكون النتيجة الحتمية النار.

لا راحة فيها

مرّ عليك ما أوحاه الله جلّ جلاله إلى داود عليه السلام: وضعت خمسة في خمسة والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها... وضعت الراحة في الجنة وهم يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها.

ونحن نشاهد صنوف الناس، ومختلف الطبقات وكلّهم يشكو التعب وعدم الراحة، بل الكثير منهم يدّعي أنّ متاعبه ومشاكله أعظم من الجميع، فينبغي للعاقل أن يمهّد لنفسه الراحة في الدار الباقية وذلك بالعمل الصالح.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ العمل الصالح ليذهب إلى الجنّة فيمهّد لصاحبه كما يبعث الرجل غلامه فيفرش له، ثم قرأ ﴿**ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون**﴾[٢].

ونبيُّ الله سليمان عليه السلام استجاب الله دعاءه ﴿**ربِّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ فقد ملك الدنيا بأسرها، وامتدّ سلطانه على الإنس والجن والحيوان، أحبّ أن يتمتّع يوماً واحداً بمشاهدة بعض مملكته، وصنوف العاملين فيها.

---

(١) الكشكول للشّيخ البهائي: ١/١٦٩.
(٢) أمالي الشيخ المفيد: ١٢٢.

قال الإمام الصادق عليه السلام : إنّ سليمان بن داود قال ذات يوم لأصحابه: إنّ الله تبارك وتعالى قد وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، سخّر لي الريح والإنس والجن والطير والوحوش، وعلّمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء، ومع جميع ما أوتيت من الملك ما تمّ سروري يوماً إلى الليل، وقد أحببت أن أدخل قصري فأصعد في أعلاه فانظر إلى ممالكي، فلا تؤذنوا لأحد لئلا يرد عليّ ما ينغّص عليّ يومي.

فقالوا: نعم.

فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع في قصره، ووقف متكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أوتى، فرحاً بما أعطي، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج إليه من بعض زوايا القصر، فلما بصر به سليمان.

قال: من أدخلك إلى هذا القصر وقد أردت أن أخلو فيه هذا اليوم، وبإذن من دخلت؟

قال الشاب: أدخلني هذا القصر ربّه، وبإذنه دخلت.

فقال: ربّه أحقّ به مني، فمن أنت؟

قال: أنا ملك الموت.

قال: وفيما جئت؟

قال: جئت لأقبض روحك.

قال: إمضِ لما أمرت به، فهذا يوم سروري وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سرور دون لقائه.

فقبض ملك الموت روحه وهو متكٍ على عصاه؟

فبقي سليمان متوكّئاً على عصاه وهو ميّت ما شاء الله والناس ينظرون إليه، ويقدّرون أنّه حيّ[1].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ٢٤٥.

ورواية البيهقي: يا ملك الموت هذا يوم أردت أن يصفو لي، ولا أسمع فيه ما يغمّني.

فقال: يا سليمان إنّك أردت يوماً يصفو لك فيه عيشك حتى لا يغمّك فيه شيء، وذلك يوم لم يخلق في الدنيا، فارضَ بقضاء ربّك فإنّه لا مردّ له.

قال: فاقبض كما أُمرت[1].

(١) عرائس المجالس: ٣٢٧.

قصّة يونس عليه السلام

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس/ ٩٨].

الوالـد

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: لا يزال العبد المؤمن يورث أهل بيته العلم والأدب الصالح حتى يدخلهم الجنة جميعاً، حتى لا يفقد منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا خادماً ولا جاراً، ولا يزال العبد العاصي يورث أهل بيته الأدب السيء حتى يدخلهم النار جميعاً، حتى لم يفقد فيها من أهل بيته صغيراً ولا كبيراً، ولا خادماً ولا جاراً[١].

فصلاح الآباء له الأثر الكبير في تهذيب الأبناء، فبصلاح الرجل تصلح عائلته، وبفساده يفسدون، ومع الأسف الشديد إننا نعلّم أبناءنا على الخلق السيء من حيث نعلم أو لا نعلم، فقد يزورنا زائر لا نرغب بملاقاته فنقول للطفل: قل له: أبي غير موجود، وقد يطالبنا الدائن بتسديد حسابه، فنحلف له بأنا لا نملك ما نسدّد له دينه، في حين أنّ الطفل يعلم بأنّا نملك المبلغ، وبهذا علمناه على الكذب وهو أكبر الرذائل وأعظمها جرماً.

ونقل عن أحد الخمارين أن أطفاله يحضرون أواني الشاي، ويصبّ بعضهم لبعض الماء، وبعد تناوله يأخذون بالتمايل وانهم قد فقدوا وعيهم كما هو الحال

---

(١) عرائس المجالس: ٣٢٧.

بالنسبة للسكران.

وبالعكس فقد يتعلّم الأطفال وهم في سن مبكرة بعض أفعال الصلاة، وتعاليم الإسلام الأخرى إذا شاهدوا آباءهم يقيمونها، فقد يصبح الطفل وهو ابن أربع سنوات مثلاً ويأبى أن يتناول طعام الإفطار قائلاً: إنّي صائم، لأنه يشاهد أباه وأمه واخوانه الكبار يصومون.

وطالما أخذ الأدب البيتي بالطفل وهو صغير إلى صفوف العظماء وهو كبير، فهذا نبي الله يونس بن متى عليه السلام يحدثنا التاريخ عن جانب واحد من حياة أبيه رضوان الله عليه، ويمكننا أن نقيس على ذلك بقية جوانب حياته.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنَّ داود النبي عليه السلام قال: يا رب أخبرني بقريني في الجنة، ونظيري في منازلي.

فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: إنّ ذلك متّى أبا يونس، فاستأذن الله في زيارته فأذن له، فخرج هو وسليمان ابنه عليه السلام حتى أتيا موضعه، فإذا هو بيت من سعف، فقيل لهما: هو في السوق، فسألا عنه فقيل لهما: اطلباه في الحطابين، فسألا عنه فقال لهما جماعة من الناس: تنتظراه الآن حتى يجيء، فجلسا ينتظرانه إذ أقبل وعلى رأسه وقر من حطب، فقام إليه الناس، فألقى الحطب فحمد الله وقال: من يشتري طيباً بطيّب، فساومه واحد، وزاده آخر حتى باعه من بعضهم؛ فسلّما عليه فقال: انطلقا بنا إلى المنزل، واشترى طعاماً بما كان معه، ثم طبخه وعجنه في نقير له، ثم أجّج ناراً وأوقدها، ثم جعل العجين في تلك النار، وجلس معهما يتحدّث.

ثم قال: وقد نضجت خبيزته فوضعها في النقير فلفّها، وذرّ عليها ملحاً، ووضع إلى جنبه مطهرة ملىء ماء وجلس على ركبتيه، فأخذ لقمة فلما رفعها الى فيه قال: بسم الله، فلما ازدردها قال: الحمد لله، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى، ثم أخذ الماء فشرب منه فذكر اسم الله، فلما وضعه قال: الحمد لله، يا رب من ذا الذي أنعمت عليه وأوليته مثل ما أوليتني، قد صحّحت بصري وسمعي وبدني، وقوّيتني حتى ذهبت الى شجر لم أغرسه، ولم أهتم لحفظه، وجعلته لي رزقاً، وسقت لي من اشتراه مني فاشتريت بثمنه طعاماً لم أزرعه، وسخّرت لي النار

فأنضجته، وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد.

فقال داود لسليمان: يا بني قم فانصرف بنا، فإنّي لم أرَ عبداً قط أشكر لله من هذا، صلى الله عليه وعليهما[1].

الرجوع الى الله

ذكرت لك يا عزيزي أنّ هذه القصص هي للعبرة وأخذ الدروس منها، فأول درس نستفيده منها هو علينا أن نرجع إلى الله تعالى مهما كانت صحائف أعمالنا سوداء، فالوالد ـ وهو الذي قلنا أقل عطفاً على ولده من الله الخالق ـ يقبل ولده إذا جاءه معتذراً عن تفريطه، نادماً على ما سلف من تقصيره؛ فالله سبحانه وتعالى وهو الرؤوف العطوف يقبلك إذا جئته تائباً، وهو القائل: «من تقرّب اليّ شبراً تقرّبت اليه ذراعا[2].

فبادر رحمك الله بالرجوع الى ربّك، ولا يمنعك عظيم ما اجترحته من المعاصي، فإنّك ترجع إلى عفو غفور، ولعل ذنبك مهما عظم هو دون ذنب أمّة يونس عليه السلام لأنهم عصوه في التوحيد، والله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء /٤٨].

ولكن عند توبتهم ونزوعهم غفر لهم، وقبلهم أحسن قبول.

وحدث في القرن الأول للهجرة حدثٌ عظيمٌ للحرّ بن يزيد الرياحي، فهو من وجوه الكوفة وشجعانها، أرسله ابن زياد على رأس ألف فارس لصدّ الحسين عليه السلام ومنعه من دخول الكوفة، وفعلاً التقى بالحسين عليه السلام ومنعه من التوجّه إلى الكوفة، وظل يسايره حتى أنزله كربلاء.

وفي يوم عاشوراء وبعد أن صفَّ كل من الحسين عليه السلام وابن سعد جيشه للحرب، وبعد خطب سيد الشهداء وأصحابه أقبل الحرّ على ابن سعد قائلاً: أصلحك الله أمقاتلٌ أنت هذا الرجل؟

(١) دعائم الإسلام: ١/ ٨٢.
(٢) مجمع البحرين : ٢/ ١٤٢.

فقال: اي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس، وتطيح الأيدي.

قال: فما لك في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا؟

فقال: أمّا والله لو كان الأمر لي لفعلت، ولكن أميرك قد أبى.

فأقبل الحرّ حتى وقف من الناس موقفاً ومعه قرّة بن قيس الرياحي فقال: يا قرّة هل سقيت فرسك اليوم؟

قال: لا.

قال: أما تريد أن تسقيه؟

قال: فظننت والله أنّه يريد أن يتنحّى فلا يشهد القتال، وكره أن أراه حين يصنع، فخاف أن أرفعه عليه؛ فقلت: أنا منطلق فساقيه.

قال: فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه، فوالله لو أطلعني على الذي يريد لخرجت معه.

فأخذ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس الرياحي: ما تريد يابن يزيد، أتريد أن تحمل؟

فسكت وأخذه مثل العرواء[١].

فقال له: يابن يزيد إنّ أمرك لمريب، وما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلاً ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك؟!!

قال: إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنار والله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو قطّعت وحرقت.

ثم ضرب فرسه ولحق بالحسين عليه السلام، فلما دنا منهم قلب ترسه، فقالوا: مستأمن[٢].

وقال السيد ابن طاووس عليه الرحمة: ثم ضرب فرسه قاصداً إلى

---

(١) العرواء: الرّعدة من البرد والإنتفاض

(٢) ابصار العين: ١٤٣.

الحسين عليه السلام ويده على رأسه وهو يقول: اللّهم إليك تبت فتب عليّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيّك[1].

قبله سيد الشهداء عليه السلام، وجاهد معه أعداءه، وقتل في حملته الأخيرة ثمانين فارساً ثم استشهد، وجعل الحسين عليه السلام يمسح الدم والتراب عن وجهه ويقول: ما أخطأت أمّك إذ سمّتك حرّاً، أنت الحرّ في الدنيا والحرّ في الآخرة[2].

استغفار وتوبة

سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يقول: أستغفر الله، فقال له ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار. الاستغفار درجة العلّيين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أوّلها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: ان تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها، فتؤدي حقّها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألَم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله[3].

فينبغي للتائب أن يُجهد نفسه على الطاعات كي يتأهّل للمغفرة، والدرجات الرفيعة.

وحديثنا في هذا الفصل عن توبة أهل نينوى ـ قوم يونس عليه السلام ـ فعن عبدالله بن مسعود رضوان الله عليه قال: بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادّوا المظالم بينهم حتّى ان كان الرجل يأتي إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه ويردّه[4].

فيجب عليك يا أخي أن تحرص على أداء حقوق الآخرين، فقد ورد أنّ الله

(١) اللُّهوف: ٤٣.
(٢) مقتل الحسين عليه السّلام لكاشف الغطاء: ٤٠.
(٣) نهج البلاغة: ٥٥٠.
(٤) مجمع البيان: ٥/ ٢٣٠.

سبحانه وتعالى لا يغفر للعبد وإن تاب مظالم العباد التي عنده حتى يتنازلوا له عنها.

وأنت يا أخي إذا عجزت عن تأدية ذلك فاستوهب الذين ظلمتهم وتعدّيت عليهم، واطلب منهم أن يصفحوا عن تفريطك في حقوقهم، وتعدّيك عليهم، فإن سمحوا لك بذلك فقد حصل المطلوب، ونجوت من التبعات.

الرأفة

إعلم رعاك الله أنّ أحباءك في هذه الدنيا كثيرون، فأبوك يُحبّك، وأمّك تحبّك، وإخوانك يحبّونك، وأبناؤك يحبّونك، وأقرباؤك يحبّونك، وجيرانك يحبّونك، وغيرهم ممن أحسنت إليهم، ولكن ربّك الذي خلقك هو أكثر حبّاً لك من هؤلاء جميعاً، وأوّل دليل على حبّه لك هو عدم أخذه لك عند معصيتك له، فأنت في كل يوم، وقد تكون في كل ساعة تعصيه وتخالفه، وهو في كل يوم، بل وفي كل ساعة يرزقك ويرعاك، وأنت قد جرّبت الذين يحبّونك، فعندما تبدر منك بادرة سيّئة إلى واحدٍ منهم أعرض عنك، وأمّا ربّك الودود فهو مقبلٌ عليك دائماً وفي كل الأحوال.

ولعلّ الشيطان يا أخي يشكّكك في هذا الحب الإلهي ويقول لك: إنك دائماً تطلب منه فيمنعك، وتدعوه فلا يجيبك.

فاعلم يا أخي أنّك ربّما تطلب منه ما يكون فيه حتفك فيمنعك منه حبّاً لك، فقد تطلب منه أن يرزقك سيارة وهو يعلم أنّ ذلك لا يصلح لك، وقد تسبّب لك السيارة مشاكل، وربما كانت السبب في منيّتك، فيمنعك منها وأنت لا تعلم السبب.

ومثَلُك يا أخي في بعض طلباتك منه جلّ جلاله كمثل طفل مريض، أخذه أبوه للطبيب فأجرى له الأشعة والتحليل، ثم وصف له الدواء، كلّف هذا التداوي الوالد مبلغاً محترماً، دفعه برحابة صدر، ولكن المشكلة حدثت عند التوجّه إلى البيت، فقد شاهد الطفل بائع المرطّبات وطلب من أبيه أن يشتري له، وعندما

أخبره أنّ الطبيب لا يوافق على ذلك أخذ في البكاء، معتقداً أنّ أباه منعه ذلك حرصاً على المال، أو لعدم حبّه له.

وألفتُ نظرك إلى شيءٍ آخر يجب أن تنتبه إليه: هو أنّ المعاصي والذنوب قد تكون هي السبب في عدم إجابة الدعاء.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[(١)].

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنّ العبد يسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاءها إلى أجلٍ قريبٍ أو بطيء، فيذنب العبد عند ذلك ذنباً فيقول الله للملك الموكَّل بحاجته: لا تنجز حاجته، فإنّه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان مني[(٢)].

وقال الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمر رضوان الله عليه: يا مفضّل إيّاك والذنوب وحذّرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم؛ إنّ أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان وما ذاك إلاّ بذنوبه، وإنّه ليصيبه السقم وما ذاك إلاّ بذنوبه، وإنّه ليحبس عنه الرزق وما هو إلاّ بذنوبه، وإنّه ليشدّد عليه عند الموت وما هو إلاّ بذنوبه، حتى يقول من حضره: لقد غمّ بالموت.

قال المفضل: فلما رأى ما قد دخلني قال: أتدري لِمَ ذاك يا مفضل؟

قلت: لا أدري جعلت فداك.

قال: ذاك والله إنّكم لا تؤاخذون بها في الآخرة، وعجّلت لكم في الدنيا[(٣)].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الذنب يحرم الرزق وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة**﴾[(٤)].

وقال عليه السلام: ما من حمّى ولا صداع ولا عرق يضرب إلاّ بذنب، وما يعفو

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠/٢٥٩.
(٢) الإختصاص: ٢٥.
(٣) علل الشّرائع: ٢٩٧.
(٤) مشكاة الأنوار: ١٥٥.

الله أكثر[١].

وهو كما قال الإمام عليه السلام: وما يعفو الله عنه أكثر، فذنوبنا كثيرة جداً ولكنّه جلّ جلاله يعاملنا باللطف والرأفة والحنان، وحتى الذي مرّ عليك من الأحاديث عن أثر الذنوب هو أيضاً من الرأفة والرحمة منه سبحانه وتعالى، فربّما يكون ذلك سبباً لترك الذنب، والتوجّه إلى الله تعالى، وحتّى إذا لم يحصل هذا، فعذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة، ومهما تكن المؤاخذة شديدة في الدنيا فهي دون جهنّم بكثير.

ومن مظاهر الرأفة والرحمة منه جلّ جلاله ما حدث لقوم يونس عليه السلام، فقد كانوا عصاة، لم يستجيبوا لنداء السماء، ولم تنفعهم نصائح ومواعظ نبيّهم عليه السلام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعث الله يونس بن متّى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به إلاّ رجلان، أحدهما روبيل وكان عالماً، والآخر تنوخاً وكان عابداً، ولما يئس من استجابتهم دعا عليهم، فأُخبر باستجابة دعائه، وأنّ العذاب نازلٌ بهم، فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب، قال سعيد بن جبير: كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه... وقال وهب: أُغيمت السماء غيماً أسود هائلاً، تدخّن دخّاناً شديداً، فهبط حتى غشي مدينتهم، واسودّت أسطحتهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب، فطلبوا نبيّهم يونس فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، وألهمهم الرجوع إليه، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح، وأظهروا الإيمان والتوبة لله، وأخلصوا النيّة، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من النّاس والدواب والأنعام، فحنّ بعضها إلى بعض، وعلت أصواتهم، واختلط حنينهم، وعجّوا وتضرّعوا إلى الله، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم، واستجاب دعوتهم، وقبل توبتهم، وكشف عنهم العذاب بعدما أظلّهم[٢].

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٧٨.

(٢) عرائس المجالس: ٤٠٨.

قال ابن مسعود: إنّ يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أنّه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرّقوا بين كل والدة وولدها، ثم خرجوا فجأروا إلى الله واستغفروا فكشف الله عنهم العذاب[1].

هذا ويونس عليه السلام لا علم له بمآل القوم وتوبتهم، إلاّ أنّه يسأل عنهم فخبر أنّهم في أحسن حال، وطبيعي أن يستاء عليه السلام لذلك لا سيّما وأنه أخبرهم عن الله جلّ جلاله بنزول العذاب، ويحدثنا الثعلبي عن هذه الفترة فقال: يروى أنّ يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قريةً ليلاً، فأضافه رجل، وكان ذلك الرجل قد عمل كثيراً من الفخار، فأوحى الله إليه: يا يونس مر صاحب هذا الفخار أن يكسر تلك الفخارات، فقال له يونس ذلك، فلما سمع منه ذلك شتمه وقال: شيءٌ عملته بيدي أعيش منه وأتمتع بثمنه أنا وعيالي تأمرني بكسره؟ فبكى يونس، فأوحى الله إليه: هذا عمل فخاراً من طين لم تطب نفسه بكسره، وأنت طبت نفساً ووطّنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادي[2].

فلولا أنّه كان من المسبّحين

وقد تكون المصائب والبلايا والمحن لرفع درجات العبد، وزيادةً له في الخير والأجر والثواب، كما هو الحال في الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فقد تعرّضوا لجميع مكاره الحياة ومحنها، وتجرّعوا صنوف الأذى من طواغيت أممهم.

واعلم أنّ البلاء كما ينصبّ على الأنبياء والأئمة عليهم السلام كذلك يصيب الصالحين، فلا يسلم منه مؤمن، حتّى ورد في بعض الأحاديث: لا يوجد مؤمن إلاّ وله جار يؤذيه، وهو نوع من أنواع البلاء.

وصريح الأحاديث أنّ العبد كلما ازداد إيماناً ازداد بلاءاً، ليزداد رفعة ودرجة يوم القيامة.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «مثل المؤمن كمثل كفتيّ الميزان، كلما

(١) تاريخ الطّبري: ١/ ٤٦١.
(٢) عرائس المجالس: ٤١١.

زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجل ولا خطيئة له»[1].

وقال الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلاّ ابتلاهم»[2].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضيَ اصطفاه»[3].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «والذي بعثني بالحق نبيّاً إنّ الرجل لتكونن له الدرجة في الجنّة فلا يبلغها بشيء من عملها فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله»[4].

وينبغي للمؤمن التوجّه إلى الله تعالى في كشف بلائه، وقد مرّ عليك في قصّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما رمي به إلى النار هبط عليه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ألكَ حاجة؟

فقال: أما إليك فلا.

وأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وحين اشتدّ به الحال توجّه إلى كشّاف الكرب العظام ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء/٨٣].

وقد علمت ما حصل لهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من كشف الضر الذي لا يقدر عليه إلاّ الله جلّ جلاله.

وما أعظم بلية نبيِّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد ركب في السفينة، وبعد أن توسّطت البحر اشتدت العواصف، وأشرفوا على الغرف، فرأوا أنهم اذا القوا واجا منهم سلم الباقون ، فاقترعوا فوقعت عليه القرعة، فخرج إليه فالتقمه **﴿فنادى في الظلمات﴾** ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء/٨٧] فكان نداؤه وتوجّهه إلى الله

---

(١) إرشاد القلوب: ١/ ١٩٩.
(٢) مشكاة الأنوار: ٢٩٨.
(٣) أمالي الشَّيخ المفيد: ٦٣.
(٤) المستطرف: ٢/ ٢٤٤.

تعالى سبب نجاته، قال سبحانه وتعالى عنه: ﴿**فلولا أنّه كان من المسبّحين**﴾ من المصلّين في حال الرخاء، فنجّاه الله عند البلاء[1] ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ **[الصافات/١٤٤]**.

لقد تداركته رحمة من ربّه فنجا من هذه المحنة العظيمة.

فينبغي للمؤمن أن يتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى في مصائبه، فهو القادر على كشف ما به من ضرّ، ويقتدي بأنبياء الله تعالى في التوجّه إليه جلّ جلاله في ساعة العسرة والشدة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولو أنّ الناس إذ زالت عنهم النعم، ونزلت بهم النقم، فزعوا إلى الله بولهٍ في نفوسهم، وصدقٍ من نيّاتهم، وخالصٍ من سرايرهم، لردّ عليهم كلّ شارد، ولأصلح لهم كلّ فاسد، ولكنّهم أخلّوا بشكر النعم فسلبوها، وأنّ الله تعالى يعطي النعم بشرط الشكر لها، والقيام فيها بحقوقها، فإذا أخلّ المكلف بذلك كان لله التغيير»[2].

وعن هشام بن سالم قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: تعرفون طول البلاء من قصره؟

قلنا: لا.

قال: إذا ألهمتم أو ألهم أحد بالدعاء فليعلم أنّ البلاء قصير[3].

بقي أمرٌ مهمٌ جداً، وهو أنّ العبد إذا كان يدعو في الرخاء يستجاب له عند الشدّة، وتقول الملائكة: صوتٌ طالما سمعناه، وتشفَع له عند المولى جلّ جلاله فيشفّعها فيه؛ فعن الثعلبي: فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: ربّنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً معروفاً بأرض مجهولة.

قال: ذلك عبدي يونس، حبسته في بطن الحوت في البحر.

فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد لك في كل يوم وليلة عمل صالح؟!

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٠٤.
(٢) إرشاد القلوب: ١/ ٢٤٨.
(٣) فلاح السّائل: ٣٥.

قال: نعم.

فشفعوا له عند ذلك[1].

وينبغي عند الشدائد والمهمات أن نتوجّه إلى الله جلّ جلاله بهذا الدعاء.

قال سعد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى، دعوة يونس بن متّى. فقلت: يا رسول الله: هي ليونس بن متّى خاصةً أم لجماعة المسلمين؟

فقال: هي ليونس خاصةً ولجماعة المسلمين عامةً إذا دعوا بها، ألم تسمع قوله تعالى ﴿**فنادى في الظلمات**﴾ إلى قوله ﴿**وكذلك ننجي المؤمنين**﴾[2].

من مصاديق اللطف

واعلم أنّ من أسمائه جلّ جلاله (اللطيف) وأنّ ألطافه غمرت حتى أعداءه، والجاحدين لربوبيته، ومن جعلوا له شريكاً، أو عبدوا غيره.

وأنت لا تستطيع أن تعدّ المهاوي والمهالك التي ربّما كادت تقضي عليك أو على أولادك، أو تُذهب بأموالك، وصرفها جلّ جلاله عنك. إنّي أنقل لك قصةً وقعت لجبارٍ عظيمٍ ذكرها أهل الآثار يتجلّى فيها اللطف الإلهي بالعباد.

فبعد أن ألقى يونس عليه السلام نفسه في البحر والتقمه الحوت، فطاف به البحار السبعة حتّى صار إلى البحر المسجور وبه يعذّب قارون، فسمع قارون دويّاً، فسأل الملك عن ذلك، فأخبره أنّه يونس، وأنّ الله حبسه في بطن الحوت، فقال له قارون: أتأذن لي أن أكلمه؟ فأذن له، فسأله عن موسى عليه السلام فأخبره أنّه مات، فبكى، ثم سأله عن هارون عليه السلام، فأخبره أنّه مات، فبكى وجزع جزعاً شديداً، وسأله عن أخته كلثم ـ وكانت مسماة له ـ فأخبره أنّها ماتت، فبكى وجزع جزعاً شديداً.

(١) عرائس المجالس: ٤١٠.
(٢) عرائس المجالس: ٤١٠.

فأوحى الله إلى الملك الموكّل به أن أرفع عنه العذاب بقيّة الدنيا لرقّته على قرابته[1].

دعاء

الحياة طويلة، وحافلة بالمشاكل والآلام، من فقرٍ، ومرضٍ، ومتاعب، فينبغي للعبد أن يتوجّه عند هذه الأزمات إلى الله جلّ جلاله، فعنده الفرج، وبيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير ﴿**وإنْ يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلاّ وهو وإنْ يردك بخير فلا رادٍ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾ **[يونس/١٠٧]**.

قد أصابت نبيّ الله يونس عليه السلام شدّة ومحنة لم يُصب أحد قبله بمثلها، ونجا منها بتوسّله بالله تعالى.

ذكر القرآن الكريم بعض أدعيته عليه السلام، كما رويَ عن الصادقين عليهم السلام بعضها، نذكر من ذلك:

١ ـ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ **[الأنبياء/٨٨]**.

٢ ـ ومن دعاء له عليه السلام «يا رب من الجبال أنزلتني، ومن المسكن أخرجتني، وفي البحار صيرتني، وفي بطن الحوت حبستني، فلا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين» فأنجاه الله من الغمّ[2].

٣ ـ ومن دعاء له عليه السلام: يا ربِّ اللّهم إنّي أسألك بأسمائك الحسنى، وآلائك العليا، وأسألك يا الله يا الله، يا كبير يا جليل يا حنّان يا منّان يا فرد يا دائم يا وتر يا أحد يا صمد يا الله، لا إله إلاّ أنت، أسألك بلا إله إلاّ أنت أن تصلي على

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٠٠.
(٢) مهج الدّعوات: ٣١١.

محمد وآل محمد، وأن تغفر لي ذنوبي، وأن تحرّم جسدي على النار. اللّهم إنّك قلت في كتابك المنزّل على موسى: ألا تردوا السائلين عن أبوابكم، ونحن على بابك فلا تردّنا، اللّهم إنّك قلت في كتابك المنزّل على نبيّك موسى أن اغفروا للظالمين ونحن الظالمون على بابك فاغفر لنا، اللّهم إنّك قلت في كتابك المنزّل على موسى بن عمران أن اعتقوا الأرقّاء ونحن عبيدك فاعتقنا من النار[1].

في العرض القرآني المجيد

في هذه الصفحات عرض لقصّة يونس عليه السلام وما يتعلق بقومه نأخذه من عدة سور:

(١)

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس/ ٩٨].

في الوقت الذي نقرأ سلسلة من قصص الأمم المعذبة يذكر القرآن الكريم أمّة كانت في متاهات الضلال، وكاد أن يحلّ بها البلاء، وعند أول طلائع العذاب رجعوا إلى الله جلّ جلاله تائبين نادمين مستغفرين، فما كان منه سبحانه إلاّ أن رفع عنهم العذاب، وقبلَ توبتهم مع ما أعدّ لهم من نعيم الجنان.

والواقع ليس من أمةٍ أذكى من أمة يونس عليه السلام، لقد سعدوا دنيا وآخرة، بينما الأمم الأخرى شقوا دنيا وآخرة، ففي الدنيا نالهم العذاب والهوان، فقد زهقت أنفسهم، وذهبت أموالهم، وفي الآخرة هم في أشدّ العذاب.

وهكذا يا أخي فالمطيع في كل وقت وزمان يفوز دنيا وآخرة، ففي الدنيا يتمتع بصحة لا توجد عند الفاسقين[2]، وبأمان لا وجود له عند الملتوين، وأهم

---

(١) مهج الدّعوات: ٣١١.

(٢) فقد جاء في الحديث: «إنَّ الذين يموتون بالذُّنوب أكثر من الذين يموتون بالآجال». =

من هذا وذاك احترام الجميع له، وقد يشاركه في ذلك بعض العصاة أما الجنة فقد حرّمها الله جلّ جلاله على الفاسقين.

نعود للآية الكريمة:

فهلا كان أهل قرية آمنوا في وقت ينفعهم إيمانهم؛ أعلم الله سبحانه أنّ الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، ولا عند حضور الموت الذي لا يشك فيه، ولكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب.

ويقول الزجّاج: وقوم يونس لم يقع بهم العذاب، إنّما رأوا الآية التي تدل على العذاب، فمثلهم مثل العليل الذي يتوب في مرضه وهو يرجو العافية، ويخاف الموت[1].

والمراد بقوله تعالى ﴿**ومتعناهم إلى حين**﴾ هو وقت انقضاء آجالهم.

(٢)

١ ـ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **[الأنبياء/ ٨٧]**.

وهو نبيّ الله يونس بن متّى عليه السلام، والنون الحوت، أرسله الله جلّ جلاله إلى أهل نينوى، فلبث فيهم زمناً يدعوهم إلى عبادة الله جلّ جلاله وهم معرضون عنه، فخرج عنهم مغاضباً: مراغماً لهم حين أوعدهم الله بالعذاب، وكان خروجه قبل أن يؤذن له ﴿**فظنَّ أن لن نقدر عليه**﴾ لن نضيّق عليه.

٢ ـ ﴿**فنادى في الظلمات**﴾:

لفَّ الحوت يونس وأخذ يجول به البحر، والظلمات التي أشارت إليها الآية الكريمة هي: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ولعلك تدرك

= ومثال ذلك ما يصيب الزُّناة والخمّارين من أمراضٍ تقضي عليهم قبل الأوان؛ وقد تعاجلهم المنيّة فجأة؛ بينما ترى المطيعين يعيشون في سلام وبمعزل عن هذا وغيره.

(١) مجمع البيان: ٥/ ٢٢٩.

بعض ما كان يعانيه سلام الله عليه في هذا السجن الرهيب، ورغم ذلك فلم يشغله ما به عن ذكر الله جلّ جلاله، والتوجّه إليه بحاجته، وكذلك لم ينقطع أمله بالنجاة؛ وتفيد بعض الأحاديث أن العبد إذا كان يدعو ويتوجه إلى الله جلّ جلاله في اليسر والرخاء، ثم يتوجه إليه في محنة أو بلاء نزل به، تقول الملائكة: صوتٌ طالما سمعناه، وإذا كان معرضاً عن الله تعالى في حال اليسر والرخاء، ثم توجّه إليه عند النكبة، تقول الملائكة: صوتٌ لم نسمعه من قبل؛ والمراد: إنَّ الأول يحصل على شفاعة الملائكة، وتأمينهم على دعائه، بعكس الثاني.

وأنت يا عزيزي لا تقطع علاقتك مع الرحمان الرحيم، سواء كنت موسراً أو معسراً، معافىً أو مبتلى، خائفاً أو آمناً.

٣ ـ ﴿أن لا إله إلاّ أنت سبحانك﴾:

لما أراد السؤال والدعاء، قدَّم ذكر التوحيد والعدل، وقريب من هذا ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة، فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سل حاجتك، فإن الله أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي أحداهما ويمنع الأخرى[١].

﴿إنّي كنتُ من الظالمين﴾ أي من الذين يقع منهم الظلم، وإنما قاله على سبيل الخشوع والخضوع، لأنّ جنس البشر لا يمتنع منه وقع الظلم.

٤ ـ ﴿فاستجبنا له ونجيّناه من الغمّ﴾:

إنّ الذي حصل ليونس عليه السلام من النجاة هو من المستحيل، ولكن الله جلّ جلاله إذا أراد شيئاً يقول له **﴿كنْ فيكون﴾** تأمَّل في القدرة الإلهية: إنّ شخصاً يبتلعه الحوت، ويطوف به البحار، ثم يلقيه على الشاطىء أشبه ما يكون بالميّت، فينبت له الحنّان الرحيم شجرة يقطين ظلاًّ له من حرارة الشمس، وينزل عليه منها قطرات يتقوّت بها حتى استعاد قوته ونشاطه، وعاد إلى قومه بعد أن رجعوا إلى طريق الاستقامة والسداد.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة رقم/ ٣٦١.

٥ ـ ﴿**وكذلك ننجي المؤمنين**﴾:

وكما أنجينا يونس من بلاء لا يقدر على النجاة والخلاص منه أحد، كذلك ننجي المؤمنين من كل محنة وبلاء إذا توجّهوا إلينا، ورغبوا بما عندنا.

ويخطأ من يمّم حوائجه، وتقدَّم بمهماته الى سلطان أو غنيٍّ أو وجيهٍ، وترك التوجه بمهامته الى من يكشف الكرب، ويُنجي من البأساء والضراء، وهو على كل شيءٍ قديرٍ.

(٣)

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [**الصافات/ ١٣٩**].

وهذه السورة المباركة ذكرت مجمل أحوال يونس عليه السلام فيما ذكرته من أحوال الأنبياء عليهم السلام.

١ ـ ﴿**وإنَّ يونس لمن المرسلين**﴾:

أرسله الله جلّ جلاله إلى أهل نينوىٰ ـ مدينة في شمال العراق له مشهد قائم حتى الآن فيها ـ فكذّبوه، فدعا عليهم، وخرج من بينهم قبل أن يؤذن له في الخروج.

وهم بعد أن رأوا ملامح العذاب ندموا على تفريطهم، وجاؤوا إلى رجل مؤمن منهم يسألونه المخرج، فأمرهم بالخروج من منازلهم، وأن يقفوا صفاً واحداً منيبين مستغفرين، وأن يوقفوا أبناءهم في صف مقابل لهم، وكذلك يفعلوا بمواشيهم، فيضجّوا جميعاً إلى الله جلّ جلاله فيوشك أن يرحمهم، ويكشف عنهم العذاب.

وفعلاً فعلوا ذلك بنيّاتٍ صادقةٍ، وتوجّهٍ صحيح، فكشف الله تعالى عنهم العذاب.

٢ ـ ﴿**إذ أبقَ إلى الفلك المشحون**﴾:

أبق: فرَّ، والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء من الناس والمتاع؛ لما خرج عليه السلام من قومه قبل أن ينزل العذاب عليهم، توجّه الى شاطىء البحر، ومرّت به سفينة فركب فيها، فحدثت له المفاجأة الغريبة.

٣ ـ ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾:

سارت السفينة تمخر في البحر، واشتدّت عليها العواصف حتى أشرفوا على الغرق، فرأوا أنّهم إذا ألقوا واحداً منهم في البحر سلم الباقون، وحينئذٍ اقترعوا ـ أجروا القرعة ـ وهو المراد بقوله ﴿**فساهم**﴾ فوقعت القرعة عليه ﴿**فكان من المدحضين**﴾ المقروعين.

٤ ـ ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾:

وبعد القرعة ألقىٰ نفسه في البحر، والتقمه الحوت رأساً، وبقي في جوفه مدّة ربما كانت أسبوعاً، ثم ألقاه بعدها حياً، وهذا من أدلّة القدرة، إذ لم تجرِ العادة بمثله أبداً.

ومعنى (مليم) ملوم، وهو لوم عتاب، لخروجه قبل الإذن، لا لوم عقاب، لأنّ الأنبياء عليهم السلام جميعهم معصومون منزّهون عن ارتكاب المآثم، وحيث انَّ مرتبتهم سامية ومقامهم رفيع، يضرّ بهم ما لا يضر غيرهم من الناس.

٥ ـ ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾:

وهذا أيضاً من مظاهر القدرة الإلهية، لقد ألقاه الحوت كهيئة فرخ ليس عليه ريش، فأنبت له القادر العظيم في تلك اللحظة، شجرة قرع، في تلك الأرض الجرداء ليستظل بأوراقها، وتحميه من حرارة الشمس.

ويقول الطبري: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهي فيما ذكر شجرة القرع، تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوّته، ثم رجع ذات يوم الى الشجرة فوجدها قد يبست، فحزن وبكىٰ عليها، فعوتب، فقيل له: أحزنت على شجرة وبكيت عليها ولم تحزن على مائة ألف أردت هلاكهم جميعاً[1].

---

(١) تاريخ الطَّبري: ١/ ٤٦٠.

٦ ـ ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾:

وبعد أن استعاد صحته ونشاطه، أرسله الله جلّ جلاله إلى مكانه الأول نينوىٰ، بعد أن تابوا واستقاموا، فمكث فيهم موجّهاً ومرشداً، والمراد بقوله تعالى ﴿مائة ألف أو يزيدون﴾ أنه لو نظر إليهم الناظر لقال هم مائة ألف أو يزيدون.

٧ ـ ﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾:

انظر رعاك الله إلى المكاسب التي حصل عليها أهل نينوىٰ، فهم بعد أن تابوا ورجعوا الى الإسلام كشف الله سبحانه عنهم العذاب، ومتّعهم بالدنيا بجميع ما يتمتع به أهلها، وعاشوا بأعمارهم الطبيعية، وأعظم من هذا وذاك ما أعدّ الله سبحانه لهم من نعيم وجنّات، لقد سعدوا دنيا وآخرة، بينما غيرهم من الأمم العاصية شقوا دنيا وآخرة؛ وهذه نتيجة حتمية جعلها الله سبحانه للمطيعين والعاصين.

٨ ـ ﴿فلولا أن كان من المسبحين﴾:

فيونس عليه السلام وهو في جوف الحوت كان يسبّح الله سبحانه، وتسبيحه ﴿سبحانك لا إله إلاّ أنت إنّي كنت من الظالمين﴾ ولولا هذا التسبيح ﴿للبثَ في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ لكان هذا مصيره الأخير حتى القيامة، ولكن ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة/ ١٥٢].

وعلّق الطبري على الحادث فقال: وذلك أنَّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر[(١)].

٩ ـ ﴿فنبذناه في العراء وهو سقيم﴾:

في كل هذه الأدوار تتجلّى القدرة الإلهية، وإلاّ كيف يقذفه الحوت، وهب أنه أراد أن يقذفه فكيف يأتي به الى الفضاء، والمفروض أن يقذفه حيث هو في البحر، ولكنّ الله جلّ جلاله إذا أراد شيئاً يقول له ﴿كن فيكون﴾.

لقد ألقاه الحوت في متسع من الأرض لا نبات فيها ولا شجر وهو مريض.

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٤٦٠.

(٤)

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم/ ٤٨].

نبيٌّ كذّبه قومه فدعا عليهم، فوعده الله سبحانه بالاستجابة، ولكنه سلام الله عليه خرج من بينهم قبل أن يؤذن له استعجالاً لعذاب قومه وإهلاكهم.

وفي هذه الآيات جانب مما وقع له **﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾** الخطاب للنبيِّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى: لا تكن مثله في استعجال عقاب قومه وإهلاكهم، ولا تخرج من بين قومك من قبل أن يأذن لك الله كما خرج هو **﴿إذْ نادىٰ وهو مكظوم﴾** دعا ربّه في جوف الحوت وهو محبوس عن التصرف في الأمور، مختنق بالغمّ، إذ لم يجد لغيظه شفاءً، وكان نداؤه **﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾**.

﴿لولا أن تداركه نعمة من ربّه﴾، لولا أن أدركته رحمة من ربّه بإجابة دعائه، فأبقاه في بطنه حياً، ثم أخرجه سالماً **﴿لنبذ﴾** لطرح **﴿بالعراء﴾** بالفضاء **﴿وهو مذموم﴾** قد أتى بما يلام عليه، ولكنّ الله تعالى تداركه بنعمة من عنده فطرح بالعراء وهو غير مذموم **﴿فاجتباه ربّه﴾** اختاره الله نبياً **﴿فجعله من الصالحين﴾** من جملة المطيعين لله، التاركين لمعاصيه.

النبي عزير عليه السلام

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/ ١٤٩].

على الخلق كلهم، ولا عذر لأحد منهم في التخلّف عن المسار الذي أمرهم بسلوكه؛ لقد أرسل الله سبحانه إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأوضح لهم معالم الهدى والرشاد، ووهب لكل منهم عقلاً يميّز به بين الحسن والقبيح، ومضافاً لكل ذلك، فبين زمن وآخر يُظهر لهم ما يزيدهم إيماناً ويقيناً، ولكي تطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد/ ٢٨] فمرة يبعث لهم أصحاب الكهف بعد أن ناموا ثلاثة قرون، ومرّة يحيي لهم ميتاً بعد موت استغرق مائة عام، ليعلموا ويتيقّنوا أنّ الذي أحيىٰ هؤلاء قادر على أن يحيي البشرية بأسرها للحساب وما ذلك على الله بعزيز.

وحتى في عصرنا هذا فقد وجدت بعض ألواح من سفينة نوح عليه السلام في الاتحاد السوفياتي، وقرأت الكتابات التي عليها، ومع تعتيم الإعلام عليها وتغييبها في بعض المتاحف فهي من المعالم التي تدعو للإيمان بالله ورسوله.

إنّ المشكلة العظمى التي تواجه البشرية قديماً وحديثاً هي عدم الإيمان بالقيامة، أو بالأحرى عدم الاستعداد لملاقاتها، ولو أن البشر آمنوا بها، وعملوا لما ينجيهم من أهوالها لانحلّت جميع مشاكلنا الدنيوية والأخروية، فالقاتل إنّما يقتل، والسارق إنما يسرق، والزاني إنّما يزني، لضعف إيمانهم ويقينهم، بمواقف القيامة وأهوالها.

نعود للعرض القرآني المجيد:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/ ٣٠].

وهذا من أغرب الأشياء وأعجبها، فهبّ أن المشركين جعلوا لله جلّ جلاله الأولاد والشركاء، فما بال أهل الديانات السماوية؟!

إنّ من العجب أن يأتي شخص الى الناس مرشداً ومعلماً للهداية والصلاح، يدعوهم الى عبادة الله جلّ جلاله، وهم يرونه في أتمّ العبودية والخضوع لله سبحانه، ثم هم بعد هذا يؤلهونه ويعبدونه ويجعلونه ابناً لله جلّ جلاله، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

إن هذا السلوك المستهجن مما عرف به الإسرائيليون.

إنّ من المؤسف أن رجال الدين لكل من الأمتين نزلوا بمجتمعهم إلى الحضيض، وقرّبوهم للوثنية اعتقاداً منهم أنّهم بالاستقامة يفقدون دنياً وزعامةً، فضلّوا وأضلّوا.

نعود للآية الكريمة:

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ ويدل على أنّ هذا مذهب اليهود جميعهم لأنهم لم ينكروا ذلك لما سمعوا هذه الآية، مع شدّة حرصهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم **﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم﴾** إنّهم اخترعوا ذلك القول بأفواههم، لم يأتهم به كتاب ولا رسول، وليس عليه حجّة ولا برهان، ولا له صحة **﴿يضاهئون﴾** يشابهون **﴿قول الذين كفروا﴾** يعني عبدة الأوثان في عبادتهم اللات والعزّى **﴿من قبل﴾** شبّه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة **﴿قاتلهم الله﴾** لعنهم الله **﴿أنّى يؤفكون﴾** كيف يصرفون عن الحق إلى الإفك الذي هو الكذب، فكأنه قال: لأيّ داع مالوا الى ذلك القول؟ **﴿اتخذوا أحبارهم﴾** علماءهم **﴿ورهبانهم﴾** عبّادهم **﴿أرباباً من دون الله﴾**.

روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّهما قالا: أمّا والله ما صاموا ولا صلّوا لهم، ولكنّهم حلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم وعبدوهم

من حيث لا يشعرون[1].

قال الإمام الصادق عليه السلام: ليست العبادة هي السجود ولا الركوع، وإنّما هي طاعة الرجال، من أطاع مخلوقاً في معصية الخالق فقد عبده[2].

وروى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، حتى فرغ منها، فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم.

فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟

فقلت: بلى.

قال: فتلك عبادتهم[3].

﴿**والمسيح ابن مريم**﴾ اتخذوا المسيح إلهاً من دون الله ﴿**وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً**﴾ معبوداً واحداً هو الله تعالى ﴿**لا إله إلاّ هو**﴾ لا تحق العبادة إلاّ له، ولا يستحق العبادة سواه ﴿**سبحانه**﴾ تنزيهاً له ﴿**عما يشركون**﴾ عن شركهم، وعمّا يقولونه، وعمّا لا يليق به.

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار من اليهود والنصارى أنّهم ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله**﴾ وهو القرآن والإسلام ﴿**بأفواههم**﴾ لأنّ الإطفاء يكون بالأفواه، وهو النفخ، وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم، وتضعيف كيدهم، لأنّ الفم يؤثّر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة ﴿**ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره**﴾ ويمنع الله إلاّ أن يظهر أمر القرآن وأمر الإسلام ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ على كره من الكافرين ﴿**هو الذي أرسل رسوله**﴾ محمّداً، وحمّله الرسالات التي يؤدّيها إلى أمّته ﴿**بالهدى**﴾ بالحجج والبيّنات والدلائل والبراهين ﴿**ودين الحق**﴾ هو الإسلام، وكل دين سواه باطل يستحق به العقاب ﴿**ليظهره على الدين كلّه**﴾ ليعلي

(١) مجمع البيان: ٥/ ٤٣.
(٢) تفسير القمي: ٢/ ٥٤.
(٣) مجمع البيان: ٥/ ٤٣.

دين الإسلام على جميع الأديان بالحجّة والغلبة والقهر لها، حتى لا يبقى دين على وجه الأرض إلاّ مغلوباً، ولا يغلب أحد أهل الإسلام بالحجّة، وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحجّة، وأمّا الظهور بالغلبة فهو أنّ كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قهر من جهتهم **﴿ولو كره المشركون﴾** وإن كرهوا هذا الدين فإنّ الله يظهره رغماً لهم.

ثم عاد سبحانه وتعالى إلى التحذير من الأحبار والرهبان فقال **﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾** يأخذون الرشى على الحكم **﴿ويصدّون عن سبيل الله﴾** يمنعون غيرهم عن اتباع الإسلام الذي هو سبيل الله.

صوت الحق

لقد عانى أئمة أهل البيت عليهم السلام الكثير من الحكّام الظالمين، لقد تتبّعوهم قتلاً وسجناً وتشريداً، ورغم ما قوبلوا به من شدّة واضطهاد فقد كانوا يستغلّون أسفارهم التي أكرهوا عليها لنشر العلم، ورفع راية التوحيد، والذب عن شريعة سيّد المرسلين، حتى قال الحسن بن علي الوشّا: أدركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلٌ يقول: حدَّثني جعفر بن محمد[1].

إذا علمت ذلك أدركت الأثر الكبير الذي تركوه صلوات الله عليهم بأسفارهم، فالإمام الصادق عليه السلام ولد وعاش ومات في المدينة المنوّرة، وإنّما كان يأتي الكوفة حيث يستقدمه المنصور الدوانيقي إلى العراق.

وأيضاً انتشرت علوم أهل البيت عليهم السلام في إيران عندما استقدم المأمون العباسي الإمام الرضا عليه السلام.

واستقدم هشام بن عبد الملك الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام إلى الشام لأجل أن يحطّ من مقامه السامي، ومكانته في الأوساط الإسلامية، ويأبى الله له ذلك، فانتشرت علومه بالشام، وحتّى في البلاط الأموي، ونحن نقتصر هنا على ذكر قصّة

(١) ضحى الإسلام: ٣/ ٢٦٣.

وقعت له صلوات الله عليه في تلك السفرة.

قال الشيخ القمي:

حدَّثني أبي، عن إسماعيل بن أبان، عن عمر بن عبدالله الثقفي، قال: أخرج هشام بن عبد الملك أبا جعفر محمد بن علي زين العابدين عليه السلام من المدينة إلى الشام، وكان ينزله معه، فكان يقعد مع الناس في مجالسهم، فبينما هو قاعدٌ وعنده جماعة من الناس يسألونه إذ نظر إلى النصارى يدخلون في جبل هناك، فقال: ما لهؤلاء القوم، ألهم عيد اليوم؟ قالوا: لا يا بن رسول الله، ولكنّهم يأتون عالماً لهم في هذا الجبل في كل سنة في مثل هذا اليوم، فيخرجونه ويسألونه عما يريدون وعمّا يكون في عامهم.

قال أبو جعفر عليه السلام: وله علم؟

فقالوا: هو من أعلم الناس، قد أدرك أصحاب الحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام.

قال لهم: نذهب إليه.

فقالوا: ذاك إليك يا بن رسول الله.

قال: فقنّع أبو جعفر رأسه بثوبه، ومضى هو وأصحابه فاختلطوا بالناس حتى أتوا الجبل.

قال: فقعد أبو جعفر وسط النصارى هو وأصحابه، فأخرج النصارى بساطاً، ثم وضعوا الوسائد، ثم دخلوا فأخرجوه، ثم ربطوا عينيه، فقلب عينيه كأنهما عينا أفعى، ثم قصد أبا جعفر عليه السلام فقال: أمنا أنت أم من الأمّة المرحومة؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: من الأمّة المرحومة.

قال: فمن علمائهم أنت أم من جهالهم؟

قال: لست من جهالهم.

قال النصراني: أسألك أو تسألني؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: سلني.

فقال: يا معشر النصارى، رجل من أمّة محمد يقول اسألني، إنّ هذا لعالم بالمسائل، ثم قال: يا عبدالله أخبرني عن ساعة ما هي من الليل ولا هي من النهار، أي ساعة هي؟ قال أبو جعفر عليه السلام: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال النصراني: فإذا لم تكن من ساعات الليل ولا من ساعات النهار، فمن أي الساعات هي؟

قال أبو جعفر عليه السلام: من ساعات الجنّة، وفيها تفيق المرضى.

فقال النصراني: أصبت، فأسألك أو تسألني؟

قال أبو جعفر عليه السلام: سلني.

قال: يا معشر النصارى إنّ هذا لمليء بالمسائل، أخبرني عن أهل الجنّة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوّطون؟ أعطني مثله في الدنيا.

قال أبو جعفر عليه السلام: هذا هو الجنين في بطن أمّه، يأكل مما تأكل أمّه ولا تيغوّط.

قال النصراني: أصبت، ألم تقل ما أنا من علمائهم؟

قال أبو جعفر عليه السلام: إنّما قلت لك ما أنا من جهالهم.

قال النصراني: فأسألك أو تسألني؟

قال أبو جعفر عليه السلام: سلني.

قال: يا معشر النصارى لأسألنّه مسألة يرتطم فيها كما يرتطم الحمار في الوحل.

فقال له: سل.

قال: أخبرني عن رجل دنا من امرأته فحملت منه بابنين، حملتهما جميعاً في ساعة واحدة، ووضعتهما في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة، ودفنا في ساعة واحدة في قبر واحد، عاش أحدهما خمسين ومائة سنة، وعاش الآخر خمسين سنة، من هما؟

قال أبو جعفر عليه السلام: هما عزير وعزرة، كانت حملت أمهما على ما وصفت، ووضعتهما على ما وصفت، وعاش عزرة وعزير ثلاثين سنة، ثم أمات الله عزيراً مائة سنة، وبقي عزرة حيّ، ثم بعث الله عزيراً فعاش مع عزرة عشرين سنة، وماتا جميعاً في ساعة واحدة، فدفنا في قبر واحد.

قال النصراني: يا معشر النصارى ما رأيت أحداً قط أعلم من هذا الرجل، لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام، ردوني إلى كهفي.

فردّوه إلى كهفه، ورجع النصارى مع أبي جعفر عليه السلام [1].

من الوحي

وعن طريق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته عليهم السلام وصل إلينا بعض ما أوحاه الله جلّ جلاله إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام.

وهذا التراث النفيس زيادة في الحجّة على الخلق، ودعوة لهم للاستقامة على النهج القويم.

نعود فنذكر رواية القطب الراوندي:

أوحى الله عزّ وجلّ إلى عزير: إذا وقعت في معصية فلا تنظر إلى صغرها ولكن انظر من عصيت، وإذا أوتيت رزقاً مني فلا تنظر إلى قلّته ولكن انظر من أهداه، وإذا نزلت بك البليّة فلا تشك إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساوئك وفضائحك[2].

---

(١) تفسير القمي: ١/ ١٢٦.

(٢) الدَّعوات: ١٦٩؛ والأنبياء عليهم السلام منزَّهون عن المعاصي والمراد بهذا وشبهه أممهم؛ ولهذا ورد: نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة.

إلياس عليه السلام

(١)

١ ـ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافَّات/ ١٢٣].

والقرآن الكريم ربما ذكر بعض الأنبياء عليهم السلام عشرات المرات، كما هو الحال في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ففي كل مرّة يذكرهم بثناء وإجلال، وبأسلوب شيّق بديع تنسى فيه التكرار، وهذا من إعجاز القرآن، وربما ذكر بعض الأنبياء عليهم السلام مرّة واحدة كما هو الحال في إلياس عليه السلام.

وهو من أنبياء بني إسرائيل.

ذكر أهل الآثار أن يوشع بن نون ـ وصيّ موسى عليه السلام ـ لمّا فتح الشام بوّأها بني إسرائيل، فأحلّ سبطاً منهم بعلبك، وهم سبط إلياس، وبعد أن تعاظمت منهم الأحداث بعثه الله جلّ جلاله إليهم نبيّاً، علماً أنَّ المفسّرين والمؤرخين اختلفوا في كثير من أحواله عليه السلام. نذكر ما يستفاد من هذه الآيات:

٢ ـ ﴿إِذْ قال لقومه ألا تتقون﴾.

والدعوة إلى التوحيد، وتقوى الله جلّ جلاله هو المطلب الأول والأخير للأنبياء عليهم السلام، فالتوحيد: وهو أصل الدين وركنه الأساسي، والتقوى: وهي الضابط الأعلى في الاستقامة والسلوك، وبها تسعد الحياة، وتنال المنازل الرفيعة والخلود في الجنان، وما دخل امرؤ النار إلاّ لعدم رعايته التقوى، وتفريطه بها.

٣ ـ ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾:

لو أراد باحث أن يبحث عن أعجب ما في الدنيا خلال قرونها المتطاولة، لم يجد أعجب من عبادة الأصنام، فأنت تجد عبادتها من أقدم عصور الدنيا وحتّى اليوم، ألا تسمع قوم نوح عليه السلام ـ وهم من أقدم الأمم ـ ﴿**لا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً**﴾ وهي آلهتهم التي عبدوها.

٤ ـ ﴿الله ربكم وربّ آباءكم الأوّلين﴾:

الذي خلقكم ويرزقكم، وأنتم لا تخرجون عن قبضته، وإلى حكمه تصيرون، وهو وحده الذي تحق له العبادة ﴿**وربّ آباءكم الأوّلين**﴾ وهو ربّ آبائكم الأوّلين، وأسلافكم الماضين.

٥ ـ ﴿فكذّبوه فإنهم لمحضرون﴾:

لم ينفع معهم النصح والإرشاد، ولم يقبلوا ما أمرهم به نبيّهم، شأنهم شأن جل أهل الأرض ﴿**وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ والمكذِّبون ربما عوقبوا في الدنيا كقوم هود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم كثير، وقد تقتضي الحكمة الإلهية عدم أخذهم في الدنيا، ولكنّهم جميعاً في جهنم محضرون، لا يفلت منه أحد.

٦ ـ ﴿إلاّ عباد الله المخلصين﴾:

وهم الذين أخلصوا العبادة لله جلَّ جلاله، ولم يعبدوا غيره، فهم مستثنون من هذا الحضور، بل هم جميعاً في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، قد أجزل الله جل جلاله لهم العطاء، وبالغ في إكرامهم غاية الإكرام، بما لا يخطر على قلب بشر.

٧ ـ ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾:

أبقينا عليه ذكراً جميلاً، وأثنينا عليه في أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمضافاً لما أنعم عليه جلّ جلاله بالنبوّة، ونجّاه من القوم الظالمين، وأجزل له العطاء الأخروي، كذلك خلّده في كتابه العزيز بآيات تتلى إلى آخر الدنيا تثميناً لمواقفه في الدعوة إلى الله تعالى، والإخلاص له.

زكريا ويحيى عليهما السلام

في هذا الكتاب لمح عن حياة نبي الله زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، تبدأ بالعرض القرآني المجيد وتنتهي بشهادتهما صلوات الله وسلامه عليهما.

(١)

١ ـ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ **[آل عمران/ ٣٨]**.

وبعد إن تحدثت السورة عن مريم، وكفالة زكريا عليه السلام لها، وما رأى من كرامة الله جلّ جلاله لها، فعندها اشتهى الولد.

لقد كان سلام الله عليه في سنٍّ غير قابلٍ للإنجاب، فعمره مائة وعشرون سنة كما يقول ابن عباس، وعمر زوجته ثمان وتسعون سنة[1]، ومع ذلك فقد توجّه للرحمان الكريم أن يرزقه ولداً وطلب منه جلّ جلاله أن يكون الولد صالحاً.

٢ ـ **﴿فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب﴾**:

استجاب الله دعاءه، وبَشَّرته الملائكة بذلك أثناء ما كان يصلّي في المسجد **﴿إنَّ الله يبشّركَ بيحيىٰ﴾** سمّاه جلّ جلاله بهذا الاسم قبل أن يولد **﴿مصدِّقاً بكلمةٍ من الله﴾** مصدّقاً بعيسىٰ **﴿وسيّداً﴾** في العلم والعبادة **﴿وحصوراً﴾** وهو الذي لا يأتي النِّساء، ومعناه: أنه يحصر نفسه عن الشهوات ويمنعها **﴿ونَبيّاً من الصالحين﴾** رسولاً شريفاً، رفيع المنزلة.

٣ ـ **﴿أنّى يكون لي غلاماً وقد بلغني الكبر﴾**:

وبعد البشارة يستفهم سلام الله عليه عن الكيفية التي سيحصل له بها الولد،

---

(١) مجمع البيان: ١/ ٢: ٤٣٩.

وهو وزوجته في مثل هذا العمر، وقد يكون الاستفهام: هل أنّهما سيعودان الى دور الشباب والإنجاب، أم في هذه الحال؟

وجاءت الإجابة: ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أي على تلك الحال، والمراد: أنّكما سترزقان الولد وأنتما على هذه الكيفية من الضعف والشيخوخة والعقم، وأنّ ذلك هيّن على الذي أنشأكما ولم تكونا شيئاً.

٤ ـ **﴿قال ربّي اجعل لي آية﴾**:

سأل الله سبحانه وتعالى علامة للموعد السَّعيد، فأخبره **﴿قال آيتك﴾** علامتك **﴿أنْ لا تُكلّم النّاس ثلاثة أيّام إلاّ رمزاً﴾** إيماءً، فقد أمسك لسانه عن الكلام من غير آفة حدثت فيه **﴿واذكر ربّك كثيراً﴾** في هذه الأيام الثلاثة، ومعناه: أنّه لما مُنع من الكلام عرف أنّه لم يُمنع من الذكر لله تعالى والتسبيح له، وذلك أبلغ في الإعجاز **﴿وسبّح﴾** ونزّه الله **﴿بالعشيِّ والإبكارِ﴾** في آخر النهار وأوّله.

إنّ الإعجاز الذي تجلّى في ولادة عيسى عليه السلام وكلامه في المهد، والذي ظهر بأروع صوره في ولادة يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، فقد ولد من أبوين عقيمين قد طعنا في السن، ويستحيل عليهما الإنجاب، كل هذا من أجل تليين قلوب بني إسرائيل القاسية، ولكي تقرّب ـ ولو قليلاً ـ إلى خط الاستقامة، ولكن هيهات ثم هيهات، فليست ولادة عيسىٰ ويحيىٰ عليهما السلام بأعظم مما شاهدوا من معجزات موسىٰ عليه السلام، بدايةً من العصا، وختاماً بإغراق فرعون وجيوشه في بضع دقائق، فما زادهم ذلك إلاّ شقاقاً وبعداً عن طريق الاستقامة، حتى تمادى بغيهم فعبدوا العجل.

(٢)

١ ـ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم/ ٣].

في هذه السورة المباركة عرضٌ لقصّة نبيِّ الله زكريا عليه السلام، يتجلى فيها الإعجاز الإلهي والعِبَر.

إنّ أول ما نتعلّم من هذه القصة هي التوجّه الى الله تعالى عند كلّ شدّة وملمّةٍ، والشكوى إليه ـ دون خلقه ـ عند كل بليّة ونازلة، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وهو الذي يفرّج عن المكروبين.

٢ ـ ﴿واجعله ربِّي رضيّاً﴾:

الكل منّا يدعو الله سبحانه وتعالى أن يرزقه أولاداً، ولكنّنا لم نسمع أحداً يطلب ولداً ويضيف الى دعائه الصلاح؛ إنّ ذكر الولد ينسيه ذكر شيءٍ غيره، في حين أنّ الصلاح أهم بكثير من الولد، لأنّ عدم وجوده خير بكثير من وجوده ضالاً بعيداً عن تعاليم السماء.

إنّ نبيّ الله زكريا عليه السلام يعلمنا بدعائه كيف ندعو، وأنت إذا تركت زكريا عليه السلام ونظرت إلى أمّ مريم عليها السلام، فهي تقول حين ولادتها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران/ ٣٦].

٣ ـ ﴿هو عليَّ هيّنٌ وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئاً﴾:

لما بُشّر نبيُّ الله بالولد أحب أن يستفسر هل يرزقان الولد وهما في شيخوختهما، أم يعيدهما الله جلّ جلاله شابين، أو يرزقه من زوجة أخرى ﴿قالَ ربِّ أنّى يكونُ لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً﴾ فأجيب ﴿هُوَ عليَّ هَيّنٌ﴾.

وتتجلّى القدرة الإلهية بأن يولد لزكريا عليه السلام ولدٌ في مثل هذا العمر، ومن زوجته العجوز العقيمة، وهذا شبيه بما حدث لإبراهيم عليه السلام حين وُلد له إسحاق عليه السلام من سارة وهي عجوزٌ عقيم، فالله جلّ جلاله لا يعجزه شيء، وهو على كل شيءٍ قدير ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة/ ١١٧].

٤ ـ ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾:

والمحراب: المكان الذي يُصلّىٰ فيه، سمّي بذلك لأن المصلّي في حرب مع الشياطين.

يُحكى عن أحد التجّار الأتقياء ربما جاءه مشتر وقد نسي البضاعة التي جاء لشرائها، فيقول له: إذهب الى المسجد وصلِّ ركعتين فستذكر.

يريد أن الشيطان لا يدعك تصليهما بتوجّه، بل هو يذكّرك بكل ما وقع لك في يومك من مهمّ وتافهٍ، فينبغي التحرز منه، والمحاولة من التفلّت من قبضته، سيما في الصلاة.

٥ ـ ﴿واتيناه الحكم صبياً﴾:

من هذا وغيره يظهر أنّ النبوّة والإمامة من مواهب الله تعالى لبعض عباده، لما سبق من علمه بإخلاصهم، وأنّ لا مدخلية للعمر في ذلك، فيقول تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿واتيناه الحكمَ صبيّاً﴾ وحكى عن عيسىٰ عليه السلام قوله يوم ولادته ﴿قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾.

٦ ـ ﴿وَكَان تقيّاً﴾:

إنّ هذا التكريم الذي مرّ عليك أيها المسلم ليحيى عليه السلام لأجل أنّه كان تقياً، مراقباً لله تعالى، عاملاً بأوامره، منتهياً عما نهىٰ عنه.

فبالتقوى ترتفع وتسمو منزلة العبد عند المولىٰ جلّ شأنه، ويحصل على المراتب الرفيعة في الدُّنيا والتي بعضها الذكر الخالد، ويحصل على الجنّة التي ليس فوقها عطاء.

٧ ـ ﴿وبرّاً بوالديه﴾:

وبرُّ الوالدين، والإحسان إليهما مما أكّد عليه الإسلام، وأمر به القرآن الكريم، فيبنغي للمسلم أن يرعىٰ ذلك ويهتم به اهتماماً عظيماً.

ومضافاً لما في برّ الوالدين من أجرٍ عظيمٍ انّ البارّ بوالديه يكون ابنه بارّاً به، كذلك العقوق، فمضافاً لما فيه من العقاب أنّ ابنه يكون عاقاً له، فمثل ما تُدين تدان.

٨ ـ ﴿وسلامٌ عليه يومَ وِلُدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبعثُ حيّاً﴾.

وسلامةٌ وأمانٌ له منّا، ومعناه: وأمنٌ له يوم ولد من عبث الشيطان به،

وإغوائه إيّاه، ويوم يموت: من عذاب القبر، ويوم يُبعث حياً: من هول المطّلع، وعذاب النار.

وتنبّه رعاك الله الى الآية الكريمة التي حكت قول عيسىٰ عليه السلام ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم/ ٣٣]. والمراد: هو السلامة والنجاة من حبائل الشيطان ومكائده، لأنّ من سقط فيها انشدَّ إليها حتى القيامة، بل لزمته تبعته حتى توردة النار.

في الحديث النبوي الشريف

في معاجم الحديث الكثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الأنبياء عليهم السلام.

وهذا لو تأمّله متأمّلٌ رآه جانباً من جوانب الإعجاز النبوي، فرجل أمّي، في مجتمع أمّي يتحدث عن أسرار نبوية يجهلها علماء الكتاب فضلاً عن عوامهم.

نذكر بعض ما جاء في يحيى عليه السلام:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كان من زهد يحيى بن زكريا عليهما السلام أنّه أتى بيت المقدس فنظر إلى المتهجّدين من الأحبار والرهبان، عليهم مدارع الشعر، وبرانس الصوف، وإذا هم قد خرقوا تراقيهم، وسلكوا فيها السلاسل وشدّوها إلى سواري المسجد، فلمّا نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال: يا أماه أنسجي لي مدرعةً من شعر، وبرنساً من صوف حتى آتي بيت المقدس فأعبد الله مع الأحبار والرهبان، فقالت له أمّه: حتى يأتي نبيُّ الله أبوك وأؤامره في ذلك، فلما دخل زكريا عليه السلام.

فقال له زكريا: يا بني ما يدعوك الى هذا وإنّما أنت صبي صغير؟

فقال: يا أبتِ أما رأيت من هو أصغر مني سناً قد ذاق الموت؟

قال: بلى، ثم قال لأمّه: انسجي له مدرعةً من شعرٍ، وبرنساً من صوف، ففعلت، فتدرّع المدرعة على بدنه، ووضع البرنس على رأسه، ثم أتى بيت المقدس، فأقبل يعبد الله عزّ وجل مع الأحبار، حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه، فنظر ذات يوم إلى ما نحل من جمسه فبكى، فأوحى الله إليه: يا يحيىٰ أتبكي على

ما قد نحل من جسمك؟ وعزّتي وجلالي لو أطلعت إلى النار اطلاعة لتدرّعت مدرعةٍ من حديد، فضلاً عن المسوح؛ فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه، ثم بدت للناظرين أضراسه، فبلغ ذلك أمّه فدخلت عليه، وأقبل زكريا فاجتمع إليه الأحبار والرهبان، يخبرونه بذهاب لحم خديه، فقال زكريا: يا بني ما دعاك الى هذا وإنّما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرَّ عيني؟

قال: أنت أمرتني بذلك يا أبتِ.

قال: ومتى ذلك؟

قال: ألست القائل: إنَّ بين الجنّة والنار عقبة لا يجوزها إلاّ البكاؤون من خشية الله تعالى؟

قال: بلى، فجدّ واجتهد، فشأنك غير شأني.

فقام يحيىٰ فنفض مدرعته وأخذته أمّه، فقالت: أتأذن لي يا بنيّ أن أتخذ لك قطعتين من لبدٍ يواري أضراسك، وينشّفان دموعك؟

فقال لها: شأنك، فاتّخذت له قطعتي لبد تواريان أضراسه، وتنشّفان دموعه، حتى إذا ابتلتا من دموع عينيه فحسر عن ذراعيه ثم أخذهما فعصرهما، فتحدّر الدموع من بين أصابعه، فنظر زكريا إلى ابنه والى دموع عينيه فرفع رأسه إلى السماء فقال: اللّهم إنّ هذا ابني، وهذه دموع عينيه، وأنت أرحم الراحمين.

وكان زكريا عليه السلام إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل يلتفت يميناً وشمالاً، فإن رأى يحيى لم يذكر جنّة ولا ناراً، فجلس زكريا عليه السلام ذات يوم يعظ بني إسرائيل فأقبل يحيىٰ وقد لفّ رأسه بعباءة، وقعد في غمار الناس لئلا يعرفه زكريا، فالتفت زكريا يميناً وشمالاً فلم يرَ يحيىٰ، فأنشأ يقول: حدثني حبيبي جبرائيل عليه السلام عن الله تعالى: أنّ في جهنم جبلاً يقال له السكران، في أصل ذلك الجبل وادٍ يُقال له: الغضبان، لغضب الرحمٰن، في ذلك الوادي جبٌّ قامته مائة عام، في ذلك الجبِّ توابيتٌ من نارٍ؛ فرفع يحيىٰ رأسه فقال: واغفلتاه عن السكران من غضب الرحمٰن، ثم أقبل هائماً على وجهه، فقام زكريا من مجلسه ودخل على أمّ يحيىٰ فقال لها: يا أم يحيى قومي فاطلبي يحيىٰ، فإنّي قد تخوّفت أن لا نراه إلاّ وقد ذاق الموت،

فقامت فخرجت، فمرّت بفتية من بني إسرائيل فقالوا لها: يا أمّ يحيى إلى أين تريدين؟

قالت: أريد أن أطلب ابني يحيىٰ، ذكرت النار من بين يديه فهام على وجهه؛ فمضت أم يحيى والفتية معها فمرّت براعٍ يرعى غنماً، فقالت له: يا راعي هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا؟

فقال: لعلّك تطلبين يحيىٰ بن زكريا؟

قالت: نعم، ذلك ولدي، ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه.

فقال: إنّي تركته الساعة على عقبة ثنية كذا وكذا، ناقعاً قدميه بالماء، رافعاً بصره الى السماء وهو يقول: وعزّتك يا مولاي لا ذقت بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلتي منك.

فمضت فوجدته كما ذكر، فلما رأته أقبلت وأخذت برأسه، ووضعته بين ثدييها، وهي تناشده بالله أن ينطلق معها إلى المنزل، فانطلق معها حتى أتى المنزل، فقالت له أمّه: هل لك يا ولدي أن تخلع مدرعة الشعر وتلبس مدرعة الصوف، فإنها ألين، ففعل ذلك، ثم طبخت عدساً فأكل ونام، فذهب به النوم فلم يقم لصلاته، فنودي في منامه: يا يحيىٰ أردت داراً خيراً من داري، وجواراً خيراً من جواري؟

فاستيقظ فزعاً، فقال: يا ربِّ أقلني عثرتي، إلهي فوعزّتك لا أستظل بظلٍّ سوى بيت المقدس، وقال لأمه: ناولين مدرعة الشعر، فقد عرفت أنكما توردانني المهالك، فدفعت إليه مدرعة الشعر وتعلّقت به، فقال لها زكريا عليه السلام: يا أم يحيىٰ دعيه، فإنّ ابني قد كُشف له عن قناع قلبه، فلن ينتفع بالعيش أبداً.

فقام يحيى عليه السلام فلبس مدرعته، ووضع البرنس على رأسه، ثم أتى بيت المقدس، فجعل يعبد الله تعالى فيه مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان مع اليهود لعنهم الله[1].

---

(١) تنبيه الخواطر: ٢/ ١٦٠.

٢ ـ وكان يحيىٰ عليه السلام لباسه الليف، وأكله ورق الشجر[1].

٣ ـ ومن خطّ الشهيد قدس سرّه، نقلاً عن كتاب زهد الصادق عليه السلام قال: بكى يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام حتى ذهب لحم خديه من الدموع، فوضع على العظم لبوداً يجري عليها الدموع، فقال له أبوه: يا بني إنّي سألت الله تعالى أن يهبك لي لتقرَّ عيني بك.

فقال: يا أبتِ إنَّ على نيران ربّنا معاثر[2] لا يجوزوها إلاّ البكاؤون من خشية الله عزّ وجل، والخوف أن آتيها فأزلّ منها.

فبكى زكريا عليه السلام حتى غشي عليه من البكاء[3].

(٢)

١ ـ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء/ ٨٩].

هذا دعاء نبيّ الله زكريا عليه السلام حين رأى مريم عليها السلام، وكرامتها على الله جلّ جلاله، رغب في الولد، إلاّ أنّه تراه اشترط في دعائه أن يكون مرضياً عند الله جلّ جلاله فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران/ ٣٨]. ويقول سلام الله عليه ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم/ ٦] وهذا تعليمٌ للذين يطلبون الولد، فينبغي أن يطلبوا ايضاً صلاحه، فالعقم أفضل بكثير من ولدٍ ضالٍ، بعيد عن تعاليم السماء.

٢ ـ ﴿فَٱستجبْنا لهُ﴾:

والذي حصل لنبيِّ الله زكريا عليه السلام من المستحيل حصوله، لأنّه صلوات الله

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٨٧.

(٢) المعاثر: المساقط والمهالك.

(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ١٦٧.

عليه في عمرٍ بعيدٍ جداً عن حصول الولد، ألا تسمعه يقول ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم/ ٤].

وكذلك زوجته، فمضافاً لعقمها فقد تخطّت عمر الإنجاب بخمسين سنة، ألا تسمعه يقول ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ ولكنّ الله الفعّال لما يشاء، وهو الذي خلق من الطين بشراً، وخلق عيسىٰ عليه السلام من غير أب، فقد استجاب الله لزكريا عليه السلام وهو في مثل هذه الحال.

وأنت سلمك الله لا تيأس من الفرج عندما تتلاحم عليك حلقات البلاء والنكبات، ويضيق عليك المخرج، بل عليك إن اشتدّ بك الأمر أن تتوجّه الى الله جلّ جلاله بحاجتك، وتنزل به مسألتك، فإنّه أرحم الراحمين، وأكرم من سُئل.

٣ ـ ﴿ووهبنا لهُ يحيىٰ﴾:

عطاء الله جلّ جلاله لا يمكن أن تحيط بأبعاده، ولا يقاس أبداً بعطاء الخلق، لقد أعطى الشيخ الهرم، وزوجته العجوز العقيم ولداً، ولم يرضه لهم كسائر الأولاد، بل جعله نبياً كريماً سيداً؛ وطالما يعطي الله عباده ما سألوه وطلبوه منه، وما لم يسألوه ويطلبوه، كمن يسأل الله تعالى بيتاً فيعطيه بيتاً وبستاناً، أو يسأله زوجةً فيعطيه زوجةً وأموالاً ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء/ ٢٠].

٤ ـ ﴿إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾:

إنّ هذا العطاء وهذه المكرمات التي حصلت لزكريا ويحيى عليهما السلام من أجل ﴿إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ ومعناه: يبادرون الى الطاعات والعبادات؛ وأنت أعزّك الله ورعاك سارع بعمل الخير بكل قواك، وأذخر ذلك ليوم فقرك وفاقتك.

قال سفيان بن عيينة: رأى الزهري علي بن الحسين عليهما السلام في ليلة باردة مطرةٍ، وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يا ابن رسول الله ما هذا؟

قال: أريد سفراً، أعدّ له زاداً أحمله الى موضع حريز.

قال: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى.

قال: أنا أحمله عنك، فإنّي أرفعك عن حمله.

قال علي: لكنّي لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه، أسألك بحقِّ الله لما مضيت لحاجتك وتركتني.

فلما كان بعد أيام قال له: يا ابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟

قال: بلى يا زهري، ليس هو ما ظننت، ولكنّه الموت وله أستعد، إنّما الاستعداد للموت تجنّب المحارم، وبذل الندى في الخير[1].

٥ ـ **﴿إنّهم كانوا يدعوننا رغباً ورهباً﴾**:

وتعاليم الإسلام تأمر العبد أن يخاف الله جلّ جلاله بمنتهى الخوف، وأن تكون النار دائماً أمامه، كذلك يرجوه ويطمع في فضله أشدّ الطمع، ويعتقد بأنّه سيحظى بما أعدّ الله لأحبائه من نعيم. والآية الكريمة تصف هؤلاء الأولياء والصدِّيقين بـ**﴿إنّهم كانوا يدعوننا رغباً ورهباً﴾** رغبة في الثواب، ورهبة من العقاب **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾** هي المخافة الثابتة في القلب.

الداعي الصغير

والأنبياء صلوات الله عليهم هم دعاة الإرشاد والتهذيب، فمنهم تعلّم الناس مكارم الأخلاق، وعنهم أخذوا معالي الأمور، وسبل النجاة.

ونبيُّ الله يحيىٰ عليه السلام الذي أوتي النبوة صغيراً **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾** **[مريم/١٢]** كان منذ نعومة أظفاره داعياً الى الله جلّ جلاله، ورواية ابن الأثير: ونبىء صغيراً، فكان يدعو الناس إلى عبادة الله؛ ولبَس الشعر، فلم يكن له دينار ولا درهم، ولا مسكن يسكن إليه، أينما جنَّه الليل أقام، ولم يكن له عبد ولا أمة؛ واجتهد في العبادة..[2].

(١) بحار الأنوار: ١١/ ١٢٠ (الطَّبعة القديمة).
(٢) الكامل في التَّاريخ: ١/ ٢٣٠.

الشهـادة

إنّ الشيطان لا يقنع من الناس بتكذيب الأنبياء عليهم السلام، والإعراض عن تعاليمهم، وأذيتهم بأقصى ما يقدرون عليه، بل إن تحريضه لهم بأكثر من هذا.

إنّه لا يتركهم حتى يقتلوهم بأبشع ما يمكنهم من القتل.

وهذا نبيّ الله زكريا عليه السلام مع منزلته الرفيعة، وشأنه العظيم استشهد على أيديهم.

ذكر الثعلبي: أن الشيطان أهاج بني إسرائيل على زكريا عليه السلام، فطلبوه فهرب، واتبعه سفهاؤهم وأشرارهم، فسلك وادياً كثير الأشجار، فتشبّه له الشيطان في صورة راعٍ فقال: يا زكريا قد أدركوك فادعُ الله أن يفتح لك هذه الشجرة، ففعل ذلك فانفتحت له فدخل فيها، وأخرج إبليس هدب ردائه منها، فمرت بنو إسرائيل بالشيطان فقالوا: يا راعي هل رأيت رجلاً هاهنا من صفته كذا وكذا؟

قال: نعم، سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها، وهذا هدب ردائه، فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقتين بالمنشار طولاً، فبعث الله الملائكة فغسلوا زكريا وصلّوا عليه ودفنوه[1].

وسبل الشيطان

ويحسب الأتقياء أنّهم بمنجاةٍ من الشيطان، فهم أبعد من أن يزنوا أو يسرقوا أو يقتلوا؟ صحيح أنّهم نجوا من هذه المهالك ولكنهم في الوقت نفسه على حافة بحرٍ عميقٍ ربما هووا فيه وهلكوا، علماً أنّ بإمكانهم السلامة والنجاة وذلك بالاعتصام بتعاليم الله جلّ جلاله، والامتثال لأوامره، والالتزام بنهجه، فإنّها حصن حصين؛ إنّ ما جاء في قصص الصدّيقين، ومحاولات الشيطان أن تزل بهم قدم،

(١) عرائس المجالس.

أو يبتعدوا ـ ولو قليلاً ـ عن منهج الحق والصدق تدعونا الى التحرز من هذا العدو الماكر، وأن نتفقّد أنفسنا دائماً لإنه ربما يمَيل الإنسان عن منهج الرشاد والاستقامة وهو غير ملتفت لنفسه.

نعود فنذكر محاولة الشيطان مع نبي الله يحيىٰ عليه السلام :

سأل يحيى عليه السلام إبليس فأي ساعة أنت على ابن آدم أقدر؟

قال: حين يمتلىء شبعاً وريّاً.

قال: فهل وجدت في نفسي شيئاً؟

قال: لا.

قال: ولا على حال؟

قال: نعم، قدّم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشهيّته لك حتى أكلت أكثر من عادتك، فتثاقلت عن وردك وعبادتك.

فقال يحيىٰ: لا جرم[1] لا أشبع أبداً.

فقال إبليس: لا جرم لا أنصح آدمياً ابداً[2].

٢ ـ عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام : إنّ إبليس كان يأتي الأنبياء من لدن آدم عليه السلام الى أن بعث الله المسيح عليه السلام ، يتحدث عندهم ويسائلهم، ولم يكن بأحد منهم أشدّ انساً منه بيحيى بن زكريا عليهما السلام ، فقال له يحيىٰ: يا أبا مرّة إنّ لي إليك حاجة، فقال له: أنت أعظم قدراً من أن أردّك بمسألةٍ، فسلني ما شئت فإنّي غير مخالفك في أمرٍ تريده.

فقال يحيى: يا أبا مرة أحب أن تعرض عليّ مصائدك وفخوخك التي تصطاد بها بني آدم.

فقال له إبليس: حباً وكرامةً، وواعده لغد، فلما أصبح يحيى عليه السلام قعد

(١) لا جرم: أي حقّاً مقطوعاً به.
(٢) عرائس المجالس: ٤٣.

في بيته ينتظر الموعد، وأغلق عليه الباب إغلاقاً، فما شعر حتى ساواه من خوخة، فإذا وجهه على صورة وجه قرد، وجسده على صورة الخنزير، وإذا عيناه مشقوقتان طولاً، وإذا أسنانه وفمه مشقوق طولاً، عظماً واحداً بلا ذقن ولا لحية، وله أربعة أيدٍ ،يدان في صدره، ويدان في منكبه، وإذا عراقيبه قوادمه، وأصابعه خلفه، وعليه قباء، وقد شدّ وسطه بمنطقة فيها خيوط معلّقة بين أحمر وأصفر وأخضر وجميع الألوان، وإذا بيده جرس عظيم، وعلى رأسه بيضة، وإذا في البيضة حديدة معلّقة شبيهة بالكلاّب، فلما تأمّله يحيى عليه السلام قال له: ما هذه المنطقة التي في وسطك؟

فقال: هذه المجوسية، أنا الذي سننتها وزيّنتها لهم.

فقال له: فما هذه الخيوط الألوان؟

قال له: هذه جميع أصباغ النساء، لا تزال المرأة تصبغ الصبغ حتى تقع مع لونها، فافتتن الناس بها.

فقال له: فما هذا الجرس الذي بيدك؟

قال: هذا مجمع كل لذّة من طنبور ومربط ومعزفة وطبل وناي وصرناي، وإنّ القوم ليجلسون على شرابهم فلا يستلذونه، فأحرّك الجرس فإذا سمعوه استخفّهم الطرب، فبين من يرقص، وبين من يفرقع أصابعه، وبين من يشق ثيابه.

فقال له: وأيُّ الأشياء أقرّ لعينك؟

قال: النساء، هنّ فخوخي ومصائدي، فإنّي إذا اجتمعت عليّ دعوات الصالحين ولعناتهم صرت الى النساء فطابت نفسي بهنّ.

فقال له يحيى عليه السلام: فما هذه البيضة التي على رأسك؟

فقال: بها أتوقّى دعوة المؤمنين.

قال: فما هذه الحديدة التي أرى فيها؟

قال: بهذه أقلب قلوب الصالحين[1].

والسجن أيضاً

والأنبياء صلوات الله عليهم أعظم الناس بلاءً، وأشدهم عناءً في هذه الدنيا.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ في كتاب علي عليه السلام: إنّ أشدّ الناس بلاءً النبيون، ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك أنّ الله عزّ وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبة لكافر؛ ومن سخف دينه، وضعف عمله قلّ بلاؤه، والبلاء أسرع الى المؤمن المتقّي من المطر إلى قرار الأرض[2].

وهذا نبيُّ الله يحيى بن زكريا عليه السلام عانى ما عانى من الظالمين، بداية من السجن وختاماً بالشهادة.

ورواية الثعلبي:

كان يحيىٰ عليه السلام في زمن ملكٍ من ملوك بني إسرائيل، وكان له امرأة، وهي ابنة ملك صيدا، وكانت قتّالة للأنبياء الصالحين، وكانت عاهرة، تبرز للناس، وكان يحيىٰ يزجرها عن ذلك، ويقول لها: ولا تبرزي كاشفة وجهك، وكان كثيراً ما يقول لها: مكتوبٌ في التوراة: إنّ الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف، فأمرت بيحيىٰ عليه السلام فسجن[3].

أسباب الجريمة

لم يكن للإسرائيليين أدنى مبرر في قتل زكريا ويحيىٰ عليهما السلام، إنّه لعمري مظهر من مظاهر الطغيان والاستعلاء والجبروت، لذلك استوجبوا من الله جلّ

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٧٣.
(٢) علل الشَّرايع: ٤٤.
(٣) عرائس المجالس: ٣٧٩.

جلاله أن يقتص منهم بإبادة خضرائهم، وفناء مجتمعهم؛ إنّهم لم يراعوا حرمة النبوّة، ولا رعاية شيخ كبير وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً، أفنى عمره في إرشادهم وتعليمهم وتهذيبهم، كذلك لم يعطفوا على شابٍ في مقتبل العمر قد أعرض عن الدنيا وزهرتها، وتجرّد لعبادة ربّه، قد أنهكته العبادة وغيّرت ملامح جسمه.

ذكر الثعلبي وغيره حديث شهادته عليه السلام:

إنّ ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيىٰ بن زكريا عليه السلام، ويدني مجلسه، ويستشيره في أمره، ولا يقطع أمراً دونه، وإنّ الملك هوى أن يتزوج بنت امرأةٍ له، فسأل يحيى عن نكاحها، فقال: لست أرضاها لك، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، فعمدت حين جلس الملك على شرابه، فألبست ابنتها ثياباً حمراً رقاقاً فاخرة، وطيّبتها، وألبستها من الحلي شيئاً لا قيمة له من غايته، وألبستها فوق ذلك كساءً أسود، وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تسقيه الخمر، وأن تتعرّض له، فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله، ويكون الذي تسأله أن يأتي برأس يحيى بن زكريا في طشت؛ ففعلت ذلك، وجعلت تسقيه الخمر. وتتعرض له، فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها فقالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك.

قال: وما تسأليني؟

قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا فتأتيني برأسه في طشت.

فقال: ويحك سليني غير هذا.

قالت: ما أريد غير هذا؛ فلما أبت عليه بعث إلى يحيى فأتي برأسه، فجعل الرأس يتكلم ويقول: إنّها لا تحل لك، فلما أصبح الملك وإذا دم يحيىٰ يغلي، فأمر بالتراب فأُلقي عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلي، فألقى عليه أيضاً وارتفع الدم فوقه، فلم يزل يلقي عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلي[1].

(١) عرائس المجالس: ٣٣٧.

الانتقـــام

ويخطىء من يظن أنَّ عذاب الكافرين والفاسقين مؤجّل الى عوالم الآخرة، إنّهم ينالون بعض ما يستحقّون من الجزاء في الدنيا، ويبقى العذاب الأكبر في الآخرة، فالخمار يعذّب بأمراض كثيرة في الدنيا، والقاتل يُقتل ـ كما هو ملاحظ ـ والمثل المعروف: بشِّر القاتل بالقتل، وهكذا بقية الجرائم.. إنّ ما مرّ عليك من عذاب الأمم الذين أُهلكوا بأشدّ أنواع التعذيب، كقوم هود وصالح ولوط وموسى وغيرهم من الأمم يكفي البشرية أن تستقيم، وتسير على نهج الهدى والسداد؛ والحديث عما لاقاه قتلة زكريا ويحيى عليهما السلام.

قال ابن إسحاق: إنّ بني إسرائيل عمّروا بيت المقدس بعد مرجعهم من بابل وكثروا ثمّ عادوا يحدثون الأحداث، ويعود الله سبحانه وتعالى عليهم، ويبعث فيهم الرسل، ففريق يكذِّبون وفريق يقتلون، حتى كان آخر من بعث الله فيهم زكريا وابنه يحيىٰ وعيسىٰ بن مريم عليه السلام، فقتلوا يحيى وزكريا عليهما السلام، فبعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له (جودرس) فسار إليهم حتى دخل عليهم البلاد، فلما دخل عليهم بيت المقدس قال لقائد عظيم من عسكره اسمه (نيوزاذان) وهو صاحب الفيل: إنّي كنت حلفت لئن أنا ظفرت ببني إسرائيل لأقتلنّهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلاّ أن أجد من أقتله، وأمره أن يدخل المدينة ويقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل (نيوزذان) المدينة فأقام في المدينة التي يقرّبون فيها قربانهم فوجد دماً يغلي، فقال: يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟ فقالوا هو دم قربان لنا لم يُقبل، فلذلك هو يغلي.

فقال: ما صدقتموني الخبر، فقالوا: إنّه قد انقطع منا الملك والنبوّة فلذلك لم يُقبل منا، فذبح منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤوسهم فلم يهدأ، فأمر بسبعمائة من علمائهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ، فلما رأى أنّ الدم لا يبرد قال لهم: يا بني إسرائيل أصدقوني واصبروا على أمر ربكم فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون ما شئتم قبل أن لا أدع منكم نافخ نار ولا ذكراً إلاّ قتلته، فلما رأوا الجهد وشدةّ القتل صدقوه الخبر وقالوا: هذا نبيٌّ كان ينهانا عن كثيرٍ مما

يسخط الله، ويخبرنا فلم نصدّقه وقتلناه، فهذا دمه.

فقال: ما كان اسمه؟

قالوا: يحييٰ بن زكريا.

قال: الآن صدقتموني لمثل هذا انتقم ربّكم منكم[1]...

نعم السلف

والدنيا منذ خلقها الله جلّ جلاله والطغاة الحاكمون فيها، وأولياء الله يعانون منهم القتل والتشريد وصنوف الأذى، حتى ورد أنّ قابيل هدّد أخاه نبي الله شيثاً عليه السلام بالقتل كما قتل هابيل فاستتر منه.

وهذا الحسين بن علي أمير المؤمنين عليه السلام، وابن فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين، يخرج من وطن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فراراً من الطغاة، والكل يرى أن أمل السلامة أصبح ضئيلاً للغاية، وقد أخذ عليه الطغاة أقطار الأرض وآفاق السماء، فكان عليه السلام يسلّي نفسه وأهل بيته بحيى بن زكريا عليه السلام.

روى الشيخ المفيد عليه الرحمة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا وذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا أُهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل[2].

ويظهر أن الرابطة بين نبيّ الله يحيى والإمام الحسين عليه السلام أبعدمن أن تتصور، ويكفيك منها أنّ الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضوان الله عليه لما بلغه خبر واقعة الطفّ جاء الى كربلاء زائراً للحسين عليه السلام، فقال في زيارته: وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا[3].

(١) الكامل في التاريخ: ٢٣٣.
(٢) الإرشاد: ٢٥٢.
(٣) بشارة المصطفى: ٧٥.

وعن عبد الله بن الفضل الهمداني عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: مرَّ عليه رجل عدو لله ولرسوله فقال: **﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾** ثم مرّ على الحسين بن علي عليهما السلام فقال: لكن هذا لَتبكيَنَّ عليه السماء والأرض، وقال: وما بكت السماء والأرض إلاّ على يحيى بن زكريا والحسين بن علي عليهما السلام [1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: زوروا الحسين عليه السلام ولا تجفوه، فإنّه سيد شباب الشهداء، وسيد شباب أهل الجنّة، وشبيه يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، وعليهما بكت السماء والأرض[2].

وقال عليه السلام: لم تبكِ السماء إلاّ عليهما أربعين صباحاً.

قيل له: ما بكاؤها؟

قال: كانت تطلع حمراء، وتغيب حمراء، وكان قاتل يحيى عليه السلام ولد زنا، وقاتل الحسين عليه السلام ولد زنا[3].

وقيل: أي بكى أهل السماء وهم الملائكة[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أوحى الله إلى نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم: إنّي قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإنّي قاتلٌ بابن بنتك سبعين إلفاً، وسبعين ألفاً[5].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/١٦٨.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/١٦٨.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/١٧٥.
(٤) بحار الأنوار: ١٤/١٨٢.
(٥) المستدرك على الصَّحيحين: ٢/٢٩٠.

النبي عيسى عليه السلام

البداية

كانت حنّة جدة عيسى عليه السلام قد أمسك عنها الولد حتى أيسَتْ، فتوجّهت إلى قاضي الحاجات أن يرزقها ولداً.

استجاب الله دعاءها فحملت، عند ذلك نذرت أن تجعل وليدها لخدمة بيت المقدس ومن فيه من المتعبّدين ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران/٣٥].

الإشاءة الإلهيّة

نحن نريد ولا يكون إلاّ ما يريده القادر المقتدر، العليم بمصالح خلقه؛ فهذه حنّة وكل أمانيها وآمالها أن تلد ولداً تراه يسعى في بيت المقدس بين المصلين، وما أعظم المفاجأة ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران/٣٦].

تتجلّى المعرفة في هذه المرأة بأعظم معانيها، فهي لا تدعو لوليدتها بما ندعو به لأولادنا من طول عمر، وصحّة وسعادة... بل تدعو لها بأعظم من هذا كلّه، أن يعيذها الله وذرّيتها من الشيطان الرجيم.

استجاب الله جلّ جلاله للمرأة الصالحة فجنّب الوليدة الشيطان، بل هي إحدى أربع نسوة فضلن على نساء العالمين.

قال ابن عباس: خطّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض أربع خطوط وقال: أتدرون ما هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون[1].

وكما استجاب الله جلّ جلاله لحنّة دعاءها لابنتها، استجاب لها أيضاً في حفيدها، فقد ولدت مريم عيسى عليه السلام.

الحدث العظيم

كان نبيُّ الله زكريا عليه السلام قد عيّن موضعاً لمريم عليها السلام في بيت المقدس تتعبّد فيه، لا يدخل عليها أحد، وخرجت يوماً لمهمّ عرض لها ﴿**فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً**﴾ ففزعت منه غاية الفزع، وعاذت بالله منه ﴿**قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً**﴾.

وما أشد المفاجأة حين سمعته يقول: ﴿**قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً**﴾.

الوقع الشديد

كان وقع الحادث عظيماً على السيدة العذراء عليها السلام، وحقّ لها ذلك، وأنت إذا تأمّلت كلامها ﴿**قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً**﴾ أدركت أبعاد ما حلّ بها؛ ولكن طالما تتحوّل المآسي إلى مباهج حين تقابل بالصبر والثبات، والتوجّه إلى الله جلّ جلاله في الخلاص منها، وما حصل للصديقة العذراء أكبر شاهد على ما أقول.

---

(١) أسد الغابة: ٥/ ٤٣٧.

كن فيكون

هكذا تكون المشيئة الإلهية، وفعلاً تمّ الحمل، وبعد بضع ساعات ـ على رواية ـ كان الوضع. إنّ هذه الكلمة ﴿كن فيكون﴾ وردت في القرآن الكريم أكثر من مرّة، وهي تحذير للطغاة والعصاة من بطش الجبّار العظيم، فإنّه جلّ جلاله إذا اقتضت حكمته أن يوقع بهم فما أسرع ما يكون، ويكفيهم ما حدث بفرعون وقارون، بل وأمم كثيرة مرّ عليك ذكر بعضها، فالحذر ثم الحذر من نقمة القادر العظيم.

المولد العظيم

لو تصفّحت القرآن الكريم لوجدت فيه المئات من الآيات في ذم بني إسرائيل، وتعداد أعمالهم الشنيعة: من عبادة العجل، وقتل الأنبياء، واعتدائهم في السبت، وعصيانهم لموسى عليه السلام، فكأنّهم خلقوا للعناد والمشاكسة، وعدم الإطاعة.

وقد عاقبهم سبحانه وتعالى بأنواع العقوبات، فمسخ بعضهم قردة وخنازير، كما ابتلاهم قبل ذلك بفرعون يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وأهلك منهم في بعض يوم مائة وعشرين ألفاً بالطاعون[1].

وهم المعنيّون بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ **[البقرة/٥٨ ـ ٥٩]**.

كان هذا وغيره كثير في عهد موسى عليه السلام علماً أنهم كانوا من بعده أسوأ حالاً، وأردى معتقداً، وأخبث عملاً، فقد قاتلوا وصيّه يوشع بن نون عليه السلام.

واستمرّت الأجيال التالية منهم على ذلك حتّى قال سبحانه وتعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١/١٠٢.

﴿يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة/٧٩].

وتصعّد موضوعهم حتى ادعوا لله سبحانه وتعالى ولداً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة/٣٠].

فكان لزاماً أن تأتيهم حجّة قويّة، ودلالة واضحة بيّنة، ومعجزة يفهمها حتّى العوام، لتكون الحجّة مقنعةً للرسالة الجديدة.

كانت المعجزة للرسالة قبل الرسالة؛ بعث الله سبحانه وتعالى إليهم نبيّاً من غير أب، من أسرة عريقة بالرِّسالة، معروفة بالطهر، ولم يكتف سبحانه وتعالى لهم بهذا حتى جعل الوليد الرسول يتكلّم في المهد لتكون الحجّة أعلى ﴿**فللّهِ الحجة البالغة**﴾ ولكي يستيقن الناس، وتطمئن قلوبهم للحق.

أنطق الله جلّ جلاله الوليد الرسول بعد ساعة من مولده المبارك:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم/٣٠ - ٣٣].

موكب الإعجاز

كان علم الطِّب قد بلغ ذروته قبيل مبعث عيسى عليه السلام، وبرز أطباء لا يزال التاريخ يحتفظ بأسمائهم وآرائهم الطبيّة، لذا فإنّ الرؤوف الرحيم جعل معظم معاجز عيسى عليه السلام في هذا الحقل، مع البعد الشاسع بين الأمرين.

لقد جاءهم صلوات الله وسلامه عليه بما أبهرهم، بل أبهر العالم بأسره، فلا أطباء اليونان آنذاك، ولا أطباء لندن اليوم، بل وجميع أطباء الدنيا يستطيعون أن يبرؤا الأكمه(١) والأبرص(٢) أو يحيوا الموتى.

---

(١) الأكمه: الّذي ولد أعمى.

(٢) الأبرص: المصاب بمرضٍ جلدي يُدعى «البرص» وهو لا علاج له.

أضف إلى ذلك معاجز الولادة والمائدة، والإخبار بالمغيّبات، ومع هذا كله فما أقل من آمن به، وما أكثر الكافرين به.

المسيح

صدق القائلون بأنّ التأريخ يعيد نفسه دائماً، فثمود كانوا ينتفعون بالناقة أتمّ انتفاع، فجميعهم يأخذون من حليبها بالمقدار الذي يرغبون فيه، ومع ذلك حصل منهم ما حصل، وكذلك المجتمع الإسرائيلي، فقد كانوا يأكلون من المائدة حتى يشبعوا ويداوي عليه السلام مرضاهم، ويبرىء من كان منهم لا يجد في الدنيا شفاء له، وأنت إذا علمت أنّ من أسمائه عليه السلام المسيح ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ﴾ **[آل عمران/٤٥]**.

سمّي بذلك لأنّه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلاّ برىء وعوفي، وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان[1]. ومع ذلك كلّه فقد عزموا على قتله والفتك به.

الحواريون

الحواري: هو الذي ينقّي الثياب من الأوساخ ويبيّضها. والحواريون: وهم اثنا عشر رجلاً، وهم أصحاب عيسى عليه السلام، والمؤمنون به، سمّوا بذلك لأنّهم كانوا ينقّون نفوس الخلائق من الأخلاق الذميمة، والعادات السيئة.

قال الضحاك: سموا حواريين لصفاء قلوبهم.

وقال عبدالله بن المبارك: سمّوا حواريين لأنهم كانوا نورانيين، عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها، وأصل الحور عند العرب شدة البياض.

---

(١) عرائس المجالس: ٣٩٠.

وقال الحسن: الحواريون: الأنصار[1].

وأصبح اسم الحواريين علماً لجماعة من الصحابة والتابعين، وفئة من رجال الحديث اختصوا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وبأهل بيته عليهم السلام.

في العرض القرآني المجيد

ذكر القرآن الكريم عيسى عليه السلام في ٢٥ آية، كما إنَّ إحدى سوره باسم المائدة. إشارة إلى المائدة التي أنزلت عليه؛ نذكر من ذلك.

(١)

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة/٢٥٣].

الآية الكريمة تشير إلى الدلالات والمعاجز التي جاء بها عيسى عليه السلام، وجلّها في الواقع تدور في عالم الطب، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وهي تفوق ما وصل إليه الطب قديماً وحديثاً.

والإمام عليّ الرضا عليه السلام يجيب على سؤال وجهه إليه علامة الدنيا ابن السكيت[2].

قال: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء، وبآية السحر، وبعث عيسى بآية الطب، وبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكلام والخطب؟

فقال عليه السلام: إنّ الله لما بعث موسى بن عمران كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى،

---

(١) عرائس المجالس: ٣٩١.
(٢) ابن السكيت: أبو يوسف؛ يعقوب بن إسحاق الدورقي المستشهد سنة: ٢٤٤هـ.

وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت الحجّة عليهم.

وإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب[1].

(٢)

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران/٣٥].

١ ـ البداية الطيّبة:

نحن نعتقد أنّ الأنبياء عليهم السلام طهروا عن أدناس الجاهلية ومدلهماتها، كما أنهم نزّهوا في نسبهم عن السفاح وشبهه، وأكثر من هذا: ولدهم آباء وأمهات كانوا الغاية في الإيمان والنزاهة والقرب من المولى سبحانه وتعالى، وإنّ رسالة السماء لا تعطى إلاّ لمن تكامل فضلاً وشرفاً وعفافاً، وحاز المكارم كلها.

٢ ـ الأم المؤمنة:

تأمل كلام حنّة أم مريم عليها السلام، تجدها المرأة المثالية في التقى والإيمان، فهي تنذر أن يكون وليدها خادماً في البيت المقدّس لیناله وإياها الأجر والثواب، ولأنّه سوف يعيش في جوّ يجعله أقرب للتقوى.

٣ ـ ﴿فلما وضعتها قالت ربّي إني وضعتها أنثى﴾:

فبعد أن ولدت مريم، وكانت ترجو أن يكون غلاماً، فلما وضعتها خجلت واستحيت و **﴿قالت﴾** منكّسة رأسها **﴿ربّي إني وضعتها أنثى﴾** المراد به الاعتذار من العدول عن النذر لأنها أنثى **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** إنّه أعلم بوضعها، لأنه هو الذي خلقها وصوّرها **﴿وليس الذكر كالأنثى﴾** لأنّها لا تصلح لما يصلح الذكر

---

(١) الإحتجاج: ٢/٢٢٥.

له، من التحرير لخدمة بيت المقدس، لما يلحقها من الحيض والنفاس، والصيانة عن التبرّج.

٤ ـ ﴿وإنّي سميتها مريم﴾:

وهي بلغتهم العابدة.

إنّ للإسم الأثر الكبير في سلوك الإنسان، كنت ألاحظ ـ وأنا في العراق ـ أن معظم المجرمين أسماؤهم توحي بالإجرام، أو البعد عن حظيرة الإسلام، لهذا وغيره تجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام كانوا يغيّرون بعض الأسماء، وحثّوا الأمة على أن يسمّوا أبناءهم بأسماء معيّنة (فخير الأسماء ما حمّد وعبّد)[1].

٥ ـ ﴿وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾:

تأمّل كلام هذه المرأة الصالحة، فإنّها لا تدعو لطفلتها بالحياة والسعادة ـ شأن بقية الأمهات ـ بل تبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يعيذها ويسلّمها من مكائد الشيطان الرجيم وسبله، ثم تتجاوز ذلك بالدعاء بنجاة ذريتها من الشيطان أيضاً، لأنّه ربّما يكون الإبن صالحاً، والحفيد طالحاً.

إنّها رجعت إلى نفسها المليئة بالوثوق بالمعطي الكريم، فهو كما يوفّق الذكر للخير والتقى، ومنازل الأبرار، قادر على أن يوفّق الأنثى لذلك ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران/٢٦].

٦ ـ استجابة الدعاء:

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/١٨٦] وقال أيضاً: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل/٦٢] وقد استجاب الله دعاء هذه المرأة التقيّة لوليدتها.

٧ ـ ﴿فتقبّلها ربها بقبول حسن﴾:

كانت حنّة رضوان الله عليها تؤمل أن يعيش وليدها بين ظهراني عبّاد بني إسرائيل وأتقيائهم، ليتعلّم منهم الهدى والصلاح، ويتدرّب على الفضيلة والكمال،

(١) مثل: محمد؛ أحمد؛ عبدالله؛ عبد الرؤوف.. إلخ.

فشاء المهيمن أن تكون ابنتها في رعاية نبيِّ الله زكريا عليه السلام، زعيم أولياء الله، والمتولّي لشؤون بيت الله المقدّس.

ومعنى قوله تعالى ﴿**فتقبّلها ربّها**﴾ تكفّل في تربيتها، والقيام بشأنها ﴿**بقبول حسن**﴾ سلك بها طريق السعداء ﴿**وأنبتها نباتاً حسناً**﴾ جعل نشوءها نشوءاً حسناً. ﴿**وكفّلها زكريّا**﴾ ضمّها إلى زكريا، وجعله كفيلها؛ ضمّها إلى خالتها أم يحيى، حتّى إذا شبّت، وبلغت مبلغ النساء بنى لها محراباً في المسجد، وجعل بابه في وسطه، لا يرقى إليه إلاّ بسلّم، ولا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم. قال ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت النهار، وقامت الليل، وتبتّلت حتى غلبت الأحبار[1].

٨ ـ ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً**﴾:

وليست منح الله جلّ جلاله وكرامته لأوليائه محصورة في الآخرة، بل إنّ فيوضاته وألطافه لا تنقطع عنهم حتّى في الدنيا، فمن هذه الألطاف ـ وما أكثرها ـ ما كان يُتحف به العابدة مريم عليها السلام.

قال المفسّرون: كان زكريا يجد عندها فاكهة في غير حينها، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، غضّةً طريّة، فيسألها ﴿**قال يا مريم أنّى لك هذا**﴾ من أين لكِ هذا؟ كالمتعجّب منه ﴿**قالت هو من عند الله**﴾ من الجنّة ﴿**إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ إنّه يعطي العدد من الشيء لا يضبط بالحساب، ولا يأتي عليه العدد، لأنّ ما يقدر عليه غير متناه ولا محصور.

(٣)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ [آل عمران/٤٢].

في هذه الآيات عرض لقصّة مريم عليها السلام، تتخلله المعاجز والآيات فإنّ العبد حينما يتّجه نحو الله جلّ جلاله يسمو وترتفع مرتبته إلى حدّ لا يكاد أن

(١) بحار الأنوار: ١٤/١٩٦.

يُتصوّر؛ انظر رعاك الله إلى هذه المرأة وما بلغته من عظيم المنزلة حتى أن الملائكة تبشّرها عن الله جلّ جلاله بالاصطفاء والتطهير، وحاشا لله جلّ جلاله أن يحبو مريم بعطاء يمنعه عنّي وعنك، فهو الحكم العدل، ولكن أهّل نفسك يا أخي فستجد خيراً وسروراً.

نعود للآية: **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم﴾** فأنت إن جعلت كلام الملائكة تثميناً لعبادتها وإخلاصها صحّ ذلك، وإن جعلته إيناساً لوحدتها وانقطاعها في طاعة الله سبحانه صحّ أيضاً، وإن جعله تمهيداً للبشارة الكبرى لم تبعد عن الصواب.

١ ـ **﴿إنّ الله اصطفاك﴾** اختارك وألطف لك حتى تفرّغت لعبادته، واتباع مرضاته **﴿وطهّرك﴾** بالإيمان عن الكفر، وبالطاعة عن المعصية، كما طهّرك من الأخلاق الذميمة، والطبائع الرديّة.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: اصطفاك من ذرية الأنبياء وطهّرك من السفاح، واصطفاك لولادة عيسى من غير فحل[1] **﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾** على نساء عالمي زمانك، لأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيدة نساء العالمين، نستدل على ذلك بما جاء في الحديث الصحيح:

١ ـ روى أبو عمر عن عمران بن حصين قال: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عاد فاطمة رضي الله عنها وهي مريضة، فقال: كيف تجدينك يا بنيّة؟

قالت: إنّي لوجعة، وإنّه ليزيدني انّي ما لي طعام آكله.

قال: يا بنيّة أما ترضينَ أنّك سيدة نساء العالمين؟

قالت: يا أبتِ فأين مريم بنت عمران؟

قال: تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله لقد زوجتك سيّداً في الدنيا والآخرة[2].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٩٣.
(٢) الاستيعاب: ٢/ ٧٥٠.

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما أنّها سيدة النساء يوم القيامة[١].

٣ ـ وروى ابن طلحة الشافعي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قبل هذه الليلة، استأذن ربّه أن يسلّم عليّ، يبشّرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة[٢].

٤ ـ ورواية البخاري: قال صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين[٣].

٥ ـ وروى أيضاً: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة[٤].

٢ ـ ﴿يا مريم اقنتي لربّك﴾:

ومعناه: اعبديه واخلصي له العبادة.

والعبادة هي التي ترفع الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع، لأنها الوسيلة الوحيدة لصقل صفاته وتهذيب أخلاقه.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ كما يعمل الساجدون.

٣ ـ ﴿ذلك من أنباء الغيب﴾.

في الوقت الذي يتحدّث فيه القرآن الكريم عن ولادات وقعت بإعجاز قبل مئات السنين، وبتفصيل تجهله البشرية فضلاً عن الأمّة العربية، هو في الوقت نفسه أعظم إعجاز لنبيٍّ العرب وكتابهم لو أنصف المنصفون، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ما تقدّم ذكره من حديث مريم وزكريا ويحيى **﴿من أنباء الغيب﴾** من أخبار ما غاب عنك وعن قومك **﴿نوحيه إليك﴾** نلقيه عليك معجزة وتذكيراً وتبصرة وموعظة وعبرة.

---

(١) حلية الأولياء: ٢/ ٤٢.
(٢) مطالب السُّؤول: ٦.
(٣) صحيح البخاري: ٤/ ٢٠٤.
(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٠.

ووجه الإعجاز فيه: ان ما غاب عن الإنسان يمكن أن يحصل علمه بدراسة الكتب، أو التعلّم، أو الوحي، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يشاهد هذه القصص، ولا قرأها من الكتب، ولا تعلمها من أحد، إذ كان نشوءه بين أهل مكة، ولم يكونوا أهل كتاب، فوضح أن الله سبحانه أوحى إليه بها، وفي ذلك دليل على صحّة نبوته.

٤ ـ ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾:

الآية الكريمة نبّهت على أمر لم يعلمه النصارى أنفسهم فضلاً عن غيرهم، وهو أن حنّة أم مريم عليها السلام أقبلت بها إلى بيت المقدس حيث يجتمع الأحبار والعباد فقالت: دونكم النذيرة، فتشاحوا عليها، مع وجود سيّدهم ونبيّهم زكريا عليه السلام، ورغم كونه أولى بها لأنه زوج خالتها، رغم هذا كله أن نفوسهم لم تكن لتسمح بالتنازل عنها، لذلك اقترعوا، وكانت قرعتهم أن يلقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في ماء جار، فمن ثبت قلمه على الماء أخذها.

فألقوا أقلامهم في الماء، فارتفع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت في الماء[١].

فأخذها؛ فكان القيّم والكفيل لها.

٥ ـ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح﴾.

لقد مشى الإسرائيليون أشواطاً طويلة في طريق الضلال، وطبعت نفوسهم على الشقاق والخلاف، وبعدوا بعداً شاسعاً عن تعاليم السماء، فلا يكفي لاستصلاحهم بعثة نبي مزوّد بمعجز، بل يحتاج إلى تهيئة لنفوسهم تكون قبل البعثة، ولا تهيئة أنفع من أن تلد عابدتهم وبنت سيدهم طفلاً عن طريق الإعجاز، وأن يتكلّم وقتئذٍ إتماماً للمعجزة، وإقامة للحجّة، وقد حصل هذا كله لنبي الله عيسى بن مريم عليه السلام.

(١) عرائس المجالس: ٣٧٢.

(٤)

١ ـ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ [المائدة/ ١١٠].

وهذا موضوع مهم جداً وبالغ الخطورة، ولا يتعلّق بنبيٍّ الله عيسى بن مريم عليه السلام، بل يتعلّق بجميع البشر، فكلٍ واحد منا نعم الله جلّ جلاله عليه كثيرة لا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم/٣٤].

والغرض من الأمر بتذكرها لأنها تدعو إلى الطاعة، كما انَّ ذكرها يدعو للمزيد ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم/٧].

ومن المؤسف أن الإنسان يتذكّر دائماً السلبيات، وينسى النعم؛ فمثلاً التاجر الذي يتعاطى خمسين نوعاً من البضاعة، وثمان وأربعين منها ناجحة يربح بها، واثنين منهما كاسدة، يخسر فيهما، فتراه دائماً يشكو ويتحدّث عن هاتين الكاسدتين وينسى أو يتناسى البضائع المربحة.

٢ ـ ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾:

يذكّره جلّ جلاله بألطافه عليه، وبما وهبه من معاجز، ولك أن تسمّيها دلائل النبوة، والحجج التي تلزم الأمّة بمتابعة نبيّها، ولعمري لو أنصف الإسرائيليون أنفسهم لوجدوا القليل منها يكفيهم يقيناً على نبوّته عليه السلام.

وروح القدس: هو جبرائيل عليه السلام، والمراد: إنّا قوّيناه وأيّدناه بجبرائيل، فكان يلازمه ﴿تكلّم الناس في المهد وكهلاً﴾ في حال ما كنت صبيّاً في المهد، وفي حال ما كنت كهلاً ﴿وإذ علمتك الكتاب﴾ الكتابة ﴿والحكمة﴾ العلم والشريعة ﴿والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ واذكر أيضاً إذ تصوّر الطين كهيئة الطير الذي تريد، كخلقته وصورته ﴿بإذني﴾ تفعل ذلك بإذني وأمري ﴿فتنفخ فيها﴾ تنفخ فيها الروح ﴿فتكون طيراً بإذني﴾ إذا نفخ فيها المسيح الروح قلبها الله لحماً ودماً، وخلق فيها الحياة، فصارت طائراً بإذن الله، بأمره وإرادته لا بفعل

المسيح ﴿**وتبرىء**﴾ تصحح ﴿**الأكمه**﴾ الذي ولد أعمى ﴿**والأبرص**﴾ من به برص مستحكم ﴿**بإذني**﴾ بأمري، ومعناه: إنّك تدعوني حتى أبرىء الأكمه والأبرص، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله ﴿**وإذ تخرج الموتى بإذني**﴾ اذكر إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك، وأخرجهم من القبور حتى يشاهدهم الناس أحياء ﴿**وإذ كففت بني إسرائيل عنك**﴾ عن قتلك وأذيتك ﴿**إذ جئتهم بالبيّنات**﴾ حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿**فقال الذين كفروا**﴾ وجحدوا نبوّتك ﴿**منهم**﴾ من بني إسرائيل ﴿**إن هذا إلاّ سحر مبين**﴾ ما جاء به عيسى سحر ظاهر واضح ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين**﴾ ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم إياها ﴿**أن آمنوا بي وبرسولي**﴾ صدّقوا بي وبعيسى انه عبدي ونبيي ﴿**قالوا**﴾ الحواريون ﴿**آمنا**﴾ صدّقنا ﴿**واشهد**﴾ يا الله ﴿**بأنّنا مسلمون**﴾.

- ﴿**إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء**﴾:

سألها الحواريّون لتكون برهاناً جديداً لنبيّهم، ومدعاة لهم لرسوخ العقيدة، وربّما استهدفوا من ذلك أن تكون وسيلة لإيمان الخلق، لذا تراهم يقولون ﴿**ونكون عليها من الشاهدين**﴾.

﴿**قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾ نهاهم عليه السلام عن ذلك لأن ما جاء به من الآيات والمعاجز يكفيهم ولغيرهم حجّة، وأيضاً في سؤالهم محذور آخر، وهو: إنَّ الأمّة إذا طلبت من نبيّها آية معيّنة، وجاءهم بها، ثم كذّبوا، يعجّل عليهم العذاب، كما حصل لثمود لما طلبوا الناقة، وغيرهم؛ ألا تسمع قوله تعالى مخاطباً قريش: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ **[الأنعام/٨]**.

﴿**قال عيسى ابن مريم اللّهم ربّنا أنزل علينا مائدة**﴾ وبعد إصرارهم طلب عليه السلام من الله تعالى أن يجيب اقتراحهم، وأن ينزل عليهم خواناً عليه طعام وقال ﴿**تكون لنا عيداً**﴾ نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظّمه ومن يأتي بعدنا ﴿**لأوّلنا وآخرنا**﴾ لأهل زماننا ومن يأتي بعدنا ﴿**وآية منك**﴾ ودلالة منك عظيمة الشأن تأخذ بقلوب العباد إلى الإقرار بمدلولها، والاعتراف بالحق الذي

يشهد به ظاهرها، تدل على توحيدك، وصحّة نبوّة نبيّك ﴿**وارزقنا وأنت خير الرازقين**﴾ اجعل ذلك رزقاً لنا.

﴿**قال الله إنّي منزلها عليكم**﴾:

استجاب الله جلّ جلاله لهم بعد أن اشترط عليهم ﴿**فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين**﴾. وفعلاً لمّا كفروا بعدها مسخوا قردةً وخنازير، وبعد ثلاث نقلوا إلى جهنّم.

صفة المائدة وخصائصها

والرواية عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها، وهم ينظرون إليها وهي تهوي منقضّة حتّى استقرّت بين أيديهم، فبكى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: اللّهمّ اجعلني من الشاكرين، اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة؛ وهم ينظرون إليها، فنظروا إلى شيء لم يروا مثله قط، ولم يجدوا ريحاً أطيب من رائحة ذلك... ثم كشف المنديل عنها وقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشويّة، تسيل سيلاناً من الدسم، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خلّ، وحواليها من أنواع البقول، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد.

فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟

فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ليس ما ترون من طعام الدنيا، ولا من طعام الآخرة، ولكن افتعله الله بالقدرة الغالبة، كلوا ما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله... فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلين وقال: كلوا من رزق الله ولكم الهناء، ولغيركم البلاء، فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلثمائة رجل من فقير وزمن ومريض ومبتلى، كلهم شبعان يتجشأ، ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء، ثم طارت المائدة صعداً وهم ينظرون إليها حتّى توارت عنهم، فلم يأكل منها يومئذٍ مريض إلاّ برىء، ولا زمن إلاّ صح، ولا

مبتلى إلاّ عوفي، ولا فقير إلاّ استغنى ولم يزل غنيّاً حتى مات[1].

نعود للآية الكريمة:

٥ ـ ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾:

كأنّ هذا السؤال من العليم الخبير إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ زيادةً في إقامة البيّنة على القائلين بالتأليه له عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن لا مبرر لهم بعد هذا الإقرار، فقد لزمتهم الحجّة.

قال أمين الإسلام: هذا وإن خرج مخرج الاستفهام فهو تقريع وتهديد لمن ادّعى ذلك عليه من النصارى، كما جرى في العرف بين الناس إن من ادّعى على غيره قولاً فيقال لذلك الغير بين يدي المدّعى عليه ذلك القول: أأنت قلت هذا القول؟ ليقول: لا، فيكون ذلك استعظاماً لذلك القول، وتكذيباً لقائله **﴿قال﴾** يعني عيسى **﴿سبحانك﴾** جلّ جلالك، وعظمت وتعاليت، ثم تبرّأ من قول النصارى فقال: **﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾** لا يجوز لي أن أقول لنفسي ما لا يحق لي، فآمر الناس بعبادتي وأنا عبد مثلهم **﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾** يريد أني لم أقله، لأني لو كنت قلته لما خفي عليك.

٦ ـ ﴿تعلم ما في نفسي﴾:

في هاتين الآيتين جاء التأكيد تلو التأكيد على علمه جلّ جلاله بما يضمره الإنسان فضلاً عما يعمله، ومعنى الآية: تعلم من أسراري التي لا يعلمها غيرك.

والتأكيد الثاني: **﴿إنّك أنت علاّم الغيوب﴾** لا يغيب عنك علم شيء.

والتأكيد الثالث: **﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾**. أنت عالم بجميع الأشياء، لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء.

لهذا يجب على كل واحد منا أن يتقيّد بحركاته وتصرّفاته، لا سيّما والسميع البصير يشهدها، والملائكة يسجّلونها، وأعضاء الإنسان نفسه تشهد بها **﴿يوم تشهد**

(١) عرائس المجالس: ٣٩٩.

عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [المائدة/٢٤].

ثم ذكر عليه السلام ما قاله لأمّته **﴿ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم﴾** لم أقل للناس إلاّ ما أمرتني به من الإقرار لك بالعبودية، وانّك ربّي وربهم، وإلهي وإلههم، وأمرتهم أن يعبدوك وحدك ولا يشركوا معك غيرك في العبادة.

٧ ـ **﴿وكنت عليهم شهيداً﴾**:

الأنبياء عليهم السلام هم المبلّغون عن الله جلّ جلاله، فهم يشهدون يوم القيامة على من بُعثوا إليهم، وانَّهم صلوات الله عليهم قد بلّغوهم رسالات الله جلّ جلاله.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح/٨].

إن هذا المشهد للأنبياء عليهم السلام يزيد من مأساة المجرمين في ذلك اليوم العصيب، لاجتماع الشهادات الصادقة كلّها عليهم **﴿ما دمت﴾** حيّاً **﴿فيهم﴾** بما شاهدته منهم وعلمته، وبما أبلغتهم من رسالتك التي حملتنيها، وأمرتني بأدائها إليهم **﴿فلمّا توفيتني﴾** أمتّني **﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾** الحفيظ **﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾** أنت عالم بجميع الأشياء، لا تخفى عليك خافية، ولا يغيب عنك شيء **﴿إن تعذّبهم فإنّهم عبادك﴾** لا يقدرون على دفع شيء عن أنفسهم **﴿وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾** في هذا تسليم الأمر لمالكه، وتفويضه إلى مدبّره، وتبرؤ من أن يكون إليه شيء من أمور قومه. والعزيز: هو المنيع القادر الذي لا يُضام، والقاهر الذي لا يُرام، والحكيم: هو الذي يضع الأشياء مواضعها، ولا يفعل إلاّ الحسن الجميل.

٨ ـ **﴿قال اللهُ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾**:

وكما انَّ الصادقين ينتفعون بصدقهم في ذلك اليوم، ويجدون ثواب صدقهم جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، كذلك بقية أعمال البر، وجميع الصالحات هي وحدها النافعة في تلك المواقف المهولة.

إنّه يجدها أمامه في وقت هو في أمس الحاجة إليها، ويندم كثيراً على عدم الاستزادة منها، لما يرى من عظيم الجزاء والمثوبة عليها **﴿لهم جنّات تجري من**

تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً دائمين فيها في نعيم مقيم لا يزول ﴿**رضي الله عنهم**﴾ بما فعلوا ﴿**ورضوا عنه**﴾ بما أعطاهم من الجزاء والثواب ﴿**ذلك الفوز العظيم**﴾ وهو ما يحصلون عليه من الثواب كما في سورة البيّنة.

والمسيحيّون اليوم في معزل عن عيسى وأمّه وربّه، والاتجاه للمادة، وللملاذ المحرّمة في الشريعة والقانون، وهذا هو السبب الذي جعلهم يبتعدون عن الإسلام، لأنّهم لا يريدون الإلتزام بقوانين السماء ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ **[الزخرف/٨٣]**.

(٥)

١ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ **[مريم/١٦]**.

هذه السورة المباركة باسم الصديقة مريم ابنة عمران عليها السلام، أم سيّدنا المسيح عليه السلام، تستعرض جانباً مهماً من حياتها.

والمعنى: اذكر في القرآن حديث مريم وولادتها، وما رافقها من اعجاز، ولأجل أن تقتدي الأمّة بهذا النهج من الطهارة والعفاف.

وأيضاً: إنّ هذا التفصيل لحدث مرّت عليه المئات من السنين، ولا علم للعرب به، بل إنَّ المسيحيين لم يكونوا يحيطون بتفصيله، لمما يدل على أن هذا الكتاب الذي أُنزل عليك من العليم الخبير ﴿**إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً**﴾ انفردت عن أهلها في جهة المشرق، للتفرّغ للعبادة ﴿**فاتخذت من دونهم حجاباً**﴾ فضربت من دون أهلها ـ لئلا يرونها ـ ستراً وحاجزاً بينها وبينهم.

٢ ـ ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً**﴾:

ثم جاء الحدث العظيم، والإعجاز الكبير، فبينما هي في خلوتها وعزلتها تتعبّد، وإذا بجبرائيل عليه السلام قد انتصب أمامها في صورة آدمي.

لقد ذعرت من هذا المشهد كثيراً.

٣ ـ ﴿**قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً**﴾:

وهكذا ينبغي للمسلم عندما يخاف شيئاً، ويحذر مكروهاً، أن يتوجّه إلى الله جلّ جلاله، فهو القادر المانع. ومعنى الآية: انّي أعتصم بالرحمن من شرّك فاخرج من عندي إن كنت ممن يخاف الله ويتقيه.

٤ ـ ﴿قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً﴾:

ويجيبها عَلَيْهِ السَّلَامُ بما لم يخطر على بالها، ولم يمر بمخيلتها، فزاد ذلك من قلقها وخوفها.

أخبرها أنه مبعوث من قبل الله جلّ جلاله ليهب لها ولداً طاهراً من الأدناس.

٥ ـ ﴿قالت أنّى يكون لي غلام﴾:

ورغم ما هي فيه من حيرة ووجل إلاّ أنّها سارعت معترضة على الموضوع، وأن ذلك من المستحيل **﴿قالت أنّى يكون لي غلام﴾** كيف يكون لي ولد **﴿ولم يمسسني بشر﴾** على وجه الزوجيّة **﴿ولم أك بغيّاً﴾** ولم أكن زانية، وإنّما قالت ذلك لأن الولد في العادة يكون من إحدى هاتين الجهتين.

٦ ـ ﴿قال كذلك قال ربّك هو عليّ هين﴾:

إحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل متأت، لا يشق على الباري العظيم.

فسبحانه من عظيم إذا أراد شيئاً قال له **﴿كن فيكون﴾**.

وأنت رعاك الله وأعزّك عندما توصد في وجهك الأبواب، وينقطع عنك العون، فتوجّه بحاجتك إلى قاضي الحاجات، ولا تقصد سواه، فستجده كما وصف نفسه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ **[النمل/٦٢]**.

ثم بشّرها **﴿ولنجعله آية للناس﴾** ولنجعله علامة ظاهرة، وآية باهرة للناس تلزمهم الإقرار بنبوّته، ودلالة على براءة أمّه **﴿ورحمة منّا﴾** له، ولنجعله نعمة منّا على الخلق يهتدون بسببه **﴿وكان أمراً مقضياً﴾** وكان خلق عيسى من غير ذكر أمراً كائناً مفروغاً منه محتوماً، قضى الله سبحانه بأن يكون، وحكم به.

٧ ـ ﴿فحملته﴾:

فحملت مريم في الحال.

إنّ جبرائيل أخذ ردن قميصها باصبعه فنفخ فيه، فحملت مريم، وكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل الولد في أرحام النساء عند مضي تسعة أشهر.

إنّ هذا الحدث الغريب بمجموعه جعل أمّة كبيرة تقول بألوهيته عليه السلام، وهذا ما احتجّ به نصارى نجران حينما جاءوا إلى المدينة للاجتماع بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

ونزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران/٥٩].

فخلقة آدم عليه السلام أدعى للعجب.

إن قدرات الله جلّ جلاله لا تنتهي عند حد، ولا يحيط بها الخلق.

﴿فانتبذت به مكاناً قصيّاً﴾ تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد، ومدّة حملها ساعة واحدة **﴿فأجاءها المخاض﴾** ألجأها الطلق ووجع الولادة **﴿إلى جذع النخلة﴾** فالتجأت إليها لتستند إليها.

٨ ـ ﴿قالت يا ليتني متُّ قبل هذا﴾:

وقد تنزل بالإنسان نكبات وبلايا لا يطيقها، ويتضايق منها تمام المضايقة، ويتمنّى عندها الموت، ولكن لله جلّ جلاله تدبيراً لا يدركه العبد، فربّما كان البلاء مفتاحاً لفتح عظيم، ومدرجاً للسمو والرفعة في الدنيا والآخرة.

وأنت لا تدرك ما نزل بالصديقة مريم عليها السلام من الوجد والحزن والألم حتّى تمنّت الموت، بل وأكثر من الموت **﴿وكنت نسياً منسيّاً﴾** شيئاً حقيراً متروكاً.

ولكن ما تصوّرته صلوات الله عليها من مأساة بلغ بها إلى أقصى مراتب العلو والرفعة في الدنيا والآخرة، وحسبها الحديث النبوي الشريف:

قال رسول الله عليه السلام: حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد[1].

(١) الإستيعاب: ٢/ ٧٢٠.

٩ ـ ﴿فناداها من تحتها﴾:

وبعد الشدّة يكون الفرج، وقد تتقدمه بشائر الخير، والصديقة عليها السلام بلغ بها الأمر مبلغاً عظيماً، ولكن في تلك اللحظة ناداها وليدها **﴿ألاّ تحزني﴾** لا تغتمّي **﴿قد جعل ربّك تحتك سريّاً﴾** نهراً تشربين منه وتتطهرين من النفاس، علماً أن النهر كان قد انقطع عنه الماء، ولكن الله سبحانه أجرى فيه الماء في اللحظة، كما أحيي ذلك الجذع حتى أورق وأثمر، وأمرت بهزّه **﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً. فكلي واشربي﴾** كلي من الرطب، واشربي من هذا الماء، وأعظم من هذا كلّه **﴿وقرّي عيناً﴾** وطيبي نفساً، ولتقر عينك سروراً بهذا الولد.

﴿فإمّا ترينّ من البشر أحداً﴾:

فسألك عن ولدك **﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوما﴾** صمتاً، والمعنى: أوجبت على نفسي لله أن لا أتكلّم، وإنّما أمرت بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرىء به ساحتها **﴿فلن أكلّم اليوم إنسيّاً﴾** إنّي صائمة، فلن أكلم اليوم أحداً.

١٠ ـ ﴿فأتت به قومها تحمله﴾:

انطلقت بوليدها إلى البلد بعد أن لفّته في خرقة، واستقبلها قومها أسوأ استقبال، متناسين قدسيتها ومنزلة أبيها فيهم **﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّا﴾** أمراً عظيماً، إذ لم تلد أنثى قبلك من غير رجل **﴿يا أخت هارون﴾** إنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل، يُنسب إليه كل من عُرف بالصلاح، والمراد: يا شبيهة هارون في الصلاح ما كان هذا معروفاً منك **﴿ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمّك بغيّاً﴾** كان أبواك صالحين، فمن أين جئت بهذا الولد؟! **﴿فأشارت إليه﴾** فأومأتْ إلى عيسى بأن كلّموه واستشهدوه على براءة ساحتي؛ فتعجّبوا من ذلك فـ **﴿قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً﴾** كيف نكلّم صبيّاً في المهد؟!

١١ ـ ﴿قال إنّي عبدالله﴾:

قاتل الله الشيطان وسبله، فقد جعل اليهود يفترون على نبي الله عيسى وأمّه ويقذفوهما بالبهتان، وجعل النصارى يؤلهونه، بل بعضهم ألّه أمه الصديقة، ذكر الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره.

ومما يرد على المؤلّهين لعيسى عليه السلام: هب أنّه الربُّ الخالق لمن جاء بعده، فمن الموجد والخالق للعوالم التي سبقته؟!

إنَّ أول ما تكلّم به نبيُّ الله ﴿قال إنّي عبدالله﴾ قدّم إقراره بالعبوديّة ليبطل به قول من يدّعي له الربوبيّة، وكأنّ الله سبحانه أنطقه بذلك لعلمه بما يقوله المغالون فيه. ثم قال ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾ إنّ الله تعالى أكمل عقله في صغره، وأرسله إلى عباده، وكان نبيّاً مبعوثاً إلى الناس في ذلك الوقت، مكلّفاً عاقلاً، ولذلك كانت له تلك المعجزة ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ وجعلني معلّماً للخير. والبركة: نماء الخير. والمبارك: النفّاع.

١٢ ـ ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً﴾:

وتحدّث الثعلبي عن صلاته عليه السلام فقال: ولم يتخذ بيتاً ولا حلية ولا متاعاً ولا ثياباً ولا رزقاً إلاّ قوت يومه، وكان حينما غابت الشمس صفّ قدميه وصلى حتى يصبح[(١)].

إنّ الصلاة بموجب هذا النص القرآني أهم الواجبات الإسلامية الملقاة على عاتق كل مسلم ومسلمة، وإنّ القرآن الكريم ذكر الصلاة ٩٩ مرّة، ووردت مقرونة بالزكاة ٢٧ مرّة، ولا عذر للمسلم أن يتساهل في أدائهما، والجدير بالذكر أنّ الآية الكريمة تنبيه للمسلم على ضرورة الاستمرار في أداء هاتين الفريضتين ما دام على قيد الحياة.

ونختم الفصل بأحاديث الصادقين صلوات الله عليهم في عقاب تارك الصلاة، ومانع الزكاة:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «في جهنّم واد فيه حيّات، كل حيّة ثخن رقبة البعير، تلسع تارك الصلاة، فيغلي سمّها في جسمه سبعين سنة، ثم يتهرّى لحمه»[(٢)].

---

(١) عرائس المجالس: ٣٨٧.
(٢) الكبائر: ٥٣.

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تضيّعوا صلاتكم، فإنّ من ضيّع صلاته حشر مع قارون وهامان، وكان حقّاً على الله أن يدخله النار[١].

٣ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بين المسلم والكافر إلاّ أن يترك الصلاة الفريضة متعمّداً أو يتهاون بها فلا يصلّيها[٢].

٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من ذي زكاة مال، إبل ولا بقر ولا غنم يمنع زكاة ماله إلاّ أقيم يوم القيامة بقاع قفر، ينطحه كل ذات قرن بقرنها، وينهشه كل ذات ناب بأنيابها، ويطؤه كل ذات ظلف بظلفها، حتى يفرغ الله من حساب خلقه، وما من ذي زكاة نخل ولا زرع ولا كرم، يمنع زكاة ماله إلاّ قلّدت أرضه في سبعة أرضين، يطوّق بها يوم القيامة[٣].

٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّما رجل له مال لم يعط حقّ الله منه إلاّ جعله الله على صاحبه يوم القيامة شجاعاً له زبيبتان ينهشه حتى يقضى بين الناس، فيقول: مالي ومالك؟

فيقول: أنا كنزك الذي جمعت لهذا اليوم.

قال: فيضع يده فيقضمها[٤].

٦ ـ وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: الذي يمنع الزكاة يحوّل الله ماله يوم القيامة شجاعاً من نار، له ريمتان، فيطوّقه إياه، ثم يقال له: الزمه كما لزمك في الدنيا، وهو قول الله ﴿**سيطوّقون ما بخلوا به**﴾[٥].

١٣ ـ ﴿وبرّاً بوالدتي﴾:

تجد القرآن الكريم يهتم اهتماماً عظيماً ببر الوالدين وطاعتهما، ويحذّر من مخالفتهما وعقوقهما، وأنت حينما تقرأ قوله تعالى: ﴿**وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ**

---

(١) عيون أخبار الرِّضا: ٢/ ٣٠.
(٢) عقاب الأعمال: ٢٣١.
(٣) تفسير العياشي: ١/ ٢٠٧.
(٤) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٠.
(٥) تفسير العيّاشي: ١/ ٢٠٨.

إيّاه وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء/٢١] أدركت مدى اهتمامه بهما.

ذكر القرآن الكريم عن يحيى عليه السلام ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم/١٤].

وذكر قول عيسى عليه السلام ﴿وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً﴾.

وأظن هذا كافياً لكل مسلم في أن يبذل جهده في طاعة والديه وبرّهما، لا سيّما في وقت شيخوختهما وحاجتهما للرعاية والعناية.

نذكر بعض ما جاء عن الصادقين في ثواب برّهما، وعقاب عقوقهما:

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: بينما موسى بن عمران عليه السلام يناجي ربّه تعالى إذ رأى رجلاً تحت ظل عرش الله، فقال: يا رب من هذا الذي قد أظلّه عرشك؟

فقال: هذا كان بارّاً بوالديه، ولم يمش بالنميمة[١].

٢ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: برّوا آباءكم يبرّكم أبناؤكم، وغضّوا عن النساء يُغضض عن نساءكم[٢].

٣ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: برُّ الوالدين من حسن معرفة العبد بالله، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً لصاحبها إلى رضا الله من برّ الوالدين المؤمنين لوجه الله[٣].

وجاء في عقاب العقوق:

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة، فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام، إلاّ صنف واحد.

قلت: من هم؟

قال: العاق لوالديه[٤].

(١) روضة الواعظين: ٢/٤٠٢.
(٢) مشكاة الأنوار: ١٦٢.
(٣) أصول الكافي: ٣٩٠.
(٤) أصول الكافي: ٣٦٩.

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقطع ودّ أبيك فيطفأ نورك»[١].

١٤ ـ **﴿ولم يجعلني جبّاراً﴾**:

متجبراً، أوقع بالبشر، وأنكّل بهم.

إنّ أعظم مشاكل البشرية اليوم ـ بل وقديماً أيضاً ـ هي مشكلة الجبابرة الطغاة، وقد ارتدت في عصرنا أزياء فضفاضة جديدة، من سياسيّة وتكتُّلات أخرى غيرها **﴿شقيّاً﴾** الشقي: التعس غير السعيد.

١٥ ـ **﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾**:

وسلامة وأمان له منا، والمراد: وأمن له يوم ولد: من عبث الشيطان به، وإغوائه إياه، ويوم يموت: من عذاب القبر، ويوم يبعث حياً: من هول المطّلع، وعذاب النار.

١٦ ـ **﴿ذلك عيسىٰ ابن مريم﴾**:

الذي قال: إني عبد الله عيسىٰ بن مريم، لا ما يقوله النصارى إنّه ابن الله أو الله، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً **﴿قول الحق﴾** أحق الحق **﴿الذي فيه يمترون﴾** يشكّون، يعني اليهود والنصارى؛ فزعمت اليهود أنّه ساحر كذّاب، وزعمت النَّصارى أنّه ابن الله، وثالث ثلاثة **﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾** ما كان ينبغي لله أن يتخذ من ولد، لا يصلح له ولا يستقيم **﴿سبحانه﴾** تنزّه عن ذلك **﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** لا يتعذّر عليه إيجاد شيء على الوجه الذي أراده، وانَّ ما قضاه من الأمور فأراد كونه فإنما يتكوّن، ويدخل تحت الوجود من غير امتناع أو توقف، فينتفي العجب من مجيء عيسىٰ من دون أب.

(٦)

١ ـ **﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾[الأنبياء: ٩١]**:

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٥٤.

هي مريم ابنة عمران، إحدى سيدات نساء العالمين، والمراد بالحصانة هي العفّة والامتناع عن الفساد.

إنّ الله جلّ جلاله ذكر مريم عليها السلام مثلاً أعلى للمرأة المسلمة، وما ينبغي لها من رعاية العفّة والكرامة، ومراقبة الله جلّ جلاله عند كل عمل، وعدم التكشّف، والورع عن محارم الله؛ وأنت ترى مواهب الله لأمته مريم تثميناً لالتزامها، كذلك ينبغي أن تنظر وتتأمل ما أعدّ الله للبغايا من عقاب.

قال رسول الله عليه السلام: «في الزنا ست خصال، ثلاث منها في الدنيا، وثلاث منها في الآخرة، أمّا في الدنيا: فيذهب بالبهاء، ويعجّل الفناء، ويقطع الزرق؛ وأما التي في الآخرة: فسوء الحساب، وسخط الرحمان، والخلود في النار»[1].

أضف الى ذلك لما يلحقها في الدنيا من عار وشنار، ويفضحها الطفل والقابلة، وما يلازمها من عوارض الزهري والسفلس، حتى تكون بذلك نهايتها.

٢ ـ ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾:

إنّه مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، والتي تجلّت مسبقاً بأوضح من ذلك في آدم عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ **[آل عمران: ٥٩]** فخلق آدم عليه السلام أدعى للعجب من خلق عيسىٰ، ولكن قاتل الله الشيطان وسبله، وكيف يعزز الدنيا في عيون الطغاة فيقتلون الناس ويصلبونهم من أجلها، ويعززها عند علماء السوء ليفتروا على الله الكذب، ويضلّوا الخلق ليأكلوا بهم الدنيا.

ويقول أمين الإسلام في تفسير الآية: أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنفخ، فأضاف الروح الى نفسه على وجه الملك تشريفاً له في الاختصاص بالذكر.

٣ ـ ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾:

الآية: هي المعجزة التي يعجز عن مثلها الخلق، فالآية في مريم عليها السلام:

---

(١) سفينة البحار: ١/ ٦٥٠.

أنّها ولدته في مثل هذه الحال التي رافقتها المعاجز والآيات، والآية في عيسى عليه السلام: أن تكلّم في المهد، وما تلا ذلك من معاجز وعبر تأخذ بأيدي الناس الى طريق الحق ونهج الصواب.

٤ ـ ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾:

هذا دينكم دين واحد، أمرنا الأنبياء جميعاً أن يبلّغوه للبشرية ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقكم ﴿فاعبدون﴾ ولا تشركوا بي شيئاً.

قال أمين الإسلام: ثم ذكّر اليهود والنصارى بالاختلاف فقال ﴿وتقطّعوا أمرهم بينهم﴾ فرّقوا دينهم فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض، ثم قال مهدداً لهم ﴿كل إلينا راجعون﴾ كل ممن اجتمع وافترق راجع إلى حكمنا في الوقت الذي لا يقدر على الحكم سوانا فنجازيهم بأعمالهم.

(٧)

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون/ ٥٠].

والمجتمع الإسرائيلي فيه غلظة وبعد عن تعاليم السماء، فقد لقي منهم نبيُّ الله موسىٰ بن عمران عليه السلام الأمرّين رغم ما شاهدوا من معاجز وعبر يكفيهم منها ما حلّ بفرعون وجيوشه الجرارة في ساعة واحدة من الهلاك، بمنظر منهم ومشهد، ولو قدّر أن هذا الحدث العظيم كان في مجتمع آخر لكانوا من أتقى الناس وأبرّهم، ولكنَّ نبي إسرائيل، عرفوا بالشقاق والعناد، لهذا وغيره فقد رافقت الرسالة الجديدة المعاجز منذ البداية، فقد تكلّم رسولهم ساعة ولد، ثم تلت ذلك معاجز كان بعضها يكفيهم هدى واستقامة.

نعود للآية الكريمة:

﴿وجعلنا ابن مريم وأمّه آية﴾ حجّة على قدرتنا على الخلق والإبداع؛ وآية عيسى أنّه خلق من غير ذكر، وآية مريم أنها حملت من غير فحل ﴿وآويناهما إلى

ربوة﴾ جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً، مستوياً واسعاً.

والربوة التي أويا إليها هي الرملة، وقيل: بيت المقدس، وقيل: حيرة الكوفة وسوادها. والقرار: مسجد الكوفة، والمعين: الفرات ﴿**ذات قرار ومعين**﴾ ذات موضع قرار، أي هي أرض مستوية يستقر عليها ساكنوها.

(٨)

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ **[الحديد/ ٢٧]**.

ورسالات السماء قد تكون عامة وخاصة؛ فالعامة: أن يرسل الله سبحانه رسولاً للبشرية جمعاء، ويلزمهم كلهم التعبّد بها، ولا يقبل من أحد التدين بغيرها.

والخاصة: كأن يكون النبي مرسلاً الى قبيلة، أو أمّة، أو قطر، فتكون رسالته خاصة بهم، ولا تشمل غيرهم.

والأنبياء الذين بعثوا للبشرية جمعاء خمسة:

١ ـ نوح عليه السلام. ٢ ـ إبراهيم عليه السلام. ٣ ـ موسىٰ عليه السلام. ٤ ـ عيسىٰ عليه السلام. ٥ ـ محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أنهم يسمون بـ«أولي العزم» والعزم: هو الوجوب والحتم، وأولو العزم: ـ من الرسل ـ من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدّمه، والبشرية اليوم ملزمة بالتعبد برسالة الإسلام، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويكفي القرآن الكريم حجّة على ذلك، فهو يتحدّى البشرية منذ ألف وأربعمائة عام على أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك، فتنازل معهم إلى عشر سور فعجزوا أيضاً، فتنازل معهم الى سورة واحدة ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ **[البقرة/ ٢٣]** فعجزوا أيضاً.

ولعمري إِنَّ النصارى ـ وهم أقرب الأديان للإسلام ـ أولى من غيرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فحديث المباهلة يكفيهم حجّة بيّنة، ويلزمهم بالإيمان.

وأكثر من هذا: لما انفضّ اجتماع المباهلة، وأبى جمهور النصارى الإيمان،

وقبلوا بالجزية، وانصرفوا إلى بلادهم، لكن الحقيقة التي ظهرت لعظماء الوفد أبت لهم إلاّ الإسلام، فرجعوا فرادى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأسلموا.

وفي هذه السورة عاتب الله سبحانه النصارى:

فقال تعالى: ﴿**وقفّينا بعيسىٰ ابن مريم**﴾ بعدهم، فأرسلناه رسولاً ﴿**وآتيناه الإنجيل**﴾ وأعطيناه الإنجيل ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه**﴾ في دينه، يعني الحواريين وأتباعهم، اتّبعوا عيسى عليه السلام ﴿**رأفة**﴾ وهي أشد الرقّة ﴿**ورحمة**﴾ وإنما أضاف الرأفة والرحمة، إلى نفسه لأنه سبحانه جعل في قلوبهم الرأفة بالأمر به، والترغيب فيه، ووعد الثواب عليه ﴿**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**﴾ هي رفض النساء، واتخاذ الصوامع ﴿**إلاّ**﴾ أنهم اتبعوها، وألزموا أنفسهم بما لم يكلّفوا ﴿**ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها**﴾.

يقول المفسرون: يعني أنهم حين بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤمنوا به، فكانوا تاركين لطاعة الله، فما رعوا تلك الرهبانية حق رعايتها.

ودليل ذلك قوله ﴿**فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**﴾ يعني الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾ كافرون.

وهذا سبيل من سبل الشيطان، وباب من أبوابه، فهو قد يدفع بالبعض إلى أن يلزم نفسه بما لم يؤمر به ديناً، ولكنه يقعد عما فرض ووجب عليه، كالذي يبالغ في الطهارة حتى يفوته وقت الصلاة.

أدعيته عليه السلام

والدعاء مما أمر الله جلّ جلاله به، وطلب من عباده أن يتوجهوا به إليه، ويقول المفسرون في قوله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ **[غافر/ ٦٠]** إنَّ المراد من العبادة في الآية الكريمة الدعاء، حتى انَّ أمين الإسلام الطبرسي نوّر الله مضجعه قال: وفي الآية دلالة على عظم قدر الدعاء عند الله تعالى، وعلى فضل الانقطاع إليه؛ وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء، وروى حنّان بن سدير عن أبيه

قال: قلت لأبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ: أي العبادة أفضل؟

قال: ما من شيء أحبّ إلى الله من أن يُسأل ويُطلب ما عنده، وما أحد أبغض إلى الله عزّ وجل ممن يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده[1].

لهذا تجد في سير الأنبياء والأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الكثير من الأدعية.

إنّ هذه الأدعية سكينة للنفس، ولجوء إلى الله جل جلاله، يستعين بها العبد للتغلّب على الصعاب، وتذليل العسير.

نعود فنذكر بعض أدعيته عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١ ـ من دعاء له عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ألحّوا عليه في إنزال المائدة: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ **[المائدة/ ١١٤]**.

٢ ـ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لما اجتمعت اليهود على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقتلوه بزعمهم، أتاه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فغشّاه بجناحه، وطمح ببصره فإذا هو بكتاب في جناح جبرائيل (اللّهم إنّي أدعوك باسمك الواحد الأعزّ، وأدعوك اللّهم باسمك الصمد، وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعال الذي ثبّت أركانك كلها، أن تكشف عنّي ما أصبحت وأمسيت فيه).

فلما دعا به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أوحى الله تعالى إلى جبرائيل: ارفعه إلى عندي»[2].

ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يا بني عبد المطلب سلوا ربّكم بتلك الكلمات، فوالذي نفسي بيده ما دعا بهن عبد بإخلاص دينه إلاّ اهتزّ له العرش، وإلاّ قال الله لملائكته: اشهدوا أني قد استجبت له بهن وأعطيته سؤله في عاجل دنياه وآجل آخرته»[3].

---

(١) مجمع البيان.
(٢) المراد المكان الرّفيع المعد لأولياء الله وأحبّائه؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ تنزَّه عن المكان.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/٣٣٨.

٣ ـ دعاؤه الذي كان يشفي به المرضى، ويحيي به الموتى: اللّهم أنت إله من في السماء، وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك، وأنت جبّار من في السماوات، وجبّار من في الأرض، لا جبّار فيهما غيرك، وأنت ملك من في السماوات وملك من في الأرض، لا ملك فيهما غيرك، وأنت حكم من في السموات وحكم من في الأرض، لا حكم فيهما غيرك، قدرتك في الأرض كقدرتك في السماء، وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء، أسألك بأسمائك الكرام إنّك على كل شيء قدير[١].

٤ ـ من دعاء له عليه السلام عند قبر صديق له يسمى (العاذر): اللّهم رب السموات السبع، والأرضين السبع، إنّك أرسلتني الى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك، وأخبرتهم أنّي أحيي الموتى بإذنك، فاحي العاذر.

فقام العاذر وخرج من قبره، وبقي، وولد له[٢].

٥ ـ قال الكلبي: كان عيسىٰ يحيي الموتى بـ«يا حيّ يا قيوم»[٣].

في الإنجيل

لا شكّ ولا ريب في أنَّ التحريف والتغيير امتدّ إلى كتب الله جلّ جلاله المنزّلة، إنّ هذه الحقيقة لم تعد مخفية على أحد، واعترف بذلك علماء أهل الكتاب[٤] وسلم من ذلك القرآن الكريم بعناية منه جلّ جلاله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر/ ٩] قوله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت/ ٤٢].

نعم، بين أيدينا من كتب الله جلّ جلاله المنزلة بقية تعاليم وردت عن الصّادقين عليهم السلام نذكر منها:

(١) عرائس المجالس: ٣٩٠.
(٢) عرائس المجالس: ٣٩٣.
(٣) عرائس المجالس: ٣٩٤.
(٤) أنظر الحلقات الأولى من كتابنا (مكتبة القرآن الكريم).

١ ـ جاء رجل إلى علي بن الحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فسأله عن مسائل، ثم عاد ليسأل عن مثلها، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولمّا تعملوا بما علمتم، فإنّ العلم إذا لم يُعمل به لم يزدد صاحبه إلاّ كفراً، ولم يزدد من الله إلاّ بعداً[1].

٢ ـ قال النجاشي ملك الحبشة لجعفر بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا جعفر إنّا نجد فيما أوحى الله تعالى إلى عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ من حق الله على عباده أن يحدثوا لله تواضعاً عندما يُحدث لهم نعمة[2].

٣ ـ قال الله تعالى في السورة السابعة عشرة من الإنجيل: ويل لمن سمع العلم ولم يطلبه، كيف يُحشر مع الجهال الى النار؛ تعلموا العلم وعلّموه، فإنّ العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم ولا نعمل، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم ونعمل؛ والعلم يشفع لصاحبه، وحقّ على الله أن لا يخزيه؛ إن الله يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء ما ظنكم بربّكم؟

فيقولون: ظنّنا أن يرحمنا ويغفر لنا.

فيقول تعالى: إنّي قد فعلت، إني استودعتكم حكمتي لا لشرّ أردته بكم بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالح عبادي إلى جنتي برحمتي[3].

٤ ـ من الإنجيل: إنّ الله تعالى قال لعيسىٰ: عظّم العلماء واعرف فضلهم، فإنّ فضلهم على جميع خلقي إلاّ النبيين والمرسلين كفضل الشمس على الكواكب، وكفضل الآخرة على الدنيا، وكفضلي على كل شيء[4].

٥ ـ قال الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ لهما ـ يريد الجاثليق ـ وهو عالم النصارى يومئذٍ ورأس الجالوت وهو عالم اليهود يومئذٍ ـ أتعرفان هذا من كلامه (يا قوم إنّي رأيت

---

(١) الجواهر السَّنيّة: ٩١.
(٢) الجواهر السَّنيّة: ٩١.
(٣) الجواهر السَّنيّة: ٩٥.
(٤) الجواهر السَّنيّة: ٩٥.

صورة راكب الحمار، لابساً جلابيب النور، ورأيت راكب البعير ضؤوه مثل ضوء القمر؟).

فقالا: قد قال ذلك شعيا.

قال الرضا عليه السلام: يا نصراني هل تعرف في الإنجيل قول عيسىٰ: إنّي ذاهب الى ربي وربّكم، والبارقليط[1] جاء هو الذي يشهد لي بالحق كما شهدت له، وهو الذي يفسّر لكم كل شيء، وهو الذي يبدي فضائح الأمم، وهو الذي يكسر عمود الكفر؟

فقال الجاثليق: ما ذكرت شيئاً مما في الإنجيل إلاّ ونحن مقرّون به.

فقال: أتجد هذا في الإنجيل ثابتاً يا جاثليق؟
قال: نعم[2].

ونقل الإمام عليه السلام للجاثليق كلام عيسى عليه السلام: حقاً أقول لكم يا معشر الحواريين: إنّه لا يصعد إلى السماء إلاّ ما نزل منها، إلاّ راكب البعير، خاتم الأنبياء، فإنه يصعد الى السماء وينزل، فما تقول في هذا القول؟

قال الجاثليق: هذا قول عيسى لا ننكره[3].

٦ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: قل لبني إسرائيل: أن لا تدخلوا بيتاً من بيوتي إلاّ بأبصار خاشعة، وأيدٍ نقيّة، وأُخبرهم أنّي

---

(١) ما معنى بارقليط؟! يوضح معناه النّص الذي بين أيدينا من إنجيل يوحنّا؛ من هذه الكلمات: (البارقليط هو روح القدس الّذي سيرسله الأب باسمي وسيعرفكم عن كلّ شيء وسيذكركم بكل ما قلته لكم (١٤ ـ ١٦)؛ وسيشهدني (١٥ ـ ١٦) (إنَّ فرصتكم حين ذهابي) (وفي الحقيقة فإنَّ البارقليط لا يأتي إليكم إذا لم أذهب. وعلى العكس؛ فإنّي إن ذهبت فسأرسله إليكم؛ وسيدهش بمجيئه العالم وسيفحمه بمادة الخطيئة والعدل والحكم..) (١٦؛ ٧ ـ ٨) (وعندها سيأتي روح الحق فسيحملكم على الأرض بالحق كلاماً لأنّه لن ينطق عن الهوى؛ ولكنّه سيقول ما سيسمعه؛ وسيعرّفكم بكل ما سيأتي. ولسوف يمجّدني...) (١٦؛ ١٣ ـ ١٤) عن التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ١٠٠.
(٢) التّوحيد: ٢٣٥.
(٣) التّوحيد: ٤٢٦.

لا أستجيب لأحد منهم دعوة ولأحد من خلقي لديهم مظلمة[1].

٧ ـ في الإنجيل: اعرف نفسك أيها الإنسان تعرف ربّك، ظاهرك للفناء، وباطنك للبقاء[2].

٨ ـ في حشد لعلماء الأديان في مجلس المأمون العباسي، وكان زعيم المسيحيين يومئذٍ يُدعى الجاثليق، وخاض مع الإمام الرضا عليه السلام جدالاً، فقال الإمام عليه السلام: في الإنجيل، وفي السفر الثالث منه ذكر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، وجيء بمن يقرأ الإنجيل، فكان كما قال؛ وقال الإمام عليه السلام للجاثليق: يا نصراني كيف علمك بكتاب شعيا؟

قال: أعرفه حرفاً حرفاً.

فذكر عليه السلام بعض ما جاء في كتاب شعيا في صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم[3].

٩ ـ فيما أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: أنزلني من نفسك كهمّك، واجعل ذكري لمعادك، وتقرّب إليّ بالنوافل، وتوكّل عليّ أكفك، ولا تتولّ غيري فأخذلك؛ يا عيسى، اصبر على البلاء، وارض بالقضاء، وكن لمسرّتي فيك، فإنّ مسرّتي أن أطاع فلا أعصى.

يا عيسى أحيي ذكري بلسانك، وليكن ودّي في قلبك[4].

١٠ ـ فعنهم عليهم السلام فيما وعظ الله به عيسىٰ عليه السلام: يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل: غسلتم وجوهكم ودنّستم قلوبكم، أبي تغترون، أم عليّ تجترؤن؟ تتطيّبون بالطيب لأهل الدنيا وأجوافكم عندي بمنزلة الجيف المنتنة، كأنكم أقوام ميّتون.

يا عيسىٰ، قل لهم: قلّموا أظفاركم من كسب الحرام، وأصمّوا أسماعكم عن

(١) الجواهر السَّنيّة: ٩٥.
(٢) الجواهر السَّنيّة: ٩٥.
(٣) أنظر تفصيل ذلك في كتاب التَّوحيد للشَّيخ الصَّدوق.
(٤) عدَّة الدَّاعي: ٩٣.

ذكر الخناء[1] واقبلوا عليّ بقلوبكم، فإني لست أريد صوركم.

يا عيسى، قل لظلمة بني إسرائيل لا تدعوني والسحت[2] تحت أقدامكم، والأصنام في بيوتكم، فإنّي آليت أن أجيب من دعاني، وإنّ إجابتي إياهم لعناً لهم حتى يتفرّقوا[3].

١١ ـ أوحى الله تعالى الى عيسى: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك[4].

١٢ ـ ومما أوحاه سبحانه لعيسىٰ: وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض إني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد، وأختم به الأنبياء والرسل؛ ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام؛ ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يتزيّن بالفحش، ولا قوّال بالخنا؛ أسدّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل التقوى ضميره، والحكم معقوله، والوفاء طبيعته، والعدل سيرته، والحق شريعته، والإسلام ملّته؛ اسمه أحمد، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأغني به بعد العالة، وأرفع به بعد الضعة، أهدي به، وأفتح به بين آذان صم، وقلوب غلف، وأهواء متخلّفة متفرقة، واجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، إخلاصاً لإسمي، وتصديقاً لما جاءت به الرسل؛ ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم، مصلّون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجّداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، وقربانهم في بطونهم. رهبان بالليل ليوث بالنهار، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم[5].

١٣ ـ قال مكحول: التقى يحيى وعيسىٰ، فصافحه عيسى وهو يضحك،

---

(١) الخناء: الفحشاء.
(٢) السُّحت: كلّ ما لا يحلُّ لحسبه.
(٣) عدَّة الدَّاعي: ١٤١.
(٤) بحار الأنوار: ١٤/٣٢٨.
(٥) قصص الأنبياء لإبن كثير: ٥٩٥.

فقال له يحيى: يا بن خالة ما لي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت؟

فقال له عيسى: ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست؟

فأوحى الله إليهما: إنّ أحبكما إليّ أبشكما بصاحبه[1].

مواعظ

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ/ ٤٦].

الموعظة: هي النصيحة التي يقدّمها الأخ لأخيه، يرشده فيها الى سلوك الطريق الموصل إلى الله تعالى، وينهاه عن السير في الطريق الذي يؤدي به إلى الهلاك والدمار.

والعمل الرئيسي للأنبياء عليهم السلام هو تقديم هذه النصائح، ودعوة الناس للعمل بها.

نذكر بعض مواعظ نبي الله عيسى عليه السلام:

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: كان عيسى بن مريم يقول لأصحابه: يا بني آدم اهربوا من الدنيا إلى الله، واخرجوا قلوبكم عنها، فإنكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم، ولا تبقون فيها ولا تبقى لكم، هي الخداعة الفجّاعة، المغرور من اغتر بها، المغبون من اطمأن إليها، الهالك من أحبّها وأرادها، فتوبوا إلى الله بارئكم، واتّقوا ربّكم، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً. أين آباؤكم، أين أمهاتكم، أين اخوانكم، أين أولادكم؟ دعوا فأجابوا واستودعوا الثرى، وجاوروا الموتى، وصاروا في الهلكى، وخرجوا عن الدنيا، وفارقوا الأحبّة، واحتاجوا إلى ما قدّموا، واستغنوا عما خلّفوا، فكم توعظون، وكم تزجرون وأنتم لاهون ساهون؟ مثلكم في الدنيا مثل البهائم، همّتكم بطونكم وفروجكم، أما تستحيون ممن خلقكم وقد أوعد من عصاه على النار، ولستم ممن يقوى النار، ووعد من أطاعه الجنة ومجاورته في الفردوس الأعلى، فتنافسوا فيه،

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٦١٠.

وكونوا من أهله، وأنصفوا من أنفسكم، وتعطّفوا على ضعفائكم وأهل الحاجة منكم، وتوبوا الى الله توبة نصوحاً؛ كونوا عبيداً أبراراً، ولا تكونوا ملوكاً جبابرة، ولا من العتاة الفراعنة المتمردين على من قهرهم بالموت، جبّار الجبابرة، ربّ السماوات ورب الأرضين، وإله الأولين والآخرين، مالك يوم الدين، شديد العقاب، أليم العذاب، لا ينجو منه ظالم، ولا يفوته شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يتوارى منه شيء؛ أحصى كل شيء علمه، وأنزله منزلته في جنّة أو نار[1].

٢ ـ وقال الإمام الرضا عليه السلام: قال عيسى بن مريم للحواريين: يا بني إسرائيل لا تأسوا على فاتكم في دنياكم إذا سلم دينكم، كما لا يأسي أهل الدنيا على ما فاتهم من دينهم إذا سلمت دنياهم[2].

٣ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ عيسى بن مريم قام في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تحدّثوا بالحكمة الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعينوا الظالم على ظلمه فيبطل فضلكم[3].

٤ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: قال الحواريون لعيسىٰ بن مريم: يا معلم الخير إعلمنا أي الأشياء أشد؟

قال: أشد الأشياء غضب الله عزّ وجل.

قالوا: فبم يُتقى غضب الله؟

قال: بأن لا تغضبوا.

قالوا: وما بدء الغضب؟

قال: الكبر والتجبر، ومحقرة الناس[4].

٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يعذّب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فإذا هو ليس يعذّب، فقال: يا رب مررت بهذا القبر عام أول

---

(١) أمالي الشَّيخ الصَّدوق: ٤٤٦.

(٢) أمالي الشيخ الصَّدوق: ٤٠١.

(٣) بحار الأنوار: ٢/٦٦.

(٤) الخصال: ٦.

فكان صاحبه يعذّب، ثم مررت به العام فإذا هو ليس يعذّب؟

فأوحىٰ الله عز وجل إليه: يا روح الله إنّه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً، فغفرت له بما عمل ابنه[1].

٦ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: كان المسيح يقول: من كثر همّه سقم بدنه، ومن ساء خلقه عذّب نفسه، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر كذبه ذهب بهاؤه، ومن لاحى[2] الرجال ذهبت مروءته[3].

٧ ـ وقال المسيح للحواريين: إنّما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمّروها[4].

٨ ـ وقال عيسى بن مريم: طوبىٰ من كان صمته فكراً، ونظره عِبراً، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته، وسلم الناس من يده ولسانه[5].

٩ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: قال عيسى بن مريم لأصحابه: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة ولا ترزقون فيها إلاّ بالعمل، ويلكم علماء السوء؛ الأجرة تأخذون والعمل لا تصنعون، يوشك ربّ العمل أن يطلب عمله، وتوشكوا أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر، كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه، وما يضرّه أشهى إليه مما ينفعه؟![6].

١٠ ـ وقال عيسى عليه السلام: بحقٍّ أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدّة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجده من حلاوة الدنيا..

وبحقّ أقول لكم: إنّ الزق إذا لم ينخرق يوشك أن يكون وعاءً للعسل،

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٨٧.
(٢) لاحى: نازع وقاتل.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٢١٨.
(٤) بحار الأنوار: ١٤/ ٣١٩.
(٥) الخصال: ٢٩٥.
(٦) أمالي ابن الشيخ الطُوسي: ١٢٩.

كذلك القلوب إذا لم تخرقها الشهوات، أو يدنّسها الطمع، أو يقسها النعم، فسوف تكون أوعية الحكمة[1].

١١ ـ وقيل لعيسىٰ بن مريم: كيف أصبحت يا روح الله؟

قال: أصبحت وربّي تبارك وتعالى من فوقي، والنار أمامي، والموت في طلبي، لا أملك ما أرجو، ولا أطيق دفع ما أكره، فأي فقير أفقر مني[2].

١٢ ـ وقال عليه السلام: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً[3].

١٣ ـ وقال عيسى عليه السلام: لا تدري متى يغشاك الموت، لِمَ لا تستعد له قبل أن يفجأك[4].

١٤ ـ وقال عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد[5].

١٥ ـ وقيل لعيسى عليه السلام: علّمنا عملاً واحداً يحبّنا الله عليه.

قال: ابغضوا الدنيا يحببكم الله[6].

١٦ ـ وقال المسيح عليه السلام: بماذا نفع امرؤ نفسه باعها بجميع ما في الدنيا، ثم ترك ما باعها به ميراثاً لغيره وأهلك نفسه، ولكن طوبى لامرىء خلّص نفسه واختارها على جميع الدنيا[7].

١٧ ـ وروي أنه عليه السلام ذمّ المال وقال: فيه ثلاث خصال.

فقيل: وما هي يا روح الله؟

---

(١) عدَّة الدَّاعي: ١٠٧.
(٢) أمالي الشَّيخ الطُّوسي: ٤٩.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/٣٢٦.
(٤) تنبيه الخواطر: ١/٨٦.
(٥) بحار الأنوار: ١٤/٣٢٧.
(٦) تنبيه الخواطر: ١/ ١٣٤.
(٧) تنبيه الخواطر: ٢/ ١١٥.

قال: يكسبه المرء من غير حلّه، وإن هو كسبه من حلّه منعه من حقّه، وإن هو وضعه في حقّه شغله اصلاحه عن عبادة ربّه[١].

١٨ ـ وكان عليه السلام إذا مرّ بدار قد مات أهلها، وخلف فيها غيرهم يقول: ويحاً لأربابك الذين ورثوك، كيف لم يعتبروا بإخوانهم الماضين[٢].

١٩ ـ وكان عليه السلام يقول: يا معشر الحواريين تحبّبوا الى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا الى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاه بسخطهم[٣].

٢٠ ـ وقال عليه السلام لأصحابه: استكثروا من الشيء الذي لا تأكله النار.

قالوا: ما هو؟

قال: المعروف[٤].

٢١ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الحواريون لعيسىٰ: يا روح الله من نجالس؟

قال: من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في عملكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله[٥].

٢٢ ـ قال عيسى عليه السلام للحواريين: ارضوا بدنيّ الدنيا مع سلامة دينكم، كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة دنياهم، وتحبّبوا الى الله بالبعد منهم، وأرضوا الله في سخطهم[٦].

٢٣ ـ قال عيسى بن مريم صلوات الله تعالى عليه: يا معشر الحواريين إنّ ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل. هو في ثلاث منها واثق، وهو في الرابعة سيء الظن، يخاف خذلان الله إياه، فأما المنزلة الأولى فإنه خلق في ظلمات

---

(١) تنبيه الخواطر: ٢/١١٨.
(٢) تنبيه الخواطر: ٢/٢١٩.
(٣) تنبيه الخواطر: ٢/٢٤٩.
(٤) تنبيه الخواطر: ٢/٢٤٩.
(٥) بحار الأنوار: ١٤/٣٣١.
(٦) عدّة الدّاعي: ١٢٢.

ثلاثة: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فوقّاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن؛ فإذا أُخرج من ظلمة البطن، وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم، ولا ساق، ولا يتناوله بيد، ولا ينهض إليه بقوة، بل يكره إليه إكراهاً، ويوجر إيجاراً حتى ينبت عليه لحمه ودمه، فإذا ارتفع عن اللبن وقع في المنزلة الثالثة من الطعام من أبويه، يكسبان عليه من حلال وحرام، فإن ماتا عطف عليه الناس، وهذا يطعمه، وهذا يسقيه، وهذا يأويه، وهذا يكسوه؛ فإذا وقع في المنزلة الرابعة، واشتدّ واستوى، وكان رجلاً خشي أن لا يُرزق، فيثب على الناس، فيخون أماناتهم، ويسرق أمتعتهم، ويغصبهم أموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه[1].

٢٤ ـ ومما وعظ به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بني إسرائيل:

إنكم لن تنالوا ما تريدون إلاّ بترك ما تشتهون، ولن تظفروا بما تأملون إلاّ بالصبر على ما تكرهون؛ إياكم والنظرة فإنّها تزرع في القلوب الشهوة[2]، وكفى بها لصاحبها فتنة؛ طوبى لمن جعل بصره في قلبه، ولم يجعل بصره في نظر عينيه... صلوا من قطعكم، واعطوا من منعكم، وأحسنوا إلى من أساء إليكم، وسلّموا على من سبّكم، وأنصفوا من خاصمكم، واعفوا عمن ظلمكم.

بحقّ أقول لكم إنّ شر الناس لرجل عالم آثر دنياه على علمه فأحبّها وطلبها، وجهد عليها حتى لو استطاع أن يجعل الناس في حيرة لفعل، وماذا يغني عن الأعمى سعة نور الشمس وهو لا يبصرها؟ كذلك لا يغني عن العالم علمه إذا هو لم يعمل به، وما أكثر ثمار الشجر وليس كلّها ينفع ويؤكل، وما أكثر العلماء وليس كلّهم ينتفع بما علم. بحق أقول لكم: إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، وكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبّار؛ ألم تعلموا أنّه من شمخ برأسه إلى السقف شجّه، ومن خفض برأسه عنه استظلّ تحته وأكنّه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه، ومن تواضع لله رفعه...

(١) المحاسن والأضداد: ٢٠٢.

(٢) لأنّها بداية الطّريق إلى الفجور؛ وجدير بالمسلم أن يتذكر حديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «النَّظرة سهمٌ من سهام إبليس، من تركها لله عزَّ وجل لا لغيره أعقبه الله إيماناً يجد طعمه» روضة الواعظين: ٢/ ٣٧٠.

ومن قدر على أن يغيّر الظالم ثم لم يغيّره فهو كفاعله، وكيف يهاب الظالم وقد أمن بين أظهركم، ولا يُنهى ولا يُغيّر عليه، ولا يؤخذ على يديه، فمن أين يقصر الظالمون، أم كيف لا يغترون؟ فحسب أحدكم أن يقول: لا أظلم ومن شاء فليظلم، ويرى الظلم فلا يغيّره، فلو كان الأمر على ما تقولون لِمَ تعاقبوا مع الظالمين الذين لم تعملوا بأعمالهم حين تنزل بهم العثرة في الدنيا؛ ويلكم يا عبيد السوء كيف ترجون أن يؤمنكم الله من فزع يوم القيامة وأنتم تخافون الناس في طاعة الله، وتطيعونهم في معصيته، وتفون لهم بالعهود الناقضة لعهده؛ بحقّ أقول لكم: لا يؤمن الله من فزع ذلك اليوم من اتخذ العباد أرباباً من دونه. . . تقولون: إنّ الآخرة حقّ وأنتم تمهّدون الدنيا، وتقولون: إنّ الموت حقّ وأنتم تفرون منه، وتقولون: إنّ الله يسمع ويرى ولا تخافون إحصاءه عليكم، فكيف يصدّقكم من سمعكم، فإنّ من كذب من غير علم أعذر ممن كذب على علم، وإن كان لا عذر في شيء من الكذب.

بحقّ أقول لكم: إنّ الدابة إذا لم تركب ولم تمتهن وتستعمل تصعب ويتغيّر خلقها، وكذلك القلوب إذا لم ترقّق بذكر الموت، ويتبعها دؤوب العبادة تقسو وتغلظ؛ ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره، وجوفه وحش مظلم؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطّلة فأسرعوا إلى بيوتكم المظلمة فأنيروا فيها، كذلك فأسرعوا إلى قلوبكم القاسية بالحكمة قبل أن ترين عليها الخطايا فتكون أقسى من الحجارة.

بحقّ أقول لكم: لا تدركون شرف الآخرة إلاّ بترك ما تحبّون، فلا تنظروا بالتوبة غداً، فإن دون غد يوماً وليلة، قضاء الله فيهما يغدو ويروح.

بحقّ أقول لكم: إنّ صغار الخطايا ومحقّراتها لمن مكائد إبليس، يحقرها لكم، ويصغّرها في أعينكم، وتجتمع فتكثر وتحيط بكم.

بحقّ أقول لكم: ليس شيء أبلغ في شرف الآخرة، وأعون على حوادث الدنيا من الصلاة الدائمة، وليس شيء أقرب إلى الرحمٰن منها، فدوموا عليها، واستكثروا منها، وكل عمل صالح يقرّب إلى الله فالصلاة أقرب إليه، وآثر عنده.

بحقّ أقول لكم: ابدؤوا بالشر فاتركوه، ثم اطلبوا الخير ينفعكم، فإنكم إذا جمعتم الخير مع الشر لم ينفعكم الخير.

بحقّ أقول لكم: إن الذي يخوض النهر لا بدّ أن يصيب ثوبه الماء وإن جهد أن لا يصيبه، كذلك من يُحب الدنيا لا ينجو من الخطايا.

بحقّ أقول لكم: إنّ الزرع لا يصلح إلاّ بالماء والتراب، كذلك الإيمان لا يصلح إلاّ بالعلم والعمل[١].

٢٥ ـ كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وكان يقول: حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة، وربّ شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً[٢].

٢٦ ـ قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا بن آدم الضعيف اتقِّ الله حيث كنت ما كنت، وكن في الدنيا ضيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلّم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غد فإنّها خطيئة[٣].

٢٧ ـ وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله[٤].

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن الشيطان مع الدنيا، ومكره مع المال، وتزينه مع الهوى، واستمكانه مع الشهوات[٥].

٢٨ ـ وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه، ووسعه بيته[٦].

٢٩ ـ وقال: طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية، وانتبهت إلى

---

(١) بحار الأنوار: ٣١٨/١٤.
(٢) قصص الأنبياء لإبن كثير: ٦٠٦.
(٣) المصدر: ٦٠٧.
(٤) المصدر: ٦٠٧.
(٥) المصدر: ٦٠٧.
(٦) قصص الأنبياء لإبن كثير: ٦٠٧.

غير إثم[١].

٣٠ ـ وعن مالك بن دينار قال: مرّ عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها.

فقال: ما أبيض أسنانها؛ لينهاهم عن الغيبة.

وقال عليه السلام: لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد فإنّما الناس رجلان: معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية[٢].

٣١ ـ وقال عليه السلام: تعجبت من ثلاث: طالب الدنيا والموت يطلبه، وباني القصور والقبور منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه. ابن آدم لا بالكثير تشبع، ولا بالقليل تقنع تجمع مالك لمن لا يحمدك، وتقدم على ربّك لا يعذرك، إنّما أنت عبد بطنك وشهوتك، وإنما تملأ بطنك إذ دخلت قبرك، وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك[٣].

٣٢ ـ وقال عليه السلام: من تعلّم وعلم وعمل، دُعي عظيماً في ملكوت السماء[٤].

٣٣ ـ وقال عليه السلام: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي[٥].

٣٤ ـ وقال عليه السلام: يا معشر الحواريين لا تحدّثوا بالحكم غير أهلها، فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. والأمور ثلاثة: أمر تبيّن رشده فاتبعوه، وأمر تبيّن غيّه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردّوا علمه إلى الله عزّ وجل[٦].

٣٥ ـ وقيل له من أشد الناس فتنة؟

---

(١) المصدر: ٦٠٧.
(٢) المصدر: ٦٠٨.
(٣) المصدر: ٦٠٩.
(٤) المصدر: ٦٠٩.
(٥) المصدر: ٦١٠.
(٦) المصدر: ٦١٠.

قال: زلّة العالم، فإنّ العالم إذا زلّ يزل بزلّته عالم كثير[1].

٣٦ ـ وقال عليه السلام: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم، والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء، وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدفلى، تعجب من رآها، وتقتل من أكلها[2].

٣٧ ـ وقال: إنّ شرّ الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه[3].

٣٨ ـ قال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير، واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين؛ بحق ما أقول لكم: إنّ حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإنّ مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعمين؛ بحق ما أقول لكم: إنَّ شركم عالم يؤثر هواه على علمه، فإنّ الناس كلهم مثله[4].

أنصار الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف/ ١٤].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: استنصركم وله جنود السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو العزيز الحميد، أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً[5].

والمراد: إنَّ النصرة التي دعا إليها سبحانه وتعالى ترمز إلى عمل يرفع المسلم دنيا وآخرة، ويأخذ بيده الى الدرجات الرفيعة.

نعود للآية الكريمة:

قوله: ﴿**أنصار الله**﴾ أي أنصار دينه، وأعوان نبيّه ﴿**كما قال عيسى بن مريم**﴾ أي مثل قول عيسىٰ بن مريم للحواريين، وهم خاصة الأنبياء، وسُمّوا بذلك لأنهم أخلصوا من كل عيب ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾ قل يا محمد: إني أدعوكم إلى هذا

---

(١) المصدر: ٦١٠.
(٢) المصدر: ٦١٠.
(٣) قصص الأنبياء لابن كثير: ١١٠.
(٤) المصدر: ٦٠٦.
(٥) نهج البلاغة: ٢/ ١١٤.

الأمر كما دعا عيسى قومه فقال: من أنصاري فيما يقرّب إلى الله **﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾** أي أنصار دين الله، وأولياء الله **﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل﴾** صدّقت بعيسى **﴿وكفرت طائفة﴾** به.

قال ابن عباس: يعني في زمن عيسى عليه السلام، وذلك انّه لما رُفع تفرّق قومه ثلاث فرق: فرقة قالت: كان الله فارتفع، وفرقة قالت: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالت: عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا، وظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرين وذلك قوله **﴿فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾** أي عالين، وقيل معناه: أصبحت حجّة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن عيسى كلمة الله وروحه.

المباهلة

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران/ ٥٩].

وبعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية وكاد يشملها كلها، كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ملوك الدنيا يدعوهم إلى الإسلام، كتب إلى كسرى انوشروان ملك فارس، والى قيصر ملك الروم، والى المقوقس ملك مصر، وإلى غيرهم من الملوك، يطلب منهم الاستجابة لنداء السماء؛ تأمّل قيصر في الأمر فرأى أن الأصلح أن يأخذ رأي رجال الدين في الموضوع، فأرسل رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى نجران[1] وهي يومئذٍ عاصمة المسيحيين، فيها القسيسون والأساقفة والرهبان، وجل رجالات المسيحية، وطلب منهم دراسة الدعوة المحمدية، وإعطاء رأيهم فيها. وصلت الرسالة إلى نجران، ودرسها الأساقفة، وأقبل وفد منهم كبير الى المدينة لمقابلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاطلاع على الإسلام والمسلمين.

كان وفد نجران أعظم الوفود التي جاءت المدينة، فيهم السيد والعاقب،

(١) نجران: مدينة في الجزيرة العربيّة. بين الحجاز واليمن.

وهما بمنزلة البابا في هذا العصر إن لم يكونا أعظم منه.

كانت مهمة الوفد الأولى هي مطابقة أوصاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحركاته وسكناته على الكتب التي توارثوها في صفته، ثم اجتمعوا به وسألوه بعض الأسئلة، فكان مما سألوه: عن اسمه صلى الله عليه وآله وسلم، واسم أبيه، وسألوه عن والد عيسىٰ عليه السلام فنزل جبرئيل عليه السلام بالآية: ﴿**إنّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾.

لم يقبل الوفد بالجواب، لأنه خلاف معتقدهم، فهم يزعمون أنّ ابن الله، وثالث ثلاثة، ولم يستطيعوا الرد المنطقي، لأن الحجّة لزمتهم، فآدم عليه السلام في خلقه أعجب من عيسى عليه السلام لأنّ عيسى له أم ولدته، بينما آدم بلا أم ولا أب.

وكان المنتظر منهم أن يتركوا الخصام والجدال بعد أن لزمهم الحق، ولكنهم استمروا في المكابرة علماً أن بعضهم اقتنع بالإسلام تماماً، وحاول إقناعهم فلم يفلح[1].

وبعد أن استمروا في التمادي في غيّهم نزل جبرئيل عليه السلام بالآية الكريمة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران/ ٦١].

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هلموا إلى المباهلة.

قالوا: قد أنصفت يا أبا القاسم، فمتى نباهلك؟

قال: غداً عند طلوع الشمس. والمباهلة: أن يبتهل (يدعو) المتنازعون الله سبحانه وتعالى أن يلعن المبطل منهم، وأن يعجّل في أخذه.

ذهب النصارى إلى رحالهم يتداولون في أمرهم، ويتذاكرون في قضيتهم، فهم في أحرج موقف يمر بالنصرانية، ورغم إيمان من آمن منهم بالقضية الإسلامية وتذكيره لهم بأن صفات محمد صلى الله عليه وآله وسلم مطابقة لما عندهم من الأناجيل والكتب

---

(١) أنظر آخر فصل من كتاب الإقبال للسّيّد إبن طاووس عليه الرحمة فقد ذكر الحجج والأدلّة الّتي ذكرها بعضهم في أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو النبي الموعود في الإنجيل، وأنّ شمائله وصفاته مطابقة تماماً لما جاء في كتب الله المنزلة.

السماوية الأخرى، بقي جمهورهم في تردّد وعناد، وأخيراً قرّ رأيهم في تلك الليلة أن يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقرّروا إذا باهلهم بجمهور المسلمين أن يباهلوه، لأنّ ذلك يكشف أنّه غير مرسل، ويباهل بالكثرة، وإن باهلهم بأهل بيته فهو نبي مرسل من قبل الله تعالى، لأن مباهلته بأهل بيته تكشف عن صدقه، لأنّه في حال كذبه ـ لا سمح الله ـ يكون قد عرّض نفسه وأهله للهلاك، فعليهم أن لا يباهلوه مهما كلف الأمر، لأن مباهلته تعني هلاكهم.

على هذا قرّ رأيهم.

وأصبح الصباح، وخرج المسلمون أجمع، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نادى مناديه في تلك الليلة: من أراد أن يشهد عزّ الإسلام، وذل النصرانية فليحضر صباحاً؛ وعند شروق الشمس خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وهو يقول لهم: إذا دعوت فأمّنوا، فلما رأته النصارى قال العاقب: لا تباهلوا الرجل فتهلكوا، والله إنّي لأرى وجوهاً لو أقسم على الله بها أن يزيل جبلاً عن مكانه لفعل.

وفجأة تغيّر الجو وبدت علائم العذاب.

فصاحوا بأجمعهم: يا أبا القاسم أقلنا أقالك الله، لا نباهلك، وصالحنا على جزية نؤديها إليك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والله لو باهلونا لاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولأحرق الله نجران وأهله.

صالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جزية يدفعونها له في كل سنة ألفي حلة، وألفي دينار، يدفعون نصفها في رجب، ونصفها في صفر.

إنّ هذا الحدث العظيم دليل على بطلان المسيحية، كما هو الوقت نفسه دليل على فضل علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وأنّهم أقرب المسلمين إلى الله تعالى منزلة لذا أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المباهلة بهم[1].

---

(١) أنظر الحادثة في جميع كتب التّفسير والحديث والسِّير.

وموضوع الختان

لقد مرّ عليك في صفحات الكتاب شطحات عظيمة للنصارى، وكبوات لا تغتفر، والسبب هو أنّ الأوائل حرّفوا الشريعة، وأسقطوا منها ما رأوا به ثقلاً، على المجتمع، ولأجل ان يكسبوا الدهماء، ومن هذه الشطحات ـ وما أكثرها ـ تركهم الختان وهو من الحنيفيّة التي بُعث بها إبراهيم عليه السلام [(١)] والتزم بها من جاء بعده من الأنبياء عليهم السلام .

إنّ المشركين مع بعدهم عن خطّ السماء احتفظوا ببقايا من الحنفيّة، كالختان، وغسل الجنابة. .

ويجيب الإمام البلاغي عن السبب الذي دعا رجال الدين المسيحيين إلى تغيير معالم الشريعة: فبعضهم إتّفقت مشورتهم لجلب الأمم إلى الخضوع لرئاستهم بأن يصانعوا أهواءهم ومألوفاتهم برفع الختان وسائر قيود الشريعة، ولم تكن لهم حجّة في مشورتهم في ذلك إلا استجلاب الأمم وترغيبهم إلى الإيمان بالمسيح، وأنّ موسى قد استوفى نصيبه من رئاسة الشريعة، لأنّ له من يكرز به في كل سبت[(٢)].

وقال عن الختان: إن الرسل ارتأوا في أمر الختان فرأوه عثرة في سبيل انقياد الأمم إلى رئاستهم، ووجدوا أن إبطاله مصدة للأمم، حتى بدا ذلك على فلتات الخامس عشر من الأعمال إذ ينقل عن يعقوب ما حاصله: استحسان التخفيف عن الأمم بإبطال شريعة الختان ترويجاً لأمر المسيح، لأنّ موسى له من يكرز له في كل سبت[(٣)].

---

(١) ذكر أهل السِّير والتَّفسير عن إبراهيم عليه السلام: ثمَّ أنزل عليه الحنيفيَّة وهي عشرة أشياء؛ خمسة في الرَّأس وخمسة في البدن. أمَّا الَّتي في الرَّأس: فأخذ الشَّارب وإعفاء اللّحى وطم الشَّعر والسواك والخلال؛ وأمَّا الَّتي في البدن: فحلق الشعر من البدن، والختان، وتقليم الأظافر والغسل من الجنابة والطّهور بالماء. تفسير القمي: ١/ ٨٢.

(٢) التَّوحيد والتَّثليث: ٤٢.

(٣) التَّوحيد والتَّثليث: ٨٢.

حسنات

تعوّدنا أن نستاء عندما تولد لنا ابنة، ونفرح بالولد، والقرآن الكريم يصوّر هذا الاستياء: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل/٥٨].

نحن نجهل ما هو الأصلح لنا والأحسن، فلا معنى للاستياء، بل يجب أن نستيقن أن ما يفعله الحكيم جلّ شأنه هو الأصلح لنا. ورد في التفاسير لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف/٨٠] أنهما أبدلا بالغلام المقتول جارية تزوّجها نبيٌّ من الأنبياء فولدت له نبيّاً هدى الله على يديه أمة من الأمم[١].

وأعظم من هذا فنسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ابنته الزهراء عليها السلام، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يقول لخديجة بنت خويلد رضوان الله عليها وهي حامل بها: أبشري يا خديجة، هذه بنت جعلها الله أم أحد عشر من خلفائي[٢].

وكذلك الحال في السيدة العذراء عليها السلام، فقد ولدت نبي الله المعظم، ورسوله إلى البشرية جمعاء.

واعلم أنّ هناك عطاء عظيم من الكريم جلّ جلاله لأجل البنت:

قال الإمام الصادق عليه السلام: البنات حسنات، والبنون نعم، والحسنات يُثاب عليها، والنعم يسأل عنها[٣].

وجاء عطاء فوق هذا:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنة..

---

(١) مجمع البيان: ٢/٤٨٨.
(٢) فاطمة من المهد إلى اللّحد: ٥٩.
(٣) ثواب الأعمال: ٢٠٢.

قيل: يا رسول الله واثنتين؟

قال: واثنتين.

قيل: يا رسول الله وواحدة؟

قال: وواحدة[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام من عال ابنتين أو أختين أو عمتين أو خالتين حجبتاه من النار[٢].

مكائد الشيطان

في الوقت الذي أقدّم للقراء الأعزاء هذا الحوار اطلب منهم التأمّل جيداً في ما وصل إليه الخبيث من المكر والخداع حتّى صار له طمع في أنبياء الله جل جلاله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

إذا علمت ذلك فتنبّه تماماً إلى الخطر المحدق بك، واحذر هذا العدو اللدود الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراه، وحاول أن تتلافى كل نقاط الضعف التي عندك، لأنّ مثله كمثل الجراثيم تهجم على نقاط الضعف من الجسم؛ وهو مع ما أوتي من قوّة وهيمنة لم يعطه الله جلّ جلاله السيطرة على أحد، بل أهو أشبه بقرين السوء، مهمّته أن يحبّذ لك المعصية ويزيّن لك السوء، وأكثر من هذا فهو إن لم تستجب لندائه في المرّة الأولى تركك إلى غير عودة؛ وهذا هو المراد من قول الصادقين عليهما السلام: أطرد الخبيث فإنّه لا يعود.

نعود للحوار.

عن ابن عباس، قال: لمّا مضى لعيسى عليه السلام ثلاثون سنة بعثه الله عزّ وجلّ إلى بني إسرائيل، فلقيه إبليس على عقبة بيت المقدس وهي عقبة أفيق، فقال له: يا عيسى عليه السلام أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أن تكوّنت من غير أب؟

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣١١.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣١١.

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل العظمة للذي كونني، وكذلك كوّن آدم وحواء.

قال إبليس: يا عيسى فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تكلّمت في المهد صبيّاً!

قال عيسى: يا إبليس بل العظمة للذي أنطقني في صغري، ولو شاء لأبكمني.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيصير طيراً؟

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل العظمة للذي خلقني وخلق ما سخّر لي.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تشفي المرضى؟

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل العظمة للذي بإذنه أشفيهم وإذا شاء أمرضني.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى؟

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل العظمة للذي بإذنه أحييهم، ولا بد من أن يميت ما أحييت ويميتني.

قال إبليس: يا عيسى فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تعبر البحر فلا تبتل قدماك ولا ترسخ فيه؟

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل العظمة للذي ذلّله لي، ولو شاء أغرقني، قال إبليس: يا عيسى فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّه سيأتي عليك يوم تكون السماوات والأرض ومن فيهن دونك وأنت فوق ذلك كلّه تدبر الأمر، وتقسّم الأرزاق، فأعظم عيسى ذلك من قول إبليس الكافر اللعين، فقال عيسى: سبحان الله ملء سماواته وأرضه، ومداد كلماته، وزنة عرشه، ورضا نفسه.

قال: فلما سمع إبليس (لعنه الله) ذلك ذهب على وجهه لا يملك من نفسه شيئاً حتى وقع في اللجّة الخضراء[1].

---

(١) أمالي الشَّيخ الصَّدوق: ١٧١.

وموضوع التأليه

لقد مرّ عليك في هذه الكتاب، مطامع الشيطان بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومحاولته في أن يستجيبوا ـ والعياذ بالله ـ إليه بعض الاستجابة، علماً منه بعظيم منزلتهم وقربهم من المولى جلّ جلاله، وطبيعي انَّ عمله أحكم، وسبله أقوى في إضلال سائر الناس، لهذا تجده جهد معهم حتّى عبدوا الأوثان والنيران من دون الله سبحانه وتعالى، ولم يكفه ذلك حتّى جاء إلى أهل الديانتين، ولم يدعهم حتى جعلوا لله البنين ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ **[التوبة/٣٠]** تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ومرّ عليك أنّ الشيطان يتدرّج بالعبد، ويخطو به خطوة بعد أخرى في المعصية، فمثلاً يجعل الشاب يُصاحب أصدقاء السوء **أولاً**، والخطوة الثانية أن يجلس معهم على الشراب، ثم يتذوّقه ليعرف طعمه، وأخيراً يصبح من السكيرين، وكذلك تدرّج مع بني إسرائيل، فقالوا أوّلاً بأنّه ابن الله، ثم قالوا: بل هو ثالث ثلاثة، ثم قالوا: بل هو الله؛ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، لقد شابهوا المشركين في عقائدهم، وهدموا كيان التوحيد الذي هو عماد الشريعة.

نعود للقرآن الكريم:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ **[المائدة/٧٢]**

وتراهم اختلفوا في النبي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بإفراط وتفريط، فبعضهم لم يكفه الإعراض عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكفر به حتّى بهته وأمّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رغم المعاجز الكثيرة التي شاهدوها من حين ولادته عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آخر ساعة كان فيها بين ظهرانيهم.

إنّ هذه المعاجز التي ظهرت على يديه صلوات الله وسلامه عليه لو شاهدها غيرهم لأسرع إلى الاستجابة لنداء السماء، ولكن بني إسرائيل لهم مزاج خاص في التعنّت والإعراض؛ وفريق آخر لم يهضموا دعوى التأليه له عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكنّهم ضمّوه للإله، وأنه ثالث ثلاثة، وهذا ما عليه الأكثرية منهم، والقسم الآخر ألّهوه وعبدوه من دون الله جلّ جلاله.

نعود للآية الكريمة:

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم**﴾ وهذا مذهب اليعقوبية منهم، لأنّهم قالوا: إنّ الله اتحد بالمسيح اتحاد الذات، فصار شيئاً واحداً، وصار الناسوت لاهوتا، وذلك قولهم: إنّه الإله ﴿**وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم**﴾ أي خالقي وخالقكم، ومالكي ومالككم، وإنّي وإيّاكم عبيده ﴿**إنّه من يشرك بالله**﴾ بأن يزعم أنّ غيره يستحق العبادة ﴿**فقد حرّم الله عليه الجنّة**﴾ معناه: فإنّ الله يمنعه الجنة ﴿**ومأواه**﴾ ومصيره ﴿**النار**﴾ وهذا كلّه إخبار من المسيح لقومه ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾ لا ناصر لهم يخلّصهم مما هم فيه من أنواع العذاب ﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة**﴾ والقائلون بهذه المقالة جمهور النصارى يقولون: ثلاثة أقانيم، جوهر واحد: أب، وابن، وروح القدس، إله واحد ﴿**وما من إله إلاّ إله واحد**﴾ ليس إله إلاّ إلهاً واحداً، وإنّما دخلت من للتوكيد ﴿**وإن لم ينتهوا عما يقولون**﴾ وإن لم يرجعوا ويتوبوا عمّا يقولون من القول بالتثليث، أقسم ﴿**ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم**﴾ وإنّما خصّ منهم الذين يستمرون على كفرهم لأنّه علم أنّ بعضهم يؤمن، وفي هذا تحذير من الجزاء ﴿**أفلا يتوبون إلى الله**﴾ قال الفراء: هذا أمر في لفظ الاستفهام كقوله: فهل أنتم منتهون، وقد يرد الأمر بلفظ الاستفهام، وإنّما دخلت إلى لأنّ معنى التوبة الرجوع إلى طاعة الله ﴿**ويستغفرونه**﴾ الاستغفار: طلب المغفرة بالدعاء ﴿**والله غفور رحيم**﴾ يغفر الذنوب ويسترها رحمة منه بعباده.

الإنجيل

قابل الإسرائيليون عيسى عليه السلام بالعنف رغم الآيات التي جاء بها.

إنّ الله جلّ جلاله أجرى على يديه بلسماً لاستصلاح دنياهم التي عكّر صفو العيش فيها انتشار العاهات والزمانات التي عجز الطب عن شفائها.

إنّهم يشاهدون البكم والبرص يمسحهم بيده المباركة، أو يأكلون من المائدة التي تنزل عليه من السماء فيبرؤون في اللحظة.

لقد كان المؤمّل أن تشدّهم مناظر الإعجاز للرسالة الجديدة، وتقرّبهم لنهج الحق والاستقامة، وتفتح قلوبهم لتعاليم السماء، لكن الذي حصل هو العكس من ذلك تماماً، فقد جنّدوا كل طاقاتهم ضد الرسالة والرسول حتى ألجأوه أن يهرب عنهم بتلاميذه القلّة (الحواريين) مستخفياً في أماكن نائية لا يُعرف بها.

وأكثر من هذا إنَّ البلوى عظمت من بعده، فقد تتبعوا أصحابه وكتابه المنزَّل (الإنجيل) بكل ما أوتوا من حول وقوّة.

إنّ الأناجيل الموجودة اليوم لم يكتبها التلاميذ فضلاً من أن تكون وحياً إلهياً، بل كتبتها أجيال متلاحقة بغير اللغة التي أنزلت بها.

يقول (ألفونس دينيه) ما نصه: إنّه لا شك في أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه، ولا شك أيضاً أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر، أو أنّه باد أو أُبيد، ولهذا جعلوا مكانه توليفات أربعاً مشكوكاً في صحّتها وفي نسبتها التاريخية، كما أنّها مكتوبة باللغة اليونانية، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغة ساميّة، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود، وانّ في الأناجيل ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل. . . ثم ساق الأمثلة على ما فيه من تهافت[(١)].

ويقول آرثر فندلاي في كتابه (الكون المنشور) ما نصه: إنّ الأناجيل لا تعتبر وثيقة تاريخية، فأوّلها والذي باسم مرقس كتب بطريقة مبسّطة حوالى سنة ٧٠ ميلادية، واقتفى أثره لوقا فيما بين سنة ٨٠ إلى سنة ٨٥، وحتّى حوالى سنة ١٠٠، وأمّا الإنجيل المنسوب إلى يوحنّا الذي أخرج سنة ١١٠ وليس له قيمة تستحق المناقشة، إذ ان محتوياته يعتقد أنها من نسج خيال كاتبه، ثم ترجمت الأناجيل بعد ذلك من اللغة الآرامية الشرقية إلى اللغة اليونانية، ثم إلى اللغة اللاتينية، فحدثت لذلك أخطاء كثيرة، إذ الكلمة الآرامية قد يكون لها ست أو سبع معانٍ مختلفة[(٢)].

ويقول الدكتور نصيف إسحاق في كتابه (قصّتي مع الروحيّة) وتحت عنوان

(١) كيف ولماذا: ٢٣.
(٢) كيف ولماذا: ٢٤.

(الكتاب المقدس): قصص غرامية ساقطة استنكف أن أذكرها في كتاب لي، فما بال العزّة الإلهية منبع الطهارة، وأصل النور والقداسة.

ويقول: إني وإن كنت لا أعترف بالكتاب المقدس ككتاب منزل من لدن عزيز حكيم إلاّ إنّني لا أرفضه ككتاب يحوي حكم الأقدمين، وبعض تواريخ صادقة، ولكنّي أرفض كل ما يناقض العقل، وآخذ ما فيه من الحقائق التي لا تتغيّر بتغيّر الزمن، إذ إنَّ نواميس الطبيعة هي أمس واليوم وإلى الأبد[١].

وتحدث الدكتور نصيف إسحاق عن آيات الكفارة والفداء فقال: هذه كلها آيات كتابية تؤيد ما تدعو إليه من إيمان بكفارة المسيح وفدائه وما إلى ذلك من المعتقدات الوثنية والتي توارثتها الكنيسة عمّا سبقها من أديان ظهرت في مختلف البلدان، وعلى ممر العصور، فقديماً كانت القبيلة تضحّي بشخص يقدّم نفسه ذبيحة حيّة فدية عن أفراد القبيلة، وذلك إرضاءً للآلهة، واتقاءً لغضبها، ومع تقدم الإنسان عقلياً أبدل تضحية الإنسان بذبح الحيوان، إنها الوثنية في ثوب المسيحية، فهذه لغة الإنسان الهمجي الذي يشترط سفك الدماء وإهراقها لضمان الكفّارة والغفران، وإلى غير ذلك من الخرافات، والفرق الوحيد هو أن فكرة الغفران نمت بنمو الأسرة الإنسانية، وبدل مخلّص قبيلة أو شعب أصبح مخلصاً للبشرية أجمع، والتاريخ طافح بأمثال أولئك المخلّصين الذين ظهروا في مختلف البلدان كـ (كر شنايسوس) بالهند، و(مترا) ببلاد العجم، و(أوزيريس) بمصر وقد بلغوا جميعاً خمسة عشر مخلّصاً، وكان الناصري السادس عشر، هؤلاء وغيرهم ألههم البشر، ونسبوا إليهم المعجزات، سواء في ولادتهم أو حياتهم، وحتى يوم مماتهم، وأخيراً جاء الناصري وكان ما كان بمجمع نيقية من احتدام ونقاش حول ألوهيته، وبأغلبية ضئيلة تغلّب الرأي المناصر فرفع إلى مصاف الآلهة، وبهذا القرار دفنت المسيحية الأولى في القبر الذي حفره لها هذا المجمع، فانعدمت تعاليم الناصري الطاهرة ليحلّ محلها تعاليم وخرافات الأديان السابقة[٢].

وهناك شيء آخر يؤكد على أنّ هذه الأناجيل المتداولة هي من صنع البشر،

---

(١) كيف ولماذا: ٢٥.
(٢) كيف ولماذا: ٢٩.

بعيدة عن روح الوحي هو كثرتها، فاختلط الصحيح منها بالسقيم، وضاع منها الإنجيل السماوي.

لقد جمع (فابري سيوس) العالم المسيحي أكثر من ٧٥ إنجيلاً وطبعها في ثلاث مجلّدات، ويذكر (كلمنس اسكندر يانوس) أن الأناجيل الأربعة المعروفة الآن أصبحت واجبة التسليم بها عند الكنيسة في أوّل القرن الثالث الميلادي، فأين الإنجيل الذي كان معمولاً به قبل ذلك؟ بل أين إنجيل سيدنا عيسى عليه السلام الذي ورد خبره في الأناجيل الأخرى[١].

وفي بحث تفصيلي لعبد الوهاب النجار عن الأناجيل قال: لم يكتب شيء في هذه الأناجيل في زمانه، ولكن بعد انتهاء أمر المسيح ـ بالخاتمة التي انتهى بها ـ قام بعض التلاميذ وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة، وكل واحد يسمّي ما كتبه إنجيلاً، حتى لقد قيل: إنّ الأناجيل بلغت نيفاً ومائة إنجيل.

وقال أيضاً: والأناجيل جميعها منقطعة السند، ولا توجد نسخة إنجيل تلميذ من تلاميذ ذلك المؤلف[٢].

وفصّل البحث رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) عن الأناجيل المتداولة، فقال:

١ ـ الإنجيل الذي ينسب إلى (متى) الآن هو أوّل الأناجيل وأقدمها عندهم، ليس من تصنيفه يقيناً، بل ضيّعوه من بعد ما حرّفوه لأنّ قدماء المسيحية كافة، وغير المحصورين من المتأخرين على أنّ إنجيل متى كان باللسان العبراني وهو ضاع وفقد بسبب تحريف بعض الفرق المسيحية، والإنجيل الموجود الآن ترجمته، ولا يوجد عندهم إسناد هذه الترجمة، حتى لا يُعلم اسم المترجم أيضاً باليقين إلى هذا الحين كما اعترف (جيروم) من أفاضل قدمائهم.

وجاء في كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) في صفحة ٢٠ الجزء الأول نقل أيضاً العالم «جرجس زوين الفتوحي اللبناني» في كتابه المطبوع سنة ١٨٧٣

(١) محمد رسولاً نبيّاً: ١٨٨.
(٢) قصص الأنبياء: ٣٩٩.

«في الأصل ١٣٧٨» في بيروت المترجم من اللغة الفرنسية إلى العربية أنّ «متى قد كتب بشارته أي إنجيله في أورشليم سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب إليه القدّيس «ابيقانوس» أنّه إمّا إجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح، أو إجابة لأمر الرسل، ولم يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرية على زعم «أوسيبوس» في تاريخه، وقد وافق «أوسيبوس» القدّيس «ايرونيموس» أنّ (بانتيوس) إذ كان قد ذهب ليكرس بالإيمان المسيحي في الهند، وجد إنجيلاً لمتّى الرسول مكتوباً بالعبرانية، فجاء به إلى الإسكندرية وبقي محفوظاً في مكتبة قيصر إلى أيّامه، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت وبعد فقدها ظهرت ترجمتها في اليونانية فلم يعرف الذي كان ترجمها، انتهى.

٢ ـ إنجيل مرقس:

قال بطرس قرماج في كتابه «مروج الأخبار في تراجم الأبرار» المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٠ ما ملخصه: أنّ مرقس هذا كان يهودياً لاويّاً، وهو تلميذ لبطرس، وُلد بإقليم «الخمس مدن» وصنّف إنجيله بطلب أهل رومية، وكان ينكر الهية المسيح، ولم يذكر في إنجيله مدح المسيح لبطرس، ومات مقتولاً في سجن الإسكندرية سنة ٦٨ ميلادية، قتله الوثنيّون ـ انتهى.

وقد اختلفت النصرانية في تاريخ تأليف إنجيله، قال صاحب كتاب «مرشد الطالبين» ولفظه في صفحة (١٧٠) أنّ إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصّرهم بخدعته. انتهى، راجع صفحة ٣١٦ من الجزء الأول من كتاب الفارق.

٣ ـ إنجيل لوقا:

لا يقل اختلاف النصارى في إنجيل لوقا عن اختلافهم في إنجيل متّى، وقد كان لوقا طبيباً من أهل أنطاكية، ولم ير المسيح أصلاً، وقد لُقّن النصرانية عن بولس، وبولس هذا كان يهوديّاً متعصّباً على المسيحيّة، ولم ير المسيح في حياته، وكان يسيء إلى النصارى إساءات متصلة، ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي، عمد عن طريق الحيلة إلى الدخول فيها، وأظهر الاعتقاد بالمسيح، وادعى أنّه صُرع وفي حالة صرعه لمسه المسيح وزجره عن الإساءة إلى متبعيه، ومن ذلك

الوقت آمن، وأرسله المسيح ليبشّر بإنجيله، وانطلت حيلته على الكنيسة، وهو الذي جعل النصارى يمرقون من واجبات الناموس الذي ما جاء لإبطال أحكامه ولكن جاء لتأييدها، فأباح لهم أكل الميتة، وشرب الخمر، وعلم بأنّ الإيمان وحده كافٍ بالنجاة بدون عمل. . . إلخ.

وكان تأليف لوقا إنجيله على أنه يراسل به «ثاوفيلس» ليؤكد له صحة الكلام الذي علم به.

وعبارته هي: ص١ ـ (١) إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا. (٢) كلما سلمها إلينا الذين كانوا من البدء معاينين وخدّاماً للكلمة (٣) رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأوّل بكل تدقيق أن أكتب إليك على التوالي أيها العزيز تاووفيلس. (٤) لتعرف صحة الكلام الذي سمعت به. اهـ.

قال في كتاب الفارق: «فتبيّن أنّ إنجيله ليس إلهامياً كما زعموا» وساق على ذلك أدلة خمسة من أقوال العلماء المسيحيين، تلخص في أن «مستر كدل» في رسالة الإلهام نص على أنّ إنجيل لوقا ليس إلهامياً استناداً إلى المقدّمة التي نقلناها. وتصريح «جيروم» بأن بعض القدماء كانوا يشكّون في البابين الأولين من هذا الإنجيل، وأنهما ما كانا في نسخة فرقة «مارسيوي» وجزم «اكهارن» في صفحة ٩٥ من كتابه أنّ من ف ٤٣ إلى ٤٧ من الباب ٢٢ من إنجيل لوقا الحامية ـ وأن «اكهارن» يقول في صفحة ٦١ من كتابه: قد اختلط الكذب الروائي ببيان المعجزات في هذا الزمان وقول «كلي» في شيس أنّ متى ومرقس يتخالفان في التحرير وإذا اتفقا ترجح قولهما على قول لوقا.

وليعلم أنّ «لوقا» أتى في إنجيله بزيادات عما ذكره «متّى» تبلغ نيفاً وعشرين محلاً بعضها معجزات وبعضها حكايات أخرى. وأما زيادته عن مرقس فكثيرة جداً.

٤ ـ إنجيل يوحنا:

يذهب كثير من المسيحيين إلى أنّ يوحنّا الإنجيلي هو يوحنا أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وأبوه «زبدي» الصيّاد. ولد في بيت صيدا من الجليل، وأنّه

هو الذي كان يحبّه عيسى جداً.

قال جرجس زوين الفتوحي اللبناني: إن (شيرينطوس) و«ايسون» وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلاّ إنساناً، وأنّه لم يكن قبل أمّه مريم، فلذلك في سنة ٩٦ اجتمعوا ـ أي عموم أساقفة آسيا وغيرهم ـ عند يوحنّا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح، وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم.

وقد اضطربت كلمة المسيحيين في السنة التي ألّف فيها إنجيل يوحنا، فمن قائل سنة ٦٥، ومن قائل سنة ٩٦، ومن قائل سنة ٩٨؛ وكثير من علماء النصرانية أنكروا أن يكون هذا الإنجيل من تأليف يوحنا التلميذ، فمن ذلك ما كتبه «ابستادلن» ونقله عنه صاحب كاثوليك هوالد في صفحة (٢٠٥) من المجلد السابع المطبوع سنة ١٨٤٤ ونصّه: «إنّ كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة المدرسة الإسكندرية».

وقال (برطشيندر): إنّ هذا الإنجيل كلّه وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنّفها أحد تلاميذه في ابتداء القرن الثاني ونسبه إلى يوحنا ليغتر به الناس.

وقال (كروتيس): كان هذا الإنجيل عشرين باباً فألحقت كنيسة (أفاس) الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا.

ومن ذلك نعلم أنّ الكتاب المذكور كتب لغرضٍ خاص هو إثبات إلهية المسيح، والقضاء على التعاليم التي تؤكد أنّه إنسان.

ولاختلاف مصنفي الأناجيل اختلفت مصنفاتهم، فبعضهم يذكر في إنجيله حالات أو عجائب لا يذكرها الآخر، أو يروي الخبر الواحد في إنجيل بعبارة تناقض بالزيادة أو النقص ما ذكره في الإنجيل الآخر، ثم ذكر التناقضات.

وذكر اختلاف الأناجيل الأربعة في موضوع صلب المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في كل جزئية من الموضوع.

وقال (الهر أرنست دي يونس) الألماني: إنّ جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات (بولس) ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح[1].

وثمة شيء آخر يدعو للتأمّل في هذه الأناجيل، ويقطع بأنها من صنع البشر هو الاختلاف في أهم نقطة منها، ألا وهو نسب المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففي إنجيل متّى إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الجد الأربعين لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتجده في إنجيل لوقا الجد الخامس والخمسين.

ومما يدعو الى الاستغراب أنّهم عثروا في الآونة الأخيرة على مخطوطة قديمة للإنجيل على ضفاف البحر الميت، فطبّلوا وزمروا، وعقدوا عليها الآمال العظام في تصحيح ما بأيديهم من الأناجيل، ولا أدري كيف يعملون لملايين منهم هلكت خلال العشرين قرناً، إنّها عاشت وماتت على هذه الأناجيل.

يقول (باول ديفز) رئيس كنيسة القديسين في واشنطن في كتابه (مخطوطات البحر الميت) ما نصه: إنّ مخطوطات البحر الميت وهو من أعظم الاكتشافات أهمية منذ قرون عديدة قد تغيّر الفهم التقليدي للإنجيل[2].

ويقول عنها (و. ف. البرايت) الحجّة في علم آثار الإنجيل ما نصه: تهانيّ على اكتشاف أعظم مخطوط وجد في العصر الحديث فوق هضبة بجوار البحر الميت وأنه لا يوجد أدنى شك في العالم حول صحّة هذا المخطوط، وسوف تعمل هذه الأوراق ثورة في فكرتنا عن المسيحية[3].

نماذج قليلة من التحريف

ومضافاً لما مرّ فهذه نماذج قليلة من التهافت إذا تأملتها ونحيت عنك العصبية تقطع بأنّ هذا الإنجيل من كلام البشر، وحاشا أن يكون من المنزّل على

---

(١) قصص الأنبياء للنّجار: ٤٠٢.
(٢) كيف ولماذا: ٢٦.
(٣) المصدر: ٢٦.

سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١ ـ في العدد العاشر من الفصل الرابع عشر من إنجيل يوحنا عن قول المسيح: الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلّم به من نفسي، لكن الأب الحال فيّ هو يعمل الأعمال.

٢ ـ وفي الفصل السابع عشر من إنجيل يوحنا عن لسان المسيح في شأن التلاميذ والمؤمنين: ٢١ ليكون الجميع واحداً كما أنّك أنت أيها الأب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم واحداً فينا، ٢٢ ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد، ٢٣ أنا فيهم وأنت فيّ.

وفي الفصل الثالث من الرسالة المنسوبة للرسول بولس إلى أهل غلاطية ما نصه: المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا، لأنّه مكتوب، ملعون كل من علّق على الخشبة.

٣ ـ وقال الدكتور موريس بوكاي:

ويغرق المرء دفعة واحدة عند فتح الأناجيل في نسب المسيح الذي يبدو من الصفحة الأولى في مشكلة مهمّة، هي أن نص متّى هو من هذه النقطة متناقض صراحة مع نص لوقا، وإنَّ هذا الأخير واضح التناقض مع المعارف الحديثة المتصلة بقدم الإنسان على الأرض[١].

وقال: ولقد كانت غاية الأناجيل تعريف الناس عن طريق رواية أفعال وأقوال عيسى، على التعليم الذي أراد أن يتركه لهم عندما أتمّ رسالته الأرضية، والمؤسف أنّ كتابها لم يكونوا شهود عيان للأفعال التي نقلوها، إنّها بكل بساطة التعبير عن كلمات أولئك المنقولة عنهم[٢].

ثم تابع حديثه عن الأناجيل وما فيها من تهافت، فقال: أما بالنسبة للأناجيل التي لا يستطيع أحد أن يؤكد أنّها تحوي دوماً الرواية الأمينة لكلمة المسيح، أو خبراً عن أفعاله مطابقاً للحقيقة، فقد رأينا الكتابات المتتابعة لنصوصها تثبت نقصان

(١) التَّوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ١٣.
(٢) المصدر: ٢١٥.

الأصالة الأكيد فيها، فضلاً عن أن كتّابها ليسوا شهود عيان. . .

أما وضع القرآن فإنه يختلف عن ذلك كثيراً، لأن الرسول والمؤمنين كانوا يحفظونه مع تتابع الوحي، ثم يكتبه في نفس الوقت الكتبة الذين كانوا حوله، وهكذا فقد توفّر للقرآن من البداية عنصرا الأصالة اللذان لم يكونا أبداً متوفرين للأناجيل.

وقال أيضاً:

يحتار كثير من قرّاء الإنجيل، بل ويقلقون عندما يتأمّلون معنى بعض القصص، أو عندما يقارنون بين مختلف الروايات للحادث الواحد الذي يجدونه في عدد من الأناجيل، وهو ما لاحظه الأب (روغيه) في كتابه (مدخل إلى الإنجيل) الذي استطاع فيه أن يقيس لدى مراسليه أهمية القلق المشار من تلاميذهم بحكم تجربته الكبرى التي أفاد بها عمله الذي شغله مدى سنين طويلة، مكلفاً بالإجابة في مجلة أسبوعية كاثوليكية على قراء الإنجيل، هؤلاء الذين أقلقتهم النصوص، لقد لاحظ أن طلبات الاستيضاح من محاوريه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية ثقافية متغايرة جداً تنصب على نصوص وجدت غامضة غير مفهومة، بل متضادة ومستحيلة ومضطربة[١].

وقال أيضاً:

ومنذ سنة ٧٠ حتى مرحلة هي قبيل سنة ١١٠ كما نحددها ظهرت أناجيل مرقس، ومتى، ولوقا، ويوحنا، فهي لا تمثل الوثائق الثابتة الأولى للمسيحية[٢].

وقال (تريكو) في شروح ترجمته للعهد الجديد: لقد كان العمل في زمن مبكّر، وفي مطلع القرن الثاني يتركز على ذكر الإنجيل للدلالة على الرسالات التي كان القديس (جيستان) نحو سنة ١٥٠ يسميها أيضاً (مذكرات الرسل)[٣].

وقال: إنّ النبذة العامة التي قدّمناها عن الأناجيل، والمنبثقة عن التحليل

---

(١) المصدر: ١٢٠.
(٢) المصدر: ٥٢.
(٣) المصدر: ٥٧.

النقدي للنصوص تكوّن لدينا صورة لأدب (غير مرتبط، مفتقر هيكله إلى حسن التتابع) كما (يبدو إنَّ ما فيه من تضاد غير قابل للتذليل) وهي عبارات الحكم المتخذ من مفسري الترجمة المسكونية للتوراة، والذي ينبغي الإستناد إليه[1].

ويقول الأب (بنوا): وإن بعض قرّاء هذا الكتاب سيندهشون أو سينزعجون عندما يعلمون أنّ كلمة المسيح تلك، أو أن ذلك الرمز، أو ذلك الخبر عن مصيره لم تكن ملفوظة كما نقرؤها نحن، بل إنها قد نقحت ثم كيفت من الذين نقلوها إلينا، أما بالنسبة إلى الذين لم يألفوا هذا النوع من البحث التاريخي فيمكن أن يكون هذا مصدراً للدهشة بل للفضيحة[2].

وقال الدكتور موريس بعد عرضه للتهافت: وخلاصة كل هذا إِنَّنا لدى قراءتنا الإنجيل لا نوقن بأننا نتلقى كلام عيسى، وأن الأب (بنوا) ليتوجه لقارىء الإنجيل ويحذره من ذلك، ويقدم له بديلاً فيقول: إذا كان لا بد لأحدنا من التخلّي عن سماع الصوت المباشر لعيسى في أكثر من حال، فإنه يسمع صوت لمعلم الكنيسة وثيق بها، وكأنّها تكلمنا في مجده بعد أن كلمنا قديماً عن الأرض[3].

وقال أيضاً: لقد رأينا قبل سنة ١٤٠ لم تكن قد وجدت بعد أية شهادة تثبت معرفة مجموعة من الكتابات الإنجيلية خلافاً لما يكتبه هذه الأيام بعض الشرّاح، ولم تكتسب الأناجيل الأربعة وصفها القانوني إلاّ بعد سنة ١٧٠[4].

وقال أيضاً: على أن غزارة الكتابة عن المسيح حملت الكنيسة وهي في مرحلة التنظيم على إجراء بعض الحذوفات، وربما كان ما حذف منها قريباً من مئة إنجيل، وأُبقي منها أربعة فقط دخلت في لائحة رسمية لكتابات العهد الجديد، وعرفت بأنّها (القانون)[5].

وتكلم الدكتور موريس طويلاً عن اختلاف الأناجيل في نسب عيسى عليه السلام

(١) المصدر: ٥٧.
(٢) المصدر: ٥٩.
(٣) المصدر: ٧٤.
(٤) المصدر: ٧٦.
(٥) المصدر: ٧٧.

وقال: في النسب الذي يسوقه لوقا بعد داود صاحب الرقم (٣٥) حتى عيسى ذي الرقم (٧٧) إثنان وأربعون اسماً متتالية، وفي النسب الذي يسوقه متى سبعة وعشرون اسماً مذكورة بالتتابع بعد داود ذي الرقم (١٤) حتى عيسى ذي الرقم (٤١) فعدد أجداد عيسى المفترضين مختلف فيه إذن فيما يسبق داود في كلا الإنجيلين، بل إن الأسماء نفسها مختلفة[1].

وقال: يعطي الكاردينال (دانييلو) في كتابه أناجيل الطفولة (١٩٦٧) (شجرة النسب المرقمة) عند متّى قيمة رمزية ذات أهمية من الدرجة الأولى، لأنها هي التي مكنت سلالة عيسى المثبتة أيضاً من لوقا، ومتّى ولوقا هما بالنسبة إليه (مؤرخان) وصنعا (لحنهما التاريخي) حال كون (النسب) (مأخوذاً من محفوظات عائلة المسيح) التي هي على التأكيد مفقودة تماماً[2].

وقال: ولعل أنساب عيسى في الإنجيل هي الموضوع الأهم الذي أثار بهلوانيّات الشرّاح المسيحيين الفلسفية البارزة بنسبة تصرفات لوقا ومتّى المستندة إلى الهوى[3].

وقال: على أن ثمة عدداً من الأحداث رويت مختلفة، بل ومختلفة جداً أحياناً من إنجيلين أو أكثر، وغالباً ما تكون دهشة المسيحيين من هذه التضادات ـ عندما يعثرون عليها ـ بين الأناجيل، لأنه تأكد على مسامعهم التأكيد القوي بأنّ كتابها كانوا شهود عيان لها.

وتحدّث طويلاً عن اختلاف الأناجيل في ظهور المسيح عليه السلام وقال: ويؤكد أن الأب (روغيه) عن هذا الظهور المتكرر في كتابه فيقول: إنّ هذا التفكك وعدم الترابط والخليط المشوش جعله يثق بأنّ كل هذه الوقائع تبرهن بأن الإنجيليين لم يتشاوروا في ذلك مسبقاً.

وختم الدكتور موريس بحثه عن الأناجيل وقيمتها العلمية فقال: إننا مسوقون

(١) المصدر: ٧٨.
(٢) المصدر: ٩١.
(٣) المصدر: ٩٢.

لمقارنة الأناجيل بالقصائد القديمة التي تمتدح فيها بطولات الفرسان في أدب القرون الوسطى، كأنشودة رولان التي هي أشهرها، والتي تقص علينا بأسلوب قصصي حادثاً حقيقياً، فهل نعلم أنّها تقص علينا حادثاً أصيلاً، وهو عبارة عن كمين تأذت منه مؤخرة شارلمان التي كانت بقيادة رولان في مضيق لاونسوفو. . . والأمر كذلك بالنسبة الى الأناجيل، فإساءة متّى استخدام الوقائع العجيبة، والتضادات البارزة بين الأناجيل، والمستحيلات فيها، والتناقضات مع معطيات العلم الحديث، فغير النصوص المتتابعة، كل ذلك جعل الفكر يذهب على أنّ الأناجيل تحوي فصولاً ومقاطع ناشئة من مجرد الخيال الإنساني.

وتحدث الدكتور موريس عن إنجيل (متى): هذه اعتبارات وحدها تضع أصل إنجيل متى في تقليد لجماعة يهودية مسيحية كما كتب (كولمان): إنّه يجتهد ويحافظ على الاستمرارية للعهد القديم.

وقال موريس في إنجيل مرقس: إنّه أقصر الأناجيل الأربعة وأقدمها ولكنه ليس كتاب رسول، وكل ما فيه أنّه كتاب محرّر من تلميذ رسول.

وقال: ولقد خلص بعد زمن متأخر، وبعد أن انتشرت الكتابات المتقاربة لمتّى ولوقا ويوحنا إلى نتيجة هامة عن مرقس بأنه يأخذ المواد من يمين وشمال لدى الإنجيليين الآخرين.

وقال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: ومن الطريف أنّ إنجيل السَّيِّد المسيح عليه السلام قد أولد بعد أن فقد عشرات الأناجيل، حتى تجاوز عددها الخمسين. . . وفي سنة ٣٢٥ اجتمع رؤساء النصارى وأقروا ٤ أناجيل، مع أن عيسى نزل عليه إنجيل واحد فقط لا غير بإتفاق النصارى، فما الذي جعل الواحد أربعة؟ ولو أقروا ثلاثة أناجيل لقلنا: لكل أقنوم إنجيل. .

ولا شيء أدل على أن هذه الأناجيل من رجال الكنيسة لا من المسيح أنها تحدثت عن صلبه ودفنه وخروجه من القبر، وصعوده الى السماء، واختتام حياته على الأرض، فهل نزل عليه الوحي بعد أن صُلب ودُفن؟ وإذا أمكن ذلك فهل من الممكن في حكم العقل والواقع أن ينزل عليه الوحي الذي دوّن من الإنجيل بعد أن صعد الى السماء، واختتم حياته على الأرض.

ثم أخذ يورد الأدلة على أن الإنجيل من صنع البشر لا من صنع السماء.

فقال: في العديد من كتبهم العربية والأجنبية، فمن الكتب العربية قاموس الكتاب المقدس، الذي اشترك في وضعه ٢٧ عالماً، فلقد جاء في مادة (يوشيا) من هذا الكتاب ما نصه بالحرف: (مما لا شك فيه أن معظم الأسفار المقدسة أتلف أو فقد في عصر الإرتداد عن الله والاضطهاد).

وفي (أسفار): (هناك رأي يقول): إنّ الذي أضفى صفة القانون على أسفار العهد القديم هم كتّاب الأسفار أنفسهم، ورأي آخر يقول: هم الكتّاب المقودون أي المؤيدون بالروح القدس، ومعهم قادة الدين من اليهود والمسيحيين الذين قبلوا هذه الأسفار بإرشاد الروح القدس أيضاً.

وهذا اعتراف لا يقبل الشك بأن الأسفار الأصلية فقدت، وأن جماعة قد كتبوا ما كتبوا أسفار، وأضافوا إليها صفة القداسة من عند أنفسهم على قول، وبتأييد روح القدس على قول آخر، وسواء أخذنا بالقول الأول أم الثاني فالنتيجة واحدة، وهي الاعتراف القاطع بأنّ الأسفار الموجودة الآن ما هي بأسفار موسى وعيسى، لأن هذه قد فقدت، وحلّ محلها أسفار جديدة كتبها الذين زعموا لأنفسهم أو زعمها لهم قوم آخرون.

وقال الاستاذ عبد الرؤوف المصري في الأناجيل المتداولة:

إنجيل مرقص: كتب بعد سبعين سنة، من وفاة السيد المسيح، وجمع هذا الانجيل من الرواة الذين عاصروه أو عاصروا اتباعه؛ ومادته قليلة، يبدأ بقصة (يوحنا المعمدان) ثم تجوّلات السيد المسيح وأيامه الأخيرة.

إنجيل متّى: كتب في أواخر القرن الأول، مادته تزيد على مادة إنجيل مرقص، يأتي بأقوال المسيح منسّقة بالأسلوب الأدبي لذلك العصر، وهو يعد قطعة فنية، ثم يتكلّم عن نسب المسيح وأيامه الأخيرة.

إنجيل لوقا: كتبه كاتبه في أوائل القرن الثاني، وثلثا مادته جديدة، لا يوجد مثله في الأناجيل الأخرى غير مرقص، فإنّه استعان به.

إنجيل يوحنا: وهو يعد بذرة الفلسفة المسيحية، ومادته تخالف بعض ما جاء

في الأناجيل الأخرى، كُتب قسم منه في ثلث القرن الثاني، ولكنه لم تتم كتابة أجزائه الاخرى إلاّ في فترات متأخرة من القرن الثاني.

وقال: وأقول لك أيها القارىء: عليك أن ترجع الى دائرة المعارف البريطانية، في الجزء السابع عشر صفحة ٨٩٨ فهي تدلك على تحريف واسع في الأناجيل، وعما لا يوجد في أقدم النسخ.

ونقل عن العلامة ج. د. دميلو، المسيحي اللاهوتي في تفسيره المشهور أنّه يقول بالتحريف، ونقل عن القس نلس الدانمركي في رسالته الثانية سنة ١٩٢٧: بأنّ النسخ القديمة للأناجيل الأربعة الموجودة اليوم، والتي تأريخها القرن الرابع بعد المسيح كانت قد ضاعت، وبقيت مدة طويلة غير معروفة حتى لعبت بها أيدي الناس.

النصارى

١ ـ الميثاق

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ [المائدة/ ١٤].

والميثاق الذي أخذه الله جلّ جلاله على اليهود من الإيمان به وبرسله أخذه على النصارى ايضاً، ولكنهم نقضوه، بل إنّهم خالفوا سنن العقل بتأليه نبيّهم، فعاقبهم الله سبحانه بالدنيا بالعداوة والبغضاء فيما بينهم، وما يستلزم ذلك من القتل وغيره، مع الذي أعدّه لهم في الآخرة من العذاب والهوان.

ومعنى الآية الكريمة: ومن الذين ذكروا أنّهم نصارى أخذنا منهم الميثاق بالتوحيد، والإقرار بنبوّة المسيح، وجميع أنبياء الله، وأنّهم كانوا عبيداً لله، فنقضوا هذا الميثاق وأعرضوا عنه، وهذه إشارة إلى أنهم ابتدعوا النصرانية التي هم عليها اليوم وتسمّوا بها **﴿فنسوا حظّاً مما ذكّروا به﴾** تركوا نصيباً مما وعظوا به، وما أمروا به في كتابهم من اتباع النبي، فصار كالمنسي عندهم، ولو آمنوا به واتبعوه لكان ذلك حظاً **﴿ولا تزال تطّلع على خائنة منهم﴾** يعني على كذب وزور، ونقض عهد، ومظاهرة للمشركين على رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما كان يظهر من اليهود من أنواع الخيانات **﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء﴾** بين أصناف النصارى خاصة، من اليعقوبية والملكائية والنسطورية من الخلاف والعداوة، وإنما أغرى بينهم العداوة بالأهواء المختلفة في الدين، وذلك أن النسطورية قالت: إنّ عيسى ابن الله، واليعقوبية قالت: إن الله هو المسيح بن مريم، والملكائيّة وهم الروم قالوا:

إن الله ثالث ثلاثة: الله وعيسى ومريم ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ عنى به المعاداة تبقى بينهم الى يوم القيامة ﴿**وسوف ينبّئهم الله**﴾ عند المحاسبة ﴿**بما كانوا يصنعون**﴾ في الدنيا من نقض الميثاق، ويعاقبهم على ذلك حسب استحقاقهم.

٢ ـ أقربهم مودة

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[المائدة/ ٨٢].

هلمّوا إليّ يا اخوتي، واتركوا الشيطان وسبله، لقد لزمتكم الحجّة بالقرآن الكريم، إنّ العناد يورد العبد النار.

إن هذه الآية الكريمة التي تقص علينا تقبّل سلف صالح منكم الإسلام هي نفسها تطلب منكم اليوم التديّن بدين الإسلام لتسعدوا سعادة ليس بعدها شقاء، وقد مرّ عليكم آنفاً موضوع الميثاق ـ العهد ـ الذي أُخذ عليكم مسبقاً من الإيمان بمحمد ﷺ ورسالته.

نعود للآية الكريمة:

﴿**ولتجدن...**﴾ هم وفد النجاشي ملك الحبشة الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب سلام الله عليه الى المدينة مسلمين ﴿**وذلك بأن منهم**﴾ من النصارى ﴿**قسيسين**﴾ علماء ﴿**ورهباناً**﴾ أصحاب صوامع ﴿**وأنّهم لا يستكبرون**﴾ إنّ هؤلاء النصارى الذين آمنوا لا يستكبرون عن اتباع الحق، والانقياد له، كما استكبر اليهود وعبّاد الأوثان، وأنفوا عن قبول الحق ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول**﴾ من القرآن الكريم ﴿**ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾ لمعرفتهم بأنّ المتلو عليهم كلام الله، وأنّه حق ﴿**يقولون ربّنا آمنا**﴾ صدّقنا بأنّه كلامك، أنزلته على نبيّك ﴿**فاكتبنا**﴾ في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ ﴿**مع الشاهدين**﴾ مع محمد وأمّته الذين يشهدون بالحق ﴿**وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق**﴾ لأي عذر لا نؤمن بالله؟ وهذا جواب لمن قال لهم من قومهم تعنيفاً لهم: لِمَ آمنتم؟ والحق: هو القرآن الكريم والإسلام ﴿**ونطمع**﴾ نرجو ونأمل ﴿**أن يدخلنا ربّنا**﴾ في

الجنّة لإيماننا بالحق ﴿**مع القوم الصالحين**﴾ المؤمنين من أمّة محمد ﴿**فأثابهم**﴾ جازاهم ﴿**الله بما قالوا**﴾ بالتوحيد ﴿**جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ لو لم يكن من نعيم الجنة إلاّ الخلود بها لكفى بذلك نعيماً وملكاً عظيماً ﴿**وذلك جزاء المحسنين**﴾ المؤمنين ﴿**والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾ لما ذكر سبحانه الوعد لمؤمنيهم ذكر الوعيد لمن كفر منهم وكذّب، وأطلق اللفظ به ليكون لهم ولمن جرى مجراهم في الكفر والتكذيب.

وتبيّن لنا من الآية الكريمة أنّ النصارى ألين عريكة، وأقل عداوة، وأقرب للتقوى، والقرآن الكريم يعزو هذا التقارب إلى أمور:

١ ـ وجود القسيسين والرهبان، وأنّهم على جانب من الدين، وأنّهم كانوا يفيضون بعض الخير على الأتباع، فيرشدونهم ويهذبونهم.

٢ ـ بعدهم عن الكبرياء التي تميّز بها اليهود، والتي تجلّت بقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإنّهم شعب الله المختار، ولعمري إنّ هذه الخصلة ـ أعني الكبرياء ـ أينما حلّت حالت بين الإنسان والقرب من الله جلّ جلاله.

٣ ـ وهم أيضاً على جانب من رقّة القلب، يفصح عن ذلك بكاؤهم حين سماعهم للقرآن الكريم.

وجدير بالشعب المسيحي اليوم أن يستجيب للقرآن الكريم، اقتداء منهم بسلفهم الصالح، وبعد هذا الزمن الطويل الذي تحدّى فيه القرآن العالم بأسره على أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وبعدما ظهر لهم من إعجازه الذي وافق أحدث النظريات العلمية، والله الهادي للصواب.

من مستطرفات الردود

لأعلام المسلمين الكثير من الردود والحجج على أهل الديانتين، يكفي من ذلك كتب الإمام البلاغي التي لم تبق لهم بقيّة.

وذكر الشيخ الأقدم أبو الفتح الكراجكي في كتابه الرائع (كنز الفوائد) طرائف علمية في نقض الديانة المسيحية أحببنا ذكر بعضها، قال:

بيان عن قول النصارى ومسألة عليهم لا جواب لها عنها:

إعلم أنهم يزعمون أنّ المسيح عليه السلام مجموع من شيئين؛ لاهوت وناسوت، يعنون باللاهوت الله سبحانه وتعالى عما يقولون، وبالناسوت الإنسان، وهو جسم المسيح، إنّ هذين اتحدا فصارا مسيحاً.

ومعنى قولهم اتحدا أي صارا شيئاً واحداً في الحقيقة، وهو المسيح فيقال لهم: أنتم مجمعون معنا على أن الإله قديم، وأن الجسم محدث، وقد زعمتم أنهما صارا واحداً، فما حال الواحد أقديم أم محدث؟ فإن قالوا: هو قديم.

قيل لهم: فقد صار المحدث قديماً، لأنه من مجموع شيئين: أحدهما محدث، وإن قالوا: هو محدث.

قيل لهم: فقد صار القديم محدثاً، لأنه من مجموع شيئين أحدهما قديم، وهذا ما لا حيلة لهم فيه، وليس يتسع لهم أن يقولوا: بعضه قديم، وبعضه محدث، لأن هذا ليس باتحاد في الحقيقة، ولا أن يقولوا: هو قديم محدث لتناقض ذلك واستحالته، ولا أن يقولوا: ليس هو قديم ولا محدث، فظاهر فساد ذلك ايضاً وبطلانه.

وهذا كاف في إبطال الاتحاد الذي ادعوه، وقد سألهم بعض المتكلمين فقال: إذا كنتم تعبدون المسيح، والمسيح إله وإنسان، فقد عبدتم الإنسان، وعبادة الإنسان كفر بغير اختلاف.

مسألة أخرى عليهم

قال لهم: إذا كان المسيح عندكم من مجموع شيئين: إله وإنسان، فأخبرونا عن القتل والصلب على ماذا وقع؟ أتقولون إنّه وقع لهما أم بأحدهما؟ فإن قالوا بهما، قيل لهم: ففي هذا إنَّ الإله ضُرب وصُلب ودفن، وهي فضيحة لا ينتهي إليها ذو عقل.

وإن قالوا: بل وقع ذلك على أحدهما وهو الناسوت، لأن اللاهوت لا يجوز عليه هذا.

قيل لهم: فإذا قد صحّ مذهب المسلمين في أنّهم ما قتلوا المسيح وما صلبوه، لأن المسيح عندكم ليس هو الناسوت بانفراده، وإنما هو مجموع شيئين لم يظفر اليهود إلاّ بأحدهما الذي ليس هو المسيح.

مسألة أخرى عليهم

يقال لهم: أيجوز أن يكون جسم متحرك، وشخص آكل شارب، تحلّه الأعراض الحادثات، وتناله الآلام والآفات قديماً.

فإن قالوا: يجوز ذلك، لم يأمنوا أن يكون ناسوتاً قديماً، وإن قالوا: لا يجوز ذلك.

قيل لهم: فالمسيح عليه السلام كانت فيه هذه الصفات معلومات مرئيات، فإن أنكروا ذلك كابروا وقبح معهم الكلام، وإن أقروا به وقالوا: قد كان على هذه الصفات.

قيل لهم: فقد صحّ حدوثه، وبطل قدمه، وحصلتم عابدين لبشر مخلوق مربوب.

فإن قالوا: إنما رأينا ناسوته المحدث، ولم نر لاهوته القديم، قيل لهم: أوليس من مذهبكم أنّهما اتحدا وصارا شيئاً واحداً؟

فإذا قالوا: نعم.

قيل لهم: فيجب أن يكون من رأى أحدهما فقد رآهما. وإن لم يكن الأمر كذلك فما اتحدا.

فصل آخر من قولهم، وكلام عليهم

هم يذهبون إلى أن إلههم من ثلاثة أقانيم، والأقنوم عندهم هو الجوهر، يعنون الأصل، فالثلاثة الجواهر عندهم إله واحد، ويسمون هذه الثلاثة: الأب والإبن والروح.

فيقال لهم: إذا جاز أن يكون عندكم ثلاثة أقانيم إلهاً واحداً، فلم لا يجوز أن يكون ثلاثة آلهة أقيوماً واحداً، ويكون ثلاثة فاعلين جوهراً واحداً، فما أبطلوا به هذا بطل به قولهم سواء.

أهل الكتاب

تجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدّث عن أهل الكتاب، والتحذير منهم، وبيان عداوتهم وكيدهم للمسلمين؛ والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وفي هذا الفصل بعض ما جاء من ذلك:

١ ـ أماني الضلال

١ ـ ﴿ وَدَّت طَّآيِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران/٦٩].

حذّر سبحانه وتعالى المسلمين من مكائد أهل الكتاب وأساليبهم التي يستعملونها معهم، وأنّهم يتوخون ويودّون أن يضلّوهم ويفتنوهم عن دينهم، نعود للآية الكريمة ﴿**ودّت**﴾ تمنّت ﴿**طائفة**﴾ جماعة ﴿**من أهل الكتاب**﴾ من اليهود والنصارى ﴿**لو يضلّونكم**﴾ يهلكونكم بإدخالكم في الضلال، ودعائهم إليه ﴿**وما يضلّون إلاّ أنفسهم**﴾ لا يرجع وبال إضلالهم إلاّ على أنفسهم، ولا يلحق ضرره إلاّ بهم، فإنّ المسلمين لا يجيبونهم إلى ما يدعونهم إليه من ترك الإسلام إلى غيره من الأديان، فيبقى عليهم إثم الكفر، وإثم الدعاء إلى الكفر ﴿**وما يشعرون**﴾ وما يعلمون أنّ وبال ذلك يعود إليهم.

وهذا الذي ذكره سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب هو شأن فرق الضلال، وأصدقاء السوء، ومن جبلوا على الرذيلة والفسادة فهم يودّون أن يكون الجميع معهم حبّاً منهم للشر، ولكي يخف اللوم عليهم إذا كثر أتباعهم ومن على شاكلتهم.

٢ ـ الميثاق

٢ ـ ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ **[آل عمران/١٨٧]**.

وخط السماء أن يبشّر الأنبياء عليهم السلام المتقدّم منهم بالمتأخّر، ويهيىء المجتمع للتقبّل منه، وأزيدك علماً إنَّ الأنبياء عليهم السلام كلّهم كانوا يبشّرون أممهم بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، وفي عهد موسى عليه السلام جاء التأكيد على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذلك في الكتابين التوراة والانجيل قبل التحريف مضافا إلى تبشير النبيين العظيمين موسى وعيسى عليهما السلام به صلى الله عليه وآله وسلم في كل ناد ومحفل ومنتدى ومجمع، وهذا ما سماه القرآن الكريم بالميثاق.

نعود للآية الكريمة

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ الميثاق الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو الإيمان المؤكّد الذي أخذه عليهم أنبياؤهم على الإخلاص في التوحيد، والعمل بما أمر الله جلّ جلاله به، والانتهاء عما نهى عنه، والتصديق برسله، والبشارة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين أوتوا الكتاب: هم اليهود والنصارى **﴿لتبيننه للناس﴾** لتظهرنّه للناس، والهاء عائدة إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ في كتابهم أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ الدين هو الإسلام **﴿ولا تكتمونه﴾** ولا تخفونه **﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾** ضيّعوه وتركوه وراء ظهورهم فلم يعملوا به **﴿واشتروا به ثمناً قليلاً﴾** استبدلوا بعهد الله وميثاقه عوضاً يسيراً من حطام الدنيا، يعني ما حصلوه لأنفسهم من المأكلة والرشا والهدايا التي أخذوها **﴿فبئس ما يشترون﴾** بئس الشيء ذلك إذ يستحقون به العذاب الأليم، وإن كان نفعاً عاجلاً.

٣ ـ الغلو

٣ ـ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ **[النساء/١٧١]**.

ومشكلة الغلو هي المشكلة العظمى التي واجهت البشرية، فغلوّ في الحب يخرج بالإنسان عن الاستقامة، وغلوّ في البغض يخرجه كذلك؛ وبالنسبة لنبيٍّ الله عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فغلوّ النصارى تجسد في تأليهه، وغلوّ اليهود في الطعن فيه، والسعي لقتله.

ولقد سرى الغلو إلى المسلمين أيضاً، فنفر لما رأوا معاجز الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وكراماته على الله جلّ جلاله ألّهوه فحرقهم صلوات الله عليهم، وقد يكون لهم بقايا حتّى اليوم، وقوم واكبوا فريق المعارضة للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمنحرفين عنه حتى زادوا عليهم في البغض ونسوا مواقفه بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في نصرة الإسلام، ومنزلته عنده، وما نزل فيه من آي من الذكر الحكيم، وما رواه جميع فرق المسلمين في فضله عن الصادق الأمين، ولعلّ للقوم بقيّة حتّى اليوم، وهذا الذي حصل مصداق للحديث النبوي الشريف: «يكون في هذه الأمة كلّما كان في بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، والقذّة بالقذّة».

وفي الوقت الذي نقرأ هذه الآية الكريمة، وما جاء فيها من نهي عن مفارقة جادة الحق والصواب ندعو الجميع إلى الاستقامة، ومجانبة سبل الشيطان وكيده.

إنّ غلوهم في السيّد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقولهم بألوهيته ـ وهو قول جمهورهم منذ اليوم الأوّل وحتّى اليوم ـ مستندين على ما ظهر له عَلَيْهِ السَّلَامُ من معاجز.

ذكر الشيخ رشيد الدين رضوان الله عليه مناظرة جرت بين الإمام علي بن موسى الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ وعالمهم في ذلك الوقت:

فقال: والله ما زال عيسى صائم النهار، قائم الليل.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: لمن كان يصلّي ويصوم؟

فخرس.

وقال الجاثليق: إنّ من أحيىٰ الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص مستحق أن يُعبد.

فقال الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: وإنّ اليسع صنع ما صنع عيسى، مشى على الماء، وأبرأ الأكمه والأبرص، وحزقيل أحيىٰ خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم

بستين سنة، وقوم من بني إسرائيل خرجوا من بلادهم من الطاعون وهم ألوف حذر الموت فأماتهم الله في ساعة واحدة، فأوحى الله إلى نبيٍّ مرَّ على عظامهم بعد سنين أن نادهم، فقال: أيتها العظام البالية قومي بإذن الله، فقاموا، وذكر عليه السلام حديث إبراهيم عليه السلام وذبحه للطيور ﴿**قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾ [**البقرة/٢٦٠**].

والذين خرجوا مع موسى عليه السلام فأحرقوا بصاعقة ثم أحياهم عليه السلام. ثم قال: والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان قد نطقت به، فإن كان من أحيا الموتى يتخذ ربّاً من دون الله فاتخذوا هؤلاء كلهم أرباباً. فأسلم الرجل.

نعود للآية الكريمة:

﴿**يا أهل الكتاب**﴾ خطاب لليهود والنصارى، لأنّ النصارى غلت في المسيح فقالت: هو ابن الله، وبعضهم قال: هو الله، وبعضهم قال: هو ثالث ثلاثة: الأب، والإبن، وروح القدس. واليهود غلت فيه حتى قالوا: ولد لغير رشدة، فالغلو لازم الفريقين ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ لا تفرطوا في دينكم، ولا تجاوزوا الحقَّ فيه ﴿**ولا تقولوا على الله إلاّ الحق**﴾ أي قولوا: إنّه جلّ جلاله واحد لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولداً، ولا تقولوا في عيسى: إنه ابن الله أو شبهه، فإنّه قول بغير الحق ﴿**إنّما المسيح**﴾ سمّي بذلك لأنّه كان يمسح على الأكمه والأبرص فيبرأ ﴿**عيسى بن مريم**﴾ يعني أنّه ابن مريم لا ابن الله كما يزعمه النصارى، ولا ابن أب كما تزعمه اليهود ﴿**رسول الله**﴾ أرسله الله إلى الخلق ﴿**وكلمته**﴾ يعني أنّه حصل بكلمته التي هي قوله كن فيكون ﴿**ألقاها إلى مريم**﴾ خلقها في رحمها ﴿**وروح منه**﴾ إنسان أحياه الله بتكوينه بلا واسطة من جماع أو نطفة كما جرت العادة بذلك ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ أمرهم الله بتصديقه، والإقرار بوحدانيته، وتصديق رسله فيما جاءوا به من عنده، وفيما أخبروهم به من أن الله سبحانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾ هذا خطاب للنصارى؛ ومعناه: لا تقولوا الله ثلاثة: أب، وابن، وروح القدس ﴿**انتهوا**﴾ عن هذه المقالة الشنيعة وامتنعوا عنها ﴿**خيراً لكم**﴾ بالانتهاء عن قولكم خير لكم مما تقولون ﴿**إنّما الله إله واحد**﴾ ليس كما تقولون إنّه ثالث ثلاثة، لا صاحبة له ولا شريك. ثم نزّه نفسه عما يقوله المبطلون

﴿**سبحانه أن يكون له ولد**﴾ ولفظة سبحانه تفيد التنزيه عما لا يليق به، أي هو منزّه عن أن يكون له ولد ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ مُلكاً ومِلكاً وخلقاً، وهو يملكهما وله التصرّف فيهما وفيما بينهما، ومن جملة ذلك عيسى وأمّه، فكيف يكون المملوك والمخلوق ابناً للمالك والخالق ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ وكفى بالله حافظاً لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها ﴿**لن يستنكف**﴾ لن يأنف، ولم يمتنع ﴿**المسيح**﴾ يعني عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ﴿**أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون**﴾ ولا الملائكة المقرّبون يأنفون ويستكبرون عن الإقرار بعبوديته، والإذعان له بذلك ﴿**ومن يستنكف عن عبادته**﴾ من يأنف عن عبادته ﴿**ويستكبر**﴾ يتعظّم بترك الإذعان لطاعته ﴿**فسيحشرهم**﴾ فسيبعثهم ﴿**إليه**﴾ يوم القيامة ﴿**جميعاً**﴾ يجمعهم لموعدهم عنده، ومعنى قوله: إليه: أي الموضع الذي لا يملك التصرّف فيه سواه ﴿**فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم**﴾ يؤتيهم جزاء أعمالهم ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ يزيدهم على ما كان وعدهم به من الجزاء على أعمالهم الحسنة، والثواب عليها ما لم يعرفهم مبلغه، لأنّه وعد على الحسنة عشر أمثالها من الثواب إلى سبعين ضعفاً، وإلى سبعمائة، وإلى الأضعاف الكثيرة، والزيادة تفضّل من الله تعالى عليهم ﴿**وأمّا الذين استنكفوا**﴾ انفوا عن الإقرار بوحدانيته ﴿**واستكبروا**﴾ تعظّموا عن الإذعان له بالطاعة والعبودية ﴿**فيعذّبهم عذاباً أليماً**﴾ مؤلماً موجعاً ﴿**ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾ ولا يجد المستنكفون والمستكبرون لأنفسهم وليّاً ينجيهم من عذابه، وناصراً ينقذهم من عقابه.

٤ ـ يظهر ما تخفون

٤ ـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ **[المائدة/١٥]**.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أخذه على أهل الديانتين من الميثاق والعهد بالإيمان به، والتصديق بأنبيائه، والعمل بشرائعه، ذكر إعراضهم عن ذلك، ثم ذكر سبحانه ما أخذهم به من العذاب الدنيوي والأخروي، ثم دعاهم في هذه الآية الكريمة إلى الاستجابة لنداء الحق، والعودة إلى منهج الرشاد.

نعود للآية الكريمة:

﴿**يا أهل الكتاب**﴾ يخاطب اليهود والنصارى ﴿**قد جاءكم رسولنا**﴾ محمد ﷺ ﴿**يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب**﴾ يعني ما بيّنه ﷺ من رجم الزناة، وأشياء كثيرة كانوا يحرّفونها من كتابهم بسوء التأويل ﴿**ويعفو عن كثير**﴾ يصفح عن كثير منهم بالتوبة ﴿**قد جاءكم من الله نور**﴾ يعني بالنور محمد ﷺ، لأنّه يهتدي به الخلق كما يهتدون بالنور ﴿**وكتاب مبين**﴾ هو القرآن الكريم ﴿**يهدي به الله**﴾ بالكتاب المبين، وهو القرآن الكريم ﴿**من اتّبع رضوانه**﴾ من اتبع رضا الله في قبول القرآن والإيمان، وتصديق النبي ﷺ، واتباع الشرائع ﴿**سبل السلام**﴾ السلام: هو الله تعالى، ومعناه: سبل الله، وهو شرائعه التي يشرعها لعباده وهو الإسلام ﴿**ويخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ من الكفر إلى الإيمان، لأنّ الكفر يتحيّر فيه صاحبه كما يتحيّر في الظلام، ويهتدي بالإيمان إلى النجاة كما يُهتدى بالنور ﴿**بإذنه**﴾ بلطفه ﴿**ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ ويرشدهم إلى طريق الحق، وهو دين الإسلام.

ثم عاد سبحانه يدعوهم مرّة أخرى إلى الإيمان به وبرسوله محمد ﷺ ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**يبيّن لكم**﴾ يوضّح لكم أعلام الدين، وفيه دلالة على أنّه سبحانه اختصه من العلم بما لا يوجد عند غيره ﴿**على فترة من الرسل**﴾ على انقطاع من الرسل، ودروس من الدين والكتب ﴿**أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير**﴾ معناه: قد جاءكم رسولنا كراهة أن تقولوا محتجين يوم القيامة: ما جاءنا بشير بالثواب على الطاعة، ولا نذير بالعقاب على المعصية.

ثم بيّن سبحانه أنّه قد قطع عنهم عذرهم، وأزاح علتهم بإرساله رسوله فقال ﴿**قد جاءكم بشير ونذير**﴾ وهو محمد ﷺ، يبشّر كل مطيع بالثواب، ويخوّف كل عاص بالعقاب.

٥ ـ يؤتكم كفلين من رحمته

٥ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ **[الحديد/٢٨]**

وألطاف الله سبحانه بعباده وترغيبهم فيما عنده تكاد لا تحصى، فمن هذا العطاء مضاعفة الحسنة، فقد تقتضي الإشاعة الإلهية بإجزال العطاء للبعض ترغيباً لهم وتشويقاً، وإقامة للحجّة عليهم، فقد خاطب نساء النبي ﷺ: ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب/٣١].

وفي هذه السورة يخاطب أهل الديانتين ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ أي اعترفوا بتوحيد الله، وصدّقوا بموسى وعيسى عليهما السلام ﴿**اتقوا الله وآمنوا برسوله**﴾ محمد ﷺ ﴿**يؤتكم كفلين**﴾ يؤتكم نصيبين ﴿**من رحمته**﴾ نصيباً لإيمانكم بمن تقدّم من الأنبياء، ونصيباً لإيمانكم بمحمد ﷺ ﴿**ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ ويقول علم المفسرين عبدالله بن عباس رضوان الله عليه: النور القرآن، وفيه الأدلة على كل حقٍّ، والبيان لكل خير، وبه يستحق الضياء الذي يمشي به يوم القيامة ﴿**ويغفر لكم**﴾ يستر عليكم ذنوبكم قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد فله أجران» ﴿**والله غفور رحيم**﴾ غفور بعباده، رحيم بهم.

﴿**لئلا يعلم**﴾ أي لأن يعلم ﴿**أهل الكتاب**﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحسدوا المؤمنين منهم ﴿**ألا يقدرون على شيء من فضل الله**﴾ ومعناه: جعلنا الأجر لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم الذين لم يؤمنوا أنّه لا أجر لهم، ولا نصيب لهم في فضل الله ﴿**وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**﴾ فآتى المؤمنين منهم أجرين ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ يتفضّل على من يشاء من عباده المؤمنين.

٦ ـ القردة والخنازير

٦ ـ ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ ﴾ [المائدة/٦٠]

تقدّمت آيات في النهي عن موالاة اليهود والنصارى، وذكر سبحانه

استهزاءهم بالمسلمين وعباداتهم، ثم بيّن أنّ السبب الذي يحملهم على العداوة، ويدفعهم للشغب هو تمسّك المسلمين بتعاليم الله سبحانه وكتبه، في حين أنهم فاسقون بعيدون عن تعاليم السماء، ثم زاد في تهوينهم تبعيداً للمسلمين عنهم فقال ﴿**هل أنبّئكم**﴾ هل أخبركم ﴿**بشرّ من ذلك مثوبة عند الله**﴾ بشرّ مما نقمتم من إيماننا ثواباً، أي جزاء ﴿**من لعنه الله**﴾ أبعده من رحمته ﴿**وغضب عليه**﴾ بفسقه وكفره ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ مسخهم قردة وخنازير.

قال المفسّرون: يعني بالقردة أصحاب السبت، وبالخنازير كفّار مائدة عيسى ﴿**وعبد الطاغوت**﴾ ومن عبد الطاغوت؛ والطاغوت هنا الشيطان، لأنّهم أطاعوه ﴿**أولئك شر مكاناً**﴾ أي هؤلاء الذين وصفهم الله بأنّه لعنهم، وغضب عليهم، وأنّهم عبدوا الطاغوت شرّ مكاناً في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، أمّا في الدنيا فبالقتل والسبي، وضرب الذلّة والمسكنة عليهم، وإلزام الجزية، وأمّا في الآخرة فبعذاب الأبد ﴿**وأضل عن سواء السبيل**﴾ أبعد عن طريق الاستقامة والنجاة.

ولمّا نزلت هذه الآية عيّر المسلمون أهل الكتاب فقالوا: يا إخوان القردة والخنازير، فنكّسوا رؤوسهم وافتضحوا.

٧ ـ تثمين

ورغم الشدّة التي تتجلّى في كتاب الله جلّ جلاله على اليهود والنصارى، والتنكيل بهم، تجد أنّه سبحانه وتعالى لا يبخس حق المؤمنين منهم، ويثمّن أعمالهم، فتراه يذكر بعض رجالاتهم بمنتهى الإكبار والتبجيل فيصف بعضهم ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ **[آل عمران/٧٥]** وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ **[المائدة/٦٣]**.

ويقول عن أصحاب السبت ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ **[الأعراف/١٦٤]**.

٨ ـ وأخيراً

٨ ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران/٦٤].

وهذا النداء الذي يوجّهه سبحانه وتعالى إلى أهل الكتاب، أو سمّه صرخة الحق، حجّة تلزم الجيل الحاضر منهم بالإسلام، وأنّهم مسؤولون غداً عن التخلّف عنه.

كأنّه جلّ جلاله، وعظم سلطانه يتوسّل بعباده أن يسلكوا سبل النجاة، ويجانبوا طريق الضلال، فيستعمل معهم شتى وسائل الترغيب ففي هذه الآية الكريمة بدأ يدعوهم إلى التوحيد لأنّه أوّل الدين وأساسه، ومنه المنطلق إلى الفضائل والكمالات.

نعود للآية الكريمة:

﴿قل﴾ يا محمد **﴿يا أهل الكتاب تعالوا﴾** هلموا **﴿إلى كلمة سواء﴾** أي عدل **﴿بيننا وبينكم﴾** مستوية بيننا وبينكم، فيها ترك العبادة لغير الله، وهي **﴿إن لا نعبد إلاّ الله﴾** لأنّ العبادة لا تحق إلاّ له **﴿ولا نشرك به﴾** في العبادة **﴿شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله﴾** ولا يتخذ بعضنا عيسى ربّاً، فإنّه كان بعض الناس **﴿فإن تولّوا﴾** أعرضوا عن الإقرار بالعبودية، وأنّ أحداً لا يستحق العبادة غيره **﴿فقولوا﴾** أنتم أيّها المسلمون مقابلة لإعراضهم عن الحق، وتجديداً للإقرار ومخالفتهم **﴿أشهدوا بأنّا مسلمون﴾** مخلصون مقرّون بالتوحيد، مقيمون على الإسلام.

وهذا تأديب من الله لعبده المؤمن، وتعليم له كيف يفعل عند إعراض المخالق بعد ظهور الحجّة.

٩ ـ المؤمنون من أهل الكتاب

والمجتمعات الكافرة يخرج منها أحياناً مؤمنون يبلغون الغاية في الإيمان

ليكونوا حجّة على أممهم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩] ألا تنظر إلى مؤمن آل فرعون، فقد بلغ مرتبة تقرب من مراتب الأنبياء عليهم السلام، حتّى أن الله سبحانه أنزل سورة من القرآن الكريم باسمه، وغيره كثير، إنّ اليهود الذين عاصروا فجر الإسلام، كانوا في خطّ معاكس للإسلام تماماً ولكن مع هذا كلّه فقد استجاب نفر من علمائهم للإسلام، كان من بينهم عبدالله بن سلام والرواية عن ابن إسحاق في إسلامه: قال:

وكان من حديث عبدالله بن سلام ـ كما حدثني بعض أهله وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً ـ قال: لمّا سمعت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكّف له، فكنت مسرّاً لذلك، صامتاً عليه، حتّى قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتّى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمّتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كبّرت، فقالت لي عمّتي حين سمعت تكبيري: خيّبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت.

فقلت لها: أي عمّة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعث بما بُعث به.

فقالت: أي ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أنّه يبعث مع نفس الساعة؟

فقلت لها: نعم.

فقالت: فذاك إذاً. ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

قال: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت، وإنّي أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، تغيّبني عنهم، ثم تسألهم عنّي، حتّى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي، فإنّهم إن علموا به بهتوني وعابوني.

قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلّموه وساءلوه، ثم قال لهم: أيّ رجل الحصين بن سلام فيكم؟

قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنّكم لتعلمون أنّه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنّه رسول الله وأؤمن به وأُصدّقه وأعرفه فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي. قال: فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنّهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور! قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

وغير هؤلاء كثير، رغم ما للبيئة من تأثير في النفوس، وكذلك المركزية التي يتمتّع بها رجل الدين في كل مجتمع، وأعظم من هذا وذاك الشيطان الذي يحاول أن يحبط كلّ محاولة خيّرة ينتقل فيها الإنسان من ضلال إلى هدى، رغم هذا كله فكثير من اليهود والنصارى دخلوا في الإسلام خلال الأربعة عشر قرناً.

ومن أروع ما جاء في الذين أسلموا من علماء الأديان:

إنّ السيد محمد مهدي بحر العلوم زعيم الطائفة في عصره ومرجعها الديني، كان متوجّهاً من النجف الأشرف إلى كربلاء لزيارة جدّه الحسين عليه السلام، ومعه جماعة من أهل العلم والفضل، وفي الكفل ضرب له خباء للاستراحة فزاره جمع كبير من علماء اليهود، يتقدّمهم عالمان، اسم أحدهما داود، والآخر عزراً، فرحّب بهم السيد، ودار بينهم حوار انتهى بدخولهم دين الإسلام، ومعهم ثلاثة آلاف من قومهم وكان أحد تلاميذ السيد يسجّل الحوار وطبع ضمن رجال السيد بحر العلوم، كما طبع مستقلاً في بيروت، وثبتناه في كتابنا مكتبة القرآن الكريم عدد ٢٣٣.

النبي محمد ﷺ

تمهيد:

بعد العرض السريع الذي مرّ عليك من قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وانتهينا إلى نبيّنا محمد ﷺ، والحديث عنه يستوعب المجلدات الكثيرة، ويحتاج الى دائرة معارف كبرى، ولمّا كان الواجب علينا أن نلمّ بشيء يسير من حياته صلوات الله وسلامه عليه، اقتصرنا على طاقة ريحان من حديقة غنّاء، وقبس منير من مصابيح تضاهي النجوم سناءً.

قبل البعثة:

والعالم آنذاك في أسوأ الأحوال، لا سيما المجتمع العربي، وأنت إذا علمت أن دريد بن الصمّة شنّ مائتي غارة، أدركت سوء الحالة الأمنية السائدة في جزيرة العرب، أضف الى ذلك فقر مدقع.

جاء في خطبة الزهراء عليها السلام في مسجد رسول الله ﷺ: تشربون الطرق وتقتاتون القد أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ.

والبشرية آنذاك كانت تتوقّع نبياً، لا سيما علماء الكتاب، بل أكثر من هذا، فقد كانوا على علم بقرب مبعثه، وأنّه يبعث في مكة المكرمة، ويهاجر الى المدينة المنورة.

روى العياشي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كانت اليهود تجد في

كتبها أن مهاجر محمد رسول الله ﷺ ما بين عير وأُحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد وأحد سواء، فتفرّقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماء، وبعضهم بفدك، وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء الى بعض اخوانهم، فمرّ بهم أعرابي من قيس فتكاروا منه، وقال لهم: أمر بكم ما بين عير وأحد، فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنا بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة قال: ذلك عير وهذا أحد فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا له: قد أصبنا بغيتنا، فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت؛ وكتبوا الى اخوانهم الذين بفدك وخيبر: إنّا قد أصبنا الموضع، فهلموا إلينا؛ فكتبوا إليهم: إنّا قد استقرّت بنا الدار، واتخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإذا كان ذلك فما أسرعنا إليكم. واتخذوا بأرض المدينة أموالاً، فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبّعاً فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصرهم ثم أمّنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إنّي قد استطبت بلادكم، ولا أراني إلاّ مقيماً فيكم، فقالوا له: ليس ذلك لك، إنّها مهاجر نبيّ، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك.

فقال لهم: فإني مخلّف فيكم من أسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلّف حيين هما الأوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجنّكم من ديارنا وأموالنا، فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنت الأنصار، وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: **﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾** إلى آخر الآية[1].

وذكر سلمان الفارسي رضوان الله عليه عن بدء إسلامه، والأساقفة الذين خدمهم، حتى آل أمره إلى أسقف (عمورية) ولما نزل به الموت قال له: يا فلان إنّي كنت مع فلان فأوصىٰ بي الى فلان، ثم أوصىٰ بي فلان الى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وبم تأمرني؟

قال: أي بني والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أطلّ زمان نبيّ، وهو مبعوث على دين

(١) مجمع البيان: ١/ ٣٠٠.

إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجر الى أرض بين حرّتين، بينهما نخل، به علامات لا تخفى[1].

محمد ﷺ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح/ ٨].

المولد العظيم:

وُلد نبينا محمد ﷺ في مكّة المكرمة في السابع عشر من ربيع الأول عام الفيل، وقد حدث لمولده الشريف خوارق، فمولد العظماء قد يصحبه إعجاز ليكون مدعاة للتساؤل، وليتعرف على خبره البعيد والقريب، فيكون أدعى للإيمان برسالته، فقد وُلد يحيى بن زكريا عليه السلام من شيخ كبير وعجوز عاقر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا* وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا* يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا* قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا* قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم/ ٤ ـ ٩].
وولد عيسى عليه السلام من مريم البتول: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا* قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم/ ٢٠ ـ ٢١].

وحدث لمولد نبينا محمد سيّد الكائنات صلوات الله وسلامه عليه معاجز:

قال اليعقوبي: فلما وُلد رسول الله ﷺ رجمت الشياطين، وانقضت الكواكب، فلما رأت ذلك قريش أنكرت انقضاض الكواكب وقالوا: ما هذا إلاّ لقيام الساعة، وأصابت الناس زلزلة عمّت جميع الدنيا، حتى تهدمت الكنائس

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٢٠.

والبيع، وزال كل شيء يعبد دون الله عزّ وجلّ عن موضعه، وعميت على السحرة والكهان أُمورهم، وحبست شياطينهم، وطلعت نجوم لم تر قبل ذلك، فأنكرتها كهان اليهود، وزلزل إيوان كسرى، فسقطت منه ثلاث عشرة شرافة، وخمدت نار فارس ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام، ورأى عالم الفرس وحكيمهم وهو الذي تسميه الفرس (موبذان موبذ) القيّم بشرائع دينهم، كأنّ إبلاً عراباً تقود خيلاً صعاباً، حتى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد، فراع ذلك كسرى أنوشروان وأفزعه، فوجّه إلى النعمان فقال: هل بقي من كهان العرب أحد؟

قال: نعم، سطيح بدمشق من أرض الشام، قال: فجئني بشيخ من العرب له عقل ومعرفة أوجّهه إليه، فأتاه بعبد المسيح بن بقيلة، فوجهه إليه، فخرج إليه عبد المسيح على جمل حتى قدم دمشق، فسأل عنه فدلّ عليه، وهو ينزل في باب الجابية، فوجده في آخر رمق، فنادى في أُذنه بأعلى صوته:

أصم أم تسمع غطريف العرب — يا فارج الكربة أعيت من ومن
وفاصل الخطبة في الأمر العنن — أتاك شيخ الحيّ من آل يزن

فقال: عبد المسيح، على جمل مشيح، نحو سطيح، حين أشفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، بهدم الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المؤبذان، رأى إبلاً عراباً، تقود خيلاً صعاباً، حتى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد، يا بن ذي يزن، تكون هنة وهنات، ويموت ملك وملكات، بعدد الشرفات، إذا غاضت بحيرة ساوة، وظهرت التلاوة بأرض التهامة، وظهر صاحب الهراوة، فليست الشام لسطيح شاماً، ثم فاضت نفسه[١].

وذكر اليعقوبي أيضاً: وجاء رجل من أهل الكتاب إلى ملإٍ من قريش فيهم هشام بن المغيرة، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، فقال: أولد لكم الليلة مولود؟

قالوا: لا. قال: أخطأكم والله معشر قريش، فقد ولد إذاً بفلسطين غلام اسمه (أحمد) به شامة كلون الحر الأدكن، يكون به هلاك أهل الكتاب، فلم يريموا

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٥.

حتى قيل فيه إنه وُلد لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام، فمضى الرجل إليه، حتى نظر إليه، ثم قال: هو والله هو، ويل أهل الكتاب منه، فلما رأى سرور قريش بما سمعت منه قال: والله ليسطوَنّ بكم سطواً يتحدث به أهل المشرق والمغرب.

واعلم أنّ النبي ﷺ ولد يتيماً، فقد مات والده وأمه حامل به، وأيضاً توفيت أمّه وهو صغير. وسئل الإمام عليه السلام عن السبب فقال: حتى لا يكون لأحد عليه حق، فكفله جدّه عبد المطلب، وهو يومئذٍ زعيم قريش، بل زعيم العرب، وقد وصفه الجاحظ: «لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، كما أنه ليس في العرب لقريش نظير، وكما أنّه ليس في الناس للعرب نظير»[١].

أعطى عبد المطلب محمداً ﷺ لحليمة السعدية، لترضعه، فظهر ببركته نماء وخصب ملحوظ في بني سعد.

وبعد إكمال دور الرضاعة حضنته ـ أم أيمن ـ وكان عبد المطلب يحبّه حباً عظيماً، ويقدّمه على أولاده العشرة، فكان يُفرش له عند الكعبة، ويجلس أولاده وزعماء مكة بين يديه، ولكن النبي ﷺ كان يجلس إلى جنبه، وربما حاول بعضهم منعه من ذلك فيقول عبد المطلب: (دعوا ابني فإن له لشأناً)، فقد كان على علم بنبوته.

وفي الثامنة من عمره توفي جده عبد المطلب، وكان قد أوصى به ابنه أبا طالب بقوله:

أوصيك يا عبد مناف بعدي   بواحد بعد أبيه فرد

وشاء الله سبحانه وتعالى أن جعل حبّه في قلب عمه أبي طالب بشكل غريب، فكان يقدّمه على أولاده، وكذلك كانت زوجته فاطمة بنت أسد رضوان الله عليها، وكان من حبّ أبي طالب له أن صحبه معه في سفره إلى الشام للتجارة وهو صغير.

نشأ رسول الله ﷺ صادقاً أميناً متحلّياً بأعلى صفات الأخلاق وأكملها،

(١) كتاب الحيوان

حتى كانت قريش تسمّيه (الصادق الأمين) ومن إكبارهم وتعظيمهم له أنّهم حينما جددوا بناء الكعبة، ووصلوا إلى موضع الحجر الأسود فتنازعوا فيمن يضعه، لأن ذلك شرف عظيم لا يؤثر به الأخ أخاه، ثم رضوا بمحمد ﷺ حكماً، فنزع ﷺ رداءه وفرشه، وجعل الحجر فيه، ثم أمر الزعماء أن يحملوا أطراف الرداء، ولما انتهوا الى الكعبة أخذه فوضعه في محله.

وفي الخامسة والعشرين من عمره الشريف تزوّج بخديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، وهي يومئذٍ من أشرف نساء قريش وأكثرهن مالاً، وكان رجال قريش يتاجرون بأموالها.

البعثــة

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

وليس بإمكانك أبداً أن تتصوّر الحالة التي كانت سائدة قبل البعثة، لا سيما في الجزيرة العربية، فالعبادة للأصنام، والتجارة تعتمد على الغارات، والوضع الاجتماعي يكفيك منه وأد البنات، والحالة الاقتصادية بلغت إلى حدّ من التدهور لا يوصف، وقس على ذلك مجالات الحياة الأخرى، فكانت الرسالة الأحمدية نعمة للدنيا قبل الآخرة، وفي هذه الآية الكريمة يذكر سبحانه وتعالى نعمته على الأمة بالرسالة والرسول.

بعد البعثة:

كان ﷺ يقضي بعض الوقت خارج مكة في غارٍ بجبلٍ قريبٍ من مكة، يعبد الله سبحانه وتعالى فيه، وفي الغار نفسه نزل عليه جبرائيل عليه السلام لأول مرة بسورة إقرأ وعمره يومئذٍ أربعون سنة، وبعد بعثته عليه السلام تحوّل إكبار قريش له الى ازدراء وأذى، فقد قابلوه بأعنف ما يكون من المقابلة، حتى قال عليه السلام: «ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت» رغم موقف أبي طالب رضوان الله عليه، ودفاعه

المستميت عنه صلوات الله عليه، وآمن به نفر قليل من قريش، وبعض المستضعفين، فتجنّدت قريش لإيذائهم، حتى قتلت بعضهم كياسر - والد عمار - وزوجته سميّة رضوان الله عليهما.

١ - التبشير به:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ **[الصف/ ٦]**.

إنَّ الأنبياء جميعهم بشّروا بنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ودعوا أممهم الى الإيمان به، ومتابعته، وإنّه خاتم الأنبياء، والكتب السماوية المتداولة اليوم مع ما فيها من تحريف تشير إلى بعض ذلك، أمّا إنجيل (برنابا) ففيه الكثير من ذلك لذا تركوه.

والعناد والتعصب للباطل مشكلة البشرية العظمى، ألا تسمع قوم إبراهيم عليه السلام وقد شاهدوا منه المعاجز والعبر ولكنهم لم يكتفوا بالإعراض عنه وعدم الأخذ بما جاء به بل كان بعضهم يحرّض الآخر عليه **﴿حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ [الأنبياء/ ٦٨]**.

واستمع إلى قوم نوح عليه السلام، وكيف يطلب بعضهم من بعض نصرة أصنامهم، والذب عنها: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ **[نوح/ ٢٣]**.

نعود لما ذكرته الآية الكريمة من بشائر عيسى عليه السلام بالنبي محمد ﷺ **﴿وإذا قال عيسى بن مريم يا بني آسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يدي من التوراة﴾** المنزلة على موسى عليه السلام **﴿ومبشراً برسول من بعدي اسمه أحمد﴾** يعني نبينا محمداً ﷺ كما قال الشاعر:

صلّى الإله ومن يحف بعرشه   والطيبون على المبارك أحمد

وهذا التبشير إلزام للمسيحية بإتباع النبي محمد ﷺ، وحجّة قاطعة تلزمهم، ولكنهم - ومع الأسف - كم تركوا مثل هذه البشائر والحجج ولجّوا في العناد، وقد شاهد العالم منهم الأعاجيب في موضوع المباهلة، فقد جاء علماؤهم

من نجران ـ وهي يومئذٍ أشبه بالفاتيكان اليوم ـ وكان في طليعة هؤلاء العلماء السيد والعاقب، وقد تحققت لهم نبوة محمد ﷺ ولكنهم لزموا جانب الخلاف، فدعاهم النبي ﷺ للمباهلة فأجابوا، ولكنهم بعدما رأوا امارات العذاب انسحبوا، وصالحوا النبي ﷺ على جزية يدفعونها إليه على أن يقرّهم على دينهم. نعود للآية: ﴿**فلما جاءهم**﴾ أحمد ﴿**بالبيّنات**﴾ بالدلالات الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿**قالوا هذا سحر مبين**﴾ أي ظاهر.

ودعوى السحر طالما تشدّق بها المفترون، فهم عند مشاهدتهم آيات السماء، يجريها الله سبحانه على يد رسُله، فبدلاً من أن يسارعوا إلى الاستجابة والإيمان تراهم يعرضون مفترين على الرسل بالسحر، ألا تسمع بالملإ الذين قابلوا معجزة موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ [القصص/ ٣٦].

وهكذا قابلوا نبينا محمداً ﷺ ﴿**ومن أظلم من افترى على الله الكذب**﴾ من أشد ظلماً ممن اختلق الكذب على الله، وقال لمعجزاته سحر، وللرسول أنّه ساحر كذاب ﴿**وهو يدعى إلى الإيمان**﴾ الذي فيه نجاته ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بفعل الكفر والمعاصي ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم**﴾ يريدون إذهاب نور الإيمان والإسلام بفاسد الكلام الجاري مجرى تراكم الظلام، فمثلهم فيه كمثل من حاول إطفاء نور الشمس بفيه ﴿**والله متم نوره**﴾ مظهر كلمته ومؤيد نبيّه، ومعلن دينه وشريعته ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ لذلك ﴿**هو الذي أرسل رسوله**﴾ محمداً ﷺ ﴿**بالهدى**﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة له ﴿**ودين الحق**﴾ وهو دين الإسلام ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ بالحجّة والتأييد والنصرة ﴿**ولو كره المشركون**﴾ وفي هذه الآية دلالة على صحة نبوّة نبيّنا محمد ﷺ، لأنه سبحانه قد أظهر دينه على جميع الأديان بالاستعلاء والقهر، وإعلاء الشأن كما وعده ذلك في حال الضعف وقلّة الأعوان.

بشائر القسيسين والرهبان:

كان لفيف من رجال الدين من أهل الديانتين يبشّرون الناس بمبعثه صلوات

الله عليه؛ علموا ذلك من كتب الله المنزلة، وتوارثوه عن الأنبياء عليهم السلام.

إنّ من يتصدّى لجمع هذه البشائر يحصل له الشيء الكثير وحسبنا أن نذكر من ذلك:

ذكر ابن هشام قتال تبّع مع أهل المدينة فقال: فبينا تبّع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة، عالمان راسخان في العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل، فإنّك إن أبيت إلاّ ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولِمَ ذلك؟

فقالا: هي مهاجر نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره؛ فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علماً فأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة[1].

يقول عبد الوهاب النجار: سألت (كارلو نلينو) الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية: عن معنى كلمة (بيريكتلوس) فأجاب: إن معناها الذي له حمد كثير.

فقلت له: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟

فقال: نعم.

فقلت: إنّ رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد).

فقال: يا أخي تحفظ كثيراً، ثم افترقنا، وقد ازددت بذلك تثبيتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[2].

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم:

وحاشا لله جلّ جلاله أن يجعل أمر رسُله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) السيرة النبيوية: / ١.

(٢) قصص الأنبياء: ٣٩٨.

معمّى ملتبساً، بل جعله واضحاً كالشمس في رابعة النهار، جعل السلف منهم يبشّر الخلف، والكتاب السابق يُخبر عنه الكتاب اللاحق، كما زوّدهم بمعاجز لم تبق عذراً لمعتذر.

يقول علي بن إبراهيم في هذه الآية الكريمة: يعني رسول الله ﷺ، لأن الله عزّ وجل قد أنزل عليهم في التوراة والزبور والإنجيل صفة محمد ﷺ وصفة أصحابه ومبعثه وهجرته **﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا﴾** فكانت اليهود يقولون للعرب قبل مجيء النبي ﷺ: أيها العرب هذا أوان نبي يخرج بمكة، ويكون هجرته بالمدينة، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم.[١]

وقال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام[٢]: هل تعرفون محمداً في كتابكم؟

قال: نعم، والله نعرفه بالنعت الذي نعته الله لنا إذا رأيناه فيكم، كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان، والذي يحلف به ابن سلام لأنا بمحمد أشد معرفة مني بإبني[٣].

وأكثر من هذا لما جاء وفد نجران إلى المدينة المنورة، وبعد عرض وردّ استقرّ الأمر بينهم وبين الرسول الأعظم ﷺ على المباهلة.

وفي صبيحة اليوم التالي، أمر ﷺ أن يجتمع المسلمون في المكان والزمان المحدّدين، ولكن وفد نجران لما شاهدوا الرسول ﷺ قد خرج إليهم يباهلهم بأهل بيته قالوا: أقلنا يا أبا القاسم أقالك الله، ورضوا بدفع الجزية، ولكن ما أسرع أن عاد عظماؤهم إلى المدينة مسلمين.

قال القطيفي: لما رجع وفد نجران لم يلبث السيد والعاقب إلاّ يسيراً حتى رجعا إلى النبي ﷺ، وأهدى العاقب له حلة وعصا وقدحاً ونعلين، وأسلما[٤].

---

(١) تفسير القمي: ١/ ٦٢.

(٢) اكبر علماء اليهود في المدينة، أسلم هو وأهل بيته.

(٣) تفسير القمي: ١/ ٢٢٤.

(٤) قصص القرآن الكريم: ٢٨

العصمـة :

اعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الخطأ والقبيح، منزّهون من كل سوء، عمداً كان أو سهواً، لأن الخطأ والقبيح وجميع الأعمال المشينة تجعل الأمّة تزدري بهم وتحتقرهم، وحينئذٍ يتعذّر عليهم تبليغ رسالتهم، وتبطل مهمّتهم، فوجبت عصمتهم لتكون القلوب أسرع إلى تقبّل النصح منهم، واستماع كلمتهم، وامتثال أوامرهم، إضافة لذلك فهم متصفون بأسمى مراتب العلم والفضل والكمال، فكل خصلة حسنة هم في القمة منها، ومرّ بنا موجز من صفات نبينا محمد ﷺ ، وبلوغه الذروة في كل صفة من الصفات الحميدة، والأخلاق الجميلة، وكثير من الناس كان سبب إسلامهم هو مشاهداتهم لبعض أحواله وصفاته عليه السلام .

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأحسن منك لم تلد النساء
خلقت مبرَّءاً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

علم النبي :

واعلم أنَّ النبي هو رسول من قبل الله سبحانه وتعالى إلى البشر، يعلّمهم ما يريده منهم، وينهاهم عما لا يرتضيه لهم، وعلمه من الله تعالى، فللَّه ملك اسمه جبرائيل وهو سيّد الملائكة، فهو الذي يأتي بالقرآن الكريم الى النبي محمد ﷺ ، بل يأتيه بجميع أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه، كما هو أيضاً كان المبلّغ لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأوامر الله جلّ جلاله، وحامل كتبه وأحكامه، فعلم النبي ﷺ من عند الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم/٣ ـ ٥].

المعجـزة :

اعلم أنّه يلزم لكل نبيّ أن يأتي بمعاجز لتكون عوناً له على أداء مهمته، ونشر

رسالته، وهي كل أمر خارق للعادة، يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

وأزيدك توضيحاً: فأنت حينما تمشي بدراجتك في الشارع لا يسمى هذا معجزاً، لأن بإمكان أكثر الناس أن يفعلوا ذلك، ولكنك إذا استطعت أن تمشي بها في النهر دون أن تغرق كان ذلك معجزاً، لأنه يعجز الناس عن الإتيان بمثله.

فالله سبحانه وتعالى أعطى أنبياءه صلوات الله عليهم أجمعين معاجز كثيرة لا يستطيع البشر الإتيان بمثلها، وتختلف هذه المعاجز عند الأنبياء عليهم السلام حسب ظروف المجتمع الذي يرسلون إليه، ففي عصر موسى عليه السلام كان التفوق بالسحر، فقد أبدعوا به واتقنوه، فكانت معجزة موسى عليه السلام عصاه التي كانت لا تختلف عن غيرها من العصيّ، كان يتوكأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، فقد انقلبت حية تسعى، فالتهمت سحر الأربعين ألف ساحر الذين أتى بهم فرعون، ثم عادت إلى حالتها الأولى.

وفي زمن عيسى عليه السلام كان النبوغ والتفوّق بالطب، فكانت معجزته عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وكل ذلك يعجز عنه الطب.

وفي زمن محمد ﷺ كان نبوغ العرب وتفوّقهم بالفصاحة والبلاغة، فكان للشعر عندهم منزلة عظيمة، وكانت لهم مواسم أدبية يجتمعون فيها لإنشاد الشعر كعكاظ وغيره، وكانت لهم سبع قصائد مختارة من عيون الشعر قد كتبوها بالذهب، وعلّقوها على الكعبة، افتخاراً واعتزازاً وتطاولاً على غيرهم، فلما بعث الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن الكريم أنزلوا قصائدهم خجلاً من بقائها، لأنها وإن كانت من غرر الشعر، وأبدع ما توصّلوا إليه من النظم، لكنها بالنسبة للقرآن الكريم لا شيء.

البشير النذير:

١ ـ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة/ ١١٩].

هذه هي مهمة الرسول ﷺ، وهي تكفي في تقويم المجتمع، فقد بشّرهم

بما أعدّ الله جلّ جلاله لهم من نعيم لا يزول، وبما لا يحيط بوصفه الواصفون، وأنذرهم ناراً لو سقطت شرارة منها على الأرض لاحترقت كلّها.

إنّ الجهل الذي كان مخيماً على الجزيرة العربية، مما جعل العربي يتلكأ ـ لجهله ـ في قبول الرسالة الإسلامية، فما عذر المثقف اليوم، وهذا القرآن الكريم يكفيه حجّة ومعجزة، والعلم الحديث، والاكتشافات الطبيّة وغيرها تتماشى مع ما جاء به الإسلام من قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، فهي شاهد صدق للرسالة والرسول.

٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٤٥].

إنّ هذه الآية الكريمة تبين أبعاد الرسالة، ومهمة الرسول، فهو يشهد يوم القيامة للمؤمنين بالطاعات فيفوزوا، وعلى العاصين بالسيئات فيهلكوا، وهذه مهمة جميع الأنبياء عليهم السلام ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا* يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء/ ٤٢].

﴿ومبشراً﴾ للمطيعين بما أعد الله جلّ جلاله لهم من نعيم.

﴿ونذيراً﴾ للعصاة بما ينتظرهم من عذاب.

﴿وداعياً﴾ وبعثناك داعياً إلى الله، والإقرار بواحدينته وامتثال أوامره ونواهيه ﴿بإذنه﴾ بعلمه وأمره ﴿وسراجاً منيراً﴾ يُهتدى بك في الدين كما يهتدى بالسراج؛ والمنير: الذي يصدر النور من جهته.

٣ ـ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر/ ٢٣].

تتجلّى العناية الإلهية في هذه الآيات بأروع صورها، وأنّه جلّ جلاله قد تابع في إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأقام الحجّة على الجميع، وبيّن لهم معالم الهداية، وبلّغهم سبل السلامة والنجاة ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء/ ١٥].

نعود للآية الكريمة:

﴿إن أنت إلاّ نذير﴾ مخوف لهم بالله ﴿إنّا أرسلناك بالحق﴾ بالدين الصحيح

﴿**بشيراً ونذيراً**﴾ مبشراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين ﴿**وإن من أُمة**﴾ وما من أمّة من الأُمم الماضية ﴿**إلاّ خلا فيها نذير**﴾ مضى فيها مخوّف يخوّفهم وينذرهم، فأنت مثلهم نذير لمن جحد، بشير لمن وحّد؛ وفي هذا دلالة على أنه ما من أُحد من المكلّفين إلاّ وقد بعث إليه الرسول، وأنّه سبحانه أقام الحجّة على جميع الأُمم.

ثم قال تعالى تسلية لنبيّه ﷺ ﴿**وإن يكذبوك**﴾ يا محمد ولم يصدّقوك ﴿**فقد كذّب الذين من قبلهم**﴾ من الكفار أنبياءً أرسلهم الله إليهم ﴿**جاءتهم رسلهم بالبيّنات**﴾ بالمعجزات الباهرات، والحجج الواضحات ﴿**وبالزبر**﴾ وبالكتب ﴿**وبالكتاب المنير**﴾ الواضح البيّن ﴿**ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير**﴾ فلما كذّبوا رسلهم، ولم يعترفوا بنبوتهم، أخذتهم بالعذاب، وأهلكتهم ودمرّت عليهم، فكيف كان تغييري وإنكاري عليهم، وإنزال العقاب بهم.

الإسراء والمعراج:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **[الإسراء/ ١]**.

ولك أن تسمّيه برحلة الفضاء، والمعجز الباهر، واللقاء الأخوي مع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ومشاهدة ملكوت السماوات والأرض، ليكون إخباره الأُمة عن مشاهدة، فيكون أدعى لهم للقبول.

لقد استحوذ الشيطان على المجتمع المكّي بأعظم ما يُتصوّر، لقد كان يكفيهم حديث الإسراء والمعراج إيماناً، فقد أخبرهم صلوات الله وسلامه عليه عن المسجد الأقصى، ولم يكن قد شاهده، وأعظم من هذا فقد أخبرهم عما حصل لبعض قوافلهم التي كانت تقطع الطريق مما تبيّن لهم صدقه، ولكنهم بلغوا الغاية في العناد والبعد عن الحق كما وصفهم جلّ اسمه ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ **[الحجر/ ١٥]**.

لقد أوردهم إصرارهم على الكفر، وتماديهم في الضلال إلى القتل وسلب الأموال مع ما أعدّ الله لهم جلّ جلاله من عذاب أليم.

نعود للآية الكريمة:

﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ سبحان: كلمة تنزيه لله عزّ اسمه عما لا يليق به من الصفات، وقد يُراد به التعجيب، يعني سبحان الذي يسيّر عبده محمداً ﷺ **﴿ليلاً﴾** كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة **﴿من المسجد الحرام﴾** قال الحسن: كان الإسراء من نفس المسجد **﴿إلى المسجد الأقصى﴾** يعني بيت المقدس، وإنّما قيل الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام **﴿الذي باركنا حوله﴾** بأن جعلناه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة، وبذلك صار مقدساً عن الشرك، لأنه لمّا صار متعبّداً للأنبياء، ودار مقام لهم، تفرّق المشركون عنهم، فصار مطهّراً من الشرك؛ والتقديس: التطهير **﴿لنريه من آياتنا﴾** من عجائب حججنا، والتي منها إسراءه في ليلة واحدة من مكة إلى هناك، واجتماعه بالأنبياء عليهم السلام، وعروجه إلى السماء **﴿إنّه هو السميع﴾** لأقوال من صدّق بذلك أو كذّب **﴿البصير﴾** بما فعل من الإسراء والمعراج.

سيرته ﷺ:

هي السيرة المثلى التي لا تقاربها سير المخلوقين قاطبة، وهي مصداق لقوله صلوات الله وسلامه عليه: أدّبني ربّي فأحسن تأديبي.

إنّها إحدى العوامل الرئيسية لنشر الإسلام، لأن كل من رآه واستمع إلى حديثه تأثّر به، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه وآله أعلم الناس، وأفضلهم وأحلمهم، وأعدلهم، وأعفّهم، وأشجعهم، وأسخاهم، كان أشد الناس حياءً، لا يثبّت بصره في وجه أحد، يجيب دعوة الحرّ والعبد، يقبل الهدية ولو أنها جرعة من لبن، ويكافىء عليها، يغضب لربّه ولا يغضب لنفسه، ويعود المرضى، ويشيّع الجنائز، أشدّ الناس تواضعاً وأحسنهم بشراً، يردف خلفه عبده أو غيره، يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، لا يجفو أحداً، يقبل معذرة المعتذر، يبدأ من لقيه بالسلام، ومن قام معه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فيرسلها حتى يرسلها الآخذ، كان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأ بالمصافحة، كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلّي إلاّ خفف صلاته وأقبل عليه يسأله عن حاجته، فإذا فرغ

من حاجته عاد إلى صلاته، يجلس حيث ينتهي به المجلس، وما رؤي قط ماداً رجليه بين أصحابه، كان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، وكان يدعو أصحابه بكناهم، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه إلاّ قال: لبيك، وكانوا لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك، وأُوتي برجل فأرعد من هيبته فقال: هوّن عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

وحتى في بيته فقد كان يعاون أهله في شؤون المنزل، إلى صفات كثيرة ليس هذا محل استقصائها.

نعود فنذكر بعض ما جاء في سيرته عليه السلام:

١ ـ قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾.[الاعراف: ١٩٩]

هذه الآية الكريمة اشتملت على أخلاق عالية أمر الله جلّ جلاله نبيّه الكريم ﷺ بالعمل بها، وإجماع المسلمين على الأخذ بسنة النبي ﷺ، وهي جميع ما صدر عنه من قول وفعل، فاحرص كل الحرص على أن تستوفي نصيبك تاماً من العمل بهذه الآية الكريمة، بل وجميع ما ورد من أخلاقه وسيرته سلام الله عليه، فإنها نعم الزاد ليوم المعاد.

نعود للآية الكريمة:

﴿**خذ العفو**﴾ خذ العفو من أخلاق الناس، وأقبل الميسور منها؛ أمره بالتساهل وترك الاستقصاء في القضاء والاقتضاء ﴿**وأمر بالعرف**﴾ يعني بكل خصلة حميدة ﴿**وأعرض عن الجاهلين**﴾ وأعرض عنهم عند قيام الحجّة عليهم، والإياس من قبولهم، ولا تقابلهم بالسفه صيانة لقدرك.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران/ ١٥٩].

نحن نعتقد أنّ الأنبياء عليهم السلام هم في القمّة في كل فضيلة وخير، لا يدانيهم أحد من الخلق، بل إن من مهماتهم الرئيسية دعوة الناس إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات.

وأجمع أهل السير والتاريخ على أن نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه كان أكمل

الناس أخلاقاً، فقد حوى جميع مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، حتى أن الكثير من العرب دخلوا الإسلام متأثرين بأخلاقه الشريفة.

إنّ الله جلّ جلاله أثنى عليه بذلك في كتابه العزيز.

ونحن نكتفي بذكر قصة واحدة ذكرها أهل السير والتاريخ علماً أن لها نظائر كثيرة تركناها رغبة في الاختصار.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ يهودياً كان له على رسول الله ﷺ دنانير فتقاضاه، فقال: يا يهودي ما عندي ما أعطيك، قال: فإنّي لا أُفارقك يا محمد حتى تقضني.

فقال ﷺ: إذاً أجلس معك، فجلس ﷺ معه حتى صلّى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهدّدونه ويتوعدونه، فنظر رسول الله ﷺ إليهم وقال: ما تصنعون به؟

فقالوا: يا رسول الله يهودي يحبسك؟!

فقال ﷺ: لم يبعثني ربّي عزّ وجل بأن أظلم معاهداً ولا غيره، فلما علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أَنَّ محمداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلاّ لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإنّي قرأت نعتك في التوراة محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ولا مترنّي بالفحش ولا قول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله، وهذا مالي فأحكم فيه بما أنزل الله؟ وكان اليهودي كثير المال[١].

نعود للآية الكريمة:

﴿**ولو كنت**﴾ يا محمد ﴿**فظاً**﴾ جافياً، سيء الخلق ﴿**غليظ القلب**﴾ قاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة ﴿**لانفضوا من حولك**﴾ لتفرّق أصحابك عنك

(١) الأربعون حديثاً للنسخ البهائي: ١٣٨.

ونفروا منك.

ونحن اليوم أحوج ما نكون للاقتباس من أخلاقه الكريمة لنسعد دنيا وآخرة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/ ٤].

والمراد بالخلق العظيم: الصبر على الحق، وسعة البذل، وتدبير الأمور على مقتضى الحق بالصلاح والرفق والمداراة، وتحمّل المكاره في الدعاء إلى الله سبحانه، والتجاوز، والعفو، وبذل الجهد في نصرة المؤمنين، وترك الحسد والحرص، ونحو ذلك.

نعود فنذكر بعض ما جاء عن الصادقين عليهم السلام في حسن الخلق:

١ ـ قال رسول الله ﷺ: عليكم بحسن الخلق، فإنّ حسن الخلق في الجنة لا محالة، وإيّاكم وسوء الخلق، فإن سوء الخلق في النار لا محالة[١].

٢ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: أكملكم إيماناً أحسنكم خلقاً.[٢]

٣ ـ وقال رسول الله ﷺ: أقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً، وخيركم لأهله[٣].

٤ ـ وقال رسول الله ﷺ: حسن الخلق شجرة في الجنة، وصاحبه متعلّق بغصنها، يجذبه إليها، وسوء الخلق شجرة في النار، وصاحبه متعلّق بغصنها، يجذبه إليها[٤].

١ ـ عبادته:

﴿ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء/ ٧٩].

إنَّ الله سبحانه يريد المزيد من الكرامة لأوليائه، لذا حثّهم على مندوب

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٣٧.
(٢) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٣٧.
(٣) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٣٧.
(٤) كتاب ابي الجعد: ١٣.

الأعمال ومستحباتها لترتفع درجاتهم غداً، وتسمو منازلهم، فالجنة التي أعدّها الله جلّ جلاله لأوليائه تتفاوت فيها منازلهم، فهي طبقات وبعدد آيات القرآن الكريم، ومن كان في الطَّبقة العليا يمكنه النزول إلى الأسفل، أما الذي في الأدنى فلا يحق له الصعود إلى الأعلى، فهو يأسف أشدّ الأسف لتسامحه في الدنيا بالأعمال الخيّرة التي عملها أصحابه ورفقاؤه فبلغوا درجة أسمى من درجته.

ومن أعظم ما يبلغ بالعبدَ الدرجات الرفيعة هي صلاة الليل التي تحدثت عنها الآية الكريمة.

نعود للآية الكريمة، ثم نأتي بأحاديث الصادقين عليهم السلام، ﴿**ومن الليل فتهجّد به**﴾ خطاب للنبي ﷺ، ولا يكون التهجد إلاّ بعد النوم ﴿**نافلة لك**﴾ زيادةً لك على الفرائض، وذلك أن صلاة الليل كانت فريضة على النبي ﷺ، مكتوبة عليه، ولم تكتب على غيره، وكانت فضيلة لغيره ﴿**عسى ربّك أن يبعثك مقاماً محموداً**﴾ عسى من الله واجبة، والمقام يعني البعث، أي يبعثك يوم القيامة بعثاً أنت محمود فيه؛ وقد أجمع المفسّرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفّه، ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون ﷺ أوّل شافع ومشفّع.

نعود للحديث في فضل الليل:

١ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قيام الليل مصحّة للبدن، ورضاء الربّ، وتمسّك بأخلاق النبيين، وتعرّض لرحمة الله تعالى»[1].

٢ ـ وقال رسول الله ﷺ: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أُمتي لفرضتها عليهم»[2].

٣ ـ وقال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى منادٍ: ليقم الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً،

---

(١) ثواب الاعمال: ٤١.

(٢) مجمع البيان: ١/ ٤٩٠.

فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب الناس من بعدهم»[١].

٤ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: «صلاة الليل تحسّن الوجه، وتحسّن الخلق، وتطيّب الرزق، وتقضي الدين، وتُذهب الهمّ، وتجلو البصر، عليكم بصلاة الليل فإنها سنّة نبيكم، ومطردة الداء عن أجسادكم»[٢].

٥ ـ وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر في وصيّته له: «يا أبا ذر احفظ وصيّة نبيّك، من خُتم له بقيام الليل، ثم مات فله الجنة»[٣].

٢ ـ ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ **[المزمل/ ٢٠]**.

يمر عليك في سورة (طه) أن الله سبحانه عاتب نبيّه ﷺ لكثرة ما كان يدأب عليه من العبادة، فقد روى أهل السير والتفسير: كان يصلّي الليل كلّه، ويغلق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، كما أن قدميه قد تورّمتا من القيام، ويكاد يحصل الإجماع على أن كلاً من الإمام أمير المؤمنين[٤] والإمام الحسين[٥]، والإمام علي بن الحسين كل منهم كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة[٦]، وأن الإمام الرضا عليه السلام أعطى دعبل الخزاعي رضوان الله عليه جبّة خز وقال له: «احتفظ بها، فإنّي صليت فيها ألف ليلة كل ليلة ألف ركعة، وختمت القرآن فيها ألف ختمة»[٧].

وفي هذه السورة يقول سبحانه لنبيّه الكريم: **﴿إنّ ربك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه﴾** والمعنى أنك تقوم في بعض الليالي قريباً من الثلثين وفي بعضها قريباً من نصف الليل، وفي بعضها قريباً من ثلثه **﴿و﴾** تقوم **﴿طائفة من الذين معك﴾** ورواية الحاكم: أنهما علي وأبو ذر، ثم تستمر الآيات في مثل ذلك،

---

(١) ارشاد القلوب: ١/ ١٣٥.
(٢) امالي الشيخ الطوسي: ٣٣٩.
(٣) تهذيب الاحكام: ٢/ ١٢٢.
(٤) الغدير: ٥/ ٢٥.
(٥) اعيان الشيعة: ٤/ ١٢٤.
(٦) صفة الصفوة: ٢/ ٥٦.
(٧) اعيان الشيعة: ٤/ ١٠٧.

ثم يأتي الأمر الوجوبي لجميع المسلمين ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ بحدودها التي أوجبها الله عليكم ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ المفروضة ﴿**وأقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ وأنفقوا في سبيل الله في المجالات التي أمركم بالإنفاق فيها، وكذلك بالتي ندبكم إليها ﴿**وما تقدموا لأنفسم من خير**﴾ من طاعة ﴿**تجدوه عند الله**﴾ تجدوا ثوابه ﴿**هو خيراً**﴾ لكم من الشح والتقصير ﴿**وأعظم أجراً**﴾ أفضل ثواباً ﴿**واستغفروا الله**﴾ اطلبوا مغفرته ﴿**إن الله غفرو رحيم**﴾ ستّار لذنوبكم، صفوح عنكم، رحيم بكم، منعم عليكم.

٣ ـ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ **[الزمر/ ١٣]**.

هذه الآية تحكي كلام رسول الله ﷺ مع المشركين، ومعناها: إنِّي لو خالفت ما أمرني به ربّي وعصيته تعرّضت لعذاب يوم القيامة، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ **[الزمر/ ٦٥]**.

وهذا هو الواقع، فإنّه ليس بين الله سبحانه وأحدٌ من خلقه قرابة، أحبُّ الخلق إلى الله أسرعهم إلى طاعته، وأبغضهم من خالف أمره وعصاه.

قال أبو حمزة الثمالي: كان علي بن الحسين يقول لأصحابه: «أحبكم إلى الله أحسنكم عملاً، وإنّ أعظمكم عند الله عملاً أعظمكم في ما عند الله رغبة، وإنّ أنجاكم من عذاب الله أشدّكم خشية لله، وإنّ أقربكم من الله أوسعكم خلقاً، وإنّ أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله، وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم لله تعالى»[1].

لهذا يجب أن نحذر كل الحذر من الذنوب، فهي مضافاً لما تسبّبه لنا من مآسٍ ومحن في الدنيا، فإنّها توردنا النار، والتعرّض لغضب الجبّار.

قال الإمام الباقر عليه السلام : إنّ العبد ليذنب الذنب فيزول عند الرزق[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : ما انعم الله على عبد نعمة فسلبها إيَّاه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب[3].

---

(١) زين العابدين للمقرم: ١٤١.
(٢) اصول الكافي: ٤٤٠.
(٣) اصول الكافي: ٤٤١.

وقال الإمام الصادق عليه السلام : إن أحدكم ليكثر به الخوف من السلطان وما ذلك إلا بالذنوب، فتوقوها ما استطعتم ولا تمادوا فيها[1].

الهجرة الى الحبشة:

وبعد أن اشتدت رقابة قريش وأذاهم، على المسلمين هاجر أكثر من ثمانين رجلاً وامرأة إلى الحبشة، بزعامة جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فراراً بدينهم من طواغيت قريش، وما إِن استقرّ المهاجرون في دار هجرتهم حتى أرسلت قريش وفداً للنجاشي - ملك الحبشة - ليردّهم إليهم، وبعد أن اجتمع جعفر بن أبي طالب عليه السلام بالنجاشيّ، وقرأ عليه بعض القرآن اقتنع النجاشي بأحقية الدين الإسلامي، وطرد الوفد القرشي، وردّ عليهم هداياهم، وآمن بالإسلام.

الهجرة إلى يثرب:

وفي السنة العاشرة من البعثة مات عمه أبو طالب عليه السلام ، فازدادت قريش في إيذاء النبي ﷺ والمسلمين الذين في مكّة، وكان الإسلام قد امتدّ إلى يثرب، فقد آمن به نفر من الأوس والخزرج، وأخذ ينتشر هناك، مما جعل قريش تفكر في قتل النبي ﷺ ، فقرّ رأيهم على أن ينتخبوا أربعين رجلاً، يختارون من كل قبيلة رجلاً، فيهجمون عليه ليلاً فيقتلونه، ولا يتمكن حينئذٍ بنو هاشم من الطلب بدمه لتوزعه في القبائل، وفعلاً اجتمعوا وبأيديهم سيوفهم، فأعلم الله سبحانه وتعالى نبيّه ﷺ بذلك، وأمره أن يطلب من علي بن أبي طالب عليه السلام أن ينام في فراشه ويخرج.

مبيت علي عليه السلام في فراش النبي ﷺ

بات علي عليه السلام في فراش النبي ﷺ ، وتغطّى ببردته، على علمٍ منه باجتماع القوم على باب الدار، وقد أكبر الله سبحانه وتعالى منه هذا الموقف، فقال

(١) اصول الكافي: ٤٤٢.

لجبرائيل وميكائيل عليهما السلام - وهما سيدا الملائكة -: إنّي قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فمن منكما يؤثر أخاه بطول العمر؟ فاختار كل واحد منهما طول العمر.

فقال سبحانه وتعالى لهما: ألا كنتما مثل محمد وعلي، فقد آخيت بينهما، وها هو علي قد فدى محمداً، إنزلا إلى الأرض واحرساه.

نزلا، فكان جبرائيل عليه السلام عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وهما يقولان: بخٍ بخٍ لك فقد باهى الله بك الملائكة.

وخرج النبي ﷺ من الباب - عن طريق الإعجاز - وهو يقرأ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس/ ٩]، متجهاً نحو يثرب، وقبيل الفجر هجموا على الدار، واستقبلهم علي عليه السلام بسيفه فرجعوا خائبين.

وبعد خروجه ﷺ أرجع علي عليه السلام الأمانات التي كانت عند النبي ﷺ إلى أهلها، ثم خرج بعياله وعيال النبي ﷺ إلى يثرب، ومرّ على مجلس قريش فأعلمهم بخروجه، متحدياً لكبريائهم، وبعد خروجه ندم المكيون على موقفهم من عليّ، وخرج إليه جماعة منهم، أدركوه في الطريق، فطلبوا إليه أن يرجع الى مكة ويخرج ليلاً، فأبى عليهم، وتقدّم إليه بعضهم ممن كان يعدّ بألف فارس، فقتله عليه السلام، وفرّ الباقون، فواصل عليه السلام سيره حتى وصل الى يثرب، وكان النبي عليه السلام ينتظره في قبا، فلم يدخل المدينة حتى وافاه الإمام عليه السلام، وكانت الهجرة في ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة مرّت على البعثة المباركة.

بناء الدولة الجديدة:

وفي يثرب أخذ النبي ﷺ يخطط لدولته الجديدة، فأوّل عمل قام به هو بناء المسجد الشريف، كمحل للعبادة، ومدرسة للعلوم، ومجمع للمسلمين، وعمل آخر قام به ﷺ هو المؤاخاة بني أصحابه، فكان يؤاخي بين المسلم المهاجر - المكي - والمسلم الأنصاري - اليثربي - لتكون الروابط بين المسلمين

وثيقة محكمة.

وكبر على قريش الأمر، فجنّدت كل طاقاتها للإطاحة به صلوات الله عليه في داره الجديدة، فكانت أول حرب لهم معه في بدر - موضع بين مكة والمدينة - فانتصر عليهم انتصاراً عظيماً، قتل سبعين رجلاً منهم، وأسر سبعين آخرين.

طاعة الله والرسول:

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الإحزاب/ ٣٦].

هذه الآية الكريمة تعليم للمسلمين أن يلتزموا بأوامر الله ورسوله، ويقدّموا ذلك على رغباتهم، وما تهواه أنفسهم، لأن الله ورسوله أعرف بما يصلحهم، ويقيم أمرهم ويسعدهم.

نعود للآية الكريمة:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله﴾ إذا أوجب الله ورسوله **﴿أمراً﴾** ألزماه وحكماه **﴿أن يكون لهم الخيرة﴾** الاختيار **﴿من أمرهم﴾** على اختيار الله تعالى، والمعنى: إنَّ كل شيء أمر الله تعالى به، أو حكم به، فليس لأحد مخالفته، وترك ما أمر به إلى غيره **﴿ومن يعص الله ورسوله﴾** فيما يختاران له **﴿فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾** ذهب عن الحق ذهاباً ظاهراً.

٢ - ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٧١].

القرآن الكريم أمر في آياتٍ كثيرة كل مسلم أن يلتزم كل الالتزام بطاعة الله ورسوله، ووعده بذلك النعيم الدائم، والفوز العظيم، ولو قدّر لنا أن نرى صحائف أعمال أهل الجنة لوجدناها مصدّرة بطاعة الله ورسوله، وأن ذلك هو مصدر سعادتهم، وكذلك لو قدّر لنا أن نرى صحائف أعمال أهل النار لوجدناها تنطق بمخالفتهم لله ورسوله.

وقد مرّ عليك أن هذه الطاعة كما تكسبك فوزاً في الآخرة كذلك تكسبك

فوزاً وسعادة في الدنيا، وأن العصيان كما يوردك النار في الآخرة، كذلك يسبب لك المشاكل، ويولّد عندك الأمراض، وليس منّا من لم يبلغه أضرار الخمر والزنا، وعلى ذلك فقس بقية المعاصي.

٣ ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح/ ١٧].

وتتبين عظمة القرآن المجيد في هذه الآية وغيرها، إنك تجد كلمات على عدد الأصابع في وصف جامع مانع للجنّة ونعيمها، وتهديد للعصاة بأعظم ما يكون من التهديد، إنّ هذه البلاغة هي التي جعلت قريشاً وغيرهم من العرب يسخون بالأنفس والأموال في مقاومة الرسالة الإسلامية، ولم يفكروا بالإتيان بما تحداهم به ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٣] لأنهم كانوا على علم بعجزهم عن ذلك.

٤ ـ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ [الحشر/ ٧].

وهذه الآية الكريمة وإن نزلت في حادثة معيّنة إلاّ أن حكمها عام لجميع المسلمين، من الأولين والآخرين.

وأنت يا أخي إذا دخلت الجيش أدركت هذا الأمر الذي نتحدث عنه في هذا الفصل تماماً، فالجندي يتلقّى الأوامر من الضباط للتنفيذ من دون أي اعتراض ونقاش، والضابط أيضاً يتلقاها ممن هو أعلى منه رتبة، وهكذا، وهذا هو النهج المتبع في العالم أجمع، ولو قدّر لكل جندي وضابط أن يناقش الأوامر الصادرة إليه لتعطلت الفعاليات العسكرية، وانتفت الفائدة من إعداد الجيوش.

إنّ الأوامر العسكرية رغم أنها ربما تكون خطأ ـ كما يحدث ذلك دائماً في العالم ـ إلاّ أنها كقاعدة متينة لا يمكن استبدالها أبداً، وهي المتبعة عالمياً.

والله وسبحانه وتعالى أكّد في كتابه الكريم على المسلمين تنفيذ ما أمرهم به ورسوله، علماً أن الحكيم جلّ اسمه منزّه عن الخطأ، وكذلك الرسول الأعظم ﷺ معصوم من كل زلل يصدر منه عمداً أو سهواً؛ وكلُّ الأوامر التي صدرت من الله سبحانه ورسوله ﷺ لو أمعنّا النّظر فيها لوجدناها كلّها لمصلحة

الإنسان في الدنيا قبل الآخرة، وإِنَّ الله ورسوله غنيّان عنا وعن عباداتنا **﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيّ حميد﴾ [إبراهيم/ ٨]**.

نعود للآية الكريمة:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه وارضوا به، وما أمركم به فافعلوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه، فإنه لا يأمر ولا ينهى إلاّ عن أمر الله.

ويقول أمين الإسلام الطبرسي: وهذا عام في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وإِنْ نزل في آية الفيء **﴿فاتقوا الله﴾** في ترك المعاصي وفعل الواجبات **﴿إن الله شديد العقاب﴾** لمن عصاه وترك أوامره.

أهل بيته عليهم السلام

(١)

﴿فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران/٦١].

مرّ عليك آنفاً موضوع المباهلة مع نصارى نجران، وامتناعهم عنها وقبولهم لدفع الجزية، وأيضاً رجوع بعضهم إلى المدينة وإسلامهم.

والآية الكريمة مستمسك على أحقيّة الدين الإسلامي، وأنّه دين الله الذي أمر جميع عباده أن يتديّنوا به، ولا عذر لمسيحي ولا لغيره في التخلّف عنه إن أراد النجاة، كذلك هي مستمسك عظيم على فضل أهل البيت عليهم السلام، وسمو منزلتهم عند الله جلّ جلاله، وأنّه لا يوجد في الأمّة من يضاهيهم لذا أخرجهم رسول الله ﷺ للمباهلة.

(٢)

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [الأحزاب/٣٣].

الرجس: عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضى.

وهذه الآية من آيات كثيرة في فضل أهل البيت عليهم السلام وهم: الرسول الأعظم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، لا يشاركهم فيها غيرهم، بذلك تظافرت الروايات عن أبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وواثلة بن الأسقع، وعائشة، وأُم سلمة.

والرواية عن أُم سلمة: في بيتي نزلت الآية **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾**، فأخذ رسول الله ﷺ فضل الكساء فغشّاهم به ثم أخرج يده فالوى بها نحو السماء، ثم قال: اللَّهمَّ هؤلاء أهل بيتي وحامّتي، فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

ويقول أمين الإسلام: والروايات في هذا كثيرة من طرق العامة والخاصة، ولو قصدنا إلى إيرادها لطال الكتاب[١].

(٣)

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى﴾ [الشورى/٢٣]

في هذه الآية وغيرها كثير أمر الله جلّ جلاله المسلمين بمودّة آل الرسول ﷺ، كما إنَّ الرسول الأعظم ﷺ كان يؤكّد على ذلك، ويكفيك من ذلك حديث الثقلين المجمع على صحته: إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً[٢].

---

(١) مجمع البيان: ٨/١٥٧.

(٢) الثقلان: ١٣، قال الشيخ المظفري عن سند الحديث: إن طرقة بلغت مائتين وخمسين طريقاً.

ويتحدّث العلامة الكبير الشيخ سليمان القندوزي عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأنهم المعنيين بحديث الثقلين فيقول: إنّهم كانوا أعلم أهل زمانهم، وأجلّهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم عند الله، وكان علمهم عن آبائهم متصلاً بجدّهم ﷺ، وبالوراثة واللدنية، وكذا عرفهم أهل العلم والتحقيق، وأهل الكشف والتوفيق، ويؤيد هذا المعنى أي أنّ مراد النبي ﷺ الأئمة الإثني عشر من أهل بيته ويشهده ويرجّحه حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها[1].

فمن هذا وغيره ظهر أنّهم صلوات الله عليهم كانوا أعلم الأُمّة، وأجدرهم بمقام الرسول ﷺ، وكانوا منار الهدى، وأدلاء على الخير، لذا كانت مودّتهم تدعو إلى الأخذ بتعاليمهم، والإقتداء بهديهم، والامتثال لأوامرهم، وكل هذا يؤدّي بالعبد إلى الجنّة، وناهيك بعمل يؤدّي بصاحبه إلى الجنّة.

نعود للآية الكريمة:

﴿قل﴾ لهم يا محمد **﴿لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾** إلاّ أن تودّوا قرابتي وعترتي، وتحفظوني فيهم.

وعن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾** الآية.

قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودّتهم؟ فقال ﷺ: علي وفاطمة وولداهما[2].

وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره قال: حدّثني عثمان بن عمير، عن سعيد بن جبير، عن عبدالله بن عباس: إنَّ رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، واستحكم الإسلام، قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسول الله ﷺ فنقول له: تعرك أُمور، فهذه أموالنا تحكم فيها في غير حرج ولا محظور عليك، فأتوه في ذلك فنزلت **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾** فقرأها عليهم وقال ﷺ تودّون قرابتي من بعدي، فخرجوا من عنده مسلّمين لقوله[3].

---

(١) ينابيع المودة: ٤٤٦.

(٢) مجمع البيان: ٤٨/٩.

(٣) مجمع البيان: ٤٩/٩.

يا نساء النبي

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب/٣٠].

هذه الآية في بيان مضاعفة عقاب نساء النبي ﷺ إن عصين وخالفن، ومضاعفة الثواب لهن في الطاعة، والظاهر انَّ هذه القاعدة تجري لآخرين، فمن ذلك ما ورد ﴿**ذنب العالِم كالعالَم**﴾ وكلمة الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم.

وقوله عليه السلام لرجل له علاقة به كان متهماً عنده: إن الحسن من كل أحد حسن ومنك أحسن لقربك منّا، والسيء من كل أحد سيء ومنك أسوأ لقربك منا.

نعود للآية الكريمة:

﴿**يا نساء النبي من يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة**﴾ بمعصية ظاهرة ﴿**يضاعف لها العذاب**﴾ في الآخرة ﴿**ضعفين**﴾ مثلي ما يكون على غيرهن، وذلك لأنّ نعم الله سبحانه عليهنّ أكثر لمكان النبي ﷺ منهنّ، ولنزول الوحي في بيوتهنّ، فإذا كانت النعمة عليهنّ أعظم وأوفر كانت المعصية منهنّ أفحش ﴿**وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ كان عذابها على الله هيّناً ﴿**ومن يقنت منكن لله ورسوله**﴾ القنوت: الطاعة، والمراد: ومن يطع منكنّ الله ورسوله ﴿**وتعمل صالحاً**﴾ فيما بينها وبين ربّها ﴿**نؤتها أجرها مرّتين**﴾ نؤتها ثوابها مثلي ثواب غيرها.

والذين هاجروا

١ - ﴿والذين هاجروا في الله من بعدما ظُلموا لنبوئّنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ [النحل/٤١].

تفيد بعض الأخبار بأنّك لو صرفت ديناراً بعشرين درهماً، ووضعتها في جيبك، ثم كرّرت حسابها فإذا هي تسعة عشر درهماً، علماً أنّها عشرون ولكنّك اشتبهت في عدِّها، فأنت وإن كنت ثريّاً سوف تتأثر لضياع الدرهم، ولأجل هذا التأثر يعطيك الكريم الرحيم أجراً وثواباً.

فكيف بمن يترك بلده وأهله وماله، ويفر بدينه هرباً من الطواغيت، فلا يعلم إلاَّ الله جلّ جلاله بما لهم من عطاء في الدنيا والآخرة.

وتفيد بعض الأخبار أن باب الهجرة لم يوصد بعد، والمراد: أن الذين يهربون في كل زمان ومكان بدينهم، مفارقين أعزّتهم لا يريدون أن يمدّوا يداً للظالمين، لهم مثل هذا العطاء، علماً أنّ هناك شرطاً ضمنياً هو: أن يحافظوا في غربتهم على ما خرجوا لأجله، وأن تزيدهم نكبتهم تمسّكاً بدينهم، وأن ينشروا تعاليمه في محيطهم الجديد.

ويظهر من السياق أن الهجرة وإن عظمت ثواباً وعطاءً إلاَّ أنها تحتاج إلى صبر، لأنّ المهاجر معرّض للفقر والحرمان، فيحتاج إلى أن يتسلّح بالصبر، كما هو بأمس الحاجة إلى تفويض أُموره إلى الله جلّ جلاله، وأن يعلم أنَّ ما يصيبه هو بعين الله سبحانه، وأنّه سوف يجزل له العطاء دنيا وآخرة.

نعود للآية الكريمة:

﴿والذين هاجروا في الله من بعدما ظلموا﴾ الذين فارقوا أوطانهم وديارهم وأهلهم فراراً بدينهم، وإتباعاً لنبيّهم **﴿في الله﴾**، أي في سبيله، وإبتغاءً لمرضاته، من بعد ما ظلمهم المشركون، وعذّبوهم بمكة، وبخسوهم حقوقهم **﴿لنبوئنّهم في الدنيا حسنة﴾** بلدة حسنة بدل أوطانهم، وهي المدينة، وقيل: لنعطينهم حالة حسنة وهي النصر والفتح **﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾** مما أعطيناهم في الدنيا **﴿لو كانوا يعلمون﴾** لو علموا تفاصيل ما أعدّ الله لهم في الجنة لازدادوا سروراً وحرصاً على التمسّك بالدين **﴿الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكّلون﴾** هذا وصف لهؤلاء المهاجرين، والمراد: أنّهم صبروا في طاعة الله على أذى المشركين، وفوّضوا أمورهم إلى الله تعالى ثقة به.

تعليم وأدب

١ - ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ [المجادلة/١٢].

والإسلام يتوسّل بكل السبل لإنعاش الطبقة الفقيرة، والنهوض بهم، فجعل للفقراء الزكاة والخمس والكفّارات، وأوجب على الأمة أداءها، وحثّ على الصدقات ورغّب فيها أشد الترغيب، ولم يجعل لها مقداراً ولا زمناً، فهو جلّ جلاله يقبل الصدقة بتمرة واحدة ويثيب على ذلك.

وفي هذه الآية أمر جديد لكل مسلم يريد أن يناجي رسول الله ﷺ ـ يسارّه ـ بأن يتصدّق قبل ذلك ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة**﴾ إذا ساررتم الرسول فقدّموا قبل أن تسارّوه صدقة، وأراد بذلك تعظيم النبي ﷺ، وأن يكون ذلك سبباً لأن يتصدّقوا فيؤجروا به، وتخفيفاً عنه ﷺ.

يقول الطبرسي: قال المفسرون: فلما نهوا عن المناجاة حتّى يتصدقوا ظنّ كثير من الناس فكفّوا عن المسألة، فلم يناجيه أحد إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿**ذلك**﴾ أي ذلك التصدّق بين يدي مناجاة النبي ﷺ ﴿**خير لكم**﴾ لأن فيه أداء واجب، وتحصيل ثواب ﴿**وأطهر**﴾ وأدعى لكم إلى مجانبة المعاصي وتركها، وأزكى لكم، تتطهّرون بذلك بمناجاته كما تقدّم الطهارة على الصلاة ﴿**فإن لم تجدوا**﴾ ما تتصدّقون به ﴿**فإن الله غفور**﴾ يستر عليكم ترك ذلك ﴿**رحيم**﴾ يرحمكم وينعم عليكم.

ثم قال سبحانه ناسخاً هذا الحكم ﴿**أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات**﴾ يعني أخفتم الفاقة يا أهل الميسرة، وبخلتم بالصدقة إشفاقاً من العيلة ﴿**فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم**﴾ لتقصيركم فيه ﴿**فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله**﴾ ففي الوقت الذي عفا عن تقصيرهم في هذا الواجب حثّهم على الالتزام بأهم معالم الدين وأركانه وهي: إقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة، والامتثال لأوامر الله ورسوله ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ عالم بأعمالكم من طاعة ومعصية، وحسن وقبيح، فيجازيكم بها.

مرّ عليك ما ذكره الطبرسي عن جمهور المفسرين في الآية الكريمة، وأنه لم يعمل بها أحد غير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ويقول صلوات الله وسلامه عليه: إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي ﴿**يا أيّها**

الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول﴾ كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكلّما أردت أن أُناجي رسول الله ﷺ قدّمت درهماً، فنسختها آية أُخرى **﴿أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات﴾**[1].

فالآية الكريمة منقبة وفضيلة للإمام عليه السلام، علماً أن مناقبه وفضائله قد تجاوزت الحد، وألّفت فيها الكتب الكثيرة، وشهد بها العدو قبل الصديق، وتحدّث بها الركبان، ونظمها أُلوف الشعراء؛ فعن مجاهد: إنَّ رجلاً سأل ابن عباس فقال: ما أكثر فضائل علي بن أبي طالب، وإنّي لأظنها ثلاثة آلاف.

فقال له ابن عباس: هي إلى الثلاثين ألف أقرب من ثلاثة آلاف، ثم قال ابن عباس: لو أنّ الشجر أقلام، والبحر مداد، والإنس والجن كتّاب وحسّاب، ما أحصوا فضائل أمير المؤمنين عليه السلام[2].

ويقول الإمام الشافعي: أسرّ أولياؤه مناقبه خوفاً، وكتمها أعداؤه حقداً، ومع ذلك شاع منها ما ملأ الخافقين[3].

مع المستضعفين

(١)

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ [الأنعام/٥٢].

ومنذ فجر البعثة والضعفاء يلتحقون بموكب الرسالة، والأغنياء معرضون عنها، ويظهر أن هذا ديدن الأمم السالفة، فأولياء الأمور والزعماء، ورجال المال، في كل زمان ومكان في إعراض عن تعاليم السماء، وبعد عن المرسلين.

وبعد قيام الدولة الإسلامية، واتساع رقعة الإسلام، ودخول الجميع في دين

(١) مجمع البيان: ٩/ ٤١٧.

(٢) تذكرة الخواص: ٨.

(٣) احاديث المسلمين من فضائل أمير المؤمنينك ١٧.

الله أفواجاً طلب بعض المترفين من الرسول الأعظم ﷺ أن ينحّي عنه المستضعفين، فنزلت الآية الكريمة.

وينبغي للمسلم أن يستفيد من هذه الآية أدباً وخلقاً، فلا يستهين بفقير أو ضعيف، لا سيّما وأنّ الله سبحانه أخفى وليّه في عباده، ولعلّ الرجل الذي تزدريه عينك هو عند الله سبحانه من المقرّبين، فيلحقك بتهوينه مكروه في الدنيا والآخرة.

(٢)

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾ [الكهف/٢٨].

أمر الله جلّ جلاله نبيّه الكريم ﷺ بملازمة نفر من أصحابه كان شغلهم الشاغل ذكر الله جلّ جلاله، فهم يصبحون في ذكر الله تعالى، ويمسون في ذكره، الزمه ذلك تكريماً لهؤلاء الأبرار، وانشغالاً بهم عن الآخرين، وكي يتعلّم كل فرد من أفراد المسلمين فيحصر اتصاله بأهل الدين والورع، فالطبع مكتسب من كل مصحوب، والمثل: قل لي من تجالس أقل لك من أنت، والحذر كل الحذر من مصادقة الناس البعيدين عن نهج السماء، المنشغلين بالدنيا، فلو لم يكن في ذلك إلاّ ضياع الوقت معهم لكفى به خسارة؛ ويقول الإمام الحسن عليه السلام لجنادة بن أبي أمية وقد طلب منه أن يوصيه:

وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فأصحب من إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أردت معونة أعانك، وإذا قلت صدّق قولك، وإذا صلت شدّ صولك، وإذا مددت يدك بفضل مدّها، وإذا بدت منك ثلمة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتّ عنه ابتداك، وإن نزلت بك إحدى الملمّات واساك، من لا يأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عنه الحقائق[1].

وقبل البدء بتفسير الآية نذكر أنّ علماء التفسير ذكروا أنّ هذه الآية الكريمة

(١) اعيان الشيعة: ٤/١٠٥.

نزلت في سلمان الفارسي رضوان الله عليه، فكان عليه كساء فيه يكون طعامه وهو دثاره ورداؤه، وكان كساء من صوف، فدخل عيينة بن حصين على النبي ﷺ وسلمان عنده، فتأذّى عيينة بريح كساء سلمان وكان قد عرق فيه، وكان يوم شديد الحر، فعرق في الكساء، فقال: يا رسول الله إذا نحن دخلنا عليك فاخرج هذا واصرفه من عندك، فإذا نحن خرجنا فأدخل من شئت، فأنزل الله **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾** وهو عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاري(1).

نعود للتفسير:

﴿واصبر نفسك﴾ يا محمد **﴿مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي﴾** يداومون على الدعاء عند الصباح والمساء، لا شغل لهم غيره **﴿يريدون وجهه﴾** يطلبون رضوانه **﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾** ولا تتجاوز عيناك عنهم بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا **﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾** مريداً مجالسة أهل الشرف والغنى **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾** خذلناه، وخلّينا بينه وبين الشيطان بتركه أمرنا **﴿واتبع هواه﴾** في شهواته وأفعاله **﴿وكان أمره فرطاً﴾** سرفاً وإفراطاً، والمراد: أنّه ترك الإيمان، والإستدلال بآيات الله، واتبع الهوى.

إذا جاءك المؤمنات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ. . . ﴾ **[الممتحنة/١٢]**.

في الوقت الذي كانت الأمم تنظر للمرأة بعين الاحتقار والازدراء وإذا بالإسلام يرفع من قدرها، ويخاطبها أُسوة بالرجل ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: ٣٥].

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٣٤.

كما يذكر بعض النساء اللاتي بلغن الذروة العليا من الإيمان والتقى والعمل الصالح، كمريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وربّما وجّه الخطاب والتكليف للمرأة بأجمل أسلوب؛ فيقول تعالى في هذه السورة: ﴿**يا أيّها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك**﴾ على هذه الشروط وهي ﴿**أن لا يشركن بالله شيئاً**﴾ من الأصنام والأوثان ﴿**ولا يسرقن**﴾ لا من أزواجهن ولا من غيرهم ﴿**ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن**﴾ لا بالوأد ولا بالأسقاط ولا بغيرها من الكيفيّات المستعملة ﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه**﴾ أي بكذب يكذبنه في مولد يوجد ﴿**بين أيديهن وأرجلهن**﴾ لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، فقد كانت المرأة تلتقط المولود وتقول لزوجها هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعته الأُم سقط بين يديها ورجليها ﴿**ولا يعصينك في معروف**﴾ وهو جميع ما يأمرهن به، لأنه لا يأمر إلاّ بالمعروف، وهو كل ما دلّ العقل والسمع على وجوبه أو ندبه، وسمّي معروفاً لأنّ العقل يعترف به من جهة عظم حسنه ووجوبه ﴿**فبايعهن**﴾ على ذلك ﴿**واستغفر لهن الله**﴾ أطلب من الله أن يغفر لهنّ ذنوبهنّ، ويسترها عليهنّ ﴿**إن الله غفور**﴾ صفوح عنهنّ ﴿**رحيم**﴾ منعم عليهنّ.

إذ كنتم أعداء

٢ - ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران/١٠٣]

وهذا لو تأمّله متأمّل لوجده من أعظم المعاجز، وأكبر العبر؛ فالعداء المستحكم بين الأوس والخزرج، والحروب الطاحنة التي كانت بينهما مستمرة عشرات السنين قد تحوّلت إلى إخاء وصفاء، وأصبح المسلم الخزرجي يحب أخاه المسلم الأوسي أكثر من حبّه لأخيه الذي من أمّه وأبيه إذا لم يكن مسلماً.

ولو لم يكن للإسلام ولنبيّه معجزة إلاّ هذه الألفة والمحبّة التي أعقبت ذلك العداء المستحكم لكفى بذلك دليلاً على عظمة الإسلام، وأنّه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يقبل من أحد ديناً سواه.

ويقول علي بن إبراهيم: نزلت في الأوس والخزرج، كانت الحرب بينهم

مائة سنة، لا يضعون السلاح بالليل ولا بالنهار، حتّى ولد عليه الأولاد، فلما بعث الله نبيّه أصلح بينهم، فدخلوا في الإسلام، وذهبت العداوة من قلوبهم برسول الله ﷺ، وصاروا إخواناً[1].

محمد رسول الله والذين معه

١ ـ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح/٢٩]

في هذه الآية الكريمة، وصف للمؤمنين الأولين، وجدير بكل مؤمن أن يكتسب منهم هذه الصفات الكريمة ليسعد سعادة لا شقاء بعدها.

ومعنى الآية الكريمة: إنَّهم في منتهى القوّة مع الكافرين، تشهد بذلك حروبهم ومواقفهم البطولية فيها، لهذا صار الواحد منهم يقابل عشرة من الأعداء **﴿أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين﴾ [الأنفال/٦٥]** علماً أنّ بعضهم كان يعيش في ضعف وشيخوخة، ولكنّها قوّة الإيمان، ونور اليقين جعلاه هكذا.

٢ ـ ﴿رحماء بينهم﴾

فهم متعاطفون متحابون إلى أبعد ما يتصوّر **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر/٩]**.

ويقول أمين الإسلام: وبلغ تراحمهم فيما بينهم إن كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلاَّ صافحه وعانقه.

٣ ـ ﴿تراهم ركّعاً سجّداً﴾

المراد بذلك كثرة صلاتهم، فهم مواظبون على الفرائض اليومية والنوافل، والصّلاة المستحبّة.

٤ ـ ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾

يلتمسون بذلك رضا الله سبحانه، والدرجات الرفيعة التي أعدّها لأوليائه،

---

(١) تفسير القمي: ١/١٣٦.

والراغبين في ما عنده.

٥ ـ ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾

يظهر من الآثار أن لكل فريق من المحسنين في القيامة آثار من نور وغيره تميّزه عن غيره، فالمصلين تكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر.

٦ ـ ﴿مثلهم في التوراة والإنجيل﴾

الكتب السماويّة كلّها بشّرت بالنبي محمد ﷺ، وأزيدك إنَّ جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يعلمون بسمو منزلته، وعندما تنيبهم نائبة، يتوسّلون إلى الله تعالى به.

نذكر لك ـ على سبيل المثال ـ ما رواه ابن كثير: ولمّا اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلاّ غفرت لي.

فقال الله: فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟

قال: يا رب لأنّك لما خلقتني بيدك، ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً **﴿لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله﴾** فعلمت أنّك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحبّ الخلق إليك.

قال: صدقت يا آدم، إنّه لأحبّ الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك[1].

والآية الكريمة تذكر أن التوراة والإنجيل اشتملا على وصف أصحابه ﷺ **﴿مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾** فراخه **﴿فآزره﴾** شدّه وقوّاه **﴿فاستغلظ﴾** غلظ ذلك الزرع، وساوت الفراخ أُمهاتها **﴿فاستوى على سوقه﴾** قام على أصوله. والمراد: تناهى في النمو وبلغ الغاية **﴿يعجب الزّراع﴾** يسرّهم ذلك.

٧ ـ ﴿ليغيظ بهم الكفّار﴾.

إنّ الله جل جلاله كثّرهم وقوّاهم ليكونوا غيظاً على الكافرين.

---

(١) قصص القرآن

٨ ـ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾.

وعد الله جلّ جلاله من ثبت منهم على الإيمان، واستمرّ على الطاعة، أن يغفر له ما سلف من ذنوبه، ويجزل له الثواب على عمله.

لماذا بُعث النبي ﷺ من مكة

ولعلّ هناك من يسأل عن السبب الذي تميّزت به مكّة المكرّمة باحتضانها لرسالة السماء دون سائر البلدان.

ولست أنا وحدي أجهل السبب، بل جميع الناس يجهلون ذلك، وعلم ذلك عند الله سبحانه وتعالى، ولكن لا يمنعني وأنا أجهل السبب أن أُجيب عن بعض الدواعي لأن تكون مكّة المكرّمة موطن الرسالة الأوّل.

فمكّة فيها بيت الله الحرام، الذي أمر الله سبحانه نبيّه إبراهيم عليه السلام ببنائه، وعند اتمامه أمره بالحجّ، وأن يطلب من الناس حجّة، فهو منذ زمن إبراهيم عليه السلام يحجّ الناس إليه، وتعرف العرب حرمته، فبعثة النبي ﷺ من هذا البلد تكون أنسب من أي بلد آخر، وهي مدعاة لأكثر الناس للإيمان بالنبي أو ـ على الأقل ـ التعرّف على خبره، والتحدّث عنه.

ثم إنّ مكة وسط الجزيرة العربية، بل وسط الدنيا ـ كما في الحديث ـ فمملكة فارس ممتدة إلى العراق، والعراق محادد للحجاز ومملكة الروم ممتدة الى سورية وهي ايضاً محادة للحجاز، وفارس والروم مملكتا العالم يومئذٍ، أضف إلى ذلك حدود الحجاز مع الحبشة واليمن، ومرتبتهما تأتي بعد الدولتين، ولا يفصله عن الهند والسند إلاّ البحر الأحمر.

وعند علماء الغرب

وهذا باب واسع جداً، ولا يمكن احصاء ما جاء فيه، لأنه يندر أن يخرج كتاب عن العظماء ولم يصدره كاتبه بمحمد ﷺ، ولم يكتب باحث عن موضوع

اجتماعي أو أخلاقي، أو انساني، ويستطيع أن يتجاهل الرسول الأعظم ﷺ، ولم يتغنّ شاعر بأمجاد الإنسانية ويتناسى مآثر الرسول الأعظم ﷺ في توطيد صرح الحق والعدالة.

وأزيدك علماً أنّ عدداً كبيراً من علماء الغرب وفلاسفته كتبوا كتباً مستقلة، عن حياة الرسول الأعظم ﷺ، نذكر منهم على سبيل المثال: العلامة السويسري (دي منته) له كتاب (محمد والقرآن) والمستشرق الأمريكي (ر.ف. بودلي) له (حياة محمد) طبع مراراً باللغة العربية، و(ر. بلاشير) له كتاب (مسألة محمد) و(جوته) الشاعر الإلماني ألف (النشيد المحمدي) وكتب (مسرحية محمد) والعلامة (بثورت سميت) له كتاب (حياة محمد) والسير (وليم ميور) له (حياة محمد) وغيرهم كثير.

ولو قدّر للجنة مؤلفة من خبراء باللغات الحيّة، وتستعرض الموسوعات العلمية في البحث عما كُتب عنه ﷺ لحصل عندهم معجم كبير.

نذكر في هذه الصفحات قبساً منيراً من كلماتهم، وللمزيد راجع كتاب العلامة الشيخ خليل ياسين رحمه الله (محمد عند علماء الغرب).

١ ـ قال الفيلسوف (تولستوي): يكفي محمداً فخراً أنّه خلّص أمّة ذليلة دمويّة من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدّم، وانَّ شريعة محمد ﷺ ستسود العالم لإنسجامها مع العقل والحكمة[١].

٢ ـ وقال (فولتير): وكان محمد ﷺ رجلاً عظيماً جدّاً بلا ريب، وقد ربّى في حجر فضله وكماله رجالاً عظاماً أيضاً.

كان مشرّعاً حكيماً، وسلطاناً عادلاً، ورسولاً تقيّاً، وأحدث أكبر ثورة في الأرض، وكان (فولتير) يحترم النابغة الكبير (مارتين لوثر) فكأنّه سئل عن القياس بينه وبين محمد ﷺ: فقال: ليس جدير للوثر أن يحمل بنود حذاء

(١) الاسلام والخصال الغربية: ١٢٢.

محمد ﷺ[1].

٣ ـ وقال (بثورت سميت) في كتابه (حياة محمد): إنّ محمداً ﷺ لمؤسّس أُمّة ومملكة وديانة، وهذا أمر لم يوجد له سبق مثال ولن يوجد[2]..

٤ ـ وقال الدكتور (ماركس) البريطاني في بحث له عن القرآن الكريم: جاء محمد وعلمنا الحقيقة[3]...

٥ ـ وقال (دي منته): ينبغي أن يعد محمد ﷺ في صف أعاظم المحسنين للبشرية[4].

٦ ـ ويرى (غوتة) في محمد ﷺ: رسول الدين الأصلي، أو الأساسي والطبيعي، والإنسانيّة لا تستطيع ـ حسب رأيه ـ أن تكمل إلاّ بالتوفيق بين الشرق والغرب[5].

٧ ـ وقال (بورست سميث): إنّي مصمم بالإعتقاد على أنّه سيأتي يوم يتفق فيه القوم، وزعماء النصرانية على أنّ محمداً نبيّ، وأنّ الله بعثه حقّاً للناس كافة، بشيراً ونذيراً[6].

٨ ـ وقال (دافيدي سانتيلانا): لا يمكن لله أن يبعث أو يختار رسولاً أو مبشّراً أو وكيلاً آخر بعد أن أرسل محمداً مبشّراً ومنذراً بكلمته النهائيّة[7].

٩ ـ وقال اللورد (هدلي): طُلب مني أن أضع رسالة بما كان للنبي من فضل على الجنس البشري، وشيء من حياته وسيرته، فشرعت في ذلك الحين أقلّب ما كتبه المتقدّمون من هذه السيرة خلال القرون التي أعقبت موت النبي ﷺ، فوجدت أنّهم لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة مما يتعلّق بحكاية ذلك المبعوث الإلهي

(١) الاسلام والحضارة الغربية: ١٢٢.
(٢) لمحات من تأريخ القرآن: ٣٥٢
(٣) اضواء على متشابهات القرآن: ٢/٣٥٩.
(٤) لمحات من تأريخ القرآن: ٣٥٠.
(٥) الاسلام في الغرب: ٢٤٦.
(٦) ماذا في التاريخ: ٧٢/١٦.
(٧) ماذا في التأريخ: ٧٢/٣٤.

دون أن يلمّوا بها[١].

١٠ ـ وقال الدكتور (ليتر): إنّي بكل احترام أقول: إذا كانت تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القوي الثابت، والنظر الثاقب الصادق بدقائق وخفايا الخطيئة الضالة، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذاك من العلاقات الظاهرة الدالة على نبوّة محمد ﷺ، بل تعم الناس جميعاً، ولقد جاء دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين لبقوا غرقى في التوحّش والهمجية، ولا كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام[٢].

١١ ـ وقال الفيلسوف (برنادشو): إنّ رجال الدين في القرون الوسطى ـ نتيجة للجهل أو التعصّب ـ قد رسموا لدين محمد صورة قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوّاً للمسيحيّة، لكنني أطلعت على أمر هذا الرجل فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصّلت إلى أنّه لم يكن عدوّاً للمسيحية، بل يجب أن يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي إنَّه لو تولّى أمر العالم اليوم لوفق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها[٣].

١٢ ـ وقال الدكتور (شبرك النمساوي): إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنّه رغم أمّيته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون إذا توصّلنا إلى قمّته[٤].

١٣ ـ ظهر أخيراً في الولايات المتحدة الأميركية كتاب جديد للدكتور (هارت) الذي يحمل أربع شهادات دكتوراه: الأولى في الرياضيات، والثانية في القانون، والثالثة في الفيزياء، والرابعة في الفلك، وهو الآن مسؤول علمي عن التطبيقات العلمية لعلوم الفضاء في الولايات المتحدة؛ ومن أخص صفاته أنه يبذل جهداً جبّاراً خارقاً في القراءة والمطالعة، بخاصة تاريخ العالم وحضارته بكل

---

(١) ماذا في التاريخ: ٧٢/ ٣٤.
(٢) ماذا في التأريخ: ٧٢/ ٣٥.
(٣) نور الاسلام: ١٩ ـ ٢٠/ ١٠٣
(٤) نور الاسلام: ١٩ ـ ٢٠/ ٩٩.

وجوهها، واسم كتابه الجديد (المئة) وموضوعه أهم مئة رجل في التاريخ الإنساني كله، وقد أخذ على نفسه أن يرتب المئة في الذكر تبعاً لأهمية كل واحد منهم، فالأول عظمة هو الأول ذكراً، وهكذا الثاني والثالث.

وقد اختار الأول من المئة محمداً ﷺ، ويدل على أن هذا المؤلف على درجة من التجرّد وعدم الإنحياز لأنه مسيحي، علماً بأنه جعل السيد المسيح عليه السلام في الرقم الثالث، وموسى الكليم عليه السلام في الرقم السادس عشر، وبرّر المؤلف المسيحي اختياره محمداً للأولويّة بقوله: إنّ اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يُدهش القرّاء، لكنّه الرجل الوحيد في التاريخ كلّه الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي، فهناك رسل وحكماء بدأوا رسالات عظيمة ولكنّهم ماتوا دون إتمامها كالمسيح في المسيحيّة، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليها سواهم، كموسى في اليهوديّة، ولكنّ محمداً هو الوحيد الذي رسالته الدينية كاملة، وتحدّدت كل أحكامها، وآمنت بها الشعوب بأسرها في حياته، لأنّه أقام إلى جانب الدين دولة جديدة، ووحّد القبائل المختلفة في شعب متقدّم، والشعوب من أمّة متحضّرة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم أيضاً في حياته، ثم يضيف إلى ذلك: إنّ معظم الذين غيّروا التاريخ ظهروا في قلب أحد المراكز الحضارية في العالم... ولكنّ محمداً هو الوحيد الذي نشأ في بقعة صحراء جرداء مجرّدة تماماً من كل مقوّمات الحضارة والتقدّم، ولكنّه جعل من البدو البسطاء المتحاربين قوّة معنوية هائلة قهرت بعد ذلك امبراطوريات فارس وبيزنطيّة وروما المتقدّمة بما لا يُقاس. وفي تاريخ الغزو في كل زمان ومكان يكون الغزو عسكرياً، ولكن الرسالة المحمدية جعلت معظم البلاد التي فتحها خلفاؤه عرباً تماماً، وتغيّرت لغةً وديناً وقوميّة.. وثبت ذلك واستقر بما ليس له مثيل في تاريخ الفتح في العالم... كذلك لا يوجد نص في تاريخ الرسالات نقل عن رجل واحد وبقي بحروفه كاملاً دون تحريف سوى القرآن الذي نقله محمد، الأمر الذي لا ينطبق على التوراة مثلاً أو الإنجيل.. ومن أجل ذلك وجدت أنّ محمداً هو صاحب الحق الوحيد في أن أعتبره صاحب أعظم تأثير على الإطلاق في

التاريخ الإنساني[1].

١٤ ـ وقال (لامرتين) شاعر فرنسا العظيم: إنّ كل ما في حياة محمد ﷺ يدلّ على أنه لم يكن يضمر خداعاً، أو يعيش على باطل.. إنه هادي الإنسان إلى العقل، ومؤسس دين لا فرية فيه[2].

غزواته

والإسلام هو دين السلم، ورائد السلام، لا يعلن الحرب إلاَّ عندما تفشل جميع السبل الأخرى.

لقد أدّب الله جلّ جلاله نبيّه ﷺ بأن يستجيب لكل عرض سلمي **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [الأنفال/٦١]**.

إنّ حروب الإسلام كلّها دفاعية لا مناص منها، ونحن نذكر دواعي بعضها على سبيل المثال.

فبدر، وقد أقبلت قريش لتستأصله، وهم بعد أن علموا بنجاة أموالهم أصرّوا على الاشتباك، مما دفع بعضهم إلى التفلّت وترك ساحة الحرب.

وبعث رسول الله ﷺ إلى قريش يطلب منهم الرجوع.

ويوم أُحد وقد وصلت قريش إلى ضواحي المدينة، وكذلك يوم الخندق.

وأيضاً حروبه مع اليهود كان لا بدّ منها، فقد نقضوا العهود التي أبرمها معهم وعاونوا أعداءه.

يقول كعب بن أسد زعيم بني قريظة لحيي بن أخطب ـ المحرّك لحرب اليهود بل ولقريش ـ لمّا حمله على نقض العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ، وإعلان الحرب على المسلمين، والإنضمام إلى صفوف الأحزاب: إنك امرؤ مشؤوم، وإنّي عاهدت محمداً ولست بناقض عهده، لأنّي لم أر منه إلاَّ صدقاً ووفاءً.

---

(١) تجارب مغنية: ١٦٠.

(٢) تجارب مغنية: ٢٠٢.

إنّ جل المنصفين من علماء الغرب يرون أنّ حروب الإسلام كانت دفاعيّة، وأنّه ليس كما يقول أعداؤه انتشر الإسلام بالسيف.

يقول (جوتستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب عن المسلمين: لم يفرضوا بالقوّة دينهم الجديد، كانوا يريدون بثّه في أفكار العالم[1].

قال الفيلسوف (كارليل) في كتابه الأبطال: ولقد قيل كثير من شأن نشر محمد دينه بالسيف، ولشدّ ما أخطأوا وجاروا[2]. . .

وقال (جيمس متشز): اعتقد الغرب أنّ توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتمّ لو لم يعتمد المسلمون السيف، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأي، فالقرآن صريح في تأييده لحريّة العقيدة، والدليل قوي على أنّ الإسلام رحّب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة، وقد حرص محمد على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى[3].

ونحن في بحثنا عن النبوّة والنبي ﷺ مرّت بنا بعض الآيات التي تحدثت عن بعض الوقائع فسجلناها، نذكر بعض ما نزل في غزوة بدر:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الأنفال/٥].

١ ـ المنطلق

لقد استعملت قريش جميع أساليب الإرهاب مع المسلمين، ووقفت أمام الإسلام بكل طاقاتها وإمكانياتها، ولا يعلم إلاّ الله سبحانه ما لاقى المسلمون الأولون من الأهوال والصعاب، وأنت إذ تأملت كلمة الرسول الأعظم ﷺ: ما أُوذي نبيٌّ بمثل ما أُوذيت، أدركت خطورة الموقف، فالزعامة الهاشمية، والسيادة العريقة لبيت عبد المطلب لم تستطع أن تحول بين رسول الله ﷺ وقريش،

(١) محمد رسولاً نبياً: ٢٢١.

(٢) المصدر: ٢٢٢.

(٣) المصدر: ٢٢٢.

فكيف يكون حال المستضعفين؟!

إننا جميعاً نعلم ما حلّ بآل ياسر من التعذيب، كانت قريش تخرجهم وقت الظهيرة إلى الرمضاء، يجردونهم من ثيابهم، ويطرحونهم على الأرض، ثم يعلوهم بالسياط.

ومضافاً إلى التعذيب والأذى الذي عاناه المسلمون فقد جرّدوهم من أموالهم، وصادروا الغالي والرخيص منها، فكان لزاماً على الإسلام ـ بعد أن أصبح قوّة ـ أن يلقّنهم درساً، ويأخذ ما أمكنه من أموالهم بالمقاصّة، ليحدّ بذلك من ارهابهم وطغيانهم، ويريهم عزّة الإسلام ومنعته.

لهذا وغيره صار الرسول الأعظم ﷺ يخطط لذلك، فرأى أن يقطع عليهم خط مواصلاتهم، وشريان حياتهم.

إن قوافل قريش التجارية التي تسير بين مكة والشام لا بدّ لها من أن تمرّ بمحاذاة المدينة، فإذا نجح في اعتراضها فقد أحرز نصراً عظيماً، وحدّ من استهتارهم واستعلائهم، وفعلاً أرسل الرسول ﷺ عدة سرايا لهذا الغرض، كسرية حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، ويظهر من هذه السرايا أنّ نجاحها كان سياسيّاً أعظم من نجاحها ماديّاً، فقد زرعت الرعب في قلوب الطغاة، وأخذوا يحسبون لقوّة الإسلام حسابها.

وبلغ الرسول الأعظم ﷺ قدوم أبي سفيان من الشام بقافلة تجارية كبيرة، قد ساهم فيها جميع الطغاة والمتمولين، فصار يخطط للإستيلاء عليها.

كان ﷺ يتكتم ويأخذ كل الحذر في أعماله العسكرية، فربما يكون قصده إلى جهة ويري الناس أنّه خرج لغيرها، إنَّ من تتبّع نهجه العسكري يجده في قمة لا توازيها عسكرية القرن العشرين الحديثة.

وثمّ شيء آخر، ربّما كان نفسه ﷺ تأتيه الأوامر السماوية تدريجياً، فلهذا فقد أمر بالخروج لاعتراض العير لأنّ هيبة قريش وقوّتها تمنع المسلمين أن يخرجوا لملاقاتها مع ما هم فيه من ضعف، وبعد أن خرجوا بأحلام النصر، وتعبّأت نفوسهم في هذه الفترة قوّة وبسالة تغيّر نهج العمل.

وكيف ما كان فقد خرج ﷺ بنفسه، وخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر مسلماً، معظمهم في سلاح خفيف للغاية، تعوزهم الرواحل فضلاً عن جياد الخيل التي لها الأثر الأكبر في كسب المعارك.

وعلم أبو سفيان بذلك فأرسل رسولاً يستصرخ قريش ليمنعوه من المعترضين، وعمل شيئاً آخر، فقد ساحل[1] بالقافلة ليبعد عنها الخطر، وفعلاً نجح في مسعاه.

٢ ـ ﴿يجادلونك في الحق من بعدما تبيّن لهم﴾.

وبعد أن تبيّن للمسلمين أنّ الإتجاه الآن يستهدف قريشاً فقد صعب على البعض منهم، وأبدى آخرون تحفّظات أساءت الرسول الأعظم ﷺ، لا سيّما وانها كانت من قرشيين، ولكن انبرى بطل من المهاجرين فغيّر الموقف تماماً، مما جعل الرسول الأعظم ﷺ يستبشر، إن هذا البطل هو المقداد رضوان الله عليه.

إنّ في كل مجتمع رجال فضيلة وتقى وصلاح، بهم تقام الحجّة على قومهم، وبهم يدفع الله المكروه والعقاب عن الأُمّة كرامة لهم، تجد هؤلاء دعاة إلى الله سبحانه بأعمالهم وأقوالهم، يأمرون قومهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويطلبون منهم المبادرة للعمل الصالح.

وفي طليعة هؤلاء المقداد، فقد روى الشيخ الأقدم علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: ونزل جبرائيل على رسول الله ﷺ فأخبره أنّ العير قد أفلتت، وأنّ قريشاً أقبلت لتمنع عن عيرها، وأمره بالقتال، ووعده النصر، وكان نازلاً ماء الصفراء، فأحبّ أن يبلو الأنصار لأنّهم إنّما وعدوه أن ينصروه في الدار، فأخبرهم أنّ العير قد جازت، وأنّ قريشاً قد أقبلت لتمنع عن عيرها، وأنّ الله قد أمرني بمحاربتهم، فجزع أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك، وخافوا خوفاً شديداً، فقال: أشيروا عليّ، فقام الأوّل فقال، يا رسول الله إنّها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، ولا ذلّت منذ عزّت، ولم تخرج على هيئة الحرب.

---

(١) ابتعد عن المدينة متجهاً نحو ساحل البحر.

فقال له رسول الله ﷺ: إجلس، فجلس.

فقال: أشيروا عليّ، فقام الثاني فقال مثل مقالة الأوّل.

فقال رسول الله ﷺ: إجلس، فجلس.

ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله إنّا قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند الله، ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا[1] وشوك الهراش[2] خضنا معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: **﴿إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾** ولكنّا نقول: أذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون.

فجزّاه النبي ﷺ خيراً، ثم جلس[3].

لقد كانت كلمة المقداد اللبنة الأولى للنصر الساحق الذي أحرزه المسلمون، سجّلها له التاريخ بمداد من ذهب.

٣ ـ ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾.

والمعنى: إن مالوا إلى الصلح وترك الحرب فمل إلى ذلك.

وهذا هو نهج الإسلام، وهذه تعاليمه، وهذا يكفي في رد الذين يزعمون أنّ الإسلام دين السيف والبطش؛ إنّه لا يستعمل السيف إلاّ كآخر علاج.

وامتثل الرسول الأعظم ﷺ لتعاليم السماء فبعث إلى قريش: يا معشر قريش ما أحد من العرب أبغض إليّ ممن بدا بكم، خلّوني والعرب، فإن أكُ صادقاً فأنتم أعلى بي عيّناً، وإن أكُ كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري، فارجعوا.

فقال عتبة: ما أفلح قوم قط ردّوا هذا[4].

---

(١) الغضا: شجر من الاثل، خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىء.

(٢) الهراش: شجر شائك.

(٣) تفسير القمي: ٢/٢٥٩، وجميع كتب السيرة ذكرت هذا الموقف المشرف للمقداد رضوان الله عليه.

(٤) تفسير القمي: ١/٢٩٠.

والواقع أنّ عروض السلام التي قدّمها الرسول الأعظم ﷺ لاقت قبولاً من جميع القادة والجنود باستثناء أبي جهل، فقد أصرّ اصراراً غريباً على الحرب، وكاد أن ينشب القتال بينه وبين عتبة.

والواقع أن عتبة بذل أقصى ما يمكن من جهود في الرجوع، فقد قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك الفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون[1].

وله موقف آخر فيهم فقد قال: أرى قوماً مستميتين، لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، ولقد علمتم أنّي لست بأجبنكم.

فسمع أبو جهل فقال: أنت تقول هذا! والله لو غيرك يقول هذا لعضضته، لقد ملئت رئتك خوفاً ورعباً.

فقال عتبة: إياي تعيّر يا مصفّر استه، ستعلم اليوم أيّنا جبن[2] إن عروض السلام جعلت عدداً كبيراً من القرشيين لم يشهد الحرب، ويختفي ليلاً من ساحة القتال. إنّ الأخنس بن شريق قال لبني زهرة: يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جبنها وارجعوا، فإنه لا حجَّة لكم أن تخرجوا في ضيعة، لا ما يقول هذا ـ يعني أبا جهل ـ فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد، وكان فيهم مطاعاً[3].

٤ ـ ﴿وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنّها لكم﴾.

إنّ الرسول الذي أرسله أبو سفيان إلى قريش ـ واسمه ضمضم بن عمرو

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/١٤٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/١٣٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/١٤٣.

الغفاري ـ جاء في صورة جعلتهم يسرعون إلى الخروج بكل طاقاتهم وإمكانياتهم، إنّه أخذ يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد تعرّض لها محمد في أصحابه، ولا أراكم تدركوها، الغوث الغوث[١].

وأزيدك علماً إنَّ بعض القرشيين الذين كانوا عاجزين عن الخروج لمرض أو شيخوخة، فكانوا يستأجرون من ينوب عنهم في هذه الحرب.

فبين ليلة وضحاها خرجوا على أتم استعداد وقوة وتخطيط، وأنت إذا علمت أنه لم يكن في الجيش الإسلامي سوى فرسين، وخرجت قريش بمائتي فرس أدركت البعد الشاسع بين القوتين.

وبعد أن خرجوا بهذه الصورة كان أبو سفيان قد أصبح على مشارف مكة، قد أمن الطلب، أرسل إلى قريش: إنّكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجّاها الله فارجعوا.

فقال أبو جهل بن هشام: لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، تجتمع لهم بها سوق كل عام ـ فنقم عليه ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً[٢].

ونزل جبرائيل عليه السلام بالآية الكريمة: **﴿وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ [الأنفال/ ٧]**.

والمعنى: إنّكم لا بد من أن تستولوا على القافلة أو الجيش، ولما كانت القافلة قد فاتتكم فلم يبق إلاّ النصر العسكري، علماً أنّكم تودّون أن تربحوا القافلة، خوفاً من معاناة الحرب وشدائدها **﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾** والله أعلم بالمصالح منكم، ويريد أن يظهر الحق بلطفه، ويعزّ الإسلام، ويهلك قادة

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ١٣٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ١٤٣.

الضلال على أيديكم، بكلماته السابقة، بمواعيد التي أشار إليها بقول تعالى:

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنّهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات/ ١٧٣].

٥ ـ ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾:

لقد بذل المسلمون جهدهم في يوم بدر ولكن الفرق بين الجيشين عظيم، فعدد المشركين كان أكثر من ثلاثة أضعاف المسلمين ، وحتى التغذية ـ وهي عامل مهم في الحرب ـ فقد كان غذاء كل مسلم بضع تميرات، بينما غذاء المشركين في كل يوم عشرة جزر، ولكن التوجه إلى الله تعالى، والاستعانة به لها الأثر الأكبر في النصر وكسب الحرب.

٦ ـ ﴿إني ممددكم بألف من الملائكة﴾:

ولم تقاتل الملائكة في مشهد من مشاهد رسول الله ﷺ إلاّ في يوم بدر، لأجل كسر شوكة المشركين، وإبراز هيبة الإسلام في النفوس، ولعلّ أهم من هذا وذاك كانوا في ذلك المشهد أشد تعلّقاً بالله جلّ جلاله، والدليل على هذا ما ذكرناه من الاستغاثة بالله تعالى والتوسّل به، بينما تراهم في يوم حُنين **﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾**.

٧ ـ ﴿إذ يغشاكم النعاس﴾:

ولم يقتصر العون الإلهي للمسلمين في يوم بدر بنصر الملائكة فحسب، بل انضم إليه عوامل أخرى كثيرة كان لها الأثر الكبير في كسب المعركة، فمن ذلك **﴿إذ يغشاكم النعاس﴾** والنعاس: الوسن وأول النوم، وهي ريح لطيفة تأتي من قبل الدماغ تغطّي العين ولا تصل إلى القلب، فإذا وصلت إليه كان نوماً، فهذا الذي حصل لهم مظهر من مظاهر الاستقرار الذي جعله الله لهم، لأن النوم يشتمل على الأمن، لأن الخائف لا ينام.

٨ ـ ﴿وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهّركم به﴾:

كذلك نزول المطر، فقد كان ايضاً من عوامل النصر، لقد كان المسلمون عطاشى، كما ان بعضهم كان بحاجة إلى الغسل، وأعظم من هذا وذاك أثره في

أرض المعركة، لا سيما وقد نزل في جانبي العسكر ـ على قرب ما بينها من مسافة ـ بنسب مختلفة، فأرض المسلمين تلبّدت وصلحت لطراد الخيل، وأرض العدو أوحلت وأصبحت غير صالحة للسير فضلاً عن الركض الذي تستوجبه الحرب.

٩ ـ **﴿إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾**:

وللملائكة دور آخر لعلّه يكون أهم من القتال، هو تثبيت المؤمنين، وتشجيعهم، وحثّهم على التقدّم وسحق الأعداء.

١٠ ـ **﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾**:

وفي الوقت الذي تجتمع المحفّزات كلها في الجيش الإسلامي، تتهافت جبهة العدو من كل النواحي، فالأرض رخوة تغور فيها قوائم الخيل، والملائكة تقاتلهم، المسلمون استأسدوا عليهم، ومع هذا كله الخوف الذي غمر قلوبهم.

١١ ـ **﴿ذلك بأنّهم شاقوا الله ورسوله﴾**:

وهذا التدمير الذي حصل لأعظم قوة في الجزيرة العربية هو نتيجة لمخالفتهم لله ولرسوله.

وأنت أعزّك الله أحذر أشدّ الحذر من مخالفته، فإن بطش ربك لشديد، وإنّ عذابه لعظيم.

١٢ ـ **﴿وأن للكافرين عذاب النار﴾**:

وهذا الذي حصل لقريش رغم عظمه وشدّته ولكنه لا شيء بالنسبة لما أعدّ الله سبحانه لهم من العذاب الأخروي، ويكفيهم من النار خلودهم فيها، وانهم مشدودون بسلاسل لو سقطت حلقة واحدة منها على الأرض لأحرقت الكرة الأرضية بأسرها.

ويجب أن تعلم أنّ الله جلّ جلاله لم يجعل النار لكفار بدر فقط، بل هي لجميع الكافرين والفاسقين من الاولين والآخرين، فاحذر كل الحذر من الوقوع فيها **﴿فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنّة فقد فاز﴾ [آل عمران/ ١٨٥]**.

١٣ ـ **﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار﴾**:

فلا تنهزموا؛ وهذا التشديد في الإنهزام وترك ساحة الجهاد تعمل به اليوم دول العالم بأسره، فالقادة لكل جيش مخوّلون بإعدام أي جندي ينهزم عن ساحة المعركة، ومعنى الآية الكريمة: فلا تجعلوا ظهوركم مما يليهم، أي فلا تنهزموا **﴿ومن يولهم يومئذٍ دبره﴾** يجعل ظهره إليهم عند القتال، ويتوجَّه إلى جهة الانهزام **﴿إلاّ متحرّفاً لقتال﴾** تاركاً موقفه إلى موقف آخر أصلح للقتال من الأول **﴿أو متحيّزاً إلى فئة﴾** منحازاً منضماً الى جماعة من المسلمين يريدون العود الى القتال ليستعين بهم **﴿فقد باء بغضب من الله﴾** رجع بغضب من الله **﴿ومأواه جهنّم وبئس المصير﴾** مرجعه إلى جهنم.

١٤ ـ **﴿فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم﴾**:

هذا تأكيد لما مرّ من أن النصر الذي حصل كان من أثر العون الإلهي، والتسديد السماوي، وينبغي أن يفهم المسلم أنّه سواء كان في المعركة مع الكافرين، أو في معركة مع الشيطان، فإنّه سيجد العون الإلهي من دون أي شك.

﴿وليبلي المؤمنين بلاءً حسناً﴾:

اقتضت حكمته جلَّ جلاله أن يبلي عباده بمختلف البلاء، ويختبرهم بجميع الاختبارات، لتسموا درجاتهم، ولترتفع مقاماتهم، وليتأهلوا للمنازل الرفيعة التي أعدّها الله للصالحين.

١٦ ـ **﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾**:

بإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم. واليوم ترى تجمّع قوى الكافرين، وفتكهم بالمسلمين، والسبب هو بعد المسلمين عن دينهم، وعدم التزامهم بالشريعة الغرّاء، وتوثّبهم على المعاصي، فخلّى الله بينهم وبين الكافرين.

١٧ ـ **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾**:

إنّ زعماء الضلال، وقادة الكفر، يتمتعون ببهلوانية يسيطرون بها على الجماهير، ويموّهون عليهم أنّهم على الحق، وعلى يقين من أمرهم، ألا تسمع كلام فرعون **﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى وإنّي لأظنه من**

الكاذبين﴾ [القصص/ ٣٨].

ومن هذا دعاء أبي جهل يوم بدر حين التحم الفريقان: اللّهم ربّنا؛ ديننا القديم ودين محمد الحديث، فأي الدينين كان أحبّ إليك، وأرضى عندك، فانصر أهله اليوم[1].

١٨ ـ ﴿وأنّ الله مع المؤمنين﴾:

في كل زمان ومكان، يجدون عنده كل عون ونصر، وذلك بعد أن يبذلوا جهدهم، وأهم من هذا بعد أن يستقيموا ويتّبعوا نهج الحق، ولا يميلوا يمنة ويسرة، فعندها يستوجبوا من الله جل جلاله النصر.

١٩ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾:

فبهما يستوجب المسلم النصر على الكافرين وسحقهم، وبهما يسعد في الدنيا وينعم في الآخرة، ويغنم جنّات الخلود، والمشكلة التي يواجهها المسلم أنّ الشيطان يصوّر له أن كل جزء من أجزاء الطاعة أشق عليه من نقل جبل عن مستقره، بينما الأمر بالعكس، فكل طاعة هي لمنفعة الإنسان، وفيها لذة يحسّها المطيعون، ولا أدل على ذلك من الذين يتقرّبون إلى الله جلّ جلاله بما لم يفرضه عليهم من العبادات والطاعات؛ إن الملايين من المسلمين يؤدّون النوافل الليلية، ويصومون شهر رجب وشعبان، ويكررون حج البيت، وأزيدك علماً أن سرورهم بهذه العبادات أعظم من سرور الفاسقين بملاذهم وشهواتهم.

٢٠ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾:

في هذه السورة جاء التأكيد مرة بعد أخرى في وجوب طاعة الله جلّ جلاله وطاعة رسوله ﷺ، والاستجابة لأوامرهما، ولعمري ما فاز أحد من العباد إلاّ بطاعة الله ورسوله، وما هلك من هلك إلاّ لمخالفته لله وللرسول.

نعود للآية:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾ أجيبوا الله والرسول فيما

---

(١) مجمع البيان.

يأمرانكم به، فإجابة الله والرسول طاعتهما فيما يدعوان إليه.

﴿إذا دعاكم لما يحييكم به﴾ إذا دعاكم إلى الإيمان، فإنه حياة القلب، والكفر موته.

٢١ ـ ﴿واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه﴾:

وهذا الحول الذي ذكرته الآية الكريمة هو الموت، فبه يفقد المرء الانتفاع بقلبه.

والمراد من الآية الكريمة أن يبادر المسلم للصالحات ويستغل عمره في الطاعات، لأنّه لا يعلم متى يداهمه الموت **﴿فإذا جاء أجلهم لا يتسأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الأعراف/ ٣٤]**.

٢٢ ـ ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾.

ورد في الشريعة الإسلامية النهي الشديد عن مجالسة أهل الفسق والفجور، واعتبرت المقاطعة نوعاً من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وانَّ الجميع إذ قاطعوا الفاسق فربما رجع وأناب، كما ورد أنّ العذاب إذا نزل بأهل المعاصي شمل من كان معهم وإن لم يكن منهم، كل ذلك من أجل أن يحذر الناس مجاملة المجرم ومجاراته.

عن سلمان بن جعفر الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول لأبي: ما رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟ قال: إنّه خالي.

فقال أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن ينزل بكم نقمة فتصيبكم جميعاً؟ أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام، وكان أبوه من أصحاب فرعون، ولما لحقت خيل فرعون موسى تخلّف عنه ليعظه، فأدركه موسى وأبوه يراغمه حتى بلغا طرف البحر فغرقا جميعاً، فسأل جبرائيل عن حاله فقال: غرق رحمه الله ولم يكن على رأي أبيه، ولكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب دفاع[1].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ١٨٣.

ومن هذا وذاك يجب على المسلم أن يحترس غاية الاحتراس من مقاربة الظالمين، والدنو منهم، ومجاملتهم، وجاء في الشريعة الإسلامية حرمة الجلوس على مائدة فيها خمر وإن لم يكن شارباً معهم.

٢٣ ـ **﴿واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض﴾**:

والله سبحانه وتعالى يذكّر المسلمين بنعمه عليهم، فبالأمس القريب كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس، واليوم أصبحوا قوة تُرهب، وقد خرجوا لصدّ أعظم قوة في الجزيرة العربية، وما ذلك إلاّ بفضل الإسلام، رسالة العزّة والخلود.

واليوم والعالم الإسلامي من شرقه إلى غربه في أسوأ حال من الذل والاستعباد، وما ذلك إلاّ لبعدهم عن دينهم، وتخلّيهم عن مبدئهم، فإن أرادوا المجد والحياة السعيدة فعليهم أن يعودوا إلى قرآنهم، وسيرة نبيّهم، فيستعيدوا عزّهم التليد، ومجدهم العتيد، ولا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

فينبغي المبادرة إلى العمل بأوامر الله تعالى لنسعد دنيا وآخرة.

٢٤ ـ **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾**:

يقول المفسرون: إن خيانة الله جلّ جلاله هي ترك فرائضه، وخيانة الرسول هي ترك سنته وشريعته، وإنّ من ترك شيئاً من الدين وضيّعه فقد خان الله ورسوله.

﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾:

هي بلّية عليكم، ابتلاكم الله تعالى بها، والمراد: أنّه اختبركم بهاتين النعمتين العظيمتين فعليكم أن تؤدوا شكرهما، وأنّه يسألكم غداً عن ذلك.

فالشكر بالنسبة للأولاد هو تهذيبهم وتربيتهم، وأن لا يكون اهتمام الأب بدروس ابنه ومدرسته أعظم من اهتمامه بصلاته وسلوكه، وشكره تعالى بالنسبة للأموال إخراج ما أوجبه عليه الفقراء، وعدم التسامح في ذلك.

٢٥ ـ **﴿إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾**:

التقوى: هي خوف الله جلّ جلاله ومراقبته عند كل عمل، وهي أساس لكل

خير، ومصدر لكل رحمة، وبها تُنال المنازل الرفيعة في الدنيا والآخرة، ولو جمعنا الآيات التي أمرت بالتقوى، وأحاديث الرسول الأعظم ﷺ وأحاديث العترة الطاهرة التي جاءت في الغرض لحصل عندنا كتاب كبير.

ومعنى قوله تعالى: ﴿**يجعل لكم فرقاناً**﴾ هداية ونوراً في قلوبكم، تفرّقون بها بين الحق والباطل؛ ووضحها أمين الإسلام الطبرسي عليه الرحمة فقال: يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة.

٢٦ ـ ﴿**ويكفّر عنكم سيئاتكم**﴾:

وعطاء الله جلّ جلاله للمؤمنين عظيم لا يحيط به الواصفون، ولا يبلغ كنهه العالمون، فمن هذا العطاء هو غفرانه للسيئات التي فعلها العبد، ثم ندم عليها، وتاب منها، وفي بعض الروايات أنّه جل جلاله يحوّلها إلى حسنات، ويشهد لذلك ما في هذه الآية: ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾.

٢٧ ـ ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك**﴾:

الآيات في بيان ألطاف الله جلّ جلاله على أهل الحق، ونصرته لهم عندما تشتد الحال، وتتأزم الأمور، وتوصد الأبواب، فلم يكن نصر بدر هو النصر الأول للنبي ﷺ والمسلمين، بل سبقه ما هو أهم وأعظم، وذلك حين عزمت قريش على قتل النبي ﷺ، فقد وقف على بابه أربعون مسلحاً ينتظرون أن ينفجر عمود الصبح حتى يهجموا عليه فيقطّعوه بأسيافهم إرباً إرباً.

وتدخلّت العناية الألهية، وجاء جبرائيل عليه السلام فأمر رسول الله ﷺ أن يطلب من علي عليه السلام أن ينام على فراشه وأن يخرج من البيت، فخرج وهو يقرأ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس/ ٩] فلم يره أحد منهم.

نعود للآية الكريمة:

﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا**﴾ واذكر إذ يحتال الكفّار في إبطال أمرك، ويدبرون في هلاكك ﴿**ليثبتوك**﴾ ليقيّدوك ويثبتوك في الحبس ﴿**أو يقتلوك أو يخرجوك**﴾ من مكة إلى طرف من أطراف الأرض ﴿**ويمكرون ويمكر الله**﴾ ويدّبرون

في أمرك ويدبر الله في أمرهم ﴿والله خير الماكرين﴾ لأنّه لا يمكر إلاّ ما هو حق وصواب، وهو إنزال المكروه بمن يستحق، والعباد قد يمكرون مكراً وهو ظلم وباطل.

٢٨ ـ ﴿اللّهم إن كان هذا هو الحق﴾:

وهذا هو الغاية في العناد، والبعد عن العقل والدين، والتمرد على الله جلّ جلاله، وهو يعكس ما كان عليه الملأ من قريش من عنجهية، وعناد، فهم يفضلون عذابا الدنيا والآخرة على الإيمان بالله ورسوله.

نعوذ بالله جلّ جلاله من اللجاج، والإصرار على الخطأ، والتعرّض لسخط الله تعالى.

نعود للآية:

﴿اللّهم إن كان هذا﴾ الذي جاء به محمد ﴿هو الحق من عندك﴾ دون ما نحن عليه ﴿فامطر علينا حجارة من السماء﴾ كما أمطرتها على قوم لوط ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ شديد مؤلم.

والقائل لذلك النضر بن الحارث[1].

٢٩ ـ ﴿وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾

وما كان الله يعذب أهل مكة بعذاب الاستئصال وأنت مقيم بين أظهرهم لفضلك وحرمتك يا محمد، وأيضاً: لا يعذبهم وفيهم بقية من المؤمنين يؤدون الطاعات ويستغفرون.

فالإستغفار هو الباب الذي يفضي بالعبد إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، ويكفي في فضله ما جاء في هذه الآية الكريمة، وفي أحاديث الصادقين:

١ ـ قال رسول الله ﷺ: لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار[2].

٢ ـ وقال رسول الله ﷺ: طوبى لمن وجد في صحيفته يوم القيامة تحت

---

(١) وفي بعض الروايات ان القائل أبي بن خلف.

(٢) ثواب الأعمال: ١٦٤.

كل ذنب استغفر الله[1].

٣ ـ وقال أمير المؤمنين ﷺ في قوله تعالى: **﴿وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون﴾** قال: كان في الناس أمانان: رسول الله ﷺ والاستغفار، فرفع منهم أمان وهو رسول الله ﷺ، وبقي عليهم أمان وهو الإستغفار.[2]

٤ ـ قال إسماعيل بن سهل: كتبت إلى أبي جعفر ﷺ: علّمني شيئاً إذ أنا قلته كنت معكم، فكتب بخطّ أعرفه: أكثر من تلاوة إنّا أنزلناه ورطّب شفيك بالاستغفار[3].

٣٠ ـ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاءً وتصديةً﴾.

القرآن الكريم أكّد في آيات كثيرة **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** وإنّ الأنبياء جميعهم جاءوا بالإسلام، ولكن حينما ينسخ المجتمع الشرائع ويغيّرها يبعث الله جلّ جلاله نبيّاً فيتصوّرون أنها شريعة جديدة، فحج البيت مما جاء به آدم عليه السلام، وهو الذي بنى الكعبة المعظمة، وأن إبراهيم عليه السلام أشاد بناءها على القواعد التي بناها آدم عليه السلام **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾**.

وبقي موضوع الحج إلى زمن البعثة، ولكنّه بصورة مشوّهة وبعيدة عن معالم الدين.

وقال ابن عباس في تفسير الآية الكريمة: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، يصفّرون ويصفّقون، وصلاتهم معناها: دعاؤهم، والمراد: يقيمون المكاء والتصدية مكان الدعاء والتسبيح.

٣١ ـ ﴿فاعلموا أنّ الله مولاكم﴾.

وهذه الآية الكريمة تكفي المؤمن نصراً، وتشحذه عزيمة وثقة بالله الغالب،

---

(١) ثواب الاعمال: ١٦٤.

(٢) ارشاد القلوب: ١/ ٤٥.

(٣) ثواب الاعمال: ١٦٥.

ولا يفكّر بالخضوع لكافرٍ، ولا مجاملة لفاسق.

ومعنى مولاكم: ناصركم وحافظكم ﴿**نعم المولى**﴾ نعم السيد والحافظ ﴿**ونعم النصير**﴾ هو ينصر المؤمنين، ويعينهم على طاعته، ولا يُخذل من هو ناصره.

٣٢ ـ ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾:

والله جلّ جلاله إذا أراد شيئاً هيّأ أسبابه، فهذا اللقاء حسب مجرى الأحداث كان بعيد الوقوع، إنّ المسافة بين البلدين أكثر من خمسمائة كيلو متراً، وكل فريق بمعزل تام لا يفكّر من الدنو من الآخر، بل لو كان إتفاق مسبق للقاء لتخلّف المسلمون لعظمة قوّة قريش وهيبتها في النفوس، ولكن حصل موضوع القافلة فخرج هؤلاء لصدّها، وهؤلاء لحمايتها، والأعجب من هذا كله أن تنشب المعركة بعد علم الطرفين بسلامة القافلة ووصولها قريباً من مكة.

نعود للآية الكريمة:

﴿**إذ أنتم**﴾ أيّها المسلمون ﴿**بالعدوة الدنيا**﴾ إذ أنتم نزول بشفير الوادي الأقرب إلى المدينة ﴿**وهم**﴾ يعني المشركين ﴿**بالعدوة القصوى**﴾ نزول بالشفير الأقصى من المدينة ﴿**والركب**﴾ يعني أبا سفيان وجمهور القافلة ﴿**أسفل منكم**﴾ في موضع أسفل منكم، بمحاذاة البحر ﴿**ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد**﴾ لو تواعدتم أيّها المسلمون للاجتماع في الموضوع الذي اجتمعتم فيه، ثم بلغكم كثرة عددهم مع قلة عددكم لتأخّرتم فنقضتم الميعاد.

٣٣ ـ ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾:

الآية الكريمة في استبعاد التقاء المسلمين بالمشركين، لأنّ كل المؤشرات تمنع من ذلك، ولكنّه جلّ جلاله قضى بقطع دابر الكافرين، فهيّأ ما لم يكن بالحسبان.

إنّ الآية الكريمة تفيد كل مسلم في كل زمان ومكان أن يثق بنصر الله تعالى، وأن لا أثر لكثرة العدو، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [**البقرة/٢٤٩**] ويعتبر بما حدث من النصر في يوم بدر، وأنّ الواجب عليه بذل

المجهود؛ وأهم من هذا أن يكون بالصفة التي يريدها الله جلّ جلاله، عاملاً بأوامره، منتهياً عما نهى عنه، فحينئذ سيجد النصر مهما كان العدو قويّاً.

نعود للآية:

﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ معناه: ولكن قدّر الله التقاءكم، وجمع بينكم وبينهم على غير ميعاد منكم، ليقضي الله أمراً كائناً لا محالة، وهو اعزاز الدين وأهله، واذلال الشرك وأهله.

٣٤ ـ ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة﴾:

وحاشا لله جلّ جلاله، وعظمة ألطافه أن يُهلك عبداً أو أمة من قبل أن يُرسل لهم النذر، ويقيم لهم الحجج، وتبلغهم الدعوة، وأكثر من هذا فهو لا يعاجلهم عند أوّل هفوة بل يمهلهم طويلاً، ويكفيك أن تعلم أنّ نوحاً عليه السلام لبث في قومه يدعوهم ألفاً إلاّ خمسين عاماً، ونبي الله صالح عليه السلام مكث بين ظهراني قومه يدعوهم أكثر من مائة عام، وجميع الأنبياء عليهم السلام لبثوا دهراً طويلاً يدعون قومهم إلى الطاعة مؤمّلين هدايتهم، وهم لم يدعوا على قومهم بالعذاب إلاّ بعد اليأس من هدايتهم؛ ألا تسمع قوله تعالى حاكياً ما أوحاه إلى نوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود/٣٦].

ويكفي الملأ المكي والعرب بيّنة وحجّة المعاجز الكثيرة التي شاهدوها من الرسول الأعظم ﷺ طيلة الثلاث عشرة سنة التي قضاها بين ظهرانيهم، كما انَّ القرآن الكريم يكفي العالم بأسره اليوم بيّنة وحجّة، فمضافاً إلى بلاغته وفصاحته التي أعجزت العالم بأجمعه على أن يأتوا بسورة من مثله، فالعلم اليوم بجميع أقسامه يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم، أن القران الكريم سبق العلم في كل مجالاته، ولكن العناد، ومباهج الضلال، وكون المسلمين في بعد عن الإسلام، وقوى خفيّة تعمل تحت الستار، كل هذا وغيره قد حال بين البشرية وسعادتها الدائمة بالإسلام.

٣٥ ـ ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾:

لقد جاء الدعم الإلهي للمسلمين في كل مجال، فمن وعد صادق بالنصر،

ومن تكيّف إعجازي حيث يري كل فريق الفريق الآخر بغير الحال التي هو فيها، ومن مدد عسكري بملائكة مقاتلين، وحتّى المطر فقد نزل بأرض المسلمين بغير الكيفية التي نزل فيها بأرض المشركين.

إنّ هذا الدعم الإلهي لأهل بدر لما علم الله جلّ جلاله من حسن نواياهم، وبذلهم مجهودهم، وهو لكل مسلم سار على نهج الحق، وبذل جهده لإعلاء كلمة الله جلّ جلاله.

نعود للآية الكريمة:

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم﴾ يريكهم الله في نومك قليلاً لتخبر المؤمنين بذلك فيجترىء المؤمنون، لأنّهم لو علموا كثرة عدوّهم لرغبوا عن قتالهم، وجبنوا عن ملاقاتهم.

ولم يكن هذا وحده، بل **﴿وإذ يريكموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلاً﴾** قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين ليشتد بذلك طمعهم فيهم، وجرأتهم عليهم.

ويقول ابن مسعود: قلت لرجل بجنبي أتراهم سبعين رجلاً؟ فقال: هم قريب من مائة.

قوله تعالى: **﴿ويقللكم في أعينهم﴾** وقلل المؤمنين في أعين المشركين لئلا يتأهّبوا لقتالهم **﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾** بنصر الإسلام، وخذلان الكافرين.

٣٦ ـ ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾:

وكل جيش ضلال هو بقيادة الشيطان وتوجيهه، بل وكل عمل مخالف يقوم به فرد أو جماعة هو من تزيينه وتحبيذه، ولقد كان له دور عظيم في هذه الحرب ذكرته الآية الكريمة.

٣٧ ـ ﴿إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾:

القرآن الكريم يصوّر الجراح والقتل والآلام التي عاناها المشركون، وهي لا شيء بالنسبة لما عانوه من الملائكة، علماً أنّ ذلك الهوان والشدّة لا تختص بكفّار بدر، بل هي عامة في الجميع، فمشهد الموت للكافرين والفاسقين مرعب بأكثر مما نتصوّره، كما انّ مشهد وفاة المؤمنين يكون بأفضل مما يتصوّر من التكريم،

حتى ان المحتضر يعجب مما يرى ويسمع من بكاء أهله لأنّه في بداية مشاهد النعيم والكرامة.

٣٨ ـ ﴿لم يك مغيّراً نعمة﴾:

إنّ هذا المنعم العظيم، والرؤوف الكريم، تنزّه عن تغيير حال حسنة إلى سيئة إلاّ إذا استوجب البشر ذلك، وجدّوا في الخلاف والشقاق، فيكون تغيير النعمة كتأثير أولي لسخط السماء، وإنذار بالخلود في العذاب، وهي في الوقت نفسه مدعاة لأن يغيّروا ما بأنفسهم لتعود لهم النعم.

٣٩ ـ ﴿إنّهم لا يعجزون﴾:

الآية تشير إلى أن خطوط الكفر قد تكبر، وتتضخّم جيوشه، ولكنهم لا يفوتون الله جلّ جلاله ولا يعجزونه، وانّه جلّ جلاله مهلكهم ومدمّرهم.

٤٠ ـ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾:

في الوقت الذي يلمس المسلم النصر السماوي للمسلمين في هذا المشهد العظيم، يأتي الأمر منه جلّ جلاله بأن يعدّ ما يقدر عليه من قوّة وعتاد لمقابلة الطغاة، بل إن العون الإلهي لا يحصل إلاّ بعد استفراغ الجهد، وبذل أقصى ما يمكن من الطاقة؛ والآية تشير إلى أن إعداد القوة مرهب للعدو وقد يكون وحده يغني عن الحرب، لأنّهم إذا علموا باستعداد المسلمين ويقظتهم لم يجسروا عليهم، وهذا هو المعمول به في دول العالم اليوم، فترى كل دولة تنفق الكثير من ميزانيتها على إعداد جويشها وتسليحها تحسباً للخطر، وانَّ ذلك بحد ذاته يساعد على دفع العدو فيتلكأ عن الإقدام.

وأنت إذا تأمّلت قوله تعالى: ﴿من قوّة﴾ أدركت عظمة القرآن المجيد، وأنه كلام الله العزيز، فهو لم يذكر السيف والرمح والسهم، أسلحة ذلك العصر، ولم يذكر المدفع والرشاش وغيرهما من أسلحة اليوم، لأن ذكر ذلك مدعاة للسخرية في ذلك الوقت، وأتى بكلمة ﴿قوّة﴾ فهي تشمل جميع وسائل الدفاع والهجوم في ذلك الوقت وحتى اليوم، وبل وحتى يوم القيامة.

٤١ ـ ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم﴾:

لعلّ الآية إنما جاءت في أعقاب الحديث عن معركة بدر، مشيرة إلى أنّ الحروب تستوجب بذل الأموال، فيجب على أغنياء المسلمين أن يساهموا بأموالهم عندما يحدث خطر على قطر إسلامي، وأن الله سبحانه يعوّضهم عن عطائهم دنيا وآخرة.

وظاهر الآية أن الخلف الإلهي على المعطين لا يقتصر على الباذلين في حالات الحرب، بل يشمل جميع المحسنين في كل وقت وزمن.

٤٢ ـ ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾:

إن مالوا إلى الصلح وترك الحرب فاقبل منهم.

اعلم رعاك الله أن الإسلام هو دين السلام والوئام والمحبة، وأنّك لو لاحظت حروب الإسلام وجدتها كلها دفاعية، وفي هذه الآية تأكيد على ذلك.

٤٣ ـ ﴿ألّف بين قلوبهم﴾:

إنّ الألفة والمحبة التي تحدثت عنها الآية الكريمة من معاجز الإسلام العظيمة، وآياته الواضحة، فقد جعل من أشد الأعداء خصاماً وقتالاً إخوة متحابين، بل جعل كلا من المسلمين يحب أخاه المسلم أكثر من أخيه الذي لأمه وأبيه إذا كان كافراً.

ومن مصاديق ذلك ما حصل للشهيد مصعب بن عمير رضوان الله عليه، فقد شهد مصعب واقعة بدر، وشهد أخوه أبو عزيز الواقعة ولكن من الجانب الآخر، فقد كان مع المشركين، وكان صاحب لواء المشركين، ووقع أسيراً في أيدي المسلمين.

ورواية ابن جرير: إنّ رسول الله ﷺ حين أقبل بالأساري فرّقهم في أصحابه وقال: استوصوا بهم خيراً، وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب ابن عمير لأبيه وأمّه ـ في الأسارى.

قال أبو عزيز: مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني،

فقال: شد يديك به، فإن أمّه ذات متاع، لعلها أن تفديه منك[1].

وقال ابن هشام: فلما قال أخوه مصعب لأبي اليسر ـ وهو الذي أسره ما قال ـ قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنه أخي دونك[2].

بل وصلوا إلى أسمى من ذلك.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: اسقيك، فأشار إليّ أن نعم، فسمع آخر يقول: آه، فأشار إليّ ابن عمي أن أنطلق وأسقيه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: اسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فسمع آخر يقول: آه، فأشار إليّ أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات[3].

٤٤ ـ ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾:

ومعناه: إنَّ الله يكفيك، ولا تحتاج إلى غيره، وإنَّ هذه الآية الكريمة لو أخذها المسلمون وعملوا بها لما خضع بعدها مسلم لكافر أو والاه، أو احتمى به.

٤٥ ـ ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾:

هذه الآية الكريمة تفيد الى ما وصل إليه المسلمون من القوة والبطولة والفروسية، إنّ معالم الإيمان جعلت الواحد منهم يقاتل عشرة، ويثبت لهم، بل إنّ هذا هو الحد الأدنى، وانّه لو انهزم من عشيرة عدّ فاراً من ساحة القتال، مخالفاً لأمر الله تعالى.

نعود للآية الكريمة:

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾ على القتال **﴿يغلبوا مائتين﴾** من الأعداء **﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾** معناه: ذلك

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/١٥٩.
(٢) سيرة ابن هشام: ١/٦٤٦.
(٣) المستطرف: ١٧٢.

النصر من الله تعالى لكم على الكفار، والخذلان للكفار بأنكم تفقهون أمر الله تعالى وتصدقونه فيما وعدكم من الثواب، فيدعوكم ذلك إلى الصبر على القتال، والجد فيه، والكفار لا يفقهون أمر الله تعالى، ولا يصدّقونه فيما وعدكم من الثواب.

٤٦ ـ ﴿إنّ الذين آمنوا﴾:

بالله ورسوله **﴿وهاجروا﴾** من مكّة الى المدينة **﴿وجاهدوا﴾** قاتلوا العدو **﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾** في طاعة الله وإعزاز دينه **﴿والذين آووا﴾** الرسول والمهاجرين بالمدينة، أي جعلوا لهم مأوى، وأسكنوهم منازلهم، والمراد بهم الأنصار **﴿ونصروا﴾** ونصروهم بعد الإيواء على أعدائهم، وبذلوا المهج في نصرتهم **﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾** في التناصر، والتعاون والموالاة في الدين.

والآية الكريمة في ترابط المسلمين بعضعم ببعض، فهم متناصرون متعاونون، تربطهم رابطة قوّية، هي أعظم من رابطة الأخوة والقرابة.

(٢)

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ **[آل عمران/ ١٣]**.

هذه الآية تحذير لليهود من التمادي في البغي والضلال، وهي نفسها إيجاز لأعظم وقعة شهدها العرب وانتصر فيها الإسلام، وفي هذا ومثله تتبيّن عظمة القرآن الكريم. وهذا ما يستحيل لأعظم كتّاب العالم أن يأتي ببعضه.

إن الآية الكريمة تشير الى العون الإلهي للمسلمين في هذه الوقعة، فأوّل هذا العون أن قلل المسلمين في أعين المشركين ليجترؤوا عليهم، وبعد نشوب الحرب كثّرهم في أعينهم ليجبنوا، كما قلل المشركين في أعين المسلمين ليجترؤوا عليهم.

﴿والله يؤيّد بنصره من يشاء﴾ النصر منه سبحانه على الأعداء يكون على

ضربين: نصر بالغلبة، ونصر بالحجّة، فالنصر بالغلبة إنّما كان بغلبة العدد القليل للعدد الكثير على خلاف مجرى العادة، وبما أمدّهم به من الملائكة، وقوّى به نفوسهم؛ والنصر بالحجّة: وهو وعده المتقدّم بالغلبة لإحدى الطائفتين لا محال، وهذا ما لا يعلمه إلاّ علاّم الغيوب ﴿**إنّ في ذلك**﴾ في ظهور المسلمين مع قلّتهم على المشركين مع كثرتهم، وتقليل المشركين في أعين المسلمين، وتقليل المسلمين في أعين المشركين ﴿**لعبرة لأولي الأبصار**﴾ لذوي العقول.

٢ـ غزوة أحد

١ ـ ثورة الحقد

وبعد واقعة بدر تقدّم أبو سفيان إلى منصة الزعامة وخلا له الجو، وهذا يحصل دائماً في الحروب.

وبدأ يخطّط لحرب الإسلام تخطيطاً دقيقاً، لقد منع قريش عن البكاء على قتلاها لأنّ البكاء ـ كما يقول ـ يطفىء ثورة الحقد، وهو يريدها متأجّجة، وأهم من هذا فقد أقنع جميع أصحاب الأموال التي في العير التي أقبل بها من الشام أن يتبرّعوا بها للحرب، والموقف آنذاك لا يسمح لأحد منهم بالتردد في ذلك، لأنّه يضع أمام اسمه علامة استفهام، وأنّه من الموالين لمحمد ﷺ.

لقد تمكّن من إعداد ثلاثة آلاف جندي ـ وهو يومئذ عدد كبير ـ إعداداً جيّداً، هيأهم نفسيّاً وعسكريّاً، وزوّدهم بأحدث الأسلحة، وجاء بهم نحو المدينة بأمل أن يستأصل الإسلام وأهله.

٢ ـ وشاورهم في الأمر

لقد أدّب الله نبيّه ﷺ بمعالي الأخلاق، ومحاسن الصفات، فكان مما أدّبه أن يشاور المسلمين فيما يتعلّق بمصالحهم، استئناساً برأيهم، وشدّهم للحقيقة، وتعليماً لهم كي ينهجوا فيما بعد هذا النهج.

واختلفت آراؤهم في سبيل المقاومة التي يجب أن تستعمل لهذه الحرب المفروضة عليهم، فالبعض رأى أن يبقى المسلمون داخل المدينة على أهبّة الاستعداد، يصدّون العدو إذا داهمهم بأعنف الضربات، وحينئذٍ سوف يشترك في القتال حتّى النساء والأطفال، ورأى آخرون أن يخرجوا لملاقاتهم خارج المدينة،

وكان النبي ﷺ يميل إلى الرأي الأوّل، فقد قال لهم: فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

ولكن الشباب المتحمّس للقتال، ووجوه أُخرى محترمة اضطرته ﷺ أن يوافق على الخروج، وفعلاً خرج بهم، وعند أوّل مرحلة يقطعها ندم المتحمّسون للخروج، وأرجعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ.

٣ ـ عنصر النفاق

ومن المفارقات التي حصلت يوم أُحد أنّه ظهر فيها عنصر النفاق بشكل مهول، خلافاً لواقعة بدر، فأوّل طعنة صوّبوها للجيش الإسلامي انسحابهم قبل الواقعة بثلث المقاتلين، كما بقي لهم ذيول داخل الجيش لعبت دوراً في الهزيمة، والقرآن الكريم يشير إلى بعض مواقفهم غير المحمودة خلال المعركة وبعدها، فمن ذلك قولهم في التشكيك ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران/١٥٤].

٤ ـ القائد العظيم

نحن نعتقد أنّ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام قد حازوا جميع الفضائل والكمالات، بل إنّهم بلغوا الغاية القصوى من كل فضيلة، وأنت إذا تأمّلت كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ، فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه[1].

وقال عليه السلام: لما كان يوم بدر، وحضر الناس اتقينا برسول الله ﷺ، فكان من أشدّ الناس بأساً، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه[2].

علماً أن أمير المؤمنين عليه السلام كان بمرتبة من الشجاعة هي فوق ما يتصوّر.

---

(١) نهج البلاغة: حكم: ٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ١٣٥.

قال ابن أبي الحديد: أمّا الشجاعة فإنّه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة، وهو الشجاع الذي ما فرّ قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلاّ قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى ثانية.

وقال أيضاً: وتصوّر ملوك الفرنج والروم صورته في بيعها، وبيوت عبادتها، حاملاً سيفه، مشمّراً لحربه، وتصوّر ملوك الترك والديلم صورته على أسيافها؛ كان على سيف عضد الدولة بن بويه، وسيف أبيه ركن الدولة صورته، وكان على سيف ألب أرسلان، وابنه ملكشاه صورته، كأنّهم يتفاءلون به النصر والظفر[١].

ومع هذا كله فهو صلوات الله وسلامه عليه يعترف بأنّه وغيره من شجعان المسلمين كانوا يحتمون برسول الله ﷺ عندما تشتد الحرب، ويعظم الخطر.

ولم يكن نبينا صلوات الله وسلامه عليه شجاعاً فحسب بل كان مخطّطاً عسكرياً لا نظير له، وأنت إذا تأمّلت مواقفه في هذه الحرب وغيرها أدركت ذلك.

لقد مرّ عليك ندم الذين كانوا يصرّون على الخروج من المدينة للمواجهة، ولكنّه ﷺ لم يعبأ لهذا الندم، وقال لهم: لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبس لامته فيضعها حتّى يقاتل[٢].

وهذه الالتفاتة من أعظم الآراء العسكرية، لأنّ رجوعهم سوف يشجّع العدو ويجعله يستبسل بعد أن سجّلوا على أنفسهم نقطة ضعف لا مبرر لها.

٥ ـ ساحة المجد

وصل الجيش الإسلامي إلى ساحة المعركة ـ وهي قريبة جداً من المدينة ـ والتفت رسول الله ﷺ متفقّداً للمواقع، فوجد الثغرة المخيفة والتي هي عبارة عن فم جبل يحد المعركة، فمن المحتمل أن يداهمهم العدو منها ـ وهذا هو الذي حدث ـ فجعل على ذلك الجبل خمسين جنديّاً.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ١٩٠.

يقول البرّاء: لما كان يوم أُحد، ولقي رسول الله ﷺ المشركين، أجلس رسول الله ﷺ رجالاً بإزاء الرماة، وأمّر عليهم عبدالله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا[1] فلما لقى القوم هُزم المشركون، حتى رأيت النساء قد رفعن عن سوقهن، وبدت خلاخيلهن، فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبدالله: مهلاً، أما علمتم ما عهده إليكم رسول الله ﷺ، فأبوا فانطلقوا، فلما أتوهم صرف الله وجوههم فأُصيب من المسلمين سبعون[2].

٦ ـ وجاءت ساعة الصفر

والتحم الفريقان للجلاد، وهدّف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نحو بني عبد الدار حملة اللواء، وصناديد قريش، فحمل على عثمان بن ابي طلحة ـ كبش الكتيبة ـ فقتله، ثم تتبعهم واحداً بعد واحد حتّى قتلهم جميعاً.

وانهزمت قريش شر هزيمة، وانشغل المسلمون بجمع الغنائم، فخاف حرّاس الجبل أن يفوتهم الحطام، فتركوا مراكزهم خلافاً لما أُمروا به، إعتقاداً منهم أن لا داعي بعد إلى مثل هذه الحيطة والحذر، ولم يلتزموا نصح أميرهم في البقاء في مراكزهم.

ويقول الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمّرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم يريدون النهب، وخلّوا ظهورنا للخيل، فأتينا من أدبارنا[3].

ورأى خالد بن الوليد ـ وهو على خيل المشركين ـ أنّ الفرصة قد أمكنت، فداهم المسلمين من خلفهم، وقتل ابن جبير، وعندها انعكس دولاب الحرب،

(١) ورواية علي بن ابراهيم: قال رسول الله ﷺ: اذا رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تخرجوا من هذا المكان وإذا رأيتموهم قد هزمونا حتى ادخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم، تفسير القمي: ١/١٣٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/١٩٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٠/١٩٦.

وانهزم المسلمون بعد أن قتل منهم الكثير، وكسبت قريش الموقف.

٧ ـ إسلام الحبر مخيريق

والمجتمعات الكافرة يخرج منها أحياناً مؤمنون يبلغون الغاية في الإيمان ليكونوا حجّة على أممهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩] ألا تنظر مؤمن آل فرعون فقد بلغ مرتبة تقرب من مراتب الأنبياء عليهم السلام، حتى انَّ الله سبحانه وتعالى أنزل باسمه سورة من سور القرآن الكريم، وكذا الحال في اليهود الذين عاصروا بدء الإسلام، فقد كانوا في خطّ معاكس للإسلام، ولكن مع هذا كله فقد استجاب نفر من علمائهم للإسلام، كان من بينهم عبدالله بن سلام ـ أكبر علماء اليهود في عصره ـ وأهل بيته، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، وغيرهم.

وفي يوم أُحد، وقبيل المعركة أسلم أحد علمائهم الأجلّاء، ولم يكتف بالإسلام وحده حتّى جاهد بين يدي رسول الله ﷺ واستشهد.

قال ابن إسحاق: وكان حديث مخيريق ـ وكان حبراً عالماً، وكان رجلاً غنيّاً، كثير الأموال من النخل ـ وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتّى إذا كان يوم أُحد ـ وكان يوم أُحد السبت ـ قال: يا معشر يهود، والله إنّكم لتعلمون أنّ نصر محمد عليكم لحق.

قالوا: إنّ هذا يوم السبت.

قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قُتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ، يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل، فكان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ يقول:

مخيريق خير يهود؛ وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله بالمدينة منها[1].

---

(1) سيرة ابن هشام: ٢/٣٦٢.

٨ ـ الألطاف

ورغم ما حصل في الجيش الإسلامي من خلاف وهزيمة لم يتخلّ الله جلّ جلاله عنهم في محنتهم، وتجلّت الألطاف الإلهية في أُمور كثيرة في هذه الواقعة، فمن ذلك:

١ ـ إنّ المنتصرين لم يعرّجوا على البقية الباقية، لا سيّما وقد كانوا في وضع يساعدهم على إكمال انتصارهم.

٢ ـ وبعد انسحابهم من قاعة المعركة شبه منهزمين، وفيهم جراحة بالغة، وآلام نفسيّة عظيمة، وحوار وخصام في أسباب النكبة، غشيهم نوم أنساهم ما كانوا فيه ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران/١٥٤].

٣ ـ لقد تنبّه المشركون إلى خطأ ارتكبوه، وهو عدم اجتياحهم المدينة، لا سيّما وهم في وضع يساعدهم على ذلك، ولو فعلوا ذلك لوجدوا عوناً لهم من الداخل من يهود ومنافقين، وحتّى الذين انسحبوا من الجيش بتوجيه ابن أبي سيكونون إلى جنبهم، وبعد أن قطعوا بعض المراحل باتجاه مكة عزموا على الرجوع، ولكن الله جلّ جلاله صرفهم عنها، وهيأ رجلاً خزاعيّاً هوّل لهم الأمر.

ورغم ما كان يعانيه المسلمون آنذاك من جراحة وآلام فقد أمر رسول الله ﷺ بالخروج لملاقاة العدو، أزيدك علماً أنه صلوات الله عليه نهى أن يخرج معه أحد لم يشهد الحرب، ليريهم استغناءه عن ابن أبي ومن لفّ لفّه.

إنك لو تأملت خروجه صلوات الله عليه لظهر لك أنّه من أحسن الخطط العسكرية، ورواية الطبري: إنّه خرج في طلبهم ـ أي قريش ـ ليظنّوا به قوّة، وانّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم[١].

لقد صادفه في خروجه معبد الخزاعي وكان يومئذ مشركاً، ولكن الخزاعيين بصورة عامة كانوا يتعاطفون مع النبي ﷺ، فقال له: أما والله لقد عزّ علينا ما

(١) تاريخ الطبري: ٢٠/ ٢١١.

أصابك، وودنا أنّ الله كان أعفاك منهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتّى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا جد أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، لنكرنّ على بقيّتهم، فلنفرغنّ منهم؛ فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: وما وراءك يا معبد؟

قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟!

قال: والله ما أراك ترتحل حتّى ترى نواصي الخيل.

قال: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل بقيّتهم.

قال: فإنّي أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتاً من شعر.

قال: وماذا قلت؟

قال: قلت:

كادت تهدّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

تردي بأسد كرام لا تنابلةٍ ... عند اللقاء ولا ميل معازيل

فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل

إني نذير لأهل البسل ضاحية ... لكل ذي إربة منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وخش قنابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢١٣.

٩ ـ وربما فات النصر

كان انتصار المسلمين في معركة أحد أعظم من انتصارهم في بدر، ولو قدّر أن يتم ذلك لتغيّر وجه التاريخ، وسبقنا الزمن، وانتشر الإسلام بأكثر من هذا، لأنّ بدراً وإن خرجت إليها قريش بعدد وعدّة ولكنّهم خرجوا على عجل، وبثلث العدد الذي جاؤوا به إلى أُحد، ولقضي على رؤوس كافرة مخطّطة كان من بينهم الملحد الأكبر أبو سفيان.

وكان بالإمكان أن تتدخل العناية الإلهية، رغم ما كانوا عليه من عدم القابلية والتهيء للطف السماوي، ولكن شاء الله أن يمتحنهم بذلك.

ويجيب أحد سفراء الإمام المهدي عليه السلام عن مثل هذا السؤال، فقد سأل رجل أبا القاسم الحسين بن روح[١] رحمه الله قال: أخبرني عن الحسين بن علي عليه السلام أهو ولي الله؟ قال: نعم، قال: أخبرني عن قاتله أهو عدو الله؟ قال: نعم، قال الرجل: فهل يجوز أن يسلّط الله عدوه على وليه؟ فقال له أبو القاسم قدس روحه: افهم عني ما أقول لك، اعلم انَّ الله تعالى لا يخاطب الناس بشهادة العيان، ولا يشافههم بالكلام، ولكنّه عزّ وجلّ بعث إليهم رسولاً من أجناسهم وأصنافهم، بشراً مثلهم، فلو بعث إليهم رسلاً من غير صنفهم وصورهم لنفروا عنهم ولم يقبلوا منهم، فلمّا جاؤوهم وكانوا من جنسهم، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق قالوا لهم: أنتم مثلنا فلا نقبل منكم حتّى تأتون بشيء نعجز أن نأتي بمثله، فنعلم أنّكم مخصوصون دوننا بما لا نقدر عليه، فجعل الله تعالى لهم المعجزات التي يعجز الخلق عنها، فمنهم من جاء بالطوفان بعد الإنذار والإعذار فغرق جميع من طغى وتمرّد، ومنهم من أُلقي في النار فكانت عليه برداً وسلاماً، ومنهم من أخرج من الحجر الصلد ناقة، وأجرى في ضرعها لبناً، ومنهم من فُلق له البحر، وفُجّر له من الحجر العيون، وجعل له العصا اليابسة ثعباناً فتلقف ما يأكلون ومنهم من أبرأ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله تعالى، وأنبأهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ومنهم من أنشق له القمر وكلّمته البهائم مثل البعير والذئب

---

(١) من أعلام الطائفة ورؤسائها الدينيين، وأحد سفراء الامام المهدي عليه السلام، وفاته سنة ٣٢٦ ببغداد، وقبره مزار، وإلى جانبه مسجد كبير تقام فيه الفرائض اليومية.

وغير ذلك، فلما أتوا بمثل ذلك وعجز الخلق من أُممهم عن أن يأتوا بمثله، كان من تقدير الله تعالى ولطفه بعباده وحكمته أن جعل أنبياءه مع هذه المعجزات في حال غالبين، وفي أخرى مغلوبين، وفي حال قاهرين، وفي حال مقهورين، ولو جعلهم عزّ وجلّ في جميع أحوالهم غالبين وقاهرين ولم يبتلهم ولم يمتحنهم لاتخذهم الناس آلهة من دون الله تعالى ولما عرف فضل صبرهم على البلاء والمحن والاختبار، ولكنّه عزّ وجل جعل أحوالهم في ذلك كأحوال غيرهم ليكونوا في حال المحنة والبلوى صابرين، وفي حال العافية والظهور على الأعداء شاكرين، ويكونوا في جميع أحوالهم متواضعين غير شامخين ولا متجبّرين، وليعلم العباد أنّ لهم عليه السلام إلهاً هو خالقهم ومدبّرهم فيعبدوه ويطيعوا رسله، وتكون حجّة الله تعالى ثابتة على من تجاوز الحد فيهم، وادعى لهم الربوبية، أو عاند وخالف وعصى وجحد بما أتت به الأنبياء والرسل، وليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيَّ عن بيّنة[1].

٣ ـ النضير

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [الحشر/ ٢].

وفي الوقت الذي يتحكّم الاستعمار في العالم الإسلامي مباشرة أو بواسطة عملائه، نعلل النفس بمجدنا القديم، وعزّنا التليد، ونذكر أيامنا الزاهرة، ولا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، إنّ مصدر تلك القوة التي كانت لآبائنا فقهروا بها أعظم قوّة في الشرق هي الإيمان، وإنّ مصدر الضعف الذي آل بنا إلى هذه الحال هو البعد عن الإسلام، وترك تعاليمه، والتهاون بأداء الفرائض، وتقليد الكافرين، والموضوع الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو انتصار الإسلام على اليهود.

كان اليهود قوة كبرى في الجزيرة العربية، وثقلهم الأكبر في المدينة وخيبر وما والاها، ففيهما حصونهم ومنعتهم، ولما دخل الرسول الأعظم ﷺ المدينة

(١) علل الشرائع: ٢٤٣.

صالحه بنو النضير ـ وهم فرقة يهودية كبيرة تقطن ضواحي المدينة ـ على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً وظهر على المشركين قالوا: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة، لا تُرد له راية، فلما غزا غزاة أُحد، وهزم المسلمون نقضوا العهد، فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود الى مكة، فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ، ثم دخل أبو سفيان في أربعين، وكعب في أربعين من اليهود المسجد، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، ونزل جبرائيل فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقتل كعب، فقتله محمد بن مسلمة الأنصاري، وكان أخاه من الرضاعة.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فقالوا: نخرج عن بلادك فقال: لكم دماؤكم ومما حملته الإبل من أموالكم إلاّ الحلقة (آلة الحرب) فكانوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم، فيهدم الرجل بيته عما استحسن من باب وغيرها، ولئلا ينتفع بها المسلمون، وكان المسلمون أيضاً يخرّبون مما يليهم.

نعود للآية الكريمة:

﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ يعني يهود بني النضير ﴿**من ديارهم**﴾ بأن سلّط الله المؤمنين عليهم، وأمر نبيّه ﷺ بإخراجهم من منازلهم وحصونهم وأوطانهم ﴿**لأوّل الحشر**﴾ لأول الجلاء، لأنهم كانوا أول من أجلي من اليهود، وفسّرها الأمين: خروجاً مؤبداً ﴿**ما ظننتم أن يخرجوا**﴾ أي لم تظنوا أيها المؤمنون أنّهم يخرجون من ديارهم لشدّتهم وشوكتهم ﴿**وظنوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله**﴾ وظن بنو النضير أنّ حصونهم لوثاقتها تمنعهم من سلطان الله، وإنزال العذاب بهم على يد رسول الله ﷺ، حيث حصّنوها وهيّأوا آلات الحرب فيها ﴿**فأتاهم الله**﴾ فأتاهم أمر الله وعذابه ﴿**من حيث لم يحتسبوا**﴾ أي لم يتوهموا أن يأتيهم لما قدروا في أنفسهم من المنعة ﴿**وقذف في قلبوهم الرعب**﴾ ألقى سبحانه في قلوبهم الرعب بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ﴿**يخرّبون بيوتهم بأيديهم**

وأيدي المؤمنين﴾ مر ذكر ذلك آنفاً **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾** فاتعظوا يا أولي العقول والبصائر، وتدبّروا وانظروا فيما نزل بهم. ومعنى الاعتبار: النظر في الأمور ليعرف بها شيئاً آخر من جنسها، والمراد: استدلّوا بذلك على صدق الرسول إذ كان وعد المؤمنين أن الله سبحانه سيورثهم ديارهم وأموالهم بغير قتال، فجاء المخبر على ما أخبر، فكان آية دالة على نبوته **﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾** أي حكم عليهم أنّهم يجلون عن ديارهم، ويُنقلون عن أوطانهم **﴿لعذّبهم في الدنيا﴾** بعذاب الاستئصال والقتل **﴿ولهم في الآخرة﴾** مع الجلاء عن الأوطان **﴿عذاب النار﴾** لأن أحداً منهم لم يؤمن **﴿ذلك﴾** الذي فعلناه بهم **﴿بأنّهم شاقوا الله ورسوله﴾** خالفوا الله ورسوله، ثم توعّد من حذا حذوهم، وسلك سبيلهم في مشاقة الله ورسوله فقال: **﴿ومن يشاق الله﴾** يخالفه **﴿فإن الله شديد العقاب﴾** يعاقبهم على مشاقتهم أشد العذاب.

٤ ـ غزوة الأحزاب

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ **[الاحزاب/ ٩]**.

وهذه الآيات، بل وهذه السورة في واقعة عظيمة تجلّت فيها العناية الإلهية بالمؤمنين، وعونه لهم، وذلك عندما اشتدّت بهم الحال، وتأزّمت الأمور.

هذه الآيات في معركة الأحزاب، أو ربما سمّاها البعض بـ(غزوة الخندق).

ففي السنة الخامسة للهجرة خطّط اليهود تخطيطاً دقيقاً للقضاء على الإسلام، واستئصال أهله، وصادف ذلك هوى من أبي سفيان فزاد الأمر إحكاماً، فقد جمع حوله قبائل عربية أخرى مثل غطفان وغيرها، وزحفوا نحو المدينة بجيش جرار.

يقول الطبري:

إنّه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحُيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير ونفر من بني

وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟.

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿**ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** - إلى قوله - **وكفى بجهنّم سعيراً**﴾ فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ما قالوا، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فأجمعوا لذلك، وتواعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنّهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً تابعوهم على ذلك، وأجمعوا فيه، فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي في بني مرّة، ومسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبدالله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان في من تابعه من قومه من أشجع[١].

حفر الخندق:

فبعد أن بلغه ﷺ جمعهم استشار أصحابه في ما يصنعه، وعرضت آراء من بينها رأي لسلمان الفارسي رضوان الله عليه، فقد قال لرسول الله ﷺ: كنّا في فارس إذا داهمنا العدو نخندق على أنفسنا، فنزل جبرائيل على الرسول ﷺ يطلب منه أن يعمل برأي سلمان، فمن تلك اللحظة بدأ رسول الله ﷺ بالعمل بنفسه ومعه جمهور المسلمين، صغاراً وكباراً يحفرون.

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٤٣.

معجزة وكرامة :

فأمر رسول الله ﷺ بحفره من ناحية أحد إلى رائح، وجعل على كل عشرين خطوة وثلاثين خطوة قوماً من المهاجرين والأنصار يحفرونه، فأمر فحملت المساحي والمعاول، وبدأ رسول الله ﷺ وأخذ معولاً فحفر في موضع المهاجرين بنفسه، وأمير المؤمنين ينقل التراب من الحفرة حتى عرق رسول الله ﷺ وقال: لا عيش إلاّ عيش الآخرة، اللّهمَّ اغفر للأنصار والمهاجرين؛ فلما نظر الناس الى رسول الله ﷺ يعمل اجتهدوا في الحفر ونقل التراب.

فلما كان في اليوم الثاني بكّروا إلى الحفر، وقعد رسول الله ﷺ في مسجد الفتح، فبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل المعاول فيه، فبعثوا جابر بن عبدالله الأنصاري إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك.

قال جابر: فجئت الى المسجد ورسول الله مستلق على قفاه ورداؤه تحت رأسه وقد شدّ على بطنه حجراً، فقلت: يا رسول الله إنّه عرض لنا جبل لم تعمل المعاول فيه، فقام مسرعاً حتى جاءه، ثم دعا بماء في إناء فغسل وجهه وذراعيه، ومسح على رأسه ورجليه، ثم شرب ومجّ من ذلك الماء، ثم صبّه على الحجر، ثم أخذ معولاً فضرب ضربة فبرقت برقة فنظرنا إلى قصور الشام، ثم ضرب أخرى فبرقت برقة، فنظرنا فيها قصور المدائن، ثم ضرب أخرى فبرقت برقة أخرى نظرنا فيها إلى قصور اليمن.

فقال رسول الله ﷺ : أما والله إنه سيفتح الله عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرق، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل.

قال جابر: فعلمت أنَّ رسول الله ﷺ مقوى ـ أي جائع ـ لما رأيت على بطنه الحجر، فقلت: يا رسول الله هل لك في الغداء؟

قال: ما عندك يا جابر؟

فقلت: عناق وصاع من شعير.

فقال: تقدّم وأصلح ما عندك.

قال: فجئت إلى أهلي فأمرتها فطحنت الشعير وذبحت العنز وسلختها،

وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوي، فلما فرغت من ذلك جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله قد فرغنا فأحضر من أحببت.

فقام على شفير الخندق ثم قال: معاشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً.

قال جابر: وكان في الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم، ثم لم يمر بأحد من المهاجرين والأنصار إلاّ قال: أجيبوا جابراً.

قال جابر: فتقدّمت وقلت لأهلي: والله قد أتاك محمد رسول الله ﷺ بما لا قبل لك به.

فقالت: أعلمته أنت بما عندنا؟

قال: نعم.

قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول الله ﷺ فنظر في القدر ثم قال: اغرفي وابقي، ثم نظر في التنور ثم قال: أخرجي وأبقي، ثم عاد بصحنة فثرد فيها وغرف فقال: يا جابر ادخل علي عشرة، فأدخلت عشرة فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى في القصعة إلا آثار أصابعهم، ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته بالذراع فأكلوه، ثم قال: ادخل عليّ عشرة، فدخلوا حتى نهلوا، وما يُرى في القصعة إلاّ آثار أصابعهم، ثم قال: عليّ بالذراع، فأكلوا وخرجوا، ثم قال: ادخل عليّ عشرة فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا ولم يُر في القصعة إلاّ أصابعهم، ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته فقلت: يا رسول الله كم للشاة من ذراع؟

قال: ذراعان.

فقلت: والذي بعثك بالحق نبياً لقد أتيتك بثلاثة.

فقال: وأما لو سكت يا جابر لأكل الناس كلهم من الذراع.

قال جابر: فأقبلت أدخل عشرة عشرة فيأكلون حتى أكلوا كلهم، وبقي والله لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً[1].

(١) تفسير القمي: ٢/ ١٧٩.

أول النصر:

وفي أيام قليلة تمّ الخندق[1] وهو عبارة عن نهر بلا ماء، يحجب عنهم الأعداء ولا يستطيعون العبور إليهم.

وجاءت الأحزاب فوقفوا على شفير الخندق وقالوا: هذه مكيدة لا علم للعرب بها.

كان الخندق الحاجز بين الفريقين عدّة أيام، وضاقت الدنيا خلالها على المسلمين، لأنهم لا يدرون في أية لحظة يعبر إليه المشركون فيبيدونهم، وزاد الأمر خطورة هو نقض بني قريظة[2] لإتفاق السلام الذي بينهم وبين الرسول الأعظم ﷺ، وانضمامهم إلى جمهور الأحزاب.

ورواية الطبري في الحدث الأخير:

خرج حُيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي - صاحب عقد بني قريظة وعهدهم - وكان عاهد رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب بحُيي بن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حُيي: يا كعب افتح لي، قال: ويحك يا حُيي إنّك امرؤ مشؤوم، إنّي قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلاّ وفاء وصدقاً.

قال: ويحك افتح لي أكلّمك، قال: ما أنا فاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلاّ على جشيشتك أن آكل معك منها، فاحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم مجتمع الأسيال من دونه، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني ألاّ يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، وقال له كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر، بجهام قد أهرق ماءه، يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد

(١) لا تزال معالمة قائمة، وبقربه المسجد الذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ في تلك الفترة.

(٢) قبيلة يهودية تقطن في بعض نواحي المدينة.

إلاّ صدقاً ووفاء؛ فلم يزل حُيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك؛ فنقض كعب بن أسد عهده، وبرأ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ [(١)].

خطورة الموقف:

إنّ ما توقعه المسلمون من عبور جيش العدو إليهم فقد حصل، فقد رأى فارس قريش وبطلها عمرو بن عبد ود العامري ثغرة يمكنه أن يعبرها، وفعلاً أقحم فرسه، وصار بجانب جيش المسلمين، وعبر معه نفر من شجعان قريش، ولم يكتف بذلك بل أخذ يطلب المبارزة متحدياً المسلمين فقال:

ولقد بححت من النداء ... بجمعكم هل من مبارز
إنّي كذلك لم أزل ... متسرّعاً نحو الهزاهز
إنّ الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

فقال الرسول الأعظم ﷺ: من يبرز لعمرو وأنا ضامن له على الله الجنة.

فلم يجبه أحد إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام، وأعاد رسول الله ﷺ القول فلم يجبه أحد غيره، فأذن له، فخرج ورسول الله ﷺ يقول: برز الإيمان كله إلى الشرك كله[(٢)].

أقبل عليه السلام يرتجز:

لا تعجلن فقد أتاك ... مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّة وبصيرة ... والصدق منجي كل فائز
إنّي لأرجو أن أقيم ... عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ... صيتها بعد الهزاهز

فلما انتهى أمير المؤمنين عليه السلام إليه قال له: يا عمرو إنّك كنت في

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٣١.

(٢) يشرح نهج البلاغة: ٤/ ٣٤٤.

الجاهلية تقول: لا يدعوني أحد الى ثلاث واللات والعزى إلاّ قبلتها أو واحدة منها.

قال: أجل.

قال: فإنّي أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وأن تسلم لربّ العالمين.

قال: يا ابن الأخ أخّر هذه عني.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أما إنّها خير لك لو أخذتها.

ثم قال: فهاهنا أخرى.

قال: وما هي؟

قال: ترجع من حيث جئت.

قال: لا تتحدّث نساء قريش بهذا أبداً.

قال: فهاهنا أخرى.

قال: وما هي؟

قال: تنزل فتقاتلني؛ فضحك عمرو وقال: إنّ هذه الخصلة ما كنت أظن أنّ أحداً من العرب يرومني عليها، إنّي لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، وقد كان أبوك لي نديماً.

قال علي عليه السلام: لكنّي أحب أن أقتلك، فانزل إن شئت فأسف عمرو ونزل، وضرب وجه فرسه حتى رجع.

فقال جابر رحمه الله: فثارت بينهما قترة فما رأيتهما، فسمعت التكبير تحتها فعلمت أن علياً عليه السلام قد قتله، وانكشف أصحابه حتى طفرت خيولهم الخندق، وتبادر أصحاب النبي ﷺ حين سمعوا التكبير ينظرون ما صنع القوم، فوجدوا نوفل بن عبدالله في جوف الخندق، لم ينهض به فرسه، فجعلوا يرمونه بالحجارة، فقال لهم: قتلة أجمل من هذه، ينزل إليّ بعضكم أُقاتله، فنزل إليه أمير المؤمنين عليه السلام فضربه حتى قتله، ولحق هبيرة فأعجزه، وضرب قربوس سرجه، وسقطت درع كانت عليه، وفرّ عكرمة، وفرّ ضرار بن الخطاب.

فقال جابر: فما شبهت قتل علي عمرواً إلاّ بما قصّ الله تعالى من قصة داود عليه السلام وجالوت حيث يقول جلّ شأنه: **﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت﴾**[1].

وانهارت معنويات الأحزاب انهياراً عظيماً، وقال الرسول الأعظم ﷺ مثمناً هذا الموقف العظيم: (ضربة علي لعمرو يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين)[2].

وتكامل النصر الإلهي للمسلمين فقد أرسل عليهم ريحاً شديدة، أكفأت قدورهم، واقتلعت خيامهم[3] مما دعاهم إلى أن يغادروا المدينة مكسورين.

والآيات تكشف جوانب من هذه الواقعة.

١ ـ **﴿وجنوداً لم تروها﴾** والمراد بهم الملائكة، فإنهم مع أنهم لم يقاتلوا في ذلك اليوم بل كانت مهمتهم في تقوية المسلمين، وتخذيل الكافرين.

٢ ـ **﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾** من فوق الوادي، قبل المشرق، جاءت بنو قريظة وبنو النضير، القبيلتان العظيمتان اللتان تقطنان في ضواحي المدينة، فقد حملهم أبو سفيان على نقض العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، أو بالأحرى حملوه على إعلان حرب عظيمة على الإسلام بأمل أن يستأصلوه.

وكذلك يمكن أن يقال: التقت مصالح الطرفين على ذلك، وتأججت نيران الأحقاد التي تغلي في قلوبهم على الإسلام والمسلمين. وكان مع قريظة والنضير غطفان، وهي قبيلة عربية كبيرة على مراحل قليلة من المدينة، ساقهم إلى ذلك الكفر، والطمع في أن يكسبوا الحرب ويستاقوا الغنائم.

٣ ـ **﴿ومن أسفل منكم﴾** من قبل المغرب، جاء أبو سفيان يقود أكثر من عشرة آلاف مسلّح من قريش ومن والاها من بني سليم وأسد وأشجع وبني مرة بن

---

(١) الارشاد للشيخ المفيد: ٥٤.

(٢) ورواية الحاكم المستدرك على الصحيحين: لمبارزة علي بن ابي طالب لعمرو بن عبدود يوم الخندق أفضل من أعمال امتي الى يوم القيامة.

(٣) والى هذا اشار القرآن الكريم: ﴿اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً﴾ [الاحزاب: ٩].

عوف وغيرهم.

﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ لا يستطيع كاتب أو شاعر ـ مهما أُوتي من موهبة ـ أن يصف ما حلّ بالمسلمين من خوف ورعب، وحق لهم ذلك، لقد خاف المؤمنون على إسلامهم ونبيّهم أكثر من خوفهم على أنفسهم، لأن الاحتمال ـ حسب المنظار العسكري العام ـ ربما يوحي بغلبة المشركين، لا سيما وقد انضم إليهم اليهود؛ وبقية جمهور المسلمين يرون أن ليس بينهم وبين الموت إلاّ أن يعبر إليهم المشركون واليهود، وتعظم المصيبة وتتضاعف في خوفهم على أهلهم من القتل والأسر، ثم السبي، إن الآية الكريمة أحسن وصف لحالهم ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾عدلت الأبصار عن مقرّها من الدهشة والحيرة ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ يقول الفرّاء: إنهم جبنوا وجزع أكثرهم، وسبيل الجبان إذا اشتدّ خوفه أن ينتفخ سحره، والسحر: الرئة، فإذا انتفخت الرئة رفعت القلوب الى الحنجرة.

٤ ـ ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ والشيطان لا ينفك عن الإنسان، لا سيما عند الشدّة، فينسيه التدرّع بالصبر، ويجعله يسيء الظن بربّه، وقد يبادر إلى ما لا يحمد من الكلام.

والآية تشير إلى اختلاف الظنون، فالمؤمنون وإن بلغ بهم الخوف ما بلغ ـ وهو أمر خارج عن المقدور لا حيلة لهم في دفعه ـ إلاّ أن ظنهم بالله جلّ جلاله حسن، وظنهم إن حجب الله سبحانه عنهم النصر ـ لمصالح اقتضت ـ فإنّهم سيفوزون بالشهادة، وهي أعظم نصر يبلغه المسلم في حياته، وظنّ المنافقون أنّ النصر حليف الأحزاب، وأنّ نهاية الإسلام قد اقتربت.

٥ ـ ﴿وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ والمنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، والمرض المشار إليه في الآية هو الشك، وضعف الإيمان، فكان قولهم: ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾ قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب للخلاء؛ هذا والله الغرور.

٦ ـ ﴿وإذ قالت طائفة منهم﴾ وهم أصحاب عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وهم الذين انهزموا يوم أُحد فأرادوا أن يعيدوا الموقف، ويطعنوا المسلمين من خلف فقالوا: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾ إلى منازلكم في المدينة.

وفي ترك الموقف يلحقهم هوان ولوم، فأرادوا الرخصة **﴿ويستأذن فريق منهم النبيَّ﴾** متذرّعين **﴿أن بيوتنا عورة﴾** ليست بحريزة ولا حصينة، وأنها بمقربة من موقف العدو.

وكذّبهم سبحانه فقال: **﴿وما هي بعورة﴾** بل هي حصينة وبخلاف ما يدّعون، ولكنهم **﴿إن يريدون إلاّ فراراً﴾** هرباً من الجيش والقتال.

٧ ـ **﴿قل لن ينفعكم الفرار﴾** وعمر الإنسان مسجّل في اللوح المحفوظ، والهارب من ساحة الجهاد يبوء بالنار والعار، علماً أنّه لا يستطيع زيادة في عمره، ولا دفعاً لما قدّر له، فكم من مباشر غمرات الحرب، ويشهد المعارك، وأخيراً يلقى حتفه على فراشه، وكم من متحرّز يخشى أدنى سوء تكون منيّته القتل **﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ [آل عمران/ ١٥٤]**.

٨ ـ **﴿من ذا الذي يعصمكم من الله﴾** وينبغي للمسلم أن يعتصم بالله جلّ جلاله دون خلقه، فهو يكفيه؛ إنّ الجن والإنس لو اجتمعوا على الإساءة لأحد والله سبحانه يريد حمايته فلا يصلون إليه بسوء، واستدلّ على ذلك بنجاة إبراهيم عليه السلام من نمرود وهو الذي ملك الدنيا شرقاً وغرباً، ونجاة موسى عليه السلام من فرعون وهو هو في طغيانه وجبروته، وأمر عيسى عليه السلام ونجاته من اليهود أعجب من ذلك بكثير، كما انّك لو فكرت في نجاة الرسول الأعظم ﷺ من جبابرة قريش، وأذناب العرب، وطغاة اليهود، مع عزمهم جميعاً على قتله، وما حدث له ﷺ في ليلة خروجه إلى يثرب، ووقوفهم على باب بيته بأسيافهم يريدون الهجوم عليه، إنّ هذا يكفي شاهداً على أن من اعتصم بالله كفاه.

أما إذا انعكس الأمر، واعتصم الإنسان بمخلوق مثله فراراً من الخالق، فقد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

٩ ـ **﴿فأحبط أعمالهم﴾** أبطلها، لأنها لم تقع على الشكل المطلوب.

وهذا ما يجب أن يحذره المسلم أشدّ الحذر، ويحرص كل الحرص أن تكون أعماله صحيحة، على الوجه الذي أمره الله جلّ جلاله به، خالصة لوجهه، كما

يجب عليه الحفاظ عليها خشية أن تذهب بعوارض أخرى كالغيبة وغيرها.

١٠ ـ ﴿**ولقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة**﴾ والمسلم يجب أن يقتدي برسول الله ﷺ، ويسلك نهجه، ويعمل بأقواله وتعاليمه، فهو المثل الأعلى له، فالواجب عليه أن يترسّم خطاه في كل صغيرة وكبيرة.

١١ ـ ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب**﴾والمؤمن سواء كان معاصراً للرسول الأعظم ﷺ، أو ممن جاء بعده بقرون، يجب أن يوطّن نفسه على البلاء والمحن ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ **[العنكبوت/ ٢]** وما الأحزاب إلاّ بلاء ومحنة عظيمة أُمتحن بها المؤمنون الأولون، علماً أنّ رسول الله ﷺ كان قد أعلمهم قبل ذلك بزمن طويل ليوطّنوا أنفسهم على ذلك، ويزدادوا إيماناً بالله ورسوله، لأنّ توالي المعاجز يرسّخ العقيدة، ويثبّت قواعد الإيمان.

١٢ ـ ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ والآية الكريمة في نموذج أعلى للمسلمين، ومثلاً أسمى للاقتداء، لقد وفىٰ هؤلاء بما عاهدوا عليه الله جلّ جلاله من الدفاع عن دينه، وبذل النفس في نصرة أوليائه.

والآية الكريمة عند أكثر علماء التفسير في نفر من الهاشميين.

روى الشيخ الصدوق وجمهور أهل الحديث أن أمير المؤمنين عليه السلام قال ليهودي سأله مسائل كثيرة: ولقد كنت عاهدت الله عزّ وجل، ورسوله ﷺ، أنا، وعمي حمزة، وأخي جعفر، وابن عمي عبيدة، على أمر وفينا به لله عزّ وجلّ ولرسوله، فتقدّمني أصحابي وتخلّفت بعدهم لما أراد الله عزّ وجل، فأنزل الله فينا ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً**﴾[1] حمزة وجعفر وعبيدة، وأن المنتظر يا أخا اليهود وما بدلت تبديلاً.

١٣ ـ ﴿**ليجزي الصادقين بصدقهم**﴾ وما يُصاب به المسلمون من بلاء ونكبات، لا سيما ما كان فيها من أجل إحياء الدين، ونصرة شريعة سيّد المرسلين، فهم يعوّضون عليه أجراً عظيماً من الله سبحانه وتعالى، وجزاءً وافراً لا تحيط به الأقلام، ولا تدركه الأوهام، ثواباً منه تعالى على صبرهم وصدقهم.

---

(١) الخصال: ٣٣٦.

١٤ ـ ﴿ورد الذين كفروا بغيظهم﴾ وهنا تتجلّى العناية الإلهية في أروع صورها في هذا الموقف العظيم، والذي لم يكن منتظراً حسب مجرى الأحداث، ولا على صعيد المنظار العسكري، فهب أن أحد أبطالهم وزعمائهم قتل، وأن الأجواء المناخية لم تكن لصالحهم، فهذا كلّه غير مبرر للإنهزام، لا سيما وهم في أتم عدد وعدة، وقد جثموا على صدور المسلمين وحاصروهم أعظم حصار، وحتى بلغ بهم الخوف مبلغاً بلغت فيه القلوب الحناجر، لقد كان بإمكانهم أن ينصبوا جسراً على الخندق ويعبروا إليهم جميعاً، كما كان بإمكانهم مبادرات أخرى يسلكونها للقضاء عليهم، بل إنّ صمودهم في موقفهم يكفي في ازعاج المسلمين وتدمير معنوياتهم.

يجب على جميع المسلمين أن يعتبروا بهذا الموقف، ويتجهوا بمهماتهم وشدّاتهم إلى الله جلّ جلاله، ويعلموا أنّه بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأن النصر من عنده ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران/ ١٢٦].

نعود للآية:

١٥ ـ ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ والمفسرون يروون عن عبد الله بن مسعود ـ الصحابي المشهور ـ أنه كان يقول في أسباب نزول الآية: بعلي بن أبي طالب، وقتله عمرو بن عبد ود، والمعنى: أن الله جلّ جلاله كفى المسلمين ما كان يلزمهم من مباشرة القتال، ومقارعة الأبطال، بموقف علي المشرّف، لأنّه كان سبب هزيمة القوم.

٤ ـ قريظة

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب/ ٢٦].

وهذه حرب يهودية لا مبرر لها أبداً، إنَّ زعيمهم كعب بن أسد يقول لحُيي ابن أخطب لما حمله على نقض العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ وإعلان الحرب على المسلمين، والانضمام إلى صفوف الأحزاب: إنك امرؤ مشؤوم، وقد

عاهدت محمداً ولست بناقض عهد.، لأني لم أر منه إلاّ صدقاً ووفاءً[١].

ومع ذلك لم يزل به حتى حمله على نقض العهد، وإعلان الحرب في أحرج فترة تمر على المسلمين، فالأحزاب محيطة بالمدينة، ولم تبق جبهة لم تفتح على المسلمين عدا بني قريظة، وأخيراً فتحت بأعنف ما يكون، وعظم البلاء على المسلمين، واشتدّت بهم الحال، ولكنّ الله سبحانه لم يتخلّ عن عباده، لا سيما والأمر جدّي للغاية، فإمّا نصر الإسلام ورفع رايته خفّاقة، تسير قدماً، أو القضاء عليه قضاء أبدياً.

لقد مرّ عليك تجمع قريش والعرب واليهود ومحاصرتهم المدينة، ولم تشترك بنو قريظة في هذه الحرب رغم أنّهم يقطنون في ضاحية من ضواحي المدينة.

لقد سبق لهم عهد وحلف مع الرسول الأعظم ﷺ فبقوا ملتزمين به، فهم مقيمون في حصونهم لم يعاونوا أحد طرفي النزاع.

ولكن حُيي بن أخطب ـ الزعيم اليهودي المعروف بعداوته وكيده للإسلام والمسلمين، وصاحب الدور الأكبر في حرب الأحزاب ـ جاء إلى بني قريظة، فأوصد كعب دونه الباب، ورفض أن يستقبله، ولكنه استعمل كل الوسائل حتى دخل واجتمع به، فلم يزل به حتى نقض العهد وانضم إلى صفوف الأحزاب، وتعاظم الخطب على المسلمين.

وبعد النصر الذي هيأه الله جلّ جلاله للرسول الأعظم ﷺ، وانصرف أبو سفيان بجموعه، وأقبل رسول الله ﷺ وجمهور المسلمين المدينة، واللواء معقود، أراد أن يغتسل من الغبار، فناداه جبرائيل: عذيرك من محارب، والله ما وضعت الملائكة لامتها فكيف تضع لامتك، إنّ الله يأمرك أن لا تصلّي العصر إلاّ ببني قريظة، فإنّي متقدمك ومزلزل بهم حصنهم، إنّا كنا في آثار القوم نزجرهم زجراً حتى بلغوا حمراء الأسد[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٧١.

(٢) يريد جيش قريش عند منصرفهم الى مكة.

فخرج رسول الله ﷺ فاستقبله حارثة بن نعمان فقال له: ما الخبر يا حارثة؟

فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا دحية الكلبي ينادي في الناس: ألا لا يصلينّ العصر أحد إلاّ في بني قريظة.

فقال: ذاك جبرائيل، ادعوا لي علياً، فجاء علي عليه السلام، فقال له: ناد في الناس: لا يصلينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة.

فجاء أمير المؤمنين عليه السلام فنادى فيهم، فخرج الناس فبادروا إلى بني قريظة، وخرج رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب عليه السلام بين يديه يحمل الراية العظمى، وكان حُيي بن أخطب لما انهزمت قريش جاء فدخل حصن بني قريظة، فجاء أمير المؤمنين عليه السلام وأحاط بحصنهم، فأشرف عليهم كعب بن أسد من الحصن فجعل يشتمهم ويشتم رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ على حمار فاستقبله أمير المؤمنين عليه السلام فقال: بأبي وأمي يا رسول الله لا تدن من الحصن.

فقال رسول الله ﷺ: يا علي لعلّهم شتموني، إنّهم لو قد رأوني لأذلّهم الله؛ ثم دنا رسول الله ﷺ من حصنهم فقال: يا أخوة القردة والخنازير، وعبدة الطاغوت أتشتموني، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحهم[1].

ورواية الطبري: وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وقد كان حُيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أنّ رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم.

قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود إنّه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم.

---

(١) تفسير القمي: ٢/١٩٢.

قالوا: وما هنّ؟

قال: نبايع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونساؤكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة ابداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم هذه عليّ فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمّنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدنّ النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم.

قال: فإذا أبيتم هذه عليّ فإن الليلة ليلة السبت، وإنّه عسى أن يكون محمداً وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّة.

قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلاّ من علمت، فأصابه من المسخ ما لم يخف عليك.

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً[١].

وأبوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وطلبوا النزول على حكم حليفهم سعد بن معاذ[٢] ووافق النبي ﷺ على ذلك، فحكم سعد بقتل المقاتلة فنفذ فيهم.

نعود للآيات:

﴿**وأنزل الذين ظاهروهم**﴾ عاونوا المشركين من الأحزاب، ونقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ أن لا ينصروا عليه عدوّاً ﴿**من أهل الكتاب**﴾ هم بني قريظة ﴿**من صياصيهم**﴾ من حصونهم ﴿**وقذف في قلوبهم الرعب**﴾ ألقى في قلوبهم الخوف من النبي ﷺ وأصحابه ﴿**فريقاً تقتلون**﴾ منهم، عنى الرجال

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/٢٤٧.

(٢) زعيم الأوس، ومن أجلاء المسلمين وأعيانهم.

﴿**وتأسرون فريقاً**﴾ يعني الذراري والنساء ﴿**وأورثكم أرضهم**﴾ وأعطاكم أرضهم ﴿**وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها**﴾ وأورثكم أرضاً لم تطؤوها بأقدامكم بعد، وسيفتحها عليكم، وهي خيبر.

٦ ـ حُنين

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة/ ٢٥].

حُنين وادي كبير يبعد عن مكة المكرمة حدود ١٠٠ كيلومتراً.

وبعد فتح مكة تجمعت هوازن وعليها مالك بن عوف، وانضمّت إليهم ثقيف وبنو سعد بن بكر، وعلم رسول الله ﷺ بتجمّعهم فخرج لملاقاتهم، وجيشه اثنا عشر ألفاً، وهو أكبر جيش للإسلام في عهد الرسول ﷺ.

كان المشركون قد جعلوا مراكزهم خلف الجبال، فما أسرع أن زحفوا عليهم، فولى المسلمون منهزمين تاركين رسول الله ﷺ وسط المعركة، يحف به عشرة أبطال، تسعة من الهاشميين من بينهم أمير المؤمنين عليه السلام يضرب بسيفه قدماً، والعباس ينادي المنهزمين: يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة الشجرة.

والإمام عليه السلام كما هو مشهود له بالشجاعة عند الجميع، كذلك يملك التخطيط العسكري الدقيق، ففي يوم أُحد ركّز على بني عبد الدار حملة لواء المشركين فقتلهم جميعاً، ومن بينهم طلحة بن أبي طلحة كبش الكتيبة، وسقط اللواء، وانهزم المشركون، ثم حدث بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان، وفي يوم حُنين رغم انهزام المسلمين تمكّن من قتل جرول حامل راية المشركين وسقط اللواء، وانهزم المشركون، وجاء النصر من عند الله جلّ جلاله، وكسب المسلمون المعركة.

نعود للآيات:

﴿ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ سرّتكم وصرتم معجبين بكثرتكم، قال قتادة: وكان سبب انهزام المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى المسلمين: لن نُغلب اليوم عن قلّة، فانهزموا بعد ساعة، وكانوا اثني عشر الفاً **﴿فلم تغن عنكم شيئاً﴾** فلم يدفع عنكم كثرتكم سوءً **﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾** مع سعتها. والمراد: لم تجدوا في الأرض موضعاً للفرار **﴿ثم ولّيتم مدبرين﴾** منهزمين والمعنى: وليتموهم أدباركم وانهزمتم **﴿ثم أنزل الله سكينته﴾** رحمته التي تسكن إليها النفس، ويزول معها الخوف **﴿على رسوله وعلى المؤمنين﴾** حين رجعوا إليهم وقاتلوهم وقتلوهم **﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾** هم الملائكة، نزلوا يوم حُنين لتقوية قلوب المؤمنين وتشجيعهم، ولم يباشروا القتال يومئذٍ، ولم تباشر الملائكة القتال إلاّ في يوم بدر خاصة. **﴿وعذّب الذين كفروا﴾** بالقتل والأسر، وسلب الأموال والأولاد **﴿وذلك جزاء الكافرين﴾** ذلك العذاب جزاء الكافرين على كفرهم **﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾** ثم يقبل الله توبة من تاب عن الشرك، ورجع لطاعة الله والإسلام، وندم على ما فعل من القبيح **﴿والله غفور﴾** ستّار للعيوب **﴿رحيم﴾** بعباده.

واستميح منك العذر يا رسول الله على هذه الصفحات، فهي لا تفي بالغرض، وإن من حقوقك على كل مسلم له المام بالكتابة ان يبذل جهده في دراسة حياتك الكريمة، كما ان الواجب على كل قارىء مسلم ان يتعرّف على شخصيتك الكريمة.

وحسبي بهذه الاوراق ـ على قلّتها ـ أنها إن شاء الله تعالى تشد المسلم إلى انتهاج تعاليمك وما أمرت به.

خاتمة المطاف

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

نحن نعتقد أن الانبياء عليهم السلام هم صفوة الله وخيرته من خلقه، وحملة رسالاته، أرسلهم الله جل جلاله للبشرية معلمين ومنذرين ومبشرين، وهذا الكتاب قبس من حياتهم وسيرتهم، فاجهد أن تأخذ من هذه السير الغرّاء زادا لسفرك الطويل ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

الفهرس

الموضوع | الصفحة